موسوعة الخطب المنبرية

الدار الآخرة من الموت إلى الجنة و النار

لا غنى عنه للوعاظ و الدعاة و الخطباء





الدار الآخرة

من الموت إلى الجنة و النار

سلسة خطب الجمعة و العيدينِ و الدار الآخرة و علامات الساعة الصغرى و الكبرى

لاغنى عنه للوعاظ و الدعاة و الخطاب

المجموعة الثالثة

الجزء الثاني

تأليف

سعد يوسف محمود أبو عزيز



الخطبة الخامسة والستون:

اتقوا يومًا ترجعون فيه إلى الله

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فيقول الله تَعَالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

قال الإمام ابن كثير -رَحِمَهُ الله - في تفسيره لهذه الآية: «يعظ الله تَعَالى عِباده ويذكِّرهم زوال الدنيا وفناء ما فيها من الأموال وغيرها، وإتيان الآخرة والرجوع إليه تَعَالى، ومحاسبته تعالى خلقه على ما عملوا، ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر، ويحذرهم عقوبته، فقال: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾، وقد رُوي أن هذه الآية آخرُ آية نزلت من القرآن العظيم، عن

عبد الله بن عبَّاس قال: آخر شيء نزل من القرآن: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [1]» ا.هـ[2].

وقال الإمام القرطبيُّ -رَحِمَهُ الله - في تفسيره للآية الكريمة المتقدمة ما مختصره: «والآية وعظٌ لجميع النَّاس، وأمرٌ يخصّ كل إنسان... وجمهور العلماء على أن هذا اليوم المحذر منه هو يوم القيامة والحساب والتوفية.

وفي قوله: ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ مضاف محذوف، تقديره إلى حكم الله وفصل قضائه.

وفي هذه الآية نصّ على أن الثواب والعقاب متعلّق بكسب الاعمال، وهو ردٌّ على الجَبريَّة» ا.هـ[3].

عباد الله...

وهذا اليوم الَّذِي حذَّرنا الله منه، وصف ربُّنا - تبارك وتعالى - حال النَّاس فيه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١، ٢].

وبقوله سُبْحَانَهُ وتعالى: ﴿لاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [فاطر: ١٨].

قال الفضيل بن عياض -رَحِمَهُ الله - في تفسيره لقوله تَعَالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ هي المرأة تلقى ولدها يوم القيامة فتقول: يا بنى ألم يكن بطني لك وعاء؟ ألم يكن ثديى لك سقاء؟ ألم يكن حجري لك وطاء؟ فيقول: بلى يا أُمَّاه. فتقول يا بنىّ قَدْ أثقلتني ذنوبي فاحمل عنّى منها ذنبًا واحدًا! فيقول: إليك عنِّى يا أُمَّاه ! فإنى بذنبى عنك اليوم مشغول[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٤٤) نحوه، وأخرجه الطبري (٦٣١١، ٦٣١٢).

(٢) «صحيح تفسير ابن كثير» (١/ ٣١٢).

(٣) «تفسير القرطبي» (٣/ ٣٤٢).

(٤) «تفسير القرطبي».

وبقوله تَعَالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيبًا * السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴾ [المزمل: ١٧، ١٨].

وبقوله تَعَالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٣- ٣٧].

أيها المسلمون...

ولا ينفع الإنساء يومئذ إلَّا عمله بعد الإيمان بالله تَعَالى.

عَنْ جَابِرٍ رَضِي الله عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «طَائِرُ كُلِّ إِنْسَانٍ فِي عُنُقِهِ»[١].

قَالَ العلامة المناوي - رَحِمَهُ الله -: «قوله ﷺ: «طَائِرُ كُلِّ إِنْسَانٍ» أي: عمله، يعني كتاب عمله يحمله «فِي عُنُقِهِ» فسمّى عمل الإنسان الَّذِي يُعاقب عليه «طائرًا» وخصّ العُنق لأن اللزوم فيه أشدّ.

قَالَ في الفردوس: طائر الإنسان ما كتبه الله من خير وشرّ، فهو حظّه الَّذِي يلزم عنقه لا يفارقه، من قولك: طيّرت المال بين القوم فطار لفلان كذا أي: قرر له فصار له. ا.هـ[٢].

هذا، وقَدْ بيّن الحقُّ سُبْحَانَهُ وتَعَالى هذا في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

قَالَ الإمام القرطبي - رَحِمَهُ الله -: «قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ قال الزجاج: ذكر العنق عبارةٌ عن اللّزوم كلزوم القِلادة للعنق.

وقال ابن عباس: ﴿طَائِرَهُ ﴾ عمله وما قُدِّر عليه من خير وشرّ، وهو ملازمه أينما كان.

وقيل: أراد به التكليف، أي قدرناه إلزام الشرع، وهو بحيث لو أراد أن يفعل ما

---

(١) صحيح: رواه أحمد وغيره، وانظر «صحيح الجامع» (٣٩٠٥).
(٢) «فيض القدير» (٤/ ٣٤٦).

أمر به وينزجر عما زُجر به أمكنه ذلك.

﴿وَنُخْرِجُ لَـهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴾ يعنى كتاب طائره الذى في عنقه.

وقال: ﴿مَنشُورًا﴾ تعجيلا للبشرى بالحسنة والتوبيخ بالسّيئة.

وقَالَ أبو السّوار العدوى وقرأ هذه الآية: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ قال: هما نشرتان وَطيَّة، أما ما حييت يابن آدم فصحيفتك المنشورة فَأمِّل فيها ما شئت، فإذا مت طُوِيَت حَتَّى إذا بُعثت نُشِرت.

﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ قال الحسن: يقرأ الانسان كتابه أُمِّيًّا كان أو غير أُمِّي.

﴿كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي محاسبًا.

وقال بعض الصُّلحاء: هذا كتاب، لسانُك قَلَمه، وريقُك مِدَاده، وأعضاؤك قِرطاسه، أنت كنتَ الـمُمْلِي على حَفَظَتك، ما زِيدَ فيه ولا نُقص منه، ومتى أنكرت منه شيئًا يكون فيه الشَّاهد منك عليك». ا.هـ[1].

فاجتهد - أخا الإسلام - في فعل الطاعات والقُربات، واجتنب المعاصي والمحرَّمات، وإذا أسأتَ فأحسِن ﴿إِنَّ الـحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

وإيَّاك واتِّباع الهوى، ﴿وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

واعلم أن اللَّيْل والنهار مطيتان، فأحسِن السَّير عليهما، وإيَّاك وطول الأمل، فإن الموت يأتي بغتة.

أخي...

افتح مسامع قلبك للمواعظ، واعتبر بمن مضى، ولا تكن من الغافلين.

عباد الله...

وهذه قصة تقطر رحمة وحنانًا، ولنا فيه عظة:

رُوي عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّهُ مرّ ذات يوم في موضع مِن نواحي

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٠/ ٢٠٦، ٢٠٧) باختصار.

الكوفة، فإذا فتيان فساق قَدْ اجتمعوا يشربون وفيهم مُغن يقال له: زاذان، يضرب ويغني، وكان له صوت حسن.

فلما سمع ذلك عبدالله قَالَ: ما أحسن هذا الصوت لو كان بقراءة كتاب الله، وجعل الرداء على رأسه ومضى، فسمع زاذان قوله فقال: مَن كان هذا؟ قالوا: عبد الله ابن مسعود صاحب رسول الله ﷺ.

قَالَ: وأي شيء قَالَ؟

قالوا: إنه قَالَ: ما أحسن هذا الصوت لو كان بقراءة كتاب الله تَعَالى.

فقام وضرب بالعود على الأرض فكسره ثم أسرع فأدركه وجعل المنديل في عنق نفسه وجعل يبكي بين يدي عبد الله بن مسعود.

فاعتنقه عبد الله بن مسعود وجعل يبكي كل واحد منهما، ثم قال عبد الله: كيف لا أحب من قد أحبه الله عَزَّ وَجَلَّ؟ فتاب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ مِن ذنوبه ولازم عبد الله بن مسعود حتى تعلم القرآن وأخذ حظًّا مِن العلم حتى صار إماما في العلم[(١)].

أيُّهَا المسلم...

خلقك الله تَعَالى لعبادته فلا تلعب، وقسم لك رزقك فلا تتعب[(٢)]، واسمع إلى ابن عطاء الله السكندري - رَحِمَهُ الله - وهو يقول: «اجتهادُك فيما ضُمِنَ لك، مَعَ تقصيرك فيما طُلِبَ منك دليلٌ عَلَى انطِمَاس البصيرةِ منك».

وعن رجلٍ من جيران الفضيل بن عياض، قَالَ: كان الفضيل يقطع الطريق، فخرج ذات ليلة ليقطع الطريق، فَإِذَا هو بقافلة قَدْ انتهت إليه ليلًا، فقال بعضهم لبعضٍ: اعدلوا بنا إلى هَذِهِ القرية، فإن أمامنا رجلًا يقطع الطريق، يُقال له: الفضيل.

قَالَ: فسمع الفضيل فأرعد، فقال: يا قوم: أنا الفضيل جُوزوا، والله لأجتهدن أن لا أعصى الله أبدًا، فرجع عمَّا كان عليه.

فأضافهم في تلك الليلة، وقال: أنتم آمنون من الفضيل، وخرج يرتاد لهم علفًا،

(١) «كتاب التوابين» لابن قدامة (٢٠٧، ٢٠٨).
(٢) أي: لا تحمل همّ رزقك، فَيَدُك تعمل وقَلْبُك يتوكّل.

فسمع قارئًا يقرأ قول الله تَعَالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦]. قال: بلى، والله قَدْ آن، فكان هذا مبتدأ توبته[١].

وَلَـمَّا عاد الفضيلُ إلى ربّه تَعَالى بدأ يسابق الزمن، فأكبّ عَلَى العلم والعبادة وأصبح رأسًا فيهما، ومع هذا كان الخوف لا يفارقه.

قَالَ إبراهيم بن الأشعث: سمعت فضيلًا وهو يقرأ سورة مُحَمَّد ويبكي، ويردد هَذِهِ الآية: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]. وجعل يقول: ﴿وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ ويرددها، ويقول: إنْ بلوت أخبارنا فضحتنا وهتكت أستارنا، إن بلوت أخبارنا هلكنا وعذّبتنا.

أخا الإسلام...

ومِمَّا يُعينك عَلَى حُسن العمل، يَقينُك بوقوفك بين يدي الله، حين تنظر أيمنَ منك فلا ترى إلَّا ما قدَّمت، وتنظر أشأم منك فلا ترى إلَّا ما قدَّمت، وتنظر أمامك فلا ترى إلَّا النار تلقاء وَجهِك.

عباد الله...

إن الأعمال الصالحة سبب نجاتنا من الأهوال... أهوال الدُّنْيَا والآخرة.

فشمِّروا - عباد الله - عن ساعد الجدّ، واعلموا أن البِرَّ لا يَبْلَى، وأنَّ الذَّنب لا يُنْسَى، والديَّان لا يموت.

وعند الصباح يَحمَدُ القومُ السُّرى، وعند المهات يحمد القومُ التُّقى، وفَّقني الله تَعَالى وإيَّاكم لِما يُحبُّ ويَرضى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

***

---

(١) «وفيات الأعيان» (٤/ ٤٧) لابن خلكان.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومبدأ طريق السالكين، ورأس مال الفائزين، وأوّل أقدام المريدين، ومفتاح استقامة المائلين[1]: التوبة.

وهي واجبة عَلَى الفور، قال تَعَالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا**﴾ [التحريم: ٨].

ومعنى النصوح: الخالص لله تَعَالى، خاليًا عن الشوائب، مأخوذ من النّصح.

والتوبة: تَجُبُّ ما قَبلها.

فهيا - عباد الله - إلى التوبة النصوح، وها هو ربُّنا تبارك وتعالى يقول: ﴿**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى**﴾ [طه: ٨٢].

قال ابن كثير - رَحِمَهُ الله - في تفسيره لهذه الآية: «قوله تعالى: ﴿**تَابَ**﴾ أي: رجع عمّا كان فيه مِن كُفر أو شرك أو نِفاق أو معصيةٍ.

وقوله: ﴿**وَآمَنَ**﴾ أي: بقلبه ﴿**وَعَمِلَ صَالِحًا**﴾ أي: بجوارحه.

وقوله: ﴿**ثُمَّ اهْتَدَى**﴾ عن ابن عباس: أي ثم لم يُشَكِّك.

وقال غير واحدٍ: أي: استقام على السُّنة والجماعة. وقال سفيان الثوري: أي: علم أن لهذا ثوابًا.

و﴿**ثُمَّ**﴾ هاهنا لترتيب الخبر على الخبر، كقوله: ﴿**ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ**﴾ [البلد: ١٧]» ا.هـ[2].

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٢).

(٢) «صحيح تفسير ابن كثير»(٣/ ١٢٤).

ولله دَرُّ القائل:

يـا نفسُ تُوبـي فَـإنَّ الَموتَ قَدْ حَانَا ... واعْـصِ الهَـوى فَالهَـوى مَازال فَـتَّانا

أمَـا تَـرَينَ المَـنَايَا كَـيف تَلقُطُـنَا ... لَقطًـا فَـتُلحقُ أُخـرانَا بأُولانَـا

في كُـل يَـومٍ لَـنَا مَـيتٌ نُـشَيِّعُه ... نَـرَى بمَـصرعهِ آثـارَ مَـوتَانَا

يـا نَفسُ مَا لـي وللأموالِ أكنزُها؟ ... خَلْفـي وأخـرجُ مـن دُنـيايَ عُـريانَا

أبَعْـدَ خَمْـسِين قَـدْ قَـضَيْتُها لِعـبًا ... قَـدْ آن أن تَقـصُري قَـدْ آن قَـدْ آنـا

مَـا بَالُـنَا نَتَعَامَـى عَـنْ مَـصائِرنَا؟ ... نَنْـسَى بغَفلِتـنَا مَـن لـيس يَنْـسانا

نَـزدَادُ حِرصًـا وهـذا الدَّهـرُ يَزجُرنا ... كـأنَّ زَاجِـرنا بالحِـرص أغْـرانَا

أيـنَ المُلـوك وأبـناءُ المُلُـوك ومَـن ... كانـت تخِـرّ لَـهُ الأذْقَـانُ إذْعَانَـا

صَاحَت بهِم حَادِثاتُ الدهر فَانقَلَبُوا ... مُـستَبدلينَ مِـن الأوطـان أوطانـا

خَلَّـوا مَـدَائن كـان العِـزُّ مَفْرَشُـهَا ... واستُفْرِشُـوا حُفُـراً غُـبراً وَقِـيعانَا

يـا رَاكـضاً في مَـيَادين الهـوى مَـرِحًا ... ورَافِـلاً في ثِـيَاب الغـيِّ نَـشْوَانَا

مَـضَى الـزَّمانُ وَوَلَّـى العُمْـرُ في لَعِـبٍ ... يكفـيكَ مـا قَـدْ مَـضَى قَـدْ كَانَ ما كَانَا

اللَّهُمَّ تُبْ علينا لنتوب، وطهِّرنا لنطهر

آمين... آمين... آمين

وآخر دعوانا أن الحَمْد لله رَبِّ العالمين

الخطبة السادسة والستون:

رُسُلُ الموت

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فإن للموت علامات وأمارات تسبقه.

قال تَعَالَى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ [البقرة: ١٣٣].

قال الإمام القرطبيُّ -رَحِمَهُ الله -: «ومعنى ﴿حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ أي: مقدِّماته وأسبابه، وإلا فلو حضر الموت لما أمكن أن يقول شيئًا» ا.هـ.

وقال تَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾

قال القرطبيُّ: حضور الموت: أسبابه، ومتى حضر السّبب كنَّت العرب عن المسبب، قال شاعرهم:

يـا أيُّهَـا الـراكب المزجـي مطيّـته سـائل بـني أسَـد مـا هَـذِهِ الـصّوتُ

وقل لهـم بـادروا بالعـذر والتمـسوا قَـولاً يـبرّئكم إنـي أنـا المـوت

وقال تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

ومِمَّا يُروى في الإسرائيليات التي لا تُصدّق ولا تُكَذّب: «أن يعقوب عليه السلام قال لملك الموت: أمَّا لك رَسُول تقدّمه بين يديك ليكون النَّاس عَلَى حذر منك؟ قال: نعم، لي والله رسلٌ كثيرة من العلل، والأمراض، والشَّيب، والهموم، وتغيّر السمع والبصر، فإذا لم يتذكّر مَن نزل به ذَلِكَ ولم يتب، إذا قبضتُه ناديته: ألم أُقدّم لك رسولًا بعد رَسُول، ونذيرًا بعد نذير، فأنا الرسول الَّذِي ليس بعدي رَسُول، وأنا النذير الَّذِي ليس بعدي نذير».

عباد الله...

وهذا الأثر له شواهد صحيحة من القرآن والسُّنة:

(١) قال تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٦، ٣٧].

قَالَ العلامة ابن كثير - رَحِمَهُ الله - في تفسره: «﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ أي: أوما عشتم في الدنيا أعمارًا لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به في مُدَّة عُمُركم؟

قَالَ ابنُ عبَّاس رَضِيَ الله عَنْهُمَا: يقول: العُمُر الذي أعْذر الله لابن آدم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ أربعون سنة.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «أَعْذَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى

امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ حَتَّى بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً»[١].

وعنه أيضًا رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: «**أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ سِتِّينَ إِلَى سَبْعِينَ وَأَقَلُّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ**»[٢].

وقَدْ ثبت في «الصحيح»[٣]: أنَّ رَسُول الله ﷺ عاش ثلاثًا وستين سنة، وقيل: ستين، وقيل: خمسًا وستين، والمشهور الأوّل. والله أعلم.

وقوله تَعَالى: ﴿**وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ**﴾ قَالَ عددٌ من العلماء: يعني: الشَّيب، وقال السُّدِّيُّ وعبد الرَّحمن بن زيد بن أسلم: يعني به رَسُول الله ﷺ، وقرأ ابنُ زيد: ﴿**هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَى**﴾ [النجم: ٥٦]، وهذا هو الصَّحيح عن قتادة، قَالَ: احتجّ عليهم بالعُمُر والرُّسُل، وهذا اختيار ابن جرير، وهو الأظهر.

وقوله تَعَالى: ﴿**فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ**﴾ أي: فذوقوا عذاب النار جزاءً عَلَى مخالفتكم للأنبياء في مدّة أعماركم، فما لكم اليوم ناصرٌ يُنقذكم مِمَّا أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال» ا.هـ[٤].

(٢) وقال تَعَالى: ﴿**وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ**﴾ [الأحقاف: ١٥، ١٦].

قَالَ ابن كثير - رَحِمَهُ الله - في تفسيره لهاتين الآيتين: «وهذا فيه إرشادٌ لمن بلغ الأربعين أن يُجدِّد التوبة والإنابة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ويعزم عليها» ا.هـ[٥].

وقال مسروق - رَحِمَهُ الله -: «إذا أتتك الأربعون فخذ حِذرك».

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٩).

(٢) إسناده حسن.

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٦٦).

(٤) «صحيح تفسير ابن كثير» (٣/ ٦٤٦) باختصار.

(٥) «صحيح تفسير ابن كثير» (٤/ ١٩٩).

وقال **النَّخعيّ** - رَحِمَهُ الله -: «كان يُقال لصاحب الأربعين: احتفظ بنفسك».

وكان كثيرٌ من السَّلف إذا بلغ الأربعين تفرّغ للعبادة.

وقال **عمر بن عبد العزيز**: تمّت حُجة الله عَلَى ابن الأربعين، فمات لها.

ورأى في منامه قائلًا يقول له:

إذا ما أتتك الأربعون فعندها ... فاخْشَ الإله وكُن للموت حذارا

ورحمه الله مَن قَالَ:

وإذا تكامل للفتى من عُمُره ... خمسون وهو إلى التُّقى لا يَجنَحُ

عَكَفت عليه المخزياتُ فما له ... متأخّر عنها ولا مُتَزَحزِحُ

وإذا رأى الشيطانُ غرَّة وجْهِه ... حَيّا وقال: فديتُ مَن لا يفلحُ

وكتب زرُّ بنُ حُبيش إلى الخليفة عبد الملك بن مروان: «لا يطمعَنَّك في طول الحياة ما ترى من صحّة بَدَنك، واذكر قَول القائل:

إذا الرجالُ وَلَدت أولادُها ... وبَلَيْت مِن كِبَر أجْسَادُها

وجعلت أسقامُها تعتادُها ... تلك زروعٌ قَدْ دَنَا حَصَادُها

فلما قرأ عبد الملك بن مروان الكتاب، بكى حَتَّى بلّ طرف ثوبه»[١].

عباد الله...

وقَدْ حُكي أن أحد الوعّاظ، ووقف يومًا واعظًا، فنظر إلى الشيوخ ثم قَالَ:

يا معشر الشيوخ... ماذا ينتظر الزرعُ إذا هاج ثم أصبح مُصفرًّا؟

فقالوا: الحصاد.

فقال: فاستعدوا فقد دنا وقت الحصاد - يعني الموت.

ثم التفت إلى الشَّباب فقال: وأنتم يا معشر الشباب، أما رأيتم زرعًا قَدْ مات قبل أن يصل إلى وقت حصاده؟

(١) «أحاسن المحاسن».

فاستعدوا - عباد الله - للقاء الله، واسمعوا إلى صوت يحيى بن معاذ وهو يقول لنا: «العقلاء ثلاثة: مَن ترك الدُّنْيَا قبل أن تتركه، ومن بَنى قبره قبل أن يدخله، ومَن أحبّ الله قبل أن يلقاه».

اللَّهُمَّ اجعلنا مِمَّن يُبادِرُ الفَوتَ، ويُراقِبُ الموتَ، ويتأهّب للرِّحلةِ قبل المات، وينتفع بما سَمِع مِن العظات بمنّه وكرمه.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فيقول الإمام **أبو حامد الغزالي** -رَحِمَهُ الله -: «النَّاس إما منهمك في الدُّنْيَا مُكبٌّ عَلَى غرورها محبٌّ لشهواتها، وإما تائب مبتدئ، أَوْ عارف منته.

فأما المنهمك: فلا يذكر الموت، ويغفل قلبه لا محالة عنه، وإن ذكره فيذكره للتأسّف عَلَى دنياه ويشتغل بمذمته، وهذا يزيده ذِكر الموت من الله بُعدًا.

وأما التائب: فإنه يكثر من ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية فيفي بتمام التوبة، وربما يكره الموت خيفة من أن يختطفه قبل تمام التوبة وقبل إصلاح الزاد، وهو معذور في كراهة الموت ولا يدخل هذا تحت قوله ﷺ: «**مَن كره لقاء الله كره الله لقاءه**» فإن هذا ليس يكره الموت ولقاء الله وإنما يخاف فوت لقائه لقصوره وتقصيره، وهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلًا بالاستعداد للقائه عَلَى وجه يرضاه.

وأما العارف: فإنه يذكر الموت دائمًا، لأَنَّهُ موعد لقائه لحبيبه، والمحبّ لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب، وهذا في غالب الأمر يستبطئ مجيء الموت ويحب مجيئه ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين.

قال حذيفة لَـمَّا حضرته الوفاة: «حبيب جاء عَلَى فاقة لا أفلح مَن ندم، اللَّهُمَّ إن كنت تعلم أن الفقر أحبّ إليّ من الغنى، والسقم أحبّ إليّ من الصحة، والموت أحبّ إليّ من العيش فسهِّل عليَّ الموت حَتَّى ألقاك».

فالتائب معذور في كراهة الموت، وهذا معذور في حب الموت وتمنّيه، وأعلى منهما رتبة: مَن فوَّض أمره إلى الله تَعَالى فصار لا يختار لنفسه موتًا ولا حياة، بل يكون أحبّ الأشياء إليه أحبها إلى مولاه، فهذا قَدْ انتهى بفرط الحبّ والولاء إلى مقام التسليم والرضا، وهو الغاية والمنهى» ا.هـ[1].

ولله دَرُّ الحسن إذ يقول: «فضح الموت الدُّنْيَا فلم يترك لذي لبٍّ فرحًا».

❁❁❁❁❁

---

(١) «الإحياء» (٤/ ٤٧٧).

الخطبة السابعة والستون:

اعرف نفسك

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فعن ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ أَوِ اخْتَالَ فِي مِشْيَتِهِ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ»[١].

عباد الله...

إن الكِبرَ في الإنسان ناتج عن داء دفين، وأسباب هذا الدَّاء كثيرة، منها نسيان الإنسان مبدأه ومنتهاه.

---

(١) **صحيح**: رواه الطبراني في «الكبير»، وصححه الألباني في «السلسة الصحيحة» (٥٤٣).

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا * وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات: ٢٠- ٢٨].

قَالَ الحافظ ابن كثير - رَحِمَهُ الله - في تفسيره لهذه الآيات ما مختصره: «قَالَ اللهُ تَعَالى ممتنًا على خلقه ومحتجًا على الإعادة بالبَدَاءة: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾؟ أي: ضعيف حقير بالنسبة إلى قُدرَة الباريْ عَزَّ وَجَلَّ. ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ يعني: جمعناه في الرّحِم، وهو قرار الماء من الرجل والمرأة، والرحم معد لذلك، حافظ لما أودع فيه من الماء.

وقوله: ﴿إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ يعنى: إلى مدة معينة من ستة أشهر أو تسعة أشهر؛ ولهذا قال: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

ثم قال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ قال ابن عباس: ﴿كِفَاتًا﴾ كنًّا. وقال مجاهد: يُكَفتُ الميِّت فلا يُرَى منه شيء. وقال الشعبي: بطنها لأمواتكم، وظهرها لأحيائكم» ا.هـ[(١)].

عباد الله...

إن الإنسان سرّ الله في أرضه، لذا يقول أحد الحكماء عن الإنسان:

دواؤك فيك وما تبصر	وداؤك منك وما تشعر
وأنت الكتاب المبين الذي	بأحرفه يظهر المضمر
وتزعم أنك جرم صغير وفيك	انطوى العالم الأكبر

﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٥، ٦].

فماذا كان من الإنسان بعد ذَلِكَ؟

قف - أخي - وقفة تدبّر وإعمال فكر في هذا النصّ المبين: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ٤].

---

(١) «مختصر ابن كثير» (٣/ ٦٣٢) ط. المكتبة التوفيقية.

يقول علماء اللغة: إن «إذ» حرف يفيد المفاجأة، فهو بذلك يدل عَلَى أن خروج الإنسان عن واجبه نحو الله يعتبر أمرًا غير مألوف، فما كان ينبغي من الَّذِي خُلق من نطفة مهينة أن يفاجئ بالخصومة المبينة، والخصومة لمن؟ لخالقه ورازقه ومنشئه.

يا مدعي الكبر إعجابًا بصورته ... انظر خلاك فإن النتن تثريب

لو فكر الناس فيما في بطونهم ... لم يدع الكبر شبان ولا شيب

يا ابن التراب ومأكول التراب غدًا ... أقصر فإنك مأكول ومشروب

فواعجبًا للمتكبّر، أنف في السماء، وإست في الماء.

العلم الحديث، ونشأة الإنسان:

وإليكم - عباد الله - ما قاله العلم الحديث عن نشأة الإنسان.

قَالَ الأستاذ/ أحمد حسين في كتابه «الطاقة الإنسانية» في فصل تحدّث فيه عن نشأة الإنسان، وعن الأسرار الإلهية البالغة التي احتوى عليها خلقه:

ينشأ الإنسان منذ كان إنسانًا كأي حيوان آخر: من بويضة يفرزها مبيض الأنثى الذي يوجد به حوالي (٣٠٠,٠٠٠) بويضة، تصل منها أربعمائة إلى مرحلة النضج، وتتناهى هذه البويضة في الصغر إلى حد أن عشرين مليون بويضة لا يزيد وزنها على أوقية!!

أما الحيوان اللازم لإخصاب البويضة فإن حجمه لا يزيد على $\frac{١}{٨٥٠}$ من البويضة، وقد قرب لنا عالم بيولوجي أمريكي وهو (هـ. مولر) نسبة حجم الحيوان المنوي إلى البويضة، ونسبة الاثنين إلى الأحجام المألوفة على الوجه التالي:

لو أنك جمعت بويضات جميع البشر البالغ عددها (وقت كتابة العالم لكتابه) بليونا ومائتي ألف بويضة، لما شغلت أكثر من $\frac{٥}{٨}$ من الجالون.

أما نفس العدد من الحيوانات المنوية فحجمها لا يزيد على نصف قرص من الأسبرين!! والمعروف أن البليون: ألف مليون.

التلقيح:

ويمضي العلم في كشف هذه الأسرار فيقول:

« وتبدأ البويضة رحلتها من مبيض الأنثى لتقابل الحيوان المنوي المنتظر لإخصابها في وقت الحيض، حيث ينفجر الكيس المشتمل على البويضة، ثم تبرز البويضة في غشاء بوق فالوب، فتنقلها الأهداب المتحركة للغشاء (السيليا) إلى داخل الرحم ».

في هذه المرحلة تكون نواة البويضة قد تعرضت لتغير هام، إذ تكون قد قذفت بنصف مادتها، أو بعبارة أخرى كل كروموزوم، وعندئذ يخترق الحيوان المنوي - الذي يكون بدوره قد فقد نصف كروموزوماته - أسطح البويضة، ويتحد القسم الباقي من كروموزوماته بما بقي من كروموزومات، مكونين بذلك مخلوقًا جديدًا مؤلفًا من خلية واحدة، طفحت فوق مخاط المهبل.

وليست هذه الخلية الجديدة سوى نقطة من الهلام، كأي خلية أخرى ومع ذلك، فإنها تختلف كل الاختلاف عن أبويها.

إن فيها صِفات الأم وفيها صفات الأب، بل فيها كل الأمراض الوارثية للزوجين وأسلافهما، ومع ذلك فهي شيء مستقل الشخصية كل الاستقلال عن الأبوين.

هذه الخلية الميكروسكوبية الأولى: هي الإنسان الخلية، إنها كتاب الكون بكل ما خط في هذا الكتاب من أقسام وأبواب وفصول وصفحات وسطور وكلمات وحروف.

وحسبنا أن نتابع تطور هذه الخلية حتى تكون بشرًا سويًّا، ليتحقق لنا مصداق ذلك. إذ أن من الخلية الأولى تبدأ رحلة الإنسان.

لو فرضنا أن هذا النمو استمر بهذه النسبة عشرين سنة أخرى، لأنتج حجمًا أضخم من المجموعة الشمسية، أي: جسمًا قطره ملايين الأميال، ولو ظل يتكاثر بنفس النسبة بضع عشرات أخرى من السنين لزاد على المجرات حجمًا، ولزحم الكون الذي نعرفه، ولكن الحياة لا تمضي في النمو على هذه الوتيرة، فهي لا تلبث أن تقف بمجرد وصولها إلى حد وصورة معينين.

أشكال الخلايا المختلفة:

انقسمت هذه الخلية الأولى لتكون (٢٦) مليون خلية، وكل خلية من هذه الخلايا تقوم بدور يختلف عن دور كل خلية أخرى، وتتشكل تبعا لذلك تشكلا خاصًا يمكنها من أداء دورها الخاص.

كيف أن هذه الخلية الأولى التي لا يستطيع الفحص الدقيق أن يفرق بينها وبين خلية السمكة الأولى، أو الخلية الأولى لأي حيوان، تبدأ عند مرحلة معينة في سلم النمو، فيتحول شكلها بحيث تصبح مثمنة أو نجمية أو خيطية أو مستديرة، أو على شكل البسكويت، أو المكعبات أو العصى أو العناكب، أو على شكل القوس أو متفرعة كالشجرة.

فكيف تفرز هذه الخلايا أسمنتا لتربط، أو سائلا ليتجول فيه بحرية أو تغير مادتها لتصبح غضروفية، أو جيرية لتكون عظاما، أو تمعن في الصلابة لتكون ميناء الأسنان، ويتحول بعضها إلى زجاج شفاف، والبعض يصبح معتما كالحجر، بعضها لا لون له، ونوع أحمر وآخر أسود، خلايا تغص بالتفاعلات الكيميائية الناثرة، كما لو كانت مصانع وخلايا خامدة، كما لو كانت ميتة، خلايا تمثل آلات الجر الميكانيكي، وخلايا تقوم بدور الدعائم التي تدعم أي بنيان، البعض يصبح نظاما لإعطاء الإشارات الكهربائية، والبعض جهاز للإسعاف والنجدة، وما من خلية من ملايين الملايين هذه إلا وتعد نفسها بالحجم المطلوب في الوقت المحدد، والمكان الواجب أن تكون فيه لأداء الوظيفة المقررة في العضو الذي لن يستعمل إلا بعد فترة معينة، وفي ظروف معينة.

إنها تعمل في الظلام لإنتاج الإبصار الذي يعمل في النور.

إنها تعمل في صمت جهاز السمع الذي يتأثر بالأمواج الصوتية.

إنها خلايا عمياء لا تعرف فوقا ولا تحتا.

ومع ذلك، فإن خلية الأعصاب تعرف طريقها نحو خلية اللمس في نهاية الأصبع لتتصل بها!! إن كل شيء يبدو كما لو كانت كل خلية تنطوي على مبدأ يلهمها المعرفة اللازمة لتنفيذ تصميم معين على ما يقول (شرنجتون).

بناء الجسم عند (كاريل):

أما (كاريل) فيقرب لنا صورة ما يحدث في بناء الجسم، بأن يطلب منا أن نتخيل (طوبة) واحدة تسرع في بناء منزل بمفردها، فتكون من نفسها قوالب أخرى من الطين بالألوف والملايين، وهذه القوالب لا تنتظر رسومات المهندس المعماري، أو مجيء البنائين والفعلة، ولكنها ترص نفسها بنفسها صانعة البلاط، ومكونة الجدران، ومتحولة إلى أبواب ونوافذ وزجاج لهذه النوافذ، وألواح للسقف، وفحم للتدفئة، وبناء المطبخ والحمام.

وينمو العضو بوسائل أشبه بتلك، إنه يوجد بواسطة خلايا عالمة سلفا بالبناء الذي يجب أن تنسقه في المستقبل، فتصنع من المواد الموجودة في بلازما الدم، مواد البناء، بل وتصنع العمال أنفسهم، واستطرد حديث العلم حتى وصل بنا إلى تكوين العين، فما هو ذلك الجهاز الدقيق الذي يبصر به الإنسان الكائنات المرئية؟!

اسمع - يا أخي - إلى هذا العجب العجيب، واسجد لله في محراب الشكر والعرفان والخضوع والولاء، هو الذي أحسن كل شيء خلقه، إنه صنع الله وإتقانه.

تكوين العين:

يقول العلماء الكونيون: من مخ الجنين ينشأ برعم صغير، هو الذي يتكون منه الجزء الأكبر من العين، ومن الجلد الذي يغطي هذا البرعم، ينشأ القسم الثاني، هكذا تتعاون خلايا المخ والجلد لتكوين كرة العين المقبلة!

وكرة العين ليست في طبيعتها إلا آلة تصوير صغيرة (إذا جاز لنا أن نعكس التشبيه)، وصغر آلة تصوير العين، هو آية كمالها ودقتها، والدقة التشريحية هنا ضرورية لإمكان أداء وظيفة الإبصار بأكثر من ضرورتها في أي عضو آخر.

إن العين تكون في الظلام، ومع ذلك فكل شيء فيها معد لاستقبال النور، ويوم أن تتعرض للنور، فإن أشعته سوف تخترق عدسة أعدت لذلك في المكان الذي يجب أن تكون فيه، وبالشكل اللازم لتحقيق الغرض المطلوب، وهو الإبصار، فهي (أي العدسة) محدبة من الوجهين، وهي معدة بمنتهى الدقة لجمع أشعة الضوء في البعد الواجب عن لوح الخلايا الحساسة للصورة شبكية العين في المؤخر.

تدرج عدسة العين:

وقد صنعت هذه العدسة المحدبة الوجهين من خلايا الجلد، ولكن بعد أن تحورت لتكون زجاجًا شفافًا، وأعدت بحيث يكون بقدرتها أن تركز الضوء عبر بؤرتها، هذا الضوء الذي لن تتعرض له العين إلا بعد بضعة أشهر!

وأمام هذه العدسة يقوم حاجز على شكل قرص مستدير للضبط (القزحية) كما هو الشأن في أي آلة تصوير أو ميكرسكوب، وذلك ليضبط اتساع حزمة الضوء الواجبة لإتمام عملية الإبصار، فحيث يقل الضوء، يجب أن تتسع هذه الحدقة لتسمح بمرور حزمة ضوئية أكبر، إما إذا زاد الضوء واشتد فإن حزمة صغيرة منه تكفي لأداء الغرض، ومن هنا تضيق الحدقة.

وفي آلة التصوير أو المجهر، يتم ضبط هذا القرص بواسطة المراقب أو العامل على الآلة؟ أما في العين البشرية، فإن ذلك يتم بطريقة آلية بحتة كأثر مباشر لشدة ضوء الشيء المراد رؤيته.

ولأمر ما شاء الله أن يجعل هذه القزحية العينية ذات ألوان مختلفة تتدرج من الأسود إلى الأزرق، فالعسلي، تبعا للون قزحية الأبوين، وكلاهما مليء بسائل شفاف لا يعدو أن يكون ماء، ولكنه محفوظ في درجة ضغط معينة، ليحفظ على كرة العين شكلها الذي يجب أن تكون فيه.

وتكمل الغرفة الأمامية بطبقة من الجلد التي تحولت بدورها إلى زجاج شفاف، لتكون نافذة للعين، وهي ما نطلق عليها اسم القرنية، وهذه القرنية خالية تماما من الأوعية الدموية، حتى لا يلقى الدم ظله داخل العين، فتحجب بعض عناصر الصورة.

ويغطي هذا اللوح من الزجاج الشفاف الحي، بطبقة من الدموع المائية التي تتميز بقوة كيمائية خاصة لقتل أي جرثومة يمكن أن تلهب العين أو تؤذيها.

وإذا كان من خصائص جلد الإنسان أن ينطوي على مظاهر الإحساس الأربعة، (من حرارة، وبرودة، وضغط، وألم) فإن هذه القطعة من الجلد الشفاف التي تكون نافذة العين، ليس فيها إلا وجه واحد من وجوه الإحساس، ذلك هو الإحساس بالألم، فلمسها يحدث الألم، لأنها يجب ألا تلمس بحال من الأحوال.

ويتجمع الجلد فوق النافذة وتحتها مؤلفًا أجفانًا متحركة، وهي جافة من الخارج كأي جلد عادي، ولكنها رطبة من الداخل، لكي يكون باستطاعتها دائمًا أن تنظف النافذة من ذرات الأتربة، أو أي جسم غريب قد يقع عليها، وذلك بإمرار طبقة من الدموع المائية فوقها.

صنع الله الذي أتقن كل شيء:

كل ذلك ونحن لم نصل بعد للبناء الرئيسي للعين الذي يقع في مؤخرتها ونعني به شبكية العين، هذه اللوحة الحساسة للضوء، والتي يسجل على صفحتها ملايين الملايين من الصور مدى الحياة كلها بدون حاجة إلى تغيير اللوح كل صباح أو مساء، بل بدون تغيير على الإطلاق، فقد يبدأ الطفل عملية البصر، إلى أن يكون شيخا هرما قادرًا على الإبصار.

ومع ذلك، فهذه اللوحة الحساسة لا تنفك تقوم بعملها ليلاً ونهارًا بغير انقطاع، فتتلقى مختلف الصور من كل لون وطراز، وتبرق بها إلى المخ، وتنظم هذه الآلة التصوير بطريقة آلية أبعاد بؤرتها تبعًا للصورة التي يهمها التقاطها، فتارة تكون العدسات أقوى أو أضعف حسب الحاجة فضلا عن أنها تحرك نفسها بطريقة تلقائية في اتجاه المنظور، فإن أجهزة العين تلاحقه لتقع الصورة دائمًا على أحسن نقطة للرؤية في الشبكية.

سبحان المبدع:

وأخيرًا فإن آلة التصوير هذه تصمم نفسها كما لو كانت تعمل مقدما على حفظ ذاتها، فلو هددها أي خطر، ففي أقل من جزء من الثانية تنطبق الأجفان على بعضها، لتحمي نافذة العين الشفافة!! وفي نفس الوقت الذي تكون فيه كرة العين آخذة في التكوين، فإن أجزاء أخرى من المخ والجلد تكون منشغلة بإعداد كأس العين الذي ستستقر فيه، ولا يكاد البناءان يتكاملان حتى تنفصل كرة العين من الأصل الذي تكونت منه لتستقر في كأسها البصري الجديد.

وفي غضون بضعة أسابيع ينشأ في قاع هذا الكأس البصري: حبل مؤلف من ملايين الألياف العصبية، التي تربط بين المخ والخلايا العصبية في العين.

وينتشر على شبكية العين (٣٧) مليون عنصر مستقل، تعمل كلها لجعل عملية الإبصار ممكنة، وتظل هذه العناصر والأعصاب التي تنقل المؤثرات المختلفة إلى المخ تتركز وتتركز حتى يصبح عددها لا يتجاوز المليون إلا بقليل، وما من عصب في هذا المليون إلا ويعرف مكانه إلى مجمع الأعصاب المناسب، وهي هذه المحطات التي توصل كل منها إلى محطة أبعد منها.

والمخ في حقيقته هو غابة كثيفة متشابكة في محطات التبادل والخطوط الفرعية الذاهبة إلى هنا وهناك؟!

وليست العين في نهاية الأمر سوى حشد من هذه الخلايا الهلامية بتأليف باقي أجزاء الجسم الأخرى، ولكنها نظمت نفسها كما لو كانت هي التي تعمل متعاونة باتفاق مشترك على تنفيذ الخطة الموضوعة، حتى إذا تم تكوين العين فإن هذه الخلايا التي ظلت تعمل وتنقسم وتتخصص.

تقف فجأة عند حد ما أنجزته، فلا تزيد عليه، وتقع في سبات نسبي، فلا تزيد أو تتكاثر أو تتغير.

وقد يتصور القارئ ذلك الذي وصفناه ضربا من الخيال الفج، أو القصص البارع، ومع ذلك فإن هذا الذي قلناه هو حق لا مرية فيه، إنه الواقع العجيب الذي يحدث إبان تكوين أعضاء الإنسان وأجهزته المختلفة.

فسبحان ربي العظيم!!

القلب ووظيفته:

يحدثنا القرآن الكريم، عن القلب على أنه مركز الوعي والإدراك والفهم العميق، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧].

وقوله جل شأنه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا...﴾ [الحج: ٤٦].

وهناك حديث مادي للعلم يشرح لنا فيه (القلب) على أنه مضخة ماصة كابسة، ومع ذلك فلا يكاد العلم يصف لنا هذه المضخة حتى يتملكنا العجب مما يتملكنا، لو

نصفه بمستودع الإلهام والحكمة والعواطف، إجلالًا وإكبارًا وتعظيمًا لله، الذي أحسن كل شيء خلقه، إنه صنع الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديرًا.

فقد ثبت بالتشريح ووصف الدور الذي يؤديه القلب للإبقاء على الحياة ما يفوق كل تصور وإدراك.

إن القلب يمثل الحركة الدائمة، ما بقى الإنسان حيا، فهو الذي يدق، يدق في النوم مثل ما في اليقظة، وفي المرض مثل ما في الصحة وهذه (الدقة) تعني: أن القلب ذلك الجهاز العجيب يقوم بوظيفته الكبرى للإبقاء على حياة الإنسان، فيضخ الدم في الشرايين ويستجلبه من الأوردة.

فلو عاش الإنسان ستين عامًا أو تسعين - أو أكثر من ذلك أو أقل - فإن قلبه لا يتوقف عن الضخ دقيقة واحدة، بل ولا لبضع ثوان، ومعنى ذلك فإن القلب إذا كان يضخ في المتوسط سبعين ضخة، (أو دقة) في الدقيقة فإن ما يضخه (أو يدقه) في العام (٣٧) مليون دقة، فلو أن رجلاً عاش إلى السبعين من عمره، فإن ذلك يعني أن قلبه قد دق، أو بالأحرى قد ضخ الدم (٢٥٩٠) مليون مرة في اتصال عجيب عبر هذا الزمان الطويل!

فإذا علمت أن آلة لا تستطيع العمل بدون انقطاع إلا بضعة أيام على الأكثر ولابد دائمًا من تعهدها بالصيانة والإصلاح والرعاية، استطعت أن تدرك أي إعجاز آلي يعنيه قلب الإنسان!!

والقلب يضخ في الضخة الواحدة ستين سنتيمترا مكعبًا من الدم، أي يملأ فنجان شاي في كل دقيقة، ومعنى ذلك أنه يضخ (٣٠٠) لتر من الدم في الساعة، أي نحو (٨) آلاف لتر في اليوم، وهو ما يساوي (٨) أمتار مكعبة أو ما يساوي (١٥) طنا من الدم في اليوم الواحد، لا يستهلك منها لنفسه إلا شيئًا يسيرا جدًّا، ومع ذلك فإن هذا القلب لا يزيد وزنه على نصف رطل في المتوسط ولا يزيد عرضه على (٣.٥) بوصة وطوله خمس بوصات، وسمكه بوصتان ونصف!

فأي سر إلهي عظيم اشتملت عليه هذه الكتلة التي تقوم بهذه الأعمال الحادة، والتي تعجز آلات في حجم الجبال أن تقوم بها؟!!

إنه صنع الله الذي أتقن كل شيء!!

الجهاز العصبي:

وينتقل بنا حديث العلم إلى الجهاز العصبي، ذلك الذي تحار فيه عقول المفكرين، وتقف واجمة حياله عبقريات البارعين، فسبحانك اللهم!

يا من يحار الفهم في قدرتك وتطلب النفس حمى طاعتك

تخفى عن الناس سنا صنعتك وكل ما في الكون من صنعتك!

ماذا يقول العلم عن هذا الجهاز الدقيق المعجز؟

يقول العلم: «إذا كان القلب والدورة الدموية يوحدان الجسم ويربطانه برباط واحد بهذا الدم السائل، فإن الجهاز العصبي هو الوسيط الكهربي الذي يدعم هذه الوحدة ويصونها، بما لا يقل في الأهمية عن دورة الدورة الدموية».

فالإنسان يناضل في سبيل بقائه عن طريق عقله ومخه وأعصابه بأكثر مما يفعل ذلك بجسمه والجهاز العصبي يتألف من جهازين يكمل كل منهما الآخر:

أحدهما: واع موجه تتمثل فيه الإرادة الإنسانية، وأهم أجزائه المخ.

الثاني: لا شعوري آلي ذاتي الحركة يعمل على ضبط مختلف أعضاء الجسم، وهو ما يسمى (الجهاز السمبتاوي)!!

الجهاز المركزي:

يتكون الجهاز الرئيسي أو المركزي من المخ والمخيخ والنخاع المستطيل ويطلق على هذه الثلاثة اسم: الدماغ الذي يحتل الجمجمة، ويبلغ وزنه في الإنسان حوالي ثلاثة أرطال، ثم النخاع الشوكي أو العمود الفقري.

المخ:

يقع المخ في أعلى الدماخ ومقدمه، ويشبه في شكله نصف الكرة، وينقسم المخ إلى قسمين: أيمن وأيسر، بكل منها أربع قطع، أو فصول، واحد مقدمي، وآخر جانبي من الخارج، وثالث: جانبي من الداخل ورابع مؤخري.

وتتكون مادة المخ من مادة ناعمة هشة تتألف من طبقتين:

إحداهما: عليا سمراء اللون، عمقها نحو (٤) ملليمترات، وتسمى اللحاء، وتكثر بها الخلايا العصبية والتلافيف والحفر التي يبلغ عمق إحداها بوصة.

الطبقة الثانية: داخلية بيضاء، وتكثر بها الألياف العصبية التي توصل خلايا اللحاء بعضها ببعض، وتحتوي المادة المخية - على ما يقال - على أكثر من (١٢,٠٠٠) مليون خلية وتتصل هذه الخلايا إحداها بالأخرى بواسطة ليف عصبي، ولكل ليف عدة فروع.

وتتصل الخلايا ببعضها عدة آلاف الملايين من المرات بواسطة هذه الألياف.

وهذه الكومة الهائلة من الخلايا الدقيقة والألياف غير المنظورة، تعمل بدقة متناهية، كما لو كانت خلية واحدة، برغم تعقدها الذي لا يمكن تصوره.

والمخ هو المسيطر على المراكز الفعلية، والمسئول عن الأعمال العقلية العليا، ومصدر الأعمال الإرادية، فهو الذي يتسلم الرسائل الحسية من جميع أجزاء الجلد، ومن أعضاء الحس.

وبهذه الطريقة تظل الأوساط العصبية على اتصال دائم بالعالم الخارجي، والمخ هو الذي يَرسل الإشارات الحركية إلى العضلات عن طريق الأعصاب المحركة وتسمى الألياف العصبية التي تحمل الرسائل من الحواس إلى المخ، أعصاب الحس أو الأعصاب المرسلة، أما الألياف التي تنقل الرسائل منه إلى العضلات، فتسمى، أعصاب الحركة، أو الأعصاب المرجعة، وهناك ألياف أخرى توصل المراكز والخلايا العصبية بعضها ببعض وتسمى (الروابط).

وتقدر سرعة التيار الذي يحمل الرسائل من المخ وإليه - عن طريق الأعصاب - بنحو ثلاثين مترًا في الثانية الواحدة.

وإذا قورن المخ البشري بالمخ الالكتروني، فإنه يوازي مخا يحتوي على الأقل (١٥,٠٠٠) مليون أنبوبة الكترونية.

وقد أجرى هذه المقارنة الدكتور/ (جوهانس شالريه) عالم الأبحاث البيولوجية في معهد كاليفورنيا التكنولوجي، الذي يؤكد أن المخ البشري يحتوي على (١٥,٠٠٠) ألف مليون خلية عصبية كل خلية منها تعمل بقوة واحدة على ألف مليون من (الوات)

وعندما يؤدي المخ عمله ويولد تيارات كهربائية مباشرة ومتغيرة، فإنه يعمل بقوة تتراوح بين واحد على ألفين، وواحد على (٢٠٠) ألف من الفولت، بذبذبة تتراوح بين (٨) إلى (١٤) سيكل في الثانية!!

مراكز الإحساس والحركة بالمخ:

واللحاء، أو قشرة المخ وسطحه، هو مركز الأعمال الفكرية، كما أسلفنا، وقد توصل العلماء منذ أوائل القرن العشرين إلى تحديد مناطق خاصة في اللحاء يتحقق بها الإدراك لمختلف الحواس، وتنبعث منها الحركة إلى سائر أنحاء الجسم.

أقسام مراكز المخ:

وقد قسمت مراكز المخ ومناطقه إلى ثلاث:

- حسية.
- حركية.
- مشتركة.

فأما الحسية: فتشمل مراكز السمع، والبصر، والذوق والشم والحس.

وأما الحركية: فهي التي تصدر منها أعصاب الحركة الموصلة للأعضاء، كاليد والرجل، والوجه، والعنق، واللسان.

ويدخل في هذه: مراكز للشعور بحركة الجسم.

وأما المراكز المشتركة: فهي التي تحتفظ بآثار المراكز السابقة، وتنتفع بها في الفكر والتخيل والتذكر.

ويقع مركز البصر في مؤخر اللحاء من أسفل، وخلف مركز الذوق يقع مركز السمع، ويقع فوق الأذن تقريبًا.

وبين مركزي البصر والسمع، مركز الكلمات المرئية، والكلمات المسموعة: كل بجانب المركز الذي يلائمه.

ومركز الأفكار السامية في أعلى المقدم إلى الإمام ويقع خلفه مركز الكتابة، فمركز الكلام.

وفي الجهات الباقية من أعلى اللحاء وأوسطه. تقع مراكز الحركة والإحساس العضلي، والشعور بحركات الجسم، على هذا الترتيب، من الأمام إلى الخلف.

ويقع مركز حركات الرأس إلى الأمام، وخلفه مركز حركات الرِّجُل واليد والوجه، على الترتيب من أعلى إلى أسفل.

وتحت مركزي حركات الرأس والوجه، يقع مركز حركات اللسان والشفتين.

وهذه المراكز تقع في كل من جانبي المخ.

ولكن مراكز الجانب الأيسر هي المراكز الحس والحركة للقسم الأيمن من الجسم وبالعكس.

وقد أمكن التوصل لمعرفة هذه المراكز عن طريق التجارب التي دلت على أن أي خلل يحصل لأحد هذه المراكز: يستتبعه - على الفور - حدوث شلل في العضو المتصل به، وضربة شديدة على مركز الكلام مثلا، تسبب تعقدا دمويا قد يمنع المريض عن الكلام حتى يذهب هذا التعقد.

ومع عدم القدرة على الكلام يظل الشخص المصاب يسمع ويرى ويكتب ما يريد، إذا لم تكن مراكز السمع أو البصر أو الكتابة قد أصيبت بأذى.

المخيخ:

يقع المخيخ: تحت المخ. وفوق النخاع المستطيل وخلفه. وفي أسفل مؤخرة الجمجمة، ويتكون - مثل المخ - من طبقتين:

طبقة سطحية سمراء اللون تكثر بها الخلايا، وبها قليل من التلافيف.

وطبقة داخلية بيضاء اللون، وتكثر بها الألياف العصبية.

وينقسم (المخيخ) إلى ثلاثة فصوص، واحد في كل جانب والثالث في الوسط، وهو أصغر من الأولين ويسمى بالدودة.

ومهمة المخيخ أن يقوم بمساعدة المخ: بضبط العضلات وتنظيم حركاتها لكي تحفظ توازن الجسم.

تمايل الثمل ويؤدي المخيخ عمله بطريقة آلية بحتة. ولا يتدخل المخ في شئونه إلا عند حركات الإرادية الشعورية: كتعلم المشي للطفل.

النخاع المستطيل:

ثم يأتي النخاع المستطيل، وهو في الحقيقة امتداد للنخاع الشوكي بحيث يمكن عتباره جزءًا منه.

ويملأ الجزء الواقع أمام المخيخ وتحته في أسفل الجمجمة وتحت المخ.

ويتكون - على عكس المخ والمخيخ - من مادة بيضاء اللون بداخله، أما الألياف فتكثر في طبقته الخارجية.

ويقوم النخاع المستطيل بتنظيم الحركات الآلية الداخلية، كالدورة الدموية، وعملية التنفس، والهضم، ويساعد النخاع المستطيل: (العصب السمبتاوي) في القيام بوظيفته.

النخاع الشوكي:

يملأ القناة الشوكية التي في العمود الفقري، ويتألف من مادة تسمى (النخاع الشوكي) ومن الممكن اعتباره أغلظ عصب في الجسم ويبلغ طوله نصف متر.

ويتكون مثل النخاع المستطيل - من مادة بيضاء سطحية، وأخرى سمراء داخلية، فخلاياه العصبية في الداخل وأليافه في الخارج، إلا أن المادة السمراء الداخلية تقل بالتدريج حتى تنعدم في الثلث الأسفل.

وتخرج من كل من جانبي النخاع الشوكي: أعصاب تذهب إلى جميع أجزاء الجسم فتوصله بالمخ والحواس والعضلات، ووظيفة النخاع الشوكي: هي القيام بالأعمال المنعكسة، مما سنتحدث عنه في الفصل التالي إن شاء الله.

الأعصاب:

وتكون الأعصاب: الجهاز الدائري للجسم، والعصب: مجموعة من الألياف العصبية المتفرعة من خلايا مختلفة.

وتنقسم الأعصاب إلى ثلاثة أقسام، هي:

أعصاب حس: أو أعصاب مرسلة: وهي التي تحمل الآثار من الحواس وباقي الجسم إلى المراكز العصبية العليا أو السفلى.

أعصاب الحركة: أو أعصاب مرجعة: وهي تنقل الرسائل من المراكز العصبية إلى العضلات، فتقوم هذه بعملها حسب إشارة المراكز العصبية.

أعصاب مشتركة: أو وصلية: وهي التي توصل المراكز العصبية بعضها ببعض، أو تقوم مقام أعصاب الحس والحركة، وقد تكون الرسالة التي عملها: رسالة من مركز إحساس وقد تكون من مركز حركة.

وهذه الأعصاب كلها متصلة بالمجموعة المركزية، أي: الدماغ والنخاع الشوكي؛ ولذلك: فهي تنقسم إلى قسمين:

- قسم دماغي.
- وقسم شوكي.

أما الأعصاب الدماغية: فيخرج بعضها من المخ، والبعض الآخر من النخاع المستطيل، ثم تذهب إلى الحواس والعضلات وأما الأعصاب الشوكية فتخرج من النخاع الشوكي خلال ثقوب على جانبيه واقعة بين الفقرات.

وهذه الأعصاب تذهب إلى الجلد والحواس والعضلات: ففروع الحس تذهب إلى الجلد والحواس، وفروع الحركة تذهب إلى العضلات لتأمرها بالحركة عند الطلب.

الجهاز العصبي الآلي.. أو السمبتاوي:

وإلى جوار الجهاز العصبي الرئيسي أو المركزي، يقوم الجهاز العصبي الآلي، وهو الذي يمكن كل عضو من أعضاء الجسم الداخلية من التعاون مع الجسم كل في معاملاته مع العالم الخارجي.

ويتكون هذا الجهاز من عقد عصبية ممتدة على جانبي العمود الفقري، كل عقدة تتصل بما فوقها وبما تحتها من أعصاب، بحيث تكون هذه العقد والأعصاب ما يشبه حبلين معقدين ممتدين على جانبي العمود الفقري، ثم يلتقيان على مقربة من أسفل العمود الفقري، ويكونان حبلا واحدًا أو سلسلة واحدة، وتتصل الأعصاب الشوكية

بهذه العقد بعد خروجها من النخاع الشوكي بقليل، وترسل هذه العقد خيوطها وأليافها إلى الأعضاء الباطنية: كالقلب والرئتين والكبد والكليتين.

ويطلق على الأعصاب السمبتاوية أو الآلية لمناطق الرأس والحوض: اسم (باراسمبتاوية) أما تلك الخاصة بالظهر فتسمى (السمبتاوية).

ويتلقى كل عضو من أعضاء الجسم تأثيرين مختلفين من هذين النوعين من الأعصاب في وقت واحد.

(فالباراسمبتاوية) تبطئ القلب، في حين أن السمبتاوية تزيد من سرعته، والأولى تمدد حدقة العين، بينما تسبب الأخيرة تقلصها، وهكذا، وتبعا لسيطرة أحد هذين الجهازين والآخر، تكتسب المخلوقات الحية أمزجتها المختلفة.

ودورة كل عضو خاضعة لتنظيم هذه الأعضاء.

فالأعصاب (السمبتاوية) تحدث ضيق الشرايين واصفرار الوجه، كما يلاحظ عند الانفعال وعند الإصابة بأمراض معينة.

سيطرة الجهاز العصبي على الجسم:

بهذين الجهازين العصبيين: (المركزي، والسمبتاوي) تتحقق للإنسان - بإذن الله تعالى وإرادته - سيطرته الكاملة على جسده» ا.هـ..

أيُّهَا الإنسان...

هَذِهِ قدرة الله تَعَالَى فيك، أرأيت معجزة خلقك؟

فلماذا تتكبَّر؟!

ألم تعلم أن مَن تكبَّر عَلَى الله وضعه؟

اسمع هَذِهِ القصة:

عن عمرو بن شيبة قال: كُنْتُ بمكَّة بين الصفا والمروة فرأيتُ رجلًا راكبًا بغلة وبين يديه غِلمان وإذا هم يعنِّفون النَّاس.

قال: ثُمَّ عدت بعد حين فَدخَلتُ بغداد فكنتُ على الجِسر، فإذا أنا برجلٍ حافٍ

حاسرٍ طويل الشَّعر.

قال: فجعلت أنظر إليه وأتأمَّله فقال لي: ما لك تنظر إليَّ؟

فقلت له: شبَّهتك برجل رأيته بمكَّة، ووصفت له الصِّفة.

فقال له: أنا ذلك الرجل.

فقلت: ما فعل الله بك؟

فقال إني ترفّعتُ في موضع يتواضع فيه النَّاس، فوضعني الله حيث يترفّع الناس[1].

عباد الله...

هَذِهِ بعض عقوبات الكِبر في الدُّنْيَا، أمَّا في الآخرة، فسنذكر بعضها بعد قليل إن شاء الله تَعَالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومن عقوبات الكِبر في الآخرة: ما ورد في الآيات والأحايث التالية:

(١) قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

(٢) وفي الحديث القدسي: «العِزُّ إِزَارُهُ وَالكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ»[2].

(٣) وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «احْتَجَّتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ النَّارُ: فِيَّ الجَبَّارُونَ وَالمُتَكَبِّرُونَ. وَقَالَتِ الجَنَّةُ: فِيَّ ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَمَسَاكِينُهُمْ.

قَالَ: فَقَضَى بَيْنَهُمَا: إِنَّكِ الجَنَّةُ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَإِنَّكِ النَّارُ عَذَابِي أُعَذِّبُ

---

(١) «الإحياء» (٣/ ٣٤٣).

(٢) رواه مسلم.

بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَلِكِلاَكُمَا عَلَيَّ مِلْؤُهَا»[(١)].

فاحذروا - عباد الله - من هذا الدَّاء العضال، وانكسروا لسيِّدكم ومولاكم، فلا خلاص لنا إلَّا بتحقيق العبوديَّة لله تَعَالى.

وفَّقني الله تَعَالى وإيَّاكم لِمَا يُحبّ ويرضى.

❖❖❖❖❖

(١) رواه مسلم.

الخطبة الثامنة والستون:

الوصايا قبل حلول المنايا

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - رَضِيَ الله عَنْهُمَا - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ، يُوصِى فِيهِ يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ، إِلاَّ وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ»[(١)].

عباد الله...

ما أحوجنا اليوم إلى فهم هَذِهِ الوصيّة، والمسارعة إلى تطبيقها قبل حلول الأجل، وعندها ﴿فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٥٠].

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم.

فيا أخا الإسلام...

تَذكَّــر في مَــشيبكَ والمــآبِ ودَفْــنَك بَعْــدَ عِــزِّك في التُّــرَاب
إذا أُدخلــت قــبراً أنــت فــيه تُقــيمُ بــه إلى يَــوْمَ الحِــساب
وفي أوْصَـال جِـسْمكَ حـين تَبْقَـى مُقَطَّعَـةً مُمَـزَّقَةَ الإهــابِ
فَلَـولا القَـبرُ صَـار عَلـيْكَ سِـتْرًا لَنُتِّــنَتَ الأبــاطح والرَّوابــي
خُلقـتَ مِـن التُّـراب فَـصَرت حـيًّا وعُلِّمــت الفَــصيح مِــن الخطــابِ
وعُـدت إلى التُّـرابِ فـصرت فـيه كأنَّــك مَــا خُلقــتَ مِــن التُّــرابِ
فَطَلِّــق هــذه الدُّنْــيَا ثلاثــاً وبَــادِر قَــبْل مَــوْتِك بالمــتابِ
نـصحتك فاسـتمع قولـي ونـصحي فمــثلك قــد يــبل علــى الــصواب
خلقــنا للممــات ولــو تــركنا لــضاق بـنا الفـسيح مـن الـرحابِ
يُــنَادى في صــبيحة كُــلِّ يَــوْمٍ لِـدُوا للمَـوت وابْـنُوا لِلخَـرابِ

فكن أخي الحبيب من الموت عَلَى حذر، فإنه يأتي بغتة، احرص عَلَى أن تلقي ربَّك بأحسن عملك.

عن ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِي الله عَنْهُ قال: قال رَسُول الله ﷺ: «الجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ» (١).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْهُ قال: قال رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: «بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا: هَلْ تَنْظُرُونَ إِلاَّ فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، أَوِ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوِ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ» (٢).

يــا ابــن آدم ولــدتْك أُمُّــك باكـيًا والـناسُ مِـن حـولك يَضحَكون سُرُورًا
فاحـرص عَلَـى عَمَـل تكونُ إذا بَكُوا في يَــوم مَــوتِك ضَــاحِكًا مَــسْرُورًا

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

فالعاقل مَن قدّم لنفسه خيرًا، والسَّعيد مَن وُعِظ بِغيره.

قال الحق سحبانه: ﴿وَقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

ومن علامات السعادة: «**الوصية الشرعيّة**» قبل الموت، فإنه مَن مات عَلَى وصية مات عَلَى سبيلٍ وسُنَّة.

عباد الله....

ويأتي لفظ الوصية بمعنى الأمر المؤكد، قال تَعَالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨]. وقال تَعَالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

والآيات في هذا المعنى كثيرة، ومعنى «وصَّى» في الآيات: أمر، وجاء بلفظ «الوصية» لتأكيد الالتزام ببر الوالدين.

وعن ابن مسعودٍ رَضِي الله عَنْهُ قال: مَن أراد أن ينظر إلى وصيّة مُحَمَّد ﷺ التي عليها خاتمه، فلينظر إلى هذه الآيات - يعني آيات سورة الأنعام - وهي قوله تَعَالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ اليَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١- ١٥٣]

وتأتي الوصية بمعنى «العهد» فيقال: أوصى إلى فلان بكذا... أي: عهد إليه.

وهي في الشرع: هبةُ الإنسان غيره عينًا أَوْ دينًا أَوْ منفعةً عَلَى أن يملك الموصَى له الهبةَ بعد موتِ الموصِي.

وعرَّفها بعضهم بأنها: تمليكٌ مضافٌ إلى ما بعد الموت بطريق التبرّع.

ومن هذا التعريف يتبيّن الفرق بين الهبة والوصية.

فالتمليك المستفادة من الهبة يثبت في الحال، أما التمليك المستفاد من الوصية فلا يكون إلَّا بعد الموت.

هذا من جهة، ومن جهةٍ أخرى: فالهبة لا تكون إلَّا بالعين، والوصية تكونُ بالعين وبالدين وبالمنفعة(١).

وقال في «المقنع» (٢/ ٣٥٤): «وهي الأمر بالتصرف بعد الموت».

أيها المسلمون...

والوصية مشروعة بالكتاب والسُّنة والإجماع.

قال تَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ * فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨٠ - ١٨٢].

وقال تَعَالَى: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء: ١١].

وقال تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ...﴾ [المائدة: ١٠٦].

وهذا الآية بيّنت مشروعية الإشهاد عَلَى الوصيّة وعدد الشهود.

وروى البخاري ومسلم عن ابن عُمر قَالَ: «مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ، يُوصِي فِيهِ يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ(٢)، إِلاَّ وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ»

قَالَ ابن عمر: ما مرّت عليَّ ليلة منذ سمعتُ رَسُول الله ﷺ يقول ذَلِكَ إلَّا وعندي وصيتي.

وعن أنسٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: كنا عند رَسُول الله ﷺ فجاءه رجلٌ فقال: يا رَسُول

(١) «فقه السنة» (١٥١ - ١٥٣).

(٢) للتقريب لا للتحديد.

الله مات فلان. قَالَ: «أليس كان معنا آنفًا؟» قالوا: بلى. قَالَ: «سبحان الله كأنها أخذة عَلَى غضبٍ، المحروم مَن حُرم وصيّته»[(١)].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الإِضْرَارُ فِي الوَصِيَّةِ مِنَ الكَبَائِرِ». ثم تلا: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾[(٢)].

هذا، ويختلف حكم الوصية باختلاف الأحوال، فقد تكون واجبة أو مندوبة أو محرَّمة أو مكروهة أو مباحة.

حالات وجوبها:

تجب الوصية إذا كان عَلَى الإنسان حقٌّ شرعي يخشى أن يضيع إن لم يوص به، سواء كانت تلك الحقوق للعباد كالودائع والأمانات والديون، أو كانت لله كالزكاة التي لم يخرجها أو حجّ لم يقم به... إلخ.

وتتأكد الوصية إذا كان الإنسان في حالة خطرة مثل: اشتداد مرض، أو دخول حرب، أو كان عَلَى سفر.

حالات استحبابها:

وتندب في القربات، والصدقات الجارية، وللصالحين من المسلمين.

وفي الحديث: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ: إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» رواه مسلم.

وله أن يتصرف في ثلث ماله، والثلث كثير، كما صحّ في الحديث.

وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ تَصَدَّقَ عَلَيْكُمْ بِثُلُثِ أَمْوَالِكُمْ عِنْدَ وَفَاتِكُمْ»[(٣)].

حالات تحريمها:

تحرَّم إذا كان فيها إضرارٌ بالورثة.

---

(١) قال المنذري: رواه أبو يعلى بإسناد حسن. «الترغيب» (٥٠٧٩)، وأفاد الهيثمي قول المنذري.

(٢) رواه النسائي، وصدّره المنذري بـ«عن» ورجاله ثقات.

(٣) أخرجه الدارقطني في «سننه» (٤/ ١٥٠).

روى سعيد بن منصور بإسنادٍ صحيحٍ قَالَ ابن عبَّاس: «الإضرارُ في الوصية من الكبائر»، ورواه النسائي مرفوعًا. وقَدْ تقدم قريبًا.

ومثل هَذِهِ الوصية التي يقصد بها الإضرار باطلةٌ ولو كانت دون الثلث.

وعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ وَالْمَرْأَةَ بِطَاعَةِ اللَّهِ سِتِّينَ سَنَةً ثُمَّ يَحْضُرُهُمَا الْمَوْتُ فَيُضَارَّانِ فِي الْوَصِيَّةِ فَتَجِبُ لَهُمَا النَّارُ**». ثُمَّ قَرَأَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ: ﴿**مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ**﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿**ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ [١] [النِّسَاء: ١٢، ١٣].

وتحرَّم كَذَلِكَ إذا أوصى بخمر أو ببناء دار لهو أو كنيسة.

وتحرَّم الوصية أيضًا للورثة سواء كان وارثًا بالفرض أو بالتعصيب، لقوله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَلاَ وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ**» [٢].

وإن أجاز الورثة الوصية - بمحض اختيارهم دون إكراه أو إجبار - نفذت لقوله ﷺ: «**لاَ تَجُوزُ وَصِيَّةٌ لِوَارِثٍ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ الْوَرَثَةُ**» [٣].

وكذلك تحرّم الوصية لغير الوارث بأكثر من الثلث، وسيأتي الدليل بعد قليل.

حالة كراهيتها:

تُكره إذا كان الموصي قليل المال وله وارث أو ورثة يحتاجون إليه، لقوله ﷺ لسعد بن أبي وقاص: «**إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ ذُرِّيَّتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ**» [٤].

كما تُكره لأهل الفسق متى علم أو غلب عَلَى ظنه أنهم سيستعينون بها عَلَى المعصية. فيجب عليه التأكد من الجهة التي يُريد الوصية لها.

أما مقدار الموصى به:

مقدار ما يُوصى به من المال هو الثُّلث، فلا حق للموصي في الوصية بأكثر من

---

(١) رواه أبو داود، والترمذي، وقال: حديث حسن غريب، وانظر «ضعيف الجامع» (١٤٥٧).
(٢) **صحيح**: رواه الترمذي وغيره، وانظر «صحيح الجامع» (٧٥٧٠).
(٣) رواه الدارقطني في «سننه» (٤/ ١٥٢).
(٤) رواه البخاري.

ذَلِكَ، إلَّا إذا أجازها الورثة كما تقدم، والأفضل أن تكون أقل من الثلث.

فعن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: مَرِضْتُ عَامَ الفَتْحِ مَرَضًا أَشْفَيْتُ مِنْهُ عَلَى المَوْتِ فَأَتَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعُودُنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي مَالاً كَثِيرًا وَلَيْسَ يَرِثُنِي إِلاَّ ابْنَتِي أَفَأُوصِي بِمَالِي كُلِّهِ؟ قَالَ: «لاَ».

قُلْتُ: فَثُلُثَيْ مَالِي؟ قَالَ: «لاَ».

قُلْتُ: فَالشَّطْرُ؟ قَالَ: «لاَ».

قُلْتُ: فَالثُّلُثُ؟ قَالَ: «**الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ إِنَّكَ إِنْ تَدَعْ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ**...» الحديث[(١)].

قَالَ أَبُو عِيسَى: وَالعَمَلُ عَلَى هَذَا عِنْدَ أَهْلِ العِلْمِ، أَنَّهُ لَيْسَ لِلرَّجُلِ أَنْ يُوصِيَ بِأَكْثَرَ مِنَ الثُّلُثِ، وَقَدِ اسْتَحَبَّ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ أَنْ يَنْقُصَ مِنَ الثُّلُثِ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «**وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ**»[(٢)].

وأوصى بعض الصحابة بالخمس، وقال: «أرضى بما رضي الله به لنفسه» يشير بذلك إلى قوله تَعَالى: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لله خُمُسَهُ**﴾ [الأنفال: ٤١].

عباد الله...

وعلى الموصى أنْ يحذر مِن وصية الجنف، وذَلِكَ بأن يوصي للوارث أو يكذب في وصيته من أجل أن يحرم ورثته أو بعضهم، وعلى مَن يعلم بوصية الجنف أن يُغيِّرها ويبدّلها، وهو في ذَلِكَ مأجور. قَالَ تَعَالى: ﴿**فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [البقرة: ١٨٢].

وفسر الجنف: بأن يخطئ الموصى في وصيته، والإثم بأن يتعمّد الجور في وصيّته، والصلح مطلوب في كلتا الحالتين[(٣)].

هذا، ويبدأ بإخراج الواجب من تركة الميِّت أوصى بها الميِّت أو لم يوص، والواجب

---

(١) صحيح: انظر «صحيح سنن الترمذي» (١٧١٨)، والحديث متفق عليه.

(٢) «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٢١٧).

(٣) «تفسير القرطبي» (٢/ ١٧١)، وانظر «الوصية» للشيخ صالح الأطرم.

ـ حقٍّ لآدمي، وإما فريضة حج، أو كَفَّارة عن يمين، أو ظهار، أو غيرهما، أو زكاة وجبت فتوفى قبل إخراجها، أو نذر أوجبه عَلَى نفسه فتُوفِّي قبل الوفاء به[١].

كيف تكتب الوصية؟

لم يرد لفظ الوصية في حديث صحيح إلَّا أن العلماء وضعوا لها صورًا متعددة، تشهد لها الأدلة الشَّرعيَّة منها[٢]:

«هذا ما أوصي به أنا........

أني أشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث مَن في القبور، وأنَّ الجَنَّة حق، وأنَّ النار حق.

وأوصي مَن أترك مِن أهلي أن يتقوا الله ويُصلحوا ذات بينهم، ويطيعوا الله ورسوله إن كانوا مؤمنين. وأوصيهم بما أوصى به إبراهيم بنيه ويعقوب: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ [البقرة: ١٣٢].

وأوصيهم بما يلي:

١- أن يحضرني عند الموت بعض الصالحين، ليذكّرني بسعة عفو الله، وعظيم فضله عَلَى عباده، وأنَّهُ ﴿**غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ**﴾ [غافر: ٣].

٢- تلقيني الشهادة.

لقوله ﷺ: «**مَنْ كَانَ آخِرُ كَلاَمِهِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ عند الموت دَخَلَ الجَنَّةَ يومًا مِن الدهر، وإن أصابه قبل ذَلِكَ ما أصابه**»[٣].

وليس التلقين ذكر الشهادة عندي وتسميعها إياي، وإنَّما هي أمري بها عند موتي، فعن أنس رَضِيَ الله عَنْهُ أنَّ رَسُول الله ﷺ عاد رجلًا من الأنصار، فقال: «**يا خال قُل: لا إله إلَّا الله**»[٤].

---

(١) «الوصية» (ص٣٠).

(٢) من كتاب «الوصية الشرعية» للأستاذ/ مُحَمَّد علي ريحان، بتصرف وإضافة.

(٣) **حسن**: رواه ابن حبان (موارد ٧١٩)، وحسنه الألباني في «أحكام الجنائز» (ص١٠).

(٤) رواه أحمد (٣/ ١٥٢، ١٥٤)، بإسناد صحيح عَلَى شرط مسلم.

٣- أن يدعو لي في حضوري ولا يقولوا إلَّا خيرًا.

لحديث: « حَضَرْتُمُ المَرِيضَ أَوِ المَيِّتَ فَقُولُوا خَيْرًا فَإِنَّ المَلاَئِكَةَ يُؤَمِّنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ...» [(١)].

٤- إذا قُبض روحي فغمّضوا عيني وادعوا لي بالرحمة.

فعن أُم سلمة قالت: دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَبِى سَلَمَةَ وَقَدْ شَقَّ بَصَرُهُ فَأَغْمَضَهُ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ البَصَرُ». فَضَجَّ نَاسٌ مِنْ أَهْلِهِ فَقَالَ: «لاَ تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ بِخَيْرٍ فَإِنَّ المَلاَئِكَةَ يُؤَمِّنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ». ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لأَبِى سَلَمَةَ وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِى المَهْدِيِّينَ وَاخْلُفْهُ فِى عَقِبِهِ فِى الغَابِرِينَ وَاغْفِرْ لَنَا وَلَهُ يَا رَبَّ العَالَمِينَ وَافْسَحْ لَهُ فِى قَبْرِهِ. وَنَوِّرْ لَهُ فِيهِ» [(٢)].

٥- وأوصيهم بالصبر والرضا.

لقوله ﷺ : «مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ: إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أْجُرْنِى فِى مُصِيبَتِى وَأَخْلِفْ لِى خَيْرًا مِنْهَا. إِلاَّ أَخْلَفَ اللَّهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا» [(٣)].

٦- وأوصيهم بعدم النياحة.

لقوله ﷺ : «إنَّ الميّت يُعذب ببكاء أهله عليه» [(٤)]. أما البكاء بدون صوت فمأذون فيه، لقوله ﷺ : «وإن العين لتدمع».

٧- وأوصيهم بعدم ضرب الخدود، وشق الجيوب، والدُّعَاء بدعوى الجاهلية.

لحديث: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ» [(٥)].

٨- وأوصيهم بأن يتولّى غُسلي أهل الدِّين والأمانة. ليغسّلني عَلَى السُّنة، ويستر عليّ لو رأى ما يكره، ويتولّى كفني عَلَى السُّنة.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) أخرجه البخاري، ومعناه: يتألم، وقيل: يعذّب لو أوصى بالبكاء عليه، والبكاء هنا: بمعنى النياحة.

(٥) رواه مسلم.

٩- وأوصي بقضاء دَيني، ولو أتى عَلَى مالي كله.

لأن المرء محبوس بِدَينه حَتَّى يُقضى عنه.

قلت: ويجوز لأحد أقاربه أو إخوانه أن يؤدّي عنه دينه إذا لم يترك الميِّت شيئًا، والقريب أولى.

فإن لم يتطوع أحد بأداء دَينه، واجتهد الميِّت في حال حياته في السّداد ولكن حال فقره دون ذَلِكَ، أدَّى عنه رَسُول الله ﷺ يوم القيامة. قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**مَنْ حُمِّلَ مِنْ أُمَّتِي دَيْناً ثُمَّ جَهِدَ فِي قَضَائِهِ، فَمَاتَ وَلَمْ يَقْضِهِ فَأَنَا وَلِيُّهُ**»[١].

ولا يشمل هذا أهل السَّرف والبذخ، الذين تعوّدوا عَلَى إتلاف أموال الغير.

١٠- وأوصي بعدم المغالاة في الكفن، فالحيّ أولى بالجديد من الميِّت.

١١- وأوصي أن يُصلِّي عليَّ أقرأ النَّاس للقرآن وأعلمهم بالسُّنة، وأتقاهم لله.

لقوله ﷺ: «**إذا صلَّيتم عَلَى الميّت فأخلصوا له الدُّعَاء**».

١٢- وأوصي أهلي أن يكثروا من الدُّعَاء لي والاستغفار.

فإن هدايا الأحياء للأموات: الدُّعَاء والاستغفار.

١٣- وأوصيهم أن يكتفوا بتشييع الجنازة، وأحذرهم من إقامة المآتم والسرادقات واستئجار المقرئين.

لأن ذَلِكَ من البدع المذمومة. وما يفعله بعض النَّاس اليوم من الاجتماع للتعزية وإقامة السرادقات، وفرض البسط وصرف الأموال الطائلة من أجل المباهاة والمفاخرة؛ من الأمور المحدثة، والبدع المنكرة التي يجب عَلَى المسلمين اجتنابها، ويحرم عليهم فعلها[٢].

[فتوى] سُئِلَ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ إمَامٍ يَقْرَأُ عَلَى الجَنَائِزِ. هَلْ تَصِحُّ الصَّلَاةُ خَلْفَهُ؟.

فَأَجَابَ: إذَا أَمْكَنَهُ أَنْ يُصَلِّيَ خَلْفَ مَنْ يُصَلِّي صَلَاةً كَامِلَةً وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الوَرَعِ

---

(١) رواه أحمد، وإسناده عَلَى شرط الشيخين.

(٢) «تقاليد يجب أن تزول» رسالة أصدرتها وزارة الأوقاف المصرية (ص٥٣).

فَالصَّلَاةُ خَلْفَهُ أَوْلَى مِنَ الصَّلَاةِ خَلْفَ مَنْ يَقْرَأُ عَلَى الجَنَائِزِ فَإِنَّ هَذَا مَكْرُوهٌ مِنْ وَجْهَيْنِ: مِنْ وَجْهٍ أَنَّ القِرَاءَةَ عَلَى الجَنَائِزِ مَكْرُوهَةٌ فِي المَذَاهِبِ الأَرْبَعَةِ. وَأَخْذُ الأُجْرَةِ عَلَيْهَا أَعْظَمُ كَرَاهَةً فَإِنَّ الِاسْتِئْجَارَ عَلَى التِّلَاوَةِ لَمْ يُرَخِّصْ فِيهِ أَحَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ [(١)].

١٤- وأوصي أولادي بتقوى الله والعمل الصَّالح، وصلة الرحم، وإصلاح ذات البيِّن، وأن يكثروا من الصدقة عني والحج إن استطاعوا، فإن ذَلِكَ يصل ثوابه إليَّ إن شاء الله.

١٥- وأوصي بالتصدق من مالي عَلَى الفقراء والمساكين، أو المساهمة في بعض المشاريع الخيرية، وكل ما هو من الصدقات ا لجارية.

١٦- وأنهى أهلي عن إحياء ذكرى الأربعين، والذكرى السنوية، أو ما يسمى بالخميس الأول... إلخ. فإن ذَلِكَ من البدع الوافدة. وعادات غير المسلمين.

عباد الله...

هَذِهِ بعض صور «**الوصية الشرعية**» فيجب عَلَى كل مسلم يؤمن بلقاء الله أن يوصي أهله بها، فإن ذَلِكَ من علامات السعادة، ولا ينبغي له التسويف أو التراخي، فالآجال بيد الله، والأنفاس معدودة. قَالَ الله تَعَالَى: ﴿**وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ [لقمان: ٣٤].

فيا عبد الله...

مَضَى أمسُكَ الماضي شهيدًا مُعَدلاً ... وأعقَبه يومٌ عَليك جَديدُ

فيومُك إن اغْتَنَمتُهُ عاد نَفعهُ ... عَليك وماضي الأمس لَيس يَعُودُ

فإن كُنتَ بالأمس اقترفت إساءةً ... فَثنِّ بإحسان وأنت حَميدُ

فلا تُرجِ فعلَ الخَير يَومًا إلى غدٍ ... لعلَّ غدًا يأتي وأنت فَقِيدُ

اللَّهُمَّ اجعل خير أعمالنا خواتيمها، وخير أيَّامنا يوم نلقاك.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) «فتاوى ابن تيمية» (١/ ١٠٧).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومِمَّا ينبغي معرفته:

أن الوصية تبطل بأشياء؛ منها:

١- إذا جُنَّ الموصي جنونًا مطبقًا، واتصل الجنون بالموت.

٢- إذا مات الموصى له قبل موت الموصي.

٣- إذا كان الموصى به معينًا وهَلَك قبل قبول الموصَى له(١).

وهناك أشياء أخرى تبطل بها الوصية تقدّم ذكر بعضها.

عباد الله...

ونختم خطبة اليوم بذكر وصايا بعض الصحابة رضي الله عنهم.

عن أبي بُرْدَةَ قال: أَوْصَى أَبُو مُوسَى رَضِي الله عَنْهُ حِينَ حَضَرَهُ الْمَوْتُ فَقَالَ: «إِذَا انْطَلَقْتُمْ بِجِنَازَتِى فَأَسْرِعُوا الْمَشْىَ، وَلاَ يَتْبَعْنِى مُجَمَّرٌ، وَلاَ تَجْعَلُوا فِى لَحْدِى شَيْئاً يَحُولُ بَيْنِى وَبَيْنَ التُّرَابِ، وَلاَ تَجْعَلُوا عَلَى قَبْرِى بِنَاءً، وَأُشْهِدُكُمْ أَنِّى بَرِىءٌ مِنْ كُلِّ حَالِقَةٍ أَوْ سَالِقَةٍ أَوْ خَارِقَةٍ». قَالُوا: أَوَسَمِعْتَ فِيهِ شَيْئاً؟ قَالَ: نَعَمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ(٢).

وأخرج عبد الرزاق بسندٍ صحيح أن أنسًا رَضِي الله عَنْهُ قال: كَانُوا يَكْتُبُونَ فِى صُدُورِ وَصَايَاهُمْ: «هَذَا مَا أَوْصَى فُلاَنُ بْنُ فُلاَنٍ، أَوْصَى أَنْ يَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِى الْقُبُورِ، وَأَوْصَى مَنْ تَرَكَ بَعْدَهُ مِنْ أَهْلِهِ أَنْ يَتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ، وَأَنْ

(١) «فقه السنة» (٢/ ٣٠٢).

(٢) رواه أحمد (١٩٥٤٧)، وابن حبان (٣١٥٠).

يُصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِهِمْ، وَيُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ، وَأَوْصَاهُمْ بِمَا أَوْصَى بِهِ إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

❁❁❁❁❁

الخطبة التاسعة والستون:

أعظم المصائب

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فاعلموا - عباد الله - أن الموت مصيبة. قال تَعَالَى: ﴿فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ [المائدة: ١٠٦].

قَالَ القرطبيُّ - رَحِمَهُ الله -: «سمى الله تعالى الموت في هذه الآية مصيبة، قال علماؤنا: والموت وإن كان مصيبة عظمى، ورزية كبرى، فأعظم منه الغفلة عنه، والاعراض عن ذكره، وترك التفكر فيه، وترك العمل له، وإن فيه وحده لعبرة لمن اعتبر، وفكرة لمن تفكر»[(١)].

(١) «تفسير القرطبي» (٤/ ٢٣٤٩).

وقَدْ جاء الترغيب في ذكر الموت في أحاديث:

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ**». يَعْنِي المَوْتَ. رواه ابن ماجه والترمذي وحسّنه[1]. ورواه الطبراني في «الأوسط» بإسناد حسن، وابن حبان في «صحيحه» وزاد: «**فإِنَّهُ ما ذَكَره أحدٌ في ضِيقٍ إلَّا وسَّعه، ولا ذكره في سعةٍ إلَّا ضَيَّقها عليه**»[2].

وروى البيهقي وغيره: أنَّ رَجُلًا قَالَ للنبي ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا**». قَالَ: فَأَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَكْيَسُ؟ قَالَ: «**أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا وَأَحْسَنُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا، أُولَئِكَ الأَكْيَاسُ**»[3].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحَيَاءِ**».

قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا لَنَسْتَحْيِي وَالحَمْدُ لله.

قَالَ: «**لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الِاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى وَتَحْفَظَ البَطْنَ وَمَا حَوَى وَتَتَذَكَّرَ المَوْتَ وَالبِلَى وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحَيَاءِ**»[4].

عباد الله...

ولكن كان سلفنا الصَّالح أكثر النَّاس ذكرًا للموت بعد الأنبياء، وإليكم بعض أحوالهم وأقوالهم:

- كان ابن سيرين إذا ذُكر عنده الموت، مات كل عضوٌ فيه.
- واكن عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة، ثم يبكون حَتَّى كأنَّ بين أيديهم جنازة.

---

(١) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٢١٠).

(٢) **حسن**: انظر «صحيح الجامع» (١٢١١).

(٣) **حسن**: انظر «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٣٥).

(٤) **حسن**: رواه الترمذي، وانظر «صحيح الجامع» (٩٣٥).

- وقال إبراهيم التيمي: شيئان قطعا عني لذة الدُّنْيَا: ذِكر الموت، والوقوف بين يدي الله عَزَّ وَجَلَّ.
- وقال كعب: مَن عرف الموت هانت عليه مصائب الدُّنْيَا وهمومها[١].

عباد الله...

قطَّع ذِكر الموت قلوب الخائفين، فوالله ما تراهم إلَّا والهين، فأكثر ذكر الموت يا أخي يرقّ قلبك.

قَالَ أشعث: كنا ندخل عَلَى الحسن، فإنما هو النار وأمر الآخرة وذِكر الموت.

وقال الحسن: ما رأيت عاقلًا قط إلَّا أصبته من الموت حذرًا وعليه حزينًا.

وقال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء: عظني، فقال: لست أول خليفة تموت. قَالَ: زدني، قَالَ: ليس من آبائك أحد إلى آدم إلَّا ذاق الموت.

ورَوَى أَبُو نُعَيم الحَافِظُ بإسنادِهِ: أنَّ عُمَرَ بن عَبدِ العَزيزِ شَيَّع مَرَّةً جَنَازَةً مِن أهْلِهِ، ثُمَّ أقْبَلَ عَلَى أصْحَابِهِ وَوَعَظَهُم، فَذكَرَ الدُّنْيَا فَذَمَّها وذَكَرَ أهْلَهَا وتَنَعُّمَهُم فيها ومَا صَارُوا إليهِ بَعْدَهَا مِن القُبُورِ، فكانَ مِن كَلامِهِ أَنَّهُ قَالَ: «إذا مَرَرتَ بِهِم فَنَادِهِم إنْ كُنْتَ مُنَادِيًا، وادعُهُم إنْ كُنْتَ دَاعيًا، ومُرَّ بِعَسكرهِم وانْظُر إلى تَقَارُب مَنَازِلِهم، سَل غَنِيَّهُم: مَا بَقِيَ مِن غِنَاهُ؟ وسَل فَقِيرهُم: مَا بَقِيَ مِن فَقْرِهِ؟ واسألْهُم عَنِ الألْسُنِ الَّتي كَانُوا بها يَتكلَّمُون وعن الأعيُنِ التي كَانُوا لِلَّذات بها يَنظُرُون، وسَلهُم عَنْ الجُلُودِ الرَّقيقَةِ والوُجُوه الحَسَنَةِ والأجْسَادِ النَّاعِمَةِ مَا صَنَعَ بها الدِّيدَانُ تَحتَ الأكفَانِ، وأُكِلَتِ اللَّحيَانِ[٢]، وعُفِرَتِ الوُجُوهُ، ومُحِيت المَحَاسِنُ وكُسِرَتِ الفَقَارُ، وبَانَتِ الأعْضَاءُ، ومُزِّقَت الأشْلاءُ، وأينَ حِجَابُهُم وقِبَابُهُم؟ وأين خَدَمُهم وعَبِيدُهُم وجَمْعُهُم وكُنُوزُهُم؟ وكأنهم مَا وَطِئُوا فِرَاشًا وَلَا وَضَعُوا هُنَا مُتَكَأً وَلَا غَرَسُوا شَجَرًا ولا أَنْزَلُوهُم مِن اللَّحْدِ قَرارًا.

أليْسُوا في مَنَازِل الخَلَوَاتِ؟ أليْسَ اللَّيلُ والنَّهار عَلَيهم سَواءً؟ أليسوا في مُدلَهَمَّةٍ

(١) «الإحياء» (٤/ ٤٧٩).

(٢) **اللَّحيان**: هما العظمان اللّذان فيهما الأسنان من داخل الفم. «المعجم الوسيط» (٢/ ٨٥٣)

ظَلْماءَ؟ قَدْ حِيلَ بَيْنَهُم وبين العَمَلِ وفَارَقُوا الأحبَّة، وكَمْ مِن نَاعِمٍ ونَاعِمَةٍ أَصْحَوا وُوُجُوهُهم بَالِيَةٌ وأَجْسَادُهُم مِنْ أعْنَاقِهِم بَائِنَةٌ، أَوْصَالُهُم مُمَزَّقَةٌ وقَدْ سَالَت الحَدَقُ عَلَى الوَجَنَاتِ، وامْتَلأتِ الأفْوَاه دَمًا وصَديدًا ودبَّت دَوابُّ الأرْضِ فِي أَجْسَادِهِم، فَفَرَّقَت أعْضَاءَهُم، ثُمَّ لم يَلْبَثُوا إلَّا يَسِيرًا حَتَّى عَادَتِ العِظَامُ رَمِيمًا، فَقَد فَارَقُوا الحَدَائِقَ وصَارُوا بعد السَّعَةِ إلى المَضَائِقِ، قَدْ تَزوَّجَت نِسَاؤُهُم وتَردَّدَت في الطُّرُقِ أَبْنَاؤُهُم وتَوَزَعَتِ القَرَابَاتُ دِيَارهُم وقُرَاهُم، فَمِنهُم والله المُوَسَّعُ لَهُ فِي قَبْرِهِ الغَضُّ النَّاظِرُ فيه المُتَنعِّمُ بِلذَّاتِه.

يَا سَاكِنَ القَبْرِ غَدًا مَا الَّذِي غَرَّكَ مِن الدُّنْيَا؟ أين دَارُكَ الفَيْحَاءُ ونَهرُكَ المُطَّرِدُ؟ وأين ثِمَارُكَ اليَنِعَةُ؟ وأين رِقَاقُ ثِيَابِكَ؟ وأين طِيبُكَ وبُخُورُكَ؟ وأين كِسوتُك لِصَيفِكَ وشِتَائِكِ؟ أمَا رأيتَهُ قَدْ زَلَّ بِهِ الأمرُ، فما يَدْفَعُ عن نَفْسِهِ دَخَلًا وهُوَ يَرشَحُ عَرقًا ويَتَلَمَّظُ عَطَشًا، يَتَقَلَّبُ فِي سَكَرَاتِ المَوتِ وغَمَرَاتِهِ، جَاءَ الأَمْرُ مِنَ السَّماء وجَاءَ غَالِبُ القَدَرِ والقَضَاءِ.

هَيْهَاتَ يا مُغْمِضَ الوَالِدِ والأخِ وَالوَلَدِ، وغَاسِلَهُ، يا مُكَفِّن المَيِّت ويا مُدخِلَهُ فِي القَبر، ورَاجِعًا عَنْهُ، لَيْتَ شِعْرِي بأي خَدَّيْكَ بَدَأ البِلَى، يا مُجَاوِرَ الهَلَكَاتِ صِرتَ فِي مَحَلَّةِ المَوتِ، لَيْتَ شِعْرِي مَا الَّذِي يَلْقَانِي بِهِ مَلَكُ المَوْتِ عِنْدَ خُرُوجِي مِن الدُّنْيَا ومَا يَأْتِينِي بِهِ مِنْ رِسَالَةِ رَبِّي». ثُمَّ انصرفَ فَمَا عَاشَ بَعْدَ ذَلِكَ إلَّا جُمُعَةً[(١)].

وعَن أبِي سُرِيجِ الشَّامِيِّ، قَالَ: قَالَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيزِ لِرَجُلٍ مِنْ جُلَسَائِهِ: «يَا فُلانُ لِقَد أرِقْتُ اللَّيلَ مُتَفَكِّرًا» قَالَ: فِيمَ يَا أميرَ المُؤمِنين؟ قَالَ: «فِي القَبرِ وسَاكِنِهِ، لَوْ رَأيتَ المَيِّت بَعْدَ ثَلاثةٍ فِي القَبْرِ لاسْتَوحَشْتَ مِن قُرْبِهِ بَعدَ طُولِ الأُنْسِ مِنْكَ بِنَاحِيَتِه، ولَرَأيتَ بَيْتًا تَجُولُ فِيهَ الهَوامُّ ويَجرِي فيه الصَّديدُ وتَخْتَرِقُهُ الدِّيدانُ مع تَغَيُّرِ الرَّائِحَةِ وبِلِي الأكْفَانِ بَعْدَ حُسْنِ الهيئَةِ وطِيبِ الرَّائِحَةِ ونَقَاءِ الثَّوبِ»، قَالَ: ثُمَّ شَهَقَ شَهْقَةً خَرَّ مَغْشِيًّا عَليه.

وقَدْ رُوِيَ عَن عُمَرَ بن عَبدِ العَزيزِ مِن وُجُوهٍ مُتعدِّدةٍ أَنَّهُ قال في آخر خُطبَةٍ خَطَبَهَا -رَحِمَهُ الله عَليهِ-: «ألا تَرونَ أنَّكُم فِي أسلابِ الهَالِكِين، ثُمَّ يَرِثُهَا بَعْدَكُم البَاقُون كَذَلِكَ

(١) «أهوال القبور» لابن رجب الحنبلي (١٥١، ١٥٢).

حَتَّى يُرَدَّ إلى خَيْرِ الوَارِثِينَ، وفي كُلِّ يَوْمٍ تُشَيِّعُون غَادِيًا ورَائِحًا قَدْ قَضَى نَحْبَهُ فَتُودعُونَهُ وتَدَعُونَهُ في صَدعٍ مِن الأرض غَير مُمَهَّدٍ ولا مُوَسَّدٍ، قَدْ فَارَقَهُ الأحبابَ وخَلَعَ الأسْبَابَ وسَكَنَ التُّرَابَ، وَوَاجَهَ الحِسَابَ، غَنِيًّا عَمَّا خَلَّفَ، فَقِيرًا إلى ما قَدَّمَ».

وكانَ يُنْشِدُ هذه الأبياتِ:

مَنْ كَانَ حِينَ تُصِيبُ الشَّمس جَبْهَتَهُ ... أو الغُبَارُ يَخَافُ الشَّيْنَ والشَّعَثا
ويَأْلَفُ الظِّلَّ كَي تَبْقَى بَشَاشَتُهُ ... فَكَيفَ يَسْكُن يَومًا رَاغِمًا جَدَثا؟
في ظِلِّ مَقبرةٍ غَبرَاءَ مُظلِمَةٍ ... يُطِيلُ تحت الثرَى في غَمِّه اللَّبَثا
تَجهَّزي بجِهَازٍ تَبْلُغِينَ بهِ ... يا نَفْسُ قَبْلَ الرَّدَى لم تُخلَقِي عَبثاً

فيا أخا الإسلام...

تَزَوَّد قَرِينًا مِن فِعَالِكَ إنَّما ... قَرِينُ الفَتَى في القَبرِ مَا كَانَ يَفعَلُ
وإن كُنْتَ مَشْغُولاً بشيءٍ فَلا تَكُن ... بغَيرِ الَّذي يَرضَى بهِ الله تُشْغَلُ
فَلَن يَصحَبَ الإنسَانَ مِن بَعدِ مَوتِهِ ... إلى قَبرِهِ إلاَّ الَّذي كَانَ يَعمَلُ
ألا إنَّمَا الإنْسَانُ ضَيْفٌ لأهْلِهِ ... يُقِيمُ قَلِيلاً عِندَهُم ثُمَّ يَرحَلُ[١]

ويا أيها الغافل عن مصيره:

يَا غَافِلَ القَلبِ عن ذِكرِ المَنِيَّاتِ ... عَمَّا قَلِيلٍ سَتَثوِي بَيْنَ أمْوَاتِ
فَاذْكُر مَحَلَّكَ مِن قَبلِ الحُلُول بهِ ... وتُبْ إلى الله مِن لَهْوٍ ولَذَّاتِ
إنَّ الحِمَامَ لَهُ وقفٌ[٢] إلى أمدٍ[٣] ... فَاذكُر مَصَائِبَ أيَّامٍ وسَاعَاتِ
لا تَطمَئِنَّ إلى الدُّنْيَا وزِينَتِهَا ... قَدْ حَانَ للمَوتِ يَا ذَا اللُّبِّ أنْ يَأتِي[٤]

---

(١) «البحور الزاهرة» (١/ ٣٤٣).
(٢) الوقف: الحبس.
(٣) الأمد: الأجل.
(٤) «أهوال القبور» (١٤٥).

فاستعدوا - عباد الله - للقاء مولاكم، وها هو رب العزة سُبْحَانَهُ يقول: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩].

فالكيِّس مَن دان نفسه وعمل لِما بعد الموت، والعاجز مَن أتبع نفسه هواها، وتمنَّى عَلَى الله الأماني.

أسأل الله تَعَالَى أن يوفِّقني وإياكم لعمل الصَّالحات، إنَّهُ وليّ ذَلِكَ والقادر عليه.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

إن الموت حتمٌ عَلَى كل حيّ. قال الله تَعَالَى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

وتذكُّر الموت له فوائد، من هَذِهِ الفوائد(١):

١- إنَّ تذَكُّر المَوت بِصُورةٍ دَائِمةٍ يَجعَلُ المُسلِمَ يُعطِي كُلَّ لَحظةٍ حَقَّهَا مِنَ الواجِبِ، ويَبتَعِدُ عَنِ المُخَالَفَاتِ الشَّرعيَّةِ.

٢- ويَجعَلُ المُؤمِنَ يَعمَلُ في حَيَاتِهِ مَا يَدُومُ لَهُ أجْرُهُ بَعْدَ مَوتِهِ.

٣- بِمَا أنَّ المَوتَ حتمٌ عَلَى كُلِّ حَيٍّ وتَبدأُ بَعدَهُ مَرحَلَةُ السُّؤالِ والحِسَابِ فَلابُدَّ مِنَ التَّذكُّرِ والتَّدبُّرِ قَبلَ فَواتِ الأوانِ.

٤- كَثيرٌ مِن النَّاس وعلى مَرِّ التَّاريخ يُسعِفُهُمُ الله بالحَظِّ ويَمُدُّ لَهُم الأسبَابَ فَتَتوفَّرُ لَهُم الحِمَايَةُ الصِّحيَّةُ والسَّعادةُ الدُّنيويَّةُ فَيَستبعِدُونَ ذِكرَ الموتِ مِن حِسَابِهِم فَيَبطُشُونَ

---

(١) من «نضرة النعيم».

ويَتَجَبَّرونَ ثُمَّ تَقَعُ الطَّامَّةُ عَلَيهم فَلا يَجِدُون عَدلًا ولا صَرفًا، وهؤُلاءِ لا يَنْبَغِي أن يُغتَرَّ بِمَا هُم فيه.

٥- أحزَمُ النَّاس وأملكُهُم لِشَأنِهِ أكثرُهُم ذِكرًا واستعدَادًا للموتِ.

٦- تَذكُّر الموتِ يَدفعُ المرءَ إلى الحَيَاءِ مِن الله فَلَا يُقارِفُ المعصِيةَ.

٧- إنَّ مِن أشدِّ الحَياءِ مِن الله عَزَّ وَجَلَّ تَذَكُّر الموتِ والعَمَلَ لِما بَعدَهُ.

٨- مَوتُ المُسلمِ وغَسلُهُ وتَكفِينهُ والصَّلاةُ عليهِ وحَملُهُ إلى المَقَابرِ ودَفْنُهُ، كُلُّها مَظاهِرُ تَذكِيرٍ وإنذَارٍ لِكُلِّ أحدٍ بأنَّ هذا مَصيرُهُ ولا يَأخُذُ مَعهُ إلَّا مَا قَدَّمَ مِن خيرٍ أو شَرٍّ.

الخطبة السبعون:

لا تمنّوا الموت

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد نهى الإسلام عن تمنّي الموت.

فعن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ الله عَنْهُمَا قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لاَ تَمَنَّوُا المَوْتَ فَإِنَّ هَوْلَ المَطْلَعِ شَدِيدٌ وَإِنَّ مِنَ السَّعَادَةِ أَنْ يَطُولَ عُمْرُ العَبْدِ وَيَرْزُقَهُ اللَّهُ الإِنَابَةَ» [١].

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لاَ يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْرًا، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ» [٢].

(١) قال المنذريّ في «الترغيب والترهيب» (٤٧٧٦): رواه أحمد بإسناد حسن، والبيهقي.
(٢) رواه البخاري واللفظ له، ومسلم.

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِي الله عَنْهُ قَالَ: قال النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ يَتَمَنَّى أَحَدُكُمُ المَوْتَ مِنْ ضُرٍّ نَزَلَ بِهِ، فَإِنْ كَانَ لاَ بُدَّ فَاعِلاً فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْراً لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الوَفَاةُ خَيْراً لِي»[1].

عباد الله...

ما هي أسباب كراهية الموت؟

يُجيب عن هذا السؤال **الإمام الغزاليُّ** - رَحِمَهُ الله تَعَالَى - فيقول (ما مختصره):

«كراهية الموت قَدْ تكون [لعدة أسباب]:

الأول: حُبّ الدُّنْيَا والتأسّف على فرق الأهل والمال والولد، وهذا ينافي كمال حُبّ الله تَعَالَى؛ لأنَّ الحبّ الكامل هو الذي يستغرق كل القلب، ولكن لا يبعد أن يكون له مع حبّ الأهل والولد شائبة من حُب الله تعالى ضعيفة، فإن الناس متفاوتون في الحبّ.

وأما السبب الثاني للكراهة: فهو أن يكون العبد في ابتداء مقام المحبَّة، وليس يكره الموت وإنما يكره عجلته قبل أن يستعد للقاء الله، فذلك لا يدلّ على ضعف الحبّ وهو كالمحبّ الذي وصله الخبر بقدوم حبيبه عليه فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليُهيئ له داره ويعدّ له أسبابه، فيلقاه كما يهواه فارغ القلب عن الشواغل، خفيف الظهر عن العوائق، فالكراهة بهذا السبب لا تنافي كمال الحب أصلًا، وعلامته الدؤوب في العمل واستغراق الهمّ في الاستعداد.

ومنها: أن يكون مؤثرًا ما أحبَّه الله تعالى على ما يُحبّه في ظاهره وباطنه، فيلزم مشاقّ العمل ويجتنب إتباع الهوى ويعرض عنه دعة الكسل، ولا يزال مواظبًا على طاعة الله ومتقرّبًا إليه بالنوافل وطالبًا عنده مزايا الدرجات كما يطلب المحبُّ مزيد القرب في قلب محبوبه.

بل الحبّ إذا غلب قمع الهوى فلم يبق له تنعّم بغير المحبوب.

فإذن مَن أحب الله لا يعصيه.

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

وفي هذا المعنى:

وأتــرك مــا أهــوى لمــا قــد هويــته فأرضــى بما ترضى وإن سخطت نفسي

وقال سهلٌ - رَحِمَهُ الله تَعَالى -: «علامة الحب إيثاره على نفسك، وليس كل مَن عمل بطاعة الله عَزَّ وَجَلَّ صار حبيبًا، وإنها الحبيب من اجتنب المناهي».

ومنها: أن يكون مستهترًا بذكر الله تَعَالى، لا يفتر عنه لسانه ولا يخلو عنه قلبه، فمن أحبّ شيئًا أكثر بالضرورة من ذكره ما يتعلّق به، فعلامة حُبّ الله: حُبّ ذكره، وحُبّ القرآن الذي هُوَ كلامه، وحُبّ رَسُول الله ﷺ، وحُبّ كل من يُنسب إليه.

وقال سفيان: «مَن أحبّ مَن يحب الله تعالى فإنها أحبّ الله، ومَن أكرم مَن يُكرم الله تعالى فإنها يكرم الله».

ومنها: أن يكون أُنسه بالخلوة ومناجاته لله تعالى وتلاوة كتابه، فيواظب على التهجّد ويغتنم هدوء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق.

ومنها: أن لا يتأسّف على ما يفوته مِمَّا سوى الله عَزَّ وَجَلَّ ويعظّم تأسّفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالى وطاعته، فيكثر رجوعه عند الغفلات بالاستعطاف والاستعتاب والتوبة.

ومنها: أن يتنعّم بالطاعة ولا يستثقلها ويسقط عنه تعبها.

قال الجنيد: «علامة المحبّ: دوام النشاط والدءوب بشهوة تفتر بدنه ولا تفتر قلبه».

ومنها: أن يكون مشفقًا على جميع عباد الله رحيمًا بهم شديدًا على جميع أعداء الله وعلى كل من يقارف شيئًا مما يكرهه كما قال الله تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، ولا تأخذه لومة لائم ولا يصرفه عن الغضب لله صارف.

فهذه علامات المحبَّة، فمن تـمَّت فيه هذه العلامات فقد تمت محبَّته وخلص حُبّه، فَصَفا في الآخرة شرابه، وَعَذَبَ مَشْربه» اهـ[1].

---

(١) «الإحياء» (٤/ ٣٣٠ - ٣٣٤) باختصار شديد.

عباد الله...

أما تمنِّي الموت: فقد تقدّم النَّهي عنه. وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لاَ يَتَمَنَّى أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ وَلاَ يَدْعُ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ إِنَّهُ إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ وَإِنَّهُ لاَ يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ عُمْرُهُ إِلاَّ خَيْرًا**»[(١)].

قَالَ النووي في «شرح مسلم» (٥/ ٥٣٧): «فيه التصريح بكراهة تمني الموت لضر نزل به من مرض أو فاقة أو محنة من عدو أو نحو ذلك من مشاق الدُّنْيَا، فأما إذا خاف ضررا فى دينه، أوفتنة فيه فلا كراهة فيه لمفهوم هذا الحديث وغيره، وقَدْ فعل هذا الثاني خلائق من السلف عند خوف الفتنة فى أديانهم.

وفيه: أنه إن خاف ولم يصبر على حاله فى بلواه بالمرض ونحوه فليقل: اللَّهُمَّ أحينى إن كانت الحياة خيرًا لى... إلخ، والأفضل الصبر والسكون للقضاء».

قَالَ الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١٠/ ١٣٣، ١٣٤): « لا يتمنّين... أَنَّهُ إذا حلّ به - أي الموت - لا يمنع من تمنيه رضًا بلقاء الله ولا من طلبه من الله لذلك وهو كَذَلِكَ، ولهذه النكتة عقّب البخاري حديث أبي هريرة بحديث عائشة: «**اللَّهُمَّ اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى**»: إشارة إلى أن النهي مختص بالحالة التي قبل نزول الموت، فللّه دَرُّه ما كان أكثر استحضاره وإيثاره للأخفى على الأجلي شحذا للأذهان، وقد خفي صنيعه هذا على من جعل حديث عائشة في الباب[(٢)] معارضًا لأحاديث الباب أو ناسخًا لها، وقوى ذلك بقول يوسف عليه السلام: ﴿**تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**﴾ [يوسف: ١٠١]، قال ابن التين: قيل: إن النَّهي منسوخ بقول يوسف... فذكره، وبقول سليمان: ﴿**وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ**﴾ [النمل: ١٩]، وبحديث عائشة في الباب، وبدعاء عمر بالموت وغيره، قال: وليس الأمر كذلك لأن هؤلاء إنما سألوا ما قارب الموت.

قلت[(٣)]: وقد اختلف في مراد يوسف عليه السلام فقال قتادة: «لم يتمنّ الموت أحد

(١) رواه أحمد، ومسلم، من حديث أبي هريرة.
(٢) باب تمني المريض الموت.
(٣) الكلام لابن حجر.

إلَّا يوسف حين تكاملت عليه النِّعم وجُمع له الشَّمل، اشتاق إلى لقاء الله». أخرجه الطبراني بسند صحيح عنه.

وقال غيره: «بل مراده توفني مسلمًا عند حضور أجلي». كذا أخرجه ابن أبي حاتم عن الضحاك بن مزاحم وكذلك مراد سليمان عليه السلام.

وعلى تقدير الحمل على ما قال قتادة فهو ليس من شرعنا، وإنما يُؤخذ بشرع مَن قبلنا ما لم يرد في شرعنا النَّهي عنه بالاتفاق، وقد استشكل الإذن في ذلك عند نزول الموت؛ لأن نزول الموت لا يتحقق، فكم من انتهى إلى غاية جرت العادة بموت من يصل إليها ثم عاش.

والجواب أَنَّهُ: يحتمل أن يكون المراد أن العبد يكون حاله في ذلك الوقت حال من يتمنى نزوله به ويرضاه. أن لو وقع به، والمعنى: أن يطمئن قلبه إلى ما يرد عليه من ربه ويرضى به ولا يقلق، ولو لم يتفق أَنَّهُ يموت في ذلك المرض» ا.هـ..

قال علي بن أبي طالب رَضِي الله عَنْهُ في يوم الجمل: «ليتني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة» [(١)].

وتمنَّى عطاء السّلمي الموت، وقال: «إنما يريد الحياة مَن يزداد خيرًا، فأمَّا مَن يزداد شرًّا فما يصنع بالحياة» [(٢)].

وكان أبو رجاء العطاردي يقول: «لأنا إلى مَن في بطنها أشوق مني إلى مَن في ظهرها» [(٣)].

وعن أبي مهلهل سعيد بن صدقة قال: أخذ بيدي سفيان الثوري يومًا فأخرجني إلى الجبّان، فاعتزلنا ناحية من طريق النَّاس، فبكى ثم قال: يا أبا مهلهل، وددت أني لم أكن كتبت من هذا العلم حرفًا واحدًا إلَّا ما لا بد للرجل منه.

قال: ثم بكى، ثم قال: يا أبا مهلهل، قَدْ كنت قبل اليوم أكره الموت، فقلبي اليوم

---

(١) «كتاب المتمنّين» لابن أبي الدُّنْيَا (ص٦٢).

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

يتمنى الموت، وإن لم ينطق به لساني، قلت: ولم ذاك؟ قال: لتغيّر النَّاس وفسادهم[1].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لاَ تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ عَلَى القَبْرِ فَيَتَمَرَّغُ عَلَيْهِ وَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِى كُنْتُ مَكَانَ صَاحِبِ هَذَا القَبْرِ، وَلَيْسَ بِهِ الدِّينُ إِلاَّ البَلاَءُ**».

قَالَ أبو نُعيم فِي «الحلية» (٢/ ١٤): كان العرباض بن سارية رَضِيَ الله عَنْهُ يقول وقد كَبُرت سِنُّه: «**اللَّهُمَّ كَبُرَت سِنِّي، وَوَهن عَظْمي فاقبضني إليك**».

عباد الله...

وتمنِّي الموت يقع على وجوه:

منها: تمنّيه لضر دنيوي ينزل بالعبد فينهى حينئذٍ عن تمنّي الموت.

ووجه كراهيته في هذا الحال: أن المتمني للموت لضر نزل به إنما يتمناه تعجيلًا للإستراحة من ضره وهو لا يدري إلى ما يصير بعد الموت، فلعله يصير إلى ضر أعظم من ضره فيكون كالمستجير من الرمضاء بالنار. وفي الحديث عن النَّبيّ ﷺ قال: «**إنما يستريح مَن غُفِر لَهُ**» فلهذا لا ينبغي له أن يدعو بالموت إلَّا أن يشترط أن يكون خيرًا له عند الله عَزَّ وَجَلَّ.

ومنها: تمنّيه خوف الفتنة في الدين فيجوز حينئذٍ، وقد تمنَّاه ودعا به خشية فتنة الدين خلقٌ مِن الصحابة وأئمة الإسلام وفي حديث المنام: «**وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضني إليك غير مفتون**».

ومنها: تمني الموت عند حضور أسباب الشهادة، فيجوز ذلك أيضا، وسؤال الصحابة الشهادة وتعرضهم لها عند حضور الجهاد كثير مشهور، وكذلك سؤال معاذ لنفسه وأهل بيته الطاعون لَـمَّا وقع بالشام.

ومنها: تمنِّي الموت لمن وثق بعمله شوقًا إلى لقاء الله عَزَّ وَجَلَّ، فهذا يجوز أيضًا وقد فعله كثير من السلف.

---

(١) المرجع السابق.

قال أبو عنبسة الخولاني: كان مَن قبلكم لقاء الله أحبّ إليه مِن الشهد.

وقال بعضهم: طال شوقي إليك فعجّل قدومي عليك.

وقد دلّ على جواز ذلك قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤]، وقوله تَعَالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لله مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦].

فدلّ ذلك على أنَّ أولياء الله لا يكرهون الموت بل يتمنوه ثم أخبر أنهم: ﴿وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [الجمعة: ٧]، فدلّ على: أنَّهُ يكره الموت مَن له ذنوب يخاف القدوم عليها.

وفي حديث عمّار بن ياسر عن النَّبيّ ﷺ: «...وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ وَلاَ فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ»، فالشوق إلى لقاء الله تعالى إنما يكون بمحبّة الموت وذَلِكَ لا يقع غالبًا إلَّا عند خوف ضرَّاء مضرة في الدُّنْيَا أو فتنة مضلة في الدِّين، فأما إذا خلا عن ذلك كان شوقًا إلى لقاء الله عَزَّ وَجَلَّ، وهو المسئول في هذا الحديث.

فالمطيع لله مستأنس بربه فهو يحب لقاء الله، والله يحب لقاءه، والعاصي مستوحش بينه وبين مولاه وحشة الذنوب فهو يكره لقاء ربه ولابد له منه.

وقال ذو النون: كل مطيع مستأنِس وكل عاص مستوحش، وفي هذا يقول بعضهم:

أمستوحش أنت مما جنيت ... فأحسن إذا شئت واستأنس

قال أبو بكر الصديق لعمر رَضِيَ الله عَنْهُمَا في وصيته له عند الموت: إن حفظت وصيتي لم يكن غائب أحبّ إليك مِن الموت ولا بد لك منه، وإن ضيّعتها لم يكن غائب أكره إليك من الموت ولن تعجزه.

قال أبو حازم: كُل عمل تكره الموت من أجله فاتركه ثم لا يضرَك متى مِت.

ومنها: تمنّي الموت على غير الوجوه المتقدمة، فقد اختلف العلماء في كراهيته

. ستحبابه، وقَدْ رخّص فيه جماعة من السلف وكرهه آخرون، وحكى بعض أصحابنا عن أحمد في ذلك روايتين ولا يصح، فإن أحمد إنما نص على كراهة تمني الموت لضرر دنيا وعلى جواز تمنيه خشية الفتنة في الدين.

واستدل من كرهه بعموم النَّهي عنه، كما في حديث جابر عن النَّبيّ ﷺ: «**لاَ تَمَنَّوُا الْمَوْتَ فَإِنَّ هَوْلَ الْمَطْلَعِ شَدِيدٌ وَإِنَّ مِنَ السَّعَادَةِ أَنْ يَطُولَ عُمْرُ الْعَبْدِ وَيَرْزُقَهُ اللَّهُ الإِنَابَةَ**».

وقد علل النّهي عن تمنِّي الموت في حديث جابر بعلتين:

إحداهما: أن هول المطلع شديد، وهول المطلع: هو ما يكشف للميت عند حضور الموت من الأهوال التي عهد له بشيء منها في الدُّنْيَا؛ مِن رؤية الملائكة، ورؤية أعماله من خير أو شر، وما يبشّر به عند ذلك من الجَنَّة والنار، هذا مع ما يلقاه من شدة الموت وكربه وغصصه.

قال الحسن: لو أعلم ابن آدم أن له في الموت راحة وفرحًا لشقّ عليه أن يأتيه الموت لما يعلم من فظاعته وشدته وهوله، فكيف وهو لا يعلم ما له في الموت نعيم دائم أو عذاب مقيم.

فالمتمني للموت كأنه يستعجل حلول البلاء، وإنما أمرنا بسؤال العافية.

والعلة الثانية: أنَّ المؤمن لا يزيد عمره إلا خيرًا فمن سعادته أن يطول عمره ويرزقه الله الإنابة إليه.

واختلف السالكون أيها أفضل: مَن تمنَّى الموت شوقًا إلى لقاء الله، أو مَن تمنَّى الحياة رغبة في طاعة الله، أو مَن فوّض الأمر إلى الله ورضي باختياره له ولم يختر لنفسه شيئًا.

فذهب قوم إلى تفضيل الموت على الحياة، واستدلوا بقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ**﴾ [آل عمران: ١٩٨].

ولكن الأحاديث الصحيحة تدلّ على أنَّ عُمر المؤمن كلَّما طال ازداد بذلك ما له عند الله من الخير، فلا ينبغي له أن يتمنى انقطاع ذَلِكَ؛ اللَّهُمَّ إلَّا أن يخشى الفتنة على دينه، فإنه إذا خشي الفتنة على دينه فقد خشي أن يفوته ما عند الله من خير، والموت خيرٌ من الحياة على هذه الحال.

قال ميمون بن مهران: لا خير في الحياة إلا لتائب أو رجل يعمل في الدرجات.

عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ الله: أَنَّ رَجُلَيْنِ قَدِمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ إِسْلامُهُمَا جَمِيعاً، وَكَانَ أَحَدُهُمَا أَشَدَّ اجْتِهَاداً مِنْ صَاحِبِهِ، فَغَزَا الْمُجْتَهِدُ مِنْهُمَا فَاسْتُشْهِدَ ثُمَّ مَكَثَ الآخَرُ بَعْدَهُ سَنَةً ثُمَّ تُوُفِّيَ.

قَالَ طَلْحَةُ: فَرَأَيْتُ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ: كَأَنِّي عِنْدَ بَابِ الجَنَّةِ إِذَا أَنَا بِهِمَا وَقَدْ خَرَجَ خَارِجٌ مِنَ الجَنَّةِ فَأَذِنَ لِلَّذِى تُوُفِّيَ الآخِرَ مِنْهُمَا، ثُمَّ خَرَجَ فَأَذِنَ لِلَّذِى اسْتُشْهِدَ ثُمَّ رَجَعَا إِلَيَّ فَقَالاَ لِي: ارْجِعْ فَإِنَّهُ لَمْ يَأْنِ لَكَ بَعْدُ.

فَأَصْبَحَ طَلْحَةُ يُحَدِّثُ بِهِ النَّاسَ، فَعَجِبُوا لِذَلِكَ فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «**مِنْ أَيِّ ذَلِكَ تَعْجَبُونَ؟**». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ هَذَا كَانَ أَشَدَّ اجْتِهَاداً ثُمَّ اسْتُشْهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدَخَلَ هَذَا الجَنَّةَ قَبْلَهُ. فَقَالَ: «**أَلَيْسَ قَدْ مَكَثَ هَذَا بَعْدَهُ سَنَةً؟**». قَالُوا: بَلَى. قال: «**وَأَدْرَكَ رَمَضَانَ فَصَامَهُ؟**»، قَالُوا: بَلَى. قال: «**وَصَلَّى كَذَا وَكَذَا سَجْدَةً فِي السَّنَةِ؟**» قَالُوا: بَلَى. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**فَلَمَا بَيْنَهُمَا أَبْعَدُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**» (١).

وقال رَسُول الله ﷺ: «**خير النَّاس مَن طال عمره وحَسن عمله**» (٢).

عن أَبِي بَكْرَةَ رَضِي الله عَنْهُ مولى رَسُول الله ﷺ قال: أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «**مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ**». قَالَ: فَأَيُّ النَّاسِ شَرٌّ؟ قَالَ: «**مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ**» (٣).

قيل لبعض السلف: أطلب الموت؟ قال: لا تفعل، لساعةٌ تعيش فيها تستغفر الله خير لك من موت الدهر.

وقيل لشيخ كبير منهم: تحب الموت؟ قال: لا، قيل: ولمَ؟ قال: ذهب الشباب وشره

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألباني، وانظر «صحيح سنن ابن ماجه» حديث رقم (٣١٧١).

(٢) **صحيح**: رواه أحمد في «مسنده»، والترمذي عن عبد الله بن بسر، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٢٩٦).

(٣) **صحيح**: رواه أحمد في «مسنده»، والترمذي، والحاكم في «المستدرك» وصححه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٢٩٧).

رجاء الكبر وخيره، فإذا قمت قلت: بسم الله وإذا قعدت قلت: الحمد لله، فأنا أحب أن يبقى لي هذا.

الموتى في قبورهم يتحسرون على زيادة في أعمالهم بتسبيحة وبركعة، ومنهم من يسأل الرجعة إلى الدنيا لذلك، فلا يقدرون على ذلك قد حيل بينهم وبين العمل غلقت منهم الرهون.

ورؤي بعضهم في المنام فقال: ندمنا على أمر عظيم، نعلم ولا نعمل، وأنتم تعملون ولا تعلمون، والله لتسبيحة أو تسبيحتان أو ركعة أو ركعتان في صحيفة أحدنا أحبُّ إليه من الدُّنْيَا وما فيها.

قال بعض السَّلف: كُلّ يوم يعيش فيه المؤمن غنيمة.

وقال بعضهم: بقية عمر المؤمن لا قيمة له - يعني أنه يمكنه أن يمحو فيه ما سلف منه من الذنوب بالتوبة وأن يجتهد فيه في بلوغ الدرجات العالية بالعمل الصالح - فأمَّا مَن فرَّط في بقية عمره فإنه خاسر، فإن ازداد فيه من الذنوب فذلك هو الخسران المبين، الأعمال بالخواتيم مَن أصلح فيما بقي غُفِر له ما مضى، ومن أساء فيما بقي أخذ بما بقي وما مضى»[1].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومِمَّا ينبغي أن يُعلم في هذا المقام:

أن دواهي الموت ثلاث:

الأولى: شدّة النزع، وقَدْ ذكرنا ذَلِكَ في غير موضع.

الداهية الثانية: مشاهدة صورة مَلَك الموت ودخول الروع والخوف منه عَلَى القلب،

---

(١) «لطائف المعارف» لابن رجب (٣٢٨)، و«سبكب العبرات» (١/ ٢٠ - ٢٩). باختصار.

فلو رأى صورته التي يُقبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال قوّة لم يطق رؤيته.

وأما المطيع فإنه يراه في أحسن صورة وأجملها.

الداهية الثالثة: مشاهدة العصاة مواضعهم من النار وخوفهم قبل المشاهدة، فإنهم في حال السكرات قَدْ تخاذلت قواهم واستسلمت للخروج أرواحُهم، ولن تخرج أرواحُهم ما لم يسمعوا نغمة مَلَك الموت بأحد البُشْرَيَين: إمَّا أبشر يا عدوّ الله بالنار، أَوْ أبشر يا وليّ الله بالجنة.

ولذلك قطع خوفُ سوء الخاتمة قلوب العارفين، وهو مِن الدواهي العظيمة عند الموت» ا.هـ[1].

اللَّهُمَّ إنَّا نسألك قبل الموت توبة
وعند الموت شهادة، وعندك جنة ونعيمًا وملكًا كبيرًا

۞۞۞۞۞

---

(١) «الإحياء» (٤/ ٤٦٣ - ٤٦٥) باختصار شديد، وتصرّف يسير.

الخطبة الحادية والسبعون:

[أ] فضل ذِكر الموت والاستعداد له

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فإن الموت حق، وسيفه مُصلت عَلَى رِقاب النَّاس جميعًا، لم يترك نبيًّا ولا وليًّا، فقد نزل بجميع الأنبياء والأولياء. ولم يترك جَبَّارًا شقيًّا، فقد نزل بجميع الجبابرة والأشقياء.

قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقال تَعَالَى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

فلا ملجأ من الله إلَّا إليه... والسعيد مَن استعدَّ لقدوم الموت عليه.

تـــزوّد مـــن حـــياتك للمعـــاد وقُـــم لله واجمـــع خَـــيرَ زاد

ولا تكـــن إلى الدُّنْـــيَا كـــثيرًا فـــإن المـــال يُجمـــع للـــنفاد

أترضـــى أن تكـــون رفـــيق قـــوم لهـــم زاد وأنـــت بغـــير زاد؟!

عباد الله...

كان بالبصرة عابدٌ قَدْ أجهده الخوف، وأسقمه البكاء وأنحله، فَلَمَّا حضرته الوفاة جلس أهله حوله يبكون، فقال لهم: أجلسوني، فأجلسوه، فأقبل عليهم وقال لأبيه: يا أبت ما الَّذِي أبكاك؟

قال: يا بني، ذكرت فقدك، وانفرادي بعدك.

فالتفت إلى أُمّه وقال: يا أماه، ما الَّذِي أبكاك؟!

قالت: يا بني، لتجرعي مرارة ثكلك.

فالتفت إلى زوجته وقال: ما الَّذِي أبكاك؟!

قالت: لفَقد برك، وحاجتي لغيرك.

فالتفت إلى أولاده وقال: ما الَّذِي أبكاكم؟

قالوا: لذل اليتم والهوان بعدك.

فعند ذَلِكَ نظر إليهم وبكى، فقالوا: ما يبكيك أنت؟

قال: أبكي لأني رأيت كُلًّا منكم يبكي لنفسه لا لي، أما فيكم من يبكي طول سفري؟ أما فيكم مَن يبكي لقلة زادي؟ أما فيكم من يبكي لمضجعي في التراب؟ أما فيكم مَن بكى لِما ألقاه من سوء الحساب؟ أما فيكم مَن بكى لموقفي بين يدي رب الأرباب؟

ثم سقط عَلَى وجهه فحركوه، فإذا هو ميت[1].

---

(١) انظر «المواعظ والمجالس» (ص١١٠) لابن الجوزي.

ويروى شهر بن حوشب -رَحِمَهُ الله - فيقول: «دخل ملك الموت على سليمان عليه السلام، فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم إليه النظر، فلما خرج قال الرجل: من هذا؟

قال: هذا ملك الموت عَلَيْهِ السَّلام.

قال: لقد رأيته ينظر إليَّ كأنه يريدني.

قال: فما تريد؟

قال: أريد أن تحملني على الريح فتلقيني بالهند.

قال: فدعا بالريح فحمله عليها فألقته بالهند، ثم أتى ملك الموت سليمان عليه السلام، فقال: إنك كنت تديم النظر إلى الرجل من جلسائي.

قال: كنت أعجب منه، إني أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك»[1].

وفي رواية داود بن أبي هند -رَحِمَهُ الله - قال: «كان لداود عليه السلام صديقٌ من بني إسرائيل، فكان داود عليه السلام معجبًا به، فكان مجلسه وحديثه للرجل حَتَّى غبطه بنو إسرائيل.

قال: فَلَمَّا مات داود وولي سُليمان عليهما الصلاة والسلام، قال في نفسه: مَن أصطنع من بني إسرائيل في مجلسي وحديثي؟ قال: ما أعلم أحدًا أحق بذلك من هذا الشيخ، الَّذِي توفي رَسُول الله ﷺ وهو عنه راضٍ.

قال: فاتخذه لنفسه، وكان سليمان عليه السلام مهيبًا لا يبتدأ بشيءٍ حَتَّى يكون هو الَّذِي يسأله عنه.

قال: فأدنى مجلس الشيخ حَتَّى كان هو الَّذِي يلي سريره، فربما قعد سليمان عليه السلام عَلَى سريره فيسند الشيخ ظهره إلى سرير سليمان عليه السلام.

قال: حَتَّى غبطه جنود سليمان عليه السلام، فقيل له: ادخل عليه كل يوم دخلة يسأله عن حاجته، ثم لا يبرح حَتَّى يقضيها له.

قال: وكان سليمان عليه السلام إذا قعد عَلَى سريره، وأذن لجنوده فدخلوا عليه،

---

(١) انظر «الحلية» (٤/ ١١٨).

دخل عليه ملك الموت عليه السلام في صورة رجلٍ، فيسأله كيف هو؟ ثم يقول له: يا رَسُول الله ألك حاجة؟ فإن قال: نعم، لم يبرح حَتَّى يقضيها له، وإن قال: لا، انصرف عنه إلى الغد.

قال: فقعد سليمان عليه السلام يومًا أشد ما كان بملكه، وقعد الشيخ إليه فأسند ظهره إلى سرير سليمان عليه السلام، وأذن لجنوده فدخلوا عليه من الجن والإنس وسواهم، فجعلوا ينظرون إلى الشيخ مسندًا ظهره إلى سرير سليمان فيغبطونه، فدخل عليه ملك الموت عليه السلام في صورة رجلٍ، فقام فسلّم، فقال لسليمان عليه السلام: كيف بت الليلة الماضية؟ ثم قال: ألك حاجة يا رَسُول الله؟

قال: لا، فلحظ إلى الشيخ لحظة، فارتعد الشيخ.

قال: وانصرف ملك الموت عنهم، فقال الشيخ: يا رَسُول الله، كيف كان رضا رَسُول الله داود عنّي؟ قال: حسن.

قال: فكيف رضاك عني؟ قال: حسن.

قال: فإني أسألك بالله أن تأمر الريح فتحملني فتقذفني بأقصى مدرة من أرض الهند. قال ذلك وهو يرتعد.

فقال له سليمان: ولِمَ؟

قال: هو ذَلِكَ، أسألك بالله إلَّا أمرت الريح فتحملني فتلقيني بأقصى مدرة من أرض الهند.

قال سليمان: نعم، فأخبرني لم ذَلِكَ؟

قال: ألم ترى إلى الرجل الَّذِي دخل عليك قام فسلّم، ثم سألك كيف بت في ليلتك الماضية، لحظ إليَّ لحظة، فما تمالكت رعدة.

فقال له سليمان عليه السلام:هل إلَّا رجل نظر إليك؟

قال: هو ما أقول لك.

فدعا سليمان عليه السلام الريح فقال: احتمليه فألقيه بأقصى مدرة من أرض الهند، فاحتملته فصعدت به، ثم تصوبت به فألقته بأقصى مدرة من أرض الهند.

قال: قول الله تَعَالى: ﴿رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦]. قَالَ: ليس باللينة، ولا بالعاصفة، أي: وسط. غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ؛ فإذا أراد غير ذَلِكَ كان ما أراد.

فظلّ سليمانُ عليه السلام يومه ذَلِكَ بأشر يوم، وبات ليلته بأشد ليلةٍ حزنًا عليه، فَلَمَّا أصبح سليمان عليه السلام غدا قِبَلَ مجلسه الَّذِي كان يجلس فيه، وأذن لجنوده، فدخل عليه ملك الموت عليه السلام في صورة رجلٍ فسلم، وسأله كيف بات في ليلته الماضية؟ فأخبره، ثم قال: يا رَسُول الله، ألك حاجة؟

قال سليمان عليه السلام: الحاجة غدت بي إلى هذا المكان، فذهب يخبره رضا داود عليه السلام عن الشيخ، ورضاه عنه واستئناسه به. ثم قال: كان ما كان به.

فقال له ملك الموت: حسبك يا رَسُول الله، ما ينقضي عجبي منه، هبط إليَّ كتابه أمس: أن أقبض روحه غدًا مع طلوع الفجر بأقصى مدرة بأرض الهند، فهبطت به وما أحسبه إلَّا ثَمَّ، فدخلت عليك فإذا هو قاعدٌ معك، فجعلت أتعجب وأنظر إليه ما لي همٌّ غيره. فهبط عليه اليوم، والذي بعثك بالحق، مع طلوع الفجر فوجدته بأقصى مدرة من أرض الهند، ينتفض، فقبضت روحه، وتركت جسده هناك[١].

عباد الله...

وتصديق ذَلِكَ قول الله تَعَالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

فاستعدوا – عباد الله – للموت، واجعلوه نُصب أعينكم.

روى النسائي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ**». يَعْنِي المَوْتَ. أخرجه ابن ماجه والترمذي أيضًا[٢].

وأخرجه أبو نعيم الحافظ بإسناده من حديث مالك بن أنس عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب رَضِي الله عَنْهُ قال: قال رَسُول الله ﷺ:

---

(١) «الحبائك» للسيوطي (١٦٧).

(٢) صحيح.

«**أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ**». قلنا: يا رَسُول الله: وما هاذم اللذات؟ قال: «**الموت**»[(١)].

وروى ابن ماجه عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ جالسًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَاءَهُ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا**». قَالَ: فَأَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَكْيَسُ؟ قَالَ: «**أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا وَأَحْسَنُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا أُولَئِكَ الأَكْيَاسُ**». أخرجه مالك أيضًا[(٢)].

وروى عن أنسٍ قال: قال رَسُول الله ﷺ: «**أكثروا ذكر الموت، فإنه يمحّص الذُّنوب، ويزهّد في الدنيا**»[(٣)].

وقال السُّدِّيّ في قوله تَعَالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**﴾ [الملك: ٢] أي: أكثركم للموت ذكرًا، وله أحسن استعدادًا، ومنه أشدّ خوفًا وحذرًا.

قَالَ القرطبيُّ – رَحِمَهُ الله – في «التذكرة»:

قال علماؤنا رحمة الله عليهم: [قوله عليه السلام: «**أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ**» الموت] كلامٌ مختصر وجيز قد جمع التذكرة وأبلغ في الموعظة، فإن من ذكر الموت حقيقة ذكره نغص عليهِ لذته الحاضرة، ومنعه من تمنيها في المستقبل وزهده فيما كان منها يؤمل ولكن النفوس الراكدة والقلوب الغافلة تحتاج إلى تطويل الوعاظ وتزويق الألفاظ، وإلا ففي قوله عليه الصلاة والسلام: «**أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ**» مع قوله تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾ ما يكفي السامع له ويشغل الناظر فيه، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كثيرا ما يتمثل بهذه الأبيات:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته	**يبقى الإله ويودي المال والولد**
لم تغن عن هرمز يوما خزائنه	**و الخلد قد حاولت عاد فما خلدوا**
و لا سليمان إذ تجري الرياح له	**و الإنس والجن فيما بينها ترد**
أين الملوك التي كانت لعزتها	**من كل أوب إليها وافد يفد؟**

(١) صحيح.
(٢) حسن.
(٣) صحيح.

حوض هنالك مورود بلا كذب … لا بد من ورده يوما كما وردوا

إذ ثبت ما ذكرناه، فاعلم أن ذكر الموت يورث استشعار الانزعاج عن هذه الدار الفانية، والتوجه في كل لحظة إلى الدار الآخرة الباقية، ثم إن الإنسان لا ينفك عن حالتي ضيق وسعة، ونعمة ومحنة، فإن كان في حال ضيق ومحنة فذكر الموت يسهّل عليه بعض ما هو فيه، فإنه لا يدوم والموت أصعب منه، أو في حال نعمة وسعة فذكر الموت يمنعه من الاغترار بها والسكون إليها لقطعه عنها، ولقد أحسن من قال:

اذكر الموت هادم اللذات … وتجهز لمصرع سوف يأتي

و قال غيره:

واذكر الموت تجد راحة … في إذكار الموت تقصير الأمل

وأجمعت الأُمَّة على أن الموت ليس له سن معلوم ولا زمن معلوم ولا مرض معلوم، وذلك ليكون المرء على أهبة من ذلك مستعدا لذلك وكان بعض الصالحين ينادي بليل على سور المدينة: الرحيل الرحيل فلما توفي فقد صوته أمير المدينة فسأل عنه فقيل: إنه قد مات فقال:

ما زال يلهج بالرحيل وذكره … حتى أناخ ببابه الجمال

فأصابه متيقظا متشمرا … ذا أهبة لم تلهه الآمال

و كان يزيد الرقاشي يقول لنفسه: ويحك يا يزيد من ذا يترضى عنك ربك الموت؟ ثم يقول: أيُّهَا الناس ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقي حياتكم؟ من الموت طالبه والقبر بيته والتراب فراشه والدود أنيسه وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر يكون حاله؟ ثم يبكي حتى يسقط مغشيًا عليه.

وقال التيمي: شيئان قطعا عني لذة الدُّنْيَا: ذكر الموت، وذكر الموقف بين يدي الله تَعَالى.

وكان عمر بن عبد العزيز رَضِيَ الله عَنْهُ يجمع العلماء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة فيبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة.

وقال أبو نعيم: كان الثوري إذا ذكر الموت لا ينتفع به أياما فإن سئل عن شيء قال: لا أدري لا أدري.

وقال الدقاق: مَن أكثر مِن ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة، ومَن نسي الموت عوقب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة، وترك الرضى بالكفاف، والتكاسل في العبادة.

فتفكّر يا مغرور في الموت وسكرته وصعوبة كأسه ومرارته، فيا للموت مِن وعدٍ ما أصدقه؟! ومِن حاكم ما أعدله، كفى بالموت مقرحًا للقلوب ومُبكيًا للعيون ومفرقًا للجماعات وهادمًا للذات وقاطعًا للأمنيات، فهل تفكرت يا ابن آدم في يوم مصرعك وانتقالك من موضعك وإذا نقلت من سعة إلى ضيق وخانك الصاحب والرفيق وهجرك الأخ والصِّدِّيق، وأخذت من فراشك وغطائك إلى عرر، وغطوك من بعد لين لحافك بتراب ومدر.

فيا جامع المال والمجتهد في البنيان، ليس لك والله من مال إلا الأكفان بل هي والله للخراب والذهاب وجسمك للتراب والمآب فأين الذي جمعته من المال؟ فهل أنقذك من الأهوال؟ كلا بل تركته إلى من لا يحمدك وقدمت بأوزارك على من لا يعذرك.

ولقد أحسن من قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّـهُ الدَّارَ الآخِرَةَ﴾ [القصص: ٧٧]، أي: اطلب فيما أعطاك الله من الدنيا الدار الآخرة وهي الجَنَّة، فإن حقّ المؤمن أن يصرف الدُّنْيَا فيما ينفعه في الآخرة لا في الطين والماء والتجبر والبغي، فكأنهم قالوا: لا تنس أنك تترك جميع مالك إلا نصيبك الذي هو الكفن، ونحو هذا قول الشاعر:

نصيبك مما تجمع الدهر كله: رداءان تلوى فيهما وحنوط

أيها الناس...

قد آن للنائم أن يستيقظ من نومه، وحان للغافل أن يتنبه من غفلته، قبل هجوم الموت بمرارة كأسه، وقبل سكون حركاته وخمود أنفاسه ورحلته إلى قبره ومقامه بين أرماسه.

وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى أناس من أصحابه يوصيهم فكان فيما أوصاهم به أن كتب إليهم:

«*أما بعد:* فإني أوصيكم بتقوى الله العظيم، والمراقبة له، واتخذوا التقوى والورع زادًا، فإنكم في دار عما قريب تنقلب بأهلها والله في عرضات القيامة وأهوالها، يسألكم عن الفتيل والنقير، فالله الله عباد الله، اذكروا الموت الذي لا بد منه، واسمعوا قول الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، وقوله عز وجل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، وقوله عز وجل: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧]، فقد بلغني - والله أعلم - أنهم يضربون بسياط من نار، وقال جل ذكره: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١].

فَخَيِّل لنفسك يا ابن آدم إذا أخذت من فراشك إلى لوح مغتسلك فغسَّلك الغاسل، وألبست الأكفان، وأوحش منك الأهل والجيران، وبكت عليك الأصحاب والإخوان، وقال الغاسل: أين زوجة فلان تُحالله؟ وأين اليتامى ترككم أبوكم فما ترونه بعد هذا اليوم أبدًا؟ وأنشدوا:

ألا أيها المغرور ما لك تَلْعَب ... تؤمل آمالا وموتك أقْرب

و تعلم أن الحرص بحر مبعد ... سفينته الدنيا فإياك تَعْطَب

و تعلم أن الموت ينقص مسرعا ... عليك يقينا طعمه ليس يعذب

كأنك توصي واليتامى تراهم ... و أمهم الثكْلَى تَنُوحَ وتَنْدب

تغصّ بحزن ثم تلطم وَجْهَهَا[(١)] ... يراها رجال بعد ما هي تحجب

و أقبل بالأكفان نحوك قاصد ... و يحثى عليك الترب والعين تسكب

عباد الله...

جعلني الله وإيَّاكم مِمَّن يبادر الفوت، ويعمل لِمَا بعد الموت، إنَّهُ وليّ ذَلِكَ والقادر عليه.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) نهى الإسلام عن لطم الخدود، وشق الجيوب، فتنبّه.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فيقول ابن السَّماك الواعظ -رَحِمَهُ الله -: «كنت أطوف أطلب العباد والزهاد فذكر لي رجل بعبادان، قد رفض الدنيا، وأقبل على الآخرة جدًّا واجتهادًا، فأتيت عبادان، فسألت عنه، فوصف لي داره، فأتيت إلى باب دار كبيرة ليس عليها إلا باب بمصراع صغير، فقرعت الباب، فخرجت إلي جارية خماسية فقالت: من الطارق بالباب؟

قلت: أنا يا جارية هذا منزل فلان العابد؟

قَالَتْ: نعم.

قلت لها: استأذني عليه، فإن أنا دخلت عليه وهبت لك درهمًا.

فقالتِ: يا عبد الله ما رأيت أحدًا هو أجهل منك، ادخل فما على أبي من حاجب، وإنما الحجاب على أبواب الملوك، وأبناء الملوك، فبهت متعجبًا من قولها.

ثم دخلت ودخلت معها وإذا دار قوراء ليس فيها إلا بيت صغير، فدخلت البيت، فإذا أنا برجل قد نحل من غير سقم، وقد احتفر قبرا عند رجليه، وقد دلى رجليه فيه، وفي يده خوص يشقه وهو يتلو هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١] بصوت حزين فسلمت عليه فرد علي السلام وَقَالَ: أمن إخواني أنت؟

قلت: نعم ولست من أهل البصرة ولا من أهل عبادان.

قَالَ: فمن أين أنت؟ قلت: من أهل الكوفة.

قَالَ: فما اسمك؟ قلت: محمد بن السماك قَالَ: لعلك الواعظ؟ قلت: نعم.

قَالَ: فأخذ يدي بيديه جميعا ثم قَالَ لي: مرحبًا وحياك الله يا أخي بالسلام، ومتعنا وإياك في الدنيا بالإخوان، يا أخي مازالت نفسي متطلعة إلى لقائك تحب أن تعرض

دواءها على دوائك، أعلمك يا أخي أن بي جرحًا قديمًا قد أعيا المعالجين قبلك، فتأتاه برفقك، وألصق عليه ما تعلم أنه يلائمه من مراهمك.

قَالَ: فعلمت أن الرجل يريد أن أعظه، فقلت: يا أخي وهل يداوي مثلي مثلك؟ وجرحي أنغل من جرحك، وذنبي أعظم من ذنبك.

فَقَالَ: سألتك بالله إلا ما وعظتني فقلت له: يا أخي قد علمت أن ذنبك الَّذِي أذنبت لم يمح، وأن لذاذتك لم تبق، وأن الموت يطلبك صباحا ومساء، وإنك تصير غدًا في ضيق اللحود وظلمة القبور، ومسألة منكر ونكير، فلما قلت له ذلك شهق شهقة خر في قبره يخور كأنه الثور إذا وجي في منحره، وأقبلت امرأته وابنته تبكيان من وراء الحجاب وتقولان: سألناك بالله لا تزده شيئًا فتقتله علينا.

فأفاق فَقَالَ: يا أخي قد وافق دواؤك دائي، ولصق مرهمك بجرحي، أخي ابن السماك زدني.

فقلت له: يا أخي إن أهلك وولدك قد حلفوني أني لا أزيدك شيئًا فأقبل عليهم وَقَالَ: اعلم يا أخي أنه ليس أحد أشد علي وبالًا ولا أعظم جرمًا مني إذا وقفت بين يدي ربي - من أهلي وولدي. فقلت: يا أخي ما بعد ظلمة القبور وضيق اللحود ومسألة منكر ونكير إلا الطامة.

قَالَ: وما هي يا ابن السماك؟

فقلت له: إذا أخذ إسرافيل يعني في نفخ الصور، وبعثر ما في القبور، وجئنا نحن بأثقالنا نحمل على الظهور. فكم يا أخي في ذلك اليوم مناد ينادي بالويل والثبور؟ وأعظم من ذلك أيضًا توبيخ الرب إيانا عند قراءة السيئات التي قد أحصى علي وعليك فيه النقير والفتيل والقطمير؛ وملائكة متزرون بأزر من نار، غضاب لغضب الرحمن ينتظرون ما يقال لهم بالغضب: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠].

قَالَ: فشهق شهقة فخر في قبره كأنه ثور قد وجي في منحره، وبال فعرفت بالبول ذهاب عقله، فأقبلت ابنته فاجتذبته، وأسندته إلى صدرها ومسحت وجهه بكمها، وهي تقول: بأبي وأمي عينين طال ما سهرتا في طاعة الله بأبي وأمي عينين طال ما غضتا

عن محارم الله. وأفاق فَقَالَ لي: عليك السلام يا ابن السماك أنا أشهد أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وأن مُحَمَّدًا عبده ورسوله. وشهق الثالثة فظننت أنها مثل الأولين فحركته فإذا الرجل قد فارق الدنيا»[١].

عباد الله...

وللحديث بقية، فإلى اللقاء إن شاء الله تَعَالى.

(١) «شعب الإيمان» (٩٣١) للبيهقي.

الخطبة الثانية والسبعون:

[ب] فضل ذكر الموت والاستعداد له

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فإن ذكر الموت، والاستعداد له، من علامات التوفيق.

والغفلة عن ذكر الموت والتفريط، من علامات الخذلان، نسأل الله تعالى العافية.

قَالَ تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩].

عباد الله...

العمر مهما طال فلابدّ من دخول القبر، والليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر.

قدم عَلَى معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ الله عَنْهُمَا رجلٌ من نجران عمره مائتا عام، فسأله عن الدُّنْيَا كيف وجدها؟ قَالَ: سنيات بلاء، وسنيات رخاء، يوم فيوم وليلة فليلة، يولد ولد ويهلك هالك، فلولا المولود لَبَادَ الخلقُ[1]، ولولا الهالك ضاقت الدنيا بمن فيها.

فقال له معاوية: سل ما شئت.

قال: عمرٌ مضى فتردّه، أو أجلٌ حضر فتدفعه؟

قَالَ معاوية: لا أملك ذَلِكَ.

قَالَ الرجل: لا حاجة لي إليك، فأنا مَعَ المالك[2].

ويقول **إبراهيم بن بشار** - رَحِمَهُ الله -: «مررت أنا وأبو يوسف الغسولي في طريق الشام، فوثب إليه رجل فسلم عليه، ثم قال: يا أبا يوسف، عظني بموعظة أحفظها عنك.

قال: فبكى، ثم قال: «اعلم يا أخي أن اختلاف الليل والنهار ومرهما يسرعان في هدم بدنك، وفناء عمرك، وانقضاء أجلك، فينبغي لك يا أخي أن لا تطمئن ولا تأمن حتى تعلم أين مستقرك ومصيرك، وساخط عليك ربك بمعصيتك، وغفلتك أو راض عنك بفضله ورحمته، ابن آدم الضعيف نطفة بالأمس وجيفة غدا، فإن كنت ترضى لنفسك بهذا، فسترد وتعلم وتندم في وقت لا ينفعك الندم.

قال: فبكى أبو يوسف وبكى الرجل وبكيتُ لبكائهما»[3].

عباد الله...

وهذه قصة عجيبة، فيها دروس عظيمة:

ذكر **ابن أبي الدُّنْيَا** - رَحِمَهُ الله - بإسنادٍ له: «أنَّ رجلًا مِن ملوك البصرة كان قد تنسّك ثم مال إلى الدُّنْيَا والشيطان، فبنى دارا وشيدها وأمر بها ففرشت له ونجدت

---

(١) **باد الخلق**: فنوا.

(٢) «إحياء علوم الدين» (ج ٤).

(٣) «الزهد» للبيهقي (٥١٣).

ـ تخذ مأدبة، وصنع طعامًا ودعا الناس فجعلوا يدخلون فيأكلون ويشربون وينظرون ـن بنائه ويعجبون منه ويدعون له ويتفرقون.

فمكث بذلك أيامًا حَتَّى فرغ مِن أمر النَّاس، ثم جلس في نفر من خاصة إخوانه ـقال: قد ترون سروري بداري هذه وقد حدثت نفسي أن أتخذ لكل واحد من ولدي ـثلها، فأقيموا عندي أيامًا أستمتع بحديثكم وأشاوركم فيما أريد من هذا لولدي. ـأقاموا عنده أياما يلهون ويلعبون ويشاورهم كيف يبني لولده وكيف يريد أن يصنع.

فبينما هم ذات ليلة في لهوهم إذا سمعوا قائلا يقول: من أقاصي الدار:

يا أيها الباني الناسي منيته	لا تأمنن فإن الموت مكتوب
على الخلائق إن سروا وإن فرحوا	فالموت حتف لذي الآمال منصوب
لا تبنين ديارا لست تسكنها	و راجع النسك كيما يغفر الحَوب[1]

قال: ففزع لذلك وفزع أصحابه فزعًا شديدًا، وراعهم ما سمعوا من ذلك فقال ـأصحابه: هل سمعتم ما سمعت؟ قالوا: نعم.

قال: فهل تجدون ما أجد؟

قالوا: وما تجد؟

قال: أجد والله مسكة على قلبي ما أراها إلا علّة الموت.

قالوا: كلا، بل البقاء والعافية.

قال: فبكى وقال: أنتم أخلائي وإخواني فما لي عندكم؟

قالوا: مرنا بما أحببت.

قال: فأمر بالشراب فأهريق وبالملاهي فأخرجت ثم قال: اللَّهُمَّ إني أشهدك ومَن حضر مِن عبادك أني تائب إليك من جميع ذنوبي نادم على ما فرطت أيام مهلتي، وإياك ـسأل إن أقلتني أن تتم عليَّ نعمتك بالإنابة إلى طاعتك، وإن أنت قبضتني إليك أن تغفر ـي ذنوبي تفضلا منك عليَّ.

---

(1) الحوب: الإثم.

و اشتد به الأمر فلم يزل يقول: الموت والله، الموت والله، حتى خرجت روحه وكان الفقهاء يرون أنه مات على توبته»(١).

عباد الله...

فالعاقل من عدّ نفسه في الموتى، وعاش في الدُّنْيَا كأنه غريبٌ أو عابر سبيل، وعلم أن الجَنَّة والنار أقرب إليه من شِراك نعله.

- وهذه أحاديث تُرقّق القلوب، وتزّهد في الدُّنْيَا، وتحث عَلَى قصر الأمل:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - رَضِيَ الله عَنْهُمَا - قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَنْكِبِي فَقَالَ: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**». وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ. رواه البخاري والترمذي ولفظه: عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمِنْكَبِي فَقَالَ: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ وَعُدَّ نَفْسَكَ فِي أَهْلِ القُبُورِ**». فَقَالَ لِي ابْنُ عُمَرَ: إِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالمَسَاءِ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالصَّبَاحِ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ، فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِي يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا اسْمُكَ غَدًا»(٢).

وعَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْصِنِي، فَقَالَ: «**عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ مَا اسْتَطَعْتَ، وَاذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ كُلِّ حَجَرٍ وشَجَرٍ، وَمَا عَمِلْتَ مِنْ سُوءٍ فَأَحْدَثْ لله فِيهِ تَوْبَةً، السِّرُّ بِالسِّرِّ، وَالعَلانِيَةُ بِالعَلانِيَةِ**»(٣). رواه الطبراني.

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ الله عَنْهُمَا قَالَ: مَرَّ بِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أُطَيِّنُ حَائِطًا لِي أَنَا وَأُمِّي فَقَالَ: «**مَا هَذَا يَا عَبْدَ اللَّهِ؟**». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ شَيْءٌ أُصْلِحُهُ، فَقَالَ: «**الأَمْرُ أَسْرَعُ مِنْ ذَاكَ**».

وفي رواية: قَالَ: مَرَّ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ نُعَالِجُ خُصًّا لَنَا فَقَالَ: «**مَا هَذَا؟**».

---

(١) «لطائف المعارف» لابن رجب (٣٥٧، ٣٥٨).

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٣٤٠).

(٣) حسن: «صحيح الجامع» (١٠٤٠) بنحوه.

خُصٌّ لَنَا وَهِيَ نَحْنُ نُصْلِحُهُ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا أُرَى الأَمْرَ إلاَّ أَعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ» رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه وابن حبان في «صحيحه».

عَنْ ابنِ مسعُودٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: خَطَّ النَّبيُّ ﷺ خَطًّا مُرَبَّعًا، وَخَطَّ خطًّا فِي الوَسَطِ خَارِجًا مِنْهُ، وَخَطَّ خُطُطًا صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الوَسَطِ، مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الوَسَطِ وَقَالَ: «هَذَا الإِنْسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ - أَوْ قَدْ أَحَاطَ بِهِ - وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ، وَهَذِهِ الخُطُطُ الصِّغَارُ الأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا» [١]. رواه البخاري والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خَطًّا وقال: «هذا الإِنْسَانُ»، وخَطَّ إلى جَنبِهِ خَطًّا وقال: «هَذَا أَجَلُهُ»، وخَطَّ آخر بعيدًا منهُ، فَقَالَ: «هَذَا الأَمَلُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَهُ الخَطُّ الأَقْرَبُ». رواه البخاري، واللفظ له، والنسائي بنحوه.

وعنه رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا ابْنُ آدَمَ وَهَذَا أَجَلُهُ». وَوَضَعَ يَدَهُ عِنْدَ قَفَاهُ ثُمَّ بَسَطَهَا فَقَالَ: «وَثَمَّ أَمَلُهُ وَثَمَّ أَمَلُهُ وَثَمَّ أَمَلُهُ» [٢]. رواه الترمذي وابن حبان في «صحيحه»، ورواه النسائي أيضًا وابن ماجه بنحوه.

وعن عبد الله بْنُ مَسْعُودٍ رَضِي الله عَنْهُ قال: قال رَسُول الله ﷺ: «الجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ»، رواه البخاري وغيره.

وعن مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ الأَعْمَشُ: وَلاَ أَعْلَمُهُ إِلاَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «التُّؤَدَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلاَّ فِي عَمَلِ الآخِرَةِ» [٣]. رواه أبو داود والحاكم والبيهقي، وقال الحاكم: صحيح عَلَى شرطهما.

قَالَ الحافظ: لم يذكر الأعمش فيه مَن حدثه، ولم يجزم برفعه.

التُّؤَدَةُ: بفتح المثناة فوق وبعدها همزة مضمومة ثم دال مهملة مفتوحة وتاء تأنيث:

---

(١) صحيح: «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٥٦).

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٣٤١)، وصححه الألباني.

(٣) صحيح: «صحيح الجامع» (٣٠٠٩).

هي التأني والتثبت وعدم العجلة.

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ**». فَقِيلَ: كَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ المَوْتِ**»[1].

رواه الحاكم وقال: صحيح عَلَى شرطهما.

وعن عَمْرِو بْنَ الحَمِقِ الخُزَاعِيِّ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى ﷺ: «**إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا عَسَلَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ**» قِيلَ: وَمَا عَسَلُهُ قَبْلَ مَوْتِهِ؟ قَالَ: «**يُفْتَحُ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ بَيْنَ يَدَيْ مَوْتِهِ حَتَّى يَرْضَى عَنْهُ جِيرانُهُ** - أو قَالَ: **مَن حَولَهُ**»[2]. رواه ابن حبان في «صحيحه» والحاكم والبيهقي من طريقه وغيرهما.

عَسَلَهُ: بفتح العين والسين المهملتين، من العسل: وهو طيب الثناء، وقال بعضهم: هَذَا مَثل، أي: وفقه الله لعمل صالح يتحفه به كما يتحف الرجل أخاه إذا أطعمه العسل.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَى امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ حَتَّى بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً**». رواه البخاري.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ عَمَّرَ من أُمَّتي سَبْعِينَ سَنَةً فَقَدْ أعذَرَ الله إِلَيْهِ فِي العُمُرِ**»[3]. رواه الحاكم وقال: صحيح عَلَى شرطهما.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِكُمْ؟**». قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ الله. قَالَ: «**خِيَارُكُمْ أَطْوَلُكُمْ أَعْمَاراً وَأَحْسَنُكُمْ أَعْمَالاً**»[4]. رواه أحمد، ورواته رواة الصحيح، وابن حبان في «صحيحه»، والبيهقي، ورواه الحاكم من حديث جابر وقال: صحيح عَلَى شرطهما.

وعن أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ: أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «**مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ**». قَالَ: فَأَيُّ النَّاسِ شَرٌّ؟ قَالَ: «**مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ**»[5].

---

(١) صحيح: «صحيح الجامع» (٣٠٥).
(٢) صحيح: «صحيح الجامع» (٣٠٤).
(٣) صحيح: «صحيح الجامع» (٦٣٩٧).
(٤) صحيح: «صحيح الجامع» (٣٢٦٣).
(٥) صحيح: «صحيح الجامع» (٣٢٩٧).

رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، والطبراني بإسناد صحيح والحاكم والبيهقي في «الزهد» وغيره.

وعَن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**خَيْرُ النَّاس مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ**»[١]. رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

فيا عباد الله...

كُل ابنِ أُنثى وإن طالت سَلامتُهُ	يَوماً عَلَى آلة حَدباء مَحمُول
فَإذا حَمَلتَ إلى القبور جَنازةً	فاعلم بأنَّك بعدها مَحمُول!!

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ونختم خطبة اليوم بهذه القصّة:

يقول محمد هو بن نعيم -رَحِمَهُ الله -: «دخلتُ على بشر بن الحارث في علته فقلت: عظني، فقال: إن في هذه الدار نملة تجمع الحبَّ في الصيف لتأكله في الشتاء، فلما كان يوم أخذت حبة في فمها فجاء عصفور فأخذها والحبَّة، فلا ما جمعت أكلت ولا ما أملت نالت. قلت له: زدني. قال: ما تقول فيمن القبر مسكنه، والصراط جوازه، والقيامة موقفه، والله مسائله، فلا يعلم إلى جنةٍ يصير فيهنّى، أو إلى نارٍ فيُعزَّى؟

فوا طول حزناه، ووا عظم مصيبتاه، زاد البكاء فلا عزاء، واشتد الخوف فلا أمِنَ.

قال: فانظر خبزك من أين هو؟ وانظر مسكنك الذي تتقلب فيه كيف هو؟ ولا تحب أن تحمد ولا تحب الثناء»[٢].

۞۞۞۞۞

---

(١) صحيح: «صحيح الجامع» (٣٢٩٦).
(٢) «تاريخ بغداد» (٣/ ٣٢).

الخطبة الثالثة والسبعون:

أعد الزّاد فإن السَفر طويل

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فيقول الله تَعَالَى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

قال القاسميُّ -رَحِمَهُ الله - في تفسيره لهذه الآية: «ويقال في معنى الآية: وتزودوا من التقوى للمعاد، فإنّ الإنسان لابدّ له من سفرٍ في الدنيا، ولابدّ فيه من زادٍ، ويحتاج فيه إلى الطعام والشراب والمركب؛ وسفر من الدنيا إلى الآخرة، ولابدّ فيه من زادٍ أيضًا وهو تقوى الله، والعمل بطاعته، واتقاء المحظورات..!

وهذا الزاد أفضل من الزاد الأول، فإنّ زاد الدنيا يوصل إلى مراد النفس وشهواتها، وزاد الآخرة يوصل إلى النعيم المقيم في الآخرة..!

وفي هذا المعنى قال الأعشى:

إذا أنت لم ترحل بزادٍ من التُّقى ولاقيتَ بعد الموت مَنْ قَدْ تزوّدا
ندمتَ على ألا تكون كمثله وأنّك لم تُرصد لِمَا كان أرصدَا..!

وثَمَّتْ وجه آخر: وهو أنّ قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ أمر باتخاذ الزاد هو طعام السفر، وقوله: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ إرشاد إلى زاد الآخرة وهو استصحاب التقوى إليها بعد الأمر بالزاد في الدُّنْيَا» ا.هـ[1].

عباد الله...

ولله دَرُّ الحُسين بن عليّ رَضِيَ الله عَنْهُمَا حين قَالَ:

لئن كانت الدُّنْيَا تُعَدُّ نفيسةً فدارُ ثوابِ الله أعلى وأنبلُ
وإن كانت الأبدانُ للموتِ أُنشئت فقَتْلُ امرئٍ بالسَّيفِ في الله أفضلُ
وإن كانت الأرزاقُ شيئًا مُقدَّرًا فقلَّةُ سَعي المرءِ في الرِّزق أجملُ
وإن كانت الأموالُ للترك جَمعها فما بالُ متروكٍ به المرءُ يَبْخَلُ

فاستعدوا - عباد الله - للقاء الله، قبل انقضاء الأجل، وانقطاع العمل.

وها هو نبيّكُم ﷺ يقول: «**اغتنم خَمسا قَبْل خمسٍ: حَيَاتَك قبل مَوتِك، وصحَّتَك قَبلَ سَقَمِك، وفراغَك قَبْل شغلك، وشَبابَك قبل هَرَمِك، وغِنَاكَ قَبْل فَقْرِك**»[2].

قَالَ شقيق البلخيُّ - رَحِمَهُ الله -: «قلت لحاتم الأصم: مُذْ أنت صحبتني أي شيء تعلمت؟

قال: ست كلمات.

قال: أوهن؟

قال: رأيت كل الناس في شكٍّ مِن أمر الرزق، وإني توكلت على الله تعالى: ﴿وَمَا مِن

---

(١) «محاسن التأويل» (٢/ ١١١، ١١٢).

(٢) صحيح: رواه الحاكم، وأحمد، وغيرهما، وصححه الألباني.

دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦]. فعلمت أني مِن هذه الدواب واحد، فلم أشغل نفسي بشيءٍ قد تكفل لي به ربي.

قال: أحسنت فما الثانية؟

قال: رأيت لكل إنسان صديقًا يفشي إليه سرّه ويشكو إليه أمره، فقلت: أنظر من صديقي فكل صديق وأخ رأيته قبل الموت، فأردت أن أتخذ صديقًا يكون لي بعد الموت، فصادفت الخير ليكون معي إلى الحساب، ويجوز معي إلى الصراط، ويثبتني بين يدي الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال: أصبت، فما الثالثة؟

قال: رأيت كل الناس لهم عدو فقلت: أنظر من عدوي، فأما من اغتابني فليس عدوي، وأما من أخذ مني شيئا فليس هو عدوي، ولكن عدوي الذي إذا كنت في طاعة الله أمرني بمعصية الله، فرأيت ذلك إبليس وجنوده فاتخذتهم عدوًا، فوضعت الحرب بيني وبينهم، ووترت قوسي ووصلت سهمي فلا أدعه يقربني.

قال: أحسنت، فما الرابعة؟

قال: رأيت الناس لهم طالب كل واحد منهم يومًا واحدًا، فرأيت ذلك ملك الموت ففرغت له نفسي حتى إذا جاء لا ينبغي أن أمسكه فأمضي معه.

قال: أحسنت، فما الخامسة؟

قال: نظرت في هذا الخلق فأحببت واحدًا وأبغضت واحدًا، فالذي أحببته لم يعطني، والذي أبغضته لم يأخذ مني شيئًا، فقلت: من أين أتيت هذا؟ فرأيت أني أتيت هذا من قبل الحسد، فطرحت الحسد من قلبي فأحببت الناس كلهم، فكل شيء لم أرضه لنفسي لم أرضه لهم.

قال: أحسنت، فما السادسة؟

قال: رأيت الناس كلهم لهم بيت ومأوى، ورأيت مأواي القبر فكل شيء قدرت عليه من الخير قدمته لنفسي حتى أعمر قبري، فإن القبر إذا لم يكن عامرًا لم يستطع القيام فيه.

فقال شقيق: عليك بهذه الخصال السّتة فإنك لا تحتاج إلى علم غيره»[١].

عباد الله...

وبعد الموت يتمنى المسلم تسبيحةً وتحميدةً، أو صلاةَ ركعتين.

عن أبي هريرة رَضِيَ الله عَنْهُ: أنَّ رَسُول الله ﷺ مَرَّ بقبرٍ فقال: «**مَن صَاحِبُ هذا القَبر؟**» فقالوا: فلان. فقال: «**ركعتان أحبُّ إلى هذا مِن بَقِيَّة دُنيَاكم**»[٢].

وعن **مطرف بن عبد الله** - رَحِمَهُ الله - قَالَ: «شهدت جنازة، ثم اعتزلت من ناحية قريبا من قبر، فركعت ركعتين كأني خففتهما لم أرض إنفاقهما.

قال: فنعست فرأيت صاحب القبر يكلمني، فقال: ركعت ركعتين لم ترض إنفاقهما، فقلت: قد كان ذلك، قال: تعلمون، ولا تعملون، ولا تستطيع أن تعمل، لأن أكون ركعت مثل ركعتيك أحب إلي من الدنيا بحذافيرها.

فقلت: من ها هنا؟ فقال: كلهم مسلم وكلهم قد أصاب خيرًا.

فقلت: مَن ها هنا أفضل؟ فأشار إلى القبر.

فقلت في نفسي: اللَّهُمَّ ربنا أخرجه إليّ فأكلمه.

قال: فخرج من قبره فتى شاب، فقلت: أنت أفضل مَن ها هُنا؟

قال: قد قالوا ذلك.

قلت: فبأي شيء نلت ذلك؟ فوالله ما أرى لك تلك السن، فأقول: نلت ذلك بطول الحج، والعمرة، والجهاد في سبيل الله ﷻ، والعمل.

قال: ابتليت بالمصائب فَرُزقت الصَّبر عليها فبذلك فضلتهم»[٣].

ويروي زيد بن وهب قال: «خرجت إلى الجَبَّانة فجلست فيها فإذا رجلٌ قد جاء إلى قبرٍ فسوَّاه ثم تحوّل إلى مجلسٍ، فقلت له: ما هذا القبر؟ قال: أخ لي مات.

---

(١) «سير أعلام النبلاء». (١١/ ٤٨٥، ٤٨٦).

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط»، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٨٧).

(٣) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠١٨٩).

فقلت: أخ لك. فقال: أخ لي في الله رأيته فيما يرى النائم، فقلت: فلان عشت الحمد لله رب العالمين، قَالَ: قد قلتها لأن أقدر على أن أقولها أحب إلي من الدنيا وما فيها.

ثم قال: ألم تر حيث كانوا يدفنوني فإن فلانا قام فصلى ركعتين لأن أكون أقدر على أن أصليهما أحب إلي من الدنيا وما فيها»[١].

وقال أبو عمران الجوني - رَحِمَهُ الله -: «مرّ سليمان بن داود عَلَيْهِ السَّلام في موكبه؛ والطير تظله، والإنس والجن عن يمينه وعن شماله، فمرّ بعابد مِن عباد بني إسرائيل، فقال: والله يا ابن داود لقد آتاك الله مُلكًا عظيمًا.

فسمع سليمان كلامه، فقال: لتسبيحة في صحيفة أفضل مِمَّا أُوتي ابن داود[٢]، إنَّ ما أُوتي ابن داود يذهب والتسبيحة تبقى».

فيا عباد الله...

جدّوا، وللموتِ استعدّوا.

يقول مُنازل بن سعيد - رَحِمَهُ الله -: «صلينا خلف جنازة فيها داود الطائي وهو لا يراني خلفه، فقال: أوّه... ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

ثم قال لنفسه: يا داود مَن خاف الوعيد قصر عليه البعيد، ومَن طال أمله قصر عمله، وكل ما هو آت قريب.

واعلم يا داود أن كل شيء يشغلك عن ربك فهو مشئوم.

واعلم يا داود أنَّ أهل الدُّنْيَا جميعًا مِن أهل القبور إنَّما يندمون على ما يخلفون ويفرحون بما يقدمون.

فَبِمَا عليه أهل القبور يندمون؛ عليه أهل الدُّنْيَا يقتتلون وفيه يتنافسون وعليه عند القضاء يختصمون.

ثم نظر إلي فقال: لو علمت أنك خلفي لم أنطق بحرف»[٣].

---

(١) المرجع السابق (٩٣٠٤).
(٢) يعني المُلك لا النبوّة.
(٣) «الزهد» للبيهقي (٥٢٥).

أيها المسلمون...

امحو صحائف الأوزار بالاستقامة والاستغفار، فها هو نبيّكم ﷺ يقول: «مَن أحسَنَ فيما بَقِيَ، غُفِرَ لَهُ مَا مَضَى، ومَنْ أساءَ فِيما بَقِيَ أُخذ بِمَا مَضَى ومَا بَقِيَ»[1].

وقال الفضيل بن عياض - رَحِمَهُ الله - لرجل: «كم أتت عليك؟ قال: ستون سنة، قال: فأنت منذ ستين سنة تسير إلى ربّك توشك أن تبلغ.

فقال الرجل: يا أبا عليّ إنا لله وإنا إليه راجعون.

قال له الفضيل: تعلم ما تقول؟

قال الرجل: قلت: إنا لله وإنا اليه راجعون.

قال الفضيل: تعلم ما تفسيره؟

قال الرجل: فسّره لنا يا أبا عليّ.

قَالَ: قولك «إنا لله»، تقول: أنا لله عبد وأنا إلى الله راجع، فمن علم أنَّهُ عبدٌ الله وأنَّهُ إليه راجع، فليعلم بأنه موقوف، ومَن علم بأنه موقوف فليعلم بأنه مسئول، ومَن علم أنه مسئول فليعد للسؤال جوَابًا.

فقال الرجل: فما الحيلة؟

قال: تستره.

قال: ما هي؟

قال: تُحسن فيما بقى يغفر لك مَا مَضى وما بَقِيَ، فإنك إن أسأت فيما بَقِيَ أُخذت بما مضى وما بَقِيَ»[2].

فالعاقل مَن تاب قبل الممات، وأعدّ الزَّاد قبل يوم الميعاد.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) رواه الطبراني بإسناد حسن.

(٢) «حلية الأولياء» (٨/ ١١٣).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ونختم خطبة اليوم بهذه القصّة المؤثّرة:

يروي الفضيل بن الربيع فيقول: حجّ هارون الرشيد، فبينما أنا نائم بمكة، إذ سمعتُ قرع الباب، فقلت: مَن هذا؟ قال: أجب أمير المؤمنين.

فخرجت مسرعًا فقلت: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليَّ لأتيتك، فقال: ويحك قَدْ خطر في نفسي شيءٌ، فانظر لي رجلاً أسأله.

فقلت: هاهُنا سفيان بن عُيينة. فقال: امض بنا إليه.

فأتيناه فقرعنا الباب فقال: مَن ذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، فخرج مسرعاً فقال: يا أمِير المؤمنين لو أرسلتَ إليَّ لأتيتك.

فقال له: خُذ لما جئناك له رحمك الله، فحدَّثه ساعة ثم قال له: عليك دين؟

قال: نعم، قال: يا عباسي اقض دينه.

فلما خرجنا، قال: ما أغنى عنك صاحبك شيئًا، انظر لي رجلاً أسأله.

قلت: هاهُنا عبد الرزاق بن همام، قال: امض بنا إليه.

فأتيناه فقال: مَن هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين، فخرج مسرعاً فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلتَ إليَّ لأتيتك.

فقال له: خُذ لما جئناك له رحمك الله، فحدَّثه ساعة ثم قال له: عليك دين؟

قال: نعم، قال: يا عباسي اقض دينه.

ثم انصرفنا، فقال لي: ما أغنى عنك صاحبك شيئًا، انظر لي رجلاً أسأله.

فقلت له: هاهُنا الفضيل بن عيَّاض، قال: امض بنا إليه.

فأتيناه فإذا هو قائم يصلي يتلو آية من القرآن يرددها، فقرعت الباب فقال: من ذا؟

قلت: أجب أمير المؤمنين، قال: ما لي ولأمير المؤمنين؟

فقلت: سبحان الله، أما عليك طاعته؟ فنزل ففتح الباب، ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ السراج ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت، فدخلنا فجعلنا نجول البيت عليه بأيدينا، فسبقت كف هارون الرشيد إليه قبلي فقال: يا لها من كفٍّ ما ألينها إن نجت غدًا من عذاب الله.

فقلت في نفسي: ليكلمنه الليلة بكلامٍ من قلبٍ نقيٍّ.

فقال له: خذ لما جئناك له يرحمك الله.

فقال: إن عمر بن عبد العزيز لَـمَّا وُلي الخلافة دعا سالم بن عبد الله، ومحمد بن كعب القرظي، ورجاء بن حيوة فقال لهم: إني قَدْ ابتليت بهذا البلاء فأشيروا عليَّ، فعدَّ الخلافة بلاءً، وعددتها أنت وأصحابك نعمة.

فقال له سالم بن عبد الله: إن أردت النجاة مِن عذاب الله فَصُمِ الدُّنْيَا وليكن إفطارك فيها الموت.

وقال له محمد بن كعب: إن أردت النَّجاة مِن عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أبًا، وأوسطهم أخًا، وأصغرهم ولدًا، فوقِّر أباك وأكرم أخاك وتحنن على ولدك.

وقال له رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة مِن عذاب الله فأحبّ للمسلمين ما تُحب لنفسك أو أكره لهم ما تكره لنفسك، ثم مِت إذا شئت فإني أخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الأقدام.

فهل معك – رحمك الله – مثل هذا، أو من يشير عليك بمثل هذا؟

فبكى هارون بكاء شديداً حتى غُشي عليه.

فقلت: ارفق بأمير المؤمنين.

فقال: يا ابن أُمّ الربيع تقتله أنت وأصحابك، وأرفق به أنا؟

ثم أفاق فقال له: زدني رحمك الله.

فقال: يا أمير المؤمنين، بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شكا إليه كثرة النوم، فكتب إليه عمر: يا أخي أذكرك طول سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد، فإنه يطرد

بك إلى ربك نائماً أو يقظان، وإياك أن ينصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء.

قال: فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر، فقال له: ما أقدمك؟

قال: خلعت قلبي بكتابك، ولا أعود لولاية حتى ألقى الله تَعَالى.

قال: فبكى هارون بكاء شديد، ثم قال له: زدني رحمك الله.

قال: يا حسن الوجه أنت الذي يسألك الله عن هذا الخلق يوم القيامة، فان استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غشٌّ لأحد من رعيتك.

فبكى هارون وقال له: عليك دين؟ قال: نعم، دينٌ لربي لم يحاسبني عليه، فالويل لي إن سألني، والويل لي إن ناقشني، والويل لي إن لم أُلهم حجتي.

قال: إنما أعني من دين العباد.

قال: إن ربي لم يأمرني بهذا، إنما أمرني أن أُصدِّق وعده وأُطيع أمره، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ – ٥٨].

فقال له: هذه ألف دينار خذها فأنفقها على عيالك، وتقوّ بها على عبادتك.

فقال له: سبحان الله أنا أدلك على طريق النجاة وأنت تكافئني بمثل هذا؟ سلَّمك الله ووفقك.

ثم صمت فلم يكلمنا، فخرجنا من عنده، فلما صرنا على الباب، قال هارون: يا عباسي إذا دللتني على رجل فدلني على مثل هذا، فهذا سيِّد المسلمين.

فبينما نحن كَذَلِكَ إذ دخلت عليه امرأةٌ من نسائه فقالت: يا هذا قَدْ ترى ما نحن فيه من ضيق الحال، فلو قبلت هذا المال فتفرجنا به؟!

فقال لها: مثلي ومثلكم كمثل قوم لهم بعير يأكلون من كسبه، فلما كبر نحروه فأكلوا لحمه.

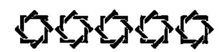
فلما سمع هارون هذا الكلام قال: ندخل فعسى يقبل المال.

فلما علم الفضيل خرج فجلس في السطح على باب الغرفة، فجاء هارون فجلس إلى جنبه فجعل يكلمه فلا يجيبه، فبينا نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء فقالت: يا هذا آذيت الشيخ منذ الليلة، فانصرف يرحمك الله. قال: فانصرفنا»[1].

عباد الله...

إن أسفار الدُّنْيَا مهما طالت فإنها قصيرة، إذ لا تخلوا عن كونها تقلّبًا في البلاد، ما يلبث المسافر أن يعود إلى أهله بعدها، أمَّا السَّفر من الدُّنْيَا إلى الآخرة فما أطوله، إنَّهُ عقبات، لا ينجو منها إلَّا من أعدَّ الزَّاد، يقول عمر رَضِي الله عَنْهُ: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبُوا».

وقال الحسن -رَحِمَهُ الله -: «وإنما خفّ الحساب غدًا عن قوم حاسبوا أنفسهم في هذه الدُّنْيَا».



(١) «حلية الأولياء» (٨/ ١٠٥ - ١٠٨).

الخطبة الرابعة والسبعون:

مهلا يا جامع الدُّنْيَا

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فيقول الله تَعَالَى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ١ - ٨].

عباد الله...

يقول الإمام الهُمام ابن القيِّم - رَحِمَهُ الله - في تفسير هَذِهِ السورة الكريمة:

أخلصت هذه السورة للوعد والوعيد والتهديد، وكفى بها موعظة لمن عقلها.

قوله تعالى: ﴿أَلْـهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ أي شغلكم على وجه لا تعذرون فيه. فإن الإلهاء عن الشيء هو الاشتغال عنه. فإن كان بقصده فيه فهو محل التكليف، وإن كان بغير قصد كقوله ﷺ في الخميصة: «إنها ألهتني آنفاً عن صلاتي»[1]،كان صاحبه معذورًا وهو نوع من النسيان.

وفي الحديث «فلها ﷺ عن الصبي» أي ذهل عنه، ويقال: لَهَا بالشيء: أي اشتغل به. ولها عنه: إذا انصرف عنه.

واللهو للقلب، واللعب للجوارح؛ ولهذا يجمع بينهما، ولهذا كان قوله: ﴿أَلْـهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ أبلغ في الذَّم مِن شغلكم، فإن العامل قد يستعمل جوارحه بها يعمل وقلبه غير لاهٍ به، فاللهو هو ذهول وإعراض، والتكاثر تفاعل من الكثرة، أي مكاثرة بعضكم لبعض، وأعرض عن ذكر المتكاثر به إرادة لإطلاقه وعمومه، وأن كل ما يكاثر به العبد غيره سوى طاعة الله ورسوله وما يعود عليه بنفع معاده فهو داخل في هذه التكاثر.

فالتكاثر كل شيء من مال أو جاه أو رياسة أو نسوة أو حديث أو علم، ولا سيما إذا لم يحتج إليه. والتكاثر في الكتب: التصانيف وكثرة المسائل وتفريعها وتوليدها. والتكاثر: أن يطلب الرجل أن يكون أكثر من غيره، وهذا مذموم إلا فيما يقرب إلى الله. فالتكاثر فيه منافسة في الخيرات ومسابقة إليها. وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن الشخير أنه انتهى إلى النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿أَلْـهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ قال: «**يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلاَّ مَا تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ أَوْ أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ؟!**»[2][3].

وقال - رَحِمَهُ الله -: والتكاثر في كل شيء، فكل من شغله وألهاه التكاثر بأمر من الأمور عن الله والدار الآخرة، فهو داخل في حكم هذه الآية، فمن الناس من يلهيه التكاثر بالمال، ومنهم من يلهيه التكاثر بالجاه أو بالعلم، فيجمعه تكاثرًا وتفاخرًا. وهذا أسوأ حالاً عند الله ممن يكاثر بالمال والجاه، فإنه جعل أسباب الآخرة للدنيا، وصاحب

---

[1]) رواه البخاري (٢/ ٥٧٥) في «الصلاة»، ومسلم (٢/ ١٩٢) في «المساجد».

[2]) رواه مسلم (٥/ ٨١٥)، في «الزهد».

[3]) «الفوائد» (٣٢).

المال والجاه استعمل أسباب الدنيا لها وكاثر بأسبابها.

وقال - رَحِمَهُ الله -: إنه سُبْحَانَهُ أخبر أن التكاثر في جمع المال وغيره ألهى النَّاس وشغلهم عن الآخرة والاستعداد لها، وتوعدهم عَلَى ذَلِكَ في الآية.

فأخبر سبحانه أن التكاثر شغل أهل الدنيا، وألهاهم عن الله والدار الآخرة، حتى حضرهم الموت - فزاروا المقابر، ولم يفيقوا من رقدة من ألهاهم التكاثر، وجعل الغاية زيارة المقابر دون الموت إيذانًا بأنهم غير مستوطنين ولا مستقرين في القبور، وأنهم فيها بمنزلة الزائرين، يحضرونها مدة ثم يظعنون عنها، كما كانوا في الدنيا كذلك زائرين لها غير مستقرين فيها، ودار القرار هي الجنة أو النار، ولم يعين سبحانه المتكاثر به، بل ترك ذكره، إما لأن المذموم هو نفس التكاثر بالشيء لا المتكاثر به، كما يقال: شغلك اللعب واللهو ولم يذكر ما يلعب ويلهو به، وأما إرادة الإطلاق، وهو كل ما تكاثر به العبد غيره من أسباب الدنيا من مال أو جاه أو عبيد أو إماء أو بناء أو غراس أو علم لا يبتغى به وجه الله أو عمل لا يقربه إلى الله، فكل هذا من التكاثر الملهي عن الله والدار الآخرة.

ثم أوعد سبحانه من ألهاه التكاثر وعيدًا مؤكدًا، إذا عاين تكاثره هباء منثورًا، وعلم دنياه التي تكاثر بها إنها كانت خداعًا وغرورًا، فوجد عاقبة تكاثره عليه لا له، وخسر هنالك تكاثره كما خسر أمثاله، وبدا له من الله ما لم يكن في حسابه، وصار تكاثره الذي شغله عن الله والدار الآخرة من أعظم أسباب عذابه، فعذب بتكاثره في دنياه، ثم عذب به في البرزخ، ثم يعذب به يوم القيامة.

فكان أشقى بتكاثره، إذ أفاد منه العطب دون الغنيمة والسلامة، فلم يفر من تكاثره إلا بأن صار من الأقلين، ولم يحفظ به من علوه به في الدنيا بأن حصل مع الأسفلين، فيا له تكاثرًا ما أقله؟! ورزءًا ما أجله؟! ومن غنى جالبًا لكل فقر؟! وخيرًا توصل به إلى كل شر؟! يقول صاحبه إذا انكشف عنه غطاؤه: يا ليتني قدمت لحياتي وعملت فيه بطاعة الله قبل وفاتي ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، فقيل له: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، تلك كلمته يقولها، فلا يعوّل عليها، ورجعته يسألها فلا يُجاب إليها[1].

---

(١) «عدة الصابرين» (١٧١).

وتأمل قوله أولاً: ﴿رَبِّ﴾ استغاث بربه، ثم التفت إلى الملائكة الذين أمروا بإحضاره بين يدي ربه تبارك وتعالى، فقال: ﴿ارْجِعُونِ﴾، ثم ذكر سبب سؤال الرجعة، وهو يستقبل العمل الصالح فيما ترك خلفه من ماله وجاهه وسلطانه وقوته وأسبابه، فيقال له: ﴿كَلَّا﴾، لا سبيل لك إلى الرجعى وقد عمرت ما يتذكر فيه من تذكر.

ولما كان شأن الكريم الرحيم، أن يجيب من استغاث، وأن يفسح له في المهلة، ليتذكر ما فاته أخبر سبحانه أن سؤال هذا المفرط الرجعة كلمة هو قائلها لا حقيقة تحتها، وأن سجيته وطبيعته تأبي أن تعمل صالحًا لو أجيب، وإنما ذلك شيء يقوله بلسانه، وأنه لو رد لعاد لما نهي عنه، وأنه من الكاذبين.

فحكمه أحكم الحاكمين، وعزته وعلمه وحمده يأبى إجابته إلى ما سأل، فإنه لا فائدة في ذلك، ولو رد لكانت حالته الثانية مثل حالته الأولى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

وقوله: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ جوابه محذوف دل عليه ما تقدم، أي لما ألهاكم التكاثر، وإنما وجد هذا التكاثر وإلهاؤه عما هو أولى بكم لما فقد منكم علم اليقين، وهو العلم الذي يصل به صاحبه إلى حد الضروريات التي لا يشك ولا يمارى في صحتها وثبوتها، ولو وصلت حقيقة هذا العلم إلى القلب وباشرته، لما ألهاه عن موجبه، ويرتب أثره عليه، فإن مجرد العلم بقبح الشيء وسوء عواقبه قد لا يكفي في تركه، فإذا صار له علم اليقين، كان اقتضاء هذا العلم لتركه أشد. فإذا صار عين يقين، كجملة المشاهدات، كان تخلف موجبه عنه من أندر شيء.

وفي هذا المعنى قال حسان بن ثابت ﷺ في أهل بدر:

سرنا وساروا إلى بدر لحتفهم	لو يعلمون عين العلم ما ساروا

وقوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، قيل: تأكيد لحصول العلم كقوله: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ٤، ٥]، وقيل: ليس تأكيدًا، بل العلم الأول عند المعاينة ونزول الموت، والعلم الثاني في القبر - هذا قول الحسن ومقاتل، ورواه عطاء عن ابن عباس.

عباد الله...

ويواصل ابنُ القَيِّم - رَحِمَهُ الله - كلامه فيقول: ويدل على صحة هذا القول عدة أوجه:

أحدها: أن الفائدة الجديدة والتأسيس هو الأصل، وقد أمكن اعتباره مع فخامة المعنى وجلالته وعدم الإخلال بالفصاحة.

الثاني: توسط ﴿ثُمَّ﴾ بين العلمين، وهي مؤذنة بتراخي ما بين المرتبتين زمانًا وخطرًا.

الثالث: أن هذا القول مطابق للواقع، فإن المحتضر يعلم عند المعاينة حقيقة ما كان عليه، ثم يعلم في القبر وما بعده ذلك علمًا هو فوق الأول.

الرابع: أن عليًّا بن أبي طالب ﷺ وغيره من السلف، فهموا من الآية عذاب القبر، قال الترمذي: حدثنا أبو كريب، حدثنا حكام بن سليم الرازي، عن عمرو بن قيس، عن الحجاج بن المنهال بن عمر عن زر عن علي ﷺ، قال: ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت: ﴿أَلْـهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، قال الواحدي: يعني أن معنى قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في القبر.

الخامس: إن هذا مطابق لما بعده من قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الْـجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾، فهذه الرؤية الثانية غير الأولى من وجهين: إطلاق الأولى وتقييد الثانية بعين اليقين، وتقدم الأولى وتراخي الثانية عنها.

ثم ختم السورة بالإخبار المؤكد بواو القسم ولام التأكيد والنون الثقيلة عن سؤال النعيم، فكل أحد يسأل عن نعيمه الذي كان فيه في الدنيا: هل ناله من حلاله ووجهه أم لا؟ فإذا تخلص من هذا السؤال سئل سؤالاً آخر: هل شكر الله تعالى عليه فاستعان به على طاعته أم لا؟ فالأول سؤال عن سبب استخراجه، والثاني عن محل صرفه، كما في «جامع الترمذي»، من حديث عطاء بن أبي رباح، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «لاَ تَزُولُ قَدَمَا ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ: عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلاَهُ، وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟ وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ؟»[1].

(١) حسن: رواه الترمذي (٤/ ٥٢٩)، وحسنه الألباني كما في «الصحيحة» (٩٤٦).

وفيه أيضًا عن أبي برزة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَا فَعَلَ بِهِ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَا أَبْلاَهُ**»، قال: هذا حديث صحيح.

وفيه أيضًا من حديث أبي هريرة ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ يَعْنِي العَبْدَ مِنَ النَّعِيمِ أَنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ وَنُرْوِيكَ مِنَ المَاءِ البَارِدِ**»[١].

وفيه أيضًا، من حديث الزبير بن العوام ﷺ، لما نزلت: ﴿**ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ**﴾ قَالَ الزُّبَيْرُ: وَأَيُّ نَعِيمٍ نُسْأَلُ عَنْهُ وَإِنَّمَا هُوَ الأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالمَاءُ؟. قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُ سَيَكُونُ**»[٢]. قال: هذا حديث حسن.

وعن أبي هريرة نحوه، قال: إنما هو الأسودان العدو حاضر، سيوفنا على عواتقنا، فقال: «**إن ذلك سيكون**»[٣].

وقوله ﷺ «**إن ذلك سيكون**» إما أن يكون المراد به أن النعيم سيكون ويحدث لكم، وإما أن يرجع إلى السؤال، أي أن السؤال يقع عن ذلك، وإن كان تمرًا وماء فإنه من النعيم، ويدل عليه قوله ﷺ في الحديث الصحيح وقد أكلوا معه رطبًا ولحمًا وشربوا من الماء البارد: «**هَذَا مِنَ النَّعِيمِ الَّذِى تُسْأَلُونَ عَنْهُ**»[٤]، فهذا سؤال عن شكره والقيام بحقه.

عباد الله...

ويواصل ابنُ القَيِّم - رَحِمَهُ الله - كلامه قائلًا: وقد زعم طائفة من المفسرين أن هذا خطاب خاص بالكفار، وهم المسئولون عن النعيم، وذكر ذلك عن الحسن ومقاتل، واختار الواحدي ذلك، واحتج بحديث أبي بكر لما نزلت هذه الآية: قال لرسول الله ﷺ: أرأيت أكلة أكلتها معك ببيت أبي الهيثم بن التيهان من خبز وشعير ولحم، وبسر

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي (٥/ ٤١٨)، وانظر «الصحيحة» (٥٣٩).

(٢) **حسن**.

(٣) **حسن**: رواه الترمذي.

(٤) رواه مسلم (٤/ ٧٢١) وغيره، وهو جزء من حديث طويل، ذكرناه في غير هذا الموضع بتمامه، وسيأتي بعد قليل إن شاء الله بتمامه أيضًا.

قَدْ ذَنَّب، وماء عذب، أتخاف علينا أن يكون هذا مِن النعيم الذي نسأل عنه؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنما ذَلِكَ للكفار» ثم قرأ: ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧] [١].

قال الواحدي: والظاهر يشهد بهذا القول، لأن السورة كلها خطاب المشركين وتهديد لهم، والمعنى أيضًا يشهد بهذا القول، وهو أن الكفار لم يؤدوا حق النعيم عليهم حيث أشركوا به وعبدوا غيره، فاستحقوا أن يسألوا عما أنعم به عليهم توبيخًا لهم، هل قاموا بالواجب فيه أم ضيعوا حق النعمة، ثم يعذبون على ترك الشكر بتوحيد المنعم.

قال: وهذا معنى قول مقاتل، وهو قول الحسن قال: لايسأل عن النعيم إلا أهل النار.

قلت: ليس في اللفظ، ولا في السنة الصحيحة، ولا في أدلة العقل، ما يقتضي اختصاص الخطاب بالكفار، بل ظاهر اللفظ وصريح السنة والاعتبار يدل على عموم الخطاب لكل من اتصف بإلهاء التكاثر له، فلا وجه لتخصيص الخطاب ببعض المتصفين بذلك.

ويدل على ذلك قول النبي ﷺ عند قراءة هذه السورة «**يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلاَّ مَا تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ أَوْ أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ؟!**» الحديث، وهو في «صحيح مسلم»، وقائل ذلك قد يكون مسلمًا، وقد يكون كافرًا.

ويدل عليه أيضًا الأحاديث التي تقدمت، وسؤال الصحابة النبي ﷺ وفهمهم العموم، حتى قالوا له: وأي نعيم نسأل عنه؟ وإنما هو الأسودان، فلو كان الخطاب مختصًّا بالكفار لبين لهم ذلك، وقال: ما لكم ولها، إنما هي للكفار، فالصحابة فهموا النعيم، والأحاديث صريحة في النعيم، والذي أنزل عليه القرآن أقرهم على فهم العموم.

وأما حديث أبي بكر الذي احتج به أرباب هذا القول، فحديث لا يصح، والحديث الصحيح في تلك القصة يشهد ببطلانه، ونحن نسوقه بلفظه، ففي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة، قال: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ لَيْلَةٍ فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ

---

(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٨/ ٦١٨)، لابن مردويه عن الكلبي، وهو ساقط.

فقال: «مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟». قَالاَ: الجُوعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «وَأَنَا وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لأَخْرَجَنِى الَّذِى أَخْرَجَكُمَا، قُومُوا». فَقَامُوا مَعَهُ فَأَتَى رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِى بَيْتِهِ فَلَمَّا رَأَتْهُ المَرْأَةُ قَالَتْ: مَرْحَبًا وَأَهْلاً. فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيْنَ فُلاَنٌ؟». قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا مِنَ المَاءِ. إِذْ جَاءَ الأَنْصَارِىُّ فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصَاحِبَيْهِ ثُمَّ قَالَ: الحَمْدُ لله مَا أَحَدٌ اليَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّى، قَالَ: فَانْطَلَقَ فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطَبٌ فَقَالَ: كُلُوا مِنْ هَذِهِ. وَأَخَذَ المُدْيَةَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِيَّاكَ وَالحَلُوبَ». فَذَبَحَ لَـهُمْ فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ العِذْقِ وَشَرِبُوا فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لأَبِى بَكْرٍ وَعُمَرَ: «وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ القِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الجُوعُ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ».

فهذا الحديث الصحيح صريح في تعميم الخطاب، وأنه غير مختص بالكفار.

وأيضًا فالواقع يشهد بعدم اختصاصه، وأن الإلهاء بالتكاثر واقع من المسلمين كثيرًا، بل أكثرهم قد ألهاه التكاثر.

وخطاب القرآن عام لمن بلغه، وإن كان أول من دخل فيه المعاصرين لرسول الله ﷺ، فهو متناول لمن بعدهم، وهذا معلوم بضرورة الدين، وإن نازع فيه من لا يعتد بقوله من المتأخرين.

فنحن اليوم ومن قبلنا ومن بعدنا داخلون تحت قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ونظائره، كما دخل تحته الصحابة بالضرورة المعلومة من الدين.

فقوله: ﴿أَلْـهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ خطاب لكل من اتصف بهذا الوصف، وهم في الإلهاء والتكاثر درجات لا يحصيها إلا الله.

فإن قيل: فالمؤمنون لم يلههم التكاثر، ولهذا لم يدخلوا في الوعيد المذكور لمن ألهاه.

قيل: هذا هو الذي أوجب لأرباب هذا القول تخصيصه بالكفار، لأنه لم يمكنهم حمله على العموم، ورأوا أن الكفار أحق بالوعيد فخصوهم به، **وجواب هذا:** أن الخطاب للإنسان من حيث هو إنسان، على طريقة القرآن في تناول الذم له من حيث هو إنسان،

كقوله: ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]، ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠]، ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]، ﴿وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ [الزخرف: ١٥]، ونظائره كثيرة.

فالإنسان من حيث هو عار عن كل خير من العلم النافع والعمل الصالح، وإنما الله سبحانه هو الذي يكمله بذلك ويعطيه إياه، وليس له ذلك من نفسه، بل ليس له من نفسه إلا الجهل المضاد للعلم، والظلم المضاد للعدل، وكل علم وعدل وخير فيه، فمن ربه لا من نفسه، فإلهاء التكاثر طبيعته وسجيته التي هي له من نفسه، ولا خروج له عن ذلك إلا بتزيكة الله له وجعله مريدًا للآخرة مؤثرًا لها على التكاثر بالدنيا، فإن أعطاه ذلك، وإلا فهو مُلْتَهٍ بالتكاثر في الدنيا ولا بد.

وأما احتجاجه بالوعيد على اختصاص الخطاب بالكفار، **فيقال**: الوعيد المذكور مشترك، وهو العلم عند معاينة الآخرة، فهذا أمر يحصل لكل أحد لم يكن حاصلاً له في الدنيا.

وليس في قوله: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما يقتضي دخول النار، فضلاً عن التخليد فيها، وكذلك رؤية الجحيم لا يستلزم دخولها لكل من رآها، فإن أهل الموقف يرونها ويشاهدونها عيانًا، وقد أقسم الرب تبارك وتعالى أنه لابُدَّ أن يراها الخلق كلهم: مؤمنهم وكافرهم، وبرهم وفاجرهم: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]، فليس في جملة هذه السورة ما ينفي عموم خطابها، وأما ذكره عن الحسن، أنه لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار، فباطل قطعًا إما عليه وإما منه، والأحاديث الصحيحة الصريحة ترده، وبالله التوفيق.

ولا يخفى إن مثل هذه السورة مع عظم شأنها وشدة تخويفها، وما تضمنته من تحذير الملهي، وانطباق معناها على أكثر الخلق، يأبى اختصاصها من أولها إلى آخرها بالكفار، ولا يليق ذلك بها، ويكفي في ذلك تأمل الأحاديث المرفوعة فيها، والله أعلم.

وتأمل ما في هذا العتاب الموجع لمن استمر على إلهاء التكاثر له مدة حياته كلها إلى أن زار القبور، ولم يستيقظ من نوم الإلهاء، بل أرقد التكاثر قلبه، فلم يستفق منه إلا وهو في عسكر الأموات، وطابق بين هذا وبين حال أكثر الخلق يتبين لك أن العموم مقصود.

وتأمل تعليقه سبحانه الذم والوعيد على مطلق التكاثر من غير تقييد بمتكاثر به، يدخل فيه التكاثر بجميع أسباب الدنيا على اختلاف أجناسها وأنواعها، وأيضًا فإن التكاثر تفاعل، وهو طلب كل من المتكاثرين أن يكثر صاحبه، فيكون أكثر منه فيما يكاثره به، والحامل له على ذلك توهمه أن العزة للتكاثر، كما قيل:

ولست بالأكثر منهم حصى وإنما العزة للتكاثر

فلو حصلت له الكثرة من غير تكاثر لم تضره، كما كانت الكثرة حاصلة لجماعة من الصحاب، ولم تضرهم، إذ لم يتكاثروا بها، وكل من كاثر إنسانًا في دنياه أو جاهه أو غير ذلك، شغلته مكاثرته عن مكاثرة أهل الآخرة.

فالنفوس الشريفة العلوية، ذات الهمم العالية، إنما تكاثر بما يدوم عليها نفعه، وتكمل به وتزكو، وتصير مفلحة، فلا تحب أن يكثرها غيرها في ذلك وينافسها في هذه المكاثرة ويسابقها إليها، فهذا هو التكاثر الذي هو غاية سعادة العبد، وضده تكاثر أهل الدنيا بأسباب دنياهم.

فهذا تكاثر مله عن الله والدار الآخرة، وهو صائر إلى غاية القلة، فعاقبة هذا التكاثر قل وفقر وحرمان، والتكاثر بأسباب السعادة الأخروية تكاثر لا يزال يذكر بالله ولقائه، وعاقبته الكثرة الدائمة التي لا تزول ولا تفنى، وصاحب هذا التكاثر لا يهون عليه أن يرى غيره أفضل منه قولاً وأحسن منه عملاً وأغزر علمًا، وإذا رأى غيره أكثر منه في خصلة من خصال الخير يعجز عن لحاقه فيها كاثره بخصلة أخرى هو قادر على المكاثرة بها، وليس هذا التكاثر مذمومًا ولا قادحًا في إخلاص العبد، بل هو حقيقة المنافسة واستباق الخيرات.

وقد كانت هذه حال الأوس مع الخزرج ﷺ في تصاولهم بين يدي رسول الله ﷺ، ومكاثرة بعضهم لبعض في أسباب مرضاته ونصره، وكذلك كانت حال عمر مع أبي بكر رضي الله عنهما، فلما تبين له مدى سبقه له قال: والله لا أسابقك إلى شيء أبدًا.

عباد الله...

ومن تأمل حسن موقع ﴿كَلَّا﴾ في هذا الموضع، فإنها تضمنت ردعًا لهم، وزجرًا

عن التكاثر، ونفيًا وإبطالاً لما يؤملونه من نفع التكاثر لهم وعزتهم وكمالهم به، فتضمنت اللفظة نهيًا ونفيًا، وأخبرهم سبحانه أنهم لابد أن يعلموا عاقبة تكاثرهم علمًا بعد علم، وأنهم لابد أن يروا دار المكاثرين بالدنيا التي ألهتهم عن الآخرة رؤية بعد رؤية، وأنه سبحانه لا بد أن يسألهم عن أسباب تكاثرهم: من أين استخرجوها؟! وفيما صرفوها؟.

فلله ما أعظمها من سورة! وأجلها وأعظمها فائدة! وأبلغها موعظة وتحذيرًا! وأشدها ترغيبًا في الآخرة وتزهيدًا في الدنيا على غاية اختصارها، وجزالة ألفاظها، وحسن نظمها ! فتبارك من تكلم بها حقًا، وبلغها رسوله عنه وحيًا.

وتأمل كيف جعلهم عند وصولهم إلى غاية كل حي، زائرين غير مستوطنين، بل هم مستودعون في المقابر مدة، وبين أيديهم دار القرار، فإذا كانوا عند وصولهم إلى الغاية زائرين، فكيف بهم وهم في الطريق في هذه الدار؟! فهم فيها عابرو سبيل إلى محل الزيارة، ثم منتقلون من محل الزيارة إلى المستقر، فههنا ثلاثة أمور: عبور السبيل في هذه الدنيا، وغايته زيارة القبور، وبعدها النقلة إلى دار القرار[1].

ويقول ابنُ القيِّم - رَحِمَهُ الله -: قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ**﴾ [التكاثر: ٨]، قال محمد بن جرير: يقول تعالى: ثم ليسألنكم الله ﷻ عن النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا: ماذا عملتم فيه؟ من أين وصلتم إليه؟ وفيم أصبتوه؟ وماذا عملتم به؟

وقال قتادة: إن الله سائل كل عبد عما استودعه من نعمه وحقه.

والنعيم المسئول عنه نوعان: نوع أُخذ من حِلِّه وصُرف في حقِّه، فَيُسأل عن شكره، ونوع أخذ بغير حِلِّه وصُرف في غير حقه، فيسأل عن مستخرجه ومصرفه ا.هـ[2].

اللَّهُمَّ أعنَّا عَلَى ذِكرك وشكرك، وحُسن عبادتك.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

***

---

(١) «عدة الصابرين» (١٨٣ - ١٩٤).

(٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ٨٤)، وانظر «بدائع التفسير» (٥/ ٣٠٨ - ٣٢١).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فمِمَّا ينبغي التنبيه عليه أن: «اللذَّةُ - مِن حيث هي - مطلوبةٌ للإنسان بل ولكلِّ حيٍّ، فلا تُذَمُّ مِن جهة كونها لذَّةٌ وإنَّما تُذَمُّ ويكون تركُها خيرًا مِن نَيْلِها وأنفعَ إذا تضمَّنت فواتَ لذَّةٍ أعظمَ منها وأكملَ، أو أعقبت ألمًا حصولُهُ أعظم من ألم فواتِها.

فههُنا يظهرُ الفرقُ بين العاقلِ الفَطِنِ والأحمقِ الجاهلِ، فمتى عَرَفَ العقلُ التفاوتَ بين اللَّذَّتينِ والألمين وأنه لا نسبة لأحدهما إلى الآخر؛ هانَ عليه تركُ أدنى اللَّذَّتين لتحصيل أعلاهما، واحتمالُ أيسرِ الألمين لدفع أعلاهما.

وإذا تَقَرَّرت هذه القاعدةُ فلذَّةُ الآخرة أعظمُ وأدوم، ولذَّةُ الدُّنْيَا أصغرُ وأقصرُ، وكذلك ألم الآخرة وألم الدُّنْيَا، والمعول في ذَلِكَ على الإيمان واليقينِ، فإذا قويَ اليقينُ وباشَرَ القلبَ آثرَ الأعلى على الأدنى في جانبِ اللَّذةِ واحتمل الألم الأسهلَ على الأصعبِ، والله المستعانُ» اهـ[١].

عباد الله...

ونختم خطبة اليوم بهذه القصّة المؤثّرة: «كان عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية خلًّا لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين، فَلَمَّا مات عبدُ الملك، وانصرف الناس عن قبره، وقف عبد الرحمن فقال: أنت عبد الملك، الَّذِي كنتَ تَعُدني فأرجوك، وتتوعّدني فأخافك؟! أصبحتَ وليس معك من ملكك غَير ثَوبَيك، وليس لك غير أربعة أذرع في عرض ذراعين من الأرض؟ ثم انكفأ إلى أهله، واجتهد في العبادة حَتَّى صار كالشَّنِّ البالي».

والسَّعيدُ مَن وُعِظَ بِغَيره.

❖❖❖❖❖

---

(١) «مختصر الفوائد» لابن القيم.

الخطبة الخامسة والسبعون:

اترُك الدُّنيَا قبل أن تترُكك

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فالدنيا ظِلٌّ زائل، ومتاعٌ حائل، لا تساوي عند الله جناح بعوضة، ولو ساوت ما سقى كافرًا منها شربة ماء.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ الله عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِالسُّوقِ دَاخِلاً مِنْ بَعْضِ العَالِيَةِ[1] وَالنَّاسُ كَنَفَتَهُ[2]، فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ[3] مَيِّتٍ فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ ثُمَّ قَالَ:

---

(١) **العالية**: القرى التي في الجهة العالية من المدينة المنورة وهي جهة نجد، «فتح الباري» (١٠/ ٢٤٩).

(٢) **كنفته**: أي: عن جانبيه.

(٣) **أسك**: صغير الأُذُن.

بِكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟».

فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟

قَالَ: «أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ».

قَالُوا: وَاللَّهِ لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا فِيهِ لأَنَّهُ أَسَكُّ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟!

فَقَالَ: «فَوَاللَّهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ»[١].

عباد الله...

«الدُّنْيَا كلّها، بذهَبِها ومُلكها، وأنهارها وأشجارها، ونساءِها، وكُلِّ متاعها أهون عَلَى الله من جَدي أَسَكّ، أو شاةٍ مَيتة مُنتنة، مُلقاة عَلَى مزبلة!!

الدُّنْيَا ظلّ الغمام، وحُلم النيام، والعسل المشروب بالسُّم، والفرح الموصول بالغم، فلا يغرنّك زهرتها، ولا يفتننك زينتُها، فإنها سلَّابة النِّعم، أكَّالة الأُمم، تُعطي وترجع، وتنقاد وتتمنّع، وتوحش وتؤمن، فيعرض عنها السّعداء ويرغب فيها الأشقياء، فلا توقِعَنَّك في شبكتها، ولا تدخلنّك في هلكتها، فخيرها يسير، وشرّها كثير، لذّاتها قليلة، وحسراتها طويلة، تكثر الغدر، وتضمر الكسر، وتقرّب الآجال، وتبدّل الأحوال، وتسحق العيون، وتفنى الظنون، فلا تَمِل إليها بوجهك، ولا تُقبِل عليها بِهَمِّك، فإنها جلَّابة سحَّارة مكَّارة، يشوب نعيمها بؤس، وتقرن سعودها[٢] بنحوس[٣]، تخلط حلوها بمُرٍّ، وتصل نفعها بضرٍّ.

إذا طلبت العزّ فاطلبه بالطاعة، وإذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة، فمن أطاع الله عزّ نَصرُه، ومَن لزم القناعة زال فقرُه، الدُّنْيَا كثيرة التغيير، سريعة التكشير، شديدة الغدر، دائمة المكر، طالبها يذلّ، وراكبها يملّ»[٤].

هــي الدُّنْــيَا تقــول بمــلءِ فِــيها ... حَــذار حَــذارِ مِــن بَطــشي وفَتكــي

---

(١) رواه مسلم (٢٩٥٧).

(٢) **السُّعود**: سعود النجوم، عدة كواكب يقال لكل واحد منها: سعد كذا، ومنها: سعد السعود، وهو أحدها. «المعجم الوسيط» (١/ ٤٢٠).

(٣) **النحوس**: جمع نحس، وهو الجهد والضرّ، يُقال: يوم نحس لم يُصادف فيه خير.

(٤) «العِقد النفيس ونزهة الجليس» لأبي منصور الثعالبي (ص٣٤، ٣٥).

فـــلا يغـــرركم طـــولُ ابتـــسامي فقولـــي مُـــضحك والفعـــل مُبكـــي

وإليكم هَذِهِ الحكاية:

«مرّ عيسى عَلَيْهِ السَّلام عَلَى جمجمة عظيمة، فقال له أصحابه: هلَّا سألت الله تَعَالى أن يُحيي هَذِهِ الجمجمة فتخبرنا خبرها؟

فصلَّى ركعتين ودعا ربّه، فَإِذَا بالجمجمة تتكلّم بقدرة الله تَعَالى قائلة: يا روح الله، سَل عما تُريد، إن الله أمرني أن أُجيبك.

فقال عيسى عَلَيْهِ السَّلام: مَن كنتِ في هَذِهِ الدُّنْيَا؟

فقال: كنتُ مَلِكًا من ملوك الأرض، عشتُ فيها ألف عام، وولدتُ ألف ولد، وفتحتُ ألف مدينة، وهزمتُ ألف جيش، وقتلتُ ألف مَلِك، ثم كان بعد ذَلِكَ كُلّه الموت، ولقد تعلّمت بعد الموت أن النجاة في الزّهد في الدُّنْيَا، وأن الهلاك في الحرص والطمع، والعزّ في الرضا بما قسم الله عَزَّ وَجَلَّ»[1].

إنها موعظة أصدرها هذا الملك، وهو في دار الحق، بعد أن ظهرت له الأمور عَلَى حقيقتها.

قَالَ تَعَالى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

قَالَ الإمام ابن كثير - رَحِمَهُ الله - في تفسير هَذِهِ الآية: «والمراد بقوله تَعَالى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ يعني من هذا اليوم وهو يوم القيامة، ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي: قويّ، لأن كُل أحد يوم القيامة يكون مُستبصرًا حتى الكفار في الدنيا، يكونون يوم القيامة على الاستقامة، لكن لا ينفعهم ذلك» ا.هـ[2].

فيا أخا الإسلام...

الدُّنْيَا تقبل إقبال الطالب، وتدبر إدبارها الهارب، وتصل وصال الملُول، وتفارق

(١) «المواعظ والمجالس» لابن الجوزي (١٠٠).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٤٧).

فِرَق العجول، فَخَيرُها يسير، وعَيشُها قَصير، وإقبالها خديعة، وقُربها فجيعة، ولذّاتها فَنية، وتبعاتها باقية، فاغتَنم غفلة الزّمان، وانتهز فرصة الإمكان، وخُذ من نَفسِك لنفسك، وتزوّد من يَومِك لغدك، قبل حلول رَمسِك[1].

لا تصلح جانبًا بإفساد جانب، ولا تفرح صاحبًا بإساءة صاحب.

يا أخا الإسلام...

إذا أحب الله عبدًا وأراد به خيرًا ألهمه الطاعة، وألزمه القناعة، وإذا أراد به شرًّا حبَّب إليه المال، وبسط له الآمال، فَرَكَب الفساد، وظلم العباد، لا تصرف مالك في المعاصي، فتخرج من الدُّنْيَا بلا عمل.

إذا أحسنت القول فأحسن العمل، ولا تقل ما لا تفعل فإنّك لا تخلون في ذَلِكَ من ذنب تكسبه.

عباد الله...

رأس الشرّ حُب الغنى، ورأس الخير الزّهد في الدُّنْيَا، لأن حُبّ الدُّنْيَا يُورث الطمع، والزهد في الدُّنْيَا يورث الورع.

الهوى مطيّة الفتنة، والدار دار المحنة، فاترك الهوى تسلم، وأعرض عن الدُّنْيَا تغنم[2].

جاء رجل إلى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رَضِيَ الله عَنْهُ وقال: يا أمير المؤمنين، لقد اشتريت دارًا وأريد أن تكتب لي عقد الشّراء بيديك، فنظر عليٌّ إلى وجهه فرأى الدُّنْيَا تربّعت عَلَى عرش قلبه، فأراد أن يُلقّنه درسًا، فأمسك بالقلم وكتب:

«بسم الله الرحمن الرحيم.

أما بعد...

فقد اشترى مَيِّت من مَيِّت دارًا، تقع في دنيا المذنبين، وسكَّةِ الغافلين، لها أربعة حدود:

---

(١) رَمسك: موتك ودفنك.

(٢) «العقد النفيس ونزهة الجليس» (ص٣٤).

الحدّ الأول: ينتهي بالموت.

والحد الثاني: ينتهي إلى القبر.

والحد الثالث: ينتهي إلى الحساب.

والحدّ الرابع: ينتهي إما إلى الجَنَّة وإما إلى النار».

ما أنفعها موعظة، لو كان بالقلوب حياة.

ألا أيُّهَا المغرور ما لك تَلعب ... تُؤمّل آمالاً وموتُك أقرب

وتعلم أن الحرص بَحر مُبعد ... سفينته الدُّنْيَا فإيَّاك تعطب

وتعلم أن الموت يَنقَضّ مُسرعًا ... عليك يقينًا طَعمه لَيس بعذب

كأنَّك تُوصي واليتامى تراهم ... وأُمّهم الثّكلى تنوح وتندب

تَغُصّ بحزن ثم تَلطم وجَهها ... يراها رجالٌ بعد ما هي تحجب

وأُقبل بالأكفان نَحوك قاصدًا ... ويُحثى عليك التراب والعين تسكب

أخي...

الدّهر ثلاثة:

- يومٌ مضى لا يعود إليك.
- ويومٌ أنت فيه لا يدوم عليك.
- ويوم مُستقبله لا تدري ما يكون منه، ولا تعرف حاله.

فاغتنم لأمسك الماضي بغير فائدة، واعمل ليومك الفاني ولغدك الآتي، كُلٌّ يسوق إلى غده، وكُل امرئ مأخوذ بخبايا لسانه ويده.

خير عملك ما أصلحت به يومك، وشره ما أفسدت به حال قومك.

مَن تمسّك بالدِّين عزّ نصره، واستظهر بالحق قهره.

أخي...

لا تَبت عَلَى غير وصيّة وإن كنت من جسمك في صحّة، ومن عمرك في فُسحة،

... الله قَدْ قدّر ما هو كائن.

عن أنسٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: كنا عند رَسُول الله ﷺ فجاءه رجلٌ فقال: يا رَسُول ... مات فلان. قَالَ: «**أليس كان معنا آنفًا؟**» قالوا: بلى. قَالَ: «**سبحان الله كأنها أخذة عَلَى غضبٍ، المحروم مَن حُرم وصيّته**»[١].

أخي...

مَن قنع باليسير مِن الرزق استغنى عن الكثير من الخلق.

مَن رضى بالمقدور قنع بالميسور.

مَن رضى بالقضاء صبر عَلَى البلاء.

مَن عمَّر دنياه ضيّع ماله، ومَن عمّر آخرته بلغ آماله.

مَن حاسب نفسه سلم، ومن حفظ دينه غنم.

الرِّضا يغني الفقير، والطمع يذلّ الأمير.

مَن اتّقى الله وقاه، ومَن اعتصم به نجّاه.

الرِّضا بالكفاف يؤدِّي إلى العفاف.

مَن عاد إلى ذنبه اجترأ عَلَى ربّه.

أخي...

في كل ميِّت عظة بحاله وعبرة بماله.

لا يغرنَّك صحة نفسك، وسلامة أمسك، فمدة العمر قليلة، وسلامة النَّفْس مستحيلة.

الخير أجلُّ بضاعة، والفضل أحسن زراعة.

عِلمٌ لا يصلحك ضلال، ومالٌ لا ينفعك وبال.

مَن رضى بقضاء الله لم يسخطه، ومَن قنع بعطائه لم يداخله حسد.

---

(١) قال المنذري: رواه أبو يعلى بإسناد حسن. «الترغيب» (٥٠٧٩)، وأفاد الهيثمي قول المنذري.

مَن آمن بالله التجأ إليه، ومَن وثق بالله توكّل عليه.

مَن وثق بالله أغناه، ومَن توكّل عَلَى الله كفاه.

الرضا بالكفاف خير من الطمع والإسراف[(١)].

«ويُحكى أنَّ رَجُلين تنازعا وتخاصما في أرضٍ، فأنطقَ الله عَزَّ وَجَلَّ لَبِنَةً مِن حائط مِن تلك الأرض فقالت: يا هذان فيم تتنازعان؟ وفيم تتخاصمان؟ إني كنت ملكًا مِن الملوك ملكتُ كذا وكذا سنة، ثُمَّ مت وصرت تُرابًا، فبقيتُ كذلك ألف سنة ثم أخذني خزَّاف - يعني فخّارا - فعمل منِّي إناء فاستُعمِلتُ حَتَّى تكسّرت ثُم عدت ترابًا فبقيت ألف سنة، ثم أخذني رجلٌ فضرب مني لَبنة فجعلني في هذا الحائط، ففيم تنازعكما وفيم تخاصمكما؟»[(٢)].

عباد الله...

والآيات والأحاديث والآثار الواردة في ذمّ الدُّنْيَا أكثر من أن تُحصى، نذكر هنا بعضًا منها:

فمنَ الآيات:

قوله تَعَالى: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾ [الحديد: ٢٠].

ومن الأحاديث:

عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**أَلاَ إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلاَّ ذِكْرَ اللَّهِ وَمَا وَالاَهُ وَعَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا**»[(٣)].

وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ**

---

(١) «العقد النفيس ونزهة الجليس» (ص٣٠).

(٢) «الصحيح من التذكرة» (ص٣٥) للإمام القرطبي، إعداد الأستاذ/ مجدي فتحي السيد.

(٣) **حسن**: انظر «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٢٠).

عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ» (١).

وعن زيد بن أرقم قَالَ: كنا مَعَ أبي بكر الصِّدِّيق رَضِيَ الله عَنْهُ فدعا بشراب فأُتي له بماء وعسل، فلما أدناه مِن فِيهِ بكى، حَتَّى أبكى أصحابه وسكتوا وما سكت، ثم عاد فبكى وبكى حَتَّى ظنوا أنهم لا يقدرون عَلَى مسألته، قَالَ: ثم مسح عينيه، فقالوا: يا خليفة رَسُول الله ما أبكاك؟ قَالَ: كنتُ مَعَ رَسُول الله ﷺ فرأيتُه يدفع عن نفسه شيئًا ولم أرَ معه أحدًا، فقُلتُ: يا رَسُول الله ما الَّذِي تدفع عن نفسك؟ قَالَ: «**هَذِهِ الدُّنْيَا مُثِّلت لي فقلتُ لها: إليكِ عنِّي، ثم رَجَعَت فقالت: إنك إن أفلتَّ مني لم يَفلت مني مَن بعدك»** (٢).

ومن الآثار:

قَالَ عليّ بن أبي طالب رَضِيَ الله عَنْهُ: «مَن جمع ستّ خصال لم يَدع للجنَّة مَطلبًا، ولا عن النار مَهربًا.

أوّلها: مَن عرف الله فأطاعه.

وعرف الشيطان فعصاه.

وعرف الحق فاتَّبعه.

وعرف الباطل فاتَّقاه.

وعرف الدُّنْيَا فرفضها.

وعرف الآخرة فطلبها».

وقال ابن مسعود رَضِيَ الله عَنْهُ: «ما أصبح أحد من النَّاس إلَّا وهو ضيف وماله عارية، فالضّيف مُرتحل، والعارية مردودة».

وفي ذَلِكَ قيل:

ومـــا المـــال والأهلـــون وديعـــةٌ ولابـــدَّ يـــومًا أن تُـــردَّ الوَدائـــعُ

وقيل لإبراهيم بن أدهم: كيف أنت؟

---

(١) **صحيح:** «صحيح سنن الترمذي» (١٨٨٩).

(٢) قال المنذري: رواه ابن أبي الدُّنْيَا والبزار، ورواته ثقات إلَّا عبد الواحد بن زيد، وقَدْ قال ابن حبان: يعتبر حديثه إذا كان فوقه ثقة ودونه ثقة، وهو هنا كَذَلِكَ. «الترغيب» (٤٨٠٠).

فقال:

تُـرَقِّع دُنـيانا بتمـزيق ديننا فـلا دينُـنا يَبقـى ولا مَـا نـرقَعُ
فطوبـى لعـبد آثـر الله ربَّـهُ وجـادَ بدُنـياه لِمـا يَـتَوقعُ

وقال الحسن - رَحِمَهُ الله -: «لا تخرج نفسُ ابن آدم من الدُّنْيَا إِلَّا بحسرات ثلاث: إنه لم يشبع مِمَّا جمع، ولم يُدرك ما أمَل، ولم يُحسن الزَّاد لِمَ قَدِم عليه».

وقال ابن عبَّاس رَضِيَ الله عَنْهُ: «إن الله تَعَالَى جعل الدُّنْيَا ثلاثة أجزاء: جزء للمؤمن، وجزء للمنافق، وجزء للكافر، فالمؤمن يتزوّد، والمنافق يتزيّن، والكافر يتمتع».

وقال سعيد بن مسعود - رَحِمَهُ الله -: «إذا رأيت العبد تزداد دنياه وتنقص آخرته وهو به راض، فذلك المغبون الَّذِي يلعب بوجهه ولا يشعر».

وقال مالك بن دينار - رَحِمَهُ الله -: «اصطلحنا عَلَى حُبّ الدُّنْيَا فلا يأمر بعضُنا بعضًا، ولا ينهى بعضنا بعضًا، ولا يدعنا الله عَلَى هذا، فليت شعري أيُّ عذاب الله ينزل بنا».

وهذا هو داءُ أهل زماننا، فاتَّسعت رقعةُ الفساد، وتقلّص ظِلّ الإسلام، وسلّط الله علينا مَنَ لا يخافه ولا يرحمنا.

فاللهم رُحماك.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ولا يعني ترك الدُّنْيَا: تركُ العمل فيها، والتقوقع في زاوية حَتَّى تدرك الإنسان بليّةٌ نازلة، أَوْ منيّةٌ قاضية.

فكم جرذ علينا هذا الفكر المعلول من ويلات، لقد نكّس ألويتنا، وطأطأ رءوسنا لغير ربّنا، وأصاب الأُمّة في كرامتها، فأسقطها عن عرش عزّها، وجعلها مطيّة لعدوّ الله وعدوّها.

هذا، ولقد كتب الشيخ مُحَمَّد الغزالي في «الزهد» كلامًا يستحق التسجيل لنفاسته:

قال -رَحِمَهُ الله -: «ليس الزّهد هو الجهل بالحياة وهجر أسباب العمل، وقصور ...ع في مختلف الحِرف، وترك زينة الدُّنْيَا عجزًا عن بلوغها أَوْ بلادة عن تذوّق الجمال ...ذي أودعه الله فيها.

ورُبَّ نبيّ استمتع بالمال والبنين، وهو مع ذَلِكَ من الزَّاهدين.

ورُبَّ محرومٌ عاش يتشهّى ويتلمّظ، فما كان فقرُه رفعة لشأنه، ولا زيادة في حسناته.

إن الزُّهد ألَّا تبيع مُثُلك العليا بملك الدُّنْيَا إن خُيّرت بين هذه وذاك، فإن الله عاب ...ومًا بأنهم آثروا الأولى عَلَى الآخرة فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الكَافِرِينَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّـهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ﴾ [النحل: ١٠٧، ١٠٨].

أمَّا أن تحس نعمة الله وتستمتع بها ويشوق بدنك وروحك حُسنها، فهذا ما لا يضير رجلًا مؤمنًا مجاهدًا وفيًّا لفضائله.

ألا ترى القرآن الكريم ينبه إلى ناحية من نعم الله عَلَى أبناء آدم فيقول في تسخير الأنعام: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦].

إن هذا الجمال مِنّةٌ تستحق التنويه، فما بالك بألوان الجمال الأرقى، وقَدْ أتاحها الله جميعًا للذين آمنوا؟

إن أصحاب الدعوات قَدْ تحببّ لهم من الدُّنْيَا أشياء، بيد أن شيئًا مِمَّا يروقهم فيها لا يحجبهم عن الله ولا يهوِّن عليهم الحق ولا يذمّم للناس. اهـ(١).

وها هو النَّبيُّ ﷺ يُبيِّن الزُّهد وحقيقته فيقول: «ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِى النَّاسِ يُحِبُّوكَ»(٢).

فاجعلوا - عباد الله - هذا الهدى شعاركم، وفَّقني الله وإياكم لِما يُحبّ ويرضى.

۞۞۞۞۞

---

(١) «من معالم الحق» (١٨٧، ١٨٨).

(٢) **صحيح**: رواه البيهقيّ، والطبراني في «الكبير»، وغيرهما، وانظر «صحيح الجامع» (٩٢٢).

الخطبة السادسة والسبعون:

أكثروا من ذِكر هادمِ اللذات

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره. واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فاعلموا أن الموت نوعان:

الأوّل: موت الأبدان: وهذا النوع يطال جميع المخلوقين، قال تَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال تَعَالَى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

وهذا النوع بلا شكٌّ مصيبة، كما نصّ القرآن، قال تَعَالَى: ﴿فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ [المائدة: ١٠٦].

والصبر عَلَى هَذِهِ المصيبة له أجر جزيل، وثواب كبير. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ

صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥- ١٥٧]. وهذا النوع هو المقصود هنا.

النوع الثاني: موت القلب: وهذا النوع أشدّ من سابقه، والمصيبة به من أعظم المصائب، لأن النوع الأول يترتب عليه فساد دنيا الإنسان، وهذا النوع يترتب عليه فساد الدَّارين، وذَلِكَ هو الخُسران المبين.

قَالَ بعض السّلف: «واعجبًا للناس، يبكون عَلَى مَن مات بدنُهُ ولا يبكون عَلَى مَن مات قلبه وهو أشدّ».

وقال عبد الله بن خبيق: «إنما هي أربع لا غير: عينك، ولسانك، وقلبك، وهواك..

فانظر عينك، لا تنظر بها إلى ما لا يحل.

وانظر لسانك، لا تقل به شيئاً يعلم الله تعالى خلافه من قلبك.

وانظر قلبك، لا يكن فيه غلٌّ ولا حقد على أحد من المسلمين.

وانظر هواك لا تهوي به شيئاً من الشرِّ.

فإذا لم يكن فيك هذه الأربع من الخصال، فاجعل الرماد على رأسك؛ فقد شقيت»[١].

وقال عبد الله بن مسعود رَضِي الله عَنْهُ: «اطلب قلبك في ثلاثة مواطن: عند سماع القرآن، وفي مجالس الذِّكر، وفي أوقات الخلوة، فإن لم تجده في هذه المواطن فسل الله أن يَمُنَّ عليك بقلبٍ فإنه لا قلب لك»[٢].

ومن علامات موت القلب أو شدّة مرضه: إقباله عَلَى الدُّنْيَا وإدباره عن الآخرة.

عن الزهريّ قَالَ: كان عمر بن عبد العزيز - رَحِمَهُ الله - إذا أصبح أمسك بلحيته ثم قرأ: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥- ٢٠٧]. ثم يبكي ويقول:

نَهارُكَ يا مَغْرورُ سَهْوٌ وَغَفْلَةٌ وَلَيْلُكِ نَوْمٌ والرَّدَى لَكَ لازِمُ

---

(١) «الرسالة القشيرية» (١٩).

(٢) «الفوائد» لابن القيم (١٤٨).

فـلا أنْـتَ في الأَيْقَـاظ يَقْظَـانُ حـازِمُ ... ولا أنْـــتَ في الـــنُوَّام نــاجٍ فَـسَالِمُ

تُـــسَرُّ بمـــا يَفْنَــى وَتَفْــرَحُ بالمُنَــى ... كمـا سُـرّ باللّـذات في الـنَّوم حَـالِمُ

وتَـسْعَى إلى مـا سـوف تَكْـره غِـبَّهُ ... كـذلك في الـدنيا تعـيشُ الـبَهَائِمُ

عباد الله...

وها هو صوت الإمام ابن الجوزي - رَحِمَهُ الله - يقرع الآذان، ويدخل عَلَى القلوب بغير استئذان، ينبّه الغافلين، ويوقظ النَّائمين، ويلهب ظهور الطغاة والمجرمين، ويُحرِّك هِمَم الرَّاجين والتائبين فيقول:

«ستعلم أيُّها العاصي ما أتيت، وستدري يوم الحساب مَن عصيت، وستبكي دمًا لِقُبح ما جَنَيت.

كأنَّك بالموت قَدْ جاء فانتبهت وارعويت، وتذكّرت تلك الخطايا فتعست وبكيت، وأخلى منك البيت شِئتَ أم أَبيتَ، وصِحتَ بلسان الأسف: ﴿رَبِّ ارجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩]، وَلَيتَ.

انهض قبل أن تُسمّى باسم: ميِّت.

ويحَكَ تأمَّل أمرَك وافتح عينيك.

وَيحَكَ كم تعي من الذنوب عليك؟

إن سهام الموت قَدْ صُوّبت إليك.

أيُّها المتيقّظون وهم نائمون، أتبنون ما لا تسكنون، وتجمعون ما لا تأكلون؟ كونوا كي شئتم فستنُقلون. ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَـمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥].

يا مقيمين سترحلون.

يا مُستقرّين ما تتركون.

يا غافلين عن الرحيل ستظعنون[١].

أراكم متوطنين تأمنون المنون؛ ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَـمَيِّتُونَ﴾ .

---

(١) الظعن: السّفر.

أين العُتاة المتجبّرون؟

أين الفراعنة المتسلطون؟

أين أهل الخُيلاء المتكبرون؟

قدّروا أنكم صرتمُ كَهُم، أما تسمعون: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾.

ما نفعتهم الحصون.

ولا ردّ المال المصون.

هبَّ زوابع الموت فكسرت الغُصون.

قدّروا أنكم تزيدون عليهم ولا تنقصون؛ ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾.

تقلّبوا من اللذات في فنون، وأخرجهم البطر إلى الجنون، فأتاهم ما هم عنه غافلون، ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان: ٢٥]، ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ ا.هـ.

أُدخل أبو الحسن عَلَى الهادي - أحد الأئمّة الاثني عشرية - وكان عابدًا زاهدًا، دخل عَلَى الخليفة المتوكّل، وهو عَلَى شرابه، فَلَمَّا مَثُل بين يديه أجلّه وأعظمه وأجلسه إلى جنبه، وناوله الكأس الَّذِي في يده، فقال: يا أمير المؤمنين لم يدخل بطني ولم يخالط لحمي ودمي قطُّ فأعفني منه، فأعفاه. ثم قال: أنشدني شعرًا، فأنشده:

باتوا على قُللِ الأجبَال[1] تحرسُهُم ... غُلبُ الرِّجال فلم تَنفعهُم القُلَلُ

واستُنزِلوا بَعد عزٍّ مَعَاقِلِهم ... إلى مَقابرهم يا بئس ما نَزلُوا

نَاداهم صارخٌ مِن بَعد ما دُفنوا ... أينَ الأسرَّةُ والتِّيجانُ والحُلَلُ

أينَ الوُجُوهُ التي كانت مُحَجَّبةً ... مِن دُونها تُضربُ الأستَارُ والكَلَلُ

أينَ الرِّمضاةُ ألم تَمنَع بأسهُمِهم ... لَمَّا أتتكَ سِهامُ الموتِ تَنتَصِلُ

هَيهَاتَ ما كَشفُوا ضَيمًا ولا دَفعُوا ... عَنكَ المنيَّة إذ وَافَى بكَ الأجَلُ

ولا الرُّشَى دَفعتها عَنك لو بَذلُوا ... ولا الرُّقَى نَفعت فيها ولا الحِيَلُ

---

(١) يعني أعالي الجبال.

مـا سـاعدوكَ ولا واسَـاك أقـرَبُهم بـل سَـلَّمُوك لهـا يـا قُـبح مـا فَعلـوا
مـا بـال قَـبركَ لا يأتـي بـه أحَـدٌ ولا يَـدُور بـه مِـن بَيـنهم رَجُـلُ
مـا بـال ذِكـرك مَنـسِيًا ومُطَّـرحًا وكلُّهـم باقتـسام المـال قَـدْ شُـغِلُوا
مـا بـالُ قَـصرِكَ وَحـشًا لا أنـيسَ بـه يَغـشَاكَ مِـن كنفَـيه الـرَّوعُ والـوَهَلُ
لا تُنكِـرنّ فَمَـا دَامـت عَلَـى مَلـكٍ إلاَّ نـاخَ علـيه المـوتُ والـوَجَلُ
وكـيف يَـرجُو دوام العَـيش مُتَّـصلا ورُوحُـه بحـبال المَـوت مُتَّـصِلُ
وجِـسمهُ لِبُنَّـيات الـرَّدَى غَـرضٌ ومالُـه زَائـلٌ عَـنْهُ ومُنـتَقِلُ
فأفـصح القَـبر عَـنهم حـين سَـاءَلَهُم تلـك الوُجُـوه عَلـيها الـدُّودُ تَقتـتِلُ
قَـدْ طَالمـا أكلُـوا فِـيها ومـا شَـربُوا فأصـبَحوا بَعَـد طُـول الأكـل قَـدْ أُكِلوا
وطالمـا كَنَـزُوا الأمـوالَ وادّخَـروا فَخَلَّفُـوا عَلَـى الأعـداء وارتَحَلُـوا
وطَالَمـا شَـيَّدوُا دُورًا لتُحـصِنَهُم فَفَارقـوا الـدُّورَ والأهلِـينَ وانـتَقلوا
أضَـحَت مَـساكِنُهُم وحـشًا مُعطَّلَـةً وسـاكنُوها إلى الأجـدَاث قَـدْ رَحَلُـوا

فبكى المتوكِّلُ حَتَّى بَلَّ الثَّرى، وبكى مَن حوله وأمَرِ برفع الشَّراب[١].

عباد الله...

هكذا كانت القلوب - رغم ما أصابها من ذنوب - تبكي عَلَى ما عَرَفَت من الحق أو اجترحت من الخلق.

فاللَّهمّ ارحمنا فإنك بنا راحم، ولا تُعذِّبنا فأنت علينا قادر. آمين.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

***

(١) «سكب العبرات» (٢/ ٥١٨، ٥١٩).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فيقول القرطبيُّ -رَحِمَهُ الله - في «التذكرة»: «اعلم أنَّ الموت هو الخطب الأفظع والأمر الأشنع، والكأس التي طعمها أكره وأبشع، وأنه الحارث الأهذم للذات، والأقطع للراحات، والأجلب للكريهات، فإن أمرًا يقطع أوصالك ويفرق أعضاءك ويهدم أركانك لهو الأمر العظيم والخطب الجسيم وإن يومه لهو اليوم العظيم.

ويُحكى أنَّ الرشيد لَـمَّا اشتدّ مرضه أحضر طبيبًا طوسيًا فارسيًا وأمر أن يعرض عليه ماؤه أي بوله مع مياه كثيرة لمرضى وأصحاء، فجعل يستعرض القوارير حتى رأى قارورة الرشيد فقال: قولوا لصاحب هذا الماء يوصي فإنه قد انحلت قواه وتداعت بنيته، ولَـمَّا استعرض باقي المياه أقيم فذهب، فيئس الرشيد من نفسه وأنشد:

إن الطـــيب بطـــبه ودوائـــه ... لا يـستطيع دفـاع نَحْـب قـد أتـى

مـا للطبـيب يمـوت بالـداء الَّـذِي ... قـد كـان أبـرأ مـثله فـيما مـضى

مـات المـداوي والمـداوى والَّـذِي ... جلـب الـدواء أو باعـه ومـن اشـترى

عباد الله...

المـوتُ في كُـلِّ حِـينَ يَنـشُر الكَفَـنا ... ونحـن في غَفلـةً عمَّـا يُـراد بـنا

لا تطمـئن إلى الدُّنْـيَا وزينـتها ... وإن توشَّـحَت مـن أثـوابها الحـسنا

أيـن الأحِـبَة والجـيران مـا فَعَلـوا ... أيـن الـذين هـم كانـوا لـنا سَـكَنا

سـقاهم المـوتُ كأسًـا غَـير صـافية ... فـصَيَّرتهم لأطـبَاق الثـرى رهـنا

أيها المسلمون...

ومن فوائد ذكر الموت: ردّ الخواطر والتصوّرات الخاطئة، ودفع وساوس الشيطان.

قال ابن القيم -رَحِمَهُ الله - في «الفوائد»: مبدأُ كل علم نظريٍّ وعمل اختياريٍّ هو الخواطرُ والأفكارُ، فإنها توجبُ التصوُّراتِ، والتصوُّراتُ تدعو إلى الإراداتِ، والإراداتُ تقتضي وقوعَ الفعلِ، وكثرةُ تكرارِه تعطي العادةَ.

فصلاح هذهُ المراتبِ بصلاحِ الخواطرِ والأفكارِ، وفَسادُها بفسادِها .

فصلاحُ الخواطرِ بأن تكونَ مُراقبةً لوليِّها وإلهَهَا، صاعدةً إليه دائرةً على مرضاتهِ ومحابِّهِ، فإنَّهُ سُبْحَانَهُ به كُل صلاحٍ، ومِن عندهِ كلُّ هدى، ومِن توفيقه كُل رشدٍ، ومِن تولِّيه لعبدهِ كلُّ حفظٍ، ومِن تولِّيه وإعراضهِ عنه كُلُّ ضلالٍ وشقاءٍ ، فيظفرُ العبدُ بكلِّ خيرٍ وهدى ورُشدٍ بِقَدرِ إثباتِ عَينِ فكرتِه في آلائِه ونعمِه وتوحيدِه وطُرُقِ مَعرفتِه وطُرُقِ عبوديّتِه وإنزاله إيَّاهُ حاضرًا معه مشاهدًا له ناظرًا إليه، رقيبًا عليه مطَّلِعًا على خواطره وإرادته وهمِّهِ. فحينئذٍ يستحيي منه ويُجِلُّهُ أنْ يُطْلِعَهُ مِنه على عَورةٍ يكرهُ أن يَطَّلِعَ عليه مخلوقٌ مثله أو يرى في نفسه خاطرًا يمقتهُ عليه.

واعلم أن الخطراتِ والوساوسَ تؤدي متعلَّقاتُها إلى الفكرِ، فيأخذُها الفكرُ فيؤدِّيها إلى التذكُّرِ. فيأخذُها الذِّكر فيؤديها إلى الإرادةِ، فتأخذُها الإرادةُ فتؤدِّيها إلى الجوارحِ والعملِ، فَتَستحكمُ فتصيرُ عادةً، فرَدُّها من مبادئِها أسهلُ مِن قَطعِها بعد قُوَّتِها وتمامِها.

فإذا دَفعتَ الخاطرَ الواردَ عليكَ اندفعَ عَنْكَ مَا بَعدَه، وإنْ قَبلته صَار فِكرًا جَوَّالًا، فاستخدم الإرادةَ فتساعَدك هي والفكرُ على استخدامِ الجوارحِ، فإنْ تَعذَّرَ استخدامُها رَجَعا إلى القلبِ بالتمنِّي والشهوةِ وتوجُّهِهِ إلى جِهةِ المرادِ.

وإيَّاكَ أنْ تُمكِّن الشيطانَ مِن بيتِ أفكارِكَ وإرادتِكَ، فإنَّهُ يُفسِدُها عليك فسادًا يَصعُبُ تَداركُه، ويُلقي إليك أنواعَ الوساوس والأفكارِ المِضرّةِ، ويحولُ بَيْنَكَ وبَيْنَ الفكرِ فيما يَنفعُك، وأنتَ الَّذي أعَنْتَه على نَفْسِك بَتمكينِه مِن قلبك وخواطركَ فَملَكَها عليك.

والذي يُلقيه الشيطان في النَّفْس لا يخرجُ عن الفكر فيما كان، أو فيما يملكُ الفِكرَ فيه مِن أنواعِ الفواحشِ والحرامِ أو في خيالاتٍ وهميّةٍ لا حقيقة لها، أو في باطلٍ، أو فيما لا سبيلَ إلى إدراكه من أنواعِ ما طُوِيَ عنه علمُه، فيُلقيه في تلكَ الخواطرِ التي لا يبلغُ منها غايةً ولا يقفُ منها على نهايةٍ، فيجعلُ ذَلِكَ مجالَ فِكرهِ ومَسرحَ وَهمِه.

وجِمَاعُ إصلاحِ ذلك: أنْ تَشغلَ فِكركَ في باب العلومِ والتصوُّرات بمعرفةِ ما يلزمُكَ من التوحيدِ وحقوقهِ، وفي الموتِ وما بعدَه إلى دخول الجَنَّة والنار. وفي آفاتِ الأعمالِ وطُرقِ التحرُّزِ منها. وفي باب الإراداتِ والعُزُومِ؛ أن تشغلَ نَفسَكَ بإرادةِ ما ينفعُكَ إرادتُه وطرح إرادة ما يَضرُّكَ إرادتُه.

وعندَ العارفين أنَّ تمنِّيَ الخيانة وإشغال الفكرِ والقلبِ بها أضرُّ على القلب مِن نفسِ الخيانة، ولا سيّما إذا فرغَ قلبُه مِنْهَا بعد مُباشرَتِها، فإنَّ تمنِّيها يشغلُ القلبَ ويملؤُه مِنهَا ويَجعلُها همَّه ومُرادَه» ا.هـ.



الخطبة السابعة والسبعون:

الفرق بين كراهية الموت، وكراهية لقاء الله

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فيقول الإمام ابنُ القَيِّم -رَحِمَهُ الله-: «مراتب العلم والعمل ثلاثة:

١- **رواية**: وهي مجرّد النقل وحمل المرويِّ.

٢- **ودراية**: وهي فهمه وتعقّل معناه.

٣- **رعاية**: وهي العمل بِمُوجِب ما علمه ومقتضاه.

فَالنَّقلة هِمَّتَهُم الرواية، والعارفون هِمَّتهم الرعاية»[1].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤٧٨).

وأقول: ومِن تمام نعمة الله عَلَى العبد، تحصيل المراتب الثلاث، فمجرد النقل دون فهم النصوص بفهم السّلف الصَّالح أوقعَ أناسِيَّ كثيرًا في أخطاء قاتلة، كَرَدِّ بعض الأحاديث الصحيحة لأنَّها لا توافق عقولهم!!!

عباد الله...

ومن الأحاديث الصحيحة التي ردّها بعضُ المنتسبين إلى الإسلام قديمًا وحديثًا، حديث التالي:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ الله عَنْهُ - عن النَّبيّ ﷺ قَالَ: «**أُرْسِلَ مَلَكُ المَوْتِ إِلَى مُوسَى - عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ - فَلَمَّا جَاءَهُ صَكَّهُ**[١]**، فَرَجَعَ إِلَى رَبِّهِ، فَقَالَ: أَرْسَلْتَنِي إِلَى عَبْدٍ لاَ يُرِيدُ الْمَوْتَ. قَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهِ، فَقُلْ لَهُ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى مَتْنِ ثَوْرٍ**[٢]**، فَلَهُ بِمَا غَطَّتْ يَدُهُ بِكُلِّ شَعَرَةٍ سَنَةٌ. قَالَ: أَيْ رَبِّ ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: ثُمَّ الْمَوْتُ. قَالَ: فَالآنَ. قَالَ: فَسَأَلَ اللَّهَ أَنْ يُدْنِيَهُ**[٣] **مِنَ الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ رَمْيَةً بِحَجَرٍ**[٤]». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَوْ كُنْتُ ثَمَّ لأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ تَحْتَ الْكَثِيبِ**[٥] **الأَحْمَرِ**»[٦].

وفي رواية عن أبي هريرة أيضًا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**جَاءَ مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَقَالَ لَهُ أَجِبْ رَبَّكَ**[٧]. **قَالَ: فَلَطَمَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ عَيْنَ مَلَكِ الْمَوْتِ فَفَقَأَهَا. قَالَ: فَرَجَعَ الْمَلَكُ إِلَى اللهِ تَعَالَى فَقَالَ: إِنَّكَ أَرْسَلْتَنِي إِلَى عَبْدٍ لَكَ لاَ يُرِيدُ الْمَوْتَ وَقَدْ فَقَأَ عَيْنِي. قَالَ: فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ عَيْنَهُ وَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى عَبْدِي فَقُلِ: الْحَيَاةَ تُرِيدُ؟ فَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْحَيَاةَ فَضَعْ يَدَكَ عَلَى مَتْنِ ثَوْرٍ فَمَا تَوَارَتْ يَدُكَ مِنْ شَعْرَةٍ فَإِنَّكَ تَعِيشُ بِهَا سَنَةً، قَالَ: ثُمَّ**

---

(١) **صكّه**: لَطَمه.

(٢) **مَتن ثَور**: ظهر ثَور.

(٣) **يُدنيه**: يقرّبه.

(٤) **رمية بحجر**: قدر ما يبلغه.

(٥) **الكثيب**: الرَّمل المجتمع.

(٦) رواه البخاري (١٣٣٩)، (٣٤٠٧)، ومسلم (٢٣٧٢)، وأحمد في «المسند» برقم (٧٦٣٤)، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح، وابن حبان في «صحيحه» (٢/ ٢٩٦).

(٧) **أجب ربك**: أي: للموت، ومعناه: جئت لقبض روحك.

مَهْ؟[١] قَالَ: ثُمَّ تَمُوتُ. قَالَ: فَالآنَ مِنْ قَرِيبٍ، رَبِّ أَمِتْنِي مِنَ الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ رَمْيَةً بِحَجَرٍ». قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَاللهِ لَوْ أَنِّي عِنْدَهُ لأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ عِنْدَ الكَثِيبِ الأَحْمَرِ»[٢].

عباد الله...

ومن العجيب حقًّا: ردّ الشيخ مُحَمَّد الغزاليّ - رَحِمَهُ الله - لهذه الرواية فقد قَالَ في كتابه: «السُّنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث»:

«وقد وقع لي وأنا بالجزائر أنَّ طالبًا سألني: أصحيح أنَّ موسى عَلَيْهِ السَّلام فقأ عينَ ملك الموت عندما جاء لقبض روحه، بعدما استوفى أجله؟ فقلت للطالب وأنا ضائق الصدر: وماذا يفيدك هذا الحديث؟ إنه لا يتصل بعقيدة، ولا يرتبط به عمل، ثم قالت له: اشتغل بما هو أهم وأجدى لك!.

يقول: وعدتُ لنفسي أفكّر: إن الحديث صحيح السَّند، لكن مَتْنه يثير الرّيبة، إذ يفيد أنَّ موسى يكره الموت، ولا يحب لقاء الله بعدما انتهى أجله، وهذا المعنى مرفوض بالنسبة للصالحين مِن عباد الله، فكيف بأنبياء الله؟ وكيف بواحد من أولي العزم؟! إنَّ كراهيته للموَت أمرٌ مُستغرب[٣]، ثم هل الملائكة تُعرض لهم العاهات التي تعرض للبشر من عمى أو عور؟ وذلك بعيد.

إلى أن قَالَ: قال المازري: وقد أنكر بعض الملاحدة هذا الحديث وأنكر صوره. قالوا: كيف يجوز على موسى فقوء عين ملك الموت؟.

ثم ذكر أجوبة نقلها الشيخ الغزالي عنه[٤]، وبعد ذَلِكَ قَالَ الغزالي: هذا الدفاع كله

---

(١) **ثم مه**: استفهام، أي: ثم ماذا يكون أحياة أم موت؟ والهاء هاء السكت.

(٢) رواه مسلم (١٥٨) (٢٣٧٢).

(٣) هناك فرقٌ بين كراهية الموت، وكراهية لقاء الله تَعَالى، فعن عائشة قالت: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله أَحَبَّ الله لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ الله كَرِهَ الله لِقَاءَهُ». فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ الله أَكَرَاهِيَةُ المَوْتِ؟ فَكُلُّنَا نَكْرَهُ المَوْتَ، فَقَالَ: «لَيْسَ كَذَلِكِ وَلَكِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ الله وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ أَحَبَّ لِقَاءَ الله فَأَحَبَّ الله لِقَاءَهُ وَإِنَّ الكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ الله وَسَخَطِهِ كَرِهَ لِقَاءَ الله وَكَرِهَ الله لِقَاءَهُ». رواه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٤).

(٤) ستأتي هذه الأجوبة بعد قليل إن شاء الله.

حنيف الوزن، وهو دفاع تافه لا يساغ!! ومن وصم منكر الحديث بالإلحاد فهو يستطيل في أعراض المسلمين. والعلة في المتن يُبصرها المحققون، وتخفى عَلَى أصحاب الفكر السطحي» ا.هـ.[١]

وتوالت الردود عَلَى الشيخ الغزالي من كُلّ مكان، وقرأتُ بعضها، وكنتُ أودُّ مِمَّن تولَّى الرَّد أن يحفظ للرجل مكانته، ويكتفي ببيان حجّته دون تجريح، فقد حذَّر الأئمة من استباحة لحوم العلماء.

ومن الرّدود التي أعجبتني ردّ الشيخ سليمان به فهد العودة - حفظه الله - فقد قَالَ كلامًا بقلم عفيف يستحق التسجيل.

قَالَ - حفظه الله -:

١- حديث أبي هريرة رَضِيَ الله عَنْهُ في قصة مجيء ملك الموت إلى موسى عَلَيْهِ السَّلام رواه البخاري ومسلم وأحمد في «مسنده»، وابن خزيمة وغيرهم، وقول المؤلف في أول حديث: «ماذا يفيدك هذا الحديث؟» هٰذا الطالب السَّائل **أقول**: فوائد الحديث كثيرة:

منها: ابتلاء الإنسان بالإيمان بالغيب، فإنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ جعل مِن أخصّ خصائص المؤمنين أنهم يؤمنون بالغيب، فهذا الحديث وغيره من الأحاديث التي ثبتت هي من الغيب الَّذِي يُبتلى المؤمنون بالإيمان به، فضلًا عن ربط المؤمن بالأجيال السابقة من خلال التفصيلات النبويّة، فإنَّ الرسول ﷺ كثيرًا ما كان يذكر لبعض أصحابه بعض القضايا والقصص والتفاصيل والأحداث التي حدثت في الأجيال والقرون السابقة حَتَّى يربطهم بتلك الأجيال ويشعرهم بأن السابق واللاحق من أُمّة الإسلام أُمّة واحدة، يدعو لاحقُها لسابقها، ويدعو سابقها للاحقها، وإلا فأنت تجد كثيرًا من القصص التي ذكرها النَّبيُّ ﷺ عن بني إسرائيل في الصحيحين وغيرهما، وقَدْ يرد السؤال نفسه: ما الفائدة منها؟ فنقول: هَذِهِ الفائدة.

كَذَلِك الكشف عن طبيعة الإنسان، خاصّة في بعض المواقف حَتَّى حين يكون نبيًّا

---

(١) «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» (٢٦).

مصطفى مختارًا، فإِنَّهُ لا يخرج عن إنسانيّته وبشريّته.

هذا؛ إضافة إلى بعض الفوائد الفقهية وهي كثيرة، ذكرها أهلُ العلم:

منها: فضلُ الموت في الأرض المقدسة، ولِذَلِكَ جاء في الحديث الصحيح: «مَن استطاع منكم أن يموت بالمدينة فَلْيَمُت»[(١)]، وذَلِكَ لأن موسى عَلَيْهِ السَّلام قَالَ في آخر الحديث: «رَبِّ أَمِتْنِي مِنَ الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ رَمْيَةً بِحَجَرٍ».

وقَدْ يُستفاد منها: حماية الأنبياء لجانب التوحيد لِما يدلّ عليه هذا الدُّعَاء مِن حرص موسى عَلَى عدم اشتهار قبره ومعرفة بني إسرائيل به لِما يخشى من عبادتهم له، إلى غير ذَلِكَ من الفوائد الفقهية والعلمية.

٢- قول المؤلف: «إنه مِمَّا يستغرب أنَّ موسى يكره الموت بعد ما جاءه مَلَك الموت». **أقول:** كَون موسى عَلَيْهِ السَّلام يكره الموت، ليس أمرًا مستغربًا، فكراهية الموت جبلة في كلّ إنسان، ولِذَلِكَ لَـمَّا ذكر الرسول ﷺ في حديث عائشة وأبي هريرة وهما في الصحيح: «**مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ**». قَالَ الصحابة: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَكَرَاهِيَةُ المَوْتِ؟ فَكُلُّنَا نَكْرَهُ المَوْتَ، فَقَالَ: «**لَيْسَ كَذَلِكِ وَلَكِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ فَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَإِنَّ الكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ**»[(٢)].

والتابعون لَـمَّا روى لهم أبو هريرة الكلام نفسه قالوا الإيراد نفسه: فكُلّنا يكره الموت،؟ إن كان كَذَلِك فقد هلكنا، فمن طبيعة الإنسان أن يكره الموت مهما كان، ولا غرابة أن يكرهه موسى عليه الصَّلاة والسلام.

٣- أمَّا العاهة التي ذكرها واستغرب أن تُوجَد بالملك، فإنَّ العاهة هاهُنا عاهة عارضة للصّورة التي تصوّر بها المَلَك وليس للصورة الأصليّة التي خُلُق عليها، وقَدْ ثبت أن المَلَك يتصوّر للنّبي وغيره بصور شتّى، فلا مانع أن يعرض لهذه الصّورة عارض لأنَّها صورة بشريّة وليست صورة المَلَك التي خلقه الله تَعَالَى عليها، والمَلَك عَلَى

---

(١) **حسن:** رواه الطبراني في «الكبير» بإسناد حسن. «الترغيب والترهيب» (١٨٣٠).

(٢) تقدم قريبًا.

حال عبدٌ مخلوق من عدم وصائر إلى الموت، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

٤- قوله: «وهو دفاع تافه لا يُساغ» هذا غير جيّد، لأن هَذِهِ أقوال علماء كبار جب احترامهم، ومعرفة فضلهم، حَتَّى لو لم يقبل الإنسانُ آراءهم، فالتأدّب معهم جب.

وكذلك قوله: «يبصرها المحققون، وتخفى على أصحاب الفكر السّطحي» يعني عنّة الموجودة في الحديث، هل يصحّ وصف أئمة الحديث كالبخاري، ومسلم، وأحمد، نسائي، وابن خزيمة وغيرهم، بأنهم من أصحاب الفكر السطحي؟ وكذلك رجال إسناد الذين رووه؟! والذين تكلّموا على متنه مقرّين له، هل يجوز وصفهم بأنهم من صحاب الفكر السطحي؟!!

ثم مَن يعني بالمحققين؟ هلَّا ذكر لنا واحدًا منهم؟ واحدًا فقط ممن يصحّ أن يُسمى مُحَقِّقًا؟!

الأوْلى أن نقول لمن لا يقبل هذا الحديث: إن هذا الحديث ثابت الإسناد وقد قَبِلَه هل العلم وأوَّلُوه على تأويلات كثيرة.

وليس ردّك لهذا الحديث مُوجبًا لوصفك بالكفر والضلال والإلحاد والزّندقة، وما قاله العلماء والسابقون، كما قال المازري وابن خزيمة: «إن الملاحدة لا يؤمنون بهذا حديث» ليس مقصودهم أن مَن لم يؤمن بهذا الحديث فهو مُلحد، لا، إنما مقصودهم حكاية الواقع الذي يعيشونه في عصرهم أنَّ الملاحدة يتمسكون بهذا الحديث وأمثاله نطعن بالسُّنة كلّها، وهذا موجود، ولا يعني أن مَن لم يقل بهذا الحديث فهو مُلحد، إذ ن هذا الحديث يحتاج إلى أن نقول: إنه متواتر أو إنه يفيد العلم اليقيني القطعي حتى نَصِف مَن أنكره بالإلحاد، إنما الأمر الذي كان يُحسن ألَّا يقع هو وصف الدفاع بأنه دفاع تافه لا يُساغ، ووصف مَن يؤمنون بهذا الحديث أنهم من أصحاب الفكر السّطحي» ا.هـ[1].

هكذا يكون الأدب في الرّد، وإلا فَلْيُكسرَ القلم.

---

(١) «حوار هادئ مع الشيخ مُحَمَّد الغزالي» (٩٤ - ٩٦) باختصار يسير.

عباد الله...

وإتمامًا للفائدة، وتثبيتًا لدعائم الحق، نذكر بعض أقوال الأئمة في هذا الحديث:

قَالَ الإمام ابن حِبَّان - رَحِمَهُ الله -: «وَهَذَا الخَبَرُ مِنَ الأَخْبَارِ الَّتِي يُدْرِكُ مَعْنَاهُ مَنْ لَمْ يُحْرَمِ التَّوْفِيقَ لِإِصَابَةِ الحَقِّ. وَذَاكَ أَنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلاَ أَرْسَلَ مَلَكَ المَوْتِ إِلَى مُوسَى رِسَالَةَ ابْتِلاَءٍ وَاخْتِبَارٍ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَقُولَ لَهُ: أَجِبْ رَبَّكَ، أَمْرَ اخْتِبَارٍ وَابْتِلاَءٍ لاَ أَمْرًا يُرِيدُ اللهُ جَلَّ وَعَلاَ إِمْضَاءَهُ كَمَا أَمَرَ خَلِيلَهُ صَلَّى اللهُ عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ بِذَبْحِ ابْنِهِ أَمْرَ اخْتِبَارٍ وَابْتِلاَءٍ، دُونَ الأَمْرِ الَّذِي أَرَادَ اللهُ جَلَّ وَعَلاَ إِمْضَاءَهُ، فَلَمَّا عَزَمَ عَلَى ذَبْحِ ابْنِهِ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ فَدَاهُ بِالذَّبْحِ العَظِيمِ. وَقَدْ بَعَثَ اللهُ جَلَّ وَعَلاَ المَلاَئِكَةَ إِلَى رُسُلِهِ فِي صُوَرٍ لاَ يَعْرِفُونَهَا كَدُخُولِ المَلاَئِكَةِ عَلَى رَسُولِهِ إِبْرَاهِيمَ، وَلَمْ يَعْرِفْهُمْ حَتَّى أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً، وَكَمَجِيءِ جِبْرِيلَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَسُؤَالِهِ إِيَّاهُ عَنِ الإِيمَانِ وَالإِسْلاَمِ، فَلَمْ يَعْرِفْهُ المُصْطَفَى ﷺ حَتَّى وَلَّى.

فَكَانَ مَجِيءُ مَلَكِ المَوْتِ إِلَى مُوسَى عَلَى غَيْرِ الصُّورَةِ الَّتِي كَانَ يَعْرِفُهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ عَلَيْهَا، وَكَانَ مُوسَى غَيُورًا فَرَأَى فِي دَارِهِ رَجُلاً لَمْ يَعْرِفْهُ، فَشَالَ يَدَهُ فَلَطَمَهُ فَأَتَتْ لَطْمَتُهُ عَلَى فَقْءِ عَيْنِهِ الَّتِي فِي الصُّورَةِ الَّتِي يَتَصَوَّرُ بِهَا لاَ الصُّورَةِ الَّتِي خَلَقَهُ اللهُ عَلَيْهَا.

وَلَمَّا كَانَ مِنْ شَرِيعَتِنَا أَنَّ مَنْ فَقَأَ عَيْنَ الدَّاخِلِ دَارَهُ بِغَيْرِ إِذْنِهِ أَوِ النَّاظِرِ إِلَى بَيْتِهِ بِغَيْرِ أَمْرِهِ جُنَاحٌ عَلَى فَاعِلِهِ، وَلاَ حَرَجٍ عَلَى مُرْتَكِبِهِ، لِلأَخْبَارِ الجَمَّةِ الوَارِدَةِ فِيهِ الَّتِي أَمْلَيْنَاهَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كُتُبِنَا: كَانَ جَائِزًا اتِّفَاقُ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ بِشَرِيعَةِ مُوسَى، بِإِسْقَاطِ الحَرَجِ عَمَّنْ فَقَأَ عَيْنَ الدَّاخِلِ دَارَهُ بِغَيْرِ إِذْنِهِ، فَكَانَ اسْتِعْمَالُ مُوسَى هَذَا الفِعْلِ مُبَاحًا لَهُ وَلاَ حَرَجَ عَلَيْهِ فِي فِعْلِهِ، فَلَمَّا رَجَعَ مَلَكُ المَوْتِ إِلَى رَبِّهِ، وَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ مِنْ مُوسَى فِيهِ، أَمَرَهُ ثَانِيًا بِأَمْرٍ آخَرَ أَمْرَ اخْتِبَارٍ وَابْتِلاَءٍ. كَمَا ذَكَرْنَا قَبْلُ، إِذْ قَالَ اللهُ لَهُ: «**قُلْ لَهُ: إِنْ شِئْتَ فَضَعْ يَدَكَ عَلَى مَتْنِ ثَوْرٍ فَلَكَ بِكُلِّ مَا غَطَّتْ يَدُكَ بِكُلِّ شَعْرَةٍ سَنَةٌ**».

فَلَمَّا عَلِمَ مُوسَى كَلِيمُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ أَنَّهُ مَلَكُ المَوْتِ وَأَنَّهُ جَاءَهُ بِالرِّسَالَةِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، طَابَتْ نَفْسُهُ بِالمَوْتِ، وَلَمْ يَسْتَمْهِلْ، وَقَالَ: فَالآنَ. فَلَوْ كَانَتِ المَرَّةُ الأُولَى عَرَفَهُ مُوسَى أَنَّهُ مَلَكُ المَوْتِ، لاَسْتَعْمَلَ مَا اسْتَعْمَلَ فِي المَرَّةِ الأُخْرَى عِنْدَ تَيَقُّنِهِ وَعِلْمِهِ بِهِ ضِدَّ قَوْلِ مَنْ زَعَمَ أَنَّ أَصْحَابَ الحَدِيثِ حَمَّالَةُ الحَطَبِ، وَرُعَاةُ اللَّيْلِ يَجْمَعُونَ مَا لاَ يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَيَرْوُونَ مَا لاَ يُؤْجَرُونَ عَلَيْهِ، وَيَقُولُونَ بِمَا يُبْطِلُهُ الإِسْلاَمُ جَهْلاً مِنْهُ لِمَعَانِي الأَخْبَارِ، وَتَرْكَ

سنة في الآثار مُعْتَمِدًا مِنْهُ عَلَى رَأْيِهِ المَنْكُوسِ وَقِيَاسِهِ المَعْكُوسِ» ا.هـ[١].

وقال الإمام النووي - رَحِمَهُ الله -: «قال المازري: وقد أنكر بعض الملاحدة هذا الحديث وأنكر صوره، قالوا: كيف يجوز على موسى فقوء عين ملك الموت؟.

قال: وأجاب العلماء عن هذه الشبهة بأجوبة:

أحدها: أنه لا يمتنع أن يكون موسى ﷺ قَدْ أذن الله تعالى له في هذه اللطمة، ويكون ذلك امتحانا للملطوم، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالى يفعل في خلقه ما شاء، ويمتحنهم بما أراد!!.

والثاني: أن هذا على المجاز، والمراد أن موسى ناظره وحاجه فغلبه بالحجة، ويقال: فقأ فلان عين فلان إذا غابه بالحجة، ويقال: عورت الشيء إذا ادخلت فيه نقصًا.

وعلّق المازري على الرأي الثاني بقوله: وفي هذا ضعف لقوله ﷺ: **«فردّ الله عينه»**، فإن قيل: (أراد ردّ حجته) كان بعيدًا.

والثالث: أنَّ موسى ﷺ لم يعلم أنه ملك من عند الله، وظن أنه رجل قصده يريد نفسه (أي يريد قتله) فدافعه عنها، فأدت المدافعة الى فقوء عينه، لا أنه قصدها بالفقوء، وتؤيده رواية «صكّه»، وهذا جواب الإمام أبي بكر بن خزيمة وغيره من المتقدمين، واختاره المازري والقاضي عياض؛ قالوا: وليس في الحديث تصريح بأنه تعمد فقوء عينه.

فإن قيل: فقد اعترف موسى حين جاءه ثانيًا بأنه ملك الموت.

فالجواب: أنه أتاه في المرة الثانية بعلامة علم بها أنه ملك الموت فاستسلم بخلاف المرة الأولى. والله أعلم» ا.هـ[٢].

وقال الإمام ابن قتيبة - رَحِمَهُ الله -: «إنَّما فقأ موسى عَلَيْهِ السَّلام العين التي هي تخييل وتمثيل وليست عينًا حقيقية، ومعنى «ردّ الله عينه» أي: أعاده إلى خلقته الحقيقية،

---

١) كتب ابن حبان هذا الكلام تحت عنوان: «ذِكْرُ خَبَرٍ شُنِّعَ بِهِ عَلَى مُنْتَحِلِي سُنَنِ المُصْطَفَى ﷺ مَنْ حُرِمَ التَّوْفِيقَ لِإِدْرَاكِ مَعْنَاهُ» عقب حديث «موسى مع ملك الموت عليهما السلام»، ونقله العلامة أحمد شاكر في هامش «المسند» (٧/ ٣٧٦، ٣٧٧).

٢) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٥/ ٥١٤).

وقيل: عَلَى ظاهره، وردّ الله إلى ملك الموت عينه البشرية ليرجع إلى موسى عَلَى كمال الصورة، فيكون ذَلِكَ أقوى في اعتباره، وهذا هو المعتمد» ا.هـ[١].

عباد الله...

وقال الإمام النووي - رَحِمَهُ الله -: «وأما سؤاله عَلَيْهِ السَّلام الإدناء من الأرض المقدسة، فلشرفها وفضيلة مَن فيها من المدفونين من الأنبياء وغيرهم.

قَالَ بعض العلماء: وإنَّما سأل الإدناء، ولم يسأل نفس بيت المقدس، لأَنَّهُ خاف أن يكون قبره مشهورًا عندهم فيفتتن به النَّاس. وفي هذا استحباب الدفن في المواضع الفاضلة والمواطن المباركة، والقُرب من مدافن الصالحين. والله أعلم» ا.هـ[٢].

ولِذَلِكَ لَـمَّا مرض عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل - رحمهما الله تَعَالى - مرض الموت قيل له: أين تُحب أن تُدفن؟ قَالَ: صحّ عندي أن بالقطيعة[٣] نبيًّا مدفونًا، ولئن أكون في جوار نبيّ أحبّ إليَّ مِن أن أكون في جوار أبي[٤].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وخلاصة الكلام: يجب عَلَى المسلم الإيمان بما جاء في القرآن وصحيح السُّنة، ولا يقحم عقله في شيء فوق قدرته، ولا يرتفع صوته فوق صوت الوحيين، فتزلّ قدمهُ بعد ثبوتها، فقد جاء النَّهيّ عن ذَلِكَ، قال تَعَالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]. نعوذُ بالله مِن الضلالة بعد الهدى.

---

(١) «فتح الباري» (٦/ ٥١٠).
(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٥/ ٥١٣).
(٣) مكان.
(٤) «المنتظم» لابن الجوزي (١٣/ ٢٤١).

الخطبة الثامنة والسبعون:

المطلوب عند الاحتضار

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فالمطلوب عند الاحتضار: أن يكون المسلم بين الخوف والرجاء، الخوف من عذاب الله، والرجاء في رحمته.

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ فِي المَوْتِ فَقَالَ: «كَيْفَ تَجِدُكَ؟». قَالَ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَرْجُو اللَّهَ وَإِنِّي أَخَافُ ذُنُوبِي. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لاَ يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا المَوْطِنِ إِلاَّ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَا يَرْجُو وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ»[1].

---

(١) **حسن**: رواه الترمذي، وحسّنه المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤٩٢٧)، ووافقه الألباني كما =

عباد الله...

«والرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقرّبون إلى كُلّ مقام محمود، ومطيتان بهـ يقطع من طُرق الآخرة كل عقبة كئود، فلا يقود إلى قُرب الرحمن وروح الجنان إلَّا أزمـ الرّجاء، ولا يصدّ عن نار الجحيم والعذاب الأليم إلَّا سياط التخويف وسطوـ التعنيف»[(١)].

والرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده.

والرجاء في الله تَعَالى وحُسن الظّن به، إنَّما يُقبَلان إذا اقترُنا بالعمل الواجب وصحبهما الإسراع في حقّ الله تَعَالى، والسّهر عَلَى مرضاته.

أما مَعَ البطالة والاسترخاء والقعود عن عمل الصالحات، فلا مكان لرجاء ـ موضع لحُسن الظن.

وتدبّر قوله تَعَالى يصف مَن ترشّحهم أعمالهم لرضاه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِيـ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّـهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨ـ إيمانٌ وهجرة وجهاد؛ تلك هي التي يرجو أصحابها فضل الله تَعَالى، أما الرّيبة والقعـ والرَّاحة فلا تُبلّغ أملًا، ولا تنتج إلَّا شرًّا.

وتدبّر قوله تَعَالى يُحصي أنواعًا أخرى من البرّ، هي التي تؤهّل لحُسن القبول: ﴿ـ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً ـ تَبُورَ ۞ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠].

تلاوة القرآن يعني إحياء تعاليمه، وإعزاز شرائعه والنفقة التي تسدّ ثغرات المجتمع ما علن منها وما خفى، والإقبال عَلَى الصلوات الجامعة إقبالًا يُعلي ذكر ـ تَعَالى في الحياة، ويجعل الهتاف باسمه وحده شارة الأُمّة، تلك هي أسباب الرجاء الخـ وتأميل النّصر والتمكين والنّعماء.

وللناس بطبيعتهم البشرية أخطاء تبدر منهم، ويسيئون بها إلى أنفسهم وغيرهـ

= في «صحيح سنن الترمذي» (٧٨٥).

(١) «الإحياء» (٤/ ٥٠٢).

... جرّت غضب الله عليهم، إلَّا أنهم إذا أحسّوا سوءها، وضرعوا إلى الله تَعَالى أن ... عنهم إصرهم، كان للرجاء في غفران الله تَعَالى موضع.

... ن هذا الرجاء الحار لا يجوز أن يفارق المؤمن في أي لحظة من حياته، سواء كان ... السّاعد يضرب في الأرض ببأس، أو وهو يولّي ظهره للحياة، ويضع قدمه عَلَى ... لآخرة قادمًا إلى الله تَعَالى.

عن حيَّان أبي النَّضر قَالَ: «خرجتُ عائدًا ليزيد بن الأسود[1]، فلقيتُ واثلة بن ... سقع[2] وهو يُريد عيادته، فدخلنا عليه فلما رأى واثلة بَسطَ يده وجعل يشير إليه، ... له واثلة: كيف ظنّك بالله؟

قَالَ: ظني بالله والله حَسن. قَالَ: فأبشر، فإني سمعتُ رَسُول الله ﷺ يقول: «أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، إِنْ ظَنَّ بِي خَيْراً فَلَهُ وَإِنْ ظَنَّ شَرًّا فَلَهُ»[3]. ا.هـ[4].

... د الله...

واعلموا أن الرجاء لا يصحُّ إلَّا مَعَ العمل الصَّالح.

قَالَ ابنُ القيِّم - رَحِمَهُ الله - في «مدارج السالكين» (١/ ٤٥٦): «أجمع العارفون عَلَى ... لرجاء لا يصحّ إلَّا مَعَ العمل. قَالَ شاه الكرماني: علامة صحّة الرَّجاء: حُسن ... عة» ا.هـ.

وقال يحيى بن معاذ الرازيّ - رَحِمَهُ الله -: «مِن أعظم الاغترار عندي: التمادي في ... ذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة، وتوقع القُرب من الله تعالى بغير طاعة، وانتظار ... ع الجَنَّة ببذر النار، وطلب دار المطيعين بالمعاصي، وانتظار الجزاء بغير عمل، والتمنِّي ... ى الله عَزَّ وَجَلَّ مع الإفراط:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجري على اليبس

---

(١) تابعي جليل، وكان من أصحاب ابن مسعود رَضِي الله عَنْهُ.

(٢) صحابي جليل.

(٣) صحيح: رواه أحمد وغيره، وصححه الأرناؤوط.

(٤) «الجانب العاطفي من الإسلام» للشيخ الغزالي (٣٦٩، ٢٦٩).

وقال الإمام الغزالي - رَحِمَهُ الله - في «الإحياء»: وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض، والإيمان كالبذر فيه، والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض وتطهيرها ومجرى حفر الأنهار وسياقة الماء إليها.

والقلب المستهتر بالدنيا المستغرق بها كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر، ويوم القيامة يوم الحصاد، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان، وقلما ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه، كما لا ينمو بذر في أرض سبخة، فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع، فكل من طلب أرضًا طيبة وألقى فيها بذرًا جيدًا غير عفن ولا مسوس، ثم أمده بما يحتاج إليه وهو سوق الماء إليه في أوقاته، ثم نقي الشوك عن الأرض والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده، ثم جلس منتظرًا من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته: سُمِّي انتظاره رجاء.

وإن بث البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب إليها الماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلًا، ثم انتظر الحصاد منه: سمي انتظاره حمقًا وغرورًا لا رجاء. وإن بث البذر في أرض طيبة لكن لا ماء لها وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار ولا تمتنع أيضًا: سمي انتظاره تمنيًا لا رجاء.

فإذن اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات.

فالعبد إذا بث بذر الإيمان، وسقاه بماء الطاعات، وطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة: وكان انتظاره رجاءً حقيقيًا محمودًا في نفسه باعثًا له على المواظبة والقيام بمقتضى أسباب الإيمان في إتمام أسباب المغفرة إلى الموت: وإن قطع عن بذر الإيمان تعهده بماء الطاعات، وترك القلب مشحونًا برذائل الأخلاق وانهمك في طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة، فانتظاره حمق وغرور.

قَالَ ﷺ : «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ثُمَّ

تَمَنَّى عَلَى اللَّهِ»[(١)].

وقال تَعَالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

وقال تَعَالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩].

فإذن العبد المجتهد في الطاعات المجتنب للمعاصي حقيق أن ينتظر من فضل الله تمام النعمة، وما تمام النعمة إلا بدخول الجَنَّة» ا.هـ[(٢)].

عباد الله...

وهذه صور من حياة أهل الرجاء:

الصُّورة الأولى: الإمام الشافعي عند الموت:

ودخل المزني على الشافعيّ - رحمة الله عليهما - في مرضه الذي تُوفّي فيه، فقال له: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟

فقال: أصبحتُ عن الدنيا راحلاً، وللإخوان مفارقًا، ولسوء عملي ملاقيًا، ولكأس المنيّة شاربًا، وعلى الله - تعالى - واردًا، ولا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزّيها؟ ثم أنشأ يقول:

وَلَمَّا قَسَا قَلْبي، وضاقت مَذَاهِبي ... جعلتُ الرَّجَا مِني لِعَفْوك سُلَّمَا

تَعاظَمَني ذَنْبي فَلَمّا قَرَنْتُه ... بعَفْوك رَبي كان عَفْوُك أَعْظَما

فمازلتَ ذا عَفْو عن الذَّنب لَمْ تَزَلْ ... تجودُ وتَعْفُو مِنَّةً وَتَكَرُّما

فلولاك لم يَصْمُدْ لإبليس عَابِدٌ ... فكيف وقد أغوى صَفِيّك آدَما

فلِلّه دَرُّ العَارِف النَدب إنَه ... تَفِيض لِفُرْطِ الوَجْد أجْفَانُهُ دَمَا

يُقيمُ إذا ما اللَيلُ مَدَّ ظَلامَهُ ... على نَفْسه من شدَةِ الخَوْفِ مَأْتَما

---

(١) رواه الترمذي، وضعّفه الألباني.

(٢) «الإحياء» (٤/ ٢٠٦، ٢٠٧) بتصرّف.

فَصِيحًا إذا ما كان في ذِكْرِ رَبِّه ... وفي ما سواه في الوَرى كان أعْجَمَا
وَيَذْكُر أيَّامًا مَضَتْ مِنْ شَبَابه ... وما كان فيها بالجَهَالةِ أجْرَمَا
فصارَ قَرِينَ الهَمِّ طُولَ نَهَارِهِ ... أخَا السُّهْدِ والنَّجْوى إذا اللّيل أظْلَمَا
يقول حبيبي أنْتَ سُؤْلِي وَبُغْيَتي ... كَفَى بِكَ للرّاجِين سُؤْلاً وَمَغْنَمَا
ألَسْتَ الّذي غَذَّيْتَني وَهَدَيْتَني ... ولازِلْتَ مَنَّانًا عليَّ وَمُنْعِمَا
عسى مَنْ لَه الإحْسانُ يَغْفِرُ زَلَّتي ... وَيَسْتُر أوْزَاري وما قد تَقَدَّما[1]

الصورة الثانية: قِصّة فتى عند الموت:

قال أبو غالب: كُنْتُ أختلف إلى أبي أُمامة الباهلي رَضِيَ الله عَنْهُ بالشام، فدخلتُ يومًا على فتى مريض من جيران أبي أمامة وعنده عمٌّ له وهو يقول: يا عدو الله ألم آمرك؟ ألم أنهك؟ فقال الفتى: يا عمّاه لو أن الله دفعني إلى والدتي: كيف كنت صانعة بي؟ قال: تدخلك الجَنَّة، قال: إن ربي أشفق من والدتي وأرحم بي منها، وقبض الفتى من ساعته[2]، فدخلت القبر مع عمه فلما أن سواه صاح وفزع، قلت له ما لك؟ قال: فسح له في قبره وملئ نورًا، فدهشتُ منه»[3].

عباد الله...

أما الخوف فهو عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال، والخوف من الله تَعَالَى تارة يكون لمعرفة الله تَعَالَى ومعرفة صفاته، وأَنَّهُ لو أهلك العالمين لم يُبال ولم يمنعه مانع، وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارنة المعاصي، وتارة يكون بهما جميعًا.

وبحسب معرفته بعيوب نفسه ومعرفته بجلال الله تَعَالَى واستغنائه، وأَنَّهُ: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. فتكون قوّة خوفه.

---

(١) «معجم الأدباء» لياقوت الحموي (١٧/ ٣٠٢).
(٢) يعني مات.
(٣) أورده القرطبي في «التذكرة» وقال الأستاذ/ مجدي فتحي السيد في «الصحيح من التذكرة»: إسناده حسن (٢٩٩).

فأخوف النَّاس لربّه أعرفهم بنفسه وبربّه، ولذلك قال ﷺ: **«والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له»**(١). وكذلك قال تَعَالَى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر: ٢٨].

ثم إذا كمُلت المعرفة أورثت جلال الخوف واحتراق القلب، ثم يفيض أثر الحرقة من القلب عَلَى البدن عَلَى الجوارح وعلى الصفات.

أما في البدن: فبالنحوّل، والصّفار، والغشية، والزّعقة، والبكاء، وقَدْ تنشقّ به المرارة فيفضى إلى الموت، أَوْ يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل، أَوْ يقوى فيورث القنوط واليأس.

وأما في الجوارح: فَبِكفّها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات، تلافيًا لما فرّط واستعدادًا للمستقبل. ولذلك قيل: «ليس الخائف مَن يبكي ويمسح عينيه، بل مَن يترك ما يخاف أن يُعاقب عليه».

وقال أبو القاسم الحكيم: «مَن خاف شيئًا هرب منه، ومَن خاف الله هرب إليه».

وأما في الصّفات: فبأن يقمع الشهوات ويكدّر اللَّذات فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة، فتحترق الشهوات بالخوف وتتأدّب الجوارح، ويحصل في القلب الذبول والخشوع والذّلة والاستكانة، ويفارقه الكبر والحقد والحسد، بل يصير مستوعب الهمّ بخوفه والنّظر في خطر عاقبته، فلا يتفرّغ لغيره، ولا يكون له شغل إلَّا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضّنة بالأنفاس واللّحظات، ومؤاخذة النَّفْس بالخطرات والخطوات والكلمات(٢).

وأقلّ درجات الخوف مِمَّا يظهر أثره في الأعمال: أن يتمنع عن المحظورات، ويحمل عَلَى فعل الواجبات.

وبالجملة: فالخوف سوط الله يسوق به عباده إلى المواظبة عَلَى العلم والعمل لينالوا بهما رتبة القُرب من الله تَعَالَى.

والمحمود منه: هو الاعتدال والوسط، فإذا جاوز حدّ الاعتدال حَتَّى يخرج إلى

---

(١) رواه البخاري.

(٢) «الإحياء» باختصار.

اليأس والقنوط، أَوْ إلى الدهشة وزوال العقل صار مذمومًا.

فالمراد من الخوف: الحمل عَلَى العمل، فإن حمل عَلَى تركه أصبح مذمومًا.

عباد الله...

وقَدْ ورد في فضيلة الخوف آيات وأحاديث وآثار كثيرة:

فمن الآيات:

قَالَ الله تَعَالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٧، ٨].

ومن الأحاديث:

عن شَدَّاد بن أوس قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**قَالَ الله تَعَالى: وعزّتي وجَلالي لا أجمعُ لعَبدي أمنين ولا خَوفين، إن هو أمنَني في الدُّنْيَا أخَفتُه يوم أجمع عبادي، وإن هو خافني في الدُّنْيَا أمَّنته يومَ أجمع عبادي**»[١].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**لاَ يَلِجُ[٢] النَّارَ أَحَدٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ**»[٣].

عباد الله...

وهذه صور ومواقف من حياة أهل الخوف:

الصورة الأُولى: خوف سفيان الثوري:

لَـمَّا احتضر سفيان الثوري - رَحِمَهُ الله - جعل يبكي ويجزع، فقيل له: يا أبا عبد الله عليك بالرَّجاء، فإن عفو الله أعظم من ذنوبك، فقال: أَوَعَلَى ذنوبي أبكي؟ لو علمت أني أموت عَلَى التوحيد لم أُبال بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا[٤].

---

(١) **حسن**: رواه أبو نعيم في «الحلية»، وانظر «صحيح الجامع» (٤٣٣٢).

(٢) **لا يلج**: لا يدخل.

(٣) **صحيح**: رواه الترمذي، وانظر «صحيح الجامع» (٧٧٧٨).

(٤) «الإحياء» (٤/ ٢٤٨).

الصورة الثانية: خوف الإمام أحمد بن حنبل:

عن أبي حامد الخُلقاني - رَحِمَهُ الله -: أَنَّهُ قَالَ: قُلت لأحمد بن حنبل: يا أبا عبد الله هذه القصائد الرِّقاق التي في ذِكر الجَنَّة والنار أيُّ شيء تقول فيها؟

فقال: مثل أيّ شيء؟

قلت: يقولون:

إذا مـــا قـــال لـــي رَبِّـــي	أمـــا اسْـــتَحيَيْتَ تَعـــصِيني
وتُخفـــي الـــذَّنب مِـــن خَلقـــي	وبالعـــــصيانِ تَأتـــــيني؟!

فقال: أعِد عليَّ. فأعدتُ عليه فقام ودخل بيته ورد الباب، فسمعت نحيبه[١] مِن داخل البيت وهو يقول:

إذا مـــا قـــال لـــي رَبِّـــي	أمـــا اسْـــتَحيَيْتَ تَعـــصِيني
وتُخفـــي الـــذَّنب مِـــن خَلقـــي	وبالعـــــصيانِ تَأتـــــيني؟![٢]

الصُّورة الثالثة: خوف عُتبة الغلام:

قَالَ يزيد الحميري - رَحِمَهُ الله -: مَرّ عُتبة الغلام - رَحِمَهُ الله - يومًا عَلَى مكان فارتعد ورَشَح عَرقًا، فقالوا له في ذَلِكَ.

فقال: هذا مكان عصيتُ الله فيه وأنا صغير[٣].

الصُّورة الرابعة: خوف مالك بن دينار:

حجّ مالك بن دينار - رَحِمَهُ الله - ماشيًا من البصرة، فقيل له: ألا تركب؟

فقال: أما يرضى العبد العاصي الآبق أن يأتي إلى صُلح مولاه إلَّا راكبًا؟! والله لو أني أتيتُ مَكَّة عَلَى الجَمر لكان ذَلِكَ قليلًا[٤].

---

(١) النحيب: البكاء الحار.

(٢) «تلبيس إبليس» (٢٤٠).

(٣) «تنبيه المغترين» للشعراني (٥٦).

(٤) «تنبيه المغترين» للشعراني (٥٦).

الصورة الخامسة: خوف كَهمَس بن الحسن:

قَالَ الرّبيع ين خُثيم: مكث كهمس بن الحسن - رَحِمَهُ الله - أربعين سنة يبكي عَلَى غسله يديه بتراب جاره بغير إذنه، وكان يقول: «ربما كان أحدكم يظنّ أن الله تَعَالَى غفر له ذنبه حين تقادم عهده[1]، وذَلِكَ غرور»[2].

عباد الله...

«والرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقرّبون إلى كُلّ مقام محمود، ومطيتان بهما يقطع من طُرق الآخرة كل عقبة كئود، فلا يقود إلى قُرب الرحمن وروح الجنان إلَّا أزمّة الرّجاء، ولا يصدّ عن نار الجحيم والعذاب الأليم إلَّا سياط التخويف وسطوات التعنيف».

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وممَّا ينبغي التنبيه عليه:

أنَّ غلبة الخوف هو الأصلح ولكن قبل الإشراف على الموت، أما عند الموت فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن، لأن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل وقد انقضى وقت العمل، فالمشرف على الموت لا يقدر على العمل ثم لا يطيق أسباب الخوف، فإن ذلك يقطع نياط قلبه ويعين على تعجيل موته، وأما روح الرجاء فإنه يقوي قلبه ويحبب إليه ربه الذي إليه رجاؤه، ولا ينبغي أن يفارق أحد الدنيا إلا محبًا لله تعالى للقاء الله تعالى، فإن مَن أحبّ لقاء الله تعالى أحبّ الله لقاءه». ا.هـ[3].

---

(١) حقوق العباد لا تسقط بالتقادم.

(٢) «تنبيه المغترين» للشعراني (٥٦).

(٣) «الإحياء» (٤/ ٢٤٠).

عباد الله...

ونختم خطبة اليوم بهذا الدُّعَاء النبويّ الكريم:

عن أنسٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قال: كان رَسُول الله ﷺ يقول: «**يا وَلِيّ الإسلام وأهله، مَسِّكني بالإسلام حَتَّى ألقاك عليه**».

آمين... آمين... آمين

وآخر دعوانا أن الحَمْد لله رَبِّ العالمين

۞۞۞۞۞

الخطبة التاسعة والسبعون:

علاجُ حر المصيبة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فإذا ترادفت الضوائقُ وطال حَبلُها، وتتابعت المصائبُ وطَالَ ليلُها، فإن الصَّبر يُشع للمسلم النورَ العاصم الَّذِي يقيه من التردّي في حمأة السّخط عَلَى المقدور.

قال ﷺ في الحديث الصحيح: «والصَّبرُ ضِياء».

عباد الله...

ومِمَّا يُعين عَلَى الصَّبر عند نزول البلاء، وحلول المصائب، ما ذكره شيخ الإسلام الثاني الإمامُ ابنُ القيِّم - رَحِمَهُ الله - في «زاد المعاد» تحت عنوان: «فِي هَدْيِهِ ﷺ فِي عِلَاجِ

حَرّ المُصِيبَةِ وَحُزْنِهَا» حيث قَالَ - ما مختصره -:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

وَفِي «المُسْنَدِ» عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا مِنْ أَحَدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ إِنَّا لله وَإِنَا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ اللّهُمّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا إِلّا أَجَارَهُ اللّهُ فِي مُصِيبَتِهِ وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا» (١).

وَهَذِهِ الكَلِمَةُ مِنْ أَبْلَغِ عِلَاجِ المُصَابِ وَأَنْفَعِهِ لَهُ فِي عَاجِلَتِهِ وَآجِلَتِهِ فَإِنّهَا تَتَضَمّنُ أَصْلَيْنِ عَظِيمَيْنِ إذَا تَحَقّقَ العَبْدُ بِمَعْرِفَتِهِمَا تَسَلّى عَنْ مُصِيبَتِهِ:

أَحَدُهُمَا: أَنّ العَبْدَ وَأَهْلَهُ وَمَالَهُ مِلْكٌ لله عَزّ وَجَلّ حَقِيقَةً وَقَدْ جَعَلَهُ عِنْدَ العَبْدِ عَارِيَةً فَإِذَا أَخَذَهُ مِنْهُ فَهُوَ كَالمُعِيرِ يَأْخُذُ مَتَاعَهُ مِنْ المُسْتَعِيرِ.

وَالثّانِي: أَنّ مَصِيرَ العَبْدِ وَمَرْجِعَهُ إلَى الله مَوْلاهُ الحَقّ، وَلَا بُدّ أَنْ يُخَلّفَ الدّنْيَا وَرَاءَ ظَهْرِهِ وَيَجِيءَ رَبّهُ فَرْدًا كَمَا خَلَقَهُ أَوّلَ مَرّةٍ بِلَا أَهْلٍ وَلَا مَالٍ وَلَا عَشِيرَةٍ، وَلَكِنْ بِالحَسَنَاتِ وَالسّيّئَاتِ.

وَمِنْ عِلَاجِهِ: أَنْ يَعْلَمَ عِلْمَ اليَقِينِ أَنّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ.

وَمِنْ عِلَاجِهِ: أَنْ يَنْظُرَ إلَى مَا أُصِيبَ بِهِ فَيَجِدُ رَبّهُ قَدْ أَبْقَى عَلَيْهِ مِثْلَهُ أَوْ أَفْضَلَ مِنْهُ وَادّخَرَ لَهُ - إنْ صَبَرَ وَرَضِيَ - مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ فَوَاتِ تِلْكَ المُصِيبَةِ بِأَضْعَافٍ مُضَاعَفَةٍ وَأَنّهُ لَوْ شَاءَ لَجَعَلَهَا أَعْظَمَ مِمّا هِيَ.

وَمِنْ عِلَاجِهِ: أَنْ يُطْفِئَ نَارَ مُصِيبَتِهِ بِبَرْدِ التّأَسّي بِأَهْلِ المَصَائِبِ، وَأَنّهُ لَوْ فَتّشَ العَالَمَ لَمْ يَرَ فِيهِمْ إلّا مُبْتَلًى إمّا بِفَوَاتِ مَحْبُوبٍ أَوْ حُصُولِ مَكْرُوهٍ، وَأَنّ شُرُورَ الدّنْيَا أَحْلَامُ نَوْمٍ أَوْ كَظِلّ زَائِلٍ، إنْ أَضْحَكَتْ قَلِيلًا أَبْكَتْ كَثِيرًا، وَإِنْ سَرّتْ يَوْمًا سَاءَتْ دَهْرًا.

وَمِنْ عِلَاجِهَا: أَنْ يُعْلَمَ أَنّ الجَزَعَ لَا يَرُدّهَا بَلْ يُضَاعِفُهَا.

---

(١) رواه مسلم، وغيره.

وَمِنْ عِلَاجِهَا: أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ فَوْتَ ثَوَابِ الصَّبْرِ وَالتَّسْلِيمِ وَهُوَ الصَّلَاةُ وَالرَّحْمَةُ وَالهِدَايَةُ الَّتِي ضَمِنَهَا اللهُ عَلَى الصَّبْرِ وَالِاسْتِرْجَاعِ أَعْظَمُ مِنَ المُصِيبَةِ فِي الحَقِيقَةِ.

وَمِنْ عِلَاجِهَا: أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ الجَزَعَ يُشْمِتُ عَدُوَّهُ وَيَسُوءُ صَدِيقَهُ وَيُغْضِبُ رَبَّهُ وَيَسُرُّ شَيْطَانَهُ وَيُحْبِطُ أَجْرَهُ وَيُضْعِفُ نَفْسَهُ، وَإِذَا صَبَرَ وَاحْتَسَبَ أَنْضَى شَيْطَانَهُ وَرَدَّهُ خَاسِئًا وَأَرْضَى رَبَّهُ وَسَرَّ صَدِيقَهُ وَسَاءَ عَدُوَّهُ وَحَمَلَ عَنْ إِخْوَانِهِ وَعَزَّاهُمْ هُوَ قَبْلَ أَنْ يُعَزُّوهُ، فَهَذَا هُوَ الثَّبَاتُ وَالكَمَالُ الأَعْظَمُ لَا لَطْمُ الخُدُودِ وَشَقُّ الجُيُوبِ وَالدُّعَاءُ بِالوَيْلِ وَالثُّبُورِ وَالسَّخَطُ عَلَى المَقْدُورِ.

وَمِنْ عِلَاجِهَا: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ مَا يُعْقِبُهُ الصَّبْرُ وَالِاحْتِسَابُ مِنَ اللَّذَّةِ وَالمَسَرَّةِ أَضْعَافُ مَا كَانَ يَحْصُلُ لَهُ بِبَقَاءِ مَا أُصِيبَ بِهِ لَوْ بَقِيَ عَلَيْهِ، وَيَكْفِيهِ مِنْ ذَلِكَ بَيْتُ الحَمْدِ الَّذِي يُبْنَى لَهُ فِي الجَنَّةِ عَلَى حَمْدِهِ لِرَبِّهِ وَاسْتِرْجَاعِهِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّ المُصِيبَتَيْنِ أَعْظَمُ؟: مُصِيبَةُ العَاجِلَةِ أَوْ مُصِيبَةُ فَوَاتِ بَيْتِ الحَمْدِ فِي جَنَّةِ الخُلْدِ[1]. وَفِي التِّرْمِذِيِّ مَرْفُوعًا: **«يَوَدُّ نَاسٌ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ تُقْرَضُ بِالمَقَارِيضِ فِي الدُّنْيَا لِمَا يَرَوْنَ مِنْ ثَوَابِ أَهْلِ البَلَاءِ»**[2].

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: لَوْلَا مَصَائِبُ الدُّنْيَا لَوَرَدْنَا القِيَامَ مَفَالِيسَ.

وَمِنْ عِلَاجِهَا: أَنْ يُرَوِّحَ قَلْبَهُ بِرُوحِ رَجَاءِ الخَلَفِ مِنَ اللهِ، فَإِنَّهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ عِوَضٌ إِلَّا اللهَ فَمَا مِنْهُ عِوَضٌ كَمَا قِيلَ:

مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِذَا ضَيَّعْتَهُ عِوَضٌ   وَمَا مِنَ اللهِ إِنْ ضَيَّعْتَهُ عِوَضُ

وَمِنْ عِلَاجِهَا: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ حَظَّهُ مِنَ المُصِيبَةِ مَا تُحْدِثُهُ لَهُ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَى، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ، فَحَظُّكَ مِنْهَا مَا أَحْدَثَتْهُ لَكَ، فَاخْتَرْ خَيْرَ الحُظُوظِ أَوْ شَرَّهَا.

وَفِي مُسْنَدِ الإِمَامِ أَحْمَدَ، وَالتِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ يَرْفَعُهُ: **«إِنَّ اللهَ إِذَا**

---

(١) إشارة إلى ما رواه الترمذيّ عن أبي موسى، أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: «إِذَا مَاتَ وَلَدُ العَبْدِ قَالَ اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ. فَيَقُولُ اللهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الجَنَّةِ وَسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ». قال الألباني: حديث حسن، «صحيح الجامع» (٧٩٥).

(٢) حسن: أخرجه الترمذي (٢٤١٠)، وانظر «صحيح الجامع» (٨١٧٧).

أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَى وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ»[١]. زَادَ أَحْمَدُ: «وَمَنْ جَزِعَ فَلَهُ الجَزَعُ»[٢].

وَمِنْ عِلَاجِهَا: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ وَإِنْ بَلَغَ فِي الجَزَعِ غَايَتَهُ، فَآخِرُ أَمْرِهِ إِلَى صَبْرِ الِاضْطِرَارِ وَهُوَ غَيْرُ مَحْمُودٍ وَلَا مُثَابٍ.

وَفِي «الصَّحِيحِ» مَرْفُوعًا: «الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى»[٣].

وَمِنْ عِلَاجِهَا: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ أَنْفَعَ الأَدْوِيَةِ لَهُ مُوَافَقَةُ رَبِّهِ وَإِلَهِهِ فِيمَا أَحَبَّهُ وَرَضِيَهُ لَهُ، وَأَنَّ خَاصِيَّةَ المَحَبَّةِ وَسِرَّهَا مُوَافَقَةُ المَحْبُوبِ، فَمَنْ ادَّعَى مَحَبَّةَ مَحْبُوبٍ ثُمَّ سَخِطَ مَا يُحِبُّهُ وَأَحَبَّ مَا يَسْخَطُهُ فَقَدْ شَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ بِكَذِبِهِ وَتَمَقَّتَ إِلَى مَحْبُوبِهِ.

وَكَانَ عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ يَقُولُ فِي عِلَّتِهِ[٤]: «أَحَبُّهُ إِلَيَّ أَحَبُّهُ إِلَيْهِ».

وَهَذَا دَوَاءٌ وَعِلَاجٌ لَا يَعْمَلُ إِلَّا مَعَ المُحِبِّينَ وَلَا يُمْكِنُ كُلَّ أَحَدٍ أَنْ يَتَعَالَجَ بِهِ.

وَمِنْ عِلَاجِهَا: أَنْ يُوَازِنَ بَيْنَ أَعْظَمِ اللَّذَّتَيْنِ وَالمُتْعَتَيْنِ وَأَدْوَمِهِمَا: لَذَّةِ تَمَتُّعِهِ بِمَا أُصِيبَ بِهِ وَلَذَّةِ تَمَتُّعِهِ بِثَوَابِ اللهِ لَهُ، فَإِنْ ظَهَرَ لَهُ الرُّجْحَانُ فَآثَرَ الرَّاجِحَ فَلْيَحْمَدْ اللهَ عَلَى تَوْفِيقِهِ، وَإِنْ آثَرَ المَرْجُوحَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ فَلْيَعْلَمْ أَنَّ مُصِيبَتَهُ فِي عَقْلِهِ وَقَلْبِهِ وَدِينِهِ أَعْظَمُ مِنْ مُصِيبَتِهِ الَّتِي أُصِيبَ بِهَا فِي دُنْيَاهُ.

وَمِنْ عِلَاجِهَا: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الَّذِي ابْتَلَاهُ بِهَا أَحْكَمُ الحَاكِمِينَ وَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يُرْسِلْ إِلَيْهِ البَلَاءَ لِيُهْلِكَهُ بِهِ وَلَا لِيُعَذِّبَهُ بِهِ وَلَا لِيَجْتَاحَهُ، وَإِنَّمَا افْتَقَدَهُ بِهِ لِيَمْتَحِنَ صَبْرَهُ وَرِضَاهُ عَنْهُ وَإِيمَانَهُ، وَلِيَسْمَعَ تَضَرُّعَهُ وَابْتِهَالَهُ، وَلِيَرَاهُ طَرِيحًا بِبَابِهِ لَائِذًا بِجَنَابِهِ مَكْسُورَ القَلْبِ بَيْنَ يَدَيْهِ، رَافِعًا قِصَصَ الشَّكْوَى إِلَيْهِ.

وَمِنْ عِلَاجِهَا: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ لَوْلَا مِحَنُ الدُّنْيَا وَمَصَائِبُهَا لَأَصَابَ العَبْدَ - مِنْ أَدْوَاءِ الكِبْرِ وَالعُجْبِ وَالفَرْعَنَةِ وَقَسْوَةِ القَلْبِ - مَا هُوَ سَبَبُ هَلَاكِهِ عَاجِلًا وَآجِلًا، فَمِنْ رَحْمَةِ

---

(١) حسن: انظر «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٢٥٦).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد، وانظر «صحيح الجامع» (١٧٠٦).

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) العلة: المرض.

أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ أَنْ يَتَفَقَّدَهُ فِي الأَحْيَانِ بِأَنْوَاعٍ مِنْ أَدْوِيَةِ المَصَائِبِ تَكُونُ حَمِيَّةً لَهُ مِنْ هَذِهِ الأَدْوَاءِ، وَحِفْظًا لِصِحَّةِ عُبُودِيَّتِهِ، وَاسْتِفْرَاغًا لِلْمَوَادِّ الفَاسِدَةِ الرَّدِيئَةِ المُهْلِكَةِ مِنْهُ، فَسُبْحَانَ مَنْ يَرْحَمُ بِبَلَائِهِ وَيَبْتَلِي بِنَعْمَائِهِ، كَمَا قِيلَ:

قَدْ يُنْعِمُ بِالبَلْوَى وَإِنْ عَظُمَتْ ... وَيَبْتَلِي اللَّهُ بَعْضَ القَوْمِ بِالنِّعَمِ

فَلَوْلَا أَنَّهُ – سُبْحَانَهُ – يُدَاوِي عِبَادَهُ بِأَدْوِيَةِ المِحَنِ وَالابْتِلَاءِ؛ لَطَغَوْا وَبَغَوْا وَعَتَوْا، وَاللَّهُ – سُبْحَانَهُ – إِذَا أَرَادَ بِعَبْدٍ خَيْرًا سَقَاهُ دَوَاءً مِنْ الابْتِلَاءِ وَالامْتِحَانِ عَلَى قَدْرِ حَالِهِ، يَسْتَفْرِغُ بِهِ مِنَ الأَدْوَاءِ المُهْلِكَةِ، حَتَّى إِذَا هَذَّبَهُ وَنَقَّاهُ وَصَفَّاهُ أَهَّلَهُ لِأَشْرَفِ مَرَاتِبِ الدُّنْيَا وَهِيَ عُبُودِيَّتُهُ وَأَرْفَعِ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَهُوَ رُؤْيَتُهُ وَقُرْبُهُ.

وَمِنْ عِلَاجِهَا: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ مَرَارَةَ الدُّنْيَا هِيَ بِعَيْنِهَا حَلَاوَةُ الآخِرَةِ، يَقْلِبُهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ، كَذَلِكَ وَحَلَاوَةَ الدُّنْيَا بِعَيْنِهَا مَرَارَةُ الآخِرَةِ، وَلَأَنْ يَنْتَقِلَ مِنْ مَرَارَةٍ مُنْقَطِعَةٍ إِلَى حَلَاوَةٍ دَائِمَةٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ عَكْسِ ذَلِكَ، فَإِنْ خَفِيَ عَلَيْكَ هَذَا فَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ الصَّادِقِ المَصْدُوقِ: «**حُفَّتْ الجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ وَحُفَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ**»[(١)].

فَادْعُ نَفْسَكَ إِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَوْلِيَائِهِ وَأَهْلِ طَاعَتِهِ مِنْ النَّعِيمِ المُقِيمِ وَالسَّعَادَةِ الأَبَدِيَّةِ وَالفَوْزِ الأَكْبَرِ، وَمَا أَعَدَّ لِأَهْلِ البِطَالَةِ وَالإِضَاعَةِ مِنْ الخِزْيِ وَالعِقَابِ وَالحَسَرَاتِ الدَّائِمَةِ، ثُمَّ اخْتَرْ أَيَّ القِسْمَيْنِ أَلْيَقَ بِكَ، وَكُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ، وَكُلُّ أَحَدٍ يَصْبُو إِلَى مَا يُنَاسِبُهُ، وَمَا هُوَ الأَوْلَى بِهِ وَلَا تَسْتَطِلْ هَذَا العِلَاجَ، فَشِدَّةُ الحَاجَةِ إِلَيْهِ مِنَ الطَّبِيبِ وَالعَلِيلِ دَعَتْ إِلَى بَسْطِهِ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ» ا.هـ[(٢)].

عباد الله...

وهذه أحاديث تعالج حرَّ المصائب، وتورثُ الصَّبرَ الجميل:

١ – عَنْ قُرَّةَ بن إِيَاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: إِنَّ رَجُلاً كَانَ يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ وَمَعَهُ ابْنٌ لَهُ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَتُحِبُّهُ؟**». فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحَبَّكَ اللَّهُ كَمَا أُحِبُّهُ. فَفَقَدَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**مَا فَعَلَ ابْنُ فُلَانٍ؟**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَاتَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِيهِ: «**أَمَا تُحِبُّ**

---

(١) رواه مسلم.

(٢) «زاد المعاد» (٤/ ١٧٤ – ١٨٢) باختصار.

أَنْ لاَ تَأْتِيَ بَاباً مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ إِلاَ وَجَدْتَهُ يَنْتَظِرُكَ؟». فَقَالَ رجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَهُ خَاصَّةً أَوْ لِكُلِّنا؟ قَالَ: «بَلْ لِكُلِّكُمْ»(١).

وفي رواية: كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ إِذَا جَلَسَ يَجْلِسُ إِلَيْهِ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ وَفِيهِمْ رَجُلٌ لَهُ ابْنٌ صَغِيرٌ يَأْتِيهِ مِنْ خَلْفِ ظَهْرِهِ فَيُقْعِدُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَهَلَكَ(٢) فَامْتَنَعَ الرَّجُلُ أَنْ يَحْضُرَ الحَلْقَةَ لِذِكْرِ ابْنِهِ، فَحَزِنَ عَلَيْهِ، فَفَقَدَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَا لِي لاَ أَرَى فُلاَنًا؟». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ بُنَيَّهُ الَّذِي رَأَيْتَهُ هَلَكَ. فَلَقِيَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَسَأَلَهُ عَنْ بُنَيِّهِ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ هَلَكَ، فَعَزَّاهُ عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «يَا فُلاَنُ أَيُّمَا كَانَ أَحَبُّ إِلَيْكَ: أَنْ تَمَتَّعَ بِهِ عُمْرَكَ، أَوْ لاَ تَأْتِي غَدًا إِلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ إِلاَّ وَجَدْتَهُ قَدْ سَبَقَكَ إِلَيْهِ يَفْتَحُهُ لَكَ؟». قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ بَلْ يَسْبِقُنِي إِلَى بَابِ الجَنَّةِ فَيَفْتَحُهَا لِي لَهُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ. قَالَ: «فَذَاكَ لَكَ»(٣).

٢- عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنِ احْتَسَبَ ثَلاَثَةً مِنْ صُلْبِهِ دَخَلَ الجَنَّةَ». فَقَامَتِ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: أَوِ اثْنَانِ؟ قَالَ: «أَوِ اثْنَانِ». قَالَتِ المَرْأَةُ: يَا لَيْتَنِي قُلْتُ وَاحِدًا(٤).

٣- وعُتْبَةُ بْنُ عَبْدٍ السُّلَمِيُّ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ لَهُ ثَلاَثَةٌ مِنَ الوَلَدِ لَمْ يَبْلُغُوا الحِنْثَ إِلاَّ تَلَقَّوْهُ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ دَخَلَ»(٥).

٤- وعن حَبِيبَةُ، أَنَّهَا كَانَتْ عِنْدَ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى دَخَلَ عَلَيْهَا، فَقَالَ: «مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَمُوتُ لَهُمَا ثَلاثَةٌ مِنَ الوَلَدِ لَمْ يَبْلُغُوا الحِنْثَ إِلا جِيءَ بِهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُوقَفُوا عَلَى بَابِ الجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُمْ: ادْخُلُوا الجَنَّةَ، فَيَقُولُونَ: حَتَّى يَدْخُلَ آبَاؤُنَا، فَيُقَالُ لَهُمْ: ادْخُلُوا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الجَنَّةَ»(٦).

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٣/ ٤٣٦)، وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط.

(٢) **هلك**: مات.

(٣) رواه النسائي.

(٤) **صحيح**: انظر «صحيح سنن النسائي» (١٨٧١)، (١٨٧٢).

(٥) **حسن**: رواه ابن ماجه، وانظر «صحيح الجامع» (٥٧٧٢).

(٦) **صحيح**: رواه الطبراني في «الكبير»، وانظر «صحيح الجامع» (٥٧٨٠).

٥- عَنْ أَبِي سَلمى رَضِيَ الله عَنْهُ راعي رَسُول الله ﷺ قَالَ: سمعتُ رَسُول الله ﷺ يقول: «**بَخٍ بَخٍ لِخَمْسٍ مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ: لَا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لله، وَالْوَلَدُ الصَّالِحُ يُتَوَفَّى فَيَحْتَسِبُهُ وَالِدُهُ**»(١).

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

عباد الله...

لذا رأينا في الصالحين من يشتهي موت ولده!!

قال محمد بن خلف (وكيع) -رَحِمَهُ الله -: «كان لإبراهيم الحربي ابن وكان له إحدى عشرة سنة، قد حفظ القرآن، ولقنه من الفقه شيئًا كثيرًا، قال: فمات فجئت أعزيه قال: فقال لي: كنتُ أشتهي موت ابني هذا.

قلت: يا أبا إسحاق أنت عالم الدنيا تقول مثل هذا في صبيٍّ قد أنجب، ولقنته الحديث والفقه؟!

قال: نعم، رأيت في النوم كأن القيامة قد قامت، وكأن صبيانًا بأيديهم قلال فيها ماء يستقبلون الناس يسقونهم، وكأن اليوم يوم حار شديد حره، فقلت لأحدهم: اسقني من هذا الماء، قال: فنظر إلي وقال: لست أبي.

فقلت: إيش أنتم؟

فقال: نحن الصبيان الذين متنا في دار الدنيا فخلفنا آباءنا نستقبلهم فنسقيهم الماء.

قال: فلهذا تمنيت موته»(٢).

فيا أخا الإسلام...

اصبر قليلاً، وكُن بالله مُعتصمًا	**لا تَعجلنَّ، فإنّ العَجزَ بالعَجَلِ**
الصَّبر مِثل اسمِه في كلّ نائبةٍ	**لكن عواقبه أحلَى مِن العَسَلِ**

---

(١) **صحيح**: رواه النسائي، وابن حبان في «صحيحه» واللفظ له، وانظر «صحيح الجامع» (٢٨١٧).

(٢) «طبقات الحنابلة» (١/ ٨٩، ٩٠).

ولله دَرُّ القائل:

وإذا ابْتُلِيتَ بشدّة فاصبر لها ... صَبرَ الكِرام فما يدوم مَقَامُها

فالله يُبلي كي يُثيب فلا ... تضق ذَرعًا بنازلةٍ جَرَت أحكامُها

ولَرُبَّ يوم نازلتك خُطفوبةً ... ثم انجلت قبل الظلام ظَلامُها

ولئن جزعَت فليس ذاك بنافعٍ ... إن الأمور قَضَى بها عَلامُها

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

مِمَّا يُعين عَلَى الصَّبر - كما تقدم - الرِّضا بالمقدور.

وعلى هذا الخُلُق الكريم يقول **ابنُ القَيِّم** -رَحِمَهُ الله - في كتابه الماتع «الفوائد» ما مختصره: «لله سُبْحَانَهُ على عبدِهِ أمرٌ أمَرَه به، وقضاءٌ يقضيهِ عليه، ونعمةٌ يُنعِمُ بها عليه فلا ينفكُّ عن هذه الثلاثةِ.

والقضاء نوعان: إمَّا مصائبُ وإمَّا معايبُ.

وله عليه عبوديَّةٌ في هذه المراتبِ كلِّها، فأحبُّ الخلقِ إليه مَن عرفَ عبوديَّته في هذه المراتبِ ووفَّاها حقَّها، فهذا أقربُ الخلقِ إليه. وأبعدُهم منه مَن جهلَ عبوديَّته في هذه المراتبِ فعطَّلها علمًا وعملًا.

فعبوديته في الأمر: امتثالُهُ إخلاصًا واقتداءً برسول الله ﷺ .

وفي النَّهي: اجتنابه خوفًا منه وإجلالا ومحبَّة.

وعبوديته في قضاء المصائب: الصبرُ عليها ثُمَّ الرِّضا بها وهو أعلى منه، ثُمَّ الشُّكرُ عليها وهو أعلى من الرِّضا.

وعبوديته في قضاء المعايب: المبادرةُ إلى التوبة منها والتنصُّل، والوقوفُ في مقام الاعتذارِ والانكسار، عالما بأنه لا يرفعُها عنه إلَّا هُوَ، ولا يقيه شرَّها سواهُ، وأنها إن

استمرت أبعدتهُ مِن قربه وطردَته مِن بابِهِ، فيراها من الضُّرُّ الذي لا يكشفهُ غيرُهُ، حَتَّى أَنَّهُ ليراها أعظم من ضُرِّ البَدَن.

وأما عبودية النعم: فمعرفتُها والاعترافُ بها أوَّلًا، ثم العياذُ به أن يقعَ في قلبِه نسبتُها وإضافتُها إلى سواه وإن كان سببًا من الأسبابِ فهو مُسَبِّبُهُ ومقيمُه، فالنعمةُ منه وحده بكلِّ وجه واعتبار، ثم الثناءُ بها عليه ومحبَّتهُ عليها وشُكرهُ بأن يستعملها في طاعتِه.

ومِن لطائفِ التعبُّدِ بالنِّعَم: أن يستكثرَ قليلَها عليه، ويستقلَّ كثيرَ شكرِه عليها، ويعلمَ أنَّها وصلت إليه من سيِّدِهِ من غيرِ ثمنٍ بذلَهُ فيها، ولا وسيلةٍ منه توسَّل بها إليه، ولا استحقاقٍ منه لها، وأنَّها لله في الحقيقةِ لا للعبدِ، فلا تزيدُهُ النِّعم إلَّا انكسارًا وذُلًّا وتواضعًا ومحبَّة للمنعِم . وكلَّما جدَّدَ له نعمةً أحدث لها عبوديَّة ومحبَّة وخضوعًا وذُلًّا، وكلَّما أحدث له قبضًا أحدث له رضًي، وكلَّما أحدث ذنبًا أحدث له توبة وانكسارًا واعتذارًا. فهذا هو العبد الكيِّسُ، والعاجزُ بمعزلٍ عن ذلك، وبالله التوفيق». ا.هـ.

عباد الله...

وعقب قوله تَعَالَى: ﴿**وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٢١٦].

قَالَ الإمام ابنُ القيِّم - رَحِمَهُ الله - في «الفوائد» ما مختصره: «في هذه الآية عدَّة حِكَمٍ وأسرارٍ ومصالحَ للعبدِ، فإنَّ العبد إذا علمَ أنَّ المكروه قد يأتي بالمحبوبِ، والمحبوبَ قد يأتي بالمكروهِ، لم يأمَن أن تُوافيهَ المضرّةُ مِن جانبِ المسرّةِ، ولم ييأس أنْ تأتيه المسرّةُ من جانب المضرَّةِ لعدمِ علمهِ بالعاقبِ، فإنَّ الله يعلم منها ما لا يعلمُه العبدُ، وأوجبَ له ذلك أمورًا:

منها: أنَّهُ لا أنفع له من امتثال الأمرِ وإن شقَّ عليه في الابتداء؛ لأنَّ عواقبَه كلَّها خيراتٌ ومسرّاتٌ ولذاتٌ وأفراحٌ، وإنْ كرهته نفسه فهو خيرٌ لها وأنفع، وكذلك لا شيءَ أضرُّ عليه من ارتكابِ النَّهي وإن هَوِيَتهُ نفسُه ومالت إليه، فإنَّ عواقبه كلَّها آلامٌ وأحزانٌ وشرورٌ ومصائبُ، وخاصيَّةُ العقلِ تحمُّلُ الألم اليسيرِ لما يُعقبُه مِن اللذةِ العظيمةِ والخيرِ الكثيرِ، واجتنابُ اللذة اليسيرةِ لما يُعْقِبُها مِن الألمِ العظيم والشرِّ الطويلِ.

ومن أسرار هذه الآية: أنها تقتضي من العبدِ التعويضَ إلى مَنْ يعلمُ عواقبَ الأمورِ والرِّضا بما يختارُهُ له ويقضيه له لما يرجو فيه من حُسنِ العاقبةِ.

ومنها : أنَّهُ لا يقترحُ على ربِّه، ولا يختارُ عليه، ولا يسألُه ما ليسَ له به علمٌ، فلعلَّ مضرَّتَه وهلاكه فيه وهو لا يعلمُ، فلا يختار على ربِّه شيئًا، بل يسألُه حُسنَ الاختيار له، وأن يُرضِّيه بما يختارُه فلا أنفعَ له من ذلك.

ومنها: أنَّهُ إذا فَوَّض إلى ربِّه ورضي بما يختارُه له، أمدَّه فيما يختارُه له بالقوّةِ عليه والعزيمةِ والصبر، وصَرَفَ عنه الآفات التي هي عُرضَةُ اختيارِ العبد لنفسهِ، وأراهُ من حُسنِ عواقبِ اختيارِه له ما لم يكن ليصلَ إلى بعضه، بما يختارُه هو لنفسِه .

ومنها: أنَّهُ يُريحُه مِن الأفكار المتعبةِ في أنواع الاختياراتِ، ويفرِّغُ قَلبَه مِن التقديراتِ والتدبيراتِ التي يصعدُ منها في عقبةٍ وينزلُ في أُخرى، ومع هذا فلا خروجَ له عما قُدِّر عليه، فلو رَضِيَ باختيار الله أصابه القَدَرُ وهو محمودٌ مشكورٌ ملطوفٌ به فيه، وإلا جَرَى عليه القَدَرُ وهو مذمومٌ غير ملطوفٍ به فيه؛ لأنه مع اختيارِهِ لنفسِه، ومتى صحَ تفويضُه ورضاهُ، اكتنفَه في المقدورِ العطفُ عليه واللطفُ به، فيصيرُ بين عطفِهِ ولُطفِهِ، فعطفُه يَقيه ما يَحذَرُه، ولُطفُه يهوِّنُ عليه ما قدَّرَهُ.

إذا نفذَ القدرُ في العبدِ كان مِن أعظمِ أسبابِ نُفوذِه تحيُّلُه في ردِّهِ، فلا أنفعَ له من الاستسلام وإلقاء نفسِه بينَ يدي القَدَر طريحًا كالميتَةِ، فإنَّ السَّبُعَ لا يرضى بأَكْلِ الجِيَفِ» ا.هـ.

عباد الله...

ونختم خطبة اليوم بهذا الموقف الإيماني الرائع:

رأى بعضُم رجلًا يشكو إلى آخر فاقة وضرورة، فقال: يا هذا أتشكو مَن يَرحمك إلى مَن لا يرحمك؟! ثم أنشد:

وإذا عَـرَتكَ بَلــيّة فاصــبر لهــا	صَــبرَ الكــريم فإنَّــهُ بــك أعلــم
وإذا شــكوت إلى ابــن آدم إنَّمــا	تــشكو الــرّحيم إلى الَّــذِي لا يَــرحم

۞۞۞۞۞

الخطبة الثمانون:

أسباب حُسن الخاتمة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد تقدَّم معنا: خوف الصالحين من سوء الخاتمة.

واليوم - إن شاء الله تَعَالَى - نتكلَّم عن «أسباب حُسن الخاتمة» وأسال الله تَعَالَى أن يوفِّقنا للأخذ بها، إنَّهُ وليّ ذَلِكَ والقادر عليه.

عباد الله...

أول أسباب حُسن الخاتمة: الاستقامة:

والاستقامة أعظم الكرامة وسبب عظيم في حُسن الخاتمة، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

قَالُوا رَبُّنَا اللَّـهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْـجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠].

قَالَ السَّعديُّ - رَحِمَهُ الله - في تفسيره لهذه الآية: «يخبر تعالى عن أوليائه، وفي ضمن ذلك، تنشيطهم، والحثُّ على الاقتداء بهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ أي: اعترفوا ونطقوا ورضوا بربوبية الله تعالى، واستسلموا لأمره، ثم استقاموا على الصراط المستقيم، علمًا وعملا فلهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

﴿تَتَنزلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ ﴾ الكرام، أي: يتكرر نزولهم عليهم، مبشّرين لهم عند الاحتضار. ﴿أَلا تَخَافُوا ﴾ على ما يستقبل من أمركم، ﴿وَلا تَحْزَنُوا ﴾ على ما مضى، فنفوا عنهم المكروه الماضي والمستقبل، ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ فإنها قد وجبت لكم وثبتت، وكان وعد الله مفعولًا» ا.هـ[(١)].

وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّـهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٣].

والاستقامة كلمة جامعة، آخذة بمجامع الدِّين، قَالَ الصِّدِّيق رَضِيَ الله عَنْهُ لَـمَّا سُئل عنها: «أن لا تشرك بالله شيئًا»، فأراد بها الاستقامة عن محض التوحيد.

وفسّرها الفاروق بالاستقامة عَلَى الأمر والنَّهي، ولا تروغ روغان الثعالب، وفسرها ذو النُّورين بإخلاص العمل لله، وفسرها ابن تيمية بالمحبَّة والعبوديّة، لا يلتفتوا عنها يمنة ولا يُسرة.

وهي تتعلق بالأقوال، والأفعال، والأحوال، والنيات، ووقوعها لله وبالله، وعلى أمر الله، وردّ الجهالات إلى السُّنّة، والمتابعة في مسائل الاعتقاد والعمل والعبادة.

قَالَ ابن قدامة - رَحِمَهُ الله - عن العماد المقدسي - رَحِمَهُ الله -: «ما عرفت أنَّهُ عصى الله معصية»، فلما جاءه الموت جعل يقول: «يا حيُّ يا قيوم، لا إله إلَّا أنت، برحمتك أستغيث» واستقبل القِبلة وتشهّد.

وأحوال الصالحين في هذا المقام كثيرة، وسيأتي شيء منها بعد قليل - إن شاء الله تَعَالَى.

---

(١) «تفسير السعدي» (٧٤٨).

السبب الثاني: التقوى:

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

قَالَ ابن كثير - رَحِمَهُ الله - في تفسيره لهذه الآية: عن ابْنُ مسعود ﷺ: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ قال: «أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنْسى، وأن يشكر فلا يُكْفر».

وذهب بعض العلماء إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن:١٦]. وقال آخرون: لم تُنْسخ، ولكن ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ أن يجاهدوا في سبيله حقَّ جهاده، ولا تأخذُهم في الله لَوْمَة لائم، ويقوموا بالقِسْط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم.

وقوله: ﴿وَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه، فإنَّ الكريم قد أجرَى عادَتَه بِكَرَمِه أَنَّهُ مَن عاش على شيءٍ مات عليه، ومَن مات على شيء بُعث عليه، فعياذًا بالله من خلاف ذَلِكَ» ا.هـ[١].

فالتقوى - يا عباد الله - سببٌ عظيمٌ مِن أسباب حُسن الخاتمة، لذا كان الصالحون يقولون: عند المهات يَحمَدُ القومُ التُّقى.

وكانوا يوصون بالتقوى؛ قَالَ الحسن: إن رجلًا من المسلمين حضرته الوفاةُ، فقال له أهله: أوص يا فلان. قَالَ: انظروا خاتمة سورة النحل فاستوصوا بها خيرًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨][٢].

السبب الثالث: حُسن الظن بالله تَعَالَى:

قال رَسُول الله ﷺ: «**إنَّ الله تَعَالَى يقول: أنا عند ظن عبدي بي، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فَشَرّ**»[٣].

---

(١) «صحيح تفسير ابن كثير» (١/ ٣٧٤).

(٢) «كتاب المحتضرين» لابن أبي الدُّنْيَا (١٤٣).

(٣) **صحيح**: رواه الطبراني في «الأوسط»، وغيره، وانظر «صحيح الجامع» (١٩٠٥).

وقال رَسُول الله ﷺ: «قال الله تَعَالَى: أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء»[١].

وقال رَسُول الله ﷺ: «قال الله تَعَالَى: إذا أحبَّ عبدي لقائي أحببت لقاءه، وإذا كره لقائي كرهت لقاءه»[٢].

وعن جابر رَضِي الله عَنْهُ قال: سمعت رَسُول الله ﷺ قبل موته بثلاث يقول: «لا يموتنَّ أحدكم إلَّا وهو يُحسن الظَّنَ بالله»[٣].

قال ابن الجوزي: فليجعل المريض حُسن الظن بالله شعاره ودثاره، وليقوِّ نفس رجائه، فإن الخوف سوط تساق به النَّفْس إلى الجد، وما بقي في الناقة موضع لسوط إنما حُسن الظن.

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ فِي المَوْتِ فَقَالَ: «كَيْفَ تَجِدُكَ؟». قَالَ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أَرْجُو اللَّهَ وَإِنِّي أَخَافُ ذُنُوبِي. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لاَ يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا المَوْطِنِ إِلاَّ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَا يَرْجُو وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ»[٤].

وقال حيَّان أبو النَّضر: قال لي واثلة بن الأسقع: قُدني إلى يزيد بن الأسود الجرشي فإنه قَدْ بلغني أنَّهُ لَـمَّا به، قال فقدتُه فدخل عليه وهو ثقيل فقلت له: إنه ثقيل قد وُجّه وقد ذهب عقله. فلما سمع أن واثلة قد جاءه فمدّ يده فجعل يلتمس بها، فعرفت ما يُريد، فأخذت كفّ واثلة فجعلتها في كفه، وإنما أراد أن تقع يده في يد واثلة، ذلك لموضع يد واثلة من رسول الله ﷺ فجعل يضعها مرة على وجهه ومرة على صدره ومرة على فِيهِ.

فقال له واثلة: ألا تخبرني عن شيء أسألك عنه، كيف ظنك بالله تبارك وتعالى؟

قال: أغرقتني ذنوبي وأشفأت[٥] على هلكة، لكني أرجو رحمة الله.

---

(١) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير»، وغيره، وانظر «صحيح الجامع» (٤٣١٦).

(٢) رواه مالك وأحمد والبخاري.

(٣) رواه مسلم وأبو داود.

(٤) حسن: رواه ابن ماجه (٤٢٦١)، وانظر «الصحيحة» (١٠٥١).

(٥) أشفى عَلَى الهلاك: إذا أشرف عليه.

قال: فكبّر واثلة وكبّر أهل البيت بتكبيره، قال: الله أكبر سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء**»[١].

وعن المعتمر بن سليمان التيمي: قال أبي حين حضرته الوفاة: يا معتمر حدثني بالرّخص لعلي ألقى الله وأنا حَسن الظن به.

وعن إبراهيم قال: كانوا يستحبون أن يلقنوا العبد محاسن عمله عند موته لكي يُحسن ظنه بربّه.

وقال عطاء بن السائب: دخلنا عَلَى أبي عبد الرحمن نعوده، فذهب بعض القوم يرجيّه فقال: إني لأرجو ربي وقَدْ صُمتُ له ثمانين رمضان[٢].

وقال حاتم بن سليمان: دخلنا عَلَى عبد العزيز بن سليمان وهو يجودُ بِنفسه فقلت: كيف تجدك؟ قال: أجدني أموت. فقال له بعضُ إخوانه: عَلَى أيةِ حال رحمك الله؟ فبكى ثم قال: ما نُعوِّل إلَّا عَلَى حُسن الظنّ بالله. قال: فما خرجنا من عنده حَتَّى مات[٣].

ولَـمَّا احتضر أبو بكر العامريّ المعروف بابن الجنازة، قال له أصحابه: أوصنا؟

قال: أوصيكم بثلاث: بتقوى الله. ومراقبته في الخلوة. واحذروا مصرعي هذا، عشتَ إحدى وستين عامًا، وما كأني رأيتُ الدُّنْيَا، ثم قال لبعض أصحابه: انظر هل ترى جَبيني يَعرق؟ قال: نعم. فقال: الحمد لله هذه علامة المؤمن[٤]، ثم بسط يده عند الموت وقال:

ها قَدْ مَددتُ يَدي إليك فرُدَّها ... بالفَضل لا بِشَماتةِ الأعْداءِ[٥]

عباد الله...

هذه بعض أسباب حُسن الخاتمة، وسيأتي المزيد بعد قليل إن شاء الله.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) «حسن الظن بالله» لابن أبي الدُّنْيَا.

(٢) «الثبات عند الممات» (١٧٠)، وانظر «سكب العبرات» (١/ ٦٠).

(٣) «كتاب المحتضرين» (٢٠٩).

(٤) قال ﷺ: «المؤمن يَموتُ بِعَرق الجَبين».

(٥) «المنتظم» لابن الجوزي (١٧/ ٣١٨).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

والسبب الرابع من أسباب حُسن الخاتمة: الصدق:

قال الله تَعَالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ [التوبة: ١١٩].

والصدق أساس بناء الدِّين، وعمود فسطاط اليقين، مَن لم يكن معه الصدق فهو من المنقطعين الهالكين، ومَن كان معه الصدق أوصله إلى حضرة ذي الجلال وكان سببًا في حُسن خاتمته وطيب المآل.

عَنْ أَنَسٍ بن مالك رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ - سُمِّيتُ بِهِ - لَمْ يَشْهَدْ بَدْرًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَبُرَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: أَوَّلُ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غِبْتُ عَنْهُ، أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ أَرَانِي اللَّهُ مَشْهَدًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيَرَيَنَّ اللَّهُ مَا أَصْنَعُ.

قَالَ: فَهَابَ أَنْ يَقُولَ غَيْرَهَا، فَشَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ مِنَ الْعَامِ الْقَابِلِ، فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ: يَا أَبَا عَمْرٍو أَيْنَ؟

قَالَ: وَاهًا لِرِيحِ الْجَنَّةِ أَجِدُهَا دُونَ أُحُدٍ.

فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ فَوُجِدَ فِي جَسَدِهِ بِضْعٌ وَثَمَانُونَ مِنْ بَيْنِ ضَرْبَةٍ وَطَعْنَةٍ وَرَمْيَةٍ فَقَالَتْ عَمَّتِي الرُّبَيِّعُ بِنْتُ النَّضْرِ: فَمَا عَرَفْتُ أَخِي إِلاَّ بِبَنَانِهِ.

وَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿**رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً**﴾ [الأحزاب: ٢٣] [(١)].

فهذا الصادق الرباني يجد حلاوة العمل قبل الشروع فيه، يجد ريح الجَنَّة قبل أن يُقاتل.

---

(١) صحيح: انظر «صحيح سنن الترمذي» (٢٥٥٧)، وهو في «الصحيحة» مختصرًا.

وعَنْ شَدَّادِ بْنِ الهَادِ رَضِيَ الله عَنْهُ: أَنَّ رَجُلاً مِنَ الأَعْرَابِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ ثُمَّ قَالَ: أُهَاجِرُ مَعَكَ. فَأَوْصَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ بَعْضَ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا كَانَتْ غَزْوَةٌ غَنِمَ النَّبِيُّ ﷺ سَبْيًا فَقَسَمَ وَقَسَمَ لَهُ، فَأَعْطَى أَصْحَابَهُ مَا قَسَمَ لَهُ وَكَانَ يَرْعَى ظَهْرَهُمْ، فَلَمَّا جَاءَ دَفَعُوهُ إِلَيْهِ فَقَالَ: مَا هَذَا؟

قَالُوا: قِسْمٌ قَسَمَهُ لَكَ النَّبِيُّ ﷺ. فَأَخَذَهُ فَجَاءَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: مَا هَذَا؟

قَالَ: «**قَسَمْتُهُ لَكَ**».

قَالَ: مَا عَلَى هَذَا اتَّبَعْتُكَ وَلَكِنِّي اتَّبَعْتُكَ عَلَى أَنْ أُرْمَى إِلَى هَا هُنَا - وَأَشَارَ إِلَى حَلْقِهِ بِسَهْمٍ - فَأَمُوتَ فَأَدْخُلَ الجَنَّةَ.

فَقَالَ: «**إِنْ تَصْدُقِ اللَّهَ يَصْدُقْكَ**».

فَلَبِثُوا قَلِيلاً ثُمَّ نَهَضُوا فِي قِتَالِ العَدُوِّ فَأُتِيَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ يُحْمَلُ قَدْ أَصَابَهُ سَهْمٌ حَيْثُ أَشَارَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَهُوَ هُوَ؟**».

قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ: «**صَدَقَ اللَّهَ فَصَدَقَهُ**».

ثُمَّ كَفَّنَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي جُبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ قَدَّمَهُ فَصَلَّى عَلَيْهِ، فَكَانَ فِيمَا ظَهَرَ مِنْ صَلاَتِهِ: «**اللَّهُمَّ هَذَا عَبْدُكَ خَرَجَ مُهَاجِرًا فِي سَبِيلِكَ فَقُتِلَ شَهِيدًا أَنَا شَهِيدٌ عَلَى ذَلِكَ**»(١).

وربعي بن حراش زعم قومه أَنَّهُ لم يكذب قط.

عن الحارث الغنوي قال: «آلى ربعي بن حراش أن لا تفتر أسنانه ضاحكًا، حَتَّى يعلم أين مصيره، قال الحارث: فأخبر الَّذِي غسّله أَنَّهُ لم يزل متبسمًا عَلَى سريره ونحن نغسله، حَتَّى فرغنا منه، رحمة الله عليه»(٢).

فالصدق منجاة، فعليكم - عباد الله - بالصّدق، فالصّدق كما أخبر الصادق المصدوق: «**يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجَنَّة**».

---

(١) **صحيح**: رواه النسائي والحاكم، وانظر «صحيح الجامع» (١٤١٥).

(٢) «تاريخ دمشق» (٦/ ١٠١)، وانظر «سكب العبرات» (٦٢).

عباد الله...

والسبب الخامس من أسباب حُسن الخاتمة: التوبة:

والتوبة تجبُّ ما قبلها، وقَدْ تكلمنا عن التوبة في غير هذا الموضع.

والسبب السادس والسابع والثامن: ذكر الموت، ورؤية المحتضرين، وزيارة القبور:

وقَدْ تكلمنا عن جميع ذَلِكَ في غير هذا الموضع.

وبالجملة: فكل عمل صالح، وكل اجتناب نهي، من أسباب حُسن الخاتمة، نسأل الله تَعَالى أن يمنّ بها علينا.

وفَّقني الله تَعَالى وإياكم لِما يُحب ويرضى.

اللَّهُمَّ إنَّا نسألك إيمانًا دائمًا، ولسانًا ذاكرًا، ويقينًا صادقًا

آمين... آمين... آمين

وآخر دعوانا أن الحَمْد لله رَبِّ العالمين

۞۞۞۞۞

الخطبة الحادية والثمانون:

الخوفُ من سُوءِ الخاتمة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فيقول علماؤنا: أصدق ما يكون العبد عند موته.

وهذا صحيح، فعند هذا المصرع يظهرُ المخبوء، وبداية الإنسان تحكي نهايته، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ.

نسأل الله تَعَالَى أن يختم لنا بخاتمة السعادة أجمعين، آمين.

عباد الله...

والخوف من سوء الخاتمة أَرَّقَ مَضَاجِعَ الصَّالحين والعلماء العاملين.

ويرحم الله سفيان الثوري وهو مَن هو؟ يقول عند الموت: «بكينا عَلَى الذنوب زمانًا ونحن الآن نبكي عَلَى الإسلام». هذا خوف الصديقين، خوف مَن يعرف الأمر حق معرفته، وأن الأعمال بالخواتيم، وهي حقيقة تتصدع لها الأكباد وتنفطر لها القلوب، وتسيل منها العيون دمًا.

ولولا أنَّ الله جلّ وعلا حَدَّدَ الآجال لزهقت الأنفس عند أول ذكره، ولكنها مربوبة مُدَبَّرةٌ، مقهورة مصرفة، تخرج إذا أذن لها في الخروج، وتلج إذا أذن لها في الولوج، وما يمنع القلوب من الانشقاق والنصداع والانفطار والانقطاع، والذي يلقى المختوم له بسوء الخاتمة عذاب لا تقوم له السماوات والأرض لشدته، ولا آخر لمدته.

قيل: لا تكفّ دمعك حَتَّى ترى في المِعاد رِبعَك.

وقيل: لا تكحل عينك بنوم، حَتَّى ترى حالك بعد اليوم.

وقيل: لا تبت وأنت مسرور حَتَّى تعلم عاقبة الأمور.

وقَدْ علمت أن النَّاس صنفان: صنف مقرّب مُصَانٌ، وصنفٌ مبعدٌ مهانٌ، صنفٌ نصبت له الأسرّة والحِجالُ، وجُمعت له الرغائب والآمال والآرائك والكلال، وصنفٌ أُعدت له الأراقم والصلال والمقامع والأغلال وضروب الأهوال[١].

عباد الله...

وإذا كانت الهداية إلى الله مصروفة، والاستقامة عَلَى مشيئته موقوفة، والعاقبة مغيبة، والإرادة غير مغالبة، فلا تَعجب بإيمانك وعملك، وصلاتك وصومك، وجميع قربك، فإن ذَلِكَ وإن كان من كسبك فإنَّهُ من خلق ربك وفضله، الدار عليك وخيره، فمهما افتخرت بذلك كنت كالمفتخر بمتاع غيره، وربما سلب عنك فعاد قلبك من الخير أخلى من جوف البعير، فكم من روضة أمست وزهرها يانعٌ عميمٌ، فأصبحت وزهرها يابسٌ هشيمٌ، إذ هبت عليها الريح العقيم، كَذَلِك العبد يمسي وقلبه بطاعةِ الله مشرقٌ سليمٌ، فيصبح وهو بمعصية الله مظلمٌ سقيمٌ، ذَلِكَ فعل العزيز الحليم، الخلاق العليم[٢].

---

(١) «اغتنام الأوقات في الباقيات الصالحات» لعبد العزيز السلمان (٣١، ٣٢).

(٢) «سكب العبرات» (١/ ٥٢).

عَنْ سَهْلِ بن سعد أَنَّ رَجُلاً مِنْ أَعْظَمِ الْمُسْلِمِينَ غَنَاءً عَنِ الْمُسْلِمِينَ، فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا**». فَاتَّبَعَهُ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، وَهْوَ عَلَى تِلْكَ الحَالِ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، حَتَّى جُرِحَ فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ، فَجَعَلَ ذُبَابَةَ سَيْفِهِ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ حَتَّى خَرَجَ مِنْ بَيْنِ كَتِفَيْهِ فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مُسْرِعًا فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ. فَقَالَ: «**وَمَا ذَاكَ؟**». قَالَ: قُلْتَ لِفُلاَنٍ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَيْهِ**». وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِنَا غَنَاءً عَنِ الْمُسْلِمِينَ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لاَ يَمُوتُ عَلَى ذَلِكَ فَلَمَّا جُرِحَ اسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ فَقَتَلَ نَفْسَهُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «**إِنَّ العَبْدَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَإِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالخَوَاتِيمِ**»(١).

فلا تصلح الأعمال الصالحة حَتَّى يُختم للعبد بعمل صالح يدخله الله به الجَنَّة، قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فَوَالَّذِي لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا**»(٢).

قَالَ النووي - رَحِمَهُ الله -: والمراد بالذراع: التمثيل للقرب من موته ودخول عقبه، وأن تلك الدار ما بقي بينه وبين أن يصلها إلَّا كمن بقي بينه وبين موضع من الأرض ذراع.

والمراد من الحديث: أن هذا قَدْ يقع في نادر من النَّاس، لا أَنَّهُ غالبٌ فيهم، ثم إنه من لطف الله تَعَالى وسعة رحمته انقلاب النَّاس من الشر إلى الخير في كثرة، وأما انقلابهم من الخير إلى الشر ففي غاية الندور ونهاية القلة، وهو نحو قوله تَعَالى في الحديث

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

القدسي: «**إن رحمتي سبقت غضبي وغلبت غضبي**»[(١)] ا.هـ[(٢)].

وقال الشيخ صالح آل الشيخ - حفظه الله - في شرحه هذا الحديث: «قال جماعة من السلف: «الخواتيم ميراث السوابق».

فلهذا يبعث هذا الحديث يبعث على الخوف الشديد من الخاتمة؛ لأن العبد لا يدري بما يُخْتَم له، والسوابق هي التي تكون وسائل للخواتيم، والعبد بين خوف عظيم في أمر خاتمته، وما بين رجاء عظيم، وإذا جاهد في الله حق الجهاد، واستقام على الطاعة، فإنه يُرْجَى له أن يُخْتَم له بخاتمة السعادة.

قال ﷺ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ**»؛ يعني: عن القرب، أن الأجل قريب، لكن يسبق عليه الكتاب، فيكون أمره في آخر أمره على الرِّدة -والعياذ بالله-.

وعمله بعمل أهل الجَنَّة - هذا فيما يظهر للناس - وفي قلبه الله أعلم به، ما ندري ماذا كان في قلوب الذين زاغوا فأزاغ الله قلوبهم، لكن نعلم -على اليقين- أن الله جلّ وعلا حَكَمٌ عَدْل، لا يظلم الناس شيئًا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

قال: «**وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا**»؛ وهذا من فضل الله العظيم على بعض عباده أن يختم له بخاتمة السعادة، هذا الحديث -كما ذكرت لك، وكلام ابن مسعود في آخره- يبعث على الخوف الشديد من الخواتيم، ويبدأ المرء يفكر فيما سبق له، وإن المرء -أحيانا- لينظر إلى السوابق، فلا يدري ماذا كتب له فيبكي.

كما قال بعض السلف: «ما أبكَى العيون، ما أبكاها الكتاب السابق».

وقال بعضهم: «قلوب الأبرار معلقة بالخواتيم، يقولون: بماذا يُختم لنا، وقلوب السابقين -أو قال: المقربين- معلّقة بالسوابق يقولون: ماذا سبق لنا؟».

وهذا مثال للخوف الشَّديد الذي يكون في قلوب أهل الإيمان، وإذا كان هذا

---

(١) صحيح.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي.

الخوف فإنه لا يعني أن يكون مترددا ليس على طاعة، ولكنه يبعثه هذا الخوف على الأخذ بالحزم، وأن يعد العدة للقاء الله -جل وعلا- فالإيمان بالقدر له ثمراته العظيمة في العمل واليقين، وصلاح قلوب العباد.

فالأتقياء هم الذين آمنوا بالقدر، والمضيعون هم الذين اعترضوا على القَدَر» ا.هـ[١].

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي -رَحِمَهُ الله- في شرحه للحديث:

«وقَدْ روى هذا المعنى عن النَّبيِّ ﷺ من وجوه كثيرة، وحديث ابن مسعود فيه أن السعادة والشقاوة بحسب خواتيم الأعمال، وقَدْ قيل: إن قوله في آخر الحديث: **«فَوَالَّذِى لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ...»** إلى آخر الحديث، مدرج من كلام ابن مسعود، كَذَلِكَ رواه مسلم بن كهيل عن زيد بن وهب عن ابن مسعود من قوله.

وقَدْ روى هذا المعنى عن النَّبيِّ ﷺ من وجوه متعددة أيضًا، وفي «صحيح البخاري» عن سهل بن سعد عن النَّبيِّ ﷺ قال: **«إنما الأعمال بالخواتيم»**[٢]، وفيه أيضًا عن معاوية قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **«إِنَّمَا الأَعْمَالُ كَالوِعَاءِ إِذَا طَابَ أَسْفَلُهُ طَابَ أَعْلاَهُ، وَإِذَا فَسَدَ أَسْفَلُهُ فَسَدَ أَعْلاَهُ»**[٣].

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة عن النَّبيِّ ﷺ قال: **«إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الزَّمَانَ الطَّوِيلَ بِأَعْمَالِ أَهْلِ الجَنَّةِ ثُمَّ يَخْتِمُ اللَّهُ لَهُ عَمَلَهُ بِأَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ فَيَجْعَلُهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الزَّمَانَ الطَّوِيلَ بِأَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ ثُمَّ يَخْتِمُ اللَّهُ لَهُ عَمَلَهُ بِأَعْمَالِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَجْعَلُهُ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيُدْخِلُهُ الجَنَّةَ»**[٤].

وخرّج الإمام أحمد والنسائي والترمذي من حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِي رَضِيَ الله عَنْهُمَا، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَفِى يَدِهِ كِتَابَانِ فَقَالَ: **«أَتَدْرُونَ مَا هَذَانِ الكِتَابَانِ؟»**. فَقُلْنَا: لاَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلاَّ أَنْ تُخْبِرَنَا. فَقَالَ لِلَّذِى فِى يَدِهِ اليُمْنَى: «هَذَا

---

(١) «شرح الأربعين النووية» لفضيلته (٥٦، ٥٧) باختصار وتصرف.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٩٣).

(٣) أخرجه البخاري (٨/ ١٢٩)، وابن حبان (٣٤٠)، وغيرهما.

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٥١/ ١١) وغيره.

كِتَابٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ الجَنَّةِ وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ فَلاَ يُزَادُ فِيهِمْ وَلاَ يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا». ثُمَّ قَالَ لِلَّذِى فِى شِمَالِهِ: «هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ النَّارِ وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ فَلاَ يُزَادُ فِيهِمْ وَلاَ يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا».

فَقَالَ أَصْحَابُهُ: فَفِيمَ العَمَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ كَانَ أَمْرٌ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ؟ فَقَالَ: «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا فَإِنَّ صَاحِبَ الجَنَّةِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ وَإِنْ عَمِلَ أَىَّ عَمَلٍ، وَإِنَّ صَاحِبَ النَّارِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ وَإِنْ عَمِلَ أَىَّ عَمَلٍ». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدَيْهِ فَنَبَذَهُمَا ثُمَّ قَالَ: «فَرَغَ رَبُّكُمْ مِنَ العِبَادِ فَرِيقٌ فِى الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى السَّعِيرِ» (١).

وفي الصحيحين عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِىِّ رَضِي الله عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ التَقَى هُوَ وَالْمُشْرِكُونَ فَاقْتَتَلُوا، فَلَمَّا مَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى عَسْكَرِهِ، وَمَالَ الآخَرُونَ إِلَى عَسْكَرِهِمْ، وَفِى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلٌ لاَ يَدَعُ لَهُمْ شَاذَّةً وَلاَ فَاذَّةً إِلاَّ اتَّبَعَهَا يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ، فَقَالَ: مَا أَجْزَأَ مِنَّا اليَوْمَ أَحَدٌ كَمَا أَجْزَأَ فُلاَنٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ». فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: أَنَا صَاحِبُهُ.

قَالَ: فَخَرَجَ مَعَهُ كُلَّمَا وَقَفَ وَقَفَ مَعَهُ، وَإِذَا أَسْرَعَ أَسْرَعَ مَعَهُ، قَالَ: فَجُرِحَ الرَّجُلُ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَى سَيْفِهِ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ الله. قَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟». قَالَ: الرَّجُلُ الَّذِى ذَكَرْتَ آنِفًا أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَأَعْظَمَ النَّاسُ ذَلِكَ. فَقُلْتُ: أَنَا لَكُمْ بِهِ. فَخَرَجْتُ فِى طَلَبِهِ، ثُمَّ جُرِحَ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ فِى الأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهْوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهْوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ» (٢). زاد البخاري رواية: «إنما الأعمال بالخواتيم».

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٧)، والترمذي (٢١٤١)، وغيرهما.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٩٨)، ومسلم (١١٢/ ١٧٩) وغيرهما.

وقوله: «فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ» إشارة إلى أن باطن الأمر يكون بخلاف ذلك وإن خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد لا يطلع عليها الناس إما من جهة عمل سيئ ونحو ذَلِكَ، فتلك الخصلة الخفية توجب سوء الخاتمة عند الموت، وكذلك قد يعمل الرجل عمل أهل النار وفي باطنه خصلة خفيّة من خصال الخير فتغلب عليه تلك الخصلة في آخر عمره فتوجب له حسن الخاتمة.

قال عبد العزيز بن أبي رواد: حضرت رجلا عند الموت يلقن الشهادة «لا إله إلا الله» فقال في آخر ما قَالَ: هو كافر بما تقول، ومات على ذلك قَالَ: فسألت عنه فإذا هو مدمن خمر. وكان عبد العزيز يقول: اتقوا الذنوب فإنها هي التي أوقعته.

وفي الجملة: فالخواتيم ميراث السوابق، فكل ذلك سبق في الكتاب السابق، ومن هنا كان يشتد خوف السلف من سوء الخواتيم، ومنهم من كان يقلق من ذكر السوابق، وقد قيل: إن قلوب الأبرار معلقة بالخواتيم، يقولون: بماذا يختم لنا؟ وقلوب المقربين معلقة بالسوابق يقولون: ماذا سبق لنا.

وبكى بعض الصحابة عند موته فسُئل عن ذلك فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَبَضَ قَبْضَةً بِيَمِينِهِ وَقَالَ: هَذِهِ لِهَذِهِ وَلاَ أُبَالِي، وَقَبَضَ قَبْضَةً أُخْرَى يَعْنِي بِيَدِهِ الأُخْرَى جَلَّ وَعَلاَ فَقَالَ: هَذِهِ لِهَذِهِ وَلاَ أُبَالِي**». فَلاَ أَدْرِي فِي أَيِّ الْقَبْضَتَيْنِ أَنَا[1].

قال بعض السَّلف: «ما أبكى العيون ما أبكاها الكتاب السابق».

وقال سفيان لبعض الصالحين: هل أبكاك قطّ علم الله فيك؟ فقال له ذلك الرجل: تركني لا أفرح أبدًا.

وكان سفيان يشتد قلقه من السوابق والخواتيم فكان يبكي ويقول: أخاف أن أكون في أمّ الكتاب شقيًّا ويبكي ويقول: أخاف أن أسلب الإيمان عند الموت.

وكان مالك بن دينار يقوم طول ليله قابضًا على لحيته ويقول: يا رب قَدْ علمت ساكن الجَنَّة مِن ساكن النار ففي أيّ الدَّارين منزل مالك؟

وقال حاتم الأصم: مَن خلا قلبه مِن ذكر أربعة أخطار فهو مغترّ فلا يأمن الشقاء:

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٧٦)، وابن أبي عاصم (١/ ١١١).

الأول: خطر يوم الميثاق حين قَالَ: «هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي» فلا يعلم في أي الفريقين كان.

والثاني: حين خُلق في ظلمات ثلاث، فنادى الملك بالشقاوة والسعادة، ولا يدري أمن الأشقياء هو أم من السعداء.

والثالث: ذِكر هول المطلع، فلا يدري أيبشّر برضا الله أم بسخطه.

والرابع: يوم يصدر الناس أشتاتا فلا يدري أي الطريقين يسلك به.

وقال **سهل التستري**: المريد يخاف أن يبتلى بالمعاصي، والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر.

ومن هنا كان الصحابة ومَن بَعدهم مِن السلف الصَّالح يخافون على أنفسهم النفاق ويشتدّ قلقهم وجزعهم منه، فالمؤمن يخاف على نفسه النفاق الأصغر ويخاف أن يغلب ذلك عليه عند الخاتمة فيخرجه إلى النفاق الأكبر - كما تقدم - أن دسائس السوء الخلفية توجب سوء الخاتمة.

فعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «**يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: «**نَعَمْ إِنَّ القُلُوبَ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ**»[1]. خرجه الإمام أحمد والترمذي من حديث أنس.

فنسأل الله ربنا أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب.

وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة، وخرج مسلم من حديث عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ العَاصِ يَقُولُ: سَمعت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ**». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ**»[2]. ا.هـ[3].

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١١٢)، والترمذي (٢١٤٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٤/ ١٧)، وأحمد (٢/ ١٦٨)، وغيرهما.

(٣) «جامع العلوم والحكم» (٦٩ - ٧٢) باختصار.

نسأل الله تَعَالَى أن يُثَبِّت قلوبنا عَلَى دينه، وأن يَصرِّف قلوبنا عَلَى طاعته. إنه وليُّ ذَلِكَ والقادر عليه.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فقد بان لنا فيما سبق: أن الخواتيم ميراث الأعمال، وأن القلوب بيد الله وحده، فعياذًا بالله من الحور بعد الكور، ومن الضلالة بعد الهدى، ومِن المعصية بعد التُّقى.

كَم من وجوه خاشعة وقع عَلَى قصص أعمالها عاملة ناصبة تصلى نارًا حامية.

كَم من شارف مركبه ساحل النجاة فَلَمَّا هَمَّ أن يرتقي، لعب به موجٌ فغرق.

الخلق كلهم تحت هذا الخطر، قلوب العِباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يُقلِّبها كيف يشاء، ما العجب مِمَّا هلك كيف هلك، إنما العجب مِمَّن نجا، كيف نجا؟![1]

ولقد كان من دعاء نبيِّنا ﷺ: «**اللَّهُمَّ يا وَلِيَّ الإسلام وأهله، مَسِّكني بالإسلام حَتَّى ألقاك عليه**».

وكان نبيِّنا ﷺ يتعوّذ من فتنة المحيا والممات، وفي هذه اللحظات عند السياق والسكرات.

قال أبو مُحَمَّد عبد الحق: اعلم أن سوء الخاتمة - أعاذنا الله منها - لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، وما سمع بهذا ولا علم به - والحمد لله - وإنما تكون لمن كان له فساد في العقل، أَوْ إصرار عَلَى الكبائر، وإقدام عَلَى العظائم، فربما غلب ذَلِكَ عليه حَتَّى ينزل به الموت قبل التوبة، فيصطلمه الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة - والعياذ بالله - أَوْ يكون مِمَّن كان مستقيمًا ثم يتغير عن حاله ويخرج عن سننه، ويأخذ في طريقه، فيكون ذَلِكَ سببًا لسوء خاتمته، وشؤم عاقبته.

---

(١) «لطائف المعارف» (٣٥٥، ٣٥٦).

وقال **ابنُ القَيِّم** -رَحِمَهُ الله -: «فإذا كان العبد في حال حضور ذهنه وقوّته وكمال إدراكه؛ قد تمكن منه الشيطان واستعمله بما يريده من معاصي الله، وقد أغفل قلبه عن ذكر الله، وعطَّل لسانه من ذكره وجوارحه عن طاعته، فكيف الظن به عند سقوطه قواه واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزع، وجمع الشيطان له كل قوته وهمته وحشده عليه بجميع ما يقدر عليه؛ لينال منه فرصته؟! فإن ذلك آخر العمل؛ فأقوى ما يكون عليه شيطانه ذلك الوقت، وأضعف ما يكون هو في تلك الحالة؟! فمن ترى يسلم على ذلك؟!

فهناك ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

فكيف يوفق لحسن الخاتمة من أغفل الله سبحانه قلبه عن ذكره، واتبع هواه، وكان أمره فرطا؟!! فبعيدٌ.

مَنْ قلبُه بعيدٌ من الله تعالى، غافل عنه، متعبد لهواه، أسير لشهواته، ولسانه يابس من ذكره، وجوارحه معطلة من طاعته، مشتغلة بمعصيته؛ أن يوفق لحسن الخاتمة.

ولقد قطع خوف الخاتمة ظهور المتقين..وكأن المسيئين الظالمين قد أخذوا توقيعا بالأمان.. ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ * سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ [القلم: ٣٩، ٤٠].

كما قيل:

يا آمنًا من قبح الفعل منه أهَل ... أتاكَ توقيع أمْنٍ أنتَ تملكُهُ

جمعتَ شيئين: أمنًا واتباع هوى ... هذا وإحداهُما في المرء تُهلكُه

والمُحسنونَ عَلَى دربِ المخاوف قَدْ ... ساروا وذلكَ دربٌ لستَ تَسلكهُ

فرَّطت في الزرع وقت البذرِ من سَفَهٍ ... فكيف عند حصادِ النَّاس تُدركهُ

هذا وأعجبُ شيءٍ فيك زُهدك في ... دَار البَقَاءِ بعيشٍ سَوفَ تتركُهُ

مَن السفيهُ إذًا؟! بالله أنت أم الـ ... مغبونُ في البيع غَبنًا سوف يُدركُهُ[١]

---

(١) «الداء والدواء» لابن القيم (١٤٣، ١٤٤).

وبالجملة: فالخوف من سوء الخاتمة هو الَّذِي طَيَّش قلوب الصديقين، وحيَّر أفئدتهم في كل حين، ليس لهم في الدُّنْيَا راحة، كلما دخلوا سكة من سكك السكون أخرجهم الجزع إلى شارع من شوارع الخوف.

أروح بشجوٍ ثم أغدو بمثله وتحسب أني في الثياب صحيح

أحكَمَ القومُ العلمَ فحكم عليهم بالعمل، فقاطعوا التسويف الَّذِي يقطع أعمار الأعمال، وانتهبوا فانتبهوا اللَّيْل والنهار، وأخرجوا قوى العزائم إلى الأفعال، فَلَمَّا قضوا ديون الجد قضت عليهم بالحذر من الردِّ.

القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلِّبها كيف يشاء سُبْحَانَهُ، كما ثبت ذَلِكَ عن المصطفى ﷺ.

كَم سمعنا عمن آمن ثم كفر، وكم رأينا مَن استقام ثم انحرَف، ولذلك كان كثيرًا ما يردد ﷺ من دعائه: «**اللَّهُمَّ يا مُقلِّب القلوب ثبت قلبي عَلَى دينك**»[1].

اللَّهُمَّ لا تجعلنا مِمَّن يفضحه ميراثه عند موته وعند القدوم عليك.

قال رَسُول الله ﷺ: «**مَن مات عَلَى شيءٍ بعثه الله عليه**»[2].

وكم بكى العباد عَلَى الخاتمة، فلن تخرج الأرواح حَتَّى يسمعوا نغمة ملك الموت بإحدى البُشريين: إما أبشر يا عدو الله بالنار، أَوْ أبشر يا وليّ الله بالجنة.

فيا بُعد سفرنا وقلّة زادنا، لا يزول خوفنا ولا يسكن اضطرابنا حَتَّى نسمع مقالة ملك الموت: اخرجي أيتها الروح الطيِّبة إلى رَوحٍ وريحان ورَبٍّ غير غَضبان. ا.هـ[3].

❁❁❁❁❁

---

(١) «اللطف في الوعظ» لابن الجوزي (٢١)، والحديث صحيح.

(٢) **صحيح**: أخرجه الحاكم (٤/ ٣١٣)، وصححه ووافقه الذهبي والألباني.

(٣) «سكب العبرات» (٥٤ - ٥٦).

الخطبة الثانية والثمانون:

[أ] أسبابُ سوءِ الخاتمة[١]

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يومِ الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فيقول الحافظ ابن رجب -رَحِمَهُ الله-: «قَدْ خُذِل خَلقٌ كثير عند الموت، فمنهم مَن أتاه الخذلان من أول مرضه، فلم يستدرك قبيحًا مضى، وربما أضاف إليه جورًا في وصيته، ومنهم من فاجأه الخذلان في ساعة اشتداد الأمر، فمنهم مَن كفر ومنهم مَن اعترض وتسخّط، نعوذ بالله من الخذلان.

وهذا معنى سوء الخاتمة، وهو أن يغلب عَلَى القلب عند الموت الشك أَوْ الجحود،

---

(١) من «سكب العبرات» باختصار وإضافة.

فتقبض النَّفْس عَلَى تلك الحالة، ودون ذَلِكَ أن يتسخّط الأقدار»(١).

عباد الله...

وسوء الخاتمة - نعوذ بالله منها - ليست عَلَى رتبة واحدة، بل تختلف من شخص لآخر.

قَالَ الشيخ **صدِّيق حسن خان**: سوء الخامة عَلَى رُتبتين، إحداهما أعظم من الأخرى:

فأما الرتبة العظيمة الهائلة: فهي أن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله، إما الشك وإما الجحود، فتقبض الروح على تلك الحالة فتكون حجابًا بينه وبين الله تعالى أبدًا، وذلك يقتضي البعد الدائم والعذاب المخلد.

والثانية وهي دونها: أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا أو شهوة من شهواتها، فيتمثل ذلك فى قلبه ويستغرقه حتى لا يبقى فى تلك الحالة متسع لغيره، فمهما اتفق قبض الروح فى حالة غلبة حب الدنيا فالأمر مخطر؛ لأن المرء يموت على ما عاش عليه، وعند ذلك تعظم الحسرة إلا أن أصل الأيمان وحب الله تعالى إذا كان قد رسخ فى القلب مدة طويلة، وتأكد ذلك بالأعمال الصالحة، يمحوا عن القلب هذه الحالة التى عرضت له عند الموت، فإن كان إيمانه فى القوة إلى حدّ مثقال؛ أخرجه من النار فى زمان أقرب، وإن كان أقلّ من ذلك طال مكثه فى النار.

ولكن لو لم يكن إلا مثقال حبّة فلابد وأن يخرجه من النار ولو بعد آلاف السنين، وكل من اعتقد فى الله تعالى وفى صفاته وأفعاله شيئًا على خلاف ما هو به إما تقليدًا وإما نظرا بالرأى والمعقول، فهو فى هذا الخطر والزهد والصلاح لا يكفى لدفع هذا الخطر بل لا ينجى منه إلا الاعتقاد الحقّ على وفق الكتاب العزيز والسُّنة المطهرة، والبُلْهُ بمعزل عن هذا الخطر» ا.هـ(٢).

---

(١) «الثبات عند المهات» لابن الجوزي (٧٨).

(٢) «يقظة أولي الاعتبار» (٢١٦).

عباد الله...

وأول أسباب سوء الخاتمة: فساد المعتقد:

قَالَ العلَّامة صِدِّيق حسن خان في أسباب سوء الخاتمة:

منها: الفساد فى الاعتقاد، وإن كان مع كمال الزهد والصلاح، فإن كان له فساد فى اعتقاده مع كونه قاطعًا به متيقنًا له غير ظان أَنَّهُ أخطأ فيه، قَدْ ينكشف له فى حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده من الاعتقادات الحقة مثل هذا الاعتقاد باطل لا أصل له إن لم يكن عنده فرق بين اعتقاد واعتقاد، فيكون انكشاف بطلان بعض اعتقاداته سببًا لزوال بقية اعتقاداته، فإن خروج روحه فى هذه الحالة قبل أن يتدارك ويعود إلى أصل الايمان يختم له بالسوء ويخرج من الدنيا بغير إيمان، فيكون من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَبَدَا لَـهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَـمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧].

وقال في آية أخرى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الـحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

فإن كُلَّ مَن اعتقد شيئًا عَلَى خِلاف ما هو عليه إمَّا نظرًا برأيه وعقله أو أخذا مِمَّن هذا حاله، فهو واقع فى هذا الخطر ولا يدفعه الزُّهد والصلاح وإنما يدفعه الاعتقاد الصحيح المطابق لكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، لأن العقائد الدينية لا يعتدّ بها إلَّا ما أخذت منها» ا.هـ[١].

والمتتبع لأحوال المبتلين بسوء المعتقد عند الموت، يجد شيئًا تشيب له النواصي، نسأل الله اللّطف.

فهذا ابن الفارض المتوفَّى سنة ٦٣٢ هـ.

قَالَ ابن حجر عنه: «ينعق بالاتحاد الصّريح في شِعره»[٢].

وقال ابن حجر: «وكنت سألت شيخنا سراج الدين البلقيني عن ابن عربي، فبادر بالجواب بأنه كافر، فسألته عن ابن الفارض فقال: لا أحب أن أتكلم فيه، قلت: فما

---

(١) «يقظة أولي الاعتبار» (٢٠٥).
(٢) «لسان الميزان» (٤/ ٣١٧- ٣١٩).

الفرق بينهما والموضع واحد؟ وأنشدته من التائية، فقطع عليّ بعد إنشاد عدة أبيات بقوله: هذا كفر، هذا كفر»[١].

ابن الفارض الَّذِي يَكذب عَلَى رَسُول الله ﷺ، ويقول: إنه رآه منامًا وأَنَّهُ سأل ابن الفارض عن قصيدته التائية، ما سمَّاها؟ فأجابه بأنه سمَّاها: لوائح الجنان وروائح الجنان، فقال له النَّبيّ ﷺ: لا، بل سمِّها: نظم السلوك[٢]...!!

فماذا كان منه عند الموت؟

عند موته تأوّه، وصرخ صرخةً عظيمة، وبكى بكاءً شديدًا، وتغيَّر لونه وقال:

إن كانَ منزلتي في الحب عندكُمُ ... ما قَدْ رأيتُ فقد ضيَّعتُ أيَّامي

أمنيةٌ ظفرت بها زمنًا ... واليومَ أحسَبُها أضغاثُ أحَلام

وهذا الحلاج، رأس أهل الحلول والاتّحاد:

قَالَ قبَّحه الله: «أبرأ إليك مِمَّا وحَّدك به الموحِّدون».

وقال – عليه من الله ما يستحق –: «الكفر والإيمان يفترقان من حيث الاسم، فأما من حيث الحقيقة فلا فرق بينهما».

وقال في الطواسين:

ألا أبلغ أحبائي بأني ... ركبت البحر وانكسر السفينة

عَلَى دين الصليب يكون موتي ... فلا البطحا أريد ولا المدينة

فماذا كانت خاتمته؟

قَالَ الخطيب: قال لنا أبو عمر بن حيوية: «لَـمَّا أخرج الحسين بن منصور الحلَّاج لِيُقتل، مضيت في جملة النَّاس، ولم أزل أزاحم عليه حتى رأيته، فدنوت منه فقال لأصحابه: لا يهولنكم هذا الأمر، فإني عائدٌ إليكم بعد ثلاثين يومًا، ثم قُتل فما عاد.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) «ديباجة الديوان» (٦، ٧).

قَالَ الذهبي: فهذه حكاية صحيحة توضح لك أن الحلَّاج ممخرق كذَّاب، حَتَّى عند قتله»[١].

والسبب الثاني من أسباب سوء الخاتمة: مخالفة الباطن للظاهر:

وقَدْ تقدّم الحديث عن خطر ذَلِكَ عند شرح حديث: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**»[٢].

وعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: شَهِدْنَا خَيْبَرَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِرَجُلٍ مِمَّنْ مَعَهُ يَدَّعِي الإِسْلاَمَ: «**هَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ**».

فَلَمَّا حَضَرَ القِتَالُ قَاتَلَ الرَّجُلُ أَشَدَّ القِتَالِ، حَتَّى كَثُرَتْ بِهِ الجِرَاحَةُ، فَكَادَ بَعْضُ النَّاسِ يَرْتَابُ، فَوَجَدَ الرَّجُلُ أَلَمَ الجِرَاحَةِ، فَأَهْوَى بِيَدِهِ إِلَى كِنَانَتِهِ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهَا أَسْهُمًا، فَنَحَرَ بِهَا نَفْسَهُ، فَاشْتَدَّ رِجَالٌ مِنَ المُسْلِمِينَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، صَدَّقَ اللهُ حَدِيثَكَ، انْتَحَرَ فُلاَنٌ فَقَتَلَ نَفْسَهُ. فَقَالَ: «**قُمْ يَا فُلاَنُ فَأَذِّنْ أَنَّهُ لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلاَّ مُؤْمِنٌ، إِنَّ اللهَ يُؤَيِّدُ الدِّينَ بِالرَّجُلِ الفَاجِرِ**»[٣].

السبب الثالث: كثرة الذنوب بغير توبة:

قَالَ ابنُ القَيِّم - رَحِمَهُ الله -: «ومن عقوبات الذنوب والمعاصي: أنها تخون العبد أحوج ما يكون إلى نفسه، فإن كل أحدٍ يحتاج إلى معرفة ما ينفعه وما يضره في معاشه ومعاده.

إلى أن قَالَ: هذا وثَمَّ أمرٌ أخوف من ذَلِكَ وأدهى منه وأمرّ وهو: أن يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار والانتقال إلى الله، فربما تعذّر عليه النطق بالشهادة، كما شاهد النَّاس كثيرًا من المحتضرين أصابهم ذَلِكَ حَتَّى قيل لبعضهم: قل لا إله إلَّا الله، فقال: «آه آه لا أستطيع أن أقولها».

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٣٤٦).
(٢) رواه البخاري (٧/ ٥٣٨).
(٣) رواه البخاري (٧/ ٥٣٩).

وقيل لآخر: قل: «لا إله إلَّا الله»، فقال: «شاه رُخّ غلبتك»[١]، ثم قضى.

وقيل لآخر: قل: «لا إله إلَّا الله»، فقال:

يـا رب قائلـة يـومًا وقَـدْ تعـبت كـيف الطـريق إلى حمَّـام مـنجابِ

ثم قضى.

وقيل لآخر: قل: «لا إله إلَّا الله»، فجعل يهذي بالغناء ويقول: «تاتنا تنتنا»، حَتَّى مات.

وقيل لآخر: قل: «لا إله إلَّا الله»، فقال: «ما ينفعني ما تقول ولم أدع معصية إلَّا ركبتها»، ثم مات ولم يقلها.

وقيل لآخر: قل: «لا إله إلَّا الله»، فقال: «ما يغني عني وما أعرف أني صليتُ لله صلاةً» ولم يقلها.

وقيل لآخر: قل: «لا إله إلَّا الله»، فقال: «أنا كافر بما تقول» ولم يقلها وقضى.

وقيل لآخر: قل: «لا إله إلَّا الله»، فقال: «كلما أردت أن أقولها أجد لساني يمسك عنها» ا.هـ[٢].

وقال الذهبي: «ما من ميِّت يموت إلَّا مُثِّل له جلساؤه الذين كان يجالسهم، فاحتضر رجل ممن كان يلعب بالشطرنج فقيل له: قل «لا إله إلا الله» فقال: «شاهك» ثم مات، فغلب على لسانه ما كان يعتاده حال حياته في اللعب، فقال عوض كلمة الإخلاص: «شاهك».

و هذا كما جاء في إنسان آخر مِمَّن كان يجالس شراب الخمر أَنَّهُ حين حضره الموت فجاءه إنسان يلقنه الشهادة فقال له: «اشرب واسقني» ثم مات، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» ا.هـ[٣].

---

(١) اسم لأحجار الشطرنج.

(٢) «الداء والدواء» (١٤١ - ١٤٣).

(٣) «الكبائر» للذهبي.

نعم، لا حول ولا قوة إلا بالله.

وللحديث بقية - إن شاء الله تَعَالَى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فالإصرار عَلَى المعاصي، واستمرار الذُّنوب، مِن أسباب سوء الخاتمة - عياذًا بالله تَعَالَى.

قال الشيخ صدِّيق حسن خان: «فطول الإلف بالمعاصي يقتضي تذكرها عند الموت، وعودها في القلب وتمثّلها فيه وميل النَّفْس إليها، وإن قبض روحه في تلك الحالة يُختم له بالسوء» [١].

وقال الربيع بن مرة: وقيل لرجل هاهُنا بالبصرة: يا فلان قُل لا إله إلَّا الله، فجعل يقول:

يـا رب قائلـة يـومًا وقَـدْ تعـبت كـيف الطـريق إلى حمَّـام مـنجاب

قَالَ الفقيه أبو بكر أحمد بن سليمان بن الحسن النجاد: هذا رجل قَدْ استدلته امرأة إلى الحمام فدلها إلى منزله، فقاله عند الموت.

وذكر أبو محمد عبد الحق هذه الحكاية في كتاب «العاقبة» له فقال: «وهذا الكلام له قصة: وذلك أن رجلًا كان واقفًا بإزاء داره وكان بابه يشبه باب حمام فمرّت به جارية لها منظر وهي تقول: أين الطريق إلى حمام منجاب؟ فقال لها: هذا حمام منجاب وأشار إلى داره، فدخلت الدار ودخل وراءها فلما رأت نفسه معه في دار وليس بحمام علمت أنه خدعها، أظهرت له البِشر والفرح باجتماعها معه على تلك الخلوة وفي تلك الدار، وقالت له: يصلح معنا ما نطيب به عيشنا وتقر به أعيننا، فقال لها: الساعة آتيك بكل ما

---

(١) «يقظة أولي الاعتبار» (٢٠٥، ٢٠٦).

تريدين وبكل ما تشتهين فخرج وتركها في الدار ولم يقفلها وتركها محلولة على حالها ومضى، فأخذ ما يصلح لهما ورجع ودخل الدار فوجدها قد خرجت وذهبت ولم يجد لها أثرًا، فهام الرجل بها وأكثر الذكر لها والجزع عليها وجعل يمشي في الطرق والأزقة وهو يقول:

يـا رب قائلـة يـومًا وقـدْ تعـبت كـيف الطـريق إلى حمَّـام مـنجابِ

وإذا بجارية تجاوبه من طاق (شباك) وهي تقول:

هـلا جَعَلْـتَ لَـمَّـا ظفـرتَ بهَـا حِـرزًا علـى الـدَّار أو قِفـلا على الباب

فزاد هيمانه، واشتد هيجانه، ولم يزل كذلك حتى كان من أمره ما ذكر، فنعوذ بالله من المحن والفتن[1].

عباد الله...

ومن القصص المعاصرة: قصة فتى مات ساجدًا لراقصة!!

ذكر الشيخ سعد البريك في كتابه «أخبار المنتكسين» (٢٦/ ٢٧): «فتى سافر إلى «بانكوك» وتعرّف عَلَى فتاة بغيّ هناك، وأصبح يعاشرها كما يُعاشر الرجل زُوجته يتلذذ بمنظرها، ويستأنس بحديثها لا يحتمل فراقها ولا يستغنى عَنْهَا، وفي إحدى الأيام تأخرت فاجرته عن القدوم إليه، فطار صوابه وعاش ساعات حرجة وأوقات صعبة حَتَّى قدمت إليه، فزال حزنه وانفرج همه، واستقبلها استقبالًا خططت له الشياطين طويلًا ونجحت في نهايته؛ لقد عبَّر لها عن مقدار فرحته بقدومها بأن جعلها إلهًا له، فخرّ لها ساجدًا، ولكن كانت السجدة الأخيرة.

وهذه قصة ثلاثة من الأصدقاء يجمع بينهم الطيش والعبث والمجون، كانوا يستدرجون الفتيات الساذجات بالكلام المعسول، ثم ينقلبون إلى ذئاب لا ترحم توسلاتهن، يقول الراوي:

ذهبنا كالمعتاد للمزرعة، وكان كل شيءٍ جاهزًا، الفريسة لكل واحدًا منَّا، الشراب

---

(١) «التذكرة» (١٠٣، ١٠٤).

الملعون، شيء واحد نسيناه، وهو الطعام، وبعد قليل ذهب أحدنا لشراء العشاء بسيارته، وكانت الساعة السادسة تقريبًا عندما انطلق، ومرّت الساعات دون أن يعود، وفي العاشرة شعرت بالقلق، فانطلقت بسيارتي أبحث عنه، وفي الطريق شاهدت بعض ألسنة النار تندلع عَلَى جانب الطريق، وعندما وصلت فوجئت بأنها سيارة صديقي والنار تلتهمها، وهي مقلوبة عَلَى أحد جانبيها.

أسرعت كالمجنون أحاول إخراجه من السيارة المشتعلة، وذهلت عندما وجدت نصف جسده قَدْ تفحم تمامًا، لكنه كان ما يزال عَلَى قيد الحياة، فنقلته إلى الأرض، وبعد دقيقة فتح عينيه وأخذ يهذي: «النار... النار» فقررت أن أحمله بسيارتي وأسرع به إلى المستشفى ولكنه قال بصوتٍ باكٍ: لا فائدة، لن أصل فخنقتني الدموع، وأنا أرى صديقي يموت أمامي، وفوجئت به يصرخ: «ماذا أقول له؟» نظرت إليه بدهشة وسألته مَن هو؟ قال بصوت كأنه قادم من بئرٍ عميق: «الله». أحسست بالرعب يجتاح جسدي، وفجأة أطلق صديقي صرخة مدوية، ولفظ آخر أنفاسه[١].

وقال الإمام ابن الجوزي -رَحِمَهُ الله-: «بلغني عن رجل كان ببغداد يُقال له: صالح المؤذن، أذَّن أربعين سنة وكان يعرف بالصَّلاح، أنَّهُ صعد يومًا إلى المنارة ليؤذن فرأى بنت رجل نصراني كان بيته إلى جانب المسجد فافتتن بها، فجاء فطرق الباب فقالت: من؟ فقال: أنا صالح المؤذن، ففتحت له فلما دخل ضمَّها إليه، فقالت: أنتم أصحاب الأمانات فما هذه الخيانة؟ فقال: إن وافقتني على ما أريد وإلا قتلتك، فقالت: لا، إلا أن تترك دينك.

فقال: أنا بريء من الإسلام ومِمَّا جاء به مُحَمَّد، ثم دنا إليها فقالت: إنما قلت هذه لتقضي غرضك ثم تعود إلى دينك فَكُل مِن لحم الخنزير، فأكل، قالت: فاشرب الخمر، فشرب، فلما دب الشراب فيه دنا إليها فدخلت بيتًا وأغلقت الباب وقالت: اصعد إلى السطح حتى إذا جاء أبي زوجني منك، فصعد فسقط فمات فخرجت فلفته في مسح، فجاء أبوها فقصّت عليه القصّة فأخرجه في الليل فرماه في السكة، فظهر حديثه فرُمي

---

(١) «أخي الشاب إلى أين تسير؟» لمحمد أمين مرزا عالم (١٠ - ١٢).

في مزبلة[١].

وقال الحافظ ابن كثير -رَحِمَهُ الله - في حوادث سنة ثمان وسبعين ومائتين ما يلي: «وفيها تُوفي عبده بن عبدالرحيم - قبَّحه الله - ذكر ابن الجوزي أنَّ هذا الشقي كان من المجاهدين كثيرًا في بلاد الروم، فلما كان في بعض الغزوات والمسلمون محاصروا بلدة من بلاد الروم إذ نظر إلى امرأة من نساء الروم في ذلك الحصن فهويها، فراسلها: «ما السبيل إلى الوصول إليك؟».

فقالت: أن تتنصَّر وتصعد إلي، فأجابها إلى ذَلِكَ، فما راع المسلمين إلا وهو عندها، فاغتمّ المسلمون بسبب ذلك غمًّا شديدًا وشق عليهم مشقة عظيمة، فلما كان بعد مدة مروا عليه وهو مع تلك المرأة في ذلك الحصن فقالوا: يا فلان ما فعل قرآنك؟ ما فعل علمك؟ ما فعل صيامك؟ ما فعل جهادك؟ ما فعلت صلاتك؟ فقال: اعلموا أني أنسيت القرآن كله إلا قوله: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ * ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٢، ٣]. وقد صار لي فيهم مال وولد» ا.هـ[٢].

عباد الله...

ومن الأشياء التي رأيتها بنفسي: رأيتُ أثناء زيارتي لمريض بالمستشفى رجلًا طريحًا عَلَى فراشه، يسبُّ ويلعن، فلما خرجت أخبرني مَن أثق فيه أنَّ هذا الرجل مات بعد ساعات، وكان آخر ما تكلَّم به: «أريد سيجارة ياولاد كذا وكذا...».

اللَّهُمَّ إنا نسألك قبل الموت توبة

وعند الموت شهادة، وعندك جنات ونعيمًا ومُلكًا كبيرًا

آمين... آمين... آمين

وآخر دعوانا أن الحَمْد لله رَبِّ العالمين

❁❁❁❁❁

---

(١) «ذم الهوى» (٤٠٩).

(٢) «البداية والنهاية» (١١/ ٦٤).

الخطبة الثالثة والثمانون:

[ب] أسباب سوء الخاتمة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد ذكرتُ - بفضل الله تَعَالَى - في الخطبة الماضية ثلاثة أسباب من أسباب سوء الخاتمة - أعاذنا الله منها.

واليوم نتحدّث عن بقية الأسباب، أعاننا الله عَلَى اجتنابها.

عباد الله...

والسبب الرابع من أسباب سوء الخاتمة: طول الأمل:

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ الله عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَيَبْقَى مَعَهُ اثْنَتَانِ: الحِرْصُ

وَالأَمَلُ» [(١)].

قَالَ المناوي - رَحِمَهُ الله -: قوله ﷺ: (**يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ**) أي يكبر (**وَيَبْقَى مَعَهُ**) خصلتان (**اثْنَتَانِ**) استعارة يعني: تستحكم الخصلتان في قلب الشيخ كاستحكام قوّة الشاب في شبابه. (**الحِرْصُ**) على المال والجاه والعمر، وطول (**الأَمَلُ**)، فالحرص فقره ولو ملك الدُّنْيَا، والأمل تعبه.

وإنما لم تذهب هاتان الخصلتان لأن المرء جُبِلَ على حُب الشهوات كما قال تَعَالَى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالبَنِينَ وَالقَنَاطِيرِ المُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالـخَيْلِ المُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالـحَرْثِ**﴾ [آل عمران: ١٤]. وإنما تنال هي بالمال والعمر، والنفس معدن الشهوات وأمانيها لا تنقطع فهي أبدًا فقيرة لتراكم الشهوات عليها، قد برح بها خوف الفوت وضيق عليها فهي مفتونة بذلك، وخلصت فتنتها إلى القلب فأصمّته عن الله وأعمته، لأن الشهوة ظلمات ذات رياح هفافة، والريح إذا وقع في الأُذن أصمّت، والظلمة إذا حلّت بالعين أعمت، فلما وصلت هذه الشهوة إلى القلب حجبت النور، فإذا أراد الله بعبدٍ خيرًا قذف في قلبه النور فتمزق الحجاب، فذلك تقواه به يتقىَ مساخط الله ويحفظ حدوده ويؤدي فرائضه، فإذا أشرق الصدر بذلك النور تأدى إلى النَّفْس فأضاء، ووجدت له النَّفْس حلاوة وطلاوة ولذة تلهيه عن شهوات الدُّنْيَا وزخرفها، فيحيى قلبه ويصير غنيًّا بالله الكريم في فعاله، الحيّ في ديموميته، القيوم في ملكه.

والنفس حينئذٍ بجواره وفي غناء الجار غناء، فصارت تقواه في قلبه وهو في ذلك النور وغناه في نفسه طمأنينتها ومعرفتها أين معدن الحاجات، وحكم عكسه عكس حكمه، أعاذنا الله من ذلك بمنه وكرمه» ا.هـ[(٢)].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ الله عَنْهُمَا: عن النَّبيّ ﷺ قَالَ: «**صلاحُ أَوَّل هَذِهِ الأُمَّة بالزّهد واليَقين، ويَهلِكُ آخِرهُا بالبُخل والأمل**» [(٣)].

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم.

(٢) «فيض القدير» (٦/ ٦٠٢).

(٣) **حسن**: رواه أحمد وغيره، وانظر «المشكاة» (٥٢٨١).

قال المناوي -رَحِمَهُ الله -: **قوله ﷺ: (صلاحُ أوَّل هَذِهِ الأُمَّة بالزّهد واليَقين)** إذ بهما يصير العبد شاكرًا لله خالصًا له متواضعًا مفوضًا مسلمًا فيتولى ويتولاه الله، **(ويَهلِكُ آخِرهُا بالبُخل والأمل)** وذلك لا يظهر إلَّا مِن فقد اليقين، ساء ظنّهم بربّهم فبخلوا وتلذذوا بشهوات الدُّنْيَا، فحثوا أنفسهم بطول الأمل؛ ﴿**وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا**﴾ [النساء: ١٢٠].

والمراد: غلبة البخل والأمل في آخر الزمان يكون من الأسباب المؤدية للهلاك بكثرة الجمع والحرص وحب الاستئثار بالمال المؤدي إلى الفتن والحروب والقتل وغير ذَلِكَ.

وقال الطيبيّ: أراد باليقين: تيقنّ أنَّ الله هو الرَّزاق المتكفل للأرزاق، ﴿**وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا**﴾ [هود: ٦]، فمن تيقّن هذه في الدُّنْيَا لم يبخل؛ لأن البخيل إنما يمسك المال لطول الأمل وعدم التيقّن.

قال الأصمعيُّ: تلوتُ على أعرابي «**وَالذَّارِيَاتِ**» فلما بلغت ﴿**وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ**﴾ [الذاريات: ٢٢]، قال: حسبُك، وقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر، وعمد إلى سيفه فكسره وولّى، فلقيته بالطواف قد نحل جسمه واصفر لونه فسلّم عليَّ واستقرأني السورة فلما بلغت ﴿**وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ**﴾ صاح وقال: قَدْ وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا فهل وجدتم غير هذا؟ فقرأت ﴿**فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ**﴾ [الذاريات: ٢٣] فصاح وقال: سبحان الله مَن ذا الَّذِي أغضب الجليل حَتَّى حلف؟ قالها ثلاثا فخرجت معها روحه.

قال الحكماء: الجاهل يعتمد على الأمل والعاقل يعتمد على العمل.

وقال بعضهم: الأمل كالسّراب غرّ مَن رآه وخاب مَن رجاه.

وقيل: إن قصر الأمل حقيقة الزهد وليس كَذَلِكَ، بل هو سبب لأن مَن قصر أمله زهد، ويتولّد مِن طول الأمل الكسل عن الطاعة والتسويف بالتوبة والرغبة في الدُّنْيَا ونسيان الآخرة وقسوة القلب؛ لأن رقته وصفاء نمائه يقع بتذكر الموت والقبر والثواب والعقاب وأحوال القيامة، ومَن قصر أمله قلّ همّه وتنوّر قلبه؛ لأنه إذا استحضر الموت اجتهد في الطاعة ورَضِيَ بما قلّ.

وقال ابن الجوزيّ: الأمل مذمومَ إلَّا للعلماء فلولاه ما صنَّفوا» ا.هـ[١].

ووقف أبو الدرداء رَضِي الله عَنْهُ عَلَى منبر دمشق لَـمَّا رأى ما أحدث المسلمون في الغوطة من البنيان ونصب الأشجار، قام في مسجدهم فنادى: يا معشر أهل دمشق، فاجتمعوا إليه، فحمد الله وأثنى عليه ثم قَالَ: «ألا تستحيون؟ تجمعون ما لا تاكلون، وتبنون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تبلغون، قد كان القرون من قبلكم يجمعون فيوعون، ويأملون فيطيلون، ويبنون فيوثقون. فأصبح جمعهم بورًا، وأملهم غرورًا، وبيوتهم قبورًا. هذه عادٌ قد ملأت ما بين عدن إلى عمان أموالًا وأولادًا، فمن يشتري مني تركة آل عاد بدرهمين؟»[٢].

وقال عمر بن عبد العزيز: «لا يطولنّ عليكم الأمد فتقسو قلوبكم وتنقادوا لعدوّكم، فإنَّهُ والله ما بُسط أمل مَن لا يدري لعله لا يصبح بعد مسائه ولا يمسي بعد صباحه، وربما كانت بين ذَلِكَ خطفات المنايا، وكم رأيت ورأيتم مَن كان بالدنيا مغترًّا، وإنَّما تقرّ عين مَن وثق بالنجاة من عذاب الله تَعَالى، وإنَّما يفرح مَن أَمِنَ أهوال القيامة، فأما مَن لا يداوي كلمًا إلَّا إذا أصابه جرح من ناحية أخرى فكيف يفرح؟ أعوذ بالله من أن آمركم بما لا أنهى عنه نفسي، فتخسر صفقتي وتظهر عيبتي وتبدو مسكنتي في يوم يبدو فيه الغنى والفقر والموازين فيه منصوبة».

عباد الله...

وطول الأمل له سببان:

أحدهما: الجهل؛ فهو أن الإنسان قَدْ يعوّل عَلَى شبابه فيستبعد قرب الموت مَعَ الشباب، وقَدْ يستبعد الموت لصحته، ويستبعد الموت فجأة، والجهل يدعو إلى طول الأمل وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب والاستعداد له، فهو أبدًا يظن أن الموت يكون بين يديه ولا يقدّر نزوله به ووقوعه فيه، وهو أبدًا يظن أَنَّهُ يشيّع الجنائز ولا يقدّر أن تُشيع جنازته؛ لأن هذا قَدْ تكرر عليه وأَلِفه وهو مشاهدة موت غيره، فأما موت

(١) «فيض القدير» (٤/ ٣٠١).

(٢) «حلية الأولياء» (١/ ٢١٧).

نفسه فلم يألفه ولم يتصوّر أن يألفه، فإنَّهُ لم يقع، وإذا وقع في دفعة أخرى بعد هَذِهِ، فهو الأول وليس الآخر، وسبيله أن يقيس نفسه بغيره، ويعلم أَنَّهُ لابُدَّ وأن تُحمل جنازته، ويدفن في قبره، ولعل اللبن الَّذِي يغطى به لحده قَدْ ضُرب وفرغ منه، وهو لا يدري فتسويفه جهل محض.

تَـزَوَّد مِـن الـتقوى فإنَّـك لا تَـدْري	إذا جَـنَّ لـيلٌ هـل تعـيش إلى الفَجْـر
فكم مـن فتـى أمْسَى وأصبح ضـاحِكًا	وقـد نُـسِجت أكفانُـه وهـو لا يَـدْري
وكـم مـن عـروس زَيّـنوها لـزوجِها	وقـد قُبِـضت أرواحُهـم لـيلة القَـدْر
وكم مِنْ صِغار يُرْتَجى طول عمرهم	وقـد أُدْخِلـت أجْـسَادُهم ظُلْمـة القـبر
وكم مـن صحيح مـات مـن غـير عِلَّـة	وكـم مـن سَـقيم عـاش حِينًا مـن الدَّهْـر

والسبب الآخر: حُبّ الدُّنْيَا:

قَالَ يحيى بن معاذ الرازي - رَحِمَهُ الله -: «الدُّنْيَا خَمر الشيطان، مَن سَكِر منها لا يفيق إلَّا في عَسكر الموتى نادمًا مَعَ النادمين».

وحُبّ الدُّنْيَا يسيطر إلَّا عَلَى قلب ضعيف الإيمان.

قَالَ الشيخ صدِّيق حسن خان:

«فإن كان فى إيمانه ضعف يضعف حُبّ الله تعالى فيه ويُقوى حُبّ الدُّنْيَا في قلبه ويستولى عليه بحيث لا يبقى فيه موضع لحب الله تعالى إلا من حيث حديث النَّفْس، بحيث لا يظهر له أثره فى مخالفة النفس ولا يؤثر فى الكف عن المعاصى ولا فى الحث على الطاعات، فينهمك فى الشهوات وارتكاب السَّيِّئات، فتتراكم ظلمات الذنوب على القلب فلا تزال تطفئ ما فيه من نور الإيمان مع ضعفه، فإذا جاءت سكرات الموت يزداد حب الله ضعفًا فى قلبه لما يرى أَنَّهُ يفارق الدُّنْيَا وهى محبوبة له وحبها غالب عليه لا يريد تركها ويتألم من فراقها، ويرى ذلك من الله تعالى فيخشى أن يحصله فى باطنه بغضه تعالى بدل الحب، وينقلب ذلك الحب الضعيف بغضًا، فإن خروج روحه فى اللحظة التى خطرت فيها هذه الخطرة يختم له بالسوء ويهلك هلاكًا مؤبدًا.

والسبب المفضي إلى هذه الخاتمة: حُبّ الدُّنْيَا والركون إليها والفرح بها، مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حُبّ الله تعالى وهو الدَّاء العضال الذى قد عمّ أكثر الخلق، فإن مَن يغلب على قلبه عند الموت أمر مِن أمور الدنيا يتمثل ذلك الأمر فى قلبه ويستغرقه حتى لا يبقى لغيره متسع، فإن خرج روحه فى تلك الحالة يكون رأس قلبه منكوسًا إلى الدنيا ووجهه مصروفًا إليها ويحصل بينه وبين ربّه حجاب» ا.هـ[1].

قَالَ القرطبي - رَحِمَهُ الله -: «ومثل هذا في الناس كثير مِمَّن غلب عليه الاشتغال بالدنيا والهمُّ بها، أو سبب من أسبابها، حتى لقد حُكي لنا أن بعض السماسرة جاء عنده الموت فقيل له: قل: «لا إله إلا الله» فجعل يقول: «ثلاثة ونصف، أربعة ونصف» غلبت عليه السمسرة.

ولقد رأيت بعض الحُسَّاب وهو في غاية المرض يعقد بأصابعه ويحسب،

وقيل لآخر: قل: «لا إله إلا الله» فجعل يقول: «الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا، والجنان الفلاني اعملوا فيها كذا».

ولقد حكى ابن ظفر في كتاب «النصائح» له قال: كان يونس بن عبيد - رحمه الله تعالى - بزازًا وكان لا يبيع في طرفي النهار ولا في يوم غيم، فأخذ يوما ميزانه فَرَضّه بين حَجَرَين فقيل له: هَلَّا أعطيته الصانع فأصلح فساده؟ فقال: لو علمت فيه فسادًا لما أبقيت من مالي قوت ليلة، قيل له: فلم كسرته؟ قال: حضرت الساعة رجلا احتضر فقلت له: قل: لا إله إلا الله، فامتعض فألححت عليه فقال: ادع الله لي، فقال: هذا لسان الميزان على لساني يمنعني من قولها. قلت: أفما يمنعك إلا من قولها؟ فقال: نعم، قلت: وما كان عملك به؟ قال: ما أخذت ولا أعطيت به إلا حقًّا في علمي غير أني كنت أقيم المدة لا أفتقده ولا أحتبره.

فكان يونس بعد ذلك يشترط على من يبايعه أن يأتي بميزان ويزن بيده وإلا لم يبايعه[2].

السبب السادس من أسباب سوء الخاتمة: العدول عن الاستقامة:

قَالَ بعض السَّلف: «أغبى النَّاس مَن ظلّ في آخر سفره وقَدْ قارب المنزل».

وقيل لأحد علماء سلفنا: فلان عرف طريق الله ثم رجع عنه، فقال: «لو وصلوا إليه ما رجعوا».

فمَن عرف طريق الملك ثم أعرض عنه وتنكّبه، واختار طرق الغواية والضلال، وآثر الغيّ عَلَى الرشاد، والضلالة عَلَى الهُدى، والفجور عَلَى التُّقى، كان ذَلِكَ مِن أعظم أسباب سُوء الخَاتمة.

وقَدْ ورد عند مسلم وأحمد وغيرهما من حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَرْجِسَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سَافَرَ يَتَعَوَّذُ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ، وَالْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ، وَدَعْوَةِ الْمَظْلُومِ وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِى الأَهْلِ وَالْمَالِ.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

قال ابن كثير: «كان الرجَّال بن عنفوة قَدْ وفدَ إلى النَّبيّ ﷺ وقرأ سورة البقرة وجاء زمن الرِّدة إلى أبي بكر فبعثَه إلى أهل اليمامة يدعوهم إلى الإسلام ويثبتهم عَلَى الإسلام، فارتد مع مُسيلمة وشهد له بالنبوة.

وكان الرجَّال يقول: كبشان انتطحا فأحبهما إلينا كبشنا - يعني مسيلمة ورسول الله ﷺ» [١]. ولقد قُتل هذا الكذَّاب في يوم اليمامة، قتله زيد بن الخطاب.

روى عِمْرَانُ بْنُ ظَبْيَانَ عَنْ رَجُلٍ مِنْ بَنِى حَنِيفَةَ أَنَّهُ سَمِعَهُ يَقُولُ: قَالَ لِى أَبُو هُرَيْرَةَ: أَتَعْرِفُ رَجَّالاً؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «ضِرْسُهُ فِى النَّارِ أَعْظَمُ مِنْ أُحُدٍ». فَكَانَ أَسْلَمَ ثُمَّ ارْتَدَّ وَلَحِقَ بِمُسَيْلِمَةَ [٢].

وقال تَعَالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن

---

(١) «الإصابة» (٢/ ٤٤٦).

(٢) رواه البيهقي.

تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٧]

صحّ عن بعض السلف: «أن هذه الآيات نزلت في «بلعام بن باعوراء» وكان من أحبار بني إسرائيل، أرسله موسى عليه السلام إلى قوم «مدين» يدعوهم إلى التوحيد. فأغراه مَلِكها بالمال والنِّساء والمُلك، فَهَوى بعد أن اتَّبع الهوى، وكان حاله كما وصف الحقُّ سُبْحَانَهُ وتَعَالى.

قال تَعَالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ أقول: ما أقبحه من منظر وما أعدله من عقاب، إنه تشبيه لحاله بالكلب في أخَسّ حالاته لا في أمانته وحراسته، إنَّما في تعبه وشقائه فهو دائمًا يلهث، أي: يخرج لسانه ويتنفس بصعوبة في كل حالاته، سواء زجرته وقسوت عليه أم أرحته وعطفت عليه»[١].

«واعلم أن من خصال الكلب أيضًا: أَنَّهُ دائمًا يشم دُبره دون سائر أجزائه، ولا يحب أن يشاركه غيره في جيفته ولو كانت تكفي مائة كلب»[٢].

كلام قيم للإمام ابنُ القَيِّم -رَحِمَهُ الله-: «فشبَّه سبحانه من آتاه كتابه وعلمه العلم الذي منعه غيره، فترك العمل به، واتبع هواه، وآثر سخط الله على رضاه، ودنياه على آخرته، والمخلوق على الخالق، بالكلب الذي هو من أخبث الحيوانات، وأوضعها قدرًا، وأخسها نفسًا، وهمته لا تتعدى بطنه، وأشدها شرهًا وحرصًا، ومن حرصه أنه لا يمشي إلا وخطمه في الأرض يتشمم ويستروح حرصًا وشرهًا، ولا يزال يشم دبره دون سائر أجزائه، وإذا رميت إليه بحجر رجع إليه ليعضه من فرط نهمته، وهو من أمهن الحيوانات، وأحملها للهوان، وأرضاها بالدنايا، والجيف القذرة المروحة أحب إليه من اللحم الطري، والعذرة أحب إليه من الحلوى، وإذا ظفر بميتة تكفي مائة كلب لم يدع كلبًا واحدًا يتناول منها شيئًا إلا هر عليه وقهره لحرصه وبخله وشَرَهِهِ.

---

(١) «الصراع بين النَّفس والمال» للشيخ كشك (ص١١).
(٢) «أمثال ونماذج بشرية من القرآن» للأستاذ/ أحمد بن مُحَمَّد طاحون (٢/ ٣٧٩).

ومن عجيب أمره وحرصه أنه إذا رأى ذا هيئة رثة وثياب دنية وحال زرية نبحه وحمل عليه، كأنه يتصور مشاركته له ومنازعته في قوته، وإذا رأى ذا هيئة حسنة وثياب جميلة ورياسة وضع له خطمه بالأرض، وخضع له، ولم يرفع إليه رأسه.

وفي تشبيه من آثر الدنيا وعاجلها على الله والدار الآخرة- مع وفور علمه - بالكلب في حال لهثه سر بديع، وهو أن هذا الذي حاله ما ذكره الله من انسلاخه من آياته واتباعه هواه إنما كان لشدة لهفه على الدنيا لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخرة فهو شديد اللهف عليها، ولهفه نظير لهف الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه، واللهف واللهث شقيقان وأخوان في اللفظ والمعنى.

فالكلب من أقل الحيوانات صبرًا عن الماء، وإذا عطش أكل الثرى من العطش، وإن كان فيه صبر على الجوع، وعلى كل حال فهو من أشد الحيوانات لهثًا، يلهث قائمًا وقاعدًا وماشيًا وواقفًا، وذلك لشدة حرصه، فحرارة الحرص في كبده توجب له دوام اللهث.

فهكذا مشبهه شدة الحرص وحرارة الشهوة في قلبه توجب له دوام اللهف، فإن حملت عليه الموعظة والنصيحة فهو يلهف، وإن تركته ولم تعظه فهو يلهف.

قال مجاهد: وذلك مثل الذي أوتي الكتاب ولم يعمل به.

وقال ابن عباس: إن تحمل عليه الحكمة لم يحملها، وإن تركته لم يهتد إلى خير، كالكلب إن كان رابضًا لهث وإن طرد لهث.

وقال الحسن: هو المنافق لا يثبت على الحق، دعي أو لم يدع، وعظ أو لم يوعظ، كالكلب يلهث طرد أو ترك.

وقال عطاء: ينبح إن حملت عليه أو لم تحمل عليه.

وقال أبو محمد بن قتيبة: كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال وحال الراحة وحال الصحة وحال المرض والعطش.

فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته، وقال: إن وعظته فهو ضال وإن تركته فهو ضال كالكلب إن طردته لهث وإن تركته على حاله لهث، ونظيره قوله سُبْحَانَهُ: ﴿**وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى**

الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٣].» ا.هـ[١].

قال تَعَالَى: ﴿ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

قال الشوكاني -رَحِمَهُ الله -: «أي ذلك المثل الخسيس مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا من اليهود بعد أن علموا بها وعرفوها فحرَّفوا وبدَّلوا وكتموا صفة رسول الله ﷺ وكذَّبوا بها، ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ ﴾ أي: فاقصص عليهم هذا القصص الذي هو صفة الرجل المنسلخ عن الآيات فإنَّ مثله المذكور كمثل هؤلاء القوم المكذبين من اليهود الذي تقص عليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في ذلك ويعملون فيه أفهامهم فينزجرون عن الضلال ويقبلون على الصواب» ا.هـ[٢].

قال تَعَالَى: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ [الأعراف: ١٧٧].

قال ابن كثير -رَحِمَهُ الله -: «أي: ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب التي لا همّة لها إلَّا في تحصيل أكلة أَوْ شهوة، فمن خرج عن حيّز العلم والهُدى وأقبل عَلَى شهوة نفسه واتبع هواه شبيهًا بالكلب، وبئس المثل مثله»[٣].

وفي الحديث الشريف: «**لَيْسَ لَنَا مَثَلُ السَّوْءِ، الَّذِى يَعُودُ فِى هِبَتِهِ كَالكَلْبِ يَرْجِعُ فِى قَيْئِهِ**»[٤].

فنعوذ بالله من السلب بعد العطاء، ومن الضلالة بعد الهدى. آمين.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

***

(١) «التفسير القيم» للإمام ابنُ القَيِّم (ص ٢٨٠، وما بعدها) باختصار.

(٢) «فتح القدير» (٢/ ٢٦٦).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٢٣).

(٤) رواه البخاري (٣/ ٢١٥)، ومسلم (٥/ ٦٥)، وغيرهما.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ونختم خطبة اليوم بهذه القصّة التي تدلُّ عَلَى خطر العدول عن الاستقامة:

يقول صاحب كتاب «رسالة عاجلة إلى المسلمين» (٤٠ - ٤٦): «هذه قصة شاب كان ملتزمًا[١] بشرع الله حريصًا عَلَى دينه، محافظًا عَلَى يقينه، ثم تهاون في تنفيذ أوامر الله عَزَّ وَجَلَّ، وتجرأ عَلَى حُرمات الله، وعدل عن الاستقامة، فكان ذَلِكَ سببًا لسوء خاتمته - نسأل الله العافية.

يقول الراوي: صَحِبنَا عَلَى ظهر سفينة نجول بها حول البلدان طلبًا للرزق شابٌّ صالح، نقي السَّريرة، طيِّب الخُلق، كنا نرى التُّقى يلوح في قسمات وجهه، والنور والبشر يرتسمان عَلَى محياه، لا تراه إلَّا متوضئًا مصليًا، أَوْ ناصحًا مرشدًا، إن حانت الصلاة أذَّن لنا وصلى بنا، فإن تخلّف أحد عَنْهَا أَوْ تأخّر، عاتبه وأرشده، وكان معنا عَلَى هذه السَّجيّة طيلة أسفارنا، وألقى بنا البحر إلى جزيرة من جزر الهند، فنزلنا إليها وكان مِمَّا تعود عليه البحارة أن يستقروا أيامًا يرتاحون فيها ويستجمّون بعد عناء السفر الطويل، يتجولون في أسواق المدينة ليشتروا أغرب ما يجدون فيها لأهلهم وأبنائهم، ثم يرجعون إلى السفينة في اللَّيْل.

وكان منهم مِمَّن وقع في الضلال يتيمم أماكن اللهو والهوى ومحال الفجور والبغاء، وكان ذَلِكَ الشاب الصالح لا ينزل من السفينة أبدًا، بل يقضي هذه الأيام يُصلح في السفينة ما احتاج منها إلى إصلاح، فيفتل الحبال ويلفّها ويقدم الأخشاب ويشدها، ويشتغل بالذِّكر والقراءة والصلاة وقته ذاك.

وقال الراوي وعينه ترقرق بالدموع وتنحدر عَلَى لحيته: وفي إحدى السفريات

---

(١) الأَوْلى أن يقال: «كان مستقيمًا عَلَى شرع الله».

وبينما كان الشاب منشغلًا بأعماله تلك، إذا بصاحب له في السفينة مِمَّن أتبع نفسه هواها وانشغل بطالح الأمور عن صالحها، وبسافل الأخلاق عن عاليها يهامسه ويقول: صاحبي، لِمَ أنت جالس في السفينة لا تفارقها، لِمَ لا تنزل حَتَّى ترى دنيا غير دنياك، ترى ما يشرح الخاطر ويؤنس النَّفْس، أنا لم أقل لك تعال إلى أماكن البغاء وسخط الله، ولا إلى البارات وغضب الله، هيهات يا صاحبي لكن تعال فانظر إلى ملاعب الثعابين كيف يتلاعب بها ولا يخافها، وإلى راكب الفيل كيف يجعل من خرطومه له سلمًا، ثم يصعد برجليه ويديه حَتَّى يقيمه عَلَى رجل واحدة، وآه لو رأيت من يمشي عَلَى المسامير أَنَّى له الصبر، ومَن يلتقم الجمر كأنه تمر، ومَن يشرب ماء البحر فيسيغه كما يسيغ الماء الفرات، يا أخي انزل وانظر النَّاس، فتحرَكت نفس الشاب شوقًا لِما سمع فقال: وهل في هذه الدُّنْيَا ما تقول؟

قال صاحب السوء: نعم، وفي هذه الجزيرة، فانزل تر ما يسرك، ونزل الشاب الصالح مع صاحبه وتجولا في أسواق المدينة وشوارعها، حَتَّى دخل به إلى طرق صغيرة ضيقة، فانتهى بهما الطريق إلى بيت صغير، فدخل الرجل البيت وطلب منه الشاب أن ينتظره، وقال: سآتيك بعد قليل، ولكن إياك أن تقترب من الدار، جلس الشاب بعيدًا عن الباب يقطع الوقت قراءة وذِكرًا، وفجأة إذا به يسمع قهقهة عالية ليفتح وتخرج منه امرأة قَدْ خلعت جلباب الحياء والمروءة.

أواه، إِنَّهُ الباب نفسه الَّذِي دخل فيه الرجل، وتحرّكت نفس الشاب فدنا من الباب، ويصيخ سمعه لِما يدور في البيت، وإذا به يسمع صيحة أخرى، فنظر من شق الباب ويتبع النظر أختها لتتواصل النظرات منه وتتوالى وهو يرى شيئًا لم يألفه ولم يره من قبل، ثم رجع إلى مكانه، ولَـمَّا خرج صاحبه بادره الشاب مستنكرًا: ما هذا؟ ويحك هذا أمرٌ يغضب الله ولا يرضيه.

فقال الرجل: اسكت يا أعمى يا مغفل هذا أمرٌ لا يعنيك.

قال الراوي: ورجعا إلى السفينة في ساعة متأخرة من اللَّيْل، وبقي الشاب ساهرًا ليلته تلك مشتغل الفكر فيما رآه، قَدْ استحكم سهم الشيطان من قلبه، وامتنكت النظرة فؤاده، فما إن بزغ الفجر وأصبح الصباح حَتَّى كان أول نازل من السفينة، وما في باله إِلَّا أن ينظر

فقط، ولا شيء غير أن ينظر، وذهب إلى ذَلِكَ المكان فما إن نظر نظرته الأولى وأتبعها الثانية حَتَّى فتح الباب وقضى اليوم كله هناك، واليوم الَّذِي بعده كَذَلِكَ، فافتقده رُبَّان السفينة وسأل عنه: أين المؤذِّن؟ أين إمامنا في الصَّلاة؟ أين ذَلِكَ الشاب الصالح؟

فلم يجبه من البحارة أحدٌ، فأمرهم أن يتفرّقوا للبحث عنه، فوصل إلى علم الرُّبان مَن ذهب به إلى ذَلِكَ المكان فأحضره وزجره، وقال له: ألا تتقي الله ألا تخشى عقابه، عجل اذهب فأحضره، فذهب إليه مرة بعد مرة فلم يستطع إحضاره، لأَنَّهُ كان يرفض ويأبى الرجوع معهم، فلم يكن من قائد السفينة إِلَّا أن أمر عدة من الرجال أن يحضروه قسرًا، فسحبوه بالقوة وحملوه إلى السفينة.

قال الراوي: وأبحرت السفينة راجعة إلى البلاد، ومضى البحارة إلى أعمالهم، وأخذ ذَلِكَ الشاب في زاوية من السفينة يبكي ويئن، حَتَّى لتكاد نياط قلبه تتقطع من شدة البكاء، ويقدمون له الطعام فلا يأكل، وبقي عَلَى حاله البائسة هذه بضعة أيام، وفي ليلة من الليالي ازداد بكاؤه ونحيبه، ولم يستطيع أحد من أهل السفينة أن ينام، فجاءه ربان السفينة وقال له: يا هذا اتق الله ماذا أصابك، لقد أقلقنا أنينك فيما نستطيع أن ننام، ويحك ما الَّذِي بدّل حالك؟ ويلك ما الَّذِي دهاك؟ فرد عليه الشام وهو يتحسّر: دعني فإنك لا تدري ما الَّذِي أصابني، فقال الربان: وما الَّذِي أصابك؟ وعند ذَلِكَ كشف الشاب عن عورته وإذا الدود يتساقط من سوأته، فانزعج ربان السفينة وارتعش لِمَا رأى، وقال: أعوذ بالله من هذا، وقام عنه الربان.

وقبيل الفجر قام أهل السفينة عَلَى صيحة مدوية أيقظتهم، وذهبوا إلى مصدرها فوجدوا ذَلِكَ الشاب قَدْ مات، وهو ممسك خشبة السفينة بأسنانه.

استرجع القوم وسألوا الله حُسن الختام، وبقيت قصة هذا الشام عبرة لمن يعتبر». ا. هـ.

اللَّهُمَّ أحسِن عاقبتنا في الأمور كلِّها، وأجرنا من خِزي الدُّنْيَا ومن عذاب الآخرة

آمين... آمين... آمين

وآخر دعوانا أن الحَمْد لله رَبِّ العالمين

الخطبة الرابعة والثمانون:

[جـ] أسباب سوء الخاتمة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد ذكرتُ بفضل الله تَعَالَى فيما سبق ستة أسباب من أسباب سوء الخاتمة أعاذنا الله منها بمنّه وكرمه. واليوم نتحدّث عن بقية الأسباب، والله أسألُ أن يختم لنا بخاتمة السعادة أجمعين.

عباد الله...

والسبب السابع من أسباب سوء الخاتمة: تعلّق القلب بغير الله تَعالى:

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ

وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

قَالَ الحسن في قوله تَعَالَى: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ قال: بعقوبة آجلة أو عاجلة[١].

وقال القاسميّ - رَحِمَهُ الله - في تفسيره هذه الآية: «في هذه الآية وعيد وتشديد؛ لأن كل أحد قلما يخلص منها، فلذا قيل: إنها أشد آية نعت على الناس. كما فصّله في «الكشاف» بقوله: وهذه آية شديدة لا ترى أشدّ منها، كأنها تنعي على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين، واضطراب حبل اليقين، فلينصف أورعُ الناس وأتقاهم من نفسه، هل يجد عنده من التصلب في ذات الله، والثبات على دين الله، ما يستحبّ له دينه على الآباء والأبناء والأخوات والعشائر والمال والمساكن وجميع حظوظ الدنيا، ويتجرّد منها لأجله؟ أم يزوي الله عنه أحقر شيء منها لمصلحته فلا يدري أيَّ طرفيه أطول؟ ويغويه الشيطان عن أجلّ حظ من حظوظ الدين، فلا يبالي كأنما وقع على أنفه ذباب فطيّره» ا.هـ[٢].

فلا يجوز للعبد أن يعلّق قلبه بغير الله عَزَّ وَجَلَّ، لأن ذَلِكَ قَدْ يغلب عَلَى قلبه، ويشغل خاطره فينشغل بذلك عن ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ، وعن لا إله إلَّا الله، وهذه بعض الأمثلة لمن غلب عَلَى قلبه محبّة غير الله، فكان ذَلِكَ من أسباب سُوء الخاتمة.

ويروى أن رجلا علق بشخصٍ وأحبَّهُ فتمنّع عنه، واشتد نفاره، فاشتد كلف البائس إلى أن لزم الفراش، فلم تزل الوسائط تمشي بينهما حتى وعد بأن يعود فأخبر بذلك، ففرح واشتدّ فرحه وسروره وانجلى عنه بعض ما كان يجده، فلما كان في بعض الطريق رجع وقال: والله لا أدخل مداخل الريب ولا أعرض بنفسي لمواقع التهم، فأخبر بذلك البائس المسكين فسقط في يده ورجع إلى أسوأ ما كان به وبدت علامات الموت وأمارته عليه.

قال الراوي: فسمعته يقول وهو في تلك الحال:

---

(١) «تفسير القرطبي» (٨/ / ٣٢).

(٢) «محاسن التأويل» (٥/ ٣٧٩).

سـلام يـا راحـة العلـيل و بـرد ذل الدَّنـف[1] النحـيل

رضـاك أشـهى إلى فـؤادي مـن رحمـة الخالـق الجلـيل

قال: فقلت له: يا فلان اتق الله تعالى فقال: قد كان ما كان، فقمت عنه، فما جاوزت باب داره حتى سمعت صيحة الموت قد قامت عليه، فنعوذ بالله من سوء العاقبة وشؤم الخاتمة[2].

السبب الثامن من أسباب سوء الخاتمة: الكِبْر:

يقول وهب بن مُنَبِّه -رَحِمَهُ الله -: «كان ملك من ملوك الأرض أراد أن يركب إلى الأرض، فدعا بثياب يلبسها فجيء بثياب فلم تعجبه، فقال: ائتوني بثياب كذا وكذا حتى عد أصنافًا مِن الثياب، كل ذلك لا يعجبه حتى جيء بثياب وافقته، فلبسها، ثم قال: جيئوني بدابة كذا، فجيء بها فلم تعجبه، ثم قال: جيئوني بدابة كذا؛ فجيء بها فلم تعجبه، حتى جيء بدابة وافقته فركبها.

فلما ركبها جاء إبليس فنفخ في منخره نفخة فعلاه كبرًا.

قَالَ: وسارَ وسارت الخيول معه، فهو رافع رأسه لا ينظر إلى الناس كبرًا وعظمة، فجاءه رجل ضعيف رث الهيئة فسلم عليه فلم يرد عليه السلام ولم ينظر إليه، فقال له: إنه لي إليك حاجة، فلم يسمع كلامه.

قَالَ: فجاء حتى أخذ بلجام دابته، فقال: أرسل لجام دابتي فقد تعاطيت مني أمرًا لم يتعاطه مني أحد.

قال: إن لي إليك حاجة، قال: أنزل فتلقاني، قال: لا الآن.

قال: فقهره على لجام دابته، فلما رأى أنه قد قهره قال: حاجتك؟ قال: إنها سرٌّ أريد أن أسرها إليك.

قَالَ: فأدنى رأسه إليه فساره، قال: أنا ملك الموت.

---

(١) الدنف: المرض الشديد الملازم لصاحبه، وتطلق كثيرًا عَلَى المريض من الحب والهيام.

(٢) «التذكرة» للقرطبي (١/ ١٠٧، ١٠٨).

قَالَ: فانقطع وتغير لونه واضطرب لسانه، ثم قال: دعني حتى آتى أرضي هذه التي خرجت إليها وأرجع من موكبي ثم تمضي في أمرك.

قَالَ: والله لا ترى أرضك أبدًا، ولا والله لا ترجع من موكبك هذا أبدًا.

قَالَ: دعني حتى أرجع إلى أهلي فأقضي حاجة إن كانت.

قال: لا والله لا ترى أهلك أبدًا.

قَالَ: فقبض روحه مكانه فخر كأنه خشبة.

قَالَ وهب بن منبه: وبلغني أيضًا أنه لقي عبدًا مؤمنًا في تلك الحال فسلم عليه فرد عليه السلام، فقال: إن لي إليك حاجة.

قال: هلم فاذكر حاجتك، قال: إنها سرٌّ فيما بيني وبينك.

قَالَ: فأدنى إليه رأسه ليساره بحاجته، فساره فقال أنا ملك الموت.

قال: مرحبًا وأهلًا، مرحبًا بمن طالت غيبته علي، فوالله ما كان في الأرض غائب أحب إلي أن ألقاه منك.

قال: فقال له ملك الموت: اقض حاجتك التي خرجت لها.

قال: ما لي حاجة أكبر عندي ولا أحب إليَّ من لقاء الله.

قال: فاختر على أي شيء أقبض روحك.

قال وتقدر على ذَٰلِكَ؟ قال: نعم، أُمرت بذلك.

قال: نعم إذًا، فقام وتوضأ ثم ركع وسجد فلما رآه ساجدًا قبض روحه»[١].

السبب التاسع: التسويف بالتوبة والعمل الصالح:

قال الحافظ ابن رجب - رَحِمَهُ الله -: «اعلم أن الإنسان ما دام يأمل الحياة؛ فإنه لا يقطع أمله في الدنيا وقد لا تسمح نفسه بالإقلاع عن لذاتها وشهواتها من المعاصي وغيرها، ويرجيه الشيطان بالتوبة في آخر عمره، فإذا تيقن الموت وأيس من الحياة أفاق من سكرته بشهوات الدُّنْيَا، فندم حينئذ على تفريطه ندامة يكاد يقتل نفسه، وطلبَ

---

(١) «الحلية» (٦/ ٢٠٢).

الرجعة إلى الدُّنْيَا ليتوب ويعمل صالحا فلا يجاب إلى شيء من ذلك فيجتمع عليه سكرة الموت مع حسرة الفوت، وقَدْ حذَّر الله في كتابه عباده من ذلك ليستعدوا للموت قبل نزوله بالتوبة والعمل الصالح قال الله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٤-٥٦].

سُمع بعض المحتضرين عند احتضاره يلطم على وجهه ويقول: ﴿يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾.

و قال آخر عند احتضاره: سخرت بي الدنيا حتى ذهبت أيامي.

و قال آخر عند موته: لا تغرنَّكم الحياة الدنيا كما غرتني.

و قال الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

و قال الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١٠، ١١].

وقال الله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤]. وفسره طائفة من السلف منهم عمر بن عبد العزيز رحمه الله: بأنهم طلبوا التوبة حين حيل بينهم وبينها.

قال الحسن: اتق الله يا ابن آدم لا يجتمع عليك خصلتان سكرة الموت وحسرة الفوت.

و قال ابن السماك: احذر السَّكرة والحَسرة أن يفجأك الموت وأنت على الغرة فلا يصف واصف قدر ما تلقى ولا قدر ما ترى.

مات كثيرٌ من المُصرِّين على المعاصي على أقبح أحوالهم وهم مباشرون للمعاصي فكان ذلك خزيا لهم في الدنيا مع ما صاروا إليه من عذاب الآخرة وكثيرا ما يقع هذا للمصرين على الخمر المدمنين لشربها كما قال القائل:

أتــأمنُ أيهــا الــسَّكرانُ جَهــلا بــأن تَفجــاكَ في الــسُّكر المنــيَّة
فَتَــضْحَى عِــبرةً للــنَّاس طَــرًّا و تَلْقَــى الله مِــن شــرَّ الــبريَّة

سَكَرَ بعض المتقدمين ليلة فعاتبته زوجته على ترك الصلاة، فحلف بطلاقها ثلاثًا لا يصلي ثلاثة أيام، فاشتد عليه فراق زوجته فاستمر على ترك الصلاة مدة الأيام الثلاث، فمات فيها على حاله وهو مصرٌّ على الخمر تارك الصلاة.

كان بعض المصرِّين على الخمر يُكنى أبا عمرو؛ فنام ليلة وهو سكران فرأى في منامه قائلا يقول له:

جَــدَّ بــك الأمــر أبَــا عمــرو و أنــت معكــوفٌ علــى الخمــر
تــشرب صَــهباءَ صَــرَاحيةً سَــالَ بــك الــسَّيل ولا تــدري

فاستيقظ منزعجًا وأخبر مَن عنده بما رأى، ثُمَّ غلبه سكره فنام فلما كان وقت الصبح مات فجأة.

غاية أمنية الموتى في قبورهم حياة ساعة يستدركون فيها ما فاتهم من توبة وعمل صالح، وأهل الدنيا يفرطون في حياتهم فتذهب أعمارهم في الغفلة ضياعا ومنهم من يقطعها بالمعاصي.

قال بعض السلف: أصبحتم في أمنية ناس كثير - يعني أن الموتى كلهم يتمنون حياة ساعة ليتوبوا فيها ويجتهدوا في الطاعة - ولا سبيل لهم إلى ذلك» ا.هـ[1].

عباد الله...

هذه بعض أسباب سُوء الخاتمة، فاجتنبوها لعلكم تفلحون، وفَّقني الله تَعَالَى وإياكم لِما يُحبّ ويرضى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

***

(١) «لطائف المعارف» (٣٥٣ - ٣٥٥) باختصار، وانظر «سكب العبرات» (١/ ١١١ - ١١٣).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ونختم خطبة اليوم بقاعدة جليلة ذكرها الإمام ابنُ القَيِّم -رَحِمَهُ الله - في كتابه الماتع «الفوائد».

قال -رَحِمَهُ الله - تحت عنوان: أسباب التوفيق والخذلان: «قَدْ فكَّرتُ في هذا الأمر فإذا أصله أنَّ تعلم أن النِّعم كلها مِن الله وحده، نعمَ الطاعات ونِعَمَ اللذاتِ، فترغبَ إليه أن يُلهمك ذكرها ويوزعك شُكرها، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

وقال: ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

وقال: ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤].

وكما أنَّ تلك النِّعم منه ومِن مجرّد فضلِهِ، فذِكرُها وشكرُها لا يُنالُ إلَّا بتوفيقه.

والذُّنوبُ من خِذلانه وتخلّيه عن عبده وتخليتِه بينه وبين نفسه، وإن لم يكشف ذلك عن عبده فلا سبيلَ له إلى كشفه عن نفسهِ، فإذا هو مضطرٌّ إلى التضرُّع والابتهال إليه أن يدفع عنه أسبابها حتَّى لا تصدر منه، وإذا وقعت بحكم المقادير ومقتضى البشريّة فهو مضطرٌّ إلى التضرُّع والدُّعاء أن يدفع عنه موجباتها وعقوباتها، فلا ينفكُّ العبد عن ضرورته إلى هذه الأصول الثلاثة، ولا فلاح له إلا بها: الشُّكر، وطلب العافية، والتوبة النَّصوح.

وممَّا ينبغي أن يُعلم أنَّ أسباب الخِذلان مِن بقاء النَّفْس على ما خُلِقت عليه في الأصل وإهمالها وتخليتها، فأسباب الخذلان منها وفيها، وأسباب التوفيق مَن جعل الله سُبْحَانَهُ لها قابلة للنعمة. فأسباب التوفيق منه ومن فضله، وهو الخالق لهذه وهذه،كما خلق أجزاء الأرض، هذه قابلة للنبات وهذه غير قابلة له، وخلق الشجر؛ هذه تقبل الثمرة وهذه لا تقبلها، وخلق النَّحلة قابلة لأن يخرج منه بطونها شراب مختلف ألوانه،

والزنبور غير قابل لذلك. وخلقَ الأرواح الطَّيبة قابلة لذكره وشكره وحجته وإجلاله وتعظيمه وتوحيده ونصيحة عباده، وخلق الأرواح الخبيثة غير قابلة لذلك بل لضده، وهو الحكيم العليم» ا.هـ..

فيا عباد الله...

جدّوا، وللموت استعدّوا، واعلموا أن:

العُمر ينقص والذنوب تزيد ... وتُقال عثرات الفتى فيعودُ

هل يستطيع جحود ذنب واحد ... رجلٌ جوارحه عليه شهودُ

والمرء يسأل عن سنيه فيشتهي ... تقليلها وعن الممات يحيدُ

اللَّهُمَّ وفِّقنا لأحسن الأعمال، لا يوفّق لأحسنها إلَّا أنت
واصرف عنَّا سَيِّئها، لا يَصرف عنَّا سيئها إلَّا أنت.

الخطبة الخامسة والثمانون:

علامات سوء الخاتمة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فهناك علامات تدلُّ عَلَى سوء الخاتمة - أعاذنا الله وإيَّاكم منها -:

منها: علامات تظهر قبل الموت.

ومنها: علامات تظهر عند الغُسل.

ومنها: وعلامات تظهر عند الدفن.

ومنها: وعلامات تظهر بعد الدفن.

ولا يُقطع لمن ظهرت عليه علامة من هَذِهِ العلامات بدخول النار، اللَّهُمَّ إِلَّا إذا

تأكدنا أَنَّهُ مات عَلَى الكفر، كمن ينطق بالكفر قبل موته[١].

نسأل الله السلامة من كل إثم، والغنيمة من كُلِّ بِرّ، والفوز بالجَنَّة، والنَّجاة من النَّار.

عباد الله...

أما العلامات التي تدلُّ عَلَى سوء الخاتمة عند الموت:

فبعضهم يقع عند اشتداد المرض في التسخّط والاعتراض عَلَى قضاء الله، والكفر بأنَّ لا إله إلَّا الله، أو يصرح بأنه لا يستطيع أن ينطَق بكلمة التوحيد، وأَنَّهُ يحال بينه وبينها - والعياذ بالله - أو يتكلم بكلام يغضب الله عَزَّ وَجَلَّ.

قَالَ ابن الجوزي: سمعتُ شخصًا يقول وقَدْ اشتدّ به الألم: «ربي يظلمني!» وهذه حالة إن لم ينعم فيها بالتوفيق للثبات وإلا فالهلاك.

وهذا ما كان يقلق سفيان الثوريّ فإِنَّهُ كان يقول: أخاف أن يشتد عليَّ الأمر، فأسال التخفيف فلا أُجاب فأُفتتن.

قَالَ ابنُ القَيِّم - رَحِمَهُ الله -: «والحكايات فِي هَذِهِ كثيرة جدًّا، فمن كان مشغولًا بالله وبذكره ومحبَّته فِي حال حياته، وجد ذَلِكَ أحوج ما هو إليه عند خروج روحه إلى اله، ومَن كان مشغولًا بغيره فِي حال حياته وصحته، فيعسر عليه اشتغاله بالله وحضوره معه عند الموت، وما لم يدركه عناية ربّه، ولأجل هذا كان جديرًا بالعاقل أن يلزم قلبه ولسانه ذكر الله حيثما كان، لأجل تلك اللحظة التي إن فاتت شقي شقاوة الأبد، فنسأل الله أن يُعيننا عَلَى ذكره وشكره وحُسن عبادته» ا.هـ[٢].

أمَّا علامات سوء الخاتمة عند التغسيل:

فيقول صاحب كتاب «تذكرة الإخوان بخاتمة الإنسان»: «حدثني أحدهم فقال: غسَّلت رجلًا وكان لونه مصفرًّا، وفي أثناء التغسيل أخذ لونه يتغيّر إلى السواد من رأسه

---

(١) لقوله تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء: ١١٦].

(٢) «طريق الهجرتين» (٣٠٨، ٣٠٩).

إلى وسطه، فلما انتهيت من التغسيل فَإِذَا به قَدْ أصبح كالفحمة السوداء.

وحدَّثني مغسّل آخر فقال: دخلت ذات مرة عَلَى بعض الإخوان وهم يغسلون ميِّتًا فرأيت وجهه مسودًّا كأنه قرص محترق، وجسمه أصفر، ومنظره مخيفًا، ثم جاء بعض أهله لينظروا إليه فلما رأوه عَلَى تلك الصورة فروا هاربين خوفًا منه.

وأما علامات سوء الخاتمة عند الدفن:

قَالَ في «تذكرة الإخوان»: وأما ما ظهر عند الإنزال في القبر والعياذ بالله، فحدَّثني أحد المغسّلين فقال: غسّلت عددًا كبيرًا من الموتى لسنين طويلة، وأذكر أني وجهت أكثر من مائة ميت كلهم صُرِفت وُجُوهُهم عن القبلة.

وحدَّثني مغسّل آخر قَالَ: عندما وضعت أحد الموتى في قبره ووجهته نحو القِبلة، رأيت وجهه قَدْ تحول إلى أسفل، ودخل أنفه في التراب، ثم وجهته إلى القِبلة ووضعت تحت رأسه ترابًا، ولكنه عاد وأدخل أنفه في التراب، ولم أزل معه حَتَّى تكرر الأمر خمس مراتٍ، فلما يئست منه تركته وأغلقت القبر.

وقَالَ القرطبيُّ - رَحِمَهُ الله -: وأخبرني صاحبنا الفقيه العالم أبو عبد الله محمد بن أحمد القصري - رَحِمَهُ الله -: أَنَّهُ توفي بعض الولاة بقسطنطينة فحفر له، فلما فرغوا من الحفر وأرادوا أن يدخلوا الميِّت القبر إذا بحية سوداء داخل القبر فهابوا أن يدخلوه فيه، فحفروا له قبرًا آخرا فلما أرادوا أن يدخلوه إذ بتلك الحية فيه، فحفروا له قبرًا آخر فإذا بتلك الحيّة، فلم يزالوا يحفرون له نحوًا من ثلاثين قبرًا وإذا بتلك الحيّة تتعرض لهم في القبر الذي يريدون أن يدفنوه فيه، فلما أعياهم ذلك سألوا ما يصنعون؟ فقيل لهم: ادفنوه معها، نسأل الله السلامة والستر في الدنيا والآخرة[(١)].

عباد الله...

وأمَّا علامات سوء الخاتمة بعد الدَّفن:

فمن ذَلِكَ قصة الرجل الَّذِي نبذه القبره في عهد النبوّة:

---

(١) «التذكرة» (١/ ١٧٠).

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: «كَانَ مِنَّا رَجُلٌ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ قَدْ قَرَأَ البَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ وَكَانَ يَكْتُبُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَانْطَلَقَ هَارِبًا حَتَّى لَحِقَ بِأَهْلِ الكِتَابِ، قَالَ: فَرَفَعُوهُ، قَالُوا: هَذَا قَدْ كَانَ يَكْتُبُ لِمُحَمَّدٍ ﷺ.

فَأُعْجِبُوا بِهِ فَمَا لَبِثَ أَنْ قَصَمَ اللهُ عُنُقَهُ فِيهِمْ، فَحَفَرُوا لَهُ فَوَارَوْهُ فَأَصْبَحَتِ الأَرْضُ قَدْ نَبَذَتْهُ عَلَى وَجْهِهَا، ثُمَّ عَادُوا فَحَفَرُوا لَهُ فَوَارَوْهُ فَأَصْبَحَتِ الأَرْضُ قَدْ نَبَذَتْهُ عَلَى وَجْهِهَا، ثُمَّ عَادُوا فَحَفَرُوا لَهُ فَوَارَوْهُ فَأَصْبَحَتِ الأَرْضُ قَدْ نَبَذَتْهُ عَلَى وَجْهِهَا فَتَرَكُوهُ مَنْبُوذًا»[١].

ومن ذَلِكَ ما ذكره ابنُ القَيِّم - رَحِمَهُ الله - قَالَ: «حدثني صاحبنا أبو عبد الله محمد بن الرزيز الحراني أَنَّهُ خرج من داره بعد العصر بآمد إلى بستان، قَالَ: فلما كان قبل غروب الشمس توسطت القبور فإذا بقبر منها وهو جمرة نار مثل كوز الزجاج والميت في وسطه، فجعلت أمسح عيني وأقول: أنائمٌ أنا أم يقظان؟ ثم التفت إلى سور المدينة وقلت: والله ما أنا بنائم ثم ذهبت إلى أهلي وأنا مدهوش فأتوني بطعام فلم أستطع أن آكل، ثم دخلت البلد فسألت عن صاحب القبر فإذا به مكّاس قد توفي ذلك اليوم»[٢][٣].

عباد الله...

ويُلاحظ أن هَذِهِ العلامات تظهر عَلَى قوم انتسبوا للإسلام ظاهرًا، أمَّا الكفار فقد قطع الإسلامُ بدخولهم النار، فلا نراقب أحوالهم عند الموت لقيام الدليل بسوء الخاتمة، ظهر ذَلِكَ عليهم عند الموت أم لم يظهر. نسأل الله العفو والعافية.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

***

(١) رواه البخاري (٦/ ٦٢٤)، وأحمد (٣/ ٢٢٢).

(٢) «الروح» (٩٨).

(٣) انظر «سكب العبرات» (١/ ١١٩، ١٢٠).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وبالجملة: فسوء المعتقد والإصرار عَلَى الذُّنوب، وسوء السيرة والسريرة، سبب كُلِّ ما تقدَّم، ونختم خطبة اليوم بذكر قصتين زيادة عَلَى ما سبق:

القصة الأولى:

حدثني رجل مِن أهل الشام يقال له البراء قال: «شهدت فتى يموت، فجعل يظهر بجسده مثل ضرب السِّياط، فيتوجَّع ويقول: دعوني أقل، هو ذا أقول. ادعوا لي أبي.

فإذا دُعي أبوه يقول: واسوأتاه. ثم يكفّ. يمكث هكذا يومين أو ثلاثة.

فلما انقضى أجلُه قال: هو ذا أقول، ادعوا لي أبي. فلما دعوه قال: يا أبتاه، اعلم أني كنت أخالفك إلى امرأتك[١] ثم مات»[٢].

القصة الثانية:

عن داود بن بكر: أنَّ رجلا مرض، فَلَمَّا حضرته الوفاة قال: هذه الملائكة يضربون وجهه ودبره. يقول ذلك لأهله.

فقلت لداود: ما هو؟

قال: كان رجلا يقول بالتكذيب بالقَدر[٣].

عباد الله...

مِن أظرف الأشياء إفاقة المحتضر عند موته، فإنه ينتبه انتباهًا لا يُوصف، ويقلق قلقصا لا يُحدّ، ويتلهّف عَلَى زمانه الماضي، ويودّ لو تُرِكَ كي يتدارك ما فاته ويصدُق في

---

(١) كان يزني بزوجة أبيه.

(٢) «كتاب المحتضرين» لابن أبي الدُّنْيَا (٢٢٩).

(٣) نفس المرجع (٣٥١).

توبته عَلَى مقدار يقينه بالموت، ويكاد يقتل نفسه قبل موتها بالأسف.

ولو وُجِدت ذرّة من تلك الأحوال في أوان العافية، حصل كل مقصود من العمل بالتقوى.

فالعاقل مَن مَثّل تلك الساعة، وعمل بمقتضى ذَلِكَ.

فإن لم يتهيأ تصوير ذَلِكَ عَلَى حقيقته؛ تخايله عَلَى قدر يقظته، فإنه يكفّ كفّ الهوى ويعبث عَلَى الجدّ.

فأما مَن كانت تلك الساعة نصب عينيه، كان كالأسير لها.

«كان حبيب العجمي إذا أصبح قال لامرأته: إذا متّ اليوم ففلان يُغسلني، وفلان يحملني.

وقال معروف لرجل: صلِّ بنا الظهر، فقال: إن صلّيت لكم الظهر لم أصلِّ بكم العصر، فقال: وكأنّك تؤمّل أن تعيش إلى العصر؟! نعوذ بالله من طول الأمل.

وذكر رجل رجلًا بين يديه بغيبة، فجعل معروف يقول له: اذكر القطن إذا وضعوه عَلَى عينيك»[١].

فأي عيش في الدُّنْيَا يطيب لمن أيامه تُقرّبه إلى الهلاك وصعود عمره نزول؟!

أليس في الصحيح: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - رَضِيَ الله عَنْهُمَا - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»[٢].

عباد الله...

إن هناك فرقًا واضحًا بين احتضار الأبرار، واحتضار الفجّار.

قال تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا المَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا

---

(١) «صيد الخاطر» (٢٦٣، ٢٦٤).

(٢) رواه البخاري ومسلم.

عَذَابَ الـحَرِيقِ * ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [الأنفال: ٥٠، ٥١].

وقال تَعَالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الـجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢].

وسيأتي بعد ذَلِكَ مزيد بيان - إن شاء الله تَعَالى - فإلى اللِّقاء.

الخطبة السادسة والثمانون:

علامات حُسن الخاتمة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فهناك علامات تسبق الموت، وتظهر خلاله وبعده، تدلّ عَلَى حُسن الخاتمة[١].

قَالَ الشيخ الألباني - رَحِمَهُ الله - في كتابه «أحكام الجنائز»: «إن الشارع الحكيم قَدْ جعل علامات بيِّنات يُستدلُّ بها عَلَى حُسن الخاتمة، كتبها الله تَعَالَى لنا بفضله ومنّه، فأيّما امرئ مات بأحداها كانت بشارة له، ويا لها من بشارة». ا.هـ.

---

(١) لا يعني ظهور هذه العلامات القطع للميت بدخول الجَنَّة، واعتقاد أهل السُّنة: «نرجو للمحسن ونخاف عَلَى المسيء». فلا نقطع لأحدٍ بدخول الجَنَّة إِلَّا بنصٍ من القرآن والسنة.

ثم شَرَع - رَحِمَهُ الله - في ذكر العلامات، ونحن نذكر ما قاله مختصرًا، مَعَ زيادات وإضافات، والله المستعان:

العلامات الأولى: النطق بالشهادة عند الموت:

١ - «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلاَمِهِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ دَخَلَ الجَنَّةَ»(١).

٢ - عن طَلْحَةَ بن عبيد الله رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: «رَأَى عُمَرُ طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللَّهِ ثَقِيلاً فَقَالَ: مَا لَكَ يَا أَبَا فُلاَنٍ؟ لَعَلَّكَ سَاءَتْكَ إِمْرَةُ ابْنِ عَمِّكَ يَا أَبَا فُلاَنٍ؟ قَالَ: لاَ، إِلاَّ أَنِّي سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدِيثاً مَا مَنَعَنِي أَنْ أَسْأَلَهُ عَنْهُ إِلاَّ القُدْرَةُ عَلَيْهِ حَتَّى مَاتَ، سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لاَ يَقُولُهَا عَبْدٌ عِنْدَ مَوْتِهِ إِلاَّ أَشْرَقَ لَهَا لَوْنُهُ وَنَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَتَهُ». قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ: إِنِّي لأَعْلَمُ مَا هِيَ. قَالَ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: تَعْلَمُ كَلِمَةً أَعْظَمَ مِنْ كَلِمَةٍ أَمَرَ بِهَا عَمَّهُ عِنْدَ المَوْتِ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ. قَالَ طَلْحَةُ: صَدَقْتَ هِيَ وَاللَّهِ هِيَ»(٢).

العلامة الثانية: الموت برشح الجبين:

لحديث بُريدة بن الخطيب رَضِيَ الله عَنْهُ: أَنَّهُ كَانَ بِخُرَاسَانَ فَعَادَ أَخاً لَهُ وَهُوَ مَرِيضٌ فَوَجَدَهُ بِالمَوْتِ وَإِذَا هُوَ يَعْرَقُ جَبِينُهُ فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَوْتُ المُؤْمِنِ بِعَرَقِ الجَبِينِ»(٣).

قَالَ الإمام القرطبيُّ - رَحِمَهُ الله -: قال عبد الله: «إن المؤمن يبقى عليه خطايا من خطاياه فيجازف بها عند الموت، أي: يجازي، فيعرق لذلك جبينه»(٤).

وقال بعض العلماء: إنَّما يعرق جبينه حياءً مِن ربّه لما اقترف مِن مخالفته؛ لأن ما سفل منه قد مات وإنما بقيت قوى الحياة وحركاتها فيما علا، والحياء في العينين وذلك وقت الحياء، والكافر في عمى عن هذا كله، والموحّد المعذّب في شغلٍ عن هذا بالعذاب الذي قد حلّ به، وإنما العرق الذي يظهر لمن حلّت به الرحمة، فإنه ليس من وليٍ ولا صديق

---

(١) حسن: رواه أبو داود (٣١٠٠)، وغيره.

(٢) صحيح: رواه أحمد (١٣٨٤)، والحاكم (١/ ٣٥٠، ٣٥١).

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي والنسائي وغيرهما.

(٤) صحيح موقوف.

ولا بر إلا وهو مستحي من ربّه مع البُشرى والتحف والكرامات» ا.هـ[(١)].

العلامة الثالثة: الموت ليلة الجمعة أو نهارها:

لقوله ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَوْ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ إِلاَّ وَقَاهُ اللَّهُ فِتْنَةَ الْقَبْرِ»[(٢)].

العلامة الرابعة: الاستشهاد في ساحة القتال:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١].

عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: سَأَلْنَا عَبْدَ اللَّهِ - يعني ابن مسعود - عَنْ هَذِهِ الآيَةِ ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ قَالَ: أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَلِكَ فَقَالَ: «أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلاَعَةً فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا قَالُوا: يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى. فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا»[(٣)].

وقال رَسُول الله ﷺ: «لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ: يَغْفِرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دُفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ، وَيُرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَيُحَلَّى حُلَّةَ الإِيمَانِ، وَيُزَوَّجُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ إِنْسَانًا مِنْ أَقَارِبِهِ»[(٤)].

عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا بَالُ الْمُؤْمِنِينَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ إِلاَّ الشَّهِيدَ؟ قَالَ: «كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً»[(٥)].

---

(١) «التذكرة» (٢٣، ٢٤).
(٢) حسن أو صحيح: أخرجه أحمد والترمذي، وانظر «أحكام الجنائز» (ص ٥٠).
(٣) أخرجه مسلم (١٨٨٧).
(٤) صحيح: رواه الترمذي (٧/ ١٦١)، وابن ماجه (٢٧٩٩).
(٥) صحيح: رواه النسائي (٤/ ٩٩).

العلامة الخامسة: الموت غازيًا في سبيل الله:

لقوله ﷺ: «مَا تَعُدُّونَ الشَّهِيدَ فِيكُمْ؟». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، قَالَ: «إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذًا لَقَلِيلٌ». قَالُوا: فَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ وَمَنْ مَاتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ وَمَنْ مَاتَ فِي الطَّاعُونِ فَهُوَ شَهِيدٌ وَمَنْ مَاتَ فِي الْبَطْنِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَالغَرِيقُ شَهِيدٌ» (١).

وفي «الباب» عن عمر عند الحاكم والبيهقي: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «وَمَنْ فَصَلَ (أي خرج) فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمَاتَ أَوْ قُتِلَ فَهُوَ شَهِيدٌ، أَوْ وَقَصَهُ فَرَسُهُ أَوْ بَعِيرُهُ أَوْ لَدَغَتْهُ هَامَّةٌ أَوْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ بِأَيِّ حَتْفٍ شَاءَ اللَّهُ، فَإِنَّهُ شَهِيدٌ وَلَهُ الجَنَّةُ» (٢).

العلامة السادسة: الموت بالطاعون:

عَنْ حَفْصَةَ بِنْتِ سِيرِينَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ الله عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الطَّاعُونُ شَهَادَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ» (٣).

عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ الله عَنْهَا - زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الطَّاعُونِ، فَأَخْبَرَنِي: «أَنَّهُ عَذَابٌ يَبْعَثُهُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَأَنَّ اللَّهَ جَعَلَهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، لَيْسَ مِنْ أَحَدٍ يَقَعُ الطَّاعُونُ فَيَمْكُثُ فِي بَلَدِهِ صَابِرًا مُحْتَسِبًا، يَعْلَمُ أَنَّهُ لاَ يُصِيبُهُ إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ، إِلاَّ كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ شَهِيدٍ» (٤).

وعَنْ عُتْبَةَ بْنِ عَبْدٍ السُّلَمِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَأْتِي الشُّهَدَاءُ وَالْمُتَوَفَّوْنَ بِالطَّاعُونِ فَيَقُولُ أَصْحَابُ الطَّاعُونِ: نَحْنُ شُهَدَاءُ. فَيُقَالُ: انْظُرُوا فَإِنْ كَانَتْ جِرَاحُهُمْ كَجِرَاحِ الشُّهَدَاءِ تَسِيلُ دَماً رِيحَ الْمِسْكِ فَهُمْ شُهَدَاءُ، فَيَجِدُونَهُمْ كَذَلِكَ» (٥).

العلامة السابعة: الموت بداء البطن:

عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ يَسَارٍ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا وَسُلَيْمَانُ بْنُ صُرَدٍ وَخَالِدُ بْنُ عُرْفُطَةَ

---

(١) أخرجه مسلم (١٩١٥)، وأحمد (٢/ ٣١٠).

(٢) حسن: رواه أبو داود (٢٤٨٢)، وغيره.

(٣) رواه البخاري (١٠/ ١٩٠) وغيره.

(٤) رواه البخاري (٢٠٢٨ - ٢٠٣) وغيره.

(٥) رواه أحمد (٤/ ١٨٥) وغيره، وحسّنه الحافظ في «الفتح» (١٠/ ٢٠٥).

فَذَكَرُوا أَنَّ رَجُلاً تُوُفِّيَ مَاتَ بِبَطْنِهِ فَإِذَا هُمَا يَشْتَهِيَانِ أَنْ يَكُونَا شُهَدَاءَ جَنَازَتِهِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلآخَرِ: أَلَمْ يَقُلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يَقْتُلْهُ بَطْنُهُ فَلَنْ يُعَذَّبَ فِي قَبْرِهِ». فَقَالَ الآخَرُ: بَلَى. وفي رواية: «صدقت»[1].

قَالَ المناوي: «مَنْ يَقْتُلْهُ بَطْنُهُ» أي: مات بمرض بطنه كالاستسقاء أو الإسهال أو مَن حفظ البطن من الحرام والشبه. «فَلَنْ يُعَذَّبَ فِي قَبْرِهِ» وإذا لم يعذب فيه لم يعذب في غيره. ا.هـ.

العلامة الثامنة والتاسعة: الموت بالغرق والهدم:

لقوله ﷺ: «الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ: المَطْعُونُ، وَالمَبْطُونُ، وَالغَرِيقُ، وَصَاحِبُ الهَدْمِ، وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»[2].

العلامة العاشرة: موت المرأة في نفاسها بسبب ولدها:

عَنْ رَاشِدِ بْنِ حُبَيْشٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ يَعُودُهُ فِي مَرَضِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَعْلَمُونَ مَنِ الشَّهِيدُ مِنْ أُمَّتِي؟». فَأَرَمَّ القَوْمُ فَقَالَ عُبَادَةُ: سَانِدُونِي. فَأَسْنَدُوهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ الصَّابِرُ المُحْتَسِبُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذاً لَقَلِيلٌ، القَتْلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ شَهَادَةٌ، وَالطَّاعُونُ شَهَادَةٌ، وَالغَرَقُ شَهَادَةٌ، وَالبَطْنُ شَهَادَةٌ، وَالنُّفَسَاءُ يَجُرُّهَا وَلَدُهَا بِسُرَرِهِ إِلَى الجَنَّةِ»[3].

العلامة الحادية عشر، والثانية عشر: الموت بالحرق وذات الجنب:

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الشُّهَدَاءُ سَبْعَةٌ سِوَى القَتْلِ فِي سَبِيلِ اللهِ: المَطْعُونُ شَهِيدٌ، وَالغَرِقُ شَهِيدٌ، وَصَاحِبُ ذَاتِ الجَنْبِ شَهِيدٌ، وَالمَبْطُونُ شَهِيدٌ، وَالحَرِقُ شَهِيدٌ، وَالَّذِي يَمُوتُ تَحْتَ الهَدْمِ شَهِيدٌ، وَالمَرْأَةُ تَمُوتُ بِجُمْعٍ شَهِيدٌ»[4].

---

(١) صحيح: رواه النسائي (٤/ ٩٨)، وأحمد (٤/ ٢٦٢).

(٢) رواه البخاري (٦/ ٥٠)، ومسلم (١٩١٤).

(٣) صحيح: رواه أحمد (٤/ ٢٠١)، وغيره.

(٤) صحيح: رواه مالك (١/ ٢٣٣)، وأبو داود (٣٠٩٥)، وصححه الألباني.

العلامة الثالثة عشر: الموت بداء السُّل:

لقوله ﷺ: «مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَالبَطْنُ شَهِيدٌ، وَالْمُتَرَدِّي شَهِيدٌ، وَالنُّفَسَاءُ شَهِيدٌ، وَالغَرِيقُ شَهِيدٌ، وَالسُّلُ شَهِيدٌ، وَالحَرِيقُ شَهِيدٌ»(١).

العلامة الرابعة عشر: الموت في سبيل الدفاع عن المال المراد غصبه:

وفيه أحاديث:

١- «مَن قُتل دون ماله -وفي رواية- مَن أريد ماله بغير حق فقاتل فَقُتل فهو شهيد»(٢).

٢- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَخْذَ مَالِي؟ قَالَ: «فَلاَ تُعْطِهِ مَالَكَ». قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي؟ قَالَ: «قَاتِلْهُ». قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي؟ قَالَ: «فَأَنْتَ شَهِيدٌ». قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُهُ؟ قَالَ: «هُوَ فِي النَّارِ»(٣).

٣- عن مُخَارِقٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ يُحَدِّثُ بِهَذَا الحَدِيثِ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: الرَّجُلُ يَأْتِينِي فَيُرِيدُ مَالِي. قَالَ: «ذَكِّرْهُ بِاللهِ». قَالَ: فَإِنْ لَمْ يَذَّكَّرْ؟ قَالَ: «فَاسْتَعِنْ عَلَيْهِ مَنْ حَوْلَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ». قَالَ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ حَوْلِي أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؟ قَالَ: «فَاسْتَعِنْ عَلَيْهِ بِالسُّلْطَانِ». قَالَ: فَإِنْ نَأَى السُّلْطَانُ عَنِّي؟ قَالَ: «قَاتِلْ دُونَ مَالِكَ حَتَّى تَكُونَ مِنْ شُهَدَاءِ الآخِرَةِ أَوْ تَمْنَعَ مَالَكَ»(٤).

العلامة الخامسة عشر والسادسة عشر والسابعة عشر: الموت في الدفاع عن الدين والنفس والأهل:

لقوله ﷺ: «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»(٥).

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير»، وحسّنه المنذري.

(٢) رواه البخاري (٥/ ١٤٧)، والنسائي (٧/ ١١٦).

(٣) رواه مسلم (١٤٠)، وغيره.

(٤) صحيح: رواه النسائي (٧/ ١١٣، ١١٤)، وغيره.

(٥) صحيح: رواه أبو داود (٤٧٤٦)، وغيره.

قال المناويُّ -رَحِمَهُ الله -: (مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ) أي: عنده، و(دُون) في الأصل ظرف مكان بمعنى أسفل وتحت، استعملت هنا بمعنى (لأجل التي) للسببية توسّعًا مجازًا؛ لأن الذي يقاتل على ماله كأنه يجعله خلفه أو تحته ثم يقاتل عليه، ذكره جَمْع.

(فَهُوَ شَهِيدٌ) أي: في حكم الآخرة لا الدُّنْيَا، أي: له ثواب كثواب شهيد مع ما بين الثوابين من التفاوت، وذلك لأنه محق في القتال ومظلوم بطلبه منه.

(وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ) أي: في الدفع عن نفسه.

(وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ) أي في نصرة دين الله والذب عنه وفي قتال المرتدين.

(وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ) أي: في الدَّفع عن بضع حليلته أو قريبته، (فَهُوَ شَهِيدٌ) أي في حكم الآخرة لا الدُّنْيَا لأن المؤمن بإسلامه محترم ذاتًا ودمًا وأهلًا ومالًا، فإذا أريد شيء منه من ذلك جاز له الدفع عنه أو وجب على الخلاف المعروف، لكن إنما يدفعه دفع الصائل فلا يصعد إلى رتبة وهو يرى ما دونه كافيًا[١]، كما هو مقرر في الفروع فإذا أدى قتاله لقتله فهو هدر» ا.هـ[٢].

وقال رَسُول الله ﷺ: «مَنْ قُتُل دُونَ مَظْلَمَتِهِ فَهُو شَهِيد»[٣].

قال المناوي -رَحِمَهُ الله -: (مَنْ قُتُل دُونَ مَظْلَمَتِهِ) قال الطيبيِّ: يعني قدامها، كقوله: «تريك النَّدى ما دونها وهي دونه».

(فَهُو شَهيد) قال ابن جرير: هذا أبين بيان وأوضح برهان على الإذن لمن أريد ماله ظلمًا في قتال ظالمه والحثّ عليه كائنًا مَن كان؛ لأن مقام الشهادة عظيم، فقتال اللصوص والقطّاع مطلوب، فتركه مِن ترك النَّهي عن المنكر، ولا منكر أعظم مِن قتل المؤمن وأخذ ماله ظلمًا» ا.هـ[٤].

---

(١) وهذا تفصيل مهم جدًّا، فلا يلجأ الإنسان إلى الضرب بالعصا مثلًا، إذا كانت اليد تُغني، وهكذا.

(٢) «فيض القدير» (٦/ ٢٥٣).

(٣) **صحيح**: رواه النسائي (٧/ ١١٧)، وصححه السيوطي والشيخ شاكر.

(٤) «فيض القدير» (٦/ ٢٥٣).

العلامة الثامنة عشر، والتاسعة عشر، والعشرون: من صُرع عن دابته في سبيل الله، ومن وقصه بعيره، ومن لدغته هامة وهو في سبيل الله:

١- عَنْ عُقْبَةَ بن عَامِرٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ صُرِعَ عَنْ دَابَّتِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»(١).

٢- عن أبي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ فَصَلَ - أي خرج - فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمَاتَ أَوْ قُتِلَ فَهُوَ شَهِيدٌ، أَوْ وَقَصَهُ فَرَسُهُ أَوْ بَعِيرُهُ أَوْ لَدَغَتْهُ هَامَّةٌ أَوْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ أَوْ بِأَيِّ حَتْفٍ شَاءَ اللَّهُ. فَإِنَّهُ شَهِيدٌ وَإِنَّ لَهُ الْجَنَّةَ»(٢).

قَالَ المناوي - رَحِمَهُ الله -: «قوله ﷺ: (مَنْ صُرِعَ عَنْ دَابَّتِهِ) في سبيل الله فمات (فَهُوَ شَهِيدٌ) أي: من شهداء المعركة إن كان سقوطه بسبب القتال، وعلى ذلك ترجم البخاري (باب فضل من صرع في سبيل الله فمات فهو منهم) أي: من المجاهدين، فلمّا كان الحديث ليس على شرطه أشار إليه بالترجمة وفي الباب ما رواه أبو داود، والحاكم، والطبراني عن أبي مالك الأشعري مرفوعًا.

قوله ﷺ: (أَوْ وَقَصَهُ فَرَسُهُ أَوْ بَعِيرُهُ أَوْ لَدَغَتْهُ هَامَّةٌ أَوْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ أَوْ بِأَيِّ حَتْفٍ شَاءَ اللَّهُ. فَإِنَّهُ شَهِيدٌ) والصرع كما في «القاموس» وغيره: الطَّرح على الأرض، وعلّة معروفة تمنع الأعضاء النفيسة عن أفعالها منعًا غير تام.

والمراد بالحديث: السقوط عن الدابة حال قتال الكفار بسببه على أي وجه كان؛ إما بطرح الدابة له أو بعروض تلك العلة في تلك الحالة عروضًا ناشئًا عن القتال كأن أورثه شدّة الانفعال(٣).

العلامة الحادية والعشرون: المائد في البحر:

فيموت بسبب دوار البحر فله أجر شهيد.

عَنْ أُمِّ حَرَامٍ رَضِيَ الله عَنْهَا قَالَتْ: ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غُزَاةَ الْبَحْرِ، فَقَالَ: «لِلْمَائِدِ

---

(١) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير»، وانظر «صحيح الجامع» (٦٣٣٦).

(٢) حسن: رواه أبو داود والحاكم، وحسنه ابن حجر والألباني.

(٣) «فيض القدير» (٦/ ١٦٣).

أَجْرُ شَهِيدٍ، وَلِلْغَرِيقِ أَجْرُ شَهِيدَيْنِ»[١].

وعَنْ أُمِّ حَرَامٍ رَضِيَ الله عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «المَائِدُ فِي البَحْرِ الَّذِي يُصِيبُهُ القَيْءُ لَهُ أَجْرُ شَهِيدٍ وَالغَرِقُ لَهُ أَجْرُ شَهِيدَيْنِ»[٢].

قَالَ المناوي - رَحِمَهُ الله -: «قوله ﷺ: (المَائِدُ فِي البَحْرِ) اسم فاعل من ماد يميد إذا دار رأسه من غثيان معدته بشم ريح البحر، قال تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]، أي: لئلا تضطرب بكم، قوله: (الَّذِي يُصِيبُهُ القَيْءُ لَهُ أَجْرُ شَهِيدٍ) إن ركبه لطاعة كغزو وحج وتحصيل علم أو لتجارة[٣] إن لم يكن له طريق سواه ولم يتجر لزيادة مال بل للقوت.

قال الطيبيّ: الذي يصيبه ليس بصفة مخصصة بل مبينة (وَالغَرِقُ) بفتح الغين وكسر الراء (لَهُ أَجْرُ شَهِيدَيْنِ) فيه حثّ على ركوب البحر للغزو»ا.هـ[٤].

العلامة الثانية والعشرون: الشَّرِيق:

قال ابن الأثير في «النهاية»: هو الَّذِي يشرق بالماء فيموت.

قال ابن حجر في «الفتح» (٦/ ٥٢): «وللطبراني من حديث ابن عَبَّاس مرفوعًا: «المرء يموت عَلَى فراشه في سَبيل الله شهيد». وقال ذَلِكَ أيضًا في المبطون، واللديغ، والغريق، والشريق، والذي يفترسه السبع، والخارّ عن دابته، وصاحب الهدم، وذات الجنب».

العلامة الثالثة والعشرون: مَن تردّى من رءوس الجبال:

عن ابن مسعودٍ رَضِي الله عَنْهُ قال: «إن مَن يتردى من رءوس الجبال، وتأكله السباع، ويغرق في البحار، لشهيدٌ عند الله»[٥].

---

(١) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير» وغيره، وانظر «صحيح الجامع» (٥١٨٧).

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألباني.

(٣) مشروعة.

(٤) «فيض القدير» (٦/ ٣٢٤).

(٥) صحيح: أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٥/ ٢٦٩)، موقوفًا بإسناد صحيح.

العلامة الرابعة والعشرون: من قام إلى إمام جائر، فأمره بمعروف فقتله:

قال رَسُولُ الله ﷺ: «سَيِّدُ الشُّهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجلٌ قام إلى إمامٍ جائرٍ فأمره ونهاه فقتله»[(١)].

العلامة الخامسة والعشرون: من سأل الشهادة بصدقٍ ومات علَى ذلكَ:

عن سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ»[(٢)].

العلامة السادسة والعشرون: الدعوة إلى السُّنة وقت الفتن والموت عليها- يعني علَى السُّنة:

عَنْ عُتْبَةَ بن غَزْوَانَ وَكَانَ مِنَ الصَّحَابَةِ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ، الْمُتَمَسِّكُ فِيهِنَّ يَوْمَئِذٍ بِمِثْلِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ لَهُ كَأَجْرِ خَمْسِينَ مِنْكُمْ» قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَوْ مِنْهُمْ؟ قَالَ: «بَلْ مِنْكُمْ» قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ. أَوْ مِنْهُمْ؟ قَالَ: «لا، بَلْ مِنْكُمْ» ثَلاثَ مَرَّاتٍ أَوْ أَرْبَعًا[(٣)].

العلامة السابعة والعشرون: رباط يوم وليلة:

لقوله ﷺ: «رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَّانَ»[(٤)].

ولقوله ﷺ: «كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلاَّ الَّذِي مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّهُ يُنْمَى لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَيَأْمَنُ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ»[(٥)].

العلامة الثامنة والعشرون: الموت علَى عمل صالح:

لقوله ﷺ: «مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ. خُتِمَ لَهُ بِهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ صَامَ يَوْماً ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ خُتِمَ لَهُ بِهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ خُتِمَ لَهُ بِهَا

---

(١) **حسن**: رواه الحاكم، وحسّنه الألباني، انظر «صحيح الجامع» (٣٦٧٥).

(٢) رواه مسلم وغيره.

(٣) **صحيح**: رواه الطبراني في «الكبير»، وانظر «الصحيحة» (٤٩٩٤).

(٤) رواه مسلم (١٩١٣)، وغيره.

(٥) رواه أبو داود (٢٤٨٣)، والترمذي (١٦٢١)، وقال: حديث صحيح.

دَخَلَ الجَنَّةَ»[(١)].

جاء رجل إلى النَّبيّ ﷺ فقال: يا رَسُول الله أرأيت إن شهدت أن لا إله إلَّا الله وأنك رَسُول الله، وصليتُ الصلوات الخمس، وأديتُ الزكاة، وصُمت رمضان وقُمته، فممن أنا؟ قَالَ: «مِن الصِّديقين والشهداء»[(٢)].

ولفظ ابن خزيمة: عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ الجُهَنِيِّ، قَالَ: جَاءَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَجُلٌ مِنْ قُضَاعَةَ، فَقَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ شَهِدْتُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ الله، وَصَلَّيْتُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ، وَصُمْتُ الشَّهْرَ، وَقُمْتُ رَمَضَانَ، وَآتَيْتُ الزَّكَاةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ مَاتَ عَلَى هَذَا كَانَ مِنَ الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ».

وقال رَسُول الله ﷺ: «مَن خُتم له بصيام يومٍ دخل الجنة»[(٣)]. أي: مات بعد صومه أو عند إفطاره عقب صومه.

وقال رَسُول الله ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ». فَقِيلَ: كَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «يُفْتَحُ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ بَيْنَ يَدَيْ مَوْتِهِ حَتَّى يَرْضَى عَنْهُ مَن حولَهُ»[(٤)].

وعن أنسٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ». فَقِيلَ: كَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ المَوْتِ، ثم يقبضه عليه»[(٥)].

العلامة التاسعة والعشرون: الموت بالمدينة المنورة:

فَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَمُوتَ بِالمَدِينَةِ فَلْيَمُتْ بِهَا فَإِنِّي أَشْفَعُ لِمَنْ يَمُوتُ بِهَا»[(٦)].

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٣٩١٥)، وصححه الألباني.

(٢) صحيح: رواه البزار وابن خزيمة، وغيرهما، وصححه الألباني.

(٣) صحيح: رواه البزار وغيره، وانظر «صحيح الجامع» (٦٢٢٤).

(٤) صحيح: رواه أحمد وغيره، وانظر «صحيح الجامع» (٣٠٤).

(٥) صحيح: رواه أحمد والترمذي وغيرهما، وانظر «صحيح الجامع» (٣٠٥).

(٦) صحيح: رواه أحمد وغيره، وانظر «صحيح الجامع» (٥٨٥٤)، وانظر «سكب العبرات» (٧٢ - ٧٦) باختصار.

عباد الله...

هَذِهِ بعض الأسباب الموصِّلة إلى حُسن الخاتمة، فاحرصوا عليها، واستعينوا بالله تَعَالَى ولا تعجزوا.

وفَّقني الله تَعَالَى وإياكم للهدى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

والسبب المتمم الثلاثين: الموت عقب هذا الذِّكر المبارك:

عَنِ الأَغَرِّ أَبِي مُسْلِمٍ قَالَ: أَشْهَدُ عَلَى أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُمَا شَهِدَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ. صَدَّقَهُ رَبُّهُ فَقَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا وَأَنَا أَكْبَرُ.

وَإِذَا قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ. قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا وَأَنَا وَحْدِي.

وَإِذَا قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ. قَالَ اللَّهُ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا وَحْدِي لاَ شَرِيكَ لِي.

وَإِذَا قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ. قَالَ اللَّهُ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا لِيَ الْمُلْكُ وَلِيَ الْحَمْدُ.

وَإِذَا قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ. قَالَ اللَّهُ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِي».

وَكَانَ يَقُولُ: «مَنْ قَالَهَا فِي مَرَضِهِ ثُمَّ مَاتَ لَمْ تَطْعَمْهُ النَّارُ» [1].

عباد الله...

هذه بعض الأسباب الموصِّلة إلى السَّعادة الأبديَّة، فلا ينبغي لعاقل أن يغفل عَنْهَا، والله المستعان، وعليه التكلان.

❖❖❖❖❖

---

(١) **حسن**: رواه الترمذي، وحسنه، ووافقه الشيخ الألباني.

الخطبة السابعة والثمانون :

رحلة السعادة، ورحلة الشقاء

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فعند الموت، وبالتحديد عند رؤية مَلَكَ الموت وأعوانه، يتحدّد المصير.

فالإنسان يرى في هذه اللحظة مقعده من الجَنَّة أَوْ مقعده من النار.

وهذا هو هول المطلع الَّذِي خاف منه الصَّالحون.

عباد الله...

والناس عند هذا الوقت – وقت الاحتضار – ينقسمون إلى قسمين: أشقياء – أعاذنا الله منهم –، وسعداء نسأل الله أن يجعلنا منهم.

فأما القسم الأول: الأشقياء:

قَالَ تَعَالَى فيهم: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٨، ٢٩].

قال ابن كثير -رَحِمَهُ الله -: «يُخبرُ تَعَالَى عن حَالِ الْمُشركِينَ الظَّالمِي أنْفُسِهم عند احتضَارِهم ومَجِيء المَلائِكَةِ إليهم لِقَبضِ أرْواحِهم الخَبيثة، ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾ أي: أظهَرُوا السَّمع والطَّاعة والانْقِيَادَ قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ كما يَقُولون يَوْمَ المَعَاد: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨].

قال الله مكذِّبًا لهم في قِيلِهم ذَلِكَ: ﴿بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: بِئْسَ المَقِيلُ والمَقَامُ والمكانُ مِن دَارِ هَوَانٍ، لمن كانَ مُتكبِّرًا عن آيات الله واتِّباع رُسُلِهِ.

وهُم يَدخُلُون جَهَنَّم مِن يَوْمُ مَماتِهم بِأرواحِهم، ويَنَالُ أجْسَادُهُم في قُبُورِها مِن حَرِّها وسَمُومِهَا، فإذا كان يَومُ القِيَامةِ سَلَكَت أروَاحُهُم في أجْسَادِهِم، وخَلَدَت في نار جَهَنَّم، قَالَ تَعَالَى: ﴿لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]، كما قال الله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].» ا.هـ.

وهؤلاء يتمنَّون الرَّجعة ولكن أنَّى لهم ذَلِكَ!!

قال تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

قَالَ ابن كثير - رَحِمَهُ الله -: «يُخبرُ تَعَالَى عَنْ حَالِ الْمُحتضَر عِنْدَ الْموتِ، مِنَ الكَافِرين أو المُفرِّطِينَ في أمر الله تَعَالى، وقِيلِهم عند ذَلِكَ وسُؤالهم الرَّجعَةَ إلى الدُّنيَا، لِيُصلحَ مَا كان أفسده في مُدَّة حياته؛ ولهذا قال: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا

وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون: ١٠، ١١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٧].

فَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهم يَسأَلُون الرَّجعةَ فَلَا يُجَابُون، عند الاحتضَارِ، ويَومَ النُّشُورِ ووقْتَ العَرضِ عَلَى الجَبَّارِ، وحين يُعرضُونَ عَلَى النَّار، وهُم فِي غَمَرَاتِ عَذَابِ الجَحيم.

وقوله: هَاهُنا: ﴿كَلا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أي لابُدَّ أن يَقُولها لا محالة كُلُّ مُحتضرٍ ظَالِمٍ.

ويُحتَمَلُ أن يَكُون ذَلِكَ علَّة لقوله: «كَلَّا»، أي: لأنها كلمةٌ، أي: سُؤالُهُ الرُّجُوعَ لِيَعملَ صَالحًا هُوَ كَلامٌ مِنْهُ، وقولٌ لا عَمَلَ مَعَهُ، ولو رُدَّ لَما عَمِلَ صَالحًا، ولكانَ يَكذِبُ فِي مَقَالَتِهِ هَذِهِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقولُهُ: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ ﴾ يعني: أمامهم. ﴿بَرْزَخٌ ﴾ قال مجاهد: البرزخ: الحاجز ما بين الدُّنْيَا والآخِرة.

وقال محمد بن كعب: البرزخ: ما بين الدُّنْيَا والآخرة. ليسوا مع أهلِ الدُّنْيَا يَأكلُون ويَشْرَبُون، ولا مَعَ أهلِ الآخِرَةِ يُجَازُون بأعمالهم.

وفي قوله: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ ﴾: تَهديدٌ لهؤلاء المُحْتَضَرين مِن الظُّلَمةِ بِعَذَابِ البَرزخِ، كما قال: ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ [الجاثية: ١٠] وقال ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ [إبراهيم: ١٧].

وقولُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي: يَستمرُّ بِهِ العَذَابُ إلى يومِ البَعثِ» اهـ.

والقسم الثاني: السُّعداء:

قَالَ تَعَالَى فيهم: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ

الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٠- ٣٢].

قَالَ ابن كثير - رَحِمَهُ الله - في تفسيره هٰذه الآيات: «هذا خَبرٌ عَنْ السُّعداءِ، بخِلَافِ مَا أخبَرَ به عَن الأشْقِيَاءِ، فإنَّ أولَئِكَ قِيلَ لَهُم: ﴿مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ فَقَالُوا مُعرضِينَ عَن الجَوَابِ: لَمْ يُنزِل شَيئًا، إنَّما هَذَا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِين. وهَؤُلاء ﴿قَالُوا خَيْرًا﴾ أي: أَنزَلَ خَيرًا، أي: رَحمةً وبَرَكةً لمن اتَّبعَهُ وآمَنَ بِهِ.

ثُمَّ أخبروا عمّا وعَدَ الله [به] عِبادَهُ فيما أَنزلَهُ عَلَى رُسُلِهِ فَقَالَ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، أي: مَن أحسَنَ عَمَلهُ في الدُّنْيَا أحسَنَ الله إليه في الدُّنْيَا والآخِرةِ.

ثُمَّ أَخْبَرَ بأنَّ دارَ الآخِرةِ خَيرٌ، أي: مِن الحَياةِ الدُّنْيَا، والجَزاءُ فِيهَا أتمُّ مِنَ الجَزَاءِ في الدُّنْيَا، كَقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ [القصص: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨] وقال تَعَالَى: ﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧].

ثُمَّ وَصَفَ الدَّارَ الآخِرةَ فَقَالَ: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾.

وقَولُهُ: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بَدلٌ مِن [قوله]: ﴿دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: لَهُم في الآخِرَةِ ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي: مُقَامةٌ يدخُلُونَها ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أي: بَيْنَ أشْجَارِهَا وقُصُورِهَا، ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾، كَقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

وقولُهُ: ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: كَذَلِك يَجزِي الله كُلَّ مَن آمَنَ بِهِ واتَّقَاهُ وأحسَنَ عَمَلَهُ.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ حَالِهِم عِنْدَ الاحْتِضَارِ، أنَّهم طَيِّبُون، أي: مُخَلَّصُون مِنَ الشِّركِ والدَّنَسِ وكُلِّ سُوءٍ، وأنَّ المَلائِكَةَ تُسَلِّمُ عليهِمُ وتُبَشِّرُهم بالجنَّةِ، كَقَولِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ

الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نزلا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٠ - ٣٢].

عباد الله...

وهذا حديثٌ جامع بيَّن فيه النَّبيُّ ﷺ أحوال الموتى عِند قبض أرواحهم وفي قبورهم.

عَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنْ الأَنْصَارِ فَانْتَهَيْنَا إِلَى القَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ وَكَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ فِي الأَرْضِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «اسْتَعِيذُوا باللَّهِ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ» مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ العَبْدَ المُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنْ الآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنْ السَّمَاءِ بِيضُ الوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ الشَّمْسُ مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الجَنَّةِ وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوْتِ عَلَيْهِ السَّلَام حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ.

قَالَ: فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ القَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ.

قَالَ: فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ يَعْنِي بِهَا عَلَى مَلَإٍ مِنْ المَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ فَيُفْتَحُ لَهُمْ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ وَأَعِيدُوهُ إِلَى الأَرْضِ فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى.

قَالَ: فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ

فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الجَنَّةِ.

قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ، قَالَ: وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيحِ فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الوَجْهُ يَجِيءُ بِالخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي.

قَالَ: وَإِنَّ العَبْدَ الكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الوُجُوهِ مَعَهُمُ المُسُوحُ فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الخَبِيثَةُ اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَغَضَبٍ.

قَالَ: فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ المَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ المُسُوحِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَإٍ مِنَ المَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ فَلَا يُفْتَحُ لَهُ».

ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الخِيَاطِ﴾. فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾.

فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الوَجْهِ قَبِيحُ الثِّيَابِ مُنْتِنُ الرِّيحِ فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ،

فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الخَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمْ السَّاعَةَ»[(١)].

عباد الله...

هَذِهِ رحلة السعادة، ورحلة الشقاء، فالكيِّس مَن دان نفسه وعمل لِما بعد الموت، والعاجز مَن أتبع نفسه هواها، وتمنَّى عَلَى الله الأماني.

نسأل الله تَعَالَى التوفيق لطاعته.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

جاء في حديث البخاري ومسلم: سؤال الملكين، وكذلك في حديث الترمذي، ونص عَلَى اسميهما ونعتهما، وجاء في حديث أبي داود: سؤال ملك واحد، وفي حديث الآخر: سؤال ملكين، ولا تعارض في ذَلِكَ والحمد لله، بل كل ذَلِكَ صحيح المعنى بالنسبة إلى الأشخاص، فرُبّ شخص يأتيانه جميعًا ويسألانه جميعًا في حال واحد عند انصراف النَّاس، ليكون السؤال عليه أهون والفتنة في حقّه أشدّ وأعظم، وذَلِكَ بحسب ما اقترف من الآثام واجترح من سيئ الأعمال، وآخر يأتيانه قبل انصراف النَّاس عنه وآخر يأتيه أحدهما عَلَى الانفراد، فيكون ذَلِكَ أخفّ في السؤال وأقلّ في المراجعة والعتاب، لِما عمله مِن صالح الأعمال.

وقَدْ يحتمل حديث أبي داود وجهًا آخر هو: أن الملكين يأتيان جميعًا ويكون السائل أحدهما، وإن تشاركا في الإتيان، فيكون الراوي اقتصر عَلَى المَلَك السائل وترك غيره؛ لأَنَّهُ لم يقل في الحديث أَنَّهُ لا يأتيه إلى قبره إلَّا مَلك واحد، ولو قاله هكذا صريحًا لكان الجواب عنه ما قدَّمناه من أحوال النَّاس. والله أعلم.

---

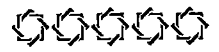
(١) **صحيح**: رواه أبو داود، وأحمد، وابن ماجه، وصححه القرطبي والألباني والمنذري، وانظر «أحكام الجنائز» (١٥٩)، و«الترغيب» (٥٠٥٧).

وقَدْ يكون من النَّاس من يوقى فتنتهما ولا يأتيه أحد منهما - عَلَى ما يأتي بيانه إن شاء الله تَعَالَى.

واخْتَلَفَت الأحاديث أيضًا في كيفية السؤال والجواب، وذَلِكَ بحسب اختلاف أحوال النَّاس، فمنهم من يقتصر عَلَى سؤاله عن بعض اعتقاداته، ومنهم من يسأل عن كلها، فلا تناقض.

ووجه آخر هو: أن يكون بعض الرواة اقتصر عَلَى بعض السؤال وأتى به غيره عَلَى الكمال، فيكون الإنسان مسئولًا عن الجميع، كما جاء في حديث البراء المذكور والله أعلم.

وقول المسئول: «هَاه هَاه» هي حكاية صوت المبهور من تعب أَوْ جري أَوْ حِملٍ ثقيل.



الخطبة الثامنة والثمانون:

ما ينفع المسلم بعد موته

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فمن رحمة الله تَعَالَى بموتى المسلمين: انتفاعهم ببعض ما يُهدى إليهم من الأحياء المسلمين.

عباد الله...

ولقد طرح الإمامُ ابنُ القَيِّم -رَحِمَهُ الله- في كتابه «الروح» سؤالًا ثم أجاب عنه.

أما السؤال فهو: هل تنتفع أرواح الموتى بشيءٍ من سعي الأحياء أم لا؟

وأما الجواب عنه، فقد أجاب - رَحِمَهُ الله - بقوله: «أنها تنتفعُ من سَعي الأحياء

بأمرين مُجمَعٍ عليهما بين أهل السُّنة من الفقهاء وأهل الحديث والتفسير:

أحدهما: ما تسبَّب إليه الميِّت في حياته[١].

والثاني: دعاءُ المسلمين له واستغفارُهم له، والصَّدقةُ، والحجُّ.

علىٰ نزاع ما الَّذي يصلُ مِن ثوابه، هل ثواب الإنفاق أو ثواب العمل؟

فعند الجمهور: يصلُ ثوابُ العمل نفسه، وعند بعض الحنفية: إنما يصل ثواب الإنفاق.

واختلفوا في العبادة البدنية كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذِّكر، فمذهب الإمام أحمد وجمهور السَّلف: وصولها، وهو قول بعض أصحاب أبي حنيفة، نصّ على هذا الإمام أحمد في رواية محمد بن يحيى الكحال قَالَ: قيل لأبي عبد الله: الرَّجل يعملُ الشيء مِن الخير مِن صلاة أو صدقة أو غير ذلك فيجعل نصفه لأبيه أو لأمه، قَالَ: «أرجو - أو قَالَ: الميت يصل إليه كل شيء من صدقة أو غيرها».

وقال أيضا: اقرأ آية الكرسي ثلاث مرات، وقل هو الله أحد، وقُل اللَّهُمَّ، إنَّ فضله لأهل المقابر.

والمشهور من مذهب الشافعي ومالك: أن ذلك لا يصل[٢].

وذهب بعضُ أهل البدع من أهل الكلام أنَّهُ لا يصل إلى الميِّت شيء البتة لا دُعاء ولا غيره.

فالدليلُ على انتفاعه بما تسبَّب إليه في حياته ما رواه مسلم في «صحيحه» من حديث أبي هريرة رَضِيَ الله عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **«إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثٍ صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ»** [٣].

فاستثناءُ هذه الثلاث مِن عمله يدلّ على أنها منه، فإنه هو الذي تسبب إليها.

---

(١) كعلم ورّثه، أَوْ بئر أجراه، أَوْ بيت لابن السبيل بناه، أَوْ صدقة أخرجها، أَوْ مصحف ورّثه.

(٢) وهو الراجح، إلَّا أن صوم النذر عن الميِّت يصل ثوابُه، لقوله ﷺ: **«مَن مات وعليه صومٌ، صام عنه وليّهُ»**، وبعضهم قال: والصوم المفروض يصل أيضًا، وقَدْ دلّت الأحاديث عَلَىٰ ذَٰلِكَ، كما سيأتي إن شاء الله، بعد قليل.

(٣) أخرجه مسلم (١٦٣١).

وفي «صحيح مسلم» أيضًا مِن حديث جَرِيرِ بن عبد الله قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»[١].

وقد دلَّ على هذا قوله ﷺ: «لاَ تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلاَّ كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ القَتْلَ»[٢].

فإذا كان هذا في العذاب والعقاب، ففي الفضل والثواب أَوْلى وأحرى.

عباد الله...

والدليل على انتفاعِه بغيرِ ما تَسبَّب فيه: القُرآنُ والسُّنة والإجماعُ وقواعد الشرع.

أما القرآن:

فقوله تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠].

فأثنى الله سبحانه عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم، فدلّ على انتفاعهم باستغفار الأحياء.

وفي «صحيح مسلم» من حديث عَوْفَ بْنَ مَالِكٍ قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى جَنَازَةٍ فَحَفِظْتُ مِنْ دُعَائِهِ وَهُوَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ، وَعَافِهِ وَاعْفُ عَنْهُ، وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ وَوَسِّعْ مُدْخَلَهُ، وَاغْسِلْهُ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ، وَنَقِّهِ مِنَ الْخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ، وَأَبْدِلْهُ دَارًا خَيْرًا مِنْ دَارِهِ، وَأَهْلاً خَيْرًا مِنْ أَهْلِهِ، وَزَوْجًا خَيْرًا مِنْ زَوْجِهِ، وَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ وَأَعِذْهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وعَذَابِ النَّارِ»[٣].

وهذا كثير في الأحاديث، بل هو المقصودُ بالصلاة على الميِّت وكذلك الدُّعاء له بعد الدفن.

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (١٦٧٧).

(٣) أخرجه مسلم (٩٦٣).

وكذلك الدُّعَاءُ لهم عند زيارة قبورهم كما في «صحيح مسلم» من حديث بُرَيْدَةَ بن الحَصِيب قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُهُمْ إِذَا خَرَجُوا إِلَى المَقَابِرِ أن يقولوا: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَلَاحِقُونَ، نَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلَكُمُ العَافِيَةَ»[1].

ودعاءُ النَّبيِّ ﷺ للأموات فعلًا وتعليمًا، ودعاءُ الصحابة والتابعين والمسلمين عصرًا بعد عصر أكثر مَن أن يُذكر وأشهر مِن أن يُنكر.

وأما وصول ثواب الصدقة:

ففي «الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا: أَنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أُمِّيَ افْتُلِتَتْ نَفْسَهَا[2] وَلَمْ تُوصِ، وَأَظُنُّهَا لَوْ تَكَلَّمَتْ تَصَدَّقَتْ، أَفَلَهَا أَجْرٌ إِنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ»[3].

وفي «صحيح البخاري» عن عبد الله بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا: أَنَّ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ تُوُفِّيَتْ أُمُّهُ وَهُوَ غَائِبٌ عَنْهَا فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أُمِّي تُوُفِّيَتْ وَأَنَا غَائِبٌ عَنْهَا فَهَلْ يَنْفَعُهَا إِنْ تَصَدَّقْتُ بِشَيْءٍ عَنْهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: فَإِنِّي أُشْهِدُكَ أَنَّ حَائِطَ المَخْرَفِ صَدَقَةٌ عَنْهَا[4].

وفي «صحيح مسلم» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ: أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ أَبِي مَاتَ وَتَرَكَ مَالاً وَلَمْ يُوصِ، فَهَلْ يُكَفِّرُ عَنْهُ أَنْ أَتَصَدَّقَ عَنْهُ؟ قَالَ: «نَعَمْ»[5].

وأما وصول ثواب الصوم:

ففي «الصحيحين» عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ الله عَنْهَا - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ»[6].

---

(١) أخرجه مسلم (٩٧٥).
(٢) افْتُلِتَتْ نَفْسَهَا: أي: ماتت بغتة.
(٣) أخرجه البخاري (٢٧٦٠)، ومسلم (١٠٠٤).
(٤) أخرجه البخاري (٢٧٥٦).
(٥) أخرجه مسلم (١٦٣٠).
(٦) أخرجه البخاري (١٩٥٢)، ومسلم (١١٤٧).

وفي «الصحيحين» أيضًا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ الله عَنْهُمَا - قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أُمِّي مَاتَتْ، وَعَلَيْهَا صَوْمُ شَهْرٍ، أَفَأَقْضِيهِ عَنْهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، فَدَيْنُ اللَّهِ أَحَقُّ أَنْ يُقْضَى»[١].

وفي رواية: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ الله عَنْهُمَا - قَالَ: جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أُمِّي مَاتَتْ وَعَلَيْهَا صَوْمُ نَذْرٍ أَفَأَصُومُ عَنْهَا؟ قَالَ: «أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ فَقَضَيْتِيهِ أَكَانَ يُؤَدِّي ذَلِكِ عَنْهَا؟». قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: «فَصُومِي عَنْ أُمِّكِ»[٢].

أما وصول ثواب الحجّ:

ففي «صحيح البخاري» عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ الله عَنْهُمَا -: أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنَّ أُمِّي نَذَرَتْ أَنْ تَحُجَّ، فَلَمْ تَحُجَّ حَتَّى مَاتَتْ أَفَأَحُجُّ عَنْهَا قَالَ؟ «نَعَمْ. حُجِّي عَنْهَا، أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ أَكُنْتِ قَاضِيَةً اقْضُوا الله، فَاللَّهُ أَحَقُّ بِالوَفَاءِ»[٣].

وأجمع المسلمون على أن قضاء الدَّين يسقطه مِن ذمته ولو كان مِن أجنبي أو مِن غير تركته.

وأجمعوا على أنَّ الحيّ إذا كان له في ذمَّة الميِّت حقٌّ مِن الحقوق فأحلّه منه أنَّهُ ينفعه ويبرأ منه كما يسقط مِن ذمة الحيّ.

فإذا سقط من ذمَّة الحيّ بالنص والإجماع مع إمكان أدائه له بنفسه ولو لم يرض به بل ردَّه، فسقوطه من ذمّة الميِّت بالإبراء حيث لا يتمكن مِن أدائه أوْلى وأحرى، وإذا انتفع بالإبراء والإسقاط فكذلك ينتفع بالهبة والإهداء ولا فرق بينهما، فإن ثواب العمل حق المهدى الواهب فإذا جعله للميت انتقل إليه.

وهذه النصوصُ متظاهرةٌ على وصولُ ثواب الأعمال إلى الميت إذا فعلها الحيُّ عنه، وهذا محضُ للقياس.

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٥٣)، ومسلم (١١٤٨).

(٢) أخرجه مسلم (١١٤٨).

(٣) أخرجه البخاري (٧٣١٥).

عباد الله...

وقال المانعون من الوصول: قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩]، وقال تَعَالَى: ﴿وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤]، وقال تَعَالَى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقَدْ ثبت عن النَّبيّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا مَاتَ العبد انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إلاَّ مِنْ ثَلاَثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ». فأخبر أَنَّهُ إنما ينتفع بما كان تسبب إليه في الحياة وما لم يكن قَدْ تسبب إليه فهو منقطعٌ عنه.

قالوا: والإهداء حوالة، والحوالة إنما تكون بحق لازم، والأعمال لا تُوجب الثوابَ وإنما هو مجرَّد تفضُّل الله وإحسانه، فكيف يحيلُ العبد على مجرد الفضل الذي لا يجب على الله بل إن شاء آتاه وإن لم يشأ لم يؤته.

قالوا: وأيضًا فالإيثار بأسباب الثواب مكروهٌ وهو الإيثار بالقرب، فكيف الإيثار بنفس الثواب الذي هو غاية إذا كره الإيثار بالوسيلة فالغاية أَوْلى وأحرى.

قالوا: وأيضًا لو ساغَ الإهداءُ إلى الميِّت لساغ نقلُ الثواب والإهداء إلى الحيِّ.

وأيضا: لو ساغ الإهداء لساغ إهداء ثواب الواجبات على الحيِّ كما يسوغ إهداء ثواب التطوعات التي يتطوع بها.

قالوا: وإنَّ التكاليف امتحان وابتلاءٌ لا تقبل البدل، فإنَّ المقصودَ منها عين المكلف العامل المأمور المنهي، فلا يبدل المكلف الممتحن بغيره ولا ينوب غيره عنه في ذَلِكَ.

قالوا: وهٰذا لا يقبلُ الله إسلام أحدٍ ولا صلاته عن صلاته، فإذا كان رأس العبادات لا يصح إهداء ثوابه فكيف فروعها.

قالوا: وأمَّا الدُّعَاء فهو سؤال ورغبة إلى الله أن يتفضل على الميِّت ويسامحه ويعفو عنه، وهذا إهداء ثواب عمل الحي إليه.

قالوا: وأما حديث «**من مات وعليه صيام، صام عنه وليّه**» فجوابه من وجوه: فتوى مالكٍ - رَحِمَهُ الله - بخلافه، ورأي ابن عبَّاس بخلافه، والخلافُ في إسنادهِ، ومعارضتُه لنصّ القرآن، ولرواية عن ابن عبَّاس، ولحديث ابن عمر، وللقياس عَلَى الصلاةِ والتوبة.

عباد الله...

أما أصحاب الوصول فقالوا: ليس في شيء مما ذكرتم ما يعارض أدلة الكتاب والسنة واتفاق سلف الأُمّة ومقتضى قواعد الشّرع، ونحن نجيب عن كل ما ذكرتموه بالعدل والإنصاف:

أما قوله تَعَالَى: ﴿**وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى**﴾ [النجم: ٣٩]، فقد اختلفت طرق الناس في المراد بالآية.

والسياق كله من أوله إلى آخره كالصريح في إرادة العموم لقوله تَعَالَى: ﴿**وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى**﴾ [النجم: ٤٠، ٤١]. وهذا يعمّ الشر والخير قطعًا، ويتناول البرّ والفاجر والمؤمن والكافر.

وقوله تَعَالَى: ﴿**أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾ [النجم: ٣٨]، وقوله: ﴿**وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى**﴾ [النجم: ٣٩]. آيتان محكمتان يقتضيهما عدلُ الرَّبِّ تَعَالَى وحكمته وكماله المقدّس، والعقل والفطرة شاهدان بهما.

وقال أبو الوفاء بن عقيل: الجوابُ الجيِّد عندي: أن يُقال: الإنسان بسعيه وحُسن عشرته اكتسب الأصدقاء، وأولد الأولاد، ونكح الأزواج، وأسدى الخير، وتودَّد إلى الناس فترحموا عليه وأهدوا له العبادات، وكان ذلك أثر سعيه، كما قال ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَطْيَبِ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ وَوَلَدُهُ مِنْ كَسْبِهِ**»(١).

ويدل عليه قوله في الحديث الآخر: «**إِذَا مَاتَ العبد انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إلاَّ مِنْ ثَلاَثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**».

وهذا جوابٌ متوسطٌ يحتاجُ إلى تمامٍ: فإنَّ العبدَ بإيمانه وطاعته لله ورسوله قَدْ سعى في انتفاعه بعمل إخوانه المؤمنين مع عمله، كما ينتفع بعملهم في الحياة مع عمله، فإنَّ المؤمنين ينتفعُ بعضهم بعمل بعض في الأعمال التي يشتركون فيها كالصلاة في جماعة، فإنَّ كلَّ واحدٍ منهم تَضاعفُ صلاتُه إلى سبعة وعشرين ضِعفًا لمشاركة غيره له في

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٢٨)، والترمذي (١٣٥٨)، وغيرهما، والحديث صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣٠١٣).

الصَّلاة، فعملُ غيره كان سببًا لزيادة أجره، كما أنَّ عمله سبب لزيادة أجر الآخر.

وكذلك قوله تَعَالى: ﴿لَـهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقوله: ﴿وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤]، على أنَّ هذه الآية أصرح في الدلالة على أن سياقها إنما ينفي عقوبة العبد بعمل غيره وأخذه بجريرته، فإن الله سُبْحَانَهُ قَالَ: ﴿فَالـيَوْمَ لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤]، فنفي أن يظلم بأن يزادَ عليه في سيئاته أو ينقص من حسناته أو يعاقب بعمل غيره، ولم ينفِ أن ينتفع بعمل غيره لا على وجه الجزاء، فإن انتفاعه بما يهدى إليه ليس جزاء على عمله وإنما هو صدقة تصدق الله بها عليه وتفضل بها عليه من غير سعي منه.

وأما استدلالكم بقوله ﷺ: «**إذا مات العبد انقطع عمله**» فاستدلال ساقط، فإنه لم يقل: (انقطع انتفاعه) وإنما أخبر عن انقطاع عمله، وأما عمل غيره فهو لعامله فإن وهبه له وصل إليه ثواب عمل العامل لا ثواب عمله هو، فالمنقطعُ شيء والواصل إليه شيء آخر.

وأما قولكم: (الإهداءُ حوالة والحوالة إنما تكون بحق لازم)، فهذه حوالة المخلوق على المخلوق.

وأما حوالة المخلوق على الخالق فأمرٌ آخرُ لا يصحُّ قياسُها على حوالة العبيد بعضهم على بعض وهل هذا إلا من أبطل القياس وأفسده.

وأما قولكم: (الإيثار بسبب الثواب مكروه، وهو مسألة الإيثار بالقرب، فكيف الإيثار الثواب بنفس الذي هو الغاية؟) فقد أجيب عنه بأجوبة:

أحدُها: أنَّ حال الحياةِ حالٌ لا يوثَق فيها بسلامة العاقبة، لجوازِ إن يرتدَّ الحيُّ فيكون قد آثر بالقربة غير أهلها وهذا قد أمن بالموت.

الجواب الثاني: أنَّ الإيثار بالقرب يدلُّ على قلّة الرغبة فيها والتأخر عن فعلها، فلو ساغ الإيثارُ بها لأفضى إلى التقاعد والتكاسل والتأخر، بخلاف إبداء ثوابها، فإنَّ العامل يحرصُ عليها لأجل ثوابها لينتفعَ به أو ينفع به أخاه المسلم، فبينهما فرق ظاهر.

الجواب الثالث: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالى يُحبُّ المبادرة والمسارعة إلى خدمته والتنافس فيها، فالإيثار بذلك مناف لمقصود العبودية.

وقد كان الصحابة يسابقُ بعضهمُ بعضًا بالقرب، ولا يُؤثِرُ الرجل منهم غيره بها.

وأما قولكم: (لو ساغ الإهداءُ إلى الميّت لساغ إلى الحي) فجوابه من وجهين:

أحدهما: أنَّهُ قَدْ ذهب إلى ذلك بعض الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم، قال القاضي: وكلام الإمام أحمد - رَحِمَهُ الله - لا يقتضي التخصيص بالميت، فإنه قَالَ: يفعلُ الخير ويجعلُ نصفه لأبيه وأُمِّه ولم يفرِّق.

واعترض عليه أبو الوفاء بن عقيل وقال: هذا فيه بُعْدٌ.

وأيضا فإنه يفضي إلى اتّكال بعض الأحياء على بعض، وهذه مفسدةٌ كبيرةٌ، فإن أربابَ الأموالِ إذا فهموا ذلك واستشعروه استأجروا من يفعل ذلك عنهم، فتصيرُ الطاعاتُ معاوضات، وذَلِكَ يفضي إلى إسقاط العبادات والنوافل، ويصيرُ ما يُتقرَّب به إلى الله يُتقرَّب به إلى الآدميين، فيخرج عن الإخلاص فلا يحصل الثواب لواحد منهما.

وأما قولكم: (لو ساغ ذَلِكَ لساغ إهداءُ نصفُ الثواب وربعه إلى الميِّت) فالجواب من وجهين:

أحدهما: منع الملازمة، فإنكم لم تذكروا عليها دليلًا إلا مجرّد الدَّعوى.

الثاني: التزام ذلك والقول به نصَّ عليه الإمام أحمد في رواية محمد بن يحيى الكحال، ووجه هذا أنَّ الثواب مُلكٌ له فله أن يهديَه جميعه وله أن يهدى بعضه.

وأما قولكم: (لو ساغ ذلك لساغ إهداؤه بعد أن يعمله لنفسه، وقد قلتم إنه لابُدَّ أن ينوى حال الفعل إهداءه إلى الميِّت وإلا لم يصل).

فالجواب: أنَّ هذه المسألة غير منصوصة عن الإمام أحمد، ولا هذا الشَّرط في كلام المتقدمين من أصحابه، وإنما ذكره المتأخرون كالقاضي وأتباعه.

وسِرُّ المسألة أنَّ أوانَ شرط حصول الثواب أن يقعَ لمن أُهدى له أولًا، ويجوز أن يقع للعامل ثم ينتقل عنه إلى غيره.

وأما قولكم: (لو سَاغ الإهداءُ لساغَ إهداء ثواب الواجبات التي تجب على الحي).

فالجواب: أنَّ هذا الإلزام محالٌ على أصل من شَرطَ في الوصول نيّة الفعل عن الميّت، فإن الواجب لا يصحُّ أن يفعله عن الغير فإن هذا واجب على الفاعل يجب عليه

أن ينوى به القربة إلى الله.

وأما قولكم: (إن التكاليف امتحان وابتلاء لا تقبل البدل إذ المقصود منها عين المكلف العامل...) إلى آخره.

فالجواب عنه: أنَّ ذلك لا يمنعُ إذنَ الشّارع للمسلم أن ينفعَ أخاه بشيءٍ من عمله، بل هذا من تمام إحسانِ الرَّبِّ ورحمته لعباده، ومن كمال هذه الشريعة التي شرعها لهم التي مبناها على العدل والإحسان والتعاون.

وأما قولكم: (إنه لو نفعه عمل غيره لنفعه توبته عنه وإسلامه عنه)

فمعلوم أن هذا التلازم والإقران باطل قطعًا.

أما أولا: فلأنه قياسٌ مُصادمٌ لما تظاهرت به النُّصوصُ واجتمعت عليه الأمة.

وأما ثانيا: فلأنه جَمَعَ بين ما فَرَّقَ الله بينه، فإن الله سُبْحَانَهُ فرق بين إسلام المرء عن غيره وبين صدقته وحجه وعتقه عنه.

وأما ثالثا: فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ الإسلام سببًا لنفع المسلمين بعضهم بعضًا في الحياة وبعد الموت، وهذا كما جعل سبحانه الإسلام سببًا لانتفاع العبد مِمَّا عمل من خير، فإذا فاته هذا السبب لم ينفعه خير عمله ولم يُقبَل منه.

وأما قولكم: (العبادات نوعان: نوع تدخله النيابة فيصل ثواب إهدائه إلى الميِّت، ونوع لا تدخله فلا يصل ثوابه).

فهذا هو نفسُ المذهب والدعوى، فكيف تحتجُّون به؟ ومن أين لكم هذا الفرق؟ فأيُّ كتابٍ أم أيّ سُنَّة أم أيّ اعتبار دلّ عليه حَتَّى يجب المصير إليه؟

وقَدْ شرع النَّبيُّ ﷺ الصَّوم عن الميِّت مع أنَّ الصَّوم لا تدخله النِّيابةُ، وشرَّع للأمة أن ينوب بعضهم عن بعض في أداء فرض الكفاية، فإذا فعله واحدٌ نابَ عن الباقين في فعله وسقَطَ عنهم المأثم.

وأما ردُّ حديث رسول الله ﷺ وهو قوله: «**من مات وعليه صيام صام عنه وليّهُ**» بتلك الوجوه التي ذكرتموها فنحن ننتصر لحديث رسول الله ﷺ ونُبيِّن موافقته للصحيح من تلك الوجوه.

فالحديثَ مقدَّمٌ، وأن لا إجماعَ عَلَى خلافه، ولا يلزمُ من فتوى ابن عبَّاس تقديمها عَلَى المرفوع، وأنَّ الحديث ثابت صحيحٌ، وأنَّهُ يؤيدُ الآية ولا يعارضُها، وأنَّ حديث ابن عمر باطل، وأنَّ القياس فاسد.

وبهذا قَالَ ابن عبَّاس، وأبو ثور، وداود وأصحابه، والأوزاعي، وأبو عبيد وآخرون.

وأما قولكم: (إنه يصل إليه في الحج ثواب النفقة دون أفعال المناسك).

فدعوى مجرّدة بلا برهان، والسُّنة تردُّها، فإن النَّبيَّ ﷺ قَالَ: «**حُجَّ عن أبيك**» وقال للمرأة: «**حُجِّي عن أُمّك**»، فأخبر أن الحَجَّ نفسه عن الميِّت ولم يقل إن الإنفاق هو الذي يقع عنه.

عباد الله...

ويواصل الإمامُ ابنُ القَيِّم - رَحِمَهُ الله - كلامه قائلًا:

فإن قيل: فهل تشترطون في وصول الثواب أن يهديه بلفظه أم يكفي في وصوله مجرد نيّة العامل أن يهديها إلى الغير؟

قيل: السُّنة لم تشترط التلفُّظ بالإهداء في حديثٍ واحد، بل أطلق ﷺ الفعلَ عن الغير، كالصوم، والحج، والصدقة، ولم يقل لفاعل ذَلِكَ: (وقل اللَّهُمَّ هذا عن فلان ابن فلان) والله سبحانه يعلم نية العبد وقصده بعمله، فإن ذكَرَهُ جازَ، وإن ترك ذِكره واكتفي بالنية والقصد وصل إليه.

فإن قيل: فهل يتعيَّنُ عليه تعليقُ الإهداء بأن يقول: (اللَّهُمَّ إن كنت قبلت هذا العمل وأثبتنى عليه فاجعل ثوابه لفلان) أم لا؟.

قيل: لا يتعيَّن ذلك لفظًا ولا قصدًا، بل لا فائدة في هذا الشرط، فإنَّ الله سُبْحَانَهُ إنَّما يفعل هذا سواء شرطه أو لم يشرطه، فلو كان سُبْحَانَهُ يفعل غير هذا بدون الشرط كان في الشرط فائدة.

فإن قيل: فما الأفضلُ أنه يهدى إلى الميِّت؟

قيل: الأفضل ما كان أنفع في نفسه، فأفضلُ ما يهدى إلى الميِّت: العتقُ، والصدقة،

والاستغفار له، والدُّعَاء له، والحجُّ عنه.

وأما قراءةُ القرآن وإهداؤها له تطوُّعًا بغيرِ أُجرةٍ، فهذا يَصِلُ إليه كما يَصِلُ ثوابُ الصوم والحج[1].

فإن قيل: فهذا لم يكن معروفا في السَّلف، ولا يمكن نقله عن واحد منهم مع شدة حرصهم على الخير ولا أرشدهم النَّبيّ ﷺ إليه، وقد أرشدهم إلى الدُّعَاء والاستغفار والصدقة والحج والصيام، فلو كان ثواب القراءة يصل لأرشدهم إليه لكانوا يفعلونه.

قيل له: ما هذه الخاصيةُ التي منعت بوصولَ ثواب القرآن واقتضت وصول ثواب القرآن واقتضت وصول ثواب هذه الأعمال، وهل هذا إلا تفريقٌ بين المتماثلات؟

ثم يقال لهذا القائل: لو كلّفت أن تنقلَ عن واحدٍ من السلف أنه قَالَ: (اللَّهُمَّ ثواب هذا الصوم لفلان) لعجزت، فإن القوم كانوا أحرص شيء على كتمان أعمال البر.

والقائل: أنَّ أحدًا مِن السَّلف لم يفعل ذَلِكَ، قائلٌ ما لا علم له به.

فإن قيل: فما تقولون في الإهداء إلى رسول الله ﷺ؟

قيل: مِن الفقهاء المتأخرين مَن استحبَّه، ومنهم من لم يستحبه ورآه بدعة، فإنَّ الصحابة لم يكونوا يفعلونه وأن النَّبيّ ﷺ له أجرُ كلِّ مَن عَمِل خيرًا مِن أمته من غير أن ينقص من أجر العامل شيء؛ لأنه هو الذي دلَّ أُمّته على كل خير».

عباد الله...

وإلى هنا انتهى كلام ابنُ القَيِّم ردًّا عَلَى السؤال الَّذِي ذكره، وقَدْ سُقناه هنا مختصرًا، والحمد لله الَّذِي بنعمته تتم الصَّالحات.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ الله- في «الاختيارات العلمية» (ص ٥٤): «ولم يكن من عادة السَّلف إذا صلّوا تطوّعًا أَوْ صاموا تطوّعًا أَوْ حجّوا تطوّعًا، أَوْ قرءوا القرآن يُهدون ثواب ذَلِكَ إلى أموات المسلمين، فلا ينبغي العدول عن طريق السَّلف فإنه أفضل وأكمل». اهـ.
هذا، وقَدْ ردّ الشيخُ رشيد رضا -رَحِمَهُ الله- عَلَى الإمام ابنُ القَيِّم في هذه المسألة ردًّا علميًا قويًّا، راجعه إن شئت في «تفسير المنار» (٨/ ٢٥٤- ٢٧٠).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فالعاقل مَن عمل لِما بعد الموت، والعاجز مَن أتبع نفسه هواها وتمنَّى عَلَى الله الأماني.

فهيًا - عباد الله - لعمارة الآخرة، واعلموا أن القبر إمَّا روضة من رياض الجَنَّة، وإمَّا حفرة من حُفر النَّار.

فنوِّروا قبوركم - أيها المسلمون - بفعل الصالحات، واجتناب المحرَّمات.

ولله دَرُّ القائل:

قِف بالقبور وقُل عَلَى سَاحَتِها ... مَن منكم المَغمُورُ في ظُلُماتِها

ومَن المُكَرَّمُ منكم في قَعرها ... قَدْ ذاقَ بَردَ الأمن من رَوعاتِها

أمَّا السُّكونُ لذي العيون فواحدٌ ... لا يَستَبينُ الفَضلُ في دَرجَاتِها

لو جَاوَبُوك لأخبرُوك بألسُن ... تَصِفُ الحقائق بعدُ من حَالاتِها؟

أمَّا المُطيعُ فنازلٌ في روضَة ... يُفضِي إلى ما شاءَ من دَوحَاتِها

والمجرمُ الطاغِي بها مُتقلِّبٌ ... في حُفرةٍ يأوي إلى حَيَّاتِها

وعقاربٌ تسعى إليه فَرُوحُهُ ... في شِدَّة التعذيب من لَدغَاتِها

اللَّهُمَّ إنَّا نسألُك بَردَ العَيشِ بَعدَ المَوت

آمين... آمين... آمين

وآخر دعوانا أن الحَمْد لله رَبِّ العالمين

الخطبة التاسعة والثمانون:

[أ] مِن حقوق موتانا علينا

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فمن حق موتانا علينا أن نُحسن إليهم بعد موتهم ولا تنقطع صِلتُنا بهم، فهم أحوج شيء إلينا، وإن حُسن العهد من الإيمان.

ومن الإحسان إليهم: متابعة خطى الشرع نحوهم، عند احتضارهم، وعند تجهيزهم لملاقاة ربِّهم، وعند الصلاة عليهم، وعند دفنهم وبعده.

وفي هذه الخطبة نتناول - إن شاء الله تَعَالَى - مسائل مهمّة يحتاج إليها الميِّت، وينال الحيّ بفعلها الثواب.

عباد الله...

وخطبة اليوم تدور حول أمرين:

الأول: تجهيز الميِّت.

والثاني: الإحداد عَلَى الميِّت.

والله الموفق لِما يُحب ويرضى.

أولاً: تجهيز الميِّت:

تجهيز الميِّت يكون بالغسل والتكفين والصَّلاة عليه وحمله ودفنه.

غَسل الميِّت:

حُكمه: هو فرض كفاية في المسلم غير الشهيد.

فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ وَاقِفٌ بِعَرَفَةَ إِذْ وَقَعَ عَنْ رَاحِلَتِهِ فَوَقَصَتْهُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اغْسِلُوهُ بِمَاءٍ وَسِدْرٍ، وَكَفِّنُوهُ فِي ثَوْبَيْنِ، وَلاَ تُحَنِّطُوهُ وَلاَ تُخَمِّرُوا رَأْسَهُ، فَإِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ القِيَامَةِ مُلَبِّيًا**»[1].

ومعنى **وقصته**: رَمَت به. **ولا تُخَمِّروا**: لا تُغطوا.

مَن يتولى غَسل الميِّت؟

يستحب أن يتولّاه أقرب الناس إليه إن كان عالمًا بأحكام الغسل وإلّا اختير رجل أمين ذو ورع ودين ورفق بالميت، إن رأى خيرًا أفشاه، وإن رأى عيبًا ستره.

قال الشيخ الألباني – رحمه الله تعالى –: يتولى غسله من كان أعرف بسنة الغسل، لاسيما إذا كان من أهله وأقاربه.

ولمن تولى غسله أجر عظيم بشرطين اثنين:

الأول: أن يستر عليه، ولا يحدث بما قد يرى من المكروه، لقوله ﷺ: «**مَنْ غَسَّلَ مُسْلِمًا فَكَتَمَ عَلَيْهِ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ أَرْبَعِينَ مَرَّةً، وَمَنْ حَفَرَ لَهُ فَأَجَنَّهُ أُجْرِيَ عَلَيْهِ كَأَجْرِ مَسْكَنٍ أَسْكَنَهُ إِيَّاهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَنْ كَفَّنَهُ كَسَاهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقِ الجَنَّةِ**».

---

(١) رواه البخاري ومسلم، وغيرهما.

رواه الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا.

ومعنى: **فَأَجَنَّهُ**: فدفنه. وفي رواية صحيح: «**غَفَرَ اللَّهُ لَهُ أَرْبَعِينَ كبيرة**».

الثاني: أن يبتغي بذلك وجه الله، لا يريد به جزاء ولا شكورًا ولا شيئًا من أمور الدُّنْيَا.

هل يجوز غَسل أحد الزوجين الآخر؟

نعم، يجوز لكلّ مِن الزوجين أن يغسل الآخر، فعن عائشة رَضِيَ الله عَنْهَا قالت: لَوْ كُنْتُ اسْتَقْبَلْتُ مِنَ الأَمْرِ مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا غَسَّلَ النَّبِيَّ ﷺ غَيْرُ نِسَائِهِ[١].

وعن أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ: أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْصَتْ أَنْ يُغَسِّلَهَا زَوْجُهَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَغَسَّلَهَا هُوَ وَأَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ.

عباد الله...

فكيف نغسّل موتانا؟

الجواب: يطلب لِذَلِكَ عدّة أمور:

(١) أن يوضع الميت على مرتفع من خشب به ميل نحو رجليه لينحدر الماء بما يخرج منه.

(٢) وتُستر عورته لزومًا في غير تصغير بشد الإزار على العورة لحرمة النظر إليها كعورة الحيّ.

(٣) وتُنزع ثيابه للتمكُّن من التنظيف.

(٤) ويُستحب أن يُغسّل الميِّت في مكان مستور، ويكره أن يحضره إلا من يُعين في غَسْله.

(٥) ويبدأ الغاسل فيحني الميت حنيًا رفيقًا لا يبلغ به قريبًا من الجلوس، ثم يمرّ يده على بطنه بعصره عصرًا رفيقًا ليخرج ما معه من نجاسة ويصب عليه الماء حين يمرّ يده صبًا كثيرًا ليخفي ما يخرج منه، ويذهب به الماء، ويلُفّ الغاسل على يده خرقة

---

(١) رواه ابن ماجه، وإسناده صحيح.

خشنة يمسحه بها لئلا يمسّ عورته ويزيل ما على بدنه من نجاسة؛ لأن الحي يبدأ بذلك في اغتساله من الجنابة.

(٦) ثُمَّ يوضأ الميِّت ندبًا كوضوء الصلاة بلا مضمضة ولا استنشاق لتعذّر إخراج الماء من فمه وأنفه بل يغسل كفيّه، ثم يأخذ خرقة خشنة مبلولة فيمسح بها أسنانه وأنفه حتَّى ينظفهما برفق، ثم يغسل وجهه ويتم وضوءه بادئًا بالميامن، لحديث أم عطية، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لهنّ في غسل ابنته: «**ابْدَأْنَ بِمَيَامِنِهَا وَمَوَاضِعِ الوُضُوءِ مِنْهَا**»[١].

(٧) ثُمَّ يغسله وترًا، ثلاثًا، أَوْ خمسًا، أَوْ أكثر. فعن أُمِّ عَطِيَّةَ الأَنْصَارِيَّةِ أَنَّهَا قَالَتْ: تُوُفِّيَتْ إِحْدَى بَنَاتِ النَّبِيِّ ﷺ فَأَتَانَا فَقَالَ: «**اغْسِلْنَهَا بِمَاءٍ وَسِدْرٍ وَاغْسِلْنَهَا وِتْرًا ثَلاثًا أَوْ خَمْسًا أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ إِنْ رَأَيْتُنَّ ذَلِكَ، وَاجْعَلْنَ فِي الآخِرَةِ كَافُورًا أَوْ شَيْئًا مِنْ كَافُورٍ، فَإِذَا فَرَغْتُنَّ فَآذِنَّنِي**». قَالَتْ: فَلَمَّا فَرَغْنَا آذَنَّاهُ فَأَلْقَى إِلَيْنَا حِقْوَهُ[٢] فَقَالَ: «**أَشْعِرْنَهَا**[٣] **إِيَّاهُ**». فَقَالَتْ أُمُّ عَطِيَّةَ: فَضَفَرْنَا رَأْسَهَا ثَلاثَةَ قُرُونٍ، ثُمَّ أَلْقَيْنَا خَلْفَهَا مُقَدِّمَتِهَا وَقَرْنَيْهَا[٤].

ثم يغسل رأسه ولحيته، ويضجع على يساره، ليبدأ باليمين فيغسل حتى ينقى ويصل الماء إلى يساره، ثُمَّ يضجع على يمينه ويغسل حتى ينقى ويصل الماء إلى اليمين.

المهم التأكد من تعميم البدن بالماء من رأسه إلى قدميه، لأن غسل الميت تعبدي يشترط فيه ما يشترط في بقية الأغسال الواجبة والمندوبة وأن الواجب مرة واحدة تعم جميع البدن. وقال أهل الظاهر: يجب ثلاث غسلات، وهو الراجح لحديث أم عطية السابق. والأُولى تكون بالماء القراح للتطهير.

فإذا خرج من الميِّت شيءٌ بعد غسله، ماذا نفعل؟

إن خرج من الميت شيء بعد غسله أزيل تنظيفًا لمحله ولا يُعاد الوضوء والغسل.

---

(١) رواه البخاري ومسلم وابن ماجه.

(٢) **حِقْوَهُ**: إزاره.

(٣) **أشعرنَهَا**: أي: اجعلنه شعارًا، وهو الثوب الَّذِي يلي البدن.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

وقال بعضهم: يعاد تغسيله إلى خمس، فإن زاد فإلى سبع. وهذا هو الراجح.

(٨) ويستحب تسريح شعر المرأة الميتة، وتضفيره ثلاثة قرون، وطرحه خلفها، لحديث أم عطية السابق.

أما بالنسبة للرجال، فيحرم حلق لحيته، أما قلم ظفر الميت وأخذ شعر شاربه وإبطه وعانته، فهو مكروه عند الحنفيين، ومالك، والثوري، والجمهور، وهو المختار عند الشافعي.

وقال أحمد وإسحاق والحسن: يستحب.

(٩) ثُمَّ ينشف الميت بثوب نظيف لئلا تبتل أكفانه ويجعل الطيب غير الزعفران والورس على رأسه ولحيته وأعضاء السجود.

هذا، ومِمَّا ينبغي التنبيه عليه:

لا يجوز تطييب المُحرِم، لقوله ﷺ: **«لا تحنّطوه»**.

وفي رواية: **«ولا تطيّبوه، فإنه يبعث يوم القيامة ملبيًا»**.

(١٠) ويستحب لمن غسّل الميّت أن يغتسل (إن استطاع) لقوله ﷺ: **«مَن غسَّل ميتًا فليغتسل، ومن حمله فليتوضأ»**[١].

عباد الله...

ما هي الحالات التي يتممم فيها الميِّت؟

الجواب: يتيمم الميّت في الحالات الآتية:

١ - إذا مات رجل بين نسوة أجانب، ولم توجد امرأة محرمة، أو ماتت امرأة بين رجال أجانب ولم يوجد محرم، لدى الجمهور.

٢ - إذا مات خُنثى مشكل، وهو كبير ولم توجد أمة ولا محرم له.

٣ - إذا تعذّر غسله، لفقد الماء حقيقة، أو حُكمًا كتقطع الجسد بالماء، أو تسلخ من صبّه عليه بسبب حرقٍ أَوْ مرض أَوْ نحوهما.

---

(١) رواه أبو داود وغيره، وإسناده حسن.

أما تكفين الميِّت:

فهو فرض كفاية بالإجماع، ويقدَّم عَلَى الدَّين والوصية، فإن كان الميِّت موسرًا كُفِّن من ماله وإلا فكفنه عَلَى مَن تلزمه نفقته إلَّا الزوج فلا يلزم بكفن امرأته.

قال الإمام ابن حزم -رَحِمَهُ الله -: وكفن المرأة وحفر قبرها من رأس مالها، ولا يلزم ذَلِكَ زوجها، وإنها أوجب الله تَعَالى عَلَى الزوج: النفقة، والكسوة، والإسكان، ولا يسمى في اللغة التي خاطبنا الله تَعَالى بها الكفن: كسوة، ولا القبر: إسكانًا.

وقال أبو حنيفة: يلزمه كفنها ولو تركت مالًا.

هذا، ويستحبَ في الكفن أمور:

الأول: يُستحب كونه أبيض.

فعن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «**الْبَسُوا مِنْ ثِيَابِكُمْ الْبَيَاضَ فَإِنَّهَا مِنْ خَيْرِ ثِيَابِكُمْ، وَكَفِّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ**»(١).

الثاني: ويستحب تطييب الكفن وترًا، بأن يُرَش عليه ماء الورد لتعلق الرائحة به. لقوله ﷺ : «**إذا أجمرتم الميت فأجمروا وترًا**». وهذا في حق غير المحرم، أما المُحرِم فلا يُبخَّر كفنه كما تقدم.

الثالث: ويستحب تحسين كفن الميت، لقوله ﷺ : «**إِذَا كَفَّنَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُحَسِّنْ كَفَنَهُ**».

وتحسين الكفن: تنظيفه، وكونه متوسطًا ساترًا الميِّت، غير مُحَرَّم استعماله

الرابع: كونه ثلاثة أثواب.

فعَنْ عَائِشَةَ - رضي الله عَنْهَا - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كُفِّنَ فِي ثَلاَثَةِ أَثْوَابٍ يَمَانِيَةٍ بِيضٍ سَحُولِيَّةٍ(٢) مِنْ كُرْسُفٍ(٣)، لَيْسَ فِيهِنَّ قَمِيصٌ وَلاَ عِمَامَةٌ. أُدرج فيها إدراجًا.

الخامس: أن يكون أحدها ثوب حبرة، إن أمكن.

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي.
(٢) **السَحُول**: ثوب القطن.
(٣) **الكُرسُف**: القطن.

لقوله ﷺ: «إِذَا تُوُفِّيَ أَحَدُكُمْ فَوَجَدَ شَيْئًا فَلْيُكَفَّنْ فِي ثَوْبٍ حِبَرَةٍ[1]»[2].

ويُكَفَّن الميِّت فيما يحلّ له لبسه حيًّا، فلا يكفَّن الرجل في الحرير إلَّا إذا لم يوجد غيره، لكن لا يزاد على ثوب.

وأمَّا المرأة فيكره تكفينها في الحرير عند وجود غيره، عند الجمهور، لأن فيه سَرَفًا وإضاعة المال.

والمسنون في الكفن: أقله: ثوب يستر جميع البدن.

عن خَبَّابٍ رَضِيَ الله عَنْهُ: أنَّ حَمْزَةَ رضي الله عنه لَمْ يُوجَدْ لَهُ كَفَنٌ إِلاَّ بُرْدَةٌ مَلْحَاءُ، إِذَا جُعِلَتْ عَلَى رَأْسِهِ قَلَصَتْ عَنْ قَدَمَيْهِ وَإِذَا جُعِلَتْ عَلَى قَدَمَيْهِ قَلَصَتْ عَنْ رَأْسِهِ، حَتَّى مُدَّتْ عَلَى رَأْسِهِ وَجُعِلَ عَلَى قَدَمَيْهِ الإِذْخِرُ.

والإِذخِرُ: نبات طيب الرائحة.

وأكثره ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ولا عمامة كما تقدم في الحديث.

أما عن كيفية تكفين الميِّت، فسيأتي بيانه بعد قليل - إن شاء الله تعالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

أما عن كيفية تكفين الميِّت:

فينبغي عَلَى المكفِّن اتِّباع ما يلي:

١ - تبخّر اللفافات أي: الأثواب. ثلاثًا[3].

(١) حِبَرة: مخطَّط.

(٢) رواه أبو داود.

(٣) لقوله ﷺ: «إذا جمرتم الميِّت فأجمروه ثلاثًا»، أخرجه أحمد وغيره، وصححه الألباني، انظر «أحكام الجنائز» (٨٤).

٢- ثم تبسط بعضها عَلَى بعض واحدة فوق الأخرى، وتؤخذ أحسن اللفائف وأوسعها فتبسط أولًا ليكون الظاهر للناس حُسنها.

٣- يوضع الحَنوط - وهو أخلاط من العطور - فيما بينها أي: يذر يرش بين اللفائف.

٤- ثم يوضع الميِّت عَلَى اللفائف مستلقيًا عَلَى ظهره.

٥- ثم يرد طرف اللفافة العليا من الجانب الأيسر عَلَى شقه الأيمن، ثم يرد طرفها الأيمن عَلَى الأيسر، ثم الثانية كَذَلِكَ، ثم الثالثة كَذَلِكَ، ويجعل الفاضل عند رأسه أكثر مِمَّا عند رجليه، ثم يعقدها لِئَلَّا تنتشر ويربط برباط عند الوسط، وعند القدمين، ثم تحلّ في القبر.

وهناك فوائد ينبغي الإشارة إليها، منها:

١- الصغير كالكبير في الكفن ذكرًا كان أم أُنثى.

٢- السَّقط - وهو الجنين ينزل من بطن أُمه قبل تمامه وهو مُستَبين الخَلق - يُلف في خرقة بلا مراعاة وجه الكفن كالعضو من الميِّت.

٣- إذا قلَّت الأكفان، وكثرت الموتى، جاز تكفين الجماعة منهم في الكفن الواحد، ويقدم أكثرهم قرآنًا إلى القِبلة، كما فعل النَّبيّ ﷺ مع شهداء أُحُد.

وللحديث بقية - إن شاء الله تَعَالَى - فإلى اللِّقاء.

۞۞۞۞۞

الخطبة التسعون:

[ب] من حقوق موتانا علينا

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد ذكرتُ - بفضل الله تَعَالَى - في الخطبة الماضية بعض حقوقِ موتانا علينا.

وأذكر - اليوم إن شاء الله تَعَالَى - حقوقًا أخرى، وأسأل الله تَعَالَى التوفيق.

ومن حقوق موتانا علينا:

حمل الجنازة وتشييعها:

حمل الجنازة وتشييعها فرض كفاية بالإجماع، والكلام هنا ينحصر في أمور:

١ - من يحملها: يحملها الرجال دون النِّساء لقوله ﷺ: «إِذَا وُضِعَتِ الجِنَازَةُ

وَاحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ، فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً قَالَتْ قَدِّمُونِي. وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ قَالَتْ يَا وَيْلَهَا أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِهَا يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلاَّ الإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهُ صَعِقَ»[١].

٢- **كيفية حملها**: يسنّ أن يحملها أربعة من الرجال إن كان الميِّت كبيرًا، وأما الصغير فلا بأس أن يحمله واحد.

قَالَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِذَا اتبعَ أَحَدُكُمْ الجَنَازَةَ فَلْيَأْخُذْ بِجوَانِبِ السَّرِيرِ الأَرْبَعَةِ، ثُمَّ لْيَتَطَوَّعْ بَعْدُ أَوْ لِيَذَرْ فَإِنَّهُ مِنَ السُّنَّةِ»[٢].

ويُحرّم حمل الميِّت عَلَى هيئة مزرية كحمله في قُفة مثلًا، هذا ويُطلب ستر سرير المرأة بمكبة توضع فوق النعش، وتغطى بثوب لتستر المرأة عن أعين النَّاس، وأول مَن اتخذ لها نعش مستور: فاطمة الزهراء رَضِيَ الله عَنْهَا[٣].

٣- **كيفية السير في الجنازة**: يسنّ لحامليها الإسراع بها إسراعًا وسطًا. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**أَسْرِعُوا بِالجِنَازَةِ، فَإِنْ تَكُ صَالِحَةً فَخَيْرٌ تُقَدِّمُونَهَا إِلَيْهِ، وَإِنْ يَكُ سِوَى ذَلِكَ فَشَرٌّ تَضَعُونَهُ عَنْ رِقَابِكُمْ**»[٤].

٤- **تشييع الجنازة**: تشييعها فرض كفاية بالسنة وإجماع الأُمّة، فعن أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**عُودُوا المَرِيضَ وَامْشُوا مَعَ الجَنَائِزِ تُذَكِّرْكُمُ الآخِرَةَ**»[٥].

وقَدْ ورد في فضل تشييع الجنازة أحاديث، منها:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْهُ أنَّ النَّبيّ ﷺ قال: «**مَنْ تَبِعَ جَنَازَةً فَصَلَّى عَلَيْهَا فَلَهُ قِيرَاطٌ وَمَنْ تَبِعَهَا حَتَّى يُفْرَغَ مِنْهَا فَلَهُ قِيرَاطَانِ أَصْغَرُهُمَا مِثْلُ أُحُدٍ أَوْ أَحَدُهُمَا مِثْلُ أُحُدٍ**»[٦].

وهذا الفضل إنما هو للرجال دون النساء لنهي النَّبيّ ﷺ لهنّ عن اتباعها، وهو

---

(١) رواه أحمد والبخاري وغيرهما.
(٢) رواه البيهقي وغيره.
(٣) رواه البيهقي وإسناده صحيح.
(٤) رواه البخاري ومسلم.
(٥) **إسناده حسن**: رواه ابن أبي شيبة.
(٦) رواه البخاري ومسلم.

نهي تنزيه، فقد قالت أم عطية: «كنا ننهى عن اتباع الجنائز ولم يعزم علينا» [١].

ويجوز المشي أمامها وخلفها، وعن يمينها ويسارها، عَلَى أن يكون قريبًا منها، إلَّا الراكب فيسير خلفها لقوله ﷺ: «**الرَّاكِبُ يَسِيرُ خَلْفَ الجَنَازَةِ، وَالمَاشِي يَمْشِي خَلْفَهَا وَأَمَامَهَا وَعَنْ يَمِينِهَا وَعَنْ يَسَارِهَا قَرِيبًا مِنْهَا، وَالسَّقْطُ يُصَلَّى عَلَيْهِ وَيُدْعَى لِوَالِدَيْهِ بِالمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ**» [٢].

والأفضل المشيء خلفها، قال علي رَضِي الله عَنْهُ: «المشي خلفها أفضل من المشي أمامها، كفضل صلاة الرجل في جماعة عَلَى صلاته فذًّا».

ولا يجوز أن تتبع الجنائز بما يخالف الشريعة، قال عمرو بن العاص في وصيته: «فإذا أنا مِتُّ فلا تصحبني نائحة ولا نار» [٣].

وعن قيس بن عباد قال: كان أصحاب النَّبيّ ﷺ يكرهون رفع الصوت عند الجنائز.

وأقبح من ذَلِكَ تشييعها بالعزف عَلَى الآلات الموسيقية!!

عباد الله...

ومن حقوق موتانا علينا أيضًا: الصلاة عليهم:

فكيف نُصلي عَلَى موتانا؟

الكلام هنا ينحصر في أمور:

أولاً: حكمها:

هي فرض كفاية، ويستثنى من ذَلِكَ شخصان فلا تجب الصَّلاة عليهما:

الأول: الطفل الذي لم يَبْلغ، فعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «مات إبراهيمُ ابنُ النَّبيّ ﷺ وهو ابن ثمانية عشر شهرًا فلم يُصلِّ عليه رسول الله ﷺ». رواه أبو داود وإسناده حسن.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) **إسناده صحيح**: رواه أبو داود.

(٣) رواه مسلم.

الثاني: الشهيد، فلقد اسْتُشْهد كثير من الصحابة في غزوة بدر وغيرها، ولم يثبت أن الرسول ﷺ صلَّى عليهم.

ولا ينفي ما تقدم مشروعية الصلاة عليهما بدون وجوب، لقول النبي ﷺ: «**والسِّقط يُصَلَّى عليه**».

وفي «صحيح مسلم» عن عائشة قالت: «أتى رسول الله ﷺ بصبيٍّ من صبيان الأنصار فصلى عليه».

وعن عبد الله بن الزبير: «أن رسول الله ﷺ أمر يوم أُحُد بحمزة فَسُجّي ببُردة، ثُمَّ صلّى عليه فكبّر تسع تكبيرات، ثُمَّ أُتي بالقتلى يصفّون، ويصلي عليهم وعليه معهم».

هذا؛ ومِمَّن تشرع الصلاة عليهم كذلك:

(أ) من قُتل في حَدٍّ من حُدود الله تعالى، فقد ثبت في «صحيح مسلم» وغيره أن النبي ﷺ صَلّى على امرأة بعد أن أقام عليها حدّ الزنى.

(ب) المرتكب لكبيرة دون الشِّرك، مثل تارك الصلاة مع اعتقاده وجوبها، وكشارب الخمر دون استحلال لها، فإنه يُصلَّى عليهم، لكن ينبغي لأهل تاركي الصلاة ترك الصلاة عليهم زجرًا لأمثالهم، فعن أبي قتادة قال: كان رسول الله ﷺ إِذَا دُعِيَ لِجَنَازَةٍ سَأَلَ عَنْهَا، فَإِنْ أُثْنِيَ عَلَيْهَا خَيْرٌ قَامَ فَصَلَّى عَلَيْهَا، وَإِنْ أُثْنِيَ عَلَيْهَا غَيْرُ ذَٰلِكَ قَالَ لِأَهْلِهَا: شَأْنُكُمْ بِهَا وَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهَا. رواه أحمد، وغيره، وإسناده صحيح.

(جـ) المدين الذي لم يترك من المال ما يقضي به دَيْنه فإنه يُصلّى عليه، وإنما ترك النبي ﷺ الصلاة عليه في أوّل الأمر، فلمّا فتح الله تعالى على رسول قال: «**أنا أولى بكلّ مؤمن من نفسه، فمن ترك دَيْنًا فَعَلَيّ قضاؤه، ومن ترك مالاً فلورثته**». رواه أبو داود وغيره.

(د) مَن دُفن قَبْل أن يُصلَّى عليه، أو صَلّى عليه بعضهُم دون بعض، فيصلّون عليه في قبره، فَعَن أبي هريرة رضي الله عنه: «أَنَّ رَجُلًا أَسْوَدَ أَوْ امْرَأَةً سَوْدَاءَ كَانَ يَقُمُّ الْمَسْجِدَ[١] فَمَاتَ، فَسَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْهُ فَقَالُوا: مَاتَ، قَالَ: «**أَفَلَا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي بِهِ؟!**

(١) يقم المسجد: يكنسه وينظّفه.

دُلُّونِي عَلَى قَبْرِهِ» فدلّوه فَصَلَّى عَلَيْه». رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود.

(هـ) من مات في بلدٍ ليس فيها من يُصلّي عليه، فهذا يُصلَّى عليه صلاة الغائب، فعن أبي هريرة: «أن رسول الله ﷺ نَعَى لِلنَّاسِ النَّجَاشِيَ فِي اليَوْمِ الَّذِي مَاتَ فِيه، فَخَرَجَ بِهِمْ إِلَى الْمُصَلَّى فَصفَّ بهم، وَكَبَّرَ أَرْبَعَ تَكْبِيرَاتٍ».

عباد الله...

وقَدْ يسأل سائل: وما حكم الصلاة عَلَى المنتحر؟

والجواب: تجوز، فالمنتحر ليس كافرًا إلّا إذا استحلّ الانتحار، بعد إقامة الحجة عليه.

وقَدْ يُردُّ عَلَى هذا الكلام بهذا الحديث:

عن جابر بن سَمُرة قال: «أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِرَجُلٍ قَتَلَ نَفْسَهُ بِمَشَاقِص[1] فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ». رواه مسلم.

قال الإمام النووي - رحمه الله - في شرحه هذا الحديث: «وفي الحديث دليل لمن يقول: لا يُصلّى على قاتل نفسه لعصيانه، وهذا مذهب عمر بن عبد العزيز والأوزاعي، وقال الحسن والنخعي وقتادة، ومالك، وأبو حنيفة، والشافعي، وجماهير العلماء: يُصلّى عليه، وأجابوا عن هذا الحديث بأن النبي ﷺ لم يُصلِّ عليه بنفسه زجرًا للناس عن مثل فعله، وصلت عليه الصّحابة.

قال القاضي: ومذهب العلماء كافة: الصلاة على كل مسلم ومحدود ومرجوم وقاتل نفسه وولد زنا».

وقال مالك وغيره: إن الإمام يجتنب الصلاة على مقتول في حدٍّ، وأن أهل الفضل لا يُصلّون على الفسّاق زجرًا لهم. ا.هـ.

هذا، ولا تجوز الصَّلاة عَلَى المشركين ولا عَلَى المنافقين نفاق اعتقاد.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ

---

(١) المشاقص: سهام عراض.

وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨٤].

كما لا يجوز الاستغفار للمشركين ولا للمنافقين نفاق اعتقاد.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١١٣].

وبالجملة: لا يجوز الترحم عَلَى الكفار ولا عَلَى المنافقين نفاق اعتقاد، لأنهم في النار خالدين فيها أبدًا، كما نصَّت آياتُ القرآن الكريم.

ثانيًا: شروط الصلاة علَى الجنازة:

يشترط في صلاة الجنازة الشروط التي تُفرض في سائر الصلوات المكتوبة؛ من الطهارة الحقيقية، والطهارة من الحَدَث الأكبر والأصغر، واستقبال القبلة، وستر العورة.

وتختلف عن سائر الصلوات المفروضة في أنَّهُ لا يُشترط فيها الوقت، بل تُؤدَّى في جميع الأوقات متى حضرت، ولو في أوقات النهي - عند الضرورة - وأوقات النهي حددها الحديث الآتي:

عن عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ الجُهَنِيِّ قال: «ثَلاَثُ سَاعَاتٍ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْهَانَا أَنْ نُصَلِّيَ فِيهِنَّ أَوْ أَنْ نَقْبُرَ فِيهِنَّ مَوْتَانَا: حِينَ تَطْلُعُ الشَّمْسُ بَازِغَةً حَتَّى تَرْتَفِعَ، وَحِينَ يَقُومُ قَائِمُ الظَّهِيرَةِ حَتَّى تَمِيلَ الشَّمْسُ، وَحِينَ تَضَيَّفُ الشَّمْسُ لِلْغُرُوبِ حَتَّى تَغْرُبَ»(١).

كما يشترط في صلاة الجنازة أن يكون الميِّت مسلمًا.

ثالثًا: مكانها:

تجوز صلاة الجنازة في المسجد، فعن عَائِشَةَ رضي الله عَنْهَا قالت: «مَا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى سُهَيْلِ ابْنِ الْبَيْضَاءِ إِلاَّ فِي الْمَسْجِدِ»(٢).

والصلاة عليها خارج المسجد أفضل؛ لأن هذا هو الغالب عَلَى هَديه ﷺ فيها.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

وقَدْ تقدم آنفًا حديث أبي هريرة في كيفية الصلاة عَلَى النجاشي رَضِي الله عَنْهُ.

ولا تجوز الصلاة عَلَى الجنازة في المقبرة بين القبور، فعن أنس رَضِي الله عَنْهُ: «أنَّ النَّبيّ ﷺ نهى أن يُصلَّى عَلَى الجنائز بين القبور»(١).

رابعًا: أركانها:

أركان صلاة الجنازة ثمانية:

الأول: النيّة.

الثاني: التكبيرات الأربع، لحديث الصلاة عَلَى النجاشي المتقدم، وتجوز الزيادة عَلَى ذلك حَتَّى تسع تكبيرات، كما تقدّم في كيفية الصلاة عَلَى حمزة رَضِي الله عَنْهُ.

وعَنْ عَبْدِ خَيْرٍ قال: «كان عَلِيٌّ رَضِي الله عَنْهُ يُكَبِّرُ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ سِتًّا، وَعَلَى أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ خَمْسًا، وَعَلَى سَائِرِ النَّاسِ أَرْبَعًا»(٢).

الثالث: القيام للقادر عليه، فلا تصح قاعدًا أَوْ راكبًا بلا عُذر.

الرابع: قراءة الفاتحة، وهي ركن بعد التكبيرة الأولى، ومن السنن المهجورة: قراءة سورة بعد الفاتحة.

فعَنْ طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَوْفٍ قَالَ: «صَلَّيْتُ خَلْفَ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِي الله عَنْهُ، عَلَى جَنَازَةٍ فَقَرَأَ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ وَسُورَةٍ، وَجَهَرَ حَتَّى أَسْمَعَنَا، فَلَمَّا فَرَغَ أَخَذْتُ بِيَدِهِ فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ: سُنَّةٌ وَحَقٌّ»(٣).

الخامس: الصلاة عَلَى النَّبيّ ﷺ: وهي ركن بعد التكبيرة الثانية.

السادس: الدُّعَاء للميت، وهو ركن بالإجماع لقوله ﷺ: «**إذا صلَّيتُم عَلَى الميِّت فأخلِصوا الدُّعَاء**». ومن صيغ الدُّعَاء الواردة:

عن عَوْفَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى جَنَازَةٍ فَحَفِظْتُ

---

(١) **إسناده حسن:** رواه الطبراني.

(٢) **إسناده حسن:** رواه الطحاوي وغيره.

(٣) رواه البخاري وغيره.

مِنْ دُعَائِهِ وَهُوَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ، وَعَافِهِ وَاعْفُ عَنْهُ، وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ وَوَسِّعْ مُدْخَلَهُ، وَاغْسِلْهُ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالبَرَدِ، وَنَقِّهِ مِنَ الخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ، وَأَبْدِلْهُ دَارًا خَيْرًا مِنْ دَارِهِ، وَأَهْلاً خَيْرًا مِنْ أَهْلِهِ، وَزَوْجًا خَيْرًا مِنْ زَوْجِهِ، وَأَدْخِلْهُ الجَنَّةَ وَأَعِذْهُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ وعَذَابِ النَّارِ». قَالَ: فتمنَّيت أن أكون أنا ذَلِكَ الميِّت.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْهُ قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى جَنَازَةٍ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِحَيِّنَا وَمَيِّتِنَا، وَصَغِيرِنَا وَكَبِيرِنَا، وَذَكَرِنَا وَأُنْثَانَا، وَشَاهِدِنَا وَغَائِبِنَا، اللَّهُمَّ مَنْ أَحْيَيْتَهُ مِنَّا فَأَحْيِهِ عَلَى الإِيمَانِ، وَمَنْ تَوَفَّيْتَهُ مِنَّا فَتَوَفَّهُ عَلَى الإِسْلاَمِ، اللَّهُمَّ لاَ تَحْرِمْنَا أَجْرَهُ وَلاَ تُضِلَّنَا بَعْدَهُ».

وعن يزيد بن ركانة بن المطلب رَضِي الله عَنْهُ قال: كان رَسُول الله ﷺ إذا قام للجنازة ليصلي عليها قال: «اللَّهُمَّ عبدك وابن أمتك احتاج إلى رحمتك وأنت غنيٌّ عن عذابه، وإن كان مُحسِنًا فَزِد في حسناته، وإن كان مسيئًا فتجاوز عنه». ثم يدعو ما شاء أن يدعو.

السابع: السلام. وهو ركن وأقله: السلام عليكم.

عن أبي أُمَامَةَ بْنُ سَهْلٍ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَخْبَرَهُ: «أَنَّ السُّنَّةَ فِي الصَّلاَةِ عَلَى الجَنَازَةِ أَنْ يُكَبِّرَ الإِمَامُ، ثُمَّ يَقْرَأُ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ بَعْدَ التَّكْبِيرَةِ الأُولَى سِرًّا فِي نَفْسِهِ، ثُمَّ يُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَيُخْلِصُ الدُّعَاءَ لِلْجَنَازَةِ فِي التَّكْبِيرَاتِ لاَ يَقْرَأُ فِي شَيْءٍ مِنْهُنَّ، ثُمَّ يُسَلِّمُ سِرًّا فِي نَفْسِهِ».

هذا، والتسليم: تسليمتين.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعودٍ رَضِي الله عَنْهُ قَالَ: «ثَلاَثُ خِلاَلٍ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَفْعَلُهُنَّ تَرَكَهُنَّ النَّاسُ: إِحْدَاهُنَّ التَّسْلِيمُ عَلَى الجَنَازَةِ مِثْلَ التَّسْلِيمِ فِي الصَّلاَةِ».

ويجوز الاقتصار عَلَى التسليمة الأولى فقط، لحديث أبي هريرة رَضِي الله عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى عَلَى جَنَازَةٍ فَكَبَّرَ عَلَيْهَا أَرْبَعًا وَسَلَّمَ تَسْلِيمَةً وَاحِدَةً»[١].

الثامن: الترتيب بين الأركان.

---

(١) **إسناده صحيح:** رواه الدارقطني.

وهو فرض عند الشافعي وأحمد، بأن يقرأ الفاتحة بعد التكبيرة الأولى، ويُصلِّي عَلَى النَّبيّ ﷺ بعد الثانية، ويدعو للميت بعد الثالثة، ويسلّم بعد الرابعة.

أما عن سنن صلاة الجنازة، فهي قسمان: خارج عَنْهَا وداخل فيها.

أولًا: فالسُّنة الخارج: أربع:

(١) قيام الإمام حذاء رأس الرجل وحذاء وسط المرأة.

عن أبي غَالِبٍ الخَيَّاطُ قَالَ: «شَهِدْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ صَلَّى عَلَى جَنَازَةِ رَجُلٍ فَقَامَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَلَمَّا رُفِعَ أُتِيَ بِجَنَازَةِ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ أَوْ مِنَ الأَنْصَارِ فَقِيلَ لَهُ: يَا أَبَا حَمْزَةَ هَذِهِ جَنَازَةُ فُلاَنَةَ ابْنَةِ فُلاَنٍ فَصَلِّ عَلَيْهَا. فَصَلَّى عَلَيْهَا فَقَامَ وَسَطَهَا، وَفِينَا العَلاَءُ بْنُ زِيَادٍ العَدَوِيُّ فَلَمَّا رَأَى اخْتِلاَفَ قِيَامِهِ عَلَى الرَّجُلِ وَالمَرْأَةِ قَالَ: يَا أَبَا حَمْزَةَ هَكَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُومُ مِنَ الرَّجُلِ حَيْثُ قُمْتَ وَمِنَ المَرْأَةِ حَيْثُ قُمْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَالتَفَتَ إِلَيْنَا العَلاَءُ فَقَالَ: احْفَظُوا».

(٢) ويُسَنّ أن يُصلى عَلَى الميِّت جماعةٌ ثلاثةُ صفوف.

عَنْ مَالِكِ بْنِ هُبَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيُصَلِّي عَلَيْهِ ثَلاَثَةُ صُفُوفٍ مِنَ المُسْلِمِينَ إِلاَّ أَوْجَبَ**». وفي رواية: «**إلَّا غُفر له**».

وكلما كثر الجمع كان أفضل، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ سمع رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلاً لاَ يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلاَّ شَفَّعَهُمُ اللَّهُ فِيهِ**».

وهناك فوائد نحتاج إليها أحيانًا، منها:

- إذا لم يصلِّ عَلَى الجنازة إلَّا إمام ورجل وامرأة، يُستحب أن يكون الرجل وراء الإمام والمرأة وراء الرجل، ليكونوا ثلاثة صفوف. وإذا كانوا ثلاثة رجال كره أن يكونوا في كل صف رجل واحد.
- ويجوز للنساء حضور صلاة الجنازة إذا خرجت متسترات غير متبرجات ولا متعطرات وأمنَّ الفتنة، لِما ثبت أنَّ عمر بن الخطاب رَضِي الله عَنْهُ انتظر أم عبد الله حَتَّى صلت عَلَى عُتبة.

- قال الإمام النووي في «المجموع»: «تجوز صلاة الجنازة فرادى بلا خلاف».

(٤) يُسنّ تسوية الصفوف.

ثانيًا: السُّنن الداخلة في صلاة الجنازة وهي:

السُّنة الأولى: رفع اليدين عند التكبيرة الأولى حذو المنكبين، كما في سائر الصلوات، وهو سُنة بالإجماع.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهُ ﷺ كَبَّرَ عَلَى جَنَازَةٍ فَرَفَعَ يَدَيْهِ فِي أَوَّلِ تَكْبِيرَةٍ وَوَضَعَ الْيُمْنَى عَلَى الْيُسْرَى».

قال الشيخ الألباني: «ولم نجد في السُّنة ما يدلّ عَلَى مشروعية الرفع في غير التكبيرة الأولى، فلا نرى مشروعية ذَلِكَ، وهو مذهب الحنفية وغيرهم، واختاره الشوكاني وغيره من المحققين، وإليه ذهب ابن حزم».

الثانية: وضع اليمنى عَلَى اليسرى كسائر الصلوات.

الثالثة: التعوّذ قبل قراءة الفاتحة بالقياس عَلَى سائر الصلوات[(١)].

الرابعة: التأمين عقب الفاتحة.

الخامسة: قراءة سورة بعد الفاتحة كما تقدم في الحديث.

السادسة: جهر الإمام بالتكبيرات والسلام للإعلام.

السابعة: الإسراء بالقراءة والصلاة عَلَى النَّبيّ ﷺ والدعاء.

الثامنة: الدُّعَاء بين التكبيرة الأخيرة والتسليم مشروع.

خامسًا: الأحق بالإمامة في صلاة الجنازة:

قال الشيخ الألباني: الوالي أَوْ نائبه أحقّ بالإمامة فيها من الولي، لحديث أبي حازم قال: «إِنِّي لَشَاهِدٌ يَوْمَ مَاتَ الحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَرَأَيْتُ الحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ لِسَعِيدِ بْنِ العَاصِ وَيَطْعَنُ فِي عُنُقِهِ وَيَقُولُ: تَقَدَّمْ فَلَوْلاَ أَنَّهَا سُنَّةٌ مَا قُدِّمْتَ،

---

(١) قالت المالكية وأكثر الشافعية والحنابلة: لا يُستحب دعاء الاستفتاح في صلاة الجنازة لأنَّها مبنية عَلَى التخفيف.

وَكَانَ بَيْنَهُمْ شَيْءٌ». وكان سعيد يومئذٍ أمير عَلَى المدينة.

فإن لم يحضر الوالي أَوْ نائبه، فالأحق بالإمامة أقرؤهم لكتاب الله، ثم عَلَى الترتيب المذكور في الحديث.

وقالت المالكية والحنابلة: الأوْلى بالصلاة عَلَى الميِّت الوصي، ثم الأمير، ثم الأب، وإن علا، ثم الابن وإن سفل، ثم أقرب العصبة لإجماع الصحابة رضي الله عنهم عَلَى هذا.

سادسًا: المسبوق في صلاة الجنازة:

مَن سبق في صلاة الجنازة بشيء من التكبير استحبَّ له أن يقضيه متتابعًا، فإن لم يقضي فلا بأس، وقال ابن عمر والحسن السَّختياني والأوزاعي: لا يقضى ما فات من تكبير الجنازة، ويُسلِّم مع الإمام.

سابعًا: الصلاة علَى متعدِّد:

إذا اجتمع أكثر من ميت من الرجال والنساء، فإن الإمام أن يُصلِّي عَلَى كل جنازة عَلَى حدة، ويجوز له كَذَلِكَ أن يصلي عليهم صلاة واحدة، ويصف الجنائز واحدًا بعد الآخر ليكونوا جميعًا بين يدي الإمام، ويكون الرجال أمامه والنساء (الأموات) مِمَّا يلي القِبلة.

عباد الله...

ونختم الخطبة الأولى بهذه الفائدة المهمة:

القيام للجنازة إذا مرّت أَوْ عند انتهائها إِلَى القبر حَتَّى توضع عَلَى الأرض، منسوخٌ، فعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اتَّبَعَ الجَنَازَةَ لَمْ يَقْعُدْ حَتَّى تُوضَعَ فِي اللَّحْدِ، فَعَرَضَ لَهُ حَبْرٌ فَقَالَ: هَكَذَا نَصْنَعُ يَا مُحَمَّدُ. قَالَ: فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: «خَالِفُوهُمْ».

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

***

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

والأمر الثاني: الإحداد عَلَى الميِّت:

الإحداد لغة: المنع.

وشرعًا: ترك ما يُتزيّن به من حُلي أَوْ كُحُلٍ أَوْ حرير ولو أسود، أَوْ دُهن ولو غير مُطَّيب، أَوْ اختضاب بحناء، أَوْ لبس مصبوغ بها له رائحة طيبة كالمزعفر والمعصفر الجديد الَّذِي يتزيّن به.

هذا؛ والإحداد واجب عَلَى المسلمة المكلّفة التي مات زوجُها أربعة أشهر وعشرًا تأسفًا عَلَى زوال نعمة النكاح، لأَنَّهُ سبب لعفّتها وكفاية مؤنتها، ويجوز للمرأة الإحداد عَلَى قريب غير زوج ثلاثة أيام فقط، ما لم يمنعها زوجها.

فعَنْ زَيْنَبَ ابْنَةِ أَبِى سَلَمَةَ قَالَتْ: دَخَلْتُ عَلَى أُمِّ حَبِيبَةَ زَوْجِ النَّبِىِّ ﷺ حِينَ تُوُفِّىَ أَبُوهَا أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، فَدَعَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ بِطِيبٍ فِيهِ صُفْرَةٌ خَلُوقٌ أَوْ غَيْرُهُ فَدَهَنَتْ مِنْهُ جَارِيَةً، ثُمَّ مَسَّتْ بِعَارِضَيْهَا، ثُمَّ قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا لِى بِالطِّيبِ مِنْ حَاجَةٍ، غَيْرَ أَنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**لاَ يَحِلُّ لاِمْرَأَةٍ تُؤْمِنُ باللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ أَنْ تُحِدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلاَثِ لَيَالٍ، إِلاَّ عَلَى زَوْجٍ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا**».

والحكمة في إحداد المرأة عَلَى الزوج أربعة أشهر وعشرًا أن الولد يتكامل خلقه وتنفخ فيه الروح بعد مضي عشرين ومائة يوم، وهي زيادة عَلَى أربعة أشهر بنقصان الأهلّة، فجبر الكسر إلى العِقد وزيد العشر احتياطًا.

الخطبة الحادية والتسعون:

[أ] الواعظ الصامت (القبر)

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إِلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فإن الموت هو الواعظ الصامت، وكذلك القبر.

قال أبو جعفر القرشيّ:

تُنَاجِيكَ أجدَاثٌ وهنَّ سُكُوتُ ... وساكِنُها تحت التُّراب خفُوتُ

يا جَامِعَ الدُّنْيا لِغَير بَلاغِهِ ... لَن تَجْمَعُ الدُّنْيا وأنت تموتُ؟![1]

---

(١) «أهوال القبور» (١٥٧).

عباد الله...

والقبر أوّل منازل الآخرة:

عَنْ هَانِئٍ - مَوْلَى عُثْمَانَ - قَالَ: كَانَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رَضِيَ الله عَنْهُ إِذَا وَقَفَ عَلَى قَبْرٍ يَبْكِي حَتَّى يَبُلَّ لِحْيَتَهُ فَقِيلَ لَهُ: تَذْكُرُ الجَنَّةَ وَالنَّارَ وَلاَ تَبْكِي وَتَبْكِي مِنْ هَذَا؟ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ القَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الآخِرَةِ فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ**»[١].

يا هذا؛ أين الَّذِي جمعته من الأموال، وأعددته للشدائد والأهوال، لقد أصبحت كفك منه عند الموت خالية صفرًا، وبدّلت من بعد غناك وعزّك ذلًّا وفقرًا.

فكيف أصبحت يا رهين أوزاره ويا مَن سلب مِن أهله ودياره؟

ما كان أخفى عليك سبيل الرشاد... وأقل اهتمامك لحمل الزاد.. إلى سفرك البعيد.. وموقفك الصعب الشديد...

أَوَمَا علمت يا مغرور أن لابُدَّ من الارتحال، إلى يوم شديد الأهوال، وليس ينفعك ثَمَّ قيل ولا قَالَ، بل يعد عليك بين يدي الملك الديّان، ما بطشت اليدان، ومشت القدمان ونطق به اللسان، وعملت الجوارح والأركان، فإن رحكمك فإلى الجنان، وإن كانت الأخرى فإلى النيران.

يا غافلًا عن هَذِهِ الأحوال، إلى كم هَذِهِ الغفلة والتوان، أتحسب أن الأمر صغير، وتزعم أن الخطب يسير؟ وتظن أن سينفعك حالك، إذا آن ارتحالك، أو ينقذك مالك، حين توبقك أعمالك، أو يغني عنك ندمك، إذا زلّت بك قدمك، أو يعطف عليك معشرك، حين يضمك محشرك، لا بكفاف تقنع، ولا من الحرام تشبع، ولا للعظات تستمع، ولا بالوعيد ترتدع، دأبك أن تنقلب مَعَ الأهواء، وتخبط خبط العشواء، يعجبك التكاثر بما لديك، ولا تذكر ما بين يديك.

يا نائمًا في غفلة وفي خبطة يقظان، إلى كم هَذِهِ الغفلة والتوان، أتزعم أن ستُترك سُدًى، وأن لا تحاسب غدًا، أم تحسب أن الموت يقبل الرّشا.

---

(١) **حسن**: رواه الترمذي، وانظر «صحيح الجامع» (١٦٨٤).

كلا والله، لن يدفع عنك الموت مال ولا بنون، ولا ينفع أهل القبور إلَّا العمل المبرور.

فطوبى لمن سَمِعَ ووَعى، وحقق ما ادَّعى، ونهى النَّفْس عن الهوى، وعلم أن الفائد مَن ارعوى، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩].

فانتبه من هذه الرقدة، واجعل العمل الصالح لك عدّة، ولا تتمنّ منازل الأبرار، وأنت مقيم عَلَى الأوزار عاملٌ بعمل الفجّار، بل أكثِر من الأعمال الصالحات، وراقب الله في الخلوات، رب الأرض والسموات، ولا يغرنّك الأمل فتزهد عن العمل، أَوَمَا سمعت الَّذِي خلقك فسوَّاك يقول: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧].

ورُوي عن مُحَمَّد القرشي أَنَّهُ قال: سمعت شيخنا يقول: أيها النَّاس... إني لكم ناصح، وعليكم مشفق، فاعملوا في ظلمة اللَّيْل لظلمة القبر، وصوموا في الحَرّ قبل يوم النشور، وحجوا يحطّ عنكم عظائم الأمور، وتصدَّقوا مخافة يوم عسير.

وكان يزيد القرشي يقول في كلامه: أيها المقبور في حفرته، المتخلي في القبر بوحدته، المستأنس في بطن الأرض بأعماله، ليت شعري بأيّ أعمالك استبشرت وبأي أحوالك اغتبطتَ؟!

ثم يبكي حَتَّى يبلّ عمامته، ويقول: استبشر والله بأعماله الصالحة، واغتبط والله بإخوانه المعاونين له عَلَى طاعة الله.

وكان إذا نظر إلى القبر صرخ كما يصرخ الثور.

وقال سفيان الثوري: مَن أكثر من ذِكر الموت وجده روضة من رياض الجَنَّة، ومَن غفل عن ذِكره وجده حفرة من حفر النار.

وقال أحمد بن حرب: تتعجب الأرض مِمَّن يمهد مضجعه، ويسوي فراشه للنوم وتقول: يا ابن آدم ألا تذكر طول رقادك في جوفي، وما بيني وبينك شيء؟

وقيل لبعض الزُّهاد: ما أبلغ العظات؟ قال: النظر إلى محلة الأموات.

ولقد أحسن أبو العتاهية حيث يقول:

وعظَتك أجداث صُمُت ... ونعتْك أزمنةٌ خُفُت

وتكلّمت عن أوجه تبلى عن صور سبت
وأرتك نفسك في القبور وأنت حيّ لم تمت

عباد الله...

إن زيارة القبور تذكّر الآخرة، وتزهّد في الدُّنْيَا.

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِي الله عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُزَهِّدُ فِي الدُّنْيَا وَتُذَكِّرُ الآخِرَةَ**»[١].

والآثار عن سلفنا الصالح في زيارتهم للقبور واتّعاظهم بها، وكلماتهم عندها وبعدها كثيرة جدًّا، فمن ذَلِكَ:

عن سُلَيم بن عَامِرٍ قَالَ: خَرَجنَا فِي جِنَازةٍ عَلَى بَابِ دِمشقَ ومَعَنَا أَبُو أُمَامَة البَاهِلِيُّ فلمَّا صلَّى عَلَى الجنازةِ وأخذُوا فِي دَفْنِهَا قَالَ أَبُو أُمامة: إنَّكم قَدْ أصْبَحتُم وأمْسَيتُم فِي مَنزِلٍ تَغنَمُون منه الحَسَنَاتِ والسَّيِّئاتِ تُوشِكُونَ أن تَظعَنُوا منه إلى مَنزِلٍ آخرَ وهُوَ هَذَا - يَشِيرُ إلى القَبرِ - بَيتُ الوَحشَةِ وبَيتُ الظُّلمةِ وبَيتُ الضِّيقِ إلَّا مَا وسّع الله، ثُمَّ تَنتقِلُون منه إلى يَومِ القِيامَةِ.

ورَوى البَراءُ بإسنادِهِ عن الفُضَيل بن عِيَاضٍ قال: رَأيتُ رَجُلًا يَبْكِي، قُلتُ: ومَا يُبكِيكَ؟ قال: أبْكَانِي كَلامُهُ، قُلتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: كُنَّا وُقُوفًا فِي المقَابِرِ فَأنشَدُوا:

أتَيْتُ القُبُورَ فَسَاءَلتُها أيـنَ المُعظَّمُ والمُحْتَقَر؟
وأيـنَ المُـدِلُّ بسلطَانِهِ؟ وأيـنَ القَـوِيُّ إذا مَـا قَـدَر؟
فَفَاتُوا جَمِيعًا فَمَا مُخبرُ وماتُوا جَمِيعًا ومَاتَ الخَبَر
فَيَا سَائِلي عن أُنَاس مَضَوا أمَا لَكَ فِيمَا تَرَى مُعتَبر؟
تُرُوحُ وتَغدُوا وأبلاكَ الثرى فتمحُوا محاسِنَ تِلكَ الصُّوَر!!

وعَن خَالِد بن أحْمَدَ بن أَسَدٍ قَالَ: أَخذْتُ بِيَدَيْ عليِّ بن جَبَلَةَ يَومًا فَأتَينَا أبَا العَتَاهِيةِ

---

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (١٥٧١)، وصححه المنذري والألباني، وانظر «الترغيب» (٥٠٣٨).

فَوجدنَاهُ فِي الحَرَمِ، فَانتظَرنَاهُ فَلم يَلبَث أنْ جَاءَ فَدَخَلَ عليه إبْراهيمُ بن مُقَاتِلِ بن سَهلٍ - وكَانَ جَميلًا - فَتَأمَّلَهُ أَبُو العَتَاهِيةِ وقَالَ مُتَمثِّلًا:

يَـا حِـسانَ الوُجُـوه سَـوفَ تَمُوتُـو ... نَ وتَبلَـى الوُجُـوهُ تحـت التُّـرَاب

فَأقْبَلَ عليُّ بن جَبَلَةَ فقَال: اكْتُبْ:

يَـا مُرَبِّـي شَـبابِهِ للتُّـرابِ ... سَوفَ يَمضِي البِلَى بِغَضِّ الثِّيابِ

يا ذَوِي الوُجُوهِ الحِسَانِ المَصُونَا ... تِ وأجْسَامِهَا الغِضَاضِ الرِّطَابِ

أكْثِـرُوا مِـن نَعِـيمهَا أو أقِلُّـوا ... سَـوفَ تُهـدُونَها لِعَفـرِ التُّـرابِ

قَـدْ نَعَـتْكَ الأيـامُ نَعـيًا صَـحيحًا ... بِفِـراقِ الإخْـوَانِ والأصْـحَابِ

فَقالَ أَبُو العَتَاهِيةِ: قُل يَا خَالِد قُلتُ: مَعَكَ ومع أبِي الحَسَنِ، قَالَ: نَعَم، فَقُلتُ:

يـا مُقِـيمينَ رَحِّلُـوا لِلـذَّهَابْ ... لِـشَفِيرِ القُـبُورِ وحُطُّـوا الـرِّكاب

نَعِّمُـوا الأوْجُـهَ الحِـسانَ فَمَـا ... صُـونُكُمُوهَا إلا بعَفـرِ التُّـراب

والبَـسُوا نَـاعِمَ الثـيابِ فَفِـي الـ ... ـحُفرَةِ تَعـرَونَ مِـن جَمـيعِ الثِّـيَاب

قَـدْ تَـرونَ الـشَّبابَ كَـيفَ يَمُـو ... تُـونَ إذا اسْتَنـضَرُوا بمـاءِ الـشَّبَاب

وعَنِ الحَسَنِ قَالَ: «يَومَانِ وَلَيْلَتَانِ لَمْ تَسمَعِ الخَلائِقُ بِمِثلِهِنَّ قَطُّ: لَيلَةٌ تَبِيتُ مَعَ أهلِ القُبُورِ، ولَمْ تَبِت لَيلَةً قَبْلَهَا، ولَيلَةٌ صَبِيحَتُهَا يَومُ القِيَامَةِ، ويَوْمٌ يَأتِيكَ البَشِيرُ مِن الله تَعَالَى إمَّا بِالجَنَّة أو النَّار، ويَومٌ تُعطَى كِتَابَكَ إمَّا بِيَمِنكَ وإمَّا بِشِمَالِكَ».

وقَالَ بِشرُ بنُ الحَارِثِ: «نِعمَ المَنزِلُ القَبرُ لِمَن أطَاعَ الله».

نجانا الله وإيَّاكم من عذاب القبر.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

***

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

عباد الله...

هَذِهِ آثار عن سلفنا الصَّالح، تُزهّد في الدُّنْيَا، وترغّب في الآخرة، فأعقل النَّاس من جعل الآخرة همّه، وجعل الموت نُصب عينيه.

قَالَ يحيى بن معاذ - رَحِمَهُ الله -: «العقلاء ثلاثة: مَن تَرَكَ الدُّنْيَا قبل أن تتركه، ومَن بنى قَبرَه قبل أن يَدخُله، ومَن استعدّ للقاء الله قبل أن يلقاه».

وهاهُو ربّ العزّة سُبْحَانَهُ يُذكّرنا بمبدأنا ومنتهانا فيقول: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ تُبْعَثُونَ**﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٦].

وقال تَعَالَى: ﴿**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ المَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ**﴾ [التكاثر: ١ - ٨]

وَلَمَّا انصرفَ النَّاسُ مِن جَنازَةِ دَاوُدَ الطَّائي - رَحِمَهُ الله - أنشَد ابنُ السَّمَّاكِ - رَحِمَهُ الله -:

انصَرَفَ النَّاسُ إلى دُورِهم ... وغُودِرَ المَيِّتُ في رَمسِهِ

مُرتَهَنَ النَّفس بأعمالِه ... لا يرتَجِي الإطْلاقَ مِنْ حَبْسِهِ

لِنَفْسِهِ صَالِحُ أعمالِه ... ومَا سِواهَا فَعَلى نَفْسِهِ[1]

---

(١) «أهوال القبور» (١٢ - ١٦).

وقال الشَّاعِرُ:

قِـف بالمَقَابـرِ وانظُـر إن وَقَفـتَ بهَـا ... لله دَرُّكَ مــاذا تَــستُرُ الحُفَــرُ؟

فَفِـيهِمُ لَـكَ يَـا مَغـرورُ مَـوعِظَةٌ ... وفِــيهِمُ لَـكَ يـا مُغـترٌّ مُعتَـبرُ

عباد الله...

ما أجلّها مِن مواعظ لو كان بالقلوب حياة.

وللحديث بقية - إن شاء الله.

والله المسئول أن يجعلنا مِمَّن يُبادرُ الفَوتَ، ويُراقِبُ المَوتَ، ويتأهّب للرحلة قبل المات، وينتفعُ بما سَمِع مِن العِظات، بِمنِّه وكرمِهِ.

آمين... آمين... آمين

وآخر دعوانا أن الحَمْد لله رَبِّ العالمين

الخطبة الثانية والتسعون:

[ب] الواعظ الصامت

الحمد لله ربّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد تقدّم معنا أنَّ ذكر القبر وزيارته، يذكِّر بالآخرة، ويزهّد في الدُّنْيَا.

والقبر هو البرزخ، والبرزخ الحاجز بين الشيئين.

قَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ المَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

قَالَ العلَّامة السَّعديُّ - رَحِمَهُ الله -: «قوله تَعَالَى: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: من أمامهم وبين أيديهم برزخ، وهو الحاجز بين الشيئين، فهو هنا: الحاجز بين

الدنيا والآخرة، وفي هذا البرزخ، يتنعم المطيعون، ويعذب العاصون، من موتهم إلى يوم يبعثون، أي: فَليعُدُّوا له عُدَّتَه، وليأخذوا له أُهْبته» ا.هـ[1].

عباد الله...

فأعدّوا للقبر عُدته، وخذوا له أُهْبته.

وهذه آثار عن سلفنا الصَّالح، تُبيِّن اهتمام سلفنا بزيارة القبور، والاتِّعاظ بها، وتنقل إلينا مواعظهم عندها وبعدها، فما أحوجنا إليها:

عَنِ الفَضلِ بن مُهَلهِلٍ - أخِي الفَضْلِ وكَانَ مِن العَابِدِينَ - قَالَ: «كَانَ جَلِيسٌ لَنَا حَسَنُ التَّخَشُّعِ وَالعِبَادَةِ يُقَالُ لَهُ: مُجِيبٌ، وَكَانَ مِن أجملِ الرِّجالِ فَصَلَّى حَتَّى انْقَطَعَ عَنِ القِيَامِ، وصَامَ حَتَّى اسوَدَّ، ثُمَّ مَرَضَ فَماتَ، وكَانَ مُحَمَّدُ بنُ النَّضرِ الحَارِثِيِّ لَهُ صَدِيقًا، ومَاتَ مُحَمَّدٌ قَبلَهُ، قال: فرأيتُ مُحَمَّدًا في مَنامِي بَعدَ مَوتِ مُجِيبٌ، فَقُلتُ: مَا فَعَلَ أُخُوكَ مُجِيبٌ؟ قَالَ: لَحِقَ بِعَمَلِهِ، قُلتُ: فَكَيفَ وَجْهُهُ ذَاكَ الحَسَنُ؟ قال: أَبَلاهُ واللهِ التُّرابُ، قال: وقُلت: كَيفَ وأنْتَ تَقُولُ لَحِقَ بعملِهِ؟ قَالَ: يا أخِي عَلِمتُ أنَّ الأجْسَادَ في القُبُورِ تَبْلَى وأنَّ الأعْمَالَ في الآخِرَةِ تَحيَا، قُلْتُ: يَبْلَونَ حَتَّى لا يَبْقَى مِنْهُم شَيءٌ ثُمَّ يَجِيئُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، إي واللهِ يا أخِي يَبْلَونَ حَتَّى يَصِيرُوا رُفَاتًا ثُمَّ يَحيَونَ عِنْدَ الصَّيحَةِ، وأنشَدَ بَعضُهُم:

مَا حَالُ مَن سَكَنَ الثرى مَا حَالُهُ؟ ... أمْسَى وقَدْ رَثَت هُنَاكَ حِبَالُهُ
أمْسَى وَلا رُوحُ الحَيَاةِ تُصِيبُهُ ... أبدًا ولُطْفُ الحبِيبِ يَنَالُهُ
أمسى وقَدْ دَرَسَت مَحَاسِن وَجهِهِ ... وتَفَرَّقَت في قَبرِهِ أوْصَالُهُ
واسْتَبدَلَت مِنهُ المَجَالِسُ غَيرَهُ ... وتُقُسِّمَت مِن بَعدِهِ أمْوَالُهُ
مَا زَالتِ الأيَّامُ تَلعبُ بالفَتَى ... والمَالُ يَذْهَبُ صَفْوُهُ وحَلالُهُ[2]

وَعَنْ عُمَرَ بن ذَرٍّ أنَّهُ كَانَ يَقُولُ في مَوَاعِظِهِ: «لَو عَلِمَ أهْلُ العَافِيَةِ مَا تَضَمَّنَتهُ القُبُورُ

---

(١) «تفسير السعدي» (٥٥٩).

(٢) «أهوال القبور» (١٤٤).

مِنَ الأَجْسَادِ البَالِيَةِ جَدُّوا واجْتَهِدُوا في أيَّامِهِم الخَالِيَةِ خَوفًا مِنْ يَومٍ تَتَقَلَّبُ فيهِ القُلُوبُ والأبْصَارُ»[١].

وقالَ النَّضْرُ بن المُنذرِ لإخْوَانِهِ: «زُورُوا الآخِرةَ بِقُلُوبِكُم، وشَاهِدُوا المَوقِفَ بِتَوَهُّمِكُم وتَوَسَّدُوا القُبُورَ بِقُلُوبِكُم، واعْلمُوا أنَّ ذَلِكَ كَائِنٌ لا مَحَالَة، فَاخْتَارَ لِنَفْسِهِ (امْرُؤٌ) مَا أحَبَّ مِن المَنَافِعِ وَالضَّرَرِ».

وَرَوى ابنُ أبي الدُّنْيَا عَنِ الحَسَنِ أنَّهُ مَرَّ بِهِ شَابٌّ، وعَليهِ بُردةٌ لَهُ حَسنةٌ فَقالَ: ابنُ آدَمَ مُعجبٌ بِشَبابِهِ مُعجبٌ بِجَمَالِهِ كأنَّ القَبرَ قَدْ وَارَى بَدَنَكَ وكأنَّك لاقَيْتَ عَمَلكَ! وَيحكَ دَاوِ قَلبكَ فإنَّ مُرادَ الله إلى عَبَادِهِ صَلاحُ قُلُوبِهِم».

وَشَهِدَ الحَسَنُ جِنَازةً فَاجْتَمعَ عليه النَّاس فَقالَ: «اعْمَلُوا لِمِثْلِ هذَا اليَومِ - رَحِمَكُمُ الله - فَإنَّمَا هُم إخْوَانُكُم يَقْدُمُونَكُم وأنْتُم بالأثَرِ، أيُّهَا المُخَلَّفُ بَعْدَ أخِيهِ إنَّكَ المَيِّت غدًا، والبَاقِي بَعدكَ المَيِّت في أثَرِكَ أوَّلًا بأوَّلٍ حَتَّى تُوَافُوا جَمِيعًا قَدْ عَمَّكُم المَوتُ واسْتَوَيْتُم جَمِيعًا في كُرَبِهِ وغُصَصِه، ثُمَّ تَخَلَّيتُم إلى القُبُورِ، ثُمَّ تُنْشَرُونَ جَميعًا، ثُمَّ تُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّكُم عَزَّ وَجَلَّ».

وعَن الحَسنِ قالَ: «أُوذِنُوا بِالرَّحيلِ، وجَلَسَ أوَّلُهُم عَلَى آخِرهم وهُم يلعَبُون».

وقال رجلٌ لبعضِ السَّلفِ: أوصِنِي، قال: عَسكَرُ الموتَى يَنتظِرُونك.

وقال أبُو العَتَاهِيَةِ:

رُوَيدكَ يا ذا القَصْرِ في شُرُفَاتِهِ ... فإنَّهُ عَنهُ سَوفَ تُسْحَى[٢] وتُزعَجُ
ولابُدَّ مِن بَيتِ انْقطَاعٍ وَوَحْشَةٍ ... وإن غَرَّكَ البَيْتُ الأنِيقُ المُبهجُ

وقَالَ ابنُ أبي الدُّنْيَا: أنْشَدَنِي الحُسَينُ بن عَبْدُ الرَّحمنِ:

لِيَبكِ لأهوالِ القِيامةِ مَنْ بَكَى ... ولا تَنْسَيَنَّ القَبْرَ يَومًا وَلا البِلَى
كَفَى حَزَنًا يَوْمًا تَرى فِيهِ مُكرمًا ... كَرامَتُهُ أنْ يُرقِدُوا جِسمَهُ الثرى

---

(١) المرجع السابق (١٥٤).

(٢) تُسحى: من سحوت الطِّين عن وجه الأرض، إذا جرَّفته.

وَقَالَ أَحْمَدُ بنُ أَبِي الحَوارِيِّ: سَمِعتُ مُضَرَ بن عَبسٍ يَقُولُ: «رَحِمَ الله قَومًا زَارُوا إِخْوَانَهُم بِقُلُوبِهِم فِي قُبُورِهِم وَهُم قِيَامٌ فِي دِيَارِهِم، يُشِيرُونَ إلى زِيَارَتِهِم بِالفِكرِ فِي أحوَالِهِم».

وقَالَ ابن أَبِي الدُّنْيَا: حدَّثنا مُحَمَّد السَّبعِي قَالَ: «انْتَفَضَ غَنَّامُ بن عليٍّ يومًا وَهُوَ مَعَ أَصْحَابِهِ فَقَالَ لَهُ بَعْضُهُم: مَا الَّذِي أَصَابَكَ؟ قَالَ: ذَكَرتُ اللَّحْدَ»

وحَدَّث مُحَمَّد بنُ خَلفٍ قَالَ: سَمِعتُ أبِي قَالَ: رَجَعنَا مِن مَيِّتٍ مَعَ ابنِ السَّمَّاكِ فأنشأ ابنُ السَّمَّاكِ يَقولُ:

تَمُرُّ أقَارِبِي جَنَبَاتِ قَبْرِي ... كَأَنَّ أقَارِبِي لا يَعرِفُونِي

وذَوُوا الأَمْوَال يَقتَسِمُونَ مالِي ... ولا يَأْلُون إن جَحَدُوا دُيُونِي

قَدْ أخَذُوا سِهَامَهُم وعَاشُوا ... فَيالله مَا أسْرَعَ مَا نَسُونِي

وعَنْ عُقْبَةَ البَزَّارِ قَالَ: «رَأى أعْرَابِيٌّ جِنَازَةً فَأقبَلَ يَقُولُ: هَنِيئًا يَا صَاحِبَهَا، فَقُلْتُ: عَلامَ تُهنئُهُ؟ قال: كَيفَ لا أُهَنِّئ مَن يُذهَبُ بِهِ إلى حَبْسِ جَوادٍ كَرِيمٍ، نُزُلُهُ عَظِيمٌ، عَفْوُهُ جَسِيمٌ؟ قَالَ: كَأَنِّي لم أسْمَعِ القَولَ إلَّا تِلكَ السَّاعَةَ».

وقالَ بَعضُهم وهو واقفٌ عَلَى القبر:

ولَقَد وَقَفتُ كَمَا وَقَفْتَ وقَدْ نَظَرتُ فَمَا اعْتَبرتُ

حَصِّل لِنَفسِكَ مَنزِلاً قَبلَ الحُصُول كَمَا حَصَلتُ

وَأَوْصَى بَعْضُ الوُزَرَاءِ أن يُكْتَبَ عَلَى قَبرِه (عَلَى سَبيلِ المَوعِظَةِ):

أيُّهَا المَغْرُورُ فِي الدُّ ... نْيَا بعِزٍّ تَقْتَنِيهِ

وبأهلٍ وبمَالٍ ... وبقَصرٍ تَبتَنِيهِ

كَم عَلَيهَا قَدْ سَحَبنا ... ذَيلَ سُلطَانٍ بتِيهِ

تَحْسَبُ الأَقْدَارَ تَجْرِي ... بخُلُودٍ تَرْتَجِيهِ

إذا طَوَاكَ المَوت طَيًّا ... فَاعْتَبِر مَا نَحْنُ فِيهِ

وأَنْشَدُوا:

خَلِيلَيَّ مَا أُقْضِي ومَا أنَا قَائِلُ — إذا جِئْتُ عَنْ نَفْسِي بنَفسِي أجَادِلُ؟
وقَدْ وَضَعَ الرَّحمن بالحَشرِ عَدلَهُ — وسِيقَ جَمِيعُ النَّاس والَيومُ بَاسِلُ
وجِيئَ بجِزَمِ النَّار خَاضِعَةً لَهُ — وتُلِّت عُرُوشٌ عِندهَا وتُجَادِلُ
فَيَا لَيتَ شِعْرِي ذَلِكَ اليَومَ هَل أنَا — لُ الغُفْرَ أمْ أُجْزَى بمَا أنَا فَاعِلُ
فَإنْ أكُ مَجْزِيًّا فَعَدلٌ وحُجَّةٌ — وانْ يَكُ غُفْرَانٌ فَفَضْلٌ ونَائِلُ[1]

عباد الله...

والمواعظ في هذا المقام كثيرة، ويكفي قول الحق سُبْحَانَهُ وتعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ١- ٨].

قَالَ الإمامُ القرطبيُّ - رَحِمَهُ الله - في تفسيره هذه السورة ما مختصره:

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تَعَالَى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ أي: أهاكم شغلكم. قَالَ [امرئ القيس]:

فمثلك حبلى قَدْ طرقت ومرضع — فألهيتُها عن ذي تمائم مُغْيل

أي شغلكم المباهاة بكثرة المال والعدد عن طاعة الله، حتى مِتم ودُفنتم في المقابر.

وقيل ﴿أَلْهَاكُمُ﴾: أنساكم. ﴿التَّكَاثُرُ﴾ أي: من الأموال والأولاد، قاله ابن عباس والحسن. وقال قتادة: أي: التفاخر بالقبائل والعشائر. وقال الضحاك: أي أهاكم التشاغل بالمعاش والتجارة.

قلت: الآية تعمّ جميع ما ذكر وغيره.

وفي «صحيح مسلم» عَنْ مُطَرِّفٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ ﴿أَلْهَاكُمُ

---

(١) «العاقبة في أحوال الآخرة» لعبد الحق الأزدي.

التَّكَاثُرُ ﴾ قَالَ: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي مَالِي، وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟!»[١].

وروى البخاريّ عن ابْنِ شِهَابٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَادِيَانِ، وَلَنْ يَمْلأَ فَاهُ إِلاَّ التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ»[٢].

قال ثابت عن أنس عن أبي: كنا نرى هذا من القرآن، حتى نزلت ﴿أَلْـهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾.

قال ابن العربي: وهذا نصٌّ صحيح مليح غاب عن أهل التفسير فجهلوا وجَهَّلوا، والحمد لله على المعرفة.

وقال ابن عباس: قرأ النَّبيّ ﷺ ﴿أَلْـهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ قال: «تكاثر الأموال: جمعها من غير حقها، ومنعها من حقها، وشدّها في الأوعية».

الثانية: قوله تَعَالَى: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ أي حَتَّى أتاكم الموت، فصرتم في المقابر زوارًا، ترجعون منها كرجوع الزائر إلى منزله من جنة أو نار.

يقال لمن مات: قد زار قبره.

وقيل: أي ﴿أَلْـهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ حتى عددتم الأموات، على ما تقدم.

وقيل: هذا وعيد، أي أشتغلتم بمفاخرة الدنيا، حتى تزوروا القبور، فتروا ما ينزل بكم من عذاب الله عَزَّ وَجَلَّ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿الْمَقَابِرَ ﴾ جمع مَقْبَرة ومَقْبُرة - بفتح الباء وضمها- والقبور: جمع القبر قال:

أرى أهلَ القُصُور إذا أُميتُوا ... بنوا فوق المقابر بالصُّخور

أبَوا إلا مُباهاةً وفَخرًا ... عَلَى الفُقَراء حَتَّى في القُبورِ

وقد جاء في الشعر (المَقْبَر) قال:

---

(١) رواه مسلم (٥٣) كتاب «الزهد» الحديث (٣/ ٢٩٥٨)، وغيره.

(٢) رواه البخاري (٦٤٣٩)، ومسلم (١١٧/ ١٠٤٨)، وغيرهما.

لكــل أنــاس مَقبَــر بفــنائهم فَهُــم يَنقُــصُونَ والقَــبورُ تــزِيدُ

وهُوَ المَقْبُرِيّ والمقْبَرِيّ: لأبي سعيد المقبري، وكان يسكن المقابر.

وقَبَرت الميِّت أقْبِرهُ وأقبِرُهُ قَبرًا، أي دفنته. وأقبرته أي: أمرت بأن يُقبر.

الرابعة: لم يأت في التنزيل ذكر المقابر إلا في هذه السورة. وزيارتها من أعظم الدواء للقلب القاسي، لأنها تذكّر الموت والآخرة، وذَلِكَ يحمل على قصر الأمل، والزهد في الدنيا، وترك الرغبة فيها.

قال النَّبيّ ﷺ: «**كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ فَزُورُوا القُبُورَ فَإِنَّهَا تُزَهِّدُ فِي الدُّنْيَا وَتُذَكِّرُ الآخِرَةَ**»[١]، رواه ابن مسعود، أخرجه ابن ماجه.

وفي «الترمذي» عن أبي هريرة: أنَّ رَسُول الله ﷺ لعن زوارات القبور[٢]. قال: وفي الباب عن ابن عباس وحسان بن ثابت. قال أبو عيسى: وهذا حديث حسن صحيح.

وقد رأى بعض أهل العلم أن هذا كان قبل أن يرخص النَّبيّ ﷺ في زيارة القبور، فلما رخّص دخل في رخصته الرجال والنساء.

وقال بعضهم: إنما كره زيارة القبور للنساء لقلة صبرهن، وكثرة جزعهن.

قلت: زيارة القبور للرجال متفق عليه عند العلماء، مختلف فيه للنساء. أما الشوابّ فحرام عليهن الخروج، وأما القواعد فمباح لهن ذلك. وجائز لجميعهن، ذلك إذا انفردن بالخروج عن الرجال، ولا يختلف في هذا إن شاء الله.

وعلى هذا المعنى يكون قوله: «**زوروا القبور**» عامًّا.

وأمّا مَوضعٌ أو وقتٌ يُخشى فيه الفتنة من اجتماع الرجال والنساء، فلا يحلّ ولا يجوز.

فبينا الرجل يخرج ليعتبر، فيقع بصره على امرأة فيفتتن، وبالعكس فيرجع كل واحد من الرجال والنساء مأزورا غير مأجور، والله أعلم.

---

(١) **صحيح**: رواه ابن ماجه، وصححه المنذريّ والألباني.

(٢) رواه الترمذي (١٠٥٦).

الخامسة: قال العلماء: ينبغي لمن أراد علاج قلبه وانقياده بسلاسل القهر إلى طاعة ربه، أن يكثر من ذكر هاذم[١] اللذات، ومفرق الجماعات، وموتم البنين والبنات، ويواظب على مشاهدة المحتضرين، وزيارة قبور أموات المسلمين.

فهذه ثلاثة أمور، ينبغي لمن قسا قلبه، ولزمه ذنبه، أن يستعين بها على دواء دائه، ويستصرخ بها على فتن الشيطان وأعوانه، فإن انتفع بالاكثار من ذكر الموت، وانجلت به قساوة قلبه فذاك، وإن عظم عليه ران قلبه، واستحكمت فيه دواعي الذنب، فإن مشاهدة المحتضرين، وزيارة قبور أموات المسلمين، تبلغ في دفع ذلك ما لا يبلغه الأول، لأن ذكر الموت إخبار للقلب بما إليه المصير، وقائم له مقام التخويف والتحذير.

وفي مشاهدة من احتضر، وزيارة قبر من مات من المسلمين معاينة ومشاهدة، فلذلك كان أبلغ من الأول، قال ﷺ: «**ليس الخبر كالمعاينة**»[٢] رواه ابن عباس.

فأما الاعتبار بحال المحتضرين، فغير ممكن في كل الأوقات، وقد لا يتفق لمن أراد علاج قلبه في ساعة من الساعات.

وأما زيارة القبور فوجودها أسرع، والانتفاع بها أليق وأجدر.

فينبغي لمن عزم على الزيارة، أن يتأدب بآدابها، ويحضر قلبه في إتيانها، ولا يكون حظه منها التطواف على الاجداث فقط، فإن هذه حالة تشاركه فيها بهيمة. ونعوذ بالله من ذلك.

بل يقصد بزيارته وجه الله تعالى، وإصلاح فساد قلبه، أو نفع الميت بما يتلو عنده من القرآن والدعاء، ويتجنب المشي على المقابر، والجلوس عليها ويسلم إذا دخل المقابر وإذا وصل إلى قبر ميته الذي يعرفه سلم عليه أيضًا، وأتاه من تلقاء وجهه، لأنه في زيارته كمخاطبته حيًّا، ولو خاطبه حيًّا لكان الادب استقباله بوجهه، فكذلك ها هنا.

ثم يعتبر بمن صار تحت التراب، وانقطع عن الأهل والأحباب، بعد أن قاد الجيوش والعساكر، ونافس الأصحاب والعشائر، وجمع الأموال والذخائر، فجاءه

---

(١) **هاذم**: بمعنى قاطع، كناية عن الموت.

(٢) **صحيح**: رواه الطبراني في «الأوسط» وغيره، وانظر «صحيح الجامع» (٥٣٧٣).

الموت في وقت لم يحتسبه، وهول لم يرتقبه.

فليتأمل الزائر حال من مضي من إخوانه، ودرج من أقرانه الذين بلغوا الآمال، وجمعوا الأموال، كيف انقطعت آمالهم، ولم تغن عنهم أموالهم، ومحا التراب محاسن وجوههم، وافترقت في القبور أجزاؤهم، وترمل من بعدهم نساؤهم، وشمل ذل اليتم أولادهم، واقتسم غيرهم طريفهم وتلادهم.

وليتذكر ترددهم في المآرب، وحرصهم على نيل المطالب، وانخداعهم لمواتاة الأسباب، وركونهم إلى الصحة والشباب.

وليعلم أن ميله إلى اللهو واللعب كميلهم، وغفلته عما بين يديه من الموت الفظيع، والهلاك السريع، كغفلتهم، وأنه لا بد صائر إلى مصيرهم، وليحضر بقلبه ذكر من كان مترددًا في أغراضه، وكيف تهدمت رجلاه.

وكان يتلذذ بالنظر إلى ما خوله وقد سالت عيناه، ويصول ببلاغة نطقه وقد أكل الدود لسانه، ويضحك لمواتاة دهره وقد أبلى التراب أسنانه، وليتحقق أن حاله كحاله، ومآله كمآله.

وعند هذا التذكر والاعتبار تزول عنه جميع الأغيار الدنيوية، ويقبل على الأعمال الأخروية، فيزهد في دنياه، ويقبل على طاعة مولاه، ويلين قلبه، وتخشع جوارحه.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ قال الفراء: أي ليس الأمر على ما أنتم عليه من التفاخر والتكاثر والتمام على هذا ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي سوف تعلمون عاقبة هذا.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: وعيد بعد وعيد، قاله مجاهد. ويحتمل أن يكون تكراره على وجه التأكيد والتغليظ، وهو قول الفراء.

وقال ابن عباس: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما ينزل بكم من العذاب في القبر.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في الآخرة إذا حل بكم العذاب. فالأول في القبر، والثاني في الآخرة، فالتكرار للحالتين.

وقيل: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عند المعاينة، أن ما دعوتكم إليه حق.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: عند البعث أن ما وعدتكم به صدق.

قلت: فتضمنت السورة القول في عذاب القبر.

وقد ذكرنا في كتاب «التذكرة» أن الإيمان به واجب، والتصديق به لازم، حسبما أخبر به الصادق، وأن الله تعالى يحيي العبد المكلف في قبره، برد الحياة إليه، ويجعل له من العقل في مثل الوصف الذي عاش عليه، ليعقل ما يسأل عنه، وما يجيب به، ويفهم ما أتاه من ربه، وما أعد له في قبره، من كرامة وهوان.

وهذا هو مذهب أهل السنة، والذي عليه الجماعة من أهل الملة.

وقيل: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عند النشور أنكم مبعوثون ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في القيامة أنكم معذبون.

وعلى هذا تضمنت أحوال القيامة من بعث وحشر، وسؤال وعرض، إلى غير ذلك من أهوالها وأفزاعها.

وقال الضحاك: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يعني الكفار، ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: قال المؤمنون. وكذلك كان يقرؤها، الأولى بالتاء والثانية بالياء.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أعاد ﴿كَلَّا﴾ وهو زجر وتنبيه، لأنه عقب كل واحد بشيء آخر، كأنه قال: لا تفعلوا، فإنكم تندمون، لا تفعلوا، فإنكم تستوجبون العقاب. وإضافة العلم إلى اليقين، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥]، وقيل: ﴿الْيَقِينِ﴾ ها هنا: الموت، قاله قتادة.

وعنه أيضًا: البعث، لأنه إذا جاء زال الشك، أي لو تعلمون علم البعث. وجواب (لو) محذوف، أي: لو تعلمون اليوم من البعث ما تعلمونه إذا جاءتكم نفخة الصور، وانشقت اللحود عن جثثكم، كيف يكون حشركم؟ لشغلكم ذلك عن التكاثر بالدنيا.

وقيل: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أي لو قد تطايرت الصحف، فشقيٌّ وسعيدٌ.

قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ هذا وعيد آخر، وهو على إضمار القسم، أي: لترون الجحيم في الآخرة، والخطاب للكفار الذين وجبت لهم النار.

وقيل: هو عام، كما قال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، فَهُيِّئَ للكفار دار، وللمؤمنين مَمَر.

وفي الصحيح: «فيمر أولهم كالبرق، ثم كالريح، ثم كالطير...» الحديث(١).

وقرأ الكسائي وابن عامر: ﴿لَتُرَوُنَّ﴾ بضم التاء، من أريته الشيء، أي: تحشرون إليها فترونها.

وعلى فتح التاء هي قراءة الجماعة، أي: لترون الجحيم بأبصاركم على البعد.

قوله: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ أي مشاهدةً.

قوله تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾.

روى مسلم في «صحيحه»

عن أبي هريرة، قال: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ لَيْلَةٍ فَإِذَا هُوَ بِأَبِى بَكْرٍ وَعُمَرَ فَقَالَ: «مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟». قَالاَ: الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «وَأَنَا وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لأَخْرَجَنِى الَّذِى أَخْرَجَكُمَا، قُومُوا». فَقَامُوا مَعَهُ فَأَتَى رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِى بَيْتِهِ فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ قَالَتْ: مَرْحَبًا وَأَهْلاً. فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيْنَ فُلاَنٌ؟». قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا مِنَ الْمَاءِ. إِذْ جَاءَ الأَنْصَارِىُّ فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصَاحِبَيْهِ ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لله مَا أَحَدٌ الْيَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّى، قَالَ: فَانْطَلَقَ فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطَبٌ فَقَالَ: كُلُوا مِنْ هَذِهِ. وَأَخَذَ الْمُدْيَةَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِيَّاكَ وَالْحَلُوبَ». فَذَبَحَ لَهُمْ فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعِذْقِ وَشَرِبُوا، فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لأَبِى بَكْرٍ وَعُمَرَ: «وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الْجُوعُ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ».

خرَّجه الترمذي، وقال فيه: «هَذَا وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ مِنَ النَّعِيمِ الَّذِى تُسْأَلُونَ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظِلٌّ بَارِدٌ وَرُطَبٌ طَيِّبٌ وَمَاءٌ بَارِدٌ».

وكنى الرجل الذي من الأنصار، فقال: أبو الهيثم ابن التيهان، وذكر قصته.

واختلف أهل التأويل في النعيم المسئول عنه على عشرة أقوال:

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

أحدها: الأمن والصحة، قاله ابن مسعود.

الثاني: الصحة والفراغ، قاله سعيد بن جبير. وفي البخاري عنه ﷺ: «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ**»(١).

الثالث: الإدراك بحواس السمع والبصر، قاله ابن عباس. وفي التنزيل: ﴿**إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا**﴾ [الإسراء: ٣٦]. وفي الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالاَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يُؤْتَى بِالعَبْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ سَمْعًا وَبَصَرًا وَمَالاً وَوَلَدًا...**»(٢) الحديث. خرَّجه الترمذي وقال فيه: حديث حسن صحيح.

الرابع: ملاذ المأكول والمشروب قاله جابر بن عبد الله الأنصاري. وحديث أبي هريرة يدل عليه.

الخامس: أنَّهُ الغداء والعَشاء، قاله الحسن.

السادس: قول مكحول الشامي: أنَّهُ شبع البطون وبارد الشراب، وظلال المساكن، واعتدال الخَلق، ولذّة النوم.

وقال الماورديّ: وهذا السؤال يعمُّ الكافر والمؤمن، إلا أن سؤال المؤمن تبشير بأن يجمع له بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة. وسؤال الكافر تقريع أن قابل نعيم الدنيا بالكفر والمعصية. وقال قوم: هذا السؤال عن كل نعمة، إنما يكون في حق الكفار.

وقال الحسن: لا يُسأل عن النعيم إلّا أهل النار.

وقال القشيري: والجمع بين الأخبار: أنَّ الكُل يُسألون، ولكن سؤال الكفار توبيخ، لأنه قَدْ ترك الشكر، وسؤال المؤمن سؤال تشريف، لأنه شكر، وهذا النعيم في كل نعمة.

قلت: هذا القول حسن، لأن اللفظ يعم.

---

(١) رواه البخاري (٧٤١٢)، وقوله: «مغبون» أي: ذو خسران فيهما، فغالب النَّاس لا ينتفعون بالصّحة والفراغ.

(٢) حسن صحيح.

وقد ذكر الفريابي قال: حدثنا ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ قال: كل شيء من لذة الدُّنْيَا.

وفي الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ قَالَ النَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنْ أَيِّ النَّعِيمِ نُسْأَلُ وَإِنَّمَا هُمَا الأَسْوَدَانِ وَالعَدُوُّ حَاضِرٌ وَسُيُوفُنَا عَلَى عَوَاتِقِنَا؟ قَالَ: «إِنَّ ذَلِكَ سَيَكُونُ»[(١)].

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ - يَعْنِي العَبْدَ مِنَ النَّعِيمِ - أَنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ وَنُرْوِيكَ مِنَ المَاءِ البَارِدِ»[(٢)].

والجاه مِن نعيم الدُّنْيَا لا محالة.

وقال مالك رحمه الله: إنه صحة البدن، وطيب النفس. وهو القول السابع.

وقيل: النوم مع الأمن والعافية.

وقال سفيان بن عُيينة: إن ما سدّ الجوع وستر العورة من خشن الطعام واللباس، لا يسأل عنه المرء يوم القيامة، وإنما يسأل عن النعيم. قال: والدليل عليه أن الله تعالى أسكن آدم الجنة. فقال له: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ [طه: ١١٨، ١١٩].

فكانت هذه الأشياء الأربعة - ما يُسدّ به الجوع، وما يُدفع به العطش، وما يَستكنُّ فيه من الحر، ويَستُرُ به عورته - لآدم عَلَيْهِ السَّلام بالإطلاق، لا حساب عليه فيها، لأنَّهُ لابُدَّ له منها.

قلت: ونحو هذا ذكره القشيري أبو نصر، قال: إن مِمَّا لا يُسأل عنه العبد لباسًا يواري سوأته، وطعامًا يُقيم صلبه، ومكانًا يكنه مِن الحرّ والبرد.

قلت: وهذا منتزع من قوله ﷺ: «لَيْسَ لِابْنِ آدَمَ حَقٌّ فِي سِوَى هَذِهِ الخِصَالِ بَيْتٌ يَسْكُنُهُ وَثَوْبٌ يُوَارِي عَوْرَتَهُ وَجِلْفُ الخُبْزِ وَالمَاءِ»[(٣)]. خرّجه الترمذي.

---

(١) **حسن:** رواه الترمذي (٣٥٩٤)، وحسنه الألباني.

(٢) **حسن:** رواه الترمذي (٣٥٩٥)، وحسنه الألباني.

(٣) **ضعيف بهذا اللفظ:** انظر «ضعيف سنن الترمذي» (٤٠٦)، وقد جاء بإسناد حسن بلفظ: «مَن

وقال النضر بن شميل: جِلْفُ الخُبْز: ليس معه إدام.

وقال محمد بن كعب: النعيم: هو ما أنعم الله علينا بمحمد ﷺ.

وفي التنزيل: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقال الحسن أيضًا والمفضل: هو تخفيف الشرائع، وتيسير القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

قلت: وكل هَذِهِ نِعم، فيسأل العبد عنها: هل شكر ذلك أم كفر. والأقوال المتقدمة أظهر، والله أعلم» ا.هـ..

عباد الله...

وبهذا التفسير القيم لسورة التكاثر، نأتي إلى خِتام الخطبة الأولى، سائلًا المولى - تبارك وتعالى - أن يجعلني وإياكم من الراغبين في الآخرة، الزاهدين في الدُّنْيَا.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فمما ينبغي أن يُعرف ونوقن به: أن متاع الدُّنْيَا قليل. قال تَعَالَى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلًا * أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٧، ٧٨].

فيا غافلًا عن ذِكر قبره.

أما نقلَ الموتُ واحدًا واحدًا؟

= أصبح منكم آمنًا في سربه، معافى في جسده، عنده قوتُ يَومه، فكأنَّما حِيزت له الدُّنْيَا» انظر «صحيح سنن الترمذي» (١٩١٣).

وها هو قَدْ أضحى نحوك قاصدًا.

كم سلب ولدًا وأخذ والدًا.

إلى متى تصبح جاهلًا، وتمسي ماردًا؟!

أين أصحاب القصور العالية؟

أين ملوك الأمم الخالية؟

قَدْ حق عليهم الوعيد.

أما رأيتَ حالهم وقَدْ هَدم الموت بنيانهم، وأكل التراب أجسامَهم، ومصّ الدودُ دمائَهم، ونخر الدَّهرُ عظامهم.

يا ابن آدم...

تـنـاديك أجــداث وهــنَّ ســكوت ... وسُـكانها تحـت الـتراب خفـوت

أيــا جامـع الدُّنْـيَا لغــير بلاغـة ... لمـن تجمـع الدُّنْـيَا وأنـت تمـوت؟!

۞۞۞۞۞

الخطبة الثالثة والتسعون:

إثبات عذاب القبر ونعيمه

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فالإيمان بعذاب القبر وفتنته واجبٌ، والتّصديق به لازمٌ، حسب ما أخبر به الصَّادق ﷺ.

وأنَّ الله تَعَالَى يحيي العبد المُكَلَّف في قبره برَدِّ الحياة إليه ويجعليه مِن العقل في مثل الوصف الَّذي عاش عليه، ليعقل ما يسأل عنه وما يجيب به، ويفهم ما أتاه من ربه وما أعدّ له في قبره من كرامة أَوْ هوان، وبهذا نطقت الأخبارُ عن النَّبيِّ ﷺ وعلى آله آناء الليل وأطراف النَّهار، وهذا مذهب أهل السُّنة والذي عليه الجماعة من أهل المِلّة، ولم تفهم الصحابة الذين نزل القرآن بلسانهم ولغتهم مِن نبيّهم عَلَيْهِ السَّلام غير ما ذكرنا.

وكذلك التابعون بعدهم إلى هَلُمّ جَرًّا.

وفي حديث البراء: «**فتُعاد روحه في جسده**»، وحسبك.

وقَدْ قِيل: إن السؤال والعذاب إنما يكون عَلَى الروح دون الجسد، وما ذكرناه لك أولًا أصح، والله أعلم.

عباد الله...

والأدلة عَلَى عذاب القبر ونعيمه كثيرة.

فمن القرآن:

(١) قوله تَعَالَى: «**وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ**» [الأنعام: ٩٣].

(٢) وقال تَعَالَى: ﴿**سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ**﴾ [التوبة: ١٠١].

قال الحسن البصري -رَحِمَهُ الله -: ﴿**سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ**﴾: عذاب الدُّنْيَا وعذاب القبر[١].

(٣) قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦].

قَالَ القرطبيُّ - رَحِمَهُ الله -: «والجمهور عَلَى أن هذا العرض يكون في البرزخ، وهو حجة في إثبات عذاب القبر». ا.هـ[٢].

(٤) وقال تَعَالَى: ﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**﴾ [إبراهيم: ٢٧].

عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ الله عَنْهُ:

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا أُقْعِدَ الْمُؤْمِنُ فِى قَبْرِهِ أُتِىَ، ثُمَّ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا**

---

(١) «فتح الباري» (٣/ ٢٣٣)، وانظر «تفسير الطبري» (٦/ ٩ - ١١).

(٢) «فتح الباري» (٤٥، ٤٦).

رَسُولُ اللَّهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾».

وفي رواية أخرى: وزاد: «﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ نَزَلَتْ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ»[1].

(٥) وقال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

قال مجاهد: «﴿الْأَدْنَى﴾ في القبور وعذاب الدنيا»[2].

(٦) وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤]. قال رسول الله ﷺ: «عذاب القبر»[3].

عباد الله...

هَذِهِ بعض الآيات الدالة عَلَى إثبات عذاب القبر، أما الأحاديث فكثيرة جدًّا، منها:

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْمَيِّتَ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَالِحًا قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ اخْرُجِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَيُفْتَحُ لَهَا فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ. فَيُقَالُ: مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ ادْخُلِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ. فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السُّوءُ قَالَ: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ اخْرُجِي ذَمِيمَةً وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ. وَآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ. فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَلَا يُفْتَحُ لَهَا فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا فَيُقَالُ: فُلَانٌ. فَيُقَالُ: لَا مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الْخَبِيثَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ ارْجِعِي ذَمِيمَةً فَإِنَّهَا لَا تُفْتَحُ لَكِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ فَيُرْسَلُ بِهَا مِنَ السَّمَاءِ ثُمَّ تَصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ»[4].

---

(١) رواه البخاري (٣/ ٢٣١).

(٢) «تفسير الطبري» (٩/ ١١٠).

(٣) إسناده جيد.

(٤) إسناده صحيح: رواه أحمد (٤/ ٣٦٤)، وصححه البيهقي في «إثبات عذاب القبر» (٤٩).

(٢) وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُو: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَمِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ»(١).

(٣) وعَن أبي سعيد الخدريّ رَضِيَ الله عَنْهُ، عن النَّبيّ ﷺ قَالَ: «إِذَا وُضِعَتِ الجَنَازَةُ وَاحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ، فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً قَالَتْ: قَدِّمُونِي قَدِّمُونِي. وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ قَالَتْ: يَا وَيْلَهَا أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِهَا؟ يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلاَّ الإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهُ صَعِقَ»(٢).

(٤) وعن سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَلِّمُنَا هَؤُلاَءِ الكَلِمَاتِ كَمَا تُعَلَّمُ الكِتَابَةُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ البُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الجُبْنِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ نُرَدَّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا، وَعَذَابِ القَبْرِ»(٣).

(٥) عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ: لاَ أَقُولُ لَكُمْ إِلاَّ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ، كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ وَالكَسَلِ، وَالجُبْنِ وَالبُخْلِ، وَالهَرَمِ وَعَذَابِ القَبْرِ، اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاَهَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لاَ تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لاَ يُسْتَجَابُ لَهَا»(٤).

(٦) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمْسَى قَالَ: «أَمْسَيْنَا وَأَمْسَى المُلْكُ لله وَالحَمْدُ لله لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ». قَالَ: أُرَاهُ قَالَ فِيهِنَّ: «لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، رَبِّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَخَيْرَ مَا بَعْدَهَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَشَرِّ مَا بَعْدَهَا، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنَ الكَسَلِ وَسُوءِ الكِبَرِ، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ وَعَذَابٍ فِي القَبْرِ». وَإِذَا أَصْبَحَ قَالَ ذَلِكَ أَيْضًا: «أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ المُلْكُ لِلَّهِ»(٥).

---

(١) رواه البخاري (٣/ ٢٤١)، ومسلم (٥٨٨).

(٢) رواه البخاري (٣/ ٢٤٤).

(٣) رواه البخاري (١١/ ١٧٩) وغيره.

(٤) رواه مسلم (٢٧٢٢)، والنسائي (٨/ ٢٦٠).

(٥) رواه مسلم (٢٧٢٣).

(٧) عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ حَسَنَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: انْطَلَقْتُ أَنَا وَعَمْرُو بْنُ العَاصِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَخَرَجَ وَمَعَهُ دَرَقَةٌ ثُمَّ اسْتَتَرَ بِهَا ثُمَّ بَالَ فَقُلْنَا: انْظُرُوا إِلَيْهِ يَبُولُ كَمَا تَبُولُ المَرْأَةُ. فَسَمِعَ ذَلِكَ فَقَالَ: «**أَلَمْ تَعْلَمُوا مَا لَقِيَ صَاحِبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا إِذَا أَصَابَهُمُ البَوْلُ قَطَعُوا مَا أَصَابَهُ البَوْلُ مِنْهُمْ فَنَهَاهُمْ فَعُذِّبَ فِي قَبْرِهِ**»(١).

(٨) وعن عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى جَنَازَةٍ فَحَفِظْتُ مِنْ دُعَائِهِ وَهُوَ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ، وَعَافِهِ وَاعْفُ عَنْهُ، وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ وَوَسِّعْ مُدْخَلَهُ، وَاغْسِلْهُ بِالمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالبَرَدِ، وَنَقِّهِ مِنَ الخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ، وَأَبْدِلْهُ دَارًا خَيْرًا مِنْ دَارِهِ، وَأَهْلاً خَيْرًا مِنْ أَهْلِهِ، وَزَوْجًا خَيْرًا مِنْ زَوْجِهِ، وَأَدْخِلْهُ الجَنَّةَ وَأَعِذْهُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ وعَذَابِ النَّارِ**»(٢).

عباد الله...

هَذِهِ بعض أدلة عذاب القبر، فاعملوا قدر جهدكم للنجاة من عذابه، والله سُبْحَانَهُ المسئول أن يقيني وإيَّاكم من عذابه، إنه وليّ ذَلِكَ والقادر عليه.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فقد يسأل سائل عن كيفية إجلاس الميِّت، واختلاف أضلاعه إذا كان عاصيًا.

ويجيب ابنُ القَيِّم -رَحِمَهُ الله- **عن هذا فيقول:**

«ما ورد من إجلاسه واختلاف أضلاعه ونحو ذَلِكَ، فيجب أن يُفهم عن الرسول ﷺ مراده من غير غلو ولا تقصير، فلا يحمل كلامه ما لا يحتمله، ولا يقصر به عن مراده وما قصده من الهدى والبيان، فكم حصل بإهمال ذَلِكَ والعدول عنه من الضلال

(١) رواه النسائي وابن ماجه، قَالَ الأرناؤوط: إسناده صحيح عَلَى شرط الشيخين.

(٢) أخرجه مسلم (٩٦٣)، وغيره.

والعدول عن الصواب ما لا يعلمه إِلَّا الله، بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام، وهو أصل كل خطأ في الفروع والأصول، ولاسيما إن أضيف إليه سوء القصد، والله المستعان»[١].

فالحاصل أن الدور ثلاث: دار الدُّنْيَا، ودار البرزخ، ودار القرار.

وقَدْ جعل الله لكل دار أحكامًا تخصها، وركّب هذا الإنسان من بدن ونفس، وجعل أحكام الدُّنْيَا عَلَى الأبدان، والأرواح تبع لها، وجعل أحكام البرزخ عَلَى الأرواح، والأبدان تبع لها، فَإِذَا جاء يوم حشر الأجساد وقيام النَّاس من قبورهم صار الحكم والنعيم والعذاب عَلَى الأرواح والأجساد جميعًا.

فَإِذَا تأملت هذا المعنى حق التأمل، ظهر لك أن كون القبر روضة من رياض الجَنَّة أو حفرة من حفر النار مطابق للعقل، وأَنَّهُ حقٌّ لا مرية فيه، وبذلك يتميز المؤمنون بالغيب من غيرهم» ا.هـ[٢].

عباد الله...

وكثير من النَّاس يسأل عن حال مَن مات في البحر أو أكلته السّباع ونحو ذَلِكَ.

ويجيب ابنُ القيِّم - رَحِمَهُ الله - عن هذا فيقول: «اعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ، فكل مَن مات وهو مستحقٌّ للعذاب ناله نصيبه منه، قُبر أم لم يُقبَر، أكلته السباع أَوْ احترق حَتَّى صار رمادًا ونسف في الهواء، أَوْ صُلب أَوْ غرق في البحر، وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور» ا.هـ[٣].

عباد الله...

وبالجملة: فَعِلم الله محيط، وأمره بين الكافِ والنونِ، وإذا جاء الدليل وجب التسليم.

۞۞۞۞۞

---

(١) «الروح» (١١٣).

(٢) «الروح» (١١٤، ١١٥).

(٣) «الروح» (١٠٦).

الخطبة الرابعة والتسعون:

حول عذاب القبر ونعيمه

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فهذه خطبة خاصة نتكلم فيها - إن شاء الله تَعَالَى - عن مسائل خاصّة بعذاب القبر ونعيمه، يَسأل عَنْهَا كثيرٌ مِن النَّاس.

عباد الله...

أولاً: القبر: هو البرزخ.

قَالَ ابن أبي العز: «اعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ، فكل مَن مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه، قبر أم لم يقبر، أكلته السباع أَوْ احترق حَتَّى صار رمادًا

ونسف في الهواء، أَوْ صُلب أَوْ غرق في البحر، وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور»[(١)].

«ما ورد من إجلاسه واختلاف أضلاعه ونحو ذَلِكَ، فيجب أن يُفهم عن الرسول ﷺ مراده من غير غلو ولا تقصير، فلا يحمل كلامه ما لا يحتمله، ولا يقصر به عن مراده وما قصده من الهدى والبيان، فكم حصل بإهمال ذَلِكَ والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب ما لا يعلمه إِلَّا الله، بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام، وهو أصل كل خطأ في الفروع والأصول، ولاسيما إن أضيف إليه سوء القصد، والله المستعان»[(٢)].

فالحاصل أن الدور ثلاث: دار الدُّنْيَا، ودار البرزخ، ودار القرار.

وقَدْ جعل الله لكل دار أحكامًا تخصها، وركّب هذا الإنسان من بدن ونفس، وجعل أحكام الدُّنْيَا عَلَى الأبدان، والأرواح تبع لها، وجعل أحكام البرزخ عَلَى الأرواح، والأبدان تبع لها، فَإِذَا جاء يوم حشر الأجساد وقيام النَّاس من قبورهم صار الحكم والنعيم والعذاب عَلَى الأرواح والأجساد جميعًا.

فَإِذَا تأملت هذا المعنى حق التأمل، ظهر لك أن كون القبر روضة من رياض الجَنَّة أو حفرة من حفر النار مطابق للعقل، وأَنَّهُ حقٌّ لا مرية فيه، وبذلك يتميز المؤمنون بالغيب من غيرهم» ا.هـ[(٣)].

وقال الإمام ابنُ القَيِّم: «إنه ينبغي أن يُعلم أنَّ عذاب القبر ونعيمه اسم لعذاب البرزخ ونعيمه وهو ما بين الدنيا والآخرة، قال تَعَالَى: ﴿**وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾ ،[المؤمنون: ١٠٠] وهذا البرزخ يشرف أهله فيه على الدنيا والآخرة، وسمى عذاب القبر ونعيمه وأَنَّهُ روضة أو حفرة نار، باعتبار غالب الخلق، فالمصلوب والحرق والغرق وأكيل السباع ! والطيور له من عذاب البرزخ ونعيمه قسطه الذى تقتضيه أعماله وإن تنوعت أسباب النعيم والعذاب وكيفياتها، فقد ظن بعض الأوائل أَنَّهُ إذا

---

(١) «الروح» (١٠٦).

(٢) «الروح» (١١٣).

(٣) «الروح» (١١٤، ١١٥).

حرق جسده بالنار وصار رمادًا وذرى بعضه في البحر وبعضه في البر في يوم شديد الريح أَنَّهُ ينجو مِن ذلك فأوصى بنيه أن يفعلوا به ذلك فأمر الله البحر فجمع ما فيه وأمر البر فجمع ما فيه ثم قَالَ: قم، فإذا هو قائم بين يدى الله فسأله ما حملك على ما فعلت؟ فقال: خشيتك يا رب وأنت أعلم، فما تلافاه أنْ رحمه، فلم يفت عذاب البرزخ ونعيمه هذه الأجزاء التي صارت في هذه الحال حتى لو علق الميت على رؤوس الأشجار في مهاب الرياح لأصاب جسده من عذاب البرزخ حظه ونصيبه، ولو دفن الرجل الصالح في أتون مِن النار لأصاب جسده من نعيم البرزخ وروحه نصيبه وحظه، فيجعل الله النار على هذا بردًا وسلامًا والهواء على ذلك نارًا وسمومًا، فعناصر العالم ومواده منقادة لربها وفاطرها وخالقها يصرفها كيف يشاء ولا يستعصى عليه منها شيء أراده، بل هي طوع مشيئته مذللة منقادة لقدرته، ومن أنكر هذا فقد جحد رب العالمين وكفر به وأنكر ربوبيته»[(١)].

عباد الله...

ثانيًا: عذاب القبر ونعيمه للروح والبدن جميعًا:

قَالَ ابن أبي العز: «عذاب القبر يكون للنفس والبدن جميعًا، باتفاق أهل السُّنَّة والجماعة، تُنعَّم النَّفْس وتُعذَّب مفردة عن البدن ومتصلة به» ا.هـ[(٢)].

وقال الإمام ابنُ القَيِّم: عذاب البرزخ ونعيمه أول عذاب الآخرة ونعيمها وهو مشتق منه وواصل إلى أهل البرزخ هناك، كما دلّ عليه القرآن والسنة الصحيحة الصريحة في غير موضع دلالة صريحة كقوله ﷺ: «**وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الجَنَّةِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ**» وقال في الفاجر: «**وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا**».

ومعلوم قطعًا أن البدن يأخذ حظّه مِن هذا الباب كما تأخذ الروح حظها، فإذا كان يوم القيامة دخل من ذلك الباب إلى مقعده الذى هو داخله وهذان البابان يصل منهما

---

(١) «الروح» (٩٨، ٩٩).

(٢) «شرح الطحاوية» (٤٥١).

إلى العبد في هذه الدار أثر خفي محجوب بالشواغل والغوشي الحسية والعوارض، ولكن يحس به كثير من الناس وإن لم يعرف سببه ولا يحسن التعبير عنه فوجود الشيء غير الاحساس به والتعبير عنه فإذا مات كان وصول ذلك الأثر إليه من ذينك البابين أكمل فإذا بعث كمل وصل ذلك الأثر إليه، فحكمة الرب تعالى منتظمة لذلك أكمل انتظام في الدور الثلاث(١)!

وقال **شيخ الإسلام ابن تيمية**: «العذاب والنعيم على النَّفْس والبدن جميعًا باتفاق أهل السنة والجماعة، تنعّم النَّفْس وتعذّب منفردة عن البدن، وتنعّم وتعذّب متصلة بالبدن، والبدن متصل بها- فيكون النعيم والعذاب عليها في هذه الحال مجتمعين كما تكون على الروح منفردة عن البدن، وهل يكون العذاب والنعيم للبدن بدون الروح؟ هذا فيه قولان مشهوران لأهل الحديث والسنة وأهل الكلام» ا.هـ(٢).

قَالَ ابنُ القَيِّم: «فإذا عرفت هذه الأقوال الباطلة فلتعلم أن مذهب سلف الأُمَّة وأئمتها: أنَّ الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأنَّ ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأنَّ الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعّمة أو معذّبة، وأنها تتصل بالبدن أحيانًا ويحصل له معها النعيم أو العذاب، ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أُعيدت الأرواح إلى الأجساد وقاموا من قبورهم لرب العالمين، ومعاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى» ا.هـ(٣).

ثالثًا: هل عذاب القبر دائم أو منقطع؟

يجيب الإمام ابنُ القَيِّم - رَحِمَهُ الله - عن هذا السؤال فيقول: «**جوابها أَنَّهُ نوعان**:

الأول: نوع دائم سوى ما ورد في بعض الأحاديث أَنَّهُ يخفف عنهم ما بين النفختين فإذا قاموا من قبورهم قالوا: ﴿**يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا**﴾ [يس: ٥٢]، ويدل على دوامه قوله تَعَالَى: ﴿**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا**﴾ [غافر: ٤٦]، ويدل عليه أيضًا ما تقدم في حديث سَمُرة الذي رواه البخاري في رؤيا النبي ﷺ، وفيه: «**فهو يفعل به ذلك**

---

(١) «الروح» (ص ١٠٠، ١٠١).
(٢) «الروح» (٦٧، ٦٨).
(٣) «الروح» (٦٩).

إلى يوم القيامة».

وفي حديث ابن عباس في قصة الجريدتين: «لعلّه يخفف عنهما ما لم ييبسا» فجعل التخفيف مقيدًا برطوبتهما فقط.

و في حديث الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي هريرة: «ثم أتى على قوم ترضخ رؤوسهم بالصخر كلما رضخت عادت لا يفتر عنهم من ذلك شيء» وقد تقدم، وفي «الصحيح» في قصة «الذي لبس بُردين وجعل يمشي يتبختر فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة».

وفي حديث البراء بن عازب في قصة الكافر: «ثم يفتح له باب إلى النار فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم الساعة»، رواه الإمام أحمد وفي بعض طرقه: «ثم يخرق له خرقا إلى النار فيأتيه من غمها ودخانها إلى القيامة».

النوع الثاني: إلى مدة ثم ينقطع:

وهو عذاب بعض العصاة الذين خفت جرائمهم فيعذب بحسب جرمه ثم يخفف عنه كما يعذب في النار مدة ثم يزول عنه العذاب.

وقد يَنقطع عنه العذاب بدعاء أو صدقة أو استغفار أو ثواب حج، أو قراءة تصل إليه من بعض أقاربه أو غيرهم[1]، وهذا كما يشفّع الشافع في المعذب في الدُّنْيَا فيخلص من العذاب بشفاعته، لكن هذه شفاعة قد لا تكون بإذن المشفوع عنده، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يتقدّم أحد بالشفاعة بين يديه إلَّا مِن بعد إذنه، فهو الَّذِي يأذن للشافع أن يشفع إذا أراد أن يرحم المشفوع له، ولا تغتر بغير هذا فإنه شرك وباطل يتعالى الله عنه، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلَّا لِـمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس: ٣]، وقال سُبْحَانَهُ: ﴿وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِـمَنْ أَذِنَ لَـهُ﴾ [سبأ: ٢٣]، وقال تَعَالَى: ﴿قُل للهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّـهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٤][2].

---

(١) الراجح والله أعلم: عدم وصول ثواب تلاوة القرآن للميت، لعدم ورود ذَٰلِكَ عن النَّبِيِّ ﷺ من طريق صحيح.

(٢) «الروح» (١١٩، ١٢٠).

عباد الله...

رابعًا: ما الحكمة في ستر عذاب القبر عن النَّاس؟

يجيب الإمام ابنُ القَيِّم - رَحِمَهُ الله - عن هذا السؤال فيقول: «أنَّ النار التي في القبر والخضرة ليست من نار الدُّنْيَا ولا من زروع الدُّنْيَا، فيشاهده من شاهد نار الدُّنْيَا وخضرها، وإنما هي من نار الآخرة وخضرها وهي أشد من نار الدُّنْيَا، فلا يحس به أهل الدُّنْيَا فإنَّ الله سُبْحَانَهُ يحمى عليه ذلك التراب والحجارة التي عليه وتحته حتى يكون أعظم حرًّا مِن جمر الدُّنْيَا، ولو مسها أهل الدنيا لم يحسوا بذلك، بل أعجب مِن هذا أن الرجلين يدفنان أحدهما إلى جنب الآخر وهذا في حفرة من حفر النار لا يصل حرها إلى جاره، وذلك في روضة من رياض الجنة لا يصل روحها ونعيمها إلى جاره.

وقدرة الرب تَعَالَى أوسع وأعجب من ذَلِكَ، وقَدْ أرانا الله من آيات قدرته في هذه الدار ما هو أعجب من ذلك بكثير، ولكن النفوس مولعة بالتكذيب بما لم تحط به علما إلَّا مَن وفَّقه الله وعصمه.

فَيُفرش للكافر لوحان مِن نار فيشتعل عليه قبره بهما كما يشتعل التنور، فإذا شاء الله سُبْحَانَهُ أن يُطلع على ذلك بعض عبيده أطلعه وغيّبه عن غيره، إذ لو اطَّلع العباد كلهم لزالت كلمة التكليف والإيمان بالغيب، ولما تدافن الناس كما في الصحيحين عنه: «**فَلَوْلاَ أَنْ لاَ تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِى أَسْمَعُ مِنْهُ**».

وَلَـمَّا كانت هذه الحكمة منفيّة في حق البهائم سمعت ذلك وأدركته، كما حادت برسول الله ﷺ بغلته وكادت تلقيه لَـمَّا مرّ بمن يُعذب في قبره.

وحدثني صاحبنا أبو عبد الله مُحَمَّد بن الرزيز الحرانيّ أَنَّهُ خرج من داره بعد العصر بآمد إلى بستان قَالَ: فلما كان قبل غروب الشمس توسطت القبور فإذا بقبر منها وهو جمرة نار مثل كوز الزجاج والميت في وسطه، فجعلت أمسح عيني وأقول أنائمٌ أنا أم يقظان، ثم التفت إلى سور المدينة وقلت: والله ما أنا بنائم، ثم ذهبت إلى أهلي وأنا مدهوش فأتوني بطعام فلم أستطع أن آكل، ثم دخلت البلد فسألت عن صاحب القبر فإذا به مكَّاس[1] قد توفي ذلك اليوم.

---

(١) المكّاس: هو جابي المال (الضرائب).

فرؤية هذه النار في القبر كرؤية الملائكة والجن تقع أحيانا لمن شاء الله أن يريه ذلك[(١)].

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وقَدْ أعطى الله رسوله ﷺ عَلَى سماع المعذَّبين في قبورهم، ففي الحديث الَّذي يرويه مسلم في «صحيحه» عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي حَائِطٍ لِبَنِي النَّجَّارِ عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ وَنَحْنُ مَعَهُ إِذْ حَادَتْ بِهِ[(٢)] فَكَادَتْ تُلْقِيهِ وَإِذَا أَقْبُرٌ سِتَّةٌ أَوْ خَمْسَةٌ أَوْ أَرْبَعَةٌ، فَقَالَ: «**مَنْ يَعْرِفُ أَصْحَابَ هَذِهِ الأَقْبُرِ؟**». فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا. قَالَ: «**فَمَتَى مَاتَ هَؤُلاَءِ؟**». قَالَ: مَاتُوا فِي الإِشْرَاكِ. فَقَالَ: «**إِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا فَلَوْلاَ أَنْ لاَ تَدَافَنُوا**[(٣)] **لَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ**». ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَقَالَ: «**تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ**». قَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، فَقَالَ: «**تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ...**» الحديث[(٤)].

وفي «صحيح البخاري ومسلم»، و«سنن النسائي» عَنْ أَبِي أَيُّوبَ رَضِي الله عَنْهُ قَالَ: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَدْ وَجَبَتِ الشَّمْسُ، فَسَمِعَ صَوْتًا فَقَالَ: «**يَهُودُ تُعَذَّبُ فِي قُبُورِهَا**»[(٥)].

ويدل عَلَى سماع الرسول ﷺ للمعذَّبين في قبورهم الحديث الَّذي يرويه البخاري ومسلم في «صحيحيهما»: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِقَبْرَيْنِ فَقَالَ: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ،**

---

(١) «الروح» لابن القيم.

(٢) **حادت به**: مالت عن الطريق.

(٣) **لا تدافنوا**: أي: مخافة أن لا تدافنوا.

(٤) رواه مسلم (٤/ ٢١٩٩).

(٥) «جامع الأصول» (١١/ ١٧٢).

وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لاَ يَسْتَبْرِئُ مِنَ البَوْلِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ...» الحديث[1].

فيا أخا الإسلام...

تـزوَّد قـرينًا مـن فعالـك إنَّمـا	قـرين الفتـى في القـبر مـا كـان يفعـلُ
وإن كـنت مـشغولاً بـشيءٍ فـلا تكـن	بغـير الَّـذي يرضـى بـه الله تُـشغلُ
فلـن يـصحبَ الإنـسانُ من بعد موته	إلى قـبره إلا الَّـذي كـان يعمـل
ألا إنَّمـا الإنـسان ضـيفٌ لأهلـه	يقـيم قلـيلاً عـندهم ثـم يـرحل

❁❁❁❁❁

(١) «سكب العبرات» (٢/ ١١٤، ١١٥).

الخطبة الخامسة والتسعون:

[أ] الأسباب المؤدية لعذاب القبر

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فهناك عدّة أسباب لعذاب القبر، ينبغي معرفتها لتُجتنب.

فما هي الأسباب المؤدية لعذاب القبر؟

هذا ما سوف نجيب عنه في هَذِهِ الخطبة إن شاء الله تَعَالى، وأسأل الله التوفيق.

عباد الله...

أوَّلُ أسباب عَذَابِ القَبر: الشِّرك بالله تَعَالى:

قَالَ الله تَعَالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ المَوْتِ وَالمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ

أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وذَلِكَ أن الكافر إذا احتُضر بشَّرته الملائكة بالعذاب والنكال والأغلال والسّلاسل والجحيم وغضب الرحمن الرحيم، فتفرّق روحه في جسده وتعصي وتأبي الخروج، فتضربهم الملائكة حتَّى تخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين لهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ... ﴾ الآية[١].

وقال تَعَالى: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦].

قَالَ العلَّامة السَّعدي - رَحِمَهُ الله - في تفسيره: «﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أغرقهم الله تعالى في صبيحة واحدة عن آخرهم.

وفي البرزخ ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ فهذه العقوبات الشنيعة، التي تحل بالمكذبين لرسل الله، المعاندين لأمره». ا.هـ[٢].

وقال تَعَالى عن قوم نوح عَلَيْهِ السَّلام: ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾ [نوح: ٢٥].

قَالَ القرطبيُّ - رَحِمَهُ الله -: «﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا ﴾ أي بعد إغراقهم. قال القشيري: وهذا يدلُّ على عذاب القبر. ومنكروه يقولون: صاروا مستحقين دخول النار، أو عرض عليهم أماكنهم من النار» ا.هـ[٣].

وقَدْ تقدم حديث البراء بن عازب وفيه: «وَإِنَّ العَبْدَ الكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنْ الآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنْ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الوُجُوهِ مَعَهُمْ المُسُوحُ فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الخَبِيثَةُ

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٥٦).
(٢) «تفسير السعدي» (٧٣٩).
(٣) «تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٨٤).

اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنْ اللَّهِ وَغَضَبٍ...» الحديث.

وعَنْ أُمِّ مُبَشِّرٍ رَضِيَ الله عَنْهَا قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا فِي حَائِطٍ مِنْ حَوَائِطِ بَنِي النَّجَّارِ فِيهِ قُبُورٌ مِنْهُمْ قَدْ مَاتُوا فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَسَمِعَهُمْ وَهُمْ يُعَذَّبُونَ فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ: «اسْتَعِيذُوا باللَّهِ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّهُمْ لَيُعَذَّبُونَ فِي قُبُورِهِمْ؟ قَالَ: «نَعَمْ عَذَاباً تَسْمَعُهُ البَهَائِمُ»[(١)].

وعَنْ أَبِي أَيُّوبَ الأنصاريّ رَضِي الله عَنْهُ قَالَ: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَدْ وَجَبَتِ الشَّمْسُ، فَسَمِعَ صَوْتًا فَقَالَ: «يَهُودُ تُعَذَّبُ فِي قُبُورِهَا»[(٢)].

السبب الثاني: النِّفاق:

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١].

قَالَ قَتَادة والرَّبيع بن أنس في قوله تَعَالَى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾: إحداهما في الدُّنْيَا والأخرى: هي عذاب القبر.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا قُبِرَ المَيِّتُ أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ يُقَالُ لأَحَدِهِمَا: الْمُنْكَرُ وَالآخَرُ: النَّكِيرُ، فَيَقُولاَنِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: مَا كَانَ يَقُولُ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

فَيَقُولاَنِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا.

ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: نَمْ. فَيَقُولُ: أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرُهُمْ، فَيَقُولاَنِ: نَمْ كَنَوْمَةِ العَرُوسِ الَّذِي لاَ يُوقِظُهُ إِلاَّ أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ. حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ.

وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ فَقُلْتُ مِثْلَهُ، لاَ أَدْرِي. فَيَقُولاَنِ: قَدْ كُنَّا

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٦/ ٣٢٦)، وغيره، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٧٥)، ومسلم (٢٨٦٩).

نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ. فَيُقَالُ: لِلأَرْضِ التَئِمِي عَلَيْهِ. فَتَلْتَئِمُ عَلَيْهِ. فَتَخْتَلِفُ فِيهَا أَضْلاَعُهُ فَلاَ يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ»[١].

السبب الثالث والرابع: عدم التنزه من البول، والمشي بين النَّاس بالنميمة:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِحَائِطٍ[٢] مِنْ حِيطَانِ المَدِينَةِ أَوْ مَكَّةَ، فَسَمِعَ صَوْتَ إِنْسَانَيْنِ يُعَذَّبَانِ فِي قُبُورِهِمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّهُمَا يُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ»، ثُمَّ قَالَ: «بَلَى، كَانَ أَحَدُهُمَا لاَ يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ، وَكَانَ الآخَرُ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ». ثُمَّ دَعَا بِجَرِيدَةٍ فَكَسَرَهَا كِسْرَتَيْنِ، فَوَضَعَ عَلَى كُلِّ قَبْرٍ مِنْهُمَا كِسْرَةً. فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟ قَالَ: «لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُمَا مَا لَمْ تَيْبَسَا - أَوْ إِلَى أَنْ يَيْبَسَا»[٣].

قَالَ القرطبيُّ - رَحِمَهُ الله - في «المفهم»[٤]: ﴿قوله: «وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ»؛ أي: عندكم، وهو عند الله كبيرٌ، كما جاء في البخاري: «وإنه لكبير»؛ أي: عند الله، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]. ا.هـ.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا قَالَ: قال النَّبِيِّ ﷺ: «عَامَّةُ عَذَابِ القَبْرِ مِنَ البَوْلِ فَتَنَزَّهُوا مِنَ البَوْلِ»[٥].

السبب الخامس: الغيبة:

والغيبة هي ذِكر أخاك بما يكره، وهي من أسباب عذاب القبر.

فعَنْ أَبِى بَكْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ أَمْشِى مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَمَرَّ عَلَى قَبْرَيْنِ فَقَالَ: «مَنْ يَأْتِينِى بِجَرِيدَةِ نَخْلٍ». قَالَ: فَاسْتَبَقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ آخَرُ فَجِئْنَا بِعَسِيبٍ[٦] فَشَقَّهُ بِاثْنَيْنِ فَجَعَلَ عَلَى هَذَا وَاحِدَةً وَعَلَى هَذَا وَاحِدَةً.

ثُمَّ قَالَ: «لعله يخفف عنهما ما دَاماتَا رَطبَتَين».

---

(١) حسن: رواه الترمذي، وابن حبان، وانظر «صحيح الجامع» (٧٢٤).
(٢) الحائط: البستان.
(٣) رواه البخاري (١٣٧٨)، ومسلم (٢٩٢).
(٤) (١/٤٠٨).
(٥) صحيح: رواه البزار وغيره، وصححه الألباني.
(٦) العسيب: الجريدة التي لم ينبت فيها خوص.

ثُمَّ قَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ فِي غير كبير[(١)]، الغِيبَةِ وَالبَوْلِ»[(٢)].

السبب السادس: الكَذِب:

روى البُخاري عَنْ سَمُرة بْنِ جُنْدَبٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا صَلَّى صَلاَةً أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَقَالَ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمُ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا؟». قَالَ: فَإِنْ رَأَى أَحَدٌ قَصَّهَا، فَيَقُولُ مَا شَاءَ اللَّهُ، فَسَأَلَنَا يَوْمًا، فَقَالَ: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رُؤْيَا؟». قُلْنَا: لاَ. قَالَ: «لَكِنِّى رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِى فَأَخَذَا بِيَدِى، فَأَخْرَجَانِى إِلَى الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ جَالِسٌ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ بِيَدِهِ كَلُّوبٌ مِنْ حَدِيدٍ - قَالَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا عَنْ مُوسَى إِنَّهُ - يُدْخِلُ ذَلِكَ الكَلُّوبَ فِى شِدْقِهِ، حَتَّى يَبْلُغَ قَفَاهُ، ثُمَّ يَفْعَلُ بِشِدْقِهِ الآخَرِ مِثْلَ ذَلِكَ، وَيَلْتَئِمُ شِدْقُهُ هَذَا، فَيَعُودُ فَيَصْنَعُ مِثْلَهُ. قُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالاَ: انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ عَلَى قَفَاهُ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ بِفِهْرٍ أَوْ صَخْرَةٍ، فَيَشْدَخُ بِهِ رَأْسَهُ، فَإِذَا ضَرَبَهُ تَدَهْدَهَ الْحَجَرُ، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ لِيَأْخُذَهُ، فَلاَ يَرْجِعُ إِلَى هَذَا حَتَّى يَلْتَئِمَ رَأْسُهُ، وَعَادَ رَأْسُهُ كَمَا هُوَ، فَعَادَ إِلَيْهِ فَضَرَبَهُ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالاَ: انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا إِلَى ثَقْبٍ مِثْلِ التَّنُّورِ، أَعْلاَهُ ضَيِّقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ، يَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَارًا، فَإِذَا اقْتَرَبَ ارْتَفَعُوا حَتَّى كَادَ أَنْ يَخْرُجُوا، فَإِذَا خَمَدَتْ رَجَعُوا فِيهَا، وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ. فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالاَ انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ مِنْ دَمٍ، فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى وَسَطِ النَّهَرِ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِى فِى النَّهَرِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِى فِيهِ، فَرَدَّهُ حَيْثُ كَانَ، فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ رَمَى فِى فِيهِ بِحَجَرٍ، فَيَرْجِعُ كَمَا كَانَ. فَقلتُ: مَا هَذَا؟ قَالاَ: انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ، فِيهَا شَجَرَةٌ عَظِيمَةٌ، وَفِى أَصْلِهَا شَيْخٌ وَصِبْيَانٌ، وَإِذَا رَجُلٌ قَرِيبٌ مِنَ الشَّجَرَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ نَارٌ يُوقِدُهَا، فَصَعِدَا بِى فِى الشَّجَرَةِ،

---

(١) أي: لم يُعذّبا في أمر كان يكبر عليهما أَوْ يشق تركه عليهما، وقيل: «بغير كبير» عندهما، وهو كبير عند الله.

(٢) صحيح: رواه أحمد والطبراني في «الأوسط»، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٥٤).

وَأَدْخَلاَنِى دَارًا لَمْ أَرَ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا، فِيهَا رِجَالٌ شُيُوخٌ وَشَبَابٌ، وَنِسَاءٌ وَصِبْيَانٌ. ثُمَّ أَخْرَجَانِى مِنْهَا فَصَعِدَا بِى الشَّجَرَةَ فَأَدْخَلاَنِى دَارًا هِىَ أَحْسَنُ وَأَفْضَلُ، فِيهَا شُيُوخٌ وَشَبَابٌ.

قُلْتُ: طَوَّفْتُمَانِى اللَّيْلَةَ، فَأَخْبِرَانِى عَمَّا رَأَيْتُ. قَالاَ نَعَمْ، أَمَّا الَّذِى رَأَيْتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ فَكَذَّابٌ يُحَدِّثُ بِالكَذْبَةِ، فَتُحْمَلُ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الآفَاقَ، فَيُصْنَعُ بِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ. وَالَّذِى رَأَيْتَهُ يُشْدَخُ رَأْسُهُ فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ القُرْآنَ، فَنَامَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ، وَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ بِالنَّهَارِ، يُفْعَلُ بِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ[1]. وَالَّذِى رَأَيْتَهُ فِى الثَّقْبِ فَهُمُ الزُّنَاةُ. وَالَّذِى رَأَيْتَهُ فِى النَّهَرِ آكِلُو الرِّبَا.

وَالشَّيْخُ فِى أَصْلِ الشَّجَرَةِ إِبْرَاهِيمُ - عَلَيْهِ السَّلاَمُ - وَالصِّبْيَانُ حَوْلَهُ فَأَوْلاَدُ النَّاسِ، وَالَّذِى يُوقِدُ النَّارَ مَالِكٌ خَازِنُ النَّارِ. وَالدَّارُ الأُولَى الَّتِى دَخَلْتَ دَارُ عَامَّةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَمَّا هَذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ، وَأَنَا جِبْرِيلُ، وَهَذَا مِيكَائِيلُ، فَارْفَعْ رَأْسَكَ، فَرَفَعْتُ رَأْسِى فَإِذَا فَوْقِى مِثْلُ السَّحَابِ. قَالاَ: ذَاكَ مَنْزِلُكَ. قُلْتُ دَعَانِى أَدْخُلْ مَنْزِلِى. قَالاَ إِنَّهُ بَقِىَ لَكَ عُمْرٌ لَمْ تَسْتَكْمِلْهُ، فَلَوِ اسْتَكْمَلْتَ أَتَيْتَ مَنْزِلَكَ».

قَالَ القرطبيُّ - رَحِمَهُ الله -: «قَالَ علماؤنا رحمة الله عليهم: لا أبين في أحوال المعذّبين في قبورهم من حديث البخاري، وإن كان منامًا فمنامات الأنبياء عَلَيْهِم السَّلامُ وحيٌّ، بدليل قول إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ فأجابه ابنه عَلَيْهِ السَّلام: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات: ١٠٢]» ا.هـ..

السبب السابع والثامن: هجر القرآن بعد تعلّمه، والنوم عن الصَّلاة المكتوبة:

كما تقدم في حديث سَمُرة رَضِيَ الله عَنْهُ.

وفيه دليلٌ عَلَى أن مَن يقرأ القرآن ثم ينام عنه بالليل، ولا يعمل به بالنهار يُعذّب في قبره[2].

قَالَ ابن حجر: قَالَ ابن هبيرة: رفض القرآن بعد حفظه جناية عظيمة، لأَنَّهُ يوهم أَنَّهُ رأى فيه ما يوجب رفضه، فلما رفض أشرف الأشياء وهو القرآن عُوقب في أشرف أعضائه وهو الرأس.

(١) هذا دليلٌ عَلَى أن هذا العذاب كان في القبر، فتنبّه.

(٢) «الروح» (١٠٤).

وقال أيضًا: يحتمل أن يكون التعذيب عَلَى مجموع الأمرين: ترك القراءة، وترك العمل[١].

قَالَ الإمام ابنُ القَيِّم: هجر القرآن أنواع:

أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.

والثاني: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به.

والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد أَنَّهُ لا يفيد اليقين وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم.

والرابع: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوي به.

وكل هذا داخل في قوله: ﴿**وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا**﴾ [الفرقان: ٣٠]. وإن كان بعض الهجر أهون من بعض» ا.هـ[٢].

أما النوم عن الصَّلاة المكتوبة وترك صلاتها مَعَ جماعة المسلمين بل يثقل رأسه عَلَى الفراش، فجزاؤه أن يثلغ ويرضخ هذا الرأس الَّذِي هذا فعله وشأنه، وهكذا يُعذّب إلى قيام الساعة، فقد جاء في بعض الروايات: «.... **فيفعل به إلى يوم القيامة**»[٣].

قَالَ ابن العربي: «جعلت العقوبة في رأس هَذِهِ النومة عن الصَّلاة، والنوم موضعه الرأس»[٤].

وللحديث بقية إن شاء الله تَعَالَى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

***

---

(١) «فتح الباري» (٣/ ٢٥١).

(٢) «الفوائد» (٨٢).

(٣) «فتح الباري» (٣/ ٢٥١).

(٤) «فتح الباري» (١٢/ ٤٤١)، وانظر «سكب العبرات» (٢/ ١٠١).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

والسبب التاسع من أسباب عذاب القبر: أكل الرِّبا:

وقَدْ تقدَّم ذَلِكَ في حديث سَمُرة رَضِيَ الله عَنْهُ عند قوله ﷺ: «فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ مِنْ دَم، فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى وَسَطِ النَّهَرِ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِي النَّهَرِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِي فِيهِ، فَرَدَّهُ حَيْثُ كَانَ، فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ رَمَى فِي فِيهِ بِحَجَرٍ، فَيَرْجِعُ كَمَا كَانَ...» الحديث.

والسبب العاشر: الزِّنا:

وقَدْ تقدم ذَلِكَ أيضًا في حديث سَمُرة عند قوله ﷺ: «فَانْطَلَقْنَا إِلَى ثَقْبٍ مِثْلِ التَّنُّورِ، أَعْلاَهُ ضَيِّقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ، يَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَارًا، فَإِذَا اقْتَرَبَ ارْتَفَعُوا حَتَّى كَادَ أَنْ يَخْرُجُوا، فَإِذَا خَمَدَتْ رَجَعُوا فِيهَا، وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ...» الحديث.

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٢/ ٤٦٥، ٤٦٦): «مناسبة العري لهم لاستحقاقهم أن يُفضحوا، لأن عادتهم أن يستتروا في الخلوة، فعوقبوا بالهتك، والحكمة في إتيان العذاب من تحتهم كون جنايتهم من أعضائهم السفلى.

قال الكرماني: مناسبة العقوبات المذكورة فيه للجنايات ظاهرة، إلَّا الزناة ففيها خفاء، وبيانه: أن العري فضيحة كالزنا، والزاني من شأنه طلب الخلوة فناسب التنّور، ثم هو خائف حذر حال الفعل، كأن تحته النار».

وللحديث بقية إن شاء الله تَعَالى. فإلى اللِّقاء.

❊❊❊❊❊

الخطبة السادسة والتسعون:

[ب] الأسباب المؤدية إلى عذاب القبر

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن الأسباب المؤدّية إلى عذاب القبر، سائلًا المولى - تبارك وتعالى - أن يجنِّبنا وإيَّاكم كُلّ سبب يؤدِّي إلى خِزي الدُّنْيا وعذاب الآخرة.

عباد الله...

والسبب الحادي عشر من الأسباب المؤدية إلى عذاب القبر: الإعراض عن ذكر الله تَعَالى:

قَالَ الله تَعَالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤].

قَالَ ابن كثير - رَحِمَهُ الله -: «﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾ أي: خالف أمري، وما

أنزلته على رسولي، أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداه ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره [ضيق] حَرَج لضلاله، وإن تَنَعَّم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد. فهذا من ضنك المعيشة.

ثم إنه قَدْ قيل في ذَلِكَ أقوالٌ:

منها: هو الشقاء.

ومنها: هو العمل السيئ، والرزق الخبيث.

ومنها: قوله: ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: يضيق عليه قبره، حَتَّى تختلف أضلاعه[١].

وعن أبي هريرة عن النَّبيّ ﷺ ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قال: «عذابُ القبر»[٢][٣].

قَالَ ابنُ القَيِّم - رَحِمَهُ الله -: «وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر ولا ريب أنَّهُ من المعيشة الضنك، والآية تتناول ما هو أعمّ منه، وإن كانت نكرة في سياق الإثبات، فإن عمومها من حيث المعنى، فالعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الَّذِي أنزله عَلَى رسوله ﷺ في دنياه وفي البرزخ ويوم معاده»[٤].

السبب الثاني عشر: الإفطار في رمضان من غير عذر:

عن أبي أُمَامَةَ البَاهِلِيُّ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ إِذْ أَتَانِي رَجُلَانِ فَأَخَذَا بِضَبْعَيَّ فَأَتَيَا بِي جَبَلاً وَعْرًا فَقَالاَ لِيَ: اصْعَدْ فَقُلْتُ: إِنِّي لاَ أُطِيقُهُ فَقَالاَ: إِنَّا سَنُسَهِّلُهُ لَكَ فَصَعِدْتُ حَتَّى إِذَا كُنْتُ فِي سَوَاءِ الجَبَلِ إِذَا أَنَا بِأَصْوَاتٍ شَدِيدَةٍ فَقُلْتُ: مَا هَذِهِ الأَصْوَاتُ؟ قَالُوا: هَذَا عُوَاءُ أَهْلِ النَّارِ.**

ثُمَّ انْطُلِقَ بِي فَإِذَا أَنَا بِقَوْمٍ مُعَلَّقِينَ بِعَرَاقِيبِهِمْ مُشَقَّقَةٌ أَشْدَاقُهُمْ تَسِيلُ أَشْدَاقُهُمْ دَمًا

---

(١) وهذا التفسير يُقدّم للحديث الَّذِي يليه، وانظر كلام ابنُ القَيِّم بعد قليل.

(٢) **إسناده جيد:** أخرجه البيهقي في «الاعتقاد» (١٠٨)، والحاكم (١/ ٣٨١)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) «صحيح تفسير ابن كثير» (٣/ ١٣٦).

(٤) «الداء والدواء» (١٣٧).

قُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُفْطِرُونَ قَبْلَ تَحِلَّةِ صَوْمِهِمْ(١)».

فَقَالَ أَبُو أُمَامَةَ: خَابَتِ اليَهُودُ، وَالنَّصَارَى.

فَقَالَ سُلَيْمَانُ: مَا أَدْرِي أَسَمِعَهُ أَبُو أُمَامَةَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَمْ شَيْءٌ مِنْ رَأْيِهِ؟ «ثُمَّ انْطَلَقَ، فَإِذَا بِقَوْمٍ أَشَدَّ شَيْءٍ انْتِفَاخًا وَأَنْتَنِهِ رِيحًا، وَأَسْوَئِهِ مَنْظَرًا، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلاءِ؟ فَقَالَ: هَؤُلاءِ قَتْلَى الكُفَّارِ، ثُمَّ انْطَلَقَ بِي، فَإِذَا بِقَوْمٍ أَشَدَّ شَيْءٍ انْتِفَاخًا، وَأَنْتَنِهِ رِيحًا، كَأَنَّ رِيحَهُمُ المَرَاحِيضُ قُلْتُ: مَنْ هَؤُلاءِ؟ قَالَ: هَؤُلاءِ الزَّانُونَ وَالزَّوَانِي. ثُمَّ انْطَلَقَ بِي، فَإِذَا أَنَا بِنِسَاءٍ تَنْهَشُ ثُدِيَّهُنَّ الحَيَّاتُ قُلْتُ: مَا بَالُ هَؤُلاءِ؟ قَالَ: هَؤُلاءِ يَمْنَعْنَ أَوْلادَهُنَّ أَلْبَانَهُنَّ.

ثُمَّ انْطَلَقَ بِي، فَإِذَا أَنَا بِالغِلْمَانِ يَلْعَبُونَ بَيْنَ نَهْرَيْنِ، قُلْتُ: مَنْ هَؤُلاءِ؟ قَالَ: هَؤُلاءِ ذَرَارِي المُؤْمِنِينَ، ثُمَّ شَرَفَ شَرَفًا، فَإِذَا أَنَا بِنَفَرٍ ثَلاثَةٍ يَشْرَبُونَ مِنْ خَمْرٍ لَهُمْ، قُلْتُ: مَنْ هَؤُلاءِ؟ قَالَ: هَؤُلاءِ جَعْفَرٌ، وَزَيْدٌ، وَابْنُ رَوَاحَةَ ثُمَّ شَرَفَنِي شَرَفًا آخَرَ، فَإِذَا أَنَا بِنَفَرٍ ثَلاثَةٍ، قُلْتُ: مَنْ هَؤُلاءِ؟ قَالَ: هَذَا إِبْرَاهِيمُ، وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَهُمْ يَنْظُرُونك»(٢).

السبب الثالث عشر: حرمان الأمهات أطفالهن من ألبانهن بغير عُذر:

يدلّ عَلَى ذَلِكَ ما جاء في حديث أبي أُمامة المتقدم: «ثُمَّ انْطَلَقَ بِي، فَإِذَا أَنَا بِنِسَاءٍ تَنْهَشُ ثُدِيَّهُنَّ الحَيَّاتُ قُلْتُ: مَا بَالُ هَؤُلاءِ؟ قَالَ: هَؤُلاءِ يَمْنَعْنَ أَوْلادَهُنَّ أَلْبَانَهُنَّ».

السبب الرابع عشر والخامس عشر: السرقة، حبس الحيوان وتعذيبه:

عَنْ جَابِرِ بن عبد الله رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: انْكَسَفَتِ الشَّمْسُ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ مَاتَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ النَّاسُ: إِنَّمَا انْكَسَفَتْ لِمَوْتِ إِبْرَاهِيمَ. فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فَصَلَّى بِالنَّاسِ سِتَّ رَكَعَاتٍ بِأَرْبَعِ سَجَدَاتٍ بَدَأَ فَكَبَّرَ ثُمَّ قَرَأَ فَأَطَالَ القِرَاءَةَ، ثُمَّ رَكَعَ نَحْوًا مِمَّا قَامَ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فَقَرَأَ قِرَاءَةً دُونَ القِرَاءَةِ الأُولَى، ثُمَّ رَكَعَ نَحْوًا مِمَّا قَامَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فَقَرَأَ قِرَاءَةً دُونَ القِرَاءَةِ الثَّانِيَةِ، ثُمَّ رَكَعَ نَحْوًا مِمَّا قَامَ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ ثُمَّ انْحَدَرَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ، ثُمَّ قَامَ فَرَكَعَ أَيْضًا ثَلاثَ رَكَعَاتٍ لَيْسَ فِيهَا رَكْعَةٌ إِلاَّ الَّتِي قَبْلَهَا أَطْوَلُ مِنَ الَّتِي بَعْدَهَا، وَرُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ

---

(١) أي: يفطرون قبل وقت الإفطار.

(٢) صحيح: أخرجه النسائي في «الكبرى»، وغيره.

سُجُودِهِ، ثُمَّ تَأَخَّرَ وَتَأَخَّرَتِ الصُّفُوفُ خَلْفَهُ حَتَّى انْتَهَيْنَا - وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: حَتَّى انْتَهَى إِلَى النِّسَاءِ - ثُمَّ تَقَدَّمَ وَتَقَدَّمَ النَّاسُ مَعَهُ حَتَّى قَامَ فِي مَقَامِهِ فَانْصَرَفَ حِينَ انْصَرَفَ وَقَدْ آضَتِ الشَّمْسُ[١] فَقَالَ:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا الشَّمْسُ وَالقَمَرُ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَإِنَّهُمَا لاَ يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ - وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: لِمَوْتِ بَشَرٍ - **فَإِذَا رَأَيْتُمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَصَلُّوا حَتَّى تَنْجَلِيَ مَا مِنْ شَيْءٍ تُوعَدُونَهُ إِلاَّ قَدْ رَأَيْتُهُ فِي صَلاَتِي هَذِهِ، لَقَدْ جِيءَ بِالنَّارِ وَذَلِكُمْ حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ مَخَافَةَ أَنْ يُصِيبَنِي مِنْ لَفْحِهَا وَحَتَّى رَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَ المِحْجَنِ يَجُرُّ قُصْبَهُ[٢] فِي النَّارِ كَانَ يَسْرِقُ الحَاجَّ بِمِحْجَنِهِ فَإِنْ فُطِنَ لَهُ قَالَ: إِنَّمَا تَعَلَّقَ بِمِحْجَنِي، وَإِنْ غُفِلَ عَنْهُ ذَهَبَ بِهِ. وَحَتَّى رَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَةَ الهِرَّةِ الَّتِي رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا. ثُمَّ جِيءَ بِالجَنَّةِ وَذَلِكُمْ حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَقَدَّمْتُ حَتَّى قُمْتُ فِي مَقَامِي وَلَقَدْ مَدَدْتُ يَدِي وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَتَنَاوَلَ مِنْ ثَمَرِهَا لِتَنْظُرُوا إِلَيْهِ ثُمَّ بَدَا لِي أَنْ لاَ أَفْعَلَ فَمَا مِنْ شَيْءٍ تُوعَدُونَهُ إِلاَّ قَدْ رَأَيْتُهُ فِي صَلاَتِي هَذِهِ»**[٣].

قَالَ البيهقي: «ورأى حين صلى صلاة الخسوف مَن يجرّ قصبه في النار، ومَن يُعذّب في السرقة، والمرأة التي كانت تُعذّب في الهرة، وقَدْ صاروا في قبورهم رميمًا في أعين أهل زمانه، ولم ير مَن صلى معه من ذَلِكَ ما رأى»[٤].

السبب السادس عشر: الغُلول[٥]:

يدل عَلَى ذَلِكَ قول النَّبيّ ﷺ في الرجل الَّذِي غَلّ شملة[٦] يوم خيبر: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ الشَّمْلَةَ الَّتِي أَخَذَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ مِنَ المَغَانِمِ، لَمْ تُصِبْهَا المَقَاسِمُ، لَتَشْتَعِلُ عَلَيْهِ نَارًا»**[٧].

---

(١) **آضت الشمس**: عادت إلى حالتها الأولى.

(٢) **قُصبه**: أمعاءه.

(٣) **صحيح**: رواه مسلم.

(٤) «إثبات عذاب القبر» (ص٩٧).

(٥) **الغلول**: ما يُؤخذ من الغنائم قبل توزيعها، دون علم وليّ الأمر.

(٦) **الشملة**: ثوب يتوشح به.

(٧) أخرجه البخاري (٤٢٣٤)، ومسلم (١١٥).

السبب السابع عشر: جر الإزار خُيلاء:

عن ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيَّ ﷺ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَجُرُّ إِزَارَهُ مِنَ الخُيَلاَءِ خُسِفَ بِهِ، فَهْوَ يَتَجَلْجَلُ فِى الأَرْضِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»[١].

عباد الله...

وقَدْ جمع الإمام ابنُ القَيِّم - رَحِمَهُ الله - الذّنوب التي تؤدِّي إلى عذاب القبر، فقال:

- فالنمام والكذاب والمغتاب وشاهد الزور وقاذف المحصن والموضع في الفتنة.
- و الداعي إلى البدعة.
- و القائل على الله ورسوله مالا علم له به والمجازف في كلامه.
- وآكل الربا.
- وآكل أموال اليتامى.
- وآكل السحت من الرشوة والبرطيل[٢] ونحوهما.
- وآكل مال أخيه المسلم بغير حق أو مال المعاهد.
- و شارب المسكر وآكل لقمة الشجرة الملعونة[٣].
- والزاني واللوطي.
- والسارق والخائن والغادر والمخادع والماكر.
- وآخذ الربا ومعطيه وكاتبه وشاهداه.
- والمحلل والمحلل له.
- و المحتال على إسقاط فرائض الله وارتكاب محارمه.
- ومؤذي المسلمين ومتتبع عوراتهم.
- والحاكم بغير ما أنزل الله.

---

(١) أخرجه البخارى.

(٢) **البرطيل**: الرّشوة.

(٣) الحشيش.

- والمفتي بغير ما شرعه الله.
- والمعين على الإثم والعدوان.
- وقاتل النفس التي حرم الله.
- والملحد في حرم الله.
- والمعطل لحقائق أسماء الله وصفاته الملحد فيها.
- والمقدم رأيه وذوقه وسياسته على سنة رَسُول.
- والنائحة والمستمع إليها.
- ونواحوا جهنم وهم المغنون الغناء الذى حرمه الله ورسوله والمستمع إليهم.
- والذين يبنون المساجد على القبور ويوقدون عليها القناديل والسرج.
- والمطففون في استيفاء ما لهم إذا أخذوه وهضم ما عليهم إذا بذلوه.
- والجبارون والمتكبرون.
- والمراؤون.
- والهمازون واللمازون.
- والطاعنون على السَّلف.
- والذين يأتون الكهنة والمنجمين والعرافين فيسألونهم ويصدقونهم.
- وأعوان الظلمة الذين قد باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم.
- والذى إذا خوفته بالله وذكرته به لم يرعو ولم ينزجر فإذا خوفته بمخلوق مثله خاف وارعوى وكف عما هو فيه.
- والذى يهدى بكلام الله ورسوله فلا يهتدى ولا يرفع به رأسا فإذا بلغه عمن يحسن به الظن ممن يصيب ويخطئ عض عليه بالنواجذ ولم يخالفه.
- والذى يقرأ عليه القرآن فلا يؤثر فيه وربما استثقل به، فإذا سمع قرآن الشيطان ورقية الزنا ومادة النفاق طاب سره وتواجد وهاج من قلبه دواعى الطرب، وود أن المغنى لا يسكت.

- والذى يحلف بالله ويكذب فاذا حلف بالبندق أو برئ من شيخه أو قريبه أو سراويل الفتوة أو حياة من يحبه ويعظمه من المخلوقين لم يكذب ولو هدد وعوقب.
- والذى يفتخر بالمعصية ويتكثر بها بين إخوانه وأضرابه وهو المجاهر.
- والذى لا تأمنه على مالك وحرمتك.
- والفاحش اللسان البذىء الذى تركه الخلق اتقاء شره وفحشه.
- والذى يؤخر الصلاة إلى آخر وقتها وينقرها ولا يذكر الله فيها إلا قليلا، ولا يؤدى زكاة ماله طيبة بها نفسه.
- ولا يحج مع قدرته على الحج.
- لا يؤدى ما عليه من الحقوق مع قدرته عليها.
- ولا يتورع من لحظة ولا لفظة ولا أكلة ولا خطوة.
- ولا يبالى بما حصل من المال من حلال أو حرام.
- ولا يصل رحمه.
- ولا يرحَم المسكين ولا الأرملة ولا اليتيم ولا الحيوان البهيم بل يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين ويرائى للعالمين ويمنع الماعون ويشتغل بعيوب الناس عن عيبه وبذنوبهم عن ذنبه.

فكل هؤلاء وأمثالهم يعذبون في قبورهم بهذه الجرائم بحسب كثرتها وقلتها وصغيرها وكبيرها.

ولما كان أكثر الناس كذلك كان أكثر أصحاب القبور معذبين والفائز منهم قليل، فظواهر القبور تراب وبواطنها حسرات وعذاب، ظواهرها بالتراب والحجارة المنقوشة مبنيات وفي باطنها الدواهى والبليات تغلى بالحسرات كما تغلى القدور بما فيها، ويحق لها وقد حيل بينها وبين شهواتها وأمانيها.

تالله لقد وعظت فما تركت لواعظ مقالا ونادت:

يا عُمَّار الدُّنْيَا لقد عمرتم دارًا موشكة بكم زوالًا. وخرَّبتم دارًا أنتم مسرعونى إليها انتقالًا.

عمَّرتم بيوتًا لغيركم منافعها وسكناها، وخرَّبتم بيوتا ليس لكم مساكن سواها.

هذه دار الاستباق ومستودع الأعمال، وبذر الزرع، وهذه محل للعبر، رياض من رياض الجنة أو حفر من حفر النار»[(١)].

عباد الله...

فالعاقل مَن أخذ بأسباب النَّجاة، وتجنّب كُلّ ما يَندم عليه عند الموت، فالعاقل مَن صحّح عَقد توحيده، وأحسَن سياسة نَفسِه، وأدّى فرائض ربِّه، وكفّ عن النَّاس شرّه.

وها هو ربُّ العزّة سُبْحَانَهُ يقول: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾ [الأنعام: ٨٢].

قَالَ الحافظ ابن كثير - رَحِمَهُ الله - في تفسيره لهذه الآية: «أي: هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك، له، ولم يشركوا به شيئا هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعودٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتِ ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ**﴾ قَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ [لقمان: ١٣][(٢)].

وعنه أيضًا قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿**الَّذِين آمَنُوا وَلَم يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْم**﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالُوا: أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَيْسَ كَمَا تَظُنُّونَ إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: ﴿يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾**»[(٣)].

نسأل الله تَعَالَى أن يُعلِّمنا ما جَهِلنا، وأن ينفعنا بما علَّمنا، وأن يهدينا، وأن يجعلنا سببًا لمن اهتدى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

***

---

(١) «الروح» لابن القيم.

(٢) رواه البخاري (٤٦٢٩)، ومسلم (١٢٤).

(٣) صحيح: أخرجه أحمد (١/ ٣٧٨، ٤٢٤).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وبالجملة: فسبب شقاء الإنسان في الدنيا والآخرة: ترك الواجبات، وارتكاب المحرَّمات.

قال ابنُ القَيِّم -رَحِمَهُ الله -: «الكفر والمعاصي والفسوق كله غموم، وكلما عزم العبد أن يخرج منه أبت عليه نفسه وشيطانه ومألفه، فلا يزال في غم ذلك حَتَّى يموت، فإن لم يخرج من غم ذلك في الدنيا بقي في غمه في البرزخ وفي القيامة، وإن خرج من غمه وضيقه هاهنا خرج منه هناك، فما حُبس العبد عن الله في هذه الدار حبسه عنه بعد الموت وكان معذبًا به هناك كما كان قلبه معذبًا به في الدُّنْيَا، فليس العشّاق والفجرة والظلمة في لذة في هذه الدار وإنما هم يعذبون فيها وفي البرزخ وفي القيامة، ولكن سكر الشهوة وموت القلبَ حال بينهم وبين الشعور بالألم، فإذا حيل بينهم وبين ما يشتهون أحضرت نفوسهم الألم الشديد وصار يعمل فيها بعد الموت نظير ما يعمل الدود في لحومهم، فالآلام تأكل أرواحهم غير أنها لا تفنى، والدود يأكل جسومهم» ا.هـ.



الخطبة السابعة والتسعون:

الأسباب المنجية من عذاب القبر

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد يسأل سائل: ما هي الأسباب المنجية من عذاب القبر؟

والجواب سيأتي في هَذِهِ الخطبة إن شاء الله تَعَالى، سائلًا المولى تبارك وتعالى التوفيق.

عباد الله...

هناك عدة أسباب تنجي من عذاب القبر وهي:

السبب الأول: التوحيد:

قَالَ تَعَالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَـمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَـهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

قَالَ ابن كثير - رَحِمَهُ الله - في تفسيره هٰذه الآية: «أي: هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له، ولم يشركوا به شيئًا، هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدُّنْيَا والآخرة» ا.هـ[1].

وقال تَعَالَى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّـهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّـهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّـهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْمُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِي الْقَبْرِ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾»[2].

عن ابن طاوس، عن أبيه: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: لا إله إلا الله، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ المسألةُ في القَبر.

وقال قَتَادةُ: أمَّا الحياةُ الدُّنْيَا فَيُثَبِّتُهُم بِالخَيرِ والعَمَلِ الصَّالح، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ في القَبر. وكذا رُويَ عَن غَيرِ واحدٍ مِن السَّلفِ» ا.هـ.

وفي حديث البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ المشهور عند الكلام عَلَى العبد المؤمن عندما يسأله الملكان: «.... فَيَأْتِيهِ آتٍ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّىَ اللَّهُ، وَدِينِىَ الإِسْلاَمُ، وَنَبِيِّى مُحَمَّدٌ، فَيَنْتَهِرُهُ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ وَهِىَ آخِرُ فِتْنَةٍ تُعْرَضُ عَلَى الْمُؤْمِنِ، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الآخِرَةِ﴾ فَيَقُولُ: رَبِّىَ اللَّهُ وَدِينِىَ الإِسْلاَمُ وَنَبِيِّى مُحَمَّدٌ فَيَقُولُ لَهُ صَدَقْتَ...» الحديث.

السبب الثاني: فعلُ الطّاعات:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْمَيِّتَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ إِنَّهُ يَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ حِينَ يُوَلُّونَ عَنْهُ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا، كَانَتِ الصَّلاَةُ عِنْدَ رَأْسِهِ، وَكَانَ الصِّيَامُ عَنْ يَمِينِهِ، وَكَانَتِ الزَّكَاةُ عَنْ شِمَالِهِ، وَكَانَ فِعْلُ الْخَيْرَاتِ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالصِّلَةِ

---

(١) «تفسير ابن كثير».

(٢) رواه البخاري (٤٦٩٩)، ومسلم (٢٨٧١).

وَالمَعْرُوفِ وَالإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ عِنْدَ رِجْلَيْهِ.

فَيُؤْتَى مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ، فَتَقُولُ الصَّلاَةُ: مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ، ثُمَّ يُؤْتَى عَنْ يَمِينِهِ، فَيَقُولُ الصِّيَامُ: مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ، ثُمَّ يُؤْتَى عَنْ يَسَارِهِ، فَتَقُولُ الزَّكَاةُ: مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ، ثُمَّ يُؤْتَى مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْهِ، فَتَقُولُ فَعَلُ الخَيْرَاتِ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالصِّلَةِ وَالمَعْرُوفِ وَالإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ: مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ، فَيُقَالُ لَهُ: اجْلِسْ فَيَجْلِسُ، وَقَدْ مُثِّلَتْ لَهُ الشَّمْسُ وَقَدْ أُدْنِيَتْ لِلْغُرُوبِ، فَيُقَالُ لَهُ: أَرَأَيْتَكَ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي كَانَ فِيكُمْ مَا تَقُولُ فِيهِ، وَمَاذَا تَشْهَدُ بِهِ عَلَيْهِ؟ فَيَقُولُ: دَعُونِي حَتَّى أُصَلِّيَ، فَيَقُولُونَ: إِنَّكَ سَتَفْعَلُ، أَخْبِرْنِي عَمَّا نَسْأَلُكَ عَنْهُ، أَرَأَيْتَكَ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي كَانَ فِيكُمْ مَا تَقُولُ فِيهِ، وَمَاذَا تَشْهَدُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ، وَأَنَّهُ جَاءَ بِالحَقِّ مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَيُقَالُ لَهُ: عَلَى ذَلِكَ حَيِيتَ وَعَلَى ذَلِكَ مِتَّ، وَعَلَى ذَلِكَ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: هَذَا مَقْعَدُكَ مِنْهَا، وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَكَ فِيهَا، فَيَزْدَادُ غِبْطَةً وَسُرُورًا، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ النَّارِ، فَيُقَالُ لَهُ: هَذَا مَقْعَدُكَ مِنْهَا وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَكَ فِيهَا لَوْ عَصَيْتَهُ، فَيَزْدَادُ غِبْطَةً وَسُرُورًا، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا، وَيُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، وَيُعَادُ الجَسَدُ لِمَا بَدَأَ مِنْهُ، فَتُجْعَلُ نَسْمَتُهُ فِي النَّسَمِ الطَّيِّبِ وَهِيَ طَيْرٌ يَعْلُقُ فِي شَجَرِ الجَنَّةِ، قَالَ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ [إبراهيم: ٢٧].

قَالَ: وَإِنَّ الكَافِرَ إِذَا أُتِيَ مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ، لَمْ يُوجَدْ شَيْءٌ، ثُمَّ أُتِيَ عَنْ يَمِينِهِ، فَلاَ يُوجَدُ شَيْءٌ، ثُمَّ أُتِيَ عَنْ شِمَالِهِ، فَلاَ يُوجَدُ شَيْءٌ، ثُمَّ أُتِيَ مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْهِ، فَلاَ يُوجَدُ شَيْءٌ، فَيُقَالُ لَهُ: اجْلِسْ، فَيَجْلِسُ خَائِفًا مَرْعُوبًا، فَيُقَالُ لَهُ: أَرَأَيْتَكَ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي كَانَ فِيكُمْ مَاذَا تَقُولُ فِيهِ؟ وَمَاذَا تَشْهَدُ بِهِ عَلَيْهِ؟ فَيَقُولُ: أَيُّ رَجُلٍ؟ فَيُقَالُ: الَّذِي كَانَ فِيكُمْ، فَلاَ يَهْتَدِي لِاسْمِهِ حَتَّى يُقَالَ لَهُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: مَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ قَالُوا قَوْلاً، فَقُلْتُ كَمَا قَالَ النَّاسُ، فَيُقَالُ لَهُ: عَلَى ذَلِكَ حَيِيتَ، وَعَلَى ذَلِكَ مِتَّ، وَعَلَى ذَلِكَ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ النَّارِ، فَيُقَالُ لَهُ: هَذَا مَقْعَدُكَ مِنَ النَّارِ، وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَكَ فِيهَا، فَيَزْدَادُ حَسْرَةً وَثُبُورًا، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: ذَلِكَ مَقْعَدُكَ مِنَ الجَنَّةِ، وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَكَ فِيهِ لَوْ أَطَعْتَهُ فَيَزْدَادُ حَسْرَةً وَثُبُورًا، ثُمَّ يُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلاَعُهُ، فَتِلْكَ المَعِيشَةُ الضَّنْكَةُ الَّتِي قَالَ اللَّهُ: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤]».

رواه الطبراني في «الأوسط»، وابن حبان في «صحيحه» واللفظ له، وزاد الطبراني: قَالَ أَبُو عُمَرَ: قُلْتُ لِحَمَّادِ بن سَلَمَةَ: كَانَ هَذَا مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ أَبُو عُمَرَ: كَأَنَّهُ يَشْهَدُ بِهَذِهِ الشَّهَادَةِ عَلَى غَيْرِ يَقِينٍ يَرْجِعُ إِلَى قَلْبِهِ، كَانَ يَسْمَعُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَيَقُولُهُ.

وفي رواية للطبراني: «يُؤتى الرَّجُل في قَبره فإذَا أُوتي مِن قِبَلِ رأسهِ دَفَعتهُ تِلاوَةُ القُرآنِ، وإذا أُوتي مِن قِبَلَ يَديهِ دَفعَتهُ الصَّدقةُ، وإذَا أُوتِيَ مِن قِبَلِ رِجليهِ دَفَعهُ مَشيُهُ إلى المَسَاجِد...» الحديث.

النسمة - بفتح النُّون والسين: هي الروح.

قوله: «تعلق» بضم اللام: أي: تأكل.

السبب الثالث: تجنب الأسباب التي تؤدي إلى عذاب القبر:

قَالَ ابنُ القَيِّم - رَحِمَهُ الله -: من الأسباب المنجية من عذاب القبر: «تجنب تلك الأسباب التي تقتضي عذاب القبر، ومن أنفعها أن يجلس الرجل عندما يريد النوم لله ساعة يُحاسب نفسه فيها على ما خسرهُ وربحهُ في يومه، ثُمَّ يُجدد له توبة نصوحًا بينه وبينَ الله، فينام على تلك التوبة ويعزم على أن لا يُعاود الذنب إذا استيقظ، ويفعل هذا كل ليلة، فإن مات مِن ليلته مات على توبة، وإن استيقظ استيقظ مستقبلا للعمل مسرورًا بتأخير أجله حَتَّى يستقبل ربّه ويستدرك ما فاته، وليس للعبد أنفع مِن هذه النومة ولا سيما إذا عقب ذلك بذكر الله واستعمال السُّنن التي وردت عن رسول الله ﷺ عند النوم حَتَّى يغلبه النوم، فمن أراد الله به خيرًا وفَّقه لذلك ولا قوة إلا بالله» ا.هـ.

السبب الرابع: الرِّباط في سبيل الله:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَجْرَى عَلَيْهِ أَجْرَ عَمَلِهِ الصَّالِحِ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُ، وَأَجْرَى عَلَيْهِ رِزْقَهُ، وَأَمِنَ مِنَ الفَتَّانِ، وَبَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ آمِنًا مِنَ الفَزَعِ**»[1].

---

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٢٧٦٧).

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «مَنْ مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ. أَمَّنَهُ اللَّهُ مِنْ فِتْنَةِ القَبْرِ»(١).

السبب الخامس: الشهادة في سبيل الله:

عَنْ عُبَادَةَ بن الصَّامِتِ، وكذا من حديث قيس الجذامي رَضِيَ الله عَنْهُمَا، أنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «إنّ لِلشّهِيدِ عِنْدَ الله خِصَالًا: أَنْ يُغْفَرَ لَهُ مِنْ أَوّلِ دَفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ، وَيُرَى مَقْعَدُهُ مِنْ الجَنّةِ، وَيُحَلّى حِلْيَةَ الإِيمَانِ، وَيُزَوّجَ مِنَ الحُورِ العَيْنِ، وَيُجَارَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَيَأْمَنَ مِنَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَيُوضَعَ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الوَقَارِ اليَاقُوتَةُ مِنْهُ خَيْرٌ مِنَ الدّنْيَا وَمَا فِيهَا. وَيُزَوّجَ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِنَ الحُورِ العَيْنِ، وَيُشَفّعَ فِي سَبْعِينَ إنْسَانًا مِنْ أَقَارِبِهِ»(٢).

عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا بَالُ الْمُؤْمِنِينَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ إِلَّا الشَّهِيدَ؟ قَالَ: «كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً»(٣).

وقوله ﷺ: «كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً» معناه والله أعلم: قَدْ امتحن نفاقه من إيمانه ببارقة السيف عَلَى رأسه فلم يفر، فلو كان منافقًا لما صبر لبارقة السيف عَلَى رأسه، فدل عَلَى أن إيمانه هو الَّذِي حمله عَلَى بذل نفسه لله وتسليمها له، وهاج من قلبه حميّة الغضب لله ورسوله وإظهار دينه وإعزاز كلمته، فهذا قَدْ أظهر صدق ما في ضميره حيث برز للقتل فاستغنى بذلك عن الامتحان في قبره» ا.هـ(٤).

السبب السادس: سؤال الله الشهادة بصدق:

فعن سَهْلَ بْنَ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ حَدَّثَهُ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ»(٥).

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ طَلَبَ الشَّهَادَةَ

---

(١) صحيح: أخرجه الطبراني وغيره، وانظر «صحيح الجامع» (٦٤٢١).

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (١٦٦٣)، وغيره، وصححه الألباني.

(٣) صحيح: أخرجه النسائي (٩١/ ٢٨)، وصححه الألباني.

(٤) «الروح» (١٠٩).

(٥) رواه مسلم (١٩٠٩).

صَادِقًا أُعْطِيَهَا وَلَوْ لَمْ تُصِبْهُ» [(١)].

قَالَ النووي - رَحِمَهُ الله - في شرحه هٰذين الحديثين: «معناهما جميعًا: أَنَّهُ إذا سأل الشهادة بصدق أُعطي مِن ثواب الشهداء وإن كان عَلَىٰ فراشه، وفيه استحباب سؤال الشهادة واستحباب نيّة الخير» ا.هـ[(٢)].

السبب السابع: الموت بداء البطن:

وقَدْ تقدّمت أحاديث تدلّ عَلَىٰ ذَلِكَ في أسباب حُسن الخاتمة.

هذا، ويلحق بالشهيد الَّذِي لا يعذب في قبره كل أنواع الشهادة أو مَن له أجر الشهيد الَّذِي نصّ عليه رَسُول الله ﷺ، ولا دخل للقياس في هذا.

السبب الثامن: الموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ الله عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَوْ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ إِلاَّ وَقَاهُ اللَّهُ فِتْنَةَ الْقَبْرِ**» [(٣)].

قَالَ الحكيم الترمذي: «ومَن مات يوم الجمعة فقد انكشف الغطاء عما له عند الله تَعَالَىٰ، لأن يوم الجمعة لا تسجر فيه جهنم وتُغلق أبوابها، ولا يعمل سلطان النار ما يعمل في سائر الأيام، فَإِذَا قبض الله عبدًا من عبيده، فوافق قبضه يوم الجمعة كان ذَلِكَ دليلًا لسعادته وحسن مآربه، وأَنَّهُ لم يقبض في هذا اليوم العظيم إلَّا مَن كتب الله له السعادة عنده، فلذلك يقه فتنة القبر؛ لأن سببها إنّما هو تمييز المنافق من المؤمن» [(٤)].

السبب التاسع: قراءة سورة تبارك تُنجي من عذاب القبر:

عن ابن مسعودٍ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «**سُورة تباركَ هي المانعةُ مِن عذابِ القبر**» [(٥)].

---

(١) رواه مسلم (١٩٠٨).

(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٣/ ٤٩).

(٣) **حسن**: أخرجه الترمذي (١٠٧٤)، وأحمد (٦٥٨٢ - ٦٦٤٦)، وانظر «صحيح الجامع» (٥٦٤٩).

(٤) «شرح الصدور» (١٥٠).

(٥) **حسن**: أخرجه أبو الشيخ في «طبقات الأصبهانيين» (٢٦٤)، وانظر «السلسلة الصحيحة» (١٤٤٠).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ سُورَةً مِنَ الْقُرْآنِ ثَلاَثُونَ آيَةً شَفَعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّى غُفِرَ لَهُ وَهِيَ سُورَةُ ﴿تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾**»[1].

عباد الله...

هَذِهِ بعض الأسباب المنجية من عذاب القبر، فعضُّوا عليه بالنواجذ، واجعلوها نُصب أعينكم.

وظَّفوا أنفاسكم في طاعة ربِّكم، واهربوا من النار جهدكم، وها هو صوتُ أبي ذرٍّ الغفاريّ رَضِيَ الله عَنْهُ يدلّنا عَلَى ما ينفعنا: عن سُفيان الثوريّ قَالَ: قَالَ أبو ذرٍّ الغفاريّ عند الكعبة: يا أيُّهَا النَّاس، أنا جُندب الغفاريّ، هلمّوا إلى الأخ الناصح الشفيق.

فاكتنفه[2] النَّاس، فقال: أرأيتم لو أنَّ أحدكم أراد سفرًا أليس يتخذ مِن الزاد ما يصلحه ويبلغه؟

قالوا: بلى.

قَالَ: فإن سفر طريق القيامة أبعد ما تريدون فخذوا ما يصلحكم.

قالوا: وما يصلحنا؟

قَالَ: حُجّوا حجّة لعظائم الأمور.

وصوموا يومًا شديدًا حرّه لطول النشور.

وصلُّوا ركعتين في سواد الليل لوحشة القبور.

وكلمة خير تقولها أو كلمة شر تسكت عنها لوقوف يوم عظيم.

تصدق بمالك لعلك تنجو من عسيرها.

اجعل الدُّنْيَا مجلسينِ: مجلسًا في طلب الحلال، ومجلسًا في طلب الآخرة. والثالث يَضرُّك ولا ينفعك لا ترِده.

اجعل المال درهمين: درهمًا تُنفقه على عيالك من حلِّه، ودرهما تقدمه لآخرتك،

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي (٢٨٩١)، وغيره، وانظر «صحيح الجامع» (٢٨٧).

(٢) اكتنفه النَّاس: أحاطوا به.

والثالث يضرك ولا ينفعك لا تَرِدِه.

ثم نادى بأعلى صوته: يا أيُّهَا النَّاس قَدْ قتلكم حِرصٌ لا تُدرِكُونه أبدًا»[١].

ما أجملها من موعظة، لو كان بالقلوب حياة.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ونختم خطبة اليوم بهذا الموقف الإيماني المؤثّر:

عن ثابت البناني ورجل آخر، أنهما دخلا على مُطرِّف بن عبد الله[٢] وهو مغمى عليه، قال: فسطعت منه ثلاثة أنوار: نورٌ من رأسه، ونورٌ من وسطه، ونورٌ من رجليه، فهالنا ذلك، فأفاق فقلنا: كيف أنت يا أبا عبدالله؟ قال: صالح. فقيل: لقد رأينا شيئا هالنا. قال: وما هو؟ قلنا: أنوار سطعت منك. قال: وقد رأيتم ذلك؟ قالوا: نعم. قال: تلك «تنزيل السَّجدة»[٣]، وهي تسع وعشرون آية، سطع أولها من رأسي ووسطها من وسطي وآخرها من قدمي.

وقد صُوِّرت تشفع لي، وهذه «تبارك»[٤] تحرسني[٥]

وفاضت روحُه إلى الله تَعَالى، رَحِمَهُ الله.

❁❁❁❁❁

---

(١) «صفة الصفوة» لابن الجوز (١/ ٣٠٢).

(٢) من التابعين.

(٣) يعني سورة السجدة.

(٤) سورة الملك.

(٥) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ١٩٤)، و«حلية الأولياء» (٢/ ٢٠٦)، و«المنتظم» لابن الجوزي (٦/ ٢٨٢)

الخطبة الثامنة والتسعون:

[أ] آداب زيارة القبور

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد تكلّمت - بفضل الله تَعَالَى - في غير هذا الموضع عن فضل زيارة القبور، وذكرت بعض الأحاديث التي أمر النَّبيُّ ﷺ فيها بزيارة القبور، ومنها:

ما رواه ابن حبان بإسنادٍ صحيح عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ، فَزُورُوا القُبُورَ، فَإِنَّهَا تُزَهِّدُ فِي الدُّنْيَا وَتُذَكِّرُ الآخِرَةَ».

ومنها: عَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ فَزُورُوهَا، وَنَهَيْتُكُمْ عَنْ لُحُومِ الأَضَاحِيِّ فَوْقَ ثَلاَثٍ، فَأَمْسِكُوا مَا بَدَا لَكُمْ، وَنَهَيْتُكُمْ عَنِ النَّبِيذِ إِلاَّ فِي سِقَاءٍ، فَاشْرَبُوا فِي الأَسْقِيَةِ كُلِّهَا وَلاَ تَشْرَبُوا مُسْكِرًا».

عباد الله...

وقَدْ وضع الإسلامُ لزيارة القبور آدابًا للرجال والنساء، فالنساء عَلَى الراجح يشملهم الإذن بالزيارة، كما سيأتي:

وتشرع زيارة القبور للاتعاظ بها وتذكر الآخرة؛ شريطة أن لا يقول عندها ما يغضب الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كدعاء المقبور والاستغاثة به مِن دون الله تعالى، أو تزكيته والقطع له بالجنة، ونحو ذلك، وفيه أحاديث معروفة، لا ضرورة لذكرها هنا، فمن شاء راجعها في الأصل.

والنساء كالرجال في استحباب زيارة القبور، لوجوه:

الأول: عموم قوله ﷺ: «.. **فَزُورُوا القُبُورَ**» فيدخل فيه النساء، وبيانه: أن النبي ﷺ لَـمَّا نهى عن زيارة القبور في أول الأمر. فإن مِمَّا لا شك فيه أنَّ النَّهي كان شاملا للرجال والنساء معًا، فلما قَالَ: «**كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ**» كان مفهوما أنه كان يعني الجنسين ضرورة أنه يخبرهم عما كان في أول الأمر مِن نهي الجنسين، فإذا كان الأمر كذلك، كان لزاما أن الخطاب في الجملة الثانية من الحديث وهو قوله: «**فَزُورُوهَا**» إنما أراد به الجنسين أيضا.

ويؤيده: أنَّ الخطاب في بقية الأفعال المذكورة في روايته: «**وَنَهَيْتُكُمْ عَنْ لُحُومِ الأَضَاحِيِّ فَوْقَ ثَلاَثٍ، فَأَمْسِكُوا مَا بَدَا لَكُمْ، وَنَهَيْتُكُمْ عَنِ النَّبِيذِ إِلاَّ فِي سِقَاءٍ، فَاشْرَبُوا فِي الأَسْقِيَةِ كُلِّهَا وَلاَ تَشْرَبُوا مُسْكِرًا**».

أقول: فالخطاب في جميع هذه الأفعال موجّه إلى الجنسين قطعًا، كما هو الشأن في الخطاب الأول: (**كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ**)، فإذا قيل: بأن الخطاب في قوله: «**فَزُورُوهَا**» خاص بالرجال، اختلّ نظام الكلام وذهبت طراوته، الأمر الَّذِي لا يليق بمن أوتي جوامع الكلم، ومن هو أفصح من نطق بالضاد ﷺ ويزيده تأييدا الوجوه الآتية:

الثاني: مشاركتهن الرجال في العلة التي من أجلها شُرعت زيارة القبور: « **تُرِقُّ القَلْبَ وَتُدْمِعُ العَيْنَ وَتُذَكِّرُ الآخِرَةَ**».

الثالث: أن النبي ﷺ قد رخّص لهنَّ في زيارة القبور، في حديثين حفظتهما لنا أُمّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا:

١- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ: أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَقْبَلَتْ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْمَقَابِرِ فَقُلْتُ لَهَا: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتِ؟ قَالَتْ: مِنْ قَبْرِ أَخِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، فَقُلْتُ لَهَا: أَلَيْسَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ كَانَ نَهَى، ثُمَّ أَمَرَ بِزِيَارَتِهَا.

وفي رواية عنها: «أنَّ رَسُول الله ﷺ رخص في زيارة القبور».

٢- عن مُحَمَّدَ بْنَ قَيْسِ بْنِ مَخْرَمَةَ بْنِ الْمُطَّلِبِ أَنَّهُ قَالَ يَوْماً: أَلاَ أُحَدِّثُكُمْ عَنِّي وَعَنْ أُمِّي؟ فَظَنَنَّا أَنَّهُ يُرِيدُ أُمَّهُ الَّتِي وَلَدَتْهُ، فَقَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ: أَلاَ أُحَدِّثُكُمْ عَنِّي وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قُلْتُ بَلَى.

قَالَ: قَالَتْ: لَمَّا كَانَتْ لَيْلَتِي الَّتِي النَّبِيُّ ﷺ فِيهَا عِنْدِي انْقَلَبَ فَوَضَعَ رِدَاءَهُ وَخَلَعَ نَعْلَيْهِ فَوَضَعَهُمَا عِنْدَ رِجْلَيْهِ وَبَسَطَ طَرَفَ إِزَارِهِ عَلَى فِرَاشِهِ، فَاضْطَجَعَ فَلَمْ يَلْبَثْ إِلاَّ رَيْثَمَا ظَنَّ أَنِّي قَدْ رَقَدْتُ، فَأَخَذَ رِدَاءَهُ رُوَيْداً وَانْتَعَلَ رُوَيْداً وَفَتَحَ الْبَابَ فَخَرَجَ، ثُمَّ أَجَافَهُ رُوَيْداً فَجَعَلْتُ دِرْعِي فِي رَأْسِي وَاخْتَمَرْتُ وَتَقَنَّعْتُ إِزَارِي[1] ثُمَّ انْطَلَقْتُ عَلَى أَثَرِهِ حَتَّى جَاءَ الْبَقِيعَ، فَقَامَ فَأَطَالَ الْقِيَامَ ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ انْحَرَفَ فَانْحَرَفْتُ، فَأَسْرَعَ فَأَسْرَعْتُ، فَهَرْوَلَ فَهَرْوَلْتُ، فَأَحْضَرَ فَأَحْضَرْتُ فَسَبَقْتُهُ فَدَخَلْتُ فَلَيْسَ إِلاَّ أَنِ اضْطَجَعْتُ.

فَدَخَلَ فَقَالَ: «**مَا لَكِ يَا عَائِشُ حَشْيَاءَ[2] رَابِيَةً**». قَالَتْ: قُلْتُ: لاَ شَيْءَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «**لَتُخْبِرِنِّنِي أَوْ لَيُخْبِرَنِّي اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**».

قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي فَأَخْبَرْتُهُ.

قَالَ: «**فَأَنْتِ السَّوَادُ الَّذِي رَأَيْتُ أَمَامِي**». قُلْتُ: نَعَمْ، فَلَهَزَنِي فِي ظَهْرِي لَهْزَةً[3] فَأَوْجَعَتْنِي، وَقَالَ: «**أَظَنَنْتِ أَنْ يَحِيفَ عَلَيْكِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟!**».

قَالَتْ: مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ.

---

(١) أي: لبست إزاري.

(٢) هو الربو والتهيج الَّذِي يعرض للمسرع في مشيه من ارتفاع النَّفس وتواتره، وقوله: رابئة: أي: مرتفعة البطن.

(٣) **اللهز**: الضرب بجمع الكف.

قَالَ: «نَعَمْ فَإِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ أَتَانِي حِينَ رَأَيْتِ فَنَادَانِي فَأَخْفَاهُ مِنْكِ فَأَجَبْتُهُ فَأَخْفَيْتُهُ مِنْكِ وَلَمْ يَكُنْ لِيَدْخُلَ عَلَيْكِ وَقَدْ وَضَعْتِ ثِيَابَكِ وَظَنَنْتُ أَنَّكِ قَدْ رَقَدْتِ فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَكِ وَخَشِيتُ أَنْ تَسْتَوْحِشِي فَقَالَ إِنَّ رَبَّكَ جَلَّ وَعَزَّ يَأْمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَ أَهْلَ الْبَقِيعِ فَتَسْتَغْفِرَ لَـهُمْ».

قَالَتْ: فَكَيْفَ أَقُولُ يَا رَسُولَ الله؟

فَقَالَ: «قُولِي السَّلاَمُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ وَيَرْحَمُ اللَّهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَلاَحِقُونَ».

ولكن لا يجوز لهنَّ الإكثار من زيارة القبور والتردد عليها، لأن ذلك قد يفضي بهن إلى مخالفة الشريعة، مِن مِثل الصياح والتبرج، واتخاذ القبور مجالس للنزهة، وتضييع الوقت في الكلام الفارغ، كما هو مشاهد اليوم في بعض البلاد الإسلامية، وهذا هو المراد - إن شاء الله - بالحديث المشهور: «لعن رسول الله ﷺ - وفي لفظ: لعن الله - زوّارات القبور».

قال القرطبي: «اللعن المذكور في الحديث إنما هو للمكثرات من الزيارة لما تقتضيه الصيغة من المبالغة، ولعل السبب ما يفضي إليه ذلك من تضييع حق الزوج والتبرج، وما ينشأ من الصياح ونحو ذَلِكَ، وقد يقال: إذا أمن جميع ذلك فلا مانع من الإذن لهنَّ، لأن تذكر الموت يحتاج إليه الرجال والنساء».

قال الشوكاني في «نيل الأوطار» (٤/ ٩٥): «وهذا الكلام هو الذي ينبغي اعتماده في الجمع بين أحاديث الباب المتعارضة في الظاهر».

ويجوز زيارة قبر مَن مات على غير الإسلام للعبرة فقط[1]. لحديث أبي هريرة قَالَ: «زار النبي ﷺ قبر أمه. فبكى: وأبكى من حوله، فقال: «**استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكّر الموت**»».

والمقصود من زيارة القبور شيئان:

---

(١) ومن السنة: تبشيره بالنار إذا مررت عليه، فعن سعد قال: قال رَسُول الله ﷺ: «**حيثما مررت بقبر كافر فبشِّره بالنار**». رواه الطبراني، وانظر «الصحيحة» (١٨).

١- انتفاع الزائر بذكر الموت والموتى، وأن مآلهم إما إلى جنة وإما إلى نار، وهو الغرض الأول من الزيارة، كما يدلّ عليه ما سبق من الأحاديث.

٢- نفع الميِّت والإحسان إليه بالسلام عليه، والدُّعَاء والاستغفار له، وهذا خاص بالمسلم، وفيه أحاديث، أذكر بعض صيغها:

الأول: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كُلَّمَا كَانَ لَيْلَتُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَخْرُجُ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ إِلَى البَقِيعِ فَيَقُولُ: «**السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَأَتَاكُمْ مَا تُوعَدُونَ غَدًا مُؤَجَّلُونَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لاَحِقُونَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لأَهْلِ بَقِيعِ الغَرْقَدِ**».

الثاني: عن عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فَذَكَرَت الحَدِيثَ فِي خُرُوجِهِ إِلَى البَقِيعِ وَرُجُوعِهِ قَالَتْ: وَكَيْفَ أَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: قُولِي: «**السَّلاَمُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ وَيَرْحَمُ اللَّهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بَكُمْ للاَحِقُونَ**».

الثالث: عَنْ بُرَيْدَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَتَى عَلَى الْمَقَابِرِ قَالَ: «**السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لاَحِقُونَ أَنْتُمْ لَنَا فَرَطٌ وَنَحْنُ لَكُمْ تَبَعٌ أَسْأَلُ اللَّهَ العَافِيَةَ لَنَا وَلَكُمْ**».

وأما قراءة القرآن عند زيارتها، فمما لا أصل له في السُّنة، بل الأحاديث المذكورة في المسألة السابقة تُشعر بعدم مشروعيتها، إذ لو كانت مشروعة، لفعلها رسول الله ﷺ وعلمها أصحابه، لا سيما وقد سألته عائشة رَضِيَ الله عَنْهَا وهي مِن أحبّ النَّاس إليه ﷺ عما تقول إذا زارت القبور؟ فعلّمها السلام والدُّعَاء. ولم يُعلِّمها أن تقرأ الفاتحة أو غيرها من القرآن، فلو أنَّ القراءة كانت مشروعة لما كتم ذلك عنها، كيف وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز كما تقرر في علم الأصول، فكيف بالكتمان، ولو أنه ﷺ علمهم شيئًا مِن ذلك لَنُقِل إلينا، فإذ لم ينقل بالسند الثابت دل على أنه لم يقع.

ومما يقوي عدم المشروعية:

قوله ﷺ : «**لاَ تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ البَيْتِ الَّذِى تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ البَقَرَةِ**».

فقد أشار ﷺ إلى أن القبور ليست موضعًا للقراءة شرعًا، فلذلك حضّ عَلَى قراءة القرآن في البيوت ونهى عن جعله كالمقابر التي لا يُقرأ فيها، كما أشار الحديث الآخر إلى أنها ليست موضعًا للصلاة أيضًا، وهو قوله: «**صلوا في بيوتكم، ولا تتخذوها قبورًا**».

وترجم له البخاري بقوله: «باب كراهية الصَّلاة في المقابر» فأشار به إلى أَنَّهُ يفيد كراهة الصَّلاة في المقابر، فكذلك الحديث الَّذِي قبله يفيد كراهة قراءة القرآن في المقابر، ولا فرق؛ ولِذَلِكَ كان مذهب جمهور السَّلف كأبي حنيفة ومالك وغيرهم: كراهة القراءة عند القبور، وهو قول الإمام أحمد، فقال أبو داود في «مسائله» (ص١٥٨): سمعت أحمد سُئل عن القراءة عند القبر، فقال: لا.

ويجوز رفع اليد في الدعاء لها، لحديث عائشة رضي الله عنها قالت: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَأَرْسَلْتُ بَرِيرَةَ فِى أَثَرِهِ لِتَنْظُرَ أَيْنَ ذَهَبَ. قَالَتْ: فَسَلَكَ نَحْوَ بَقِيعِ الغَرْقَدِ فَوَقَفَ فِى أَدْنَى البَقِيعِ ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ ثُمَّ انْصَرَفَ فَرَجَعَتْ إِلَىَّ بَرِيرَةُ فَأَخْبَرَتْنِى، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ سَأَلْتُهُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيْنَ خَرَجْتَ اللَّيْلَةَ؟ قَالَ: «**بُعِثْتُ إِلَى أَهْلِ البَقِيعِ لأُصَلِّىَ عَلَيْهِمْ**».

ولكنه لا يستقبل القبور حين الدُّعَاء لها، بل الكعبة، لنهيه ﷺ عن الصَّلاة إلى القبور كما سيأتي، والدُّعَاء مخ الصَّلاة ولبّها، كما هو معروف فله حكمها، وقَدْ قَالَ ﷺ: «**الدُّعَاء هو العبادة**»، ثم قرأ: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ [غافر: ٦٠].

وإذا زار قبر الكافر فلا يُسلم عليه، ولا يدعو له، بل يبشره بالنار، كَذَلِك أمر رَسُول الله ﷺ في حديث سعد بن أبي وقاص قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِىٌّ إِلَى النَّبِىِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَبِى كَانَ يَصِلُ الرَّحِمَ وَكَانَ وَكَانَ فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: «فِى النَّارِ». قَالَ: فَكَأَنَّهُ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَيْنَ أَبُوكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**حَيْثُمَا مَرَرْتَ بِقَبْرِ كَافِرٍ فَبَشِّرْهُ بِالنَّارِ**». قَالَ: فَأَسْلَمَ الأَعْرَابِىُّ بَعْدُ وَقَالَ: لَقَدْ كَلَّفَنِى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَعَبًا، مَا مَرَرْتُ بِقَبْرِ كَافِرٍ إِلاَّ بَشَّرْتُهُ بِالنَّارِ.

ولا يمشي بين قبور المسلمين في نعليه، لحديث بَشِيرِ ابْنِ الخَصَاصِيَةِ قَالَ: كُنْتُ أُمَاشِى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ «...فَأَتَيْنَا عَلَى قُبُورِ الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ: «**لَقَدْ سَبَقَ هَؤُلاَءِ خَيْراً كَثِيراً**». ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ أَتَيْنَا عَلَى قُبُورِ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ: «**لَقَدْ أَدْرَكَ هَؤُلاَءِ خَيْراً كَثِيراً**».

ثَلاثَ مَرَّاتٍ يَقُولُهَا. قَالَ: فَبَصُرَ بِرَجُلٍ يَمْشِي بَيْنَ الْمَقَابِرِ فِي نَعْلَيْهِ فَقَالَ: «**وَيْحَكَ يَا صَاحِبَ السِّبْتِيَّتَيْنِ أَلْقِ سِبْتِيَّتَكَ**». مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا، فَنَظَرَ الرَّجُلُ فَلَمَّا رَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَلَعَ نَعْلَيْهِ.

ولا يُشرّع وضع الآس ونحوها من الرياحين والورود عَلَى القبور؛ لأَنَّهُ لم يكن من فعل السَّلف، ولو كان خيرًا لسبقونا إليه، وقَدْ قَالَ ابن عمر رَضِيَ الله عَنْهُمَا: «كل بدعة ضلالة،وإن رآها النَّاس حسنة» ا.هـ.

عباد الله...

وقَدْ اختلف العلماء في زيارة النِّسَاء للمقابر عَلَى ثلاثة أقوال:

أحدها: التحريم: لِما روى ابن ماجه في «سننه» عن حسَّان بن ثابت قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زُوَّارَاتِ الْقُبُورِ»[(١)].

وممن قَالَ بالتحريم من العلماء المعاصرين: الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد[(٢)] رَحِمَهُ الله تَعَالَى. والشيخ فؤاد مخمير رئيس الجمعيات الشَّرعيَّة[(٣)].

والثاني: يُكره من غير تحريم: وهذا منصوص أحمد في إحدى الروايات عنه، وحجّة هذا القول: حديث أُم عطيّة رَضِيَ الله عَنْهَا قَالَتْ: «نُهِينَا عَنِ اتِّبَاعِ الجَنَائِزِ، وَلَمْ يُعْزَمْ عَلَيْنَا». وهذا يدل عَلَى أن النَّهي للكراهة لا للتحريم.

والثالث: أَنَّهُ مباحٌ لهنَّ غير مكروه: وهو الرواية الأخرى عن أحمد، وممن قَالَ بالجواز من العلماء: الإمام الشوكاني رَحِمَهُ الله[(٤)]، والشيخ الألباني رَحِمَهُ الله - كما تقدّم معنا قبل قليل - وهو الراجح.

وممن جوّز زيارة النِّسَاء للقبور من العلماء القدامى: ابن حجر، والعيني رحمهما الله، قَدْ استدلّا بالحديث التالي:

---

(١) **حسن**: «صحيح سنن ابن ماجه» (١٢٨٩).

(٢) في رسالة له بعنوان «جزء في زيارة النساء للقبور».

(٣) «السنة والبدعة بين التأصيل والتطبيق» لفضيلته (ص٢٦).

(٤) «نيل الأوطار» (٤/ ١٤٧).

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ الله عَنْهُ - قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ[1] فَقَالَ: «اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي». قَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتِي، وَلَمْ تَعْرِفْهُ. فَقِيلَ لَهَا: إِنَّهُ النَّبِيُّ ﷺ[2]. فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ فَقَالَتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ. فَقَالَ: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى»[3].

قَالَ الحافظ في «الفتح»: «وموضع الدلالة منه: أَنَّهُ ﷺ لم يُنكر عَلَى المرأة قعودها عند القبر، وتقريره حُجّة» ا.هـ.

وقال العيني في «العمدة» (٣/ ٧٦): «وفيه جواز زيارة القبور مُطلقًا، سواء كان الزّائر رجلًا أو امرأة، وسواء كان المزور مُسلمًا أو كافرًا، لعدم الفصل في ذَلِكَ» ا.هـ.

لكن لا يجوز لهنّ الإكثار من زيارة القبور والتردّد عليها، لأن ذَلِكَ قَدْ يُفضي بهن إلى مخالفة الشريعة، من مثل الصياح والتبرّج، واتخاذ القبور مجالس للنزهة، وتضييع الوقت في الكلام الفارغ، كما هو مشاهد اليوم في بعض البلاد الإسلامية، وهذا هو المراد - إن شاء الله - بالحديث المشهور: «لعن رسول الله ﷺ - وفي لفظ: لعن الله - زوّارات القبور».

وقد رأى بعضُ أهل العلم أن هذا كان قبل أن يرخص النَّبيُّ ﷺ في زيارة القبور، فلما رخّص دخل في رخصته الرجال والنساء.

وقال بعضهم: إنما كره زيارة القبور للنساء لقلة صبرهن، وكثرة جزعهن.

عباد الله...

وبعد هذا الكلام المتين، نأتي إلى خِتام الخطبة الأولى، سائلًا المولى - جلّت قدرته - أن يجعلني وإيَّاكم مِمَّن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

***

---

(١) في «صحيح مسلم» «تبكي عَلَى صبيّ لها».

(٢) في «صحيح مسلم» «فأخذها مثل الموت».

(٣) رواه البخاري (١٢٨٣)، ومسلم (٩٢٦).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فلا مفرّ من الموت، قال تَعَالَى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلًا * أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ المَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٧، ٧٨]

وقال تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ المَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨].

وكل يوم يمرّ يقرِّبنا من الآخرة، ويبعدنا من الدُّنْيَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

قَالَ القاسمي - رَحِمَهُ الله - في تفسيره هٰذه الآية: «قَالَ القاشاني: أي: إنك ساع مجتهد في الذهاب إليه بالموت، أي: تسير مَعَ أنفاسك سريعًا، كما قيل: أنفاسك خطاك إلى أجلك، أو مجتهد مجدٌّ في العمل، خيرًا أو شرًّا، ذاهب إلى ربِّك فملاقيه ضرورة» ا.هـ[(١)].

فاعملوا - عباد الله - لِما بعد الموت.

أيُّها النَّاس...

«إن الآمال تُطوى، والأعمال تَفنَى، والأبدان تحت التُّراب تَبلَى، وإن الليل والنهار مطيّتان يُقرِّبان كُل بعيد، ويَبليان كُلّ جديد، وفي كل ذَلِكَ - عباد الله - ما ألهى عن الشهوات، وسلّى عن اللذات، ورغّب في الأعمال الباقيات الصالحات.

اللَّهُمَّ إنا نسألك الثبات في الأمر، والعزيمة عَلَى الرّشد
ونسألك حُسن عبادتك، وشكر نعمَتِك.

---

(١) «محاسن التأويل» (٩/ ٣٦٣).

الخطبة التاسعة والتسعون:

[ب] آداب زيارة القبور

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد تقدَّم معنا بعض الآداب عند زيارة القبور، واليوم - إن شاء الله تَعَالَى - نتكلّم عن الأشياء التي يحرّم فعلها عند القبور، سائلًا المولى - تبارك وتعالى - الإصابة في القول والعمل.

عباد الله...

قال الشيخ الألباني -رَحِمَهُ الله - في «مختصر أحكام الجنائز»:

«ويحرم عند القبور ما يأتي:

١ - الذبح لوجه الله لقوله ﷺ: «**لا عَقْرَ في الإسلام**»[١]. قال عبد الرزاق بن همام: كانوا يعقرون عند القبر بقرة أو شاة.

٢ - رفعها زيادة على التراب الخارج منها.

٣ - طليها بالكلس ونحوه.

٤ - الكتابة عليها.

٥ - البناء عليها.

٦ - القعود عليها.

وفي ذلك أحاديث:

الأول: عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُجَصَّصَ القَبْرُ وَأَنْ يُقْعَدَ عَلَيْهِ وَأَنْ يُبْنَى عَلَيْهِ». وفي رواية قَالَ عُثْمَانُ: «**أَوْ يُزَادَ عَلَيْهِ**»، وَزَادَ سُلَيْمَانُ بْنُ مُوسَى: «**أَوْ أَنْ يُكْتَبَ عَلَيْهِ**»[٢].

الثاني: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدريّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى أَنْ يُبْنَى عَلَى القَبْرِ.

الثالث: عَنْ أَبِي الهَيَّاجِ الأَسَدِيِّ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: أَلاَ أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَنْ لاَ تَدَعَ تِمْثَالاً** - وفي رواية: صورة في بيت - **إِلاَّ طَمَسْتَهُ وَلاَ قَبْرًا مُشْرِفًا إِلاَّ سَوَّيْتَهُ**»[٣].

الرابع: عَنْ ثُمَامَةَ بن شُفَي قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ إِلَى أَرْضِ الرُّومِ وَكَانَ عَامِلاً لِمُعَاوِيَةَ عَلَى الدَّرْبِ فَأُصِيبَ ابْنُ عَمٍّ - بـ (رودس)[٤] - لَنَا فَصَلَّى عَلَيْهِ فَضَالَةُ وَقَامَ عَلَى حُفْرَتِهِ حَتَّى وَارَاهُ، فَلَمَّا سَوَّيْنَا عَلَيْهِ حُفْرَتَهُ قَالَ: أَخِفُّوا عَنْهُ - وفي رواية: خففوا عنه[٥] - فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَأْمُرُنَا بِتَسْوِيَةِ القُبُورِ.

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود (٢/ ٧١) وغيره.

(٢) رواه مسلم، والزيادات لأبي داود والنسائي.

(٣) رواه مسلم وغيره.

(٤) جزيرة معروفة في البحر المتوسط، جنوب غرب تركيا.

(٥) هي بمعنى الرواية التي قبلها.

وظاهره: تسويتها بالأرض بحيث لا ترفع إطلاقًا، وهذا غير مراد قطعًا بدليل أن السُّنَّة الرفع قدر شبر كما مرت الإشارة إليه سابقا، ويؤيد هذا من الحديث نفسه قول فضالة «خففوا» أي: التراب، فلم يأمر بإزالة التراب عنه بالكلية وبهذا فسره العلماء[(١)].

الخامس: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«لأَنْ يَجْلِسَ أَحَدُكُمْ عَلَى جَمْرَةٍ فَتُحْرِقَ ثِيَابَهُ فَتَخْلُصَ إِلَى جِلْدِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَجْلِسَ - وفي رواية: يطأ - عَلَى قَبْرٍ»**[(٢)].

السادس: عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«لأَنْ أَمْشِيَ عَلَى جَمْرَةٍ أَوْ سَيْفٍ أَوْ أَخْصِفَ نَعْلِي بِرِجْلِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَمْشِيَ عَلَى قَبْرِ مُسْلِمٍ وَمَا أُبَالِي أَوَسَطَ الْقُبُورِ قَضَيْتُ حَاجَتِي أَوْ وَسَطَ السُّوقِ»**[(٣)].

السابع: عَنْ أَبِي مَرْثَدٍ الغَنَوِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **«لاَ تُصَلُّوا إِلَى الْقُبُورِ وَلاَ تَجْلِسُوا عَلَيْهَا»**[(٤)].

قال المناوي في «فيض القدير» شارحًا للحديث: «أي: مستقبلين إليها، لِما فيه من التعظيم البالغ لأنه مِن مرتبة المعبود، فجمع - يعني الحديث بتمامه - بين النهي عن الاستخفاف بالتعظيم والتعظيم البليغ».

ثم قال في موضع آخر: «فإن ذلك مكروه فإن قصد إنسان التبرك في الصلاة في تلك البقعة فقد ابتدع في الدين ما لم يأذن به الله، والمراد كراهة التنزيه، قال النووي: كذا قال أصحابنا، ولو قيل بتحريمه لظاهر الحديث لم يبعد. ويؤخذ من الحديث النهي عن الصلاة في المقبرة فهو مكروه كراهة تحريم».

وينبغي أن يعلم أن التحريم المذكور إنما هو إذا لم يقصد بالاستقبال تعظيم القبور وإلا فهو شرك.

قال الشيخ علي القاري في «المرقاة» (٢ / ٣٧٢) في شرحه لهذا الحديث: «ولو كان

---

(١) انظر «المرقاة» (٢ / ٣٧٢).
(٢) أخرجه مسلم وغيره.
(٣) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (١/ ٤٧٤) بإسناد صحيح.
(٤) أخرجه مسلم وغيره.

هذا التعظيم حقيقة للقبر ولصاحبه لكفر المعظم فالتشبه به مكروه وينبغي أن يكون كراهة تحريم وفي معناه بل أولى منه: الجنازة الموضوعة وهو مما ابتلي به أهل مكة حيث يضعون الجنازة عند الكعبة ثم يستقبلون إليها».

٨ - الصلاة عندها ولو بدون استقبال وفيه أحاديث:

الأول: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنها قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**الأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدٌ إِلاَّ الحَمَّامَ وَالمَقْبُرَةَ**»[١].

الثاني: عن أنس: «أن النبي ﷺ نهى عن الصلاة بين القبور»[٢].

٩ - بناء المساجد عليها.

وفيه أحاديث أذكر بعضها:

الأول: عن عَائِشَةَ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ قَالاَ: لـمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ الله ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ، فَقَالَ وَهْوَ كَذَلِكَ: «**لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**». يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا[٣].

قالت في رواية: «فلولا ذاك أُبرز قبره غير أنه خُشِي أن يُتخذ مسجدًا».

الثاني: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: لَمَّا كَانَ مَرَضُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَذَاكَرَ بَعْضُ نِسَائِهِ كَنِيسَةً بِأَرْضِ الحَبَشَةِ - يُقَالَ لَهَا مَارِيَةُ - وَقَدْ كَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ وَأُمُّ حَبِيبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَدْ أَتَتَا أَرْضَ الحَبَشَةِ فَذَكَرْنَ مِنْ حُسْنِهَا وَتَصَاوِيرِهَا قَالَتْ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ أُولَئِكَ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا ثُمَّ صَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ أُولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ الله**»[٤].

والاتخاذ المذكور في الأحاديث المتقدمة يشمل عدة أمور:

الأول: الصلاة إلى القبور مستقبلا لها.

---

(١) صحيح: أخرجه أصحاب السنن الأربعة إلَّا النسائي.

(٢) رواه البزار (٤٤١)، وقال الهثمي في «المجمع» (٢/ ٢٧): رجاله رجال الصحيح.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٤) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

الثاني: السجود على القبور.

الثالث: بناء المساجد عليها.

١٠ - اتخاذها عيدًا تُقصد في أوقات معينة ومواسم معروفة للتعبّد عندها أو لغيرها.

لحديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لاَ تَتَّخِذُوا قَبْرِى عِيداً وَلاَ تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُوراً وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلاتَكُمْ تَبْلُغُنِى**»[١].

١١ - السفر إليها.

وفيه أحاديث: منها:

الأول: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلاَّ إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى**»[٢].

الثاني: عن قزعة قال: أردت الخروج إلى الطور فسألت ابن عمر فقال: أما علمت أن النبي ﷺ قال: «**لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلاَّ إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى**». ودع عنك الطور فلا تأته[٣].

١٢ - إيقاد السرج عندها.

والدليل على ذلك عدة أمور:

أولا: كونه بدعة محدثة لا يعرفها السلف الصالح وقد قال ﷺ: «**كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ، وَكُلَّ ضَلالَةٍ فِي النَّارِ**»[٤].

ثانيًا: أن فيه إضاعة للمال وهو منهي عنه بالنص كما تقدم.

ثالثا: أن فيه تشبهًا بالمجوس عبَّاد النار.

قال ابن حجر الفقيه في «الزواجر» (١ / ١٣٤): «صرح أصحابنا بحرمة السراج

---

(١) **حسن**: رواه أبو داود (١/ ٣١٩)، وغيره.

(٢) رواه البخاري.

(٣) **صحيح**: أخرجه الأزرقيُّ في «أخبار مكة» (ص٣٠٤)، وانظر «أحكام الجنائز» (٢٨٧).

(٤) رواه النسائي وابن خزيمة في «صحيحه» بسند صحيح .

على القبر وإن قلّ، حيث لم ينتفع به مقيم ولا زائر وعللوه بالإسراف وإضاعة المال والتشبه بالمجوس، فلا يبعد في هذا أن يكون كبيرة».

قلت: ولم يورد بالإضافة إلى ما ذكر من التعليل دليلنا الأول مع أنه دليل وارد بل لعله أقوى الأدلة لأن الذين يوقدون السرج على القبور إنما يقصدون بذلك التقرب إلى الله تعالى - زعموا - ولا يقصدون الإنارة على المقيم أو الزائر بدليل إيقادهم إياها والشمس طالعة في رابعة النهار فكان من أجل ذلك بدعة ضلالة.

١٣ - كسر عظامها.

والدليل عليه قوله ﷺ : «**إِنَّ كَسْرَ عَظْمِ الْمُؤْمِنِ مَيِّتاً مِثْلُ كَسْرِهِ حَيًّا**».

والحديث دليل على تحريم كسر عظم الميت المؤمن ولهذا جاء في كتب الحنابلة: «ويحرم قطع شيء من أطراف الميت وإتلاف ذاته وإحراقه ولو أوصى به»، كذا في «كشاف القناع» (٢ / ١٢٧).

وقال النووي في «المجموع» (٥ / ٣٠٣) ما مختصره: «ولا يجوز نبش القبر لغير سبب شرعي باتفاق الأصحاب ويجوز بالأسباب الشرعية، ومختصره: أنه يجوز نبش القبر إذا بلي الميت وصار ترابا وحينئذ يجوز دفن غيره فيه ويجوز زرع تلك الأرض وبناؤها وسائر وجوه الانتفاع والتصرف فيها باتفاق الأصحاب، وهذا كله إذا لم يبق للميت أثر من عظم وغيره ويختلف ذلك باختلاف البلاد والأرض ويعتمد فيه قول أهل الخبرة بها».

قلت[١]: ومنه تعلم تحريم ما ترتكبه بعض الحكومات الإسلامية من درس بعض المقابر الإسلامية ونبشها من أجل التنظيم العمراني دون أي مبالاة بحرمتها أو اهتمام بالنهي عن وطئها وكسر عظامها ونحو ذلك.

والحامل على هذه المخالفات - فيما أعتقد - إنما هو التقليد الأعمى لأوروبا المادية الكافرة التي تريد أن تقضي على كل مظهر من مظاهر الإيمان بالآخرة وكل ما يذكر بها، وليس هو مراعاة القواعد الصحيحة كما يزعمون، ولو كان ذلك صحيحا لبادروا إلى

---

(١) الكلام للشيخ الألباني رَحِمَهُ الله.

محاربة الأسباب التي لا يشك عاقل في ضررها مثل بيع الخمور وشربها والفسق والفجور على اختلاف أشكاله وأسمائه.

٢ - أنه لا حرمة لعظام غير المؤمنين لإضافة العظم إلى المؤمن في قوله: «**عظم المؤمن**». فأفاد أنَّ عظم الكافر ليس كذلك، وقد أشار إلى هذا المعنى الحافظ في «الفتح» بقوله: «يستفاد منه أن حرمة المؤمن بعد موته باقية كما كانت في حياته»[(١)].

ومن ذلك يعرف الجواب عن السؤال الذي يتردد على ألسنة كثير من الطلاب في كليات الطب وهو: هل يجوز كسر العظام لفحصها وإجراء التحريات الطبية فيها؟.

والجواب: لا يجوز ذلك في عظام المؤمن ويجوز في غيرها ويؤديه ما يأتي في المسألة التالية:

ويجوز نبش قبور الكفار؛ لأنه لا حرمة لها كما دل عليه مفهوم الحديث السابق، ويشهد له حديث أنس بن مالك رَضِيَ الله عَنْهُ قال: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ المَدِينَةَ فَنَزَلَ أَعْلَى المَدِينَةِ، فِي حَيٍّ يُقَالُ لَـهُمْ: بَنُو عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ. فَأَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فِيهِمْ أَرْبَعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى بَنِي النَّجَّارِ فَجَاءُوا مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ عَلَى رَاحِلَتِهِ، وَأَبُو بَكْرٍ رِدْفُهُ، وَمَلأُ بَنِي النَّجَّارِ حَوْلَهُ، حَتَّى أَلْقَى بِفِنَاءِ أَبِي أَيُّوبَ، وَكَانَ يُحِبُّ أَنْ يُصَلِّيَ حَيْثُ أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ، وَيُصَلِّي فِي مَرَابِضِ الغَنَمِ، وَأَنَّهُ أَمَرَ بِبِنَاءِ المَسْجِدِ، فَأَرْسَلَ إِلَى مَلإٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ فَقَالَ: «**يَا بَنِي النَّجَّارِ ثَامِنُونِي بِحَائِطِكُمْ هَذَا**». قَالُوا: لاَ وَاللَّهِ، لاَ نَطْلُبُ ثَمَنَهُ إِلاَّ إِلَى الله.

فَقَالَ أَنَسٌ: فَكَانَ فِيهِ مَا أَقُولُ لَكُمْ، قُبُورُ الْمُشْرِكِينَ، وَفِيهِ خَرِبٌ، وَفِيهِ نَخْلٌ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِقُبُورِ الْمُشْرِكِينَ فَنُبِشَتْ، ثُمَّ بِالخَرِبِ فَسُوِّيَتْ، وَبِالنَّخْلِ فَقُطِعَ، فَصَفُّوا النَّخْلَ قِبْلَةَ المَسْجِدِ، وَجَعَلُوا عِضَادَتَيْهِ الحِجَارَةَ، وَجَعَلُوا يَنْقُلُونَ الصَّخْرَ...» الحديث[(٢)].

قال الحافظ في «الفتح»: «وفي الحديث جواز التصرف في المقبرة المملوكة بالهبة والبيع وجواز نبش القبور الدارسة إذا لم تكن محترمة، وجواز الصلاة في مقابر المشركين

---

(١) ذكره في «فيض القدير» (٤/ ٥٥١).

(٢) رواه البخاري ومسلم.

بعد نبشها وإخراج ما فيها وجواز بناء المساجد في أماكنها». انتهى مختصرًا.

عباد الله...

هذه آداب زيارة القبور، فتخلّقوا بها، ولتكن منا عَلَى بال، والله الموفق لِما يُحب ويرضى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فهناك من المسلمين من يسأل:

ما تقولون في إدخال القبر النبوي في المسجد الشريف؟

ويجيب عن هذا السؤال الشيخ الألباني -رَحِمَهُ الله - في كتابه الماتع «تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد» فيقول ما مختصره:

«إنَّ كل من يتأمل في تلك الأحاديث الكريمة[١] يظهر له بصورة لا شك فيها أن الاتخاذ المذكور حرام، بل كبيرة من الكبائر؛ لأن اللعن الوارد فيها ووصف المخالفين بأنهم مِن شرار الخلق عند الله - تبارك وتعالى - لا يمكن أن يكون في حق من يرتكب ما ليس كبيرة كما لا يخفى.

وقد اتفقت المذاهب الأربعة على تحريم ذَلِكَ، ومنهم مَن صرَّح بأنه كبيرة، وإليك تفاصيل المذاهب في ذلك:

١ - مذهب الشافعية أنها كبيرة:

قال ابن حجر الهيتمي في «الزواجر عن اقتراف الكبائر» (١ / ١٢٠): «الكبيرة الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة والتسعون: اتخاذ القبور مساجد

(١) الواردة بشأن النهي عن اتخاذ القبور مساجد.

وإيقاد السُّرج عليها، واتخاذها أوثانًا، والطواف بها واستلامها والصلاة إليها».

٢ - **مذهب الحنفية الكراهة التحريمية:**

والكراهة بهذا المعنى الشرعي قد قال به هنا الحنفية، فقال الإمام محمد تلميذ أبي حنيفة في كتابه «الآثار» (ص ٤٥): «لا نرى أن يزاد على ما خرج من القبر ونكره أن يُجَصَّص أو يُطَيَّن أو يُجعل عنده مسجدًا».

والكراهة عن الحنفية إذا أُطلقت فهي للتحريم، كما هو معروف لديهم، وقد صرَّح بالتحريم في هذه المسألة ابن الملك.

٣ - **مذهب المالكية التحريم:**

وقال القرطبي في تفسيره (١٠ / ٣٨) بعد أن ذكر الحديث الخامس: «قال علماؤنا: وهذا يحرُم على المسلمين أن يتخذوا قبور الأنبياء والعلماء مساجد».

٤ - **مذهب الحنابلة التحريم:**

ومذهب الحنابلة التحريم أيضًا كما في «شرح المنتهى» (١ / ٣٥٣) وغيره، بل نص بعضهم على بطلان الصلاة في المساجد المبنية على القبور ووجوب هدمها، فقال ابن القيم في «زاد المعاد» في صدد بيان ما تضمنته غزوة تبوك من الفقه والفوائد وبعد أن ذكر قصة مسجد الضرار الذي نهى الله تبارك وتعالى نبيه أن يصلي فيه وكيف أنه ﷺ هدمه وحرقه.

قال: ومنها: تحريق أمكنة المعصية التي يعصى الله ورسوله ﷺ فيها مسجد يصلى فيه ويذكر اسم الله فيه لما كان بناؤه ضررًا وتفريقًا بين المؤمنين ومأوى للمنافقين، وكل مكان هذا شأنه فواجب على الإمام تعطيله إما بهدم أو تحريق وإما بتغيير صورته وإخراجه عما وضع له، وإذا كان هذا شأن مسجد الضرار فمشاهد الشرك التي تدعو سدنتها إلى اتخاذ من فيها أندادا من دون الله أحق بذلك...

وعلى هذا فيهدم المسجد إذا بني على قبر، كما ينبش الميت إذا دفن في المسجد، نص على ذلك الإمام أحمد وغيره، فلا يجتمع في دين الإسلام مسجد وقبر، بل أيهما طرأ على الآخر مُنع منه، وكان الحكم للسابق، فلو وضعا معًا لم يجز، ولا يصح هذا الوقف ولا

يجوز، ولا تصحّ الصلاة في هذا المسجد لنهي رسول الله ﷺ عن ذلك ولعنه من اتخذ القبر مسجدًا أو أوقد عليه سراجا فهذا دين الإسلام الذي بعث الله به رسوله ونبيه، وغُربته بين الناس كما ترى ا.هـ.

فتبيّن مما نقلناه عن العلماء: أن المذاهب الأربعة متفقة على ما أفادته الأحاديث المتقدمة من تحريم بناء المساجد على القبور.

عباد الله...

وقَدْ أثار بعض المعترضين شبهات، ردّ عليها الشيخ الألباني -رَحِمَهُ الله - فأتى عَلَى بنيانها من القواعد، منها:

الشُّبهة الأولى: قوله تَعَالى: ﴿**قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا** ﴾ [الكهف: ٢١].

وهي ليست دليلًا عَلَى اتخاذ المساجد عَلَى القبور، لأن ﴿**الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ** ﴾ هم أصحاب القهر والغلبة وأتباع الهوى، وليس من فعل أهل العلم والفضل، كما قَالَ الحافظ ابن رجب وغيره.

وكيف يُحتج عملهم وقَدْ لعن الرسول ﷺ عملهم في عدّة أحاديث؟!

الشُّبهة الثانية: كَون القبر النبوي في المسجد الشريف.

وأما هذه الشبهة وهي أن قبر النبي ﷺ في مسجده كما هو مُشاهد اليوم، ولو كان ذَلِكَ حرامًا لم يُدفن فيه، **والجواب:** أن هذا وإن كان هو المشاهد اليوم فإنه لم يكن كذلك في عهد الصحابة رضي الله عنهم فإنهم لما مات النبي ﷺ دفنوه في حُجرته في التي كانت بجانب مسجده وكان يفصل بينهما جدار فيه باب، كان النبي صلى ﷺ يخرج منه إلى المسجد، وهذا أمر معروف مقطوع به عند العلماء ولا خلاف في ذلك بينهم، والصحابة رضي الله عنهم حينما دفنوه ﷺ في الحجرة إنما فعلوا ذلك كي لا يتمكّن أحد بعدهم مِن اتخاذ قبره مسجدًا - كما سبق بيانه في حديث عائشة وغيره - ولكن وقع بعدهم ما لم يكن في حسبانهم ذلك أن الوليد بن عبد الملك أمر سنة ثمان وثمانين بهدم المسجد النبوي وإضافة حُجَر أزواج رسول الله ﷺ إليه فأدخل فيه الحجرة النبوية

حجرة عائشة فصار القبر بذلك في المسجد[١]، ولم يكن في المدينة أحد من الصحابة حينذاك، خلافًا لم توهم بعضهم.

قال العلامة الحافظ محمد بن عبد الهادي في «الصارم المنكي» (ص ١٣٦، ١٣٧): «وإنما أدخلت الحجرة في المسجد في خلافة الوليد بن عبدالملك بعد موت عامة الصحابة الذين كانوا بالمدينة وكان آخرهم موتًا جابر بن عبد الله وتوفي في خلافة عبد الملك، فإنه توفي سنة ثمان وسبعين والوليد تولى سنة ست وثمانين وتوفي سنة ست وتسعين، فكان بناء المسجد وإدخال الحجرة فيه فيما بين ذَلِكَ».

الشبهة الثالثة: بأن المنع إنما كان لعلة وهي خشية الافتتان بالمقبور وقد زالت فزال المنع.

لا أعلم أحدًا من العلماء ذهب إلى القول بهذه الشبهة إلا مؤلف «إحياء المقبور»[٢] فإنه تمسّك بها وجعلها عمدته في ردّ تلك الآحاديث المتقدمة واتفاق الأُمّة عليها فقال ما نصه (ص ١٨، ١٩): وأمَّا النهي عن بناء المساجد على القبور، فاتفقوا على تعليله بعلتين: **إحداهما**: أن يؤدي إلى تنجيس المسجد[٣]، **وثانيهما**: وهو قول الأكثرين بل الجميع حتى من نص على العلة السابقة أنَّ ذلك قد يؤدي إلى الضلال والفتنة بالقبر، لأنه إذا وقع بالمسجد وكان قبر ولي مشهور بالخير والصلاح لا يؤمن مع طول المدة أن يزيد اعتقاد الجهلة فيه، ويؤدي بهم إلى فرط التعظيم إلى قصد الصلاة إليه إذا كان في قبلة المسجد، فيؤدي بهم ذلك إلى الكفر والإشراك».

والعلة المذكورة قد انتفت برسوخ الإيمان في نفوس المؤمنين ونشأهم على التوحيد الخالص، واعتقاد نفي الشريك مع الله تعالى وأنه سبحانه المنفرد بالخلق والإيجاد والتصريف، وبانتفاء العلة ينتفي الحكم المترتب عليها وهو كراهة اتخاذ المساجد والقباب على قبور الأولياء والصالحين».

---

(١) انظر «تاريخ ابن جرير» (٥/ ٢٢٢، ٢٢٣)، و«تاريخ ابن كثير» (٩/ ٧٤، ٧٥).

(٢) هو أحمد بن عبد الله بن الصديق الغماري.

(٣) وهذه العلة باطلة من وجوه لا مجال لبيانها الآن، ومن أدلة ذَلِكَ بخصوص قبور الأنبياء أن أجسادهم لا تُبلى كما صحّ عن رَسُول الله ﷺ، فكيف تنجس الأرض بهم.

ويرد على الكلام السابق من وجوه:

أما الأول: فإن لا دليل مطلقًا على أن العلة هي الخشية المذكورة فقط نعم من الممكن أن يقال: إنها بعض العلة وأما حصولها بها فباطل

الثاني: أن الزعم برسوخ الإيمان في نفوس المؤمنين بإيمانهم بأنَّ الله سبحانه المنفرد بالخلق والإيجاد والتصرف، فإن هذا التوحيد وهو المعروف عند العلماء بتوحيد الربوبية كان يؤمن به المشركون الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّـهُ﴾ [لقمان: ٢٥]. ومع ذلك فلم ينفعهم هذا التوحيد شيئًا لأنهم كفروا بتوحيد الألوهية والعبادة، ومن مقتضيات هذا التوحيد الذي أنكروه ترك الاستغاثة بغير الله وترك الدعاء والذبح لغير الله وغير ذلك مما خاص بالله تعالى من العبادات، فمن جعل شيئًا مِن ذلك لغير الله تبارك وتعالى فقد أشرك به وجعل له ندًّا وإن شهد له بتوحيد الربوبية، فالإيمان المنجِّي إنما هو الجمع بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وإفراد الله بذلك وهذا مفصل في الكتب السلفية.

الثالث: أن العمل استمر من السلف بعدم بناء المساجد عَلَى القبور وتسوية القبور المرتفعة عَلَى الرغم من انتفاء علة الشرك في عهدهم، وذكر شيخنا أمثلة كثيرة عَلَى ذَلِكَ.

رابعًا: كيف يُقال أن الخشية من الشرك قَدْ انتفت عَلَى المسلمين، وهناك أحاديث عديدة تُخبر بعودة الشرك، كقوله ﷺ: «لاَ يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللاَّتُ وَالعُزَّى....» الحديث ا.هـ..



الخطبة المـائة:

حديث عن النَّفْس والروح

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فهذه خطبة خاصّة، نتكلم فيها - إن شاء الله تَعَالَى - عن مسائل تتعلّق بالنفس والروح، وأسأل الله تَعَالَى التوفيق.

عباد الله...

أولاً: هل الرّوح شيء مُستقل عن البدن؟

الجواب: الأدلة تثبت أن الروح شيء مستقل عن البدن.

فمن القرآن الكريم:

قَالَ تَعَالى: ﴿اللَّـهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَـمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا المَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسْمًّى﴾ [الزمر: ٤٢].

وقال تَعَالى: ﴿فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣، ٨٤].

وقال تَعَالى: ﴿وَالـمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣].

هذه بعض الأدلة من القرآن والتي تثبت أنَّ الروح شيء مستقلّ عن البدن.

أما من السُّنة:

فالأدلة كثيرة مرّ بعضها، كما في حديث البراء بن عازب الطويل والذي فيه: «...ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوْتِ عَلَيْهِ السَّلَام حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ...» الحديث.

وستأتي أدلة أخرى إن شاء الله، ومنها إخبار النّبيّ ﷺ أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر.

قَالَ ابن أبي العز في «شرح الطحاوية»: «فَالرُّوحُ لَهَا بِالبَدَنِ خَمْسَة أَنْوَاعٍ مِنَ التَعَلُّقِ، مُتَغَايِرَة الأَحْكَام:

أَحَدُهَا: تَعَلُّقُهَا به في بَطْنِ الأُمِّ جَنِينًا.

الثاني: تَعَلُّقُهَا به بَعْدَ خُرُوجِه إلى وَجْه الأَرْضِ.

الثَّالِثُ: تَعَلُّقُهَا به في حَالِ النَّوْمِ، فَلَهَا به تَعَلُّقٌ مِنْ وَجْه، وَمُفَارَقَة مِنْ وَجْه.

الرَّابِعُ: تَعَلُّقُهَا به في البَرْزَخ، فَإِنَّهَا وَإِنْ فَارَقَتْه وَتَجَرَّدَتْ عنه فَإِنَّهَا لَمْ تُفَارِقْه فِرَاقًا كُلِّيًّا بِحَيْثُ لَا يَبْقَى لَهَا إليه التِفَاتٌ أَلْبَتَّة، فإنه وَرَدَ رَدُّهَا إليه وَقْتَ سَلَامِ المُسَلِّمِ[١]، وَوَرَدَ أنه يَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ حِينَ يُوَلُّونَ عنه[٢].

وَهَذَا الرَّدُّ إِعَادَة خَاصَّة، لَا يُوجِبُ حَيَاة البَدَنِ قَبْلَ يَوْمِ القِيَامَة.

---

(١) الحديث الوارد ضعيف.

(٢) حديث ثابت، ولكنه خاصّ بوقت الدفن.

الخَامِسُ: تَعَلُّقُهَا به يَوْمَ بَعْثِ الأَجْسَادِ، وَهُوَ أَكْمَلُ أَنْوَاعِ تَعَلُّقِهَا بِالبَدَنِ، وَلَا نِسْبَةَ لِمَا قبله مِنْ أَنْوَاعِ التَّعَلُّقِ إليه، إِذْ هُوَ تَعَلُّقٌ لَا يَقْبَلُ البَدَنُ معه مَوْتًا وَلَا نَوْمًا وَلَا فَسَادًا، فَالنَّوْمُ أَخُو المَوْتِ. فَتَأَمَّلْ هَذَا يُزِحُ عَنْكَ إِشْكَالَاتٍ كثيرة» ا.هـ.

عباد الله...

ثانيًا: هل الروح مخلوقة؟

يجيب **شيخ الإسلام ابن تيمية** - رَحِمَهُ الله - عن هذا السؤال فيقول: «رُوحُ الآدَمِيِّ مَخْلُوقَةٌ مُبْدَعَةٌ بِاتِّفَاقِ سَلَفِ الأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا وَسَائِرِ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَقَدْ حَكَى إِجْمَاعَ العُلَمَاءِ عَلَى أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ مِثْلُ (مُحَمَّدِ بْنِ نَصْرٍ المروزي) الإِمَامِ المَشْهُورِ الَّذِي هُوَ أَعْلَمُ أَهْلِ زَمَانِهِ بِالإِجْمَاعِ وَالِاخْتِلَافِ، أَوْ مِنْ أَعْلَمِهِمْ.

وَكَذَلِكَ (أَبُو مُحَمَّدِ بْنِ قُتَيْبَةَ) قَالَ فِي «كِتَابِ اللقط» لَمَّا تَكَلَّمَ عَلَى خَلْقِ الرُّوحِ قَالَ: النَّسَمُ الأَرْوَاحُ. قَالَ: وَأَجْمَعَ النَّاسُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ خَالِقُ الجُثَّةِ وَبَارِئُ النَّسَمَةِ أَيْ خَالِقُ الرُّوحِ.

وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ بْنُ شاقلا فِيمَا أَجَابَ بِهِ فِي هَذِهِ المَسْأَلَةِ: سَأَلْت رَحِمَك اللَّهُ عَنْ الرُّوحِ مَخْلُوقَةٌ أَوْ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ، قَالَ: هَذَا مِمَّا لَا يَشُكُّ فِيهِ مَنْ وُفِّقَ لِلصَّوَابِ... إلَى أَنْ قَالَ: وَالرُّوحُ مِنْ الأَشْيَاءِ المَخْلُوقَةِ وَقَدْ تَكَلَّمَ فِي هَذِهِ المَسْأَلَةِ طَوَائِفُ مَنْ أَكَابِرِ العُلَمَاءِ وَالمَشَايِخِ وَرَدُّوا عَلَى مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهَا غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ.

وَصَنَّفَ الحَافِظُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ منده فِي ذَلِكَ كِتَابًا كَبِيرًا فِي «الرُّوحِ وَالنَّفْسِ» وَذَكَرَ فِيهِ مِنْ الأَحَادِيثِ وَالآثَارِ شَيْئًا كَثِيرًا؛ وَقَبْلَهُ الإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرٍ المروزي وَغَيْرُهُ وَالشَّيْخُ أَبُو يَعْقُوبَ الخَرَّازُ وَأَبُو يَعْقُوبَ النهرجوري وَالقَاضِي أَبُو يَعْلَى وَغَيْرُهُمْ؛ وَقَدْ نَصَّ عَلَى ذَلِكَ الأَئِمَّةُ الكِبَارُ وَاشْتَدَّ نَكِيرُهُمْ عَلَى مَنْ يَقُولُ ذَلِكَ فِي رُوحِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ لَا سِيَّمَا فِي رُوحِ غَيْرِهِ كَمَا ذَكَرَهُ أَحْمَدُ فِي كِتَابِهِ فِي الرَّدِّ عَلَى «الزَّنَادِقَةِ والجهمية»[1].

والأَدِلَّة من الكتاب الدالة عَلَى أَنَّ الرُّوحَ مَخْلُوقَة كثيرة، مثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يقول شارح الطحاوية عقب استدلاله بهذه الآية: فَهَذَا عَامٌّ لَا تَخْصِيصَ فيه

(١) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢١٦).

بِوَجْه مَا»(١).

وَمِنْهَا قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ وقوله تعالى لِزَكَرِيَّا: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾. وَالإِنْسَانُ اسْمٌ لِرُوحِهِ وَجَسَدِه، وَالخِطَابُ لِزَكَرِيَّا، لِرُوحِه وَبَدَنِه.

يقول ابن تيمية -رَحِمَهُ الله -: الإِنْسَانَ عِبَارَةٌ عَنْ البَدَنِ وَالرُّوحِ مَعًا بَلْ هُوَ بِالرُّوحِ أَخَصُّ مِنْهُ بِالبَدَنِ وَإِنَّمَا البَدَنُ مَطِيَّةٌ لِلرُّوحِ.

والنصوص الواردة في السنة: أنَّ الأرواح تُقبض، وتوضع في كفن وحنوط وتأتي بها الملائكة، ويصعد بها، وتنعم وتعذّب، وتمسك في النوم وترسل، وكل في شأن المخلوق المحدث.

ولو لم تكن مخلوقة مربوبة لِما أقرّت بالربوبية، وقَدْ قَالَ الله للأرواح حين أخذ الميثاق عَلَى العباد وهم في عالم الذر: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾، وذلك ما قرره الحق في قوله تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: ١٧٢]. وما دام هو ربهم فإنهم مربون مخلوقون.

ولو لم تكن الأرواح مخلوقة فإن النصارى لا لوم عليهم في عبادتهم عيسى، ولا في قولهم إِنَّهُ ابن الله، أَوْ هو الله. تَعَالَى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

ولو كانت الروح غير مخلوقة فإنها لا تدخل النار ولا تعذّب، ولا تحجب عن الله، ولا تغيب في البدن، ولا يملكها ملك الموت، ولما كانت صورة توصف، ولم تحاسب ولم تعذّب، ولم تتعبد ولم تخف، ولم تَرج، ولأن أرواح المؤمنين تتلألأ، وأرواح الكفار سود مثل الفحم(٢).

عباد الله...

هل النَّفْس تموت أم الموت يكون للبدن وحده؟

يجيب الإمام ابنُ القَيِّم – رَحِمَهُ الله – عن هذا السؤال فيقول: «اختلف الناس في هذا

---

(١) «شرح الطحاوية» (٤٤٢).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٢٠)، و«سكب العبرات» (٢/ ١٣٣، ١٣٤).

فقالت طائفة: تموت الروح وتذوق الموت لأنَّها نفس وكل نفس ذائقة الموت.

قالوا: وقد دلّت الأدلة على أنَّهُ لا يبقى إلا الله وحده، قال تَعَالَى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]. وقال تَعَالَى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

قالوا: وإذا كانت الملائكة تموت فالنفوس البشرية أولى بالموت قالوا وقد قال تعالى عن أهل النار أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١]، فالموتة الأولى هذه المشهودة وهي للبدن والأخرى للروح.

وقال آخرون: لا تموت الأرواح فإنها خلقت للبقاء وإنما تموت الأبدان.

قالوا: وقد دلت على هذا الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله في أجسادها، ولو ماتت الأرواح لانقطع عنها النعيم والعذاب وقد قال تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠].

هذا مع القطع بأن أرواحهم قد فارقت أجسادهم وقد ذاقت الموت.

والصواب أن يقال: موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها، فإن أريد بموتها هذا القدر فهي ذائقة الموت، وإن أريد أنها تعدم وتضمحل وتصير عدمًا محضًا فهي لا تموت بهذا الاعتبار بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو في عذاب، وكما صرح به النص أنها كذلك حتى يردها الله في جسدها.

فإن قيل: فعند النفخ في الصور هل تبقى الأرواح حية كما هي أو تموت ثم تحيا.

قيل: قَدْ قال تَعَالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨].

فقد استثنى الله سبحانه بعض من في السموات ومن في الأرض من هذا الصعق.

فقيل: هم الشهداء، هذا قول أبي هريرة وابن عباس وسعيد بن جبير.

وقيل: هم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، وهذا قول مقاتل وغيره.

وقيل: هم الذين في الجنة من الحور العين وغيرهم، ومن في النار من أهل العذاب وخزنتها، قاله أبو إسحاق بن شاقلا من أصحابنا.

وقد نص الإمام أحمد على أنَّ الحور العين والولدان لا يمتن عند النفخ في الصور، وقد أخبر سبحانه أن أهل الجَنَّة ﴿لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الأُولَى﴾ [الدخان: ٥٦]، وهذا نص على أنهم لا يموتون غير تلك الموتة الأولى فلو ماتوا مرة ثانية لكانت موتتان، وأما قول أهل النار: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١]، فتفسير هذه الآية التي في البقرة وهي قوله تَعَالَى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]. فكانوا أمواتا وهم نطف في أصلاب آبائهم وفي أرحام أمهاتهم ثم أحياهم بعد ذلك ثم أماتهم ثم يحييهم يوم النشور، وليس في ذلك إماتة أزواجهم قبل يوم القيامة وإلا كانت ثلاث موتات، وصعق الأرواح عند النفخ في الصور ولا يلزم منه موتها.

ففي الحديث الصحيح «لاَ تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ الله، فَإِنَّهُ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَيَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ، إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ فَإِذَا مُوسَى آخِذٌ بِالعَرْشِ، فَلاَ أَدْرِي أَحُوسِبَ بِصَعْقَتِهِ يَوْمَ الطُّورِ أَمْ بُعِثَ قَبْلِي».

فهذا صعق في موقف القيامة إذا جاء الله تعالى لفصل القضاء وأشرقت الأرض بنوره فحينئذ تصعق الخلائق كلهم، قال تَعَالَى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور: ٤٥].

ولو كان هذا الصعق موتًا لكانت موتة أخرى، وقد تنبَّه لهذا جماعة مِن الفضلاء فقال أبو عبد الله القرطبي: ظاهر هذا الحديث أن هذه صعقة غشي تكون يوم القيامة لاصعقة الموت الحادثة عن نفخ الصور.

قَالَ: وقد قال شيخنا أحمد بن عمرو: وظاهر حديث النبي ﷺ يدلّ على أنَّ هذه الصعقة إنما هي بعد النفخة الثانية نفخة البعث، ونص القرآن يقتضي أنَّ ذلك الاستثناء إنما هو بعد نفخة الصعق، وَلَـمَّا كان هذا قال بعض العلماء: يحتمل أن يكون موسى مِمَّن لم يمت من الأنبياء، وهذا باطلٌ.

وقال القاضي عياض: يحتمل أن يكون المراد بهذه: صعقة فزع بعد النشور حين

تنشق السموات والأرض، قَالَ: فتستقل الأحاديث والآثار.

ورد عليه أبو العباس القرطبى فقال: يرد هذا قوله في الحديث الصحيح: «أنه حين يخرج من قبره يلقى موسى آخذا بقائمة العرش» قَالَ: وهذا إنما عند نفخة الفزع.

قال أبو عبد الله: وقال شيخنا أحمد بن عمرو: الذي يزيح هذا الاشكال إن شاء الله تَعَالى: أنَّ الموت ليس بعدم محض وإنَّما هو انتقال من حال إلى حال، ويدلّ على ذلك أنَّ الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين، وهذه صفة الأحياء في الدُّنْيَا[1].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومِمَّا ينبغي أن يُعلم: أن هناك أشياء لا يشملها حُكم الفناء منها:

١- الجَنَّة.

٢- النار.

٣- العرش.

٤- الكرسي.

٥- اللوح المحفوظ.

٦- الروح.

٧- القلم.

٨- الولدان المخلدون.

٩- خزان الجَنَّة وخزان النار.

---

(١) «الروح» (٤٥ - ٤٨) باختصار يسير.

١٠- الحور العين.

١١- أجساد الأنبياء.

١٢- عجب الذَّنَب.

جاء في «شرح النونية الكافية الشافعية» (١/ ٩٧):

ثمانية أحكام البقاء يعمّها ... من الخلق والباقون في حَيز العدم

هي: العرش والكرسي ونار وجنة ... وعَجب[1] وأرواح كذا اللوح والقلم

وقال الإمام ابنُ القَيِّم في «النونية»:

والعرش والكرسي لا يفنيهما ... أيضا وإنهما لمخلوقان

والحور لا تفنى كذلك جنة الـ ... مأوى وما فيها من الولدان

ولأجل هذا قال جهم إنها ... عدم ولم تخلق إلى ذا الآن

والأنبياء فإنهم تحت الثَّرى ... أجسامهم حفظت من الديدان

ما للبلَى بلحومهم وجسومهم ... أبدا وهم تحت التراب يدان

وكذلك عَجب الظَّهر لا يَبلى ... بلى منه تركّب خَلقة الإنسان[2]

هذا، وقَدْ دلّت الأدلة الشرعية عَلَى كل ما تقدّم، وقَدْ تقدَّم ذَلِكَ مثبوتًا في ثنايا حديثنا عن الدار الآخرة، وسيأتي المزيد إن شاء الله.

اللَّهُمَّ علمنا ما جهلنا، وانفعنا بها علّمتنا
واهدِنا واهدِ بنا، واجعلنا سببًا لمن اهتدى

❁❁❁❁❁

(١) أي: عجب الذّنب.

(٢) «النونية الكافية الشافية» لابن القيم (١/ ٩٥، ٩٦).

الخطبة الحادية بعد المائة:

مستقر الأرواح ما بين الموت إلى يوم القيامة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنتحدّث اليوم - إن شاء الله تَعَالَى - عن «مستقر الأرواح ما بين الموت إلى يوم القيامة»، وأسأل الله تَعَالَى الإصابة في القول والعمل، إنَّهُ وليّ ذَلِكَ والقادر عليه.

عباد الله...

أين مستقر الأرواح ما بين الموت إلى يوم القيامة؟

يجيب عن هذا السؤال الإمام العلّامة ابنُ القَيِّم - رَحِمَهُ الله - فيقول (ما مختصره):

«هذه مسألةٌ عظيمةٌ تكلّم فيها الناس واختلفوا فيها، وهي إنما تُتلقى مِن السمع فقط،

واختُلِف في ذَلِكَ:

القول الأول: فأما من قال هي في الجَنَّة فاحتج بقوله تَعَالى: ﴿**فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ**﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩].

قال: وهذا ذكره سُبْحَانَهُ عقيب ذكر خروجها من البدن، واحتجوا بقوله تَعَالى: ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾ [الفجر: ٢٧- ٣٠].

وقد قال غير واحد من الصحابة والتابعين: إنَّ هذا يقال لها عند خروجها من الدُّنْيَا، يبشرها المَلَك بذلك، ولا ينافي ذلك قول من قَالَ: إنَّ هذا يقال لها في الآخرة، فإنه يقال لها عند الموت وعند البعث.

واحتجُّوا بما رواه مالك في «الموطأ» عَنِ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبٍ الأَنْصَارِيِّ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ: أَنَّ أَبَاهُ كَانَ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يُبْعَثُ**».

واختلف العلماء في معنى هذا الحديث فقال قائلون منهم: أرواح المؤمنين عند الله في الجنة شهداء كانوا أم غير شهداء إذا لم يحبسهم عن الجنة كبيرة ولا دين، وتلقَّاهم ربهم بالعفو عنهم والرحمة لهم.

واحتجوا بأن هذا الحديث لم يخصّ فيه شهيدًا من غير شهيد.

واحتجوا أيضًا بما روى عن أبي هريرة: «**أن أرواح الأبرار في عليين وأرواح الفجار في سجين**».

قال أبو عمر: وهذا قول يعارضه من السنة ما لا يُدفع في صحَّة نقله، وهو قوله: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُقَالُ هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[1].

وقال آخرون: إنما معنى هذا الحديث في الشهداء دون غيرهم؛ لأن القرآن والسنة

(١) أخرجه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦).

إنما يدلان على ذَلِكَ.

فعَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: سَأَلْنَا عَبْدَ اللهِ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ قَالَ: أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: «أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالعَرْشِ تَسْرَحُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ القَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلاَعَةً فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا؟ فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا قَالُوا: يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى. فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا»[1].

قلت: لا تنافي بين قوله ﷺ: «إِنَّمَا نَسَمَةُ المُؤْمِنِ طَائِرٌ يَعْلُقُ فِي شَجَرِ الجَنَّةِ» وبين قوله: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ».

وهذا الخطابُ يتناول الميِّت على فراشه والشهيد كما أن قوله «إِنَّمَا نَسَمَةُ المُؤْمِنِ طَائِرٌ يَعْلُقُ فِي شَجَرِ الجَنَّةِ» يتناول الشهيد وغيره ومع كونه يُعرَض عليه مقعده بالغداة والعشى تَرِدُ روحُهُ أنهار الجَنَّة وتأكل من ثمارها.

وأما النصوصُ والآثار التي ذُكرت في رِزق الشُّهداء وكون أرواحهم في الجَنَّة، فكلها حق وهي لا تدل على انتفاء دخول أرواح المؤمنين الجَنَّة، ولا سيما الصديقين الذين هم أفضل من الشهداء بلا نزاع بين النَّاس، فيقال لهؤلاء: ما تقولون في أرواح الصديقين هل هى في الجنة أم لا؟

القولُ الثاني: وأما قول مجاهد: ليست هي في الجَنَّة، ولكن يأكلون من ثمارها ويجدون ريحها[2].

القول الثالث: وأما قول من قَالَ: الأرواحُ على أفنية قبورها فإن أراد أن هذا أمرٌ لازمٌ لها لا تفارقُ أفنية القبور أبدًا.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٨٧).

(٢) استُدلّ عَلَى هذا القول بأحاديث لا تصحّ، فلا يفرح بها.

فهذا خطأٌ تردُّه نصوصُ الكتاب والسنة من وجوه كثيرة قد ذكرنا بعضها.

وإن أراد أنها تكون على أفنية القبور وقتًا، أو لها إشرافٌ على قبورها وهي في مقرها، فهذا حقٌّ ولكن لا يقال: مستقرها أفنية القبور.

وقد ذهب إلى هذا المذهب جماعةٌ منهم أبو عمر بن عبد البر.

وهذا القول ترده السنة الصحيحة والآثار التي لا مدفعَ لها، وقد تقدم ذكرها، وكلّ ما ذكره من الأدلة فهو يتناول الأرواح التي هي في الجَنَّة بالنص وفي الرفيق الأعلى، وقد بينّا أن عرض مقعد الميِّت عليه من الجَنَّة والنار لا يدل على أنَّ الروح في القبر ولا على فنائه دائمًا من جميع الوجوه، بل لها إشراف واتصال بالقبر وفنائه وذلك القدر منها يعرض عليه مقعده، فإنَّ الروح شأنا آخر تكون في الرفيق الأعلى في أعلى عليين ولها اتصال بالبدن بحيث إذا سلم المسلم على الميِّت رد الله عليه روحه فيرد عليه السلام وهي في الملأ الأعلى.

وإنما يغلط أكثر الناس في هذا الموضع حيث يعتقد أنَّ الروح مِن جنس ما يعهد من الأجسام التي إذا شغلت مكانًا لم يمكن أن تكون في غيره، وهذا غلط محض.

وقد رأى رسول الله ﷺ موسى قائمًا يُصلي في قبره، ورآه في السماء السادسة والسابعة، فإما أن تكون سريعة الحركة والانتقال كلمح البصر وإما أن يكون المتصل منها بالقبر وفنائه بمنزلة شعاع الشمس وجرمها في السماء.

ومِمَّا ينبغي أن يُعلم: أنَّ ما ذكرنا من شأن الروح يختلف بحسب حال الأرواح من القوة والضعف والكبر والصغر، فللروح العظيمة الكبيرة من ذلك ما ليس لمن هو دونها، وأنت ترى أحكام الأرواح في الدنيا كيف تتفاوت أعظم تفاوت بحسب تفارق الأرواح في كيفياتها وقواها وإبطائها وإسراعها والمعاونة لها.

فللروح المطلقة من أسر البدن وعلائقه وعوائقه من التصرف والقوة والنفاذ والهمة وسرعة الصعود إلى الله والتعلق بالله ما ليس للروح المهينة المحبوسة في علائق البدن وعوائقه، فإذا كان هذا وهي محبوسة في بدنها فكيف إذا تجرَّدت وفارقته واجتمعت فيها قواها وكانت في أصل شأنها روحًا عليّة زكيّة كبيرة ذات همة عالية، فهذه لها بعد مفارقة البدن شأن آخر وفعل آخر.

القولُ الرابع: وأما قول مَن قَالَ: أرواح المؤمنين عند الله تعالى ولم يزد على ذلك فإنه تأدب مع لفظ القرآن حيث يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

وقد احتج أرباب هذا القول بحجج:

منها: ما رُوي عن أبي هريرة رَضِيَ الله عَنْهُ عن النَّبيّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْمَيِّتَ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَالِحًا قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ اخْرُجِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ فَلاَ يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَيُفْتَحُ لَهَا فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا فَيَقُولُونَ: فُلاَنٌ. فَيُقَالُ: مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ ادْخُلِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ. فَلاَ يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السُّوءُ قَالَ اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ اخْرُجِي ذَمِيمَةً وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ. وَآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ. فَلاَ يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَلاَ يُفْتَحُ لَهَا فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا فَيُقَالُ: فُلاَنٌ. فَيُقَالُ: لاَ مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الْخَبِيثَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ ارْجِعِي ذَمِيمَةً فَإِنَّهَا لاَ تُفْتَحُ لَكِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ فَيُرْسَلُ بِهَا مِنَ السَّمَاءِ ثُمَّ تَصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ»[(١)]. وهذا إسنادٌ لا تسأل عن صحته.

القولُ الخامس: وأما قولُ مَن قَالَ: إنَّ أرواح المؤمنين بالجابية وأرواح الكفار بحضرموت ببرهوت فقال أبو محمد بن حزم هذا من قول الرافضة، وليس كما قال بل قد قاله جماعة من أهل السنة[(٢)].

القولُ السادس: وأما قول من قَالَ: إنها تجتمع في الأرض التي قال الله فيها: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، فهذا إن كان قاله تفسير الآية فليس هو تفسيرًا لها.

القول السابع: وأما قول من قَالَ: إن أرواح المؤمنين في عليين في السماء السابعة، وأرواح الكفار في سجين في الأرض السابعة، فهذا قول قد قاله جماعة من السلف

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٤)، وابن ماجه (٤٣٣٨)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٥٦).

(٢) لم يأت دليل صحيح عن المعصوم ﷺ يدلّ عَلَى هذا، فلا يلتفت إليه، ولا يُعوّل عليه.

والخلف ويدلّ عليه قول النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ الرَّفيق الأعلى**».

وجاء في حديث البراء بن عازب: «أنها تصعد من سماء إلى سماء ويشيِّعها مِن كلِّ سماء مقرَّبوها حَتَّى يُنتهى بها إلى السماء السابعة» وفي لفظ: «إلى السماء التي فيها الله عز وجل».

ولكن هذا لا يدلّ على استقرارها هناك، بل يصعد بها إلى هناك للعرض على ربها فيقضي فيها أمره ويكتب كتابه من أهل عليين أو من أهل سجين ثم تعود إلى القبر للمسألة، ثم ترجع إلى مقرها التي أودعت فيه، فأرواح المؤمنين في عليين، بحسب منازلهم، وأرواح الكفار في سجين بحسب منازلهم.

القولُ الثامن: وأما قول من قَالَ: إنَّ أرواح المؤمنين تجتمع ببئر زمزم، فلا دليل على هذا القول مِن كتاب ولا سُنة.

القول التاسع: وأمَّا قول مَن قَالَ: إن أرواح المؤمنين في برزخ من الأرض تذهب حيث شاءت. فهذا مروى عن سلمان الفارسي، والبرزخ هو الحاجز بين شيئين، وكأن سلمان أراد بها في أرض بين الدنيا والآخرة مرسلة هناك تذهب حيث شاءت، وهذا قول قوى فإنها قد فارقت الدنيا ولم تلج الآخرة، بل هي في برزخ بينهما.

القولُ العاشر: وأما قول من قَالَ: إن أرواح المؤمنين عن يمين آدم، وأرواح الكفار عن يساره. فلعمر والله لقد قال قولا يؤيده الحديث الصحيح وهو حديث الإسراء، فإن النبي ﷺ رآهم كَذَلِك، ولكن لا يدل على تعادلهم في اليمين والشمال، بل يكون هؤلاء عن يمينه في العلو والسعة وهؤلاء عن يساره في السّفل والسجن.

القولُ الحادي عشر: وأما قول أبي محمد بن حزم: أن مستقرّها حيث كانت قبل خلق أجسادها. فهذا بناء منه على مذهبه الذي اختاره وهو: أنَّ الأرواح مخلوقة قبل الأجساد وهذا فيه قولان للناس، وجمهورهم على أنَّ الأرواح خُلقت بعد الأجساد.

والذين قالوا: إنها خُلِقت قبل الأجساد، ليس معهم على ذلك دليل من كتاب ولا سنة ولا إجماع، إلَّا ما فهموه من نصوص لا تدل على ذلك أو أحاديث لا تصحّ.

القولُ الثاني عشر: وأما قول من قَالَ: إنَّ مستقرها العدم المحض. فهذا قول من قال إنها عرض من أعراض البدن وهو الحياة، وهذا قول ابن الباقلاني ومَن تبعه.

وكذلك قال أبو الهذيل العلاف: النفس عرض مِن الأعراض، ولم يعيّنه بأنه الحياة كما عينه ابن الباقلاني، ثم قَالَ: هي عرض كسائر أعراض الجسم.

وهؤلاء عندهم أنَّ الجسم إذا مات عدمت روحه، فإذا مات فلا روح تصعد إلى السماء وتعود إلى القبر وتقبضها الملائكة.

وهذا قولٌ يردُّه الكتابُ والسُّنة وإجماعُ الصحابة وأدلّة العقول والفِطن والفطرة، وهو قولُ مَن لم يَعرف رُوحَه فَضلا عن روح غيره، وقد خاطب الله سُبْحَانَهُ النَّفْس بالرجوع والدخول والخروج، ودلَّت النصوصُ الصَّحيحة الصّريحة على أنها تصعد وتنزل وتقبض وتمسك وترسل، وتستفتح لها أبواب السماء وتسجد وتتكلم.

القول الثالث عشر: وأما قول من قَالَ: إن مستقرّها بعد الموت أبدان أخر غير هذه الأبدان. فهذا القول فيه حقٌّ وباطل.

فأما الحق: فما أخبرَ الصَّادق المصدوقُ ﷺ عن أرواح الشهداء أنها في حواصل طير خضر تأوي إلى قناديل معلقة بالعرش هي لها كالأوكار للطائر، وقد صرّح بذلك في قوله: «**أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ...**».

فإن قيل: فهذا هو القولُ بالتَّناسخ وحلول الأرواح في أبدان غير أبدانها التي كانت فيها.

قيل: هذا المعنى الذي دلّت عليه السُّنة الصريحة حقّ يجب اعتقاده ولا يبطله تسمية المُسمِّي له تناسخًا، كما أنَّ إثبات ما دلَّ عليه العقلُ والنقلُ مِن صفات الله عَزَّ وَجَلَّ وحقائق أسمائه الحسنى حقٌّ لا يبطله تسميةُ المعطِّلين لها تركيبًا وتجسيمًا.

وكذلك ما دل عليه العقل والنقل من إثبات أفعاله وكلامه بمشيئته ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا ومجيئه يوم القيامة للفصل بين عباده حق لا يبطله تسمية المعطلين له حلول حوادث كما أن ما دل عليه العقل والنقل من علو الله على خلقه ومباينته لهم واستوائه على عرشه وعروج الملائكة والروح إليه ونزولها من عنده وصعود الكلم الطيب إليه وعروج رسوله إليه ودنوه منه حتى صار قاب قوسين أو أدنى وغير ذلك من الأدلة حق لا يبطله تسمية الجهمية له حيزًا وجهة وتجسيمًا.

وإنما التناسخ الباطل ما تقوله أعداءُ الرُّسلِ مِن الملاحدة وغيرهم الذين ينكرون المعاد، أنَّ الأرواح تصير بعد مفارقة الأبدان إلى أجناس الحيوان والحشرات والطيور التي تناسبها وتشاكلها، فإذا فارقت هذه الأبدان انتقلت إلى أبدان تلك الحيوانات فتنعم فيها أو تعذّب، ثم تفارقها وتحلّ في أبدان أخر تناسب أعمالها وأخلاقها، وهكذا أبدًا فهذا معادها عندهم ونعيمها وعذابها لا معاد لها عندهم غير ذَلِكَ». ا.هـ.

عباد الله...

وإلى هنا انتهى جوابُ ابنُ القَيِّم - رَحِمَهُ الله - وبه نأتي إلى ختام الخطبة الأولى، والحمد لله الَّذِي بنعمته تتم الصَّالحات.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فالسَّعيد من استعدّ ليوم اللِّقاء، ليوم السعادة الأبديّة، ولله دَرُّ الحَسن البصري - رَحِمَهُ الله - حين مرّ بقومٍ في نهار رمضان وهم يضحكون فقال: إن الله عَزَّ وَجَلَّ جعل شهر رمضان مضمارًا لخلقه يستبقون فيه لطاعته فسبق قوم ففازوا وتخلّف أقوام فخابوا، فالعجب كل العجب للضاحك اللاعب في اليوم الذي فاز فيه السابقون وخاب فيه المبطلون.

أما والله لو كشف الغطاء لاشتغل المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته - أي: كان سرور المقبول يشغله عن اللعب وحسرة المردود تسد عليه باب الضحك[١].

❁❁❁❁❁

(١) «الإحياء» (١/ ٢٣٦).

الخطبة الثانية بعد المائة:

[أ] البعث بعد الموت

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فإن البعث حقّ، وهو دليلٌ عَلَى عدل الله تَعَالى وحكمته؛ ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

وقال تَعَالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

عباد الله...

والبعث هو إحياء الأجساد بعد اندراسها.

والناس أمام البعث ثلاثة أقسام:

قسمٌ كذَّب به: وهم المشركون والدهريون، قالوا: إن هي إلَّا أرحام تدفع، وأرض تبلع، وما يهلكنا إلَّا الدَّهر.

ومن كذَّب بالبعث عَلَى عهد النبوّة:

(١) العاص بن وائل.

عَنْ خَبَّابِ بن الأرت رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ رَجُلاً قَيْنًا[1]، وَكَانَ لِي عَلَى العَاصِ ابْنِ وَائِلٍ دَيْنٌ فَأَتَيْتُهُ أَتَقَاضَاهُ، فَقَالَ لِي: لاَ أَقْضِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ. قُلْتُ: لَنْ أَكْفُرَ بِهِ حَتَّى تَمُوتَ ثُمَّ تُبْعَثَ. قَالَ: وَإِنِّي لَمَبْعُوثٌ مِنْ بَعْدِ المَوْتِ؟! فَسَوْفَ أَقْضِيكَ إِذَا رَجَعْتُ إِلَى مَالٍ وَوَلَدٍ. قَالَ: فَنَزَلَتْ ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا * أَطَّلَعَ الغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا * كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العَذَابِ مَدًّا * وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾[2] [مريم: ٧٧ - ٨٠].

وقال تَعَالى: ﴿وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا * فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا * ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا * ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا﴾ [مريم: ٦٦- ٧٠]

قال ابن كثير -رَحِمَهُ الله - في تفسيره هذه الآيات: «يُخبِرُ تَعَالى عن الإنْسَان أَنَّهُ يَتعجَّبُ ويَستَبعِدُ إعَادتَهُ بعد مَوتِهِ، كما قال تَعَالى: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥]، وقال هاهنا: ﴿وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلا يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ يَستدلُّ تَعَالى بِالبَداءة عَلَى الإعَادةِ، يَعني أَنَّهُ تَعَالى قَدْ خَلقَ الإنسانَ وَلم يَكُ شَيئًا، أفلا يُعيدُهُ وقَدْ صَارَ شيئًا، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وفي الصحيح: «قَالَ اللَّهُ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، أَمَّا تَكْذِيبُهُ

---

(١) يصنع السّيوف.

(٢) رواه البخاري (٤٧٣٥)، ومسلم (٢٧٩٥).

إِيَّايَ أَنْ يَقُولَ: إِنِّي لَنْ أُعِيدَهُ كَمَا بَدَأْتُهُ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ أَنْ يَقُولَ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا، وَأَنَا الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُؤًا أَحَدٌ»[١].

وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ أقسَمَ الرَّب - تَبارك وتَعَالى - بِنَفسِهِ الكَرِيمَةِ، أَنَّهُ لابُدَّ أَنْ يَحشُرهُم جَمِيعًا وشَيَاطِينهُمُ الَّذِين كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُون الله، ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾. قِيل: يَعني قُعُودًا، كَقَولِهِ: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية: ٢٨].

وقَولُهُ: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ يَعني: مِن كُلِّ أُمَّةٍ، قَالَهُ مُجاهِدٌ.

﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ عَن ابن مسعودٍ قال: يُحبَسُ الأَوَّلُ عَلَى الآخِرِ، حَتَّى إِذَا تَكَامَلَتِ العِدَّةُ أَتَاهُم جَمِيعًا، ثُمَّ بَدأ بِالأَكَابِرِ فَالأَكَابر جُرمًا، وهو قوله: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾.

وقالَ غَيرُ واحِدٍ: ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِنْ أهلِ كُلِّ دينٍ قَادَتُهم ورُؤَسَاءَهُم في الشَّرِّ، وهَذَا كَقولِهِ تَعالى: ﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨، ٣٩].

وقَولُهُ: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا﴾، ﴿ثُمَّ﴾ هَاهُنا لِعَطفِ الخَبرِ على الخَبرِ، والمُرَادُ: أَنَّهُ تَعَالى أَعْلَمُ بِمَن يَسْتَحِقُّ مِنَ العِبَادِ أَنْ يَصْلَى بِنَارِ جَهَنَّمَ ويَخْلُدُ فِيهَا، وبِمَن يَستَحِقُّ تَضْعِيفَ العَذَابِ، كَمَا قَالَ في الآيةِ المُتقدِّمَةِ: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

عباد الله...

عن ابن عبَّاس رَضِيَ الله عَنْهُمَا قَالَ: إن العاص بن وائل أخذ عظمًا من البطحاء[٢] ففتَّه[٣] بيده ثم قَالَ لرسول الله ﷺ: أيحيي الله هذا بَعدَ أرم[٤]؟

---

(١) رواه البخاري (٤٩٧٤).

(٢) **البطحاء**: هو المكان المتسع يمر به السيل فيترك فيه الرمل والحصى الصغار.

(٣) **ففته**: فركه.

(٤) أرم: بَلِيَ.

فقال رَسُول الله ﷺ: «نعم، يُميتك الله ثم يُحييك ثُمَّ يُدخلك جَهَنم»، قَالَ: ونزلت الآيات من آخر «يس»: ﴿أَوَ لَـمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَـهُم بَلَى وَهُوَ الخَلَّاقُ العَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَـهُ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٧- ٨٣] [١].

(٢) والعاص بن وائل السَّهمي.

أحد كفَّار مَكَّة، الذين آذوا النَّبيّ ﷺ والذين آمنوا معه.

قَالَ ابن عبَّاس رَضِيَ الله عَنْهُمَا في قوله تَعَالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ١- ٣]، قال: نزلت في العاص، وذَلِكَ أَنَّهُ رأى رَسُول الله يخرج من المسجد[٢] وهو يدخل، فالتقيا عند باب بني سهم وتحدّثا، وأُناسٌ من صناديد قريش في المسجد جلوسٌ، فلما دخل العاصُ قالوا له: مَن الَّذِي كنت تُحدّث؟ قَالَ: ذَلِكَ الأبتَر[٣] - يعني النَّبيّ ﷺ - وكان قَدْ تُوفِّي قبل ذَلِكَ عَبدُ الله ابن رَسُول الله ﷺ وكان من خديجة رَضِيَ الله عَنْهَا، وكان يُسمّون مَن ليس له ابنٌ «أبتر»، فأنزل الله تَعَالى هَذِهِ السورة[٤].

قَالَ الحافظ ابن كثير - رَحِمَهُ الله - في «تفسيره»: «وقوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ أي: إن مُبغضك -يا مُحَمَّد- ومُبغض ما جئت به مِن الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين، هو الأبتر الأقل الأذلّ المنقطع ذِكْرُه.

ثم ذكر - رَحِمَهُ الله - الخلاف في أسباب نزولها قائلًا: قيل: نزلت في العاص بن

---

(١) صحيح: أخرجه الحاكم في «تفسيره» (٣٦٠٦) وصحّحه، ووافقه في «التلخيص» وقال: صحيح عَلَى شرط البخاري ومسلم.

(٢) المسجد: يعني المسجد الحرام.

(٣) قال أهل اللغة: الأبتر من الرجال: الَّذِي لا ولد له.

(٤) «أسباب النزول» للنيسابوري (٢٥٧).

وائل، وقيل: في كعب بن الأشرف، وقيل: في أبي لهب، وقيل: في أبي جهل... ثم قَالَ: وهذا يعمّ جميع من اتصفّ بذلك مِمَّن ذُكِرَ وغيرهم» ا.هـ.

عباد الله...

ولعلنا ندرك بعد هذا العرض مدى بلاهة العاص بن وائل، وضمور تفكيره عندما كذَّب بالبعث بعد الموت، واستعظم عَلَى الخالق الأعظم أن يُعيد الخلق كما بدأه!!

فاستحق بذلك قول النَّبيّ ﷺ: «**نعم يُميتُك الله ثُمَّ يُحيِيك، ثُمَّ يُدخِلك جَهنَّم**».

نهاية الأثيم:

ذكر الإمام الطبريّ - رَحِمَهُ الله - في «تفسيره» (٧/ ٦٠٥) عن قَتادة في قوله تَعَالَى: ﴿**إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ**﴾ [الحجر: ٩٥]، أن العاص بن وائل وطئ عَلَى شوكة فتساقط لحمه من عظامه حَتَّى هلك.

وقال الحافظ ابن حجر -رَحِمَهُ الله -: «ويقال: إن حِماره رَمَاه عَلَى شوكة أصابت رجِلَهُ فانتفخت فمات بهذا»[1].

شَوكةٌ أنهت حياته، ليرى بعد الموت جزاء ما جَنَت يداه، ويومئذٍ لا يُعذّب عَذَابهُ أحدٌ، فيا ويل المكذّبين بلقاء الله، ﴿**قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ**﴾ [الأنعام: ٣١].

إنَّ البعث عقيدة فوق الشبهات، فلنتهيأ له بالزاد الطيِّب، من الهُدى والتُّقى، والعفاف، واجتناب الشبهات، والبُعد عن المخالفات.

قَالَ تَعَالَى: ﴿**أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ**﴾ [الواقعة: ٥٨- ٦٢]

عَنْ أَبِي رَزِينٍ العُقَيْلِيِّ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قُلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي اللَّهُ

---

(١) «فتح الباري» (٨/ ٢٨٣).

المَوْتَى وَمَا آيَةُ ذَلِكَ فِي خَلْقِهِ؟ قَالَ: «أَمَا مَرَرْتَ بِوَادِي أَهْلِكَ مَحْلاً؟». قُلت: بَلَى. قَالَ: «أَمَا مَرَرْتَ بِهِ يَهْتَزُّ خَضِراً؟». قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: «ثُمَّ مَرَرْتَ بِهِ مَحْلاً؟». قلت: بَلَى. قَالَ: «فَكَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ المَوْتَى وَذَلِكَ آيَتُهُ فِي خَلْقِهِ»[١].

والواقع أن الزروع التي تكسو وجه الأرض، وتمشي فيها بالحياة والنماء، ليست مِمَّا تصحّ الغفلة عن دلالته، إن الفلاح يستودع ظلمات التراب حبّة واحدة، أو ساقًا واحدًا، فَإِذَا حقله يتحوّل - باسم الله - إلى جِنان يانعة وثمار شهية وحصاد ميمون.

كيف تحوّل الكَدَرُ والقَدَرُ والطِّينُ إلى ثمار وأغصَان ورَيَاحين؟!

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي المَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي القُبُورِ﴾ [الحج: ٥ - ٧].

والمادة الميِّتة تتحول في كل غذاء نتناوله إلى خلايا حيّة في جسومنا، يسري فيها الشعور وتنتفض بالحركة.

فما معنى استنكار ما يقع شبيهه بيننا أبدًا؟ هل النشور إلّا هذا؟ ثم ما ظن الإنسان بنفسه؟ إن الأرض ومن عليها خَلقٌ صغير متواضع بالنسبة إلى الوجود الضخم الَّذِي يزحم الفضاء البعيد ويزخر به الملكوت الرحيب، وشأن النَّاس إلى جوانب العوالم الأخرى قليل، ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

فكيف يستكثر عَلَى مَن يقيم قصرًا منيف الشرفات، سامق العمد أن يبني كوخًا بعد هدمه؟!

ربّ إن الهــــــدى هـــــــداك وآياتـك حـق تهـدي بهـا مَـن تـشاء

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

***

(١) صحيح: رواه أحمد وأبو داود، وغيرهما.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فقد خطب النَّبيّ ﷺ أوّل بعثه فقال: «**إنَّ الرَّائِدُ لا يَكْذِبُ أَهْلَهُ، والله لو كذبتُ النَّاس جميعًا ما كذبتكم، ولو غششتُ النَّاس جميعًا ما غششتكم، والله لتموتنّ كما تنامون، ولتبعثنَّ كما تستيقظون، ولتُجزون بالإحسان إحسَّانًا، وبالسّوء سوءًا، وإنها لجنَّةٌ أبدًا أو لنارٌ أبدًا**».

فإذا طلعت عليك شمس يوم من أيام الدُّنْيَا بعد نوم مستغرق، فاذكر أن هناك يقظة، سوف تعقب الهجعة المؤقتة في القبر، يساق بعدها أهلُ الشّر إلى سَقر، ويُساق أهل الخير إلى ﴿**مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ**﴾ [القمر: ٥٥].

فيا أخا الإسلام...

مــثْل وُقــوفك يَــومَ العَــرض عُــريَانًا	مُستوحــشًا قَلــق الأحــشَاء حَيرانــا
والــنار تلــهب مِــن غَــيظ ومِــن حــنق	عَلَــى العُــصاة، وربُّ العــرش غَــضبانا
اقــرأ كــتابك يــا عَــبدي عَلَــى مَهــلٍ	فهــل تــرى فــيه حَــرفًا غَيرَمــا كانــا؟
لَمَّـــا قـــرأت ولم تنكـــر قـــراءتَه	أقــررت إقــرار مَــن عــرف الأشــياء عرفانا
نــادى الجلــيلُ: خُــذوه يــا ملائكــتي	وامــضوا بعــبدٍ عَــصَى للــنَّارِ عَطــشانًا
المــشركون غَــدًا في الــنَّار يلتهــبوا	والمؤمـــنون بـــدارِ الخُلـــد سُـــكَانا

فهيا يا أخي...

أعدّ الزَّاد فإنَّ السَّفر طويل.

وخفّف الحِمل فإن العقبة كؤد.

وأخلص العمل فإنّ النّاقد بصير.

وأحكِم السَّفينة فإنَّ البحر عَميق.

عباد الله...

والقسم الثاني:

قالوا: إنَّ الله يبعث الأرواح دون الأجساد، كالنصارى والفلاسفة.

والغزالي[١] -رَحِمَهُ الله - كفَّر الفلاسفة في ثلاثة أشياء:

- القول بقِدَم العالم.
- وقولهم: إن الله يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات.
- وقولهم: إن العذاب يقع عَلَى الأرواح دون الأجساد!!

وهذا الاعتقاد الفاسد يصادم نصوص القرآن والسنة.

قال تَعَالى: ﴿اللَّـهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

وقال تَعَالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: ٣، ٤].

وقال تَعَالى: ﴿عَالِمِ الغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَلاَ أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وقَدْ تعرّض **شيخ الإسلام ابن تيمية** - رَحِمَهُ الله - لبيان أنواع المكذّبين بالبعث والنشور من اليهود والنصارى والصائبة والفلاسفة ومنافقي هَذِهِ الأُمة، فقال: «أَمَّا الكَافِرُ فَإِنَّ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى يُنْكِرُونَ الأَكْلَ وَالشُّرْبَ وَالنِّكَاحَ فِي الجَنَّةِ، يَزْعُمُونَ أَنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ إِنَّمَا يَتَمَتَّعُونَ بِالأَصْوَاتِ المُطْرِبَةِ وَالأَرْوَاحِ الطَّيِّبَةِ مَعَ نَعِيمِ الأَرْوَاحِ، وَهُمْ يُقِرُّونَ مَعَ ذَلِكَ بِحَشْرِ الأَجْسَادِ مَعَ الأَرْوَاحِ وَنَعِيمِهَا وَعَذَابِهَا.

وَأَمَّا طَوَائِفُ مِنْ الكُفَّارِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ الصَّابِئَةِ وَالفَلَاسِفَةِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ فَيُقِرُّونَ بِحَشْرِ الأَرْوَاحِ فَقَطْ، وَأَنَّ النَّعِيمَ وَالعَذَابَ لِلْأَرْوَاحِ فَقَطْ. وَطَوَائِفُ مِنْ الكُفَّارِ وَالمُشْرِكِينَ وَغَيْرِهِمْ يُنْكِرُونَ المَعَادَ بِالكُلِّيَّةِ فَلَا يُقِرُّونَ لَا بِمَعَادِ الأَرْوَاحِ؛ وَلَا الأَجْسَادِ.

---

(١) أبو حامد.

وَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ أَمْرَ مَعَادِ الأَرْوَاحِ وَالأَجْسَادِ وَرَدَّ عَلَى الكَافِرِينَ وَالمُنْكِرِينَ لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ بَيَانًا فِي غَايَةِ التَّمَامِ وَالكَمَالِ.

وَأَمَّا المُنَافِقُونَ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ الَّذِينَ لا يُقِرُّونَ بِأَلْفَاظِ القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ المَشْهُورَةِ؛ فَإِنَّهُمْ يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ: هَذِهِ أَمْثَالٌ ضُرِبَتْ لِنَفْهَمَ المَعَادَ الرُّوحَانِيَّ، وَهَؤُلَاءِ مِثْلُ القَرَامِطَةِ البَاطِنِيَّةِ الَّذِينَ قَوْلُهُمْ مُؤَلَّفٌ مِنْ قَوْلِ المَجُوسِ وَالصَّابِئَةِ، وَمِثْلُ المُتَفَلْسِفَةِ الصَّابِئَةِ المُنْتَسِبِينَ إِلَى الإِسْلَامِ، وَطَائِفَةٍ مِمَّنْ ضَاهُوهُمْ: مِنْ كَاتِبٍ أَوْ مُتَطَبِّبٍ، أَوْ مُتَكَلِّمٍ، أَوْ مُتَصَوِّفٍ كَأَصْحَابِ «رَسَائِلِ إِخْوَانِ الصَّفَا» وَغَيْرِهِمْ، أَوْ مُنَافِقٍ. وَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ كُفَّارٌ يَجِبُ قَتْلُهُمْ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الإِيمَانِ» ا.هـ[1].

أقول: وليس لآحاد النَّاس أن يتولى ذَلِكَ حَتَّى لا تكون فتنة، إنَّما الحاكم أو مَن ينوب عنه هو الَّذِي يتولّى تطبيق هذا الحدّ كما هو معلوم.

القسم الثالث: أقرّ بحشر الأجساد مَعَ الأرواح، وهذه هي الفرقة الناجية من هَذِهِ الأمة، وأدلّتهم عَلَى ذَلِكَ من القرآن كثيرة، منها:

١- قوله تَعالَى: ﴿**وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا**﴾ [مريم: ٦٦، ٦٧].

٢- وقوله تَعالَى: ﴿**أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ**﴾ [القيامة: ٣، ٤].

٣- وقوله تَعالَى: ﴿**وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾ [الإسراء: ٤٩- ٥١].

والآيات في هذا المعنى كثير جدًّا.

ومن السُّنة:

١- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ الله عَنْهُمَا - قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ فَقَالَ:

(١) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٣١٣) باختصار يسير.

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَى اللهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً»[١] ثُمَّ قَالَ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] إِلَى آخِرِ الآيَةِ.

ثُمَّ قَالَ: «أَلاَ وَإِنَّ أَوَّلَ الخَلاَئِقِ يُكْسَى يَوْمَ القِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ، أَلاَ وَإِنَّهُ يُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِى فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ، فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُصَيْحَابِى. فَيُقَالُ: إِنَّكَ لاَ تَدْرِى مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ. فَأَقُولُ كَمَا قَالَ العَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧، ١١٨]، فَيُقَالُ: إِنَّ هَؤُلاَءِ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ».

زاد في رواية: «فأقول: سُحقًا سُحقًا»[٢].

٢- وعن بَهْزُ بْنُ حَكِيمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ رِجَالاً وَرُكْبَانًا وَتُجَرُّونَ عَلَى وُجُوهِكُمْ»[٣].

٣- وعَن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ - رَضِيَ الله عَنْهُ: أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ يُحْشَرُ الكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ؟

قَالَ: «أَلَيْسَ الَّذِى أَمْشَاهُ عَلَى الرِّجْلَيْنِ فِى الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ».

قَالَ قَتَادَةُ: بَلَى وَعِزَّةِ رَبِّنَا[٤].

٤- عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُحْشَرُ المُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِى صُوَرِ النَّاسِ، يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَىْءٍ مِنَ الصَّغَارِ، يُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِى النَّارِ يُقَالُ لَهُ بُولَسُ تَعْلُوهُمْ نَارُ الأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ طِينَةِ الخَبَالِ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ»[٥].

---

(١) غُرلا: غير مختونين، كما ولدتهم أُمهاتهم.

(٢) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٣) حسن: انظر «صحيح سنن الترمذي» (٢٢١٢٥).

(٤) رواه البخاري ومسلم.

(٥) حسن: انظر «صحيح سنن الترمذي» (٢٠٢٥).

٥- عَنِ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ الله عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ﴾ قَالَ: «يَقُومُ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ»[1].

عباد الله...

كيف يتم البعث؟

هذا ما سوف نذكره إن شاء الله تَعَالى في الخطبة القادمة، فإلى اللقاء.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

الخطبة الثالثة بعد المائة:

[ب] قدرة الله تَعَالى في إحياء الموتى

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ». قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالُوا: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالُوا: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ، «ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ البَقْلُ». قَالَ: «وَلَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلاَّ يَبْلَى إِلاَّ عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الخَلْقُ يَوْمَ القِيَامَةِ»[١].

(١) رواه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (١٤١) (٢٩٥٥).

النفختين هما: نفخة الصّعق ونفخة البعث.

أَبيتُ: أي: امتنعتُ عن القَول بتعيين ذَلِكَ؛ لأَنَّهُ ليس عندي في ذَلِكَ توقيف.

قلتُ: وورد من وجه «ضعيف» عن ابن عَبَّاس قال: «**ما بَين النَّفختين أربعون سَنة**».

وعنه أيضًا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَأْكُلُهُ التُّرَابُ إِلاَّ عَجْبَ الذَّنَبِ مِنْهُ خُلِقَ وَفِيهِ يُرَكَّبُ**»[(١)].

وعنه أيضًا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ فِي الإِنْسَانِ عَظْمًا لاَ تَأْكُلُهُ الأَرْضُ أَبَدًا فِيهِ يُرَكَّبُ يَوْمَ القِيَامَةِ**». قَالُوا: أَيُّ عَظْمٍ هُوَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «**عَجْبُ الذَّنَبِ**»[(٢)].

عَجبُ الذَّنَب: قَالَ الإمام النووي: «هو العظم اللطيف الَّذِي في أسفل الصُّلب، وهو رأس العصعص، ويقال له: عَجمُ (بالميم) وهو أوّل ما يُخلق في الآدمي، وهو الَّذِي يَبقى منه لِيُعاد تركيب الخَلق عليه» ا.هـ[(٣)].

عباد الله...

كيف يَتم البعث؟

حدَّثنا ربُّنا تبارك وتعالى عن مشهد البعث العجيب فقال: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ * إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ**﴾ [يس: ٥١- ٥٣].

وقَدْ جاءت الأحاديث النبويّة مُخبرة بأنه يسبق النفخة الثانية في الصّور نزول ماء من السماء، فَتَنبتُ منه أجسادُ العباد، ففي «صحيح مسلم» عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو رَضِيَ الله عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «... **ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَلاَ يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلاَّ أَصْغَى لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا**[(٤)]، **وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ**[(٥)]، **فَيَصْعَقُ وَيَصْعَقُ النَّاسُ ثُمَّ**

---

(١) رواه مسلم (١٤٢) (٢٩٩٥).

(٢) رواه مسلم (١٤٣) (٢٩٩٥).

(٣) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٨/ ٣٩٤).

(٤) أصغى ليتا ورفَع لِيتا: اللّيت: صفحة العُنُق، وهي جانبه، وأصغى: أمال.

(٥) يلوط حوض إبله: يطيّنه ويَصلحه.

يُرْسِلُ اللَّهُ - أَوْ قَالَ: يُنْزِلُ اللَّهُ - مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ[١] **أَوِ الظِّلُّ**[٢]، **فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ...»**[٣] الحديث.

وإنبات الأجساد من التراب بعد إنزال الله ذَلِكَ الماء الَّذِي ينبتها يماثل إنبات النبات من الأرض إذا نزل عليها الماء من السماء في الدُّنْيَا، ولذا فإنَّ الله قَدْ أكثر في كتابه من ضرب المثل للبعث والنشور بإحياء الأرض بالنبات غبّ نزول الغيث، قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ [الأعراف: ٥٧].

وقال في موضع آخر: ﴿**وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ**﴾ [فاطر: ٩].

ولاحظ في كلا الموضعين قوله: ﴿**كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى**﴾، ﴿**كَذَلِكَ النُّشُورُ**﴾، فإنها يدلان عَلَى المماثلة والمشابهة بين إعادة الأجسام بإنباتها من التراب بعد إنزال الماء قُبيل النّفخ في الصّور، وبين إنبات النبات بعد نزول الماء من السماء.

ونحن نعلم أن النبات يتكوّن من بذور صغيرة، تكون في الأرض ساكنة هامدة، فَإِذَا نزل عليها الماء تحرّكت الحياةُ فيها، وضربت بجذورها في الأرض، وبسقت بسوقها إِلَى السماء، فَإِذَا هي نبتة مكتملة خضراء.

والإنسان يتكوّن في اليوم الآخر من عَظم صغير، عندما يصيبه الماء ينمو نُموّ البَقل، هذا العَظم هو «عَجبُ الذَّنَب» وهو عَظم الصُّلب المستدير الَّذِي في أصل العَجزُ، وأصل الذَّنب[٤].

وعن أبي سعيد الخدريّ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «**يَأْكُلُ التُّرَابُ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الإِنْسَانِ إِلاَّ عَجْبَ ذَنَبِهِ**». قِيلَ: وَمِثْلُ مَا هُوَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «**مِثْلُ حَبَّةِ**

---

(١) **الطَّلُّ**: النَّدى.

(٢) الشّك من رواه الحديث.

(٣) رواه مسلم (٢٩٤٠).

(٤) «القيامة الكبرى» د. عمر الأشقر (٥٢، ٥٣).

خَرْدَلٍ مِنْهُ تَنْبُتُونَ» (١).

قَالَ **الحافظ ابن حجر** - رَحِمَهُ الله -: «قال ابن الجوزي: قال ابن عقيل: لله في هذا سرٌّ لا يعلمه إلا الله؛ لأن مَن يُظهر الوجود من العَدم لا يحتاج إلى شيء يبني عليه، ويحتمل أن يكون ذلك جعل علامة للملائكة على إحياء كل إنسان بجوهره ولا يحصل العلم للملائكة بذلك إلا بإبقاء عظم كل شخص، ليعلم أنه إنما أراد بذلك إعادة الأرواح إلى تلك الأعيان التي هي جزء منها، ولولا إبقاء شيء منها لجوزت الملائكة أن الإعادة إلى أمثال الأجساد لا إلى نفس الأجساد» ا.هـ (٢).

وقال الإمام ابنُ القَيِّم -رَحِمَهُ الله - في قصديته «الكافية الشافية»:

ثمانية أحكام البقاء يعمّها ... من الخلق والباقون في حَيز العدم

هي العرش والكرسي ونار وجنة ... وعَجب وأرواح كذا اللوح والقلم

إن البعث دليل عَلَى قدرة الله تَعَالى وشمول علمه، ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [الروم: ٢٧].

وهو أيضًا دليلٌ عَلَى كمال عدله؛ ﴿**لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى**﴾ [النجم: ٣١].

ولَو أنَّا مِتنا تُركنا ... لكان الموتُ رَاحةُ كُلّ حَيّ

ولكنّا إذا مِتنا بُعثنا ... ونُسأل بَعده عن كُلّ شيء

فاستعد - يا أخي الكريم - لهذا اليوم، الَّذِي يجعل الولدان شيبًا، وتهيأ بالزَّاد الطيِّب، من الهدى والتقى والعفاف.

قال الفضيل بن عياض - رَحِمَهُ الله - لرجل: «كم أتت عليك؟ قال: ستون سنة، قال: فأنت منذ ستين سنة تسير إلى ربّك توشك أن تبلغ.

فقال الرجل: يا أبا عليّ إنا لله وإنا إليه راجعون.

---

(١) **حسن**: رواه أحمد، وابن حبان في «صحيحه»، وحسّن الهيثميُّ إسناده كما في «المجمع» (١٠/ ٣٣٢).
(٢) «فتح الباري» (٨/ ٤١٥).

قال له الفضيل: تعلم ما تقول؟

قال الرجل: قلت: إنا لله وإنا اليه راجعون.

قال الفضيل: تعلم ما تفسيره؟

قال الرجل: فسّره لنا يا أبا عليّ.

قَالَ: قولك «إنا لله»، تقول: أنا لله عبد وأنا إلى الله راجع، فمن علم أَنَّهُ عبدٌ الله وأَنَّهُ إليه راجع، فليعلم بأنه موقوف، ومَن علم بأنه موقوف فليعلم بأنه مسئول، ومَن علم أَنَّهُ مسئول فليعد للسؤال جوابًا.

فقال الرجل: فما الحيلة؟ قال: تستره.

قال: ما هي؟

قال: تُحسن فيما بقى يغفر لك مَا مَضى وما بَقِىَ، فإنك إن أسأت فيما بَقِىَ أُخذت بما مَضى وما بَقِىَ» [١].

أخي...

جزاء الأعمال بالميزان عسير، والوقوف بين يديّ المولى بظلمة المعاصي خطير، فإلى متى في المطال والعمر قصير، لا تدري هَول ما أنت إليه تصير، وستندم إذا بعثر ما في القبور ونُفخ في الصّور وحُصِّل ما في الصدور.

ما احتيالي وأمر ربِّي عَصَيتُ ... حين تُبدي صحائفي ما جَنَيت

ما احتيالي إذا وقفتُ ذليلاً ... قَدْ نهاني وما رآني انتهيت

يا غَنيًّا عن العباد جميعًا ... وعليمًا بكل ما قَدْ سَعَيت

ليس لي حُجَّة ولا لي عُذر ... فاعفُ عن زَلتي وما قَدْ أتَيت

آمين.. آمين... آمين...

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

(١) «حلية الأولياء» (٨/ ١١٣).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فَتَذكُّر يوم البعث، أقلق الصَّالحين.

قال مُحَمَّد بن السَّماك الواعظ -رَحِمَهُ الله -: وُصف لي عابدٌ فسرتُ إليه لأزوره فوجدتُه في بيت وقَدْ حفر فيه قبره وهو جالس عَلَى شفيره يُصلح خوصًا بين يديه، فسلّمت عليه فردّ عليّ السلام، ثم قال: مَن أنت؟

فقلتُ: مُحَمَّد بن السّماك.

قال: الواعظ؟

قلتُ: نعم.

فألقى الخوص من يديه، وقال: يا ابن السَّماك إن الواعظ مِن المستمع بمنزلة الطبيب من العليل، فأعرض عليّ شيئًا من وعظك.

فقلت: يا شيخ، أما تخشى أن تكون خطيئتك لا تُنسى، وذَنبُك لا يُمحى؟ ثم كم بين يديك من شدّة، وأهوال، وكربٍ، وأنكالٍ، فأوَّلها: ظُلمة القبر، ثم ظُلمة النّشر، ثم ظُلمة الحشر، ثم ظُلمة الصراط، ثم وزن الأعمال، ثم قطع الآمال، ثم سطوة الملك المتعال؟

فبكى بكاءً شديدًا، وقال لي: يا ابن السَّماك وما بعد ذَلِكَ؟

قلتُ: حمل الأوزار، والورود عَلَى النار، وأعظم من ذَلِكَ: توبيخ الملك الجبَّار.

فصاح صيحة عظيمة، ثم سقط ميتًا في قبره، فخرجت إليه عجوز، وجعلت تمسح التراب عن وجهه وتقول: هاتان العينان طالمتا سهرتا في طاعة الله، وطالما بكتا من خشية الله[1].

---

(١) «الخائفون من الله» للشيخ مُحَمَّد عبد الملك الزغبي (ص٥٦).

أيها النَّاس...

رحل الأحبابُ إلى القبور، وسترحلون.

وتركوا الأموال والأوطان وندموا عَلَى التفريط في الأعمال، وستندمون.

وتأسّفوا عَلَى أيَّام الإهمال، وستتأسّفون.

وشاهدوا ما لهم عند المنون، وستشهدون.

ووقفوا ببصائر عن الأحوال، وستقفون.

وسُئلون عمَّا عملوا، وستُسألون.

ويودّ أحدهم لو يفتدى بالمال، وستودّون.

فبادروا للمتاب قبل الحساب، ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨١].

اللَّهُمَّ قِنا عذابك يوم تَبعث عِبادك

الخطبة الرابعة بعد المائة:

النَّفخ في الصَّور

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فعن أبي هريرة رَضِي الله عَنْهُ قال:

قال رَسُول الله ﷺ: «إنَّ طَرفَ صَاحِبِ الصُّور مُنذُ وُكِّل به مُستعدّ يَنظُرُ نَحو العَرشِ، مَخَافَةَ أن يُؤمر قَبْلَ أن يَرتدَ إليْه طَرفُهُ، كأنَّ عَينيه كوكَبانِ دُرِّيَّان»[1].

---

(١) **صحيح**: رواه الحاكم في «المستدرك» وقال: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبيّ، وانظر «الصحيحة» برقم (١٠٧٨).

عباد الله...

- من صاحب الصُّور؟
- وما الصُّور؟
- وكم مَرّة ينفخ الصُّور؟
- وما اليوم الَّذِي يكون فيه النَّفخة؟
- ومَن الذين لا يُصعَقُون عند النّفخ؟

هذا هو موضوع حديثنا اليوم إن شاء الله تَعَالى.

أولاً: التعريف بصاحب الصّور:

قَالَ الحافظ ابن حجر - رَحِمَهُ الله -: «اشتُهر أن صاحب الصّور إسرافيل عَلَيْهِ السَّلام، ونقل فيه الحليمي الإجماع، ووقع التصريح به في حديث وَهب بن مُنبِّه، وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي، وفي حديث أبي هريرة عند ابن مردويه، وكذا في حديث الصّور الطويل» ا.هـ[1].

وقَدْ أخبرنا المعصوم ﷺ في الحديث المتقدّم أن صاحب الصّور عَلَيْهِ السَّلام مستعدٌّ للنفخ في الصّور.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**كَيْفَ أَنْعَمُ وَقَدِ التَقَمَ صَاحِبُ القَرْنِ القَرْنَ وَحَنَى جَبْهَتَهُ وَأَصْغَى سَمْعَهُ يَنْتَظِرُ أَنْ يُؤْمَرَ أَنْ يَنْفُخَ فَيَنْفُخَ**». قَالَ المُسْلِمُونَ: فَكَيْفَ نَقُولُ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «**قُولُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ تَوَكَّلْنَا عَلَى اللَّهِ رَبِّنَا**»[2].

ثانيًا: ما الصُّور؟

الصُّور في اللغة: القَرن، وقَدْ سُئل النَّبيُّ ﷺ عن الصُّور، ففسَّره بما تعرفه العربُ من كلامها، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ الله عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الصُّورُ قَرْنٌ**

(١) «فتح الباري» (١١/ ٣٦٨).

(٢) **حسن**: رواه الترمذي، وقال: حديث حسن، وانظر «الصحيحة» (١٠٧٩).

يُنْفَخُ فِيهِ»[١].

قَالَ الشيخ عبد الحميد كشك - رَحِمَهُ الله -: «أمَّا الصُّور فهو كما قَالَ الجمهور من العلماء العارفين: هو عالم عظيم من عوالم الله تَعَالى، تجتمع فيه الأرواح بعد مفارقتها للأجسام وتختلف في منازلها عَلَى حسب اختلاف مراتبها ودرجاتها.

وقَدْ ورد أن شكل عالم الصّور يشبه القرن في ضِيق أعلاه وَسعة أسفَلِه، فهو ليس كرويّ الشكل كالأرض ونحوها، بل قرني الشكل.

فبعد ما ينبت الله تَعَالى هَذِهِ الأجسام، ويجعلها قابلة للروح، يأمر الله تَعَالى (إسرافيل) أن ينفخ في الصُّور نفخة الإحياء، فتتصل كُلّ روح بجسمها ولا تخطئه، فما أشبه الإعادة بالبداءة» ا.هـ[٢].

ثالثًا: عدد مرّات النفخ:

قَالَ الدكتور عمر سليمان الأشقر - حفظه الله -: «الَّذِي يظهر أن إسرافيل ينفخ في الصُّور مرتين:

الأولى: يحصل بها الصَّعق.

والثانية: يحصل بها البعث.

قَالَ تَعَالى: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّـهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ**﴾ [الزمر: ٦٨].

وقَدْ سمَّى القرآن النفخة الأولى بالراجفة، والنفخة الثانية بالرَّادفة، قَالَ تَعَالى: ﴿**يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ**﴾ [النازعات: ٦، ٧].

وقَدْ جاءت الأحاديث النبويّة مصرّحة بالنفختين، ففي «صحيح البخاري» و«مسلم» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ**». قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالُوا: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالُوا: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ، «**ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ**

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي، وأبو داود، وغيرهما، وانظر «الصحيحة» (١٠٨٠).

(٢) «من جوار الخلق إلى رحاب الحق» (٦٥، ٦٦).

البَقْلُ». قَالَ: «وَلَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلاَّ يَبْلَى إِلاَّ عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الخَلْقُ يَوْمَ القِيَامَةِ» [(١)]..

رابعًا: اليوم الَّذِي يكون فيه النفخة:

دلَّت الأحاديث الثابتة عن المعصوم ﷺ أنَّ اليوم الَّذِي يكون فيه النفخة هو يوم «الجُمعة».

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا، وَلاَ تَقُومُ السَّاعَةُ إِلاَّ فِي يَوْمِ الجُمُعَةِ» [(٢)].

وعنه رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ أُهْبِطَ، وَفِيهِ تِيبَ عَلَيْهِ، وَفِيهِ مَاتَ، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، وَمَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ وَهِيَ مُسِيخَةٌ[(٣)] يَوْمَ الجُمُعَةِ مِنْ حِينَ تُصْبِحُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، شَفَقًا مِنَ السَّاعَةِ[(٤)]، إِلاَّ الجِنَّ وَالإِنْسَ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لاَ يُصَادِفُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللَّهَ حَاجَةً إِلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاهَا» [(٥)].

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

خامسًا: الذين لا يُصعَقُون عند النَّفخ في الصُّور:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّـهُ ﴾ [الزمر: ٦٨].

وقَدْ اختلف العلماءُ في تعيين الذين عناهم الحق بالاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَن شَاءَ اللَّـهُ﴾.

١ - فذهب ابن حزم - رَحِمَهُ الله - إلى أنهم جميع الملائكة، لأن الملائكة في اعتقاده أرواح

---

(١) رواه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (١٤١) (٢٩٥٥).
(٢) رواه مسلم.
(٣) أي: منتظرة قيام الساعة.
(٤) أي: خوفًا من قيامها.
(٥) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

لا أرواح فيها، فلا يموتون أصلًا.

وهذا الَّذِي ذهب إليه من أن الملائكة لا يموتون لا يُسلَّم به، فالملائكة خَلقٌ من خلق الله تَعَالى، وقَدْ ثبت في «الصحيح» أنهم يُصعقون عند سماع كلام الله تَعَالى، قَالَ ﷺ : «**إذا سَمِعَت الملائكةُ كَلامَهُ صعقوا**». فَإِذَا جاز عليهم صعق الغشي، جاز عليهم صعق الموت[١].

٢- وذهب الإمام أحمد - رَحِمَهُ الله - إلى أن المراد بهم: الذين في الجَنَّة من الحور العين، والولدان، وأضاف إليهم أبو إسحاق بن شاقلا من الحنابلة والضّحاك بن مزاحم: خُزّان الجَنَّة والنار، وما فيها من الحيّات والعقارب[٢].

٣- وذهب مقاتل وغيره إلى أنهم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ومَلك الموت[٣]. وأضاف إليه بعضُ أهل العلم: حملة العرش، وذكروا في ذَلِكَ أحاديث، لكنها لا تصحّ.

٤- وقَدْ جنح أبوالعباس القرطبيُّ صاحب «المفهم عَلَى شرح مسلم» إلى أن المراد بهم: الأموات كلهم، لكونهم لا إحساس لهم، فلا يصعقون، وهذا كلام لا يُسلّم به، فقد ثبت في «الصحيح» أن الموتى يُصعقون، فعن أبي هريرة رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ : «**لاَ تُخَيِّرُونِى عَلَى مُوسَى، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأَصْعَقُ مَعَهُمْ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ جَانِبَ العَرْشِ، فَلاَ أَدْرِى أَكَذَلِكَ كَانَ أَمْ بَعْدَ النَّفْخَةِ**»[٤].

فهذا الحديث صريح في أن الموتى يُصعقون، فَإِذَا كان رَسُول الله ﷺ وهو سيِّد المرسلين يُصعق، فغيره أَوْلى بالصّعق.

٥- ونُقل عن ابن عبَّاس وأبي هريرة وسعيد بن جبير أنَّ الأنبياء والشهداء من الذين استثناهم الله تَعَالى[٥].

---

(١) «الروح» لابن القيم (ص٥٠).
(٢) نفس المرجع.
(٣) «فتح الباري» (٦/ ٣٧٠).
(٤) رواه البخاري.
(٥) «فتح الباري» (١١/ ٣٧١) وعزّاه ابن حجر إلى البيهقي.

فإن كان المراد استثناؤهم من الموت فإن هذا حق، وإن كان المراد استثناؤهم من الصَّعق الَّذِي يصيب الأموات كما دلّ عليه حديث موسى فالأمر ليس كَذَلِك.

٦- وذهب بعض أهل العلم إلى أن الأوْلى بالمسلم التوقّف في تعيين الذين استثناهم الله، لأَنَّهُ لم يَصح فِي ذَلِكَ نصٌّ يدلّ عَلَى المراد.

قَالَ الإمام القرطبيُّ - رَحِمَهُ الله -: «قَالَ شيخنا أبو العباس: والصّحيح أنَّهُ لم يرد في تعيينهم خبر صحيح، والكُلّ محتمل» ا.هـ[1].

وقال الإمام ابن تيمية - رَحِمَهُ الله -: «وَأَمَّا الِاسْتِثْنَاءُ فَهُوَ مُتَنَاوِلٌ لِمَنْ فِي الْجَنَّةِ مِنْ الْحُورِ الْعِينِ فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَيْسَ فِيهَا مَوْتٌ وَمُتَنَاوِلٌ لِغَيْرِهِمْ. وَلَا يُمْكِنُ الْجَزْمُ بِكُلِّ مَنْ اسْتَثْنَاهُ اللَّهُ فَإِنَّ اللَّهَ أَطْلَقَ فِي كِتَابِهِ.

وَبِكُلِّ حَالٍ: النَّبِيُّ ﷺ قَدْ تَوَقَّفَ فِي مُوسَى وَهَلْ هُوَ دَاخِلٌ فِي الِاسْتِثْنَاءِ فِيمَنْ اسْتَثْنَاهُ اللَّهُ أَمْ لَا؟ فَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَمْ يُخْبِرْ بِكُلِّ مَنْ اسْتَثْنَى اللَّهُ؛ لَمْ يُمْكِنَّا نَحْنُ أَنْ نَجْزِمَ بِذَلِكَ وَصَارَ هَذَا مِثْلَ الْعِلْمِ بِوَقْتِ السَّاعَةِ وَأَعْيَانِ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِمَّا لَمْ يُخْبِرُ بِهِ وَهَذَا الْعِلْمُ لَا يُنَالُ إلَّا بِالْخَبَرِ. وَاَللَّهُ أَعْلَمُ» ا.هـ[2].

قلتُ: أوْلى الأقوال بالصّواب والله أعلم: قولُ الإمام أحمد، أن المراد بهم: الذين في الجَنَّة من الحور العين والولدان، وقول أبي إسحاق بن شاقلا، والضحاك: خُزَّان الجَنَّة والنار وما فيها من الحيّات والعقارب. والله أعلم بالصواب.

عباد الله...

وقَدْ صوَّر القرآن الكريم حال النَّاس عند البعث في مواطن كثيرة، منها:

١- قوله تَعَالَى: **﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾** [ق: ٤١- ٤٤].

---

(١) «التذكرة» (١٦٧).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٦١)، وانظر «القيامة الكبرى» للدكتور عمر الأشقر (٤٣ - ٤٧) باختصار شديد وإضافة.

وهذا المنادى هو إسرافيل عَلَيْهِ السَّلام، فإنَّهُ ينادي بالأموات عن أمر من الله تَعَالى مِن مكان قريب من ذاتهم وجميع ذواتهم قائلًا: «يا أَيّتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، واللحوم المتمزّقة، والشُّعور المتفرّقة، إن الله يأمُركُنَّ أن تَجتَمعنَ لِفَصلِ القَضاء».

٢- وقوله تَعَالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ * خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ * مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٦- ٨].

قَالَ العلامة السَّعدي - رَحِمَهُ الله - في تفسير هَذِهِ الآيات: «يقول الله تَعَالى لرسوله ﷺ: قد بَانَ[1] أنَّ المكذبين لا حيلة في هداهم، فلم يبق إلا الإعراض عنهم والتولي عنهم، فقال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ وانتظر بهم يومًا عظيمًا وهولًا جسيمًا، وذلك حين ﴿يَدْعُ الدَّاعِ﴾ إسرافيل عَلَيْهِ السَّلام، ﴿إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾ أي: إلى أمر فظيع تنكره الخليقة، فلم تر منظرًا أفظع ولا أوجع منه، فينفخ إسرافيل نفخة، يخرج بها الأموات من قبورهم لموقف القيامة. ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ أي: من الهول والفزع الذي وصل إلى قلوبهم، فخضعت وذلت، وخشعت لذلك أبصارهم.

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ﴾ وهي القبور، ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ من كثرتهم، وروجان بعضهم ببعض ﴿جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾ أي: مبثوث في الأرض، متكاثر جدًّا، ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ أي: مسرعين لإجابة النّداء الداعي، وهذا يدلّ على أن الداعي يدعوهم ويأمرهم بالحضور لموقف القيامة، فيلبّون دعوته، ويسرعون إلى إجابته، ﴿يَقُولُ الكَافِرُونَ﴾ الذين قد حضر عذابهم: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ كما قال تعالى ﴿عَلَى الكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ١٠] مفهوم ذلك أنه يسير سهل على المؤمنين» ا.هـ[2].

عباد الله...

وقال تَعَالى واصفًا حال المؤمنين من قضية البعث: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ

(١) بان: ظهر.
(٢) «تفسير السعدي» (٨٢٤).

﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلاَ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ ﴾ [الشورى: ١٧، ١٨].

﴿مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ لأنَّها موعد الحساب، وتحديد المصير.

وإليك بعضُ أحوالهم وأقوالهم الدَّالة عَلَى شدّة خوفهم من هذا اليوم الموعود:

كان الحسن البصري -رَحِمَهُ الله - يقول: «يحقّ لمن يعلم أن الموت مورده، وأن الساعة موعده، وأن القيام بين يدي الله مشهده، أن يطول حزنه».

قال الصّلتُ بن مسعود: خرج الحسنُ بن صالح بن حي يومًا من بيتي، فنظر إلى جراد يطير، فقال: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ [القمر: ٧]، ثم خرّ مغشيًا عليه.

وقال عنبسة الخوَّاص: كان (عُتبة الغلام) يزورني، فربما بات عندي، قال: فبات عندي ذات ليلة فبكى من السَّحر بكاءً شديدًا، فلما أصبح قلت له: قد فزعت قلبي الليلة ببكائك ففيم ذاك يا أخي؟

قال: يا عنبسة إني والله ذكرت يوم العرض على الله. ثم مال لِيَسقُط فَاحتضنتُه فجعلت أنظر إلى عينيه يتقلبان قد اشتدت حمرتهما، وجعل يخور، فناديتُه: عُتبة عُتبة، أجبني، قَالَ: فمكث ثلاثًا لا يجيبي، ثم هَذَى[١] فناديتُه: عُتبة عُتبة، فأجابني بصوت خفي: «قطع ذكرُ يوم العرض على الله أوصَالَ المُحبِّينَ».

قال: ثم جعل يحشرج البكاء ويردده حشرجة الموت، ويقول: «أتراك مولاي تُعذّبُ مُحبِّيك وأنت الحيُّ الكريم؟!» .

قال: فلم يزل يردِّدها حتى والله أبكاني[٢].

وقُرئ عَلَى يحيى البكَّاء: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٠]، فصاح صيحة مكث منها مريضًا أربعة أشهر، يُعادُ (يُزار) من أطراف البصرة[٣].

---

(١) أي: تكلم بكلام غير مفهوم.

(٢) «حلية الأولياء» (٦/ ٢٣٥).

(٣) السابق (٤/ ١٩٤).

هَذِهِ بعض أحوالهم وأقوالهم الدَّالة عَلَى عِظَم خوفهم، وشِدّة وَجَلِهم من يوم الحساب، مَعَ علوّ مكانهم واجتهادهم في طاعة ربهم.

فأشعر قلبك - أخي المسلم - تلك المخاوف والأخطار، وأكثر فيها التفكّر والاعتبار، لتسلب عن قلبك الراحة والقرار، فتشتغل بالتشمّر للعرض عَلَى الجبار، وتفكّر أوَّلًا فيما يقرع سمع سكان القبور من شدّة نفخ الصُّور، فإنها صيحة واحدة تنفرج بها القبور عن رءوس الموتى فيثورون دفعة واحدة.

فتوهّم نفسك وقَدْ وثبت متغيّرًا وجهُك، مُغبّرًا بدنُك من فرقك إلى قدمك من تراب قبرك مبهوتًا من شدّة الصّعق شاخص العين نحو النِّداء، وقَدْ ثار الخَلقُ ثورة واحدة من القبور التي طال فيها بلاؤهم، وقَدْ أزعجهم الفزعُ والرّعبُ مضافًا إلى ما كان عندهم من الهموم والغموم وشدّة الانتظار لعاقبة الأمر، كما قَالَ تَعَالى: ﴿**فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ * فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ**﴾ [المدثر: ٨- ١٠].

وقال تَعَالى: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ**﴾ [يس: ٥١، ٥٢].

فلو لم يكن بين يدي الموتى إلا هول تلك النفخة لكان ذلك جديرًا بأن يُتّقى فإنها نفخة وصيحة يصعق بها من فى السموات والأرض يعنى يموتون بها إلا من شاء الله.

ثُمَّ يلبث الخلق بعد النفخة الأولى فى البرزخ أربعين سنة، ثم يحيى الله تعالى إسرافيل فيأمره أن ينفخ الثانية، فذلك قوله تَعَالى: ﴿**ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ**﴾ [الزمر: ٦٨].

فتفكّر فى الخلائق وذلّهم وانكسارهم واستكانتهم عند الانبعاث خوفًا مِن هذه الصّعقة، وانتظارًا لما يقضى عليهم من سعادة أو شقاوة، وأنت فيما بينهم منكسرٌ كانكسارهم متحيّر كتحيّرهم.

بل إن كنت فى الدُّنْيَا مِن المترفّهين والأغنياء المتنعّمين، فملوك الأرض فى ذلك اليوم أذلّ أهل أرض الجمع وأصغرهم وأحقرهم يوطئون بالأقدام مثل الذَّرِّ[1].

(١) الذر: صغار النمل.

وعند ذلك تقبل الوحوش من البرارى والجبال منكسة رءوسها مختلطة بالخلائق بعد توحشها ذليلة ليوم النشور من غير خطيئة تدنست بها، ولكن حشرتهم شدّة الصّعقة وهول النفخة، وشغلهم ذلك عن الهرب مِن الخلق والتوحش منهم، وذلك قوله تَعَالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥].

ثم أقبلت الشياطين المردة بعد تمرّدها وعتوّها، وأذعنت خاشعة مِن هيبة العرض على الله تعالى تصديقًا لقوله تَعَالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [مريم: ٦٨].

فتفكَّر فى حالك وحال قلبك هنالك.

ثم انظر كيف يُساقون بعد البعث والنشور حُفاةً عُراةً غُرلًا[١] إلى أرض المحشر، أرض بيضاء قاع صَفصف لا ترى فيها عِوجًا ولا أَمتًا ولا ترى عليها رَبوةً[٢] يختفى الإنسان وراءها، ولا وَهدة[٣] ينخفض عن الأعين فيها، بل هو صعيد واحد بسيط لا تفاوت فيه يساقون إليه زُمرًا.

قَالَ ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ[٤] كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ[٥] لَيْسَ فِيهَا عَلَمٌ لأَحَدٍ[٦]»[٧].

ولا تَظُنن أنَّ تلك الأرض مثل أرض الدُّنْيَا بل لا تساويها إلَّا فى الاسم، قال تَعَالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

قال ابن عبَّاس. يزدادُ فيها وينقُص، وتذهب أشجارُها وجبالُها وأوديتُها وما فيها، وتمدّ مدّ الأديم العُكاظى، أرض بيضاء مثل الفضة لم يسفك عليها دم ولم يعمل عليها

(١) **غرلًا**: أي: من غير اختتان.
(٢) **الربوة**: المكان المرتفع.
(٣) **الوهدة**: المكان المنخفض.
(٤) **العفرة**: بياض ليس بالنّاصع.
(٥) **النقي**: هو النقي عن القشر والنخالة.
(٦) ليس فيها علم لأحد: أي: لا بناء يسترُ، ولا تفاوت يَرُدّ البصر.
(٧) رواه البخاري ومسلم.

خطيئة، والسموات تذهب شمسها وقمرها ونجومها.

فانظر يا مسكين فى هول ذلك اليوم وشدّته؛ فإنه إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تناثرت مِن فوقهم نجوم السماء وطمس الشمس والقمر، وأظلمت الأرض لخمود سراجها.

فبينا هم كذلك إذ دارت السماء مِن فوق رءوسهم، وانشقت مع غلظها وشدتها خمسمائة عام، والملائكة قيام على حافاتها وأرجائها.

فيا هول صوت انشقاقها فى سمعك، ويا هيبة ليوم تنشق فيه السماء مع صلابتها وشدّتها.

ثم تنهار وتسيل كالفضة المذابة تخالطها صفرة، فصارت وردة كالدهان، وصارت السماء كالمهل، وصارت الجبال كالعهن، واشتبك الناس كالفراش المبثوث وهم حفاة عراة مشاة.

عن أُم سلمة رَضِيَ الله عَنْهَا قالت: سمعتُ رَسُول الله ﷺ يقول: «**يُحشر الناسُ يوم القيامة حُافة عُراةً**»، فقالت أُم سلمة: فقلتُ: يا رَسُول الله واسوأتاه، ينظرُ بعضُنا إلى بعض؟ فقال: «**شُغل النَّاسُ**»، فقلتُ: ما شَغَلَهُم؟ قَالَ: «**نَشْرُ الصَّحائف فيها مَثاقيلُ الذَّرِّ، ومَثَاقِيلُ الخَردَلِ**» [(١)].

فأعظم بيوم تنكشف فيه العورات ويؤمن فيه مع ذلك النظر والالتفات كيف وبعضهم يمشون على بطونهم ووجوههم فلا قدرة لهم على الالتفات إلى غيرهم.

فأحضِر فى قلبك صورتك وأنت واقف عاريًا مكشوفًا ذليلًا مدحورًا متحيّرًا مبهوتًا منتظرًا لما يجرى عليك مِن القضاء بالسعادة أو بالشقاوة، وأعظم هذه الحال فإنها عظيمة.

ثم تفكَّر فى ازدحام الخلائق واجتماعهم حتى ازدحم على الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع مِن ملك وجن وإنس وشيطان ووحش وسبع وطير، فأشرقت عليهم الشمس وقد تضاعف حرَّها وتبدَّلت عما كانت عليه مِن خفة أمرها، ثم أُدنيت

---

(١) **صحيح**: قال المنذري: رواه الطبراني في «الأوسط» بإسناد صحيح، «الترغيب» (٢٥٠٦).

مِن رءوس العالمين كقاب قوسين، فلم يبق على الأرض ظل إلَّا ظل رب العالمين، ولم يمكن مِن الاستظلال به إلا المقرّبون، فمن بين مستظل بالعرش وبين مضح لحر الشمس قد صهرته بحرها واشتد كربه وغمه من وهجها، ثم تدافعت الخلائق ودفع بعضهم بعضا لشدة الزحام واختلاف الأقدام، وانضاف إليه شدة الخجلة والحياء من الافتضاح والاختزاء عند العرض على جبار السَّماء.

فاجتمع وهج الشمس وحرّ الأنفاس واحتراق القلوب بنار الحياء والخوف، ففاض العرق مِن أصل كل شعرة حتى سال على صعيد القيامة، ثم ارتفع على أبدانهم على قدر منازلهم عند الله، فبعضهم بلغ العرق ركبتيه وبعضهم إلى حقويه، وبعضهم إلى شحمة أُذنيه، وبعضهم كاد يغيب فيه.

فتأمل يا مسكين فى عرق أهل المحشر وشدة كربهم، وفيهم من ينادى فيقول: رب أرحنى من هذا الكرب والانتظار ولو إلى النار.

وكل ذلك ولم يلقوا بعد حسابًا ولا عقابًا، فإنك واحد منهم ولا تدرى إلى أين يبلغ بك العرق.

واعلم أن كل عرق لم يخرجه التعب فى سبيل الله مِن حجّ، وجهاد، وصيام وقيام، وتردد فى قضاء حاجة مسلم، وتحمل مشقة فى أمر بمعروف ونهى عن منكر، فسيخرجه الحياء والخوف فى صعيد القيامة ويطول فيه الكرب ولو سلم ابن آدم من الجهل والغرور لعلم أن تعب العرق فى تحمل مصاعب الطاعات أهون أمرًا وأقصر زمانا من عرق الكرب والانتظار فى القيامة، فإنه يوم عظيمة شدته طويلة مُدّته.

يوم تقف فيه الخلائق شاخصة أبصارهم منفطرة قلوبهم لا يكلمون ولا ينظر فى أمورهم.

وقال الإمام الحسن: ما ظنك بيوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة لا يأكلون فيها أكلة ولا يشربون فيها شربة، حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشًا واحترقت أجوافهم جوعًا انصرف بهم إلى النار، فسقوا من عين آنية قد آن حرّها واشتدّ لفحُها.

فلما بلغ المجهود منهم ما لا طاقة لهم به كلّم بعضهم بعضًا فى طلب من يكرّم على

مولاه ليشفع فى حقّهم، فلم يتعلقوا بنبيّ إلَّا دفعهم وقال: دعونى، نفسى نفسى، شغلنى أمرى عن أمر غيرى، واعتذر كُل واحد بشدة غضب الله تعالى وقال: «**قد غضب اليوم ربنا غضبًا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله**»، حتى يشفع نبينا ﷺ لمن يؤذن له فيه؛ ﴿**لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَـهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَـهُ قَوْلًا**﴾ [طه: ١٠٩].

فتأمّل فى طول هذا اليوم وشدّة الانتظار فيه، حتى يخف عليك انتظار الصبر عن المعاصى فى عمرك المختصر.

واعلم أن مَن طال انتظاره فى الدُّنْيَا للموت لشدّة مقاساته للصبر عن الشهوات، فإنه يقصر انتظاره فى ذلك اليوم خاصة.

قَالَ رَسُول الله ﷺ لَـمَّا سُئِل عن طول ذَلِكَ اليوم فقال: «**وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى الْمُؤْمِنِ حَتَّى يَكُونَ أَخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلاَةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيهَا فِى الدُّنْيَا**»[١].

فاجتهد - أيُّهَا المسلم - أن تكون من أولئك المؤمنين، فما دام يبقى لك نفس من عمرك فالأمر إليك والاستعداد بيديك، فاعمل فى أيام قصار لأيام طوال تربح ربحًا لا منتهى لسروره، واستحقر عمرك بل عمر الدُّنْيَا وهو سبعة الآف سنة[٢]، فإنك لو صبَرت سبعة الآف سنة مثلا لتتخلص من يوم مقداره خمسون ألفًا لكان ربحك كثيرًا وتعبك يسيرًا.

فاستعدّ - يا مسكين - لهذا اليوم العظيم شأنه المديد زمانه القاهر سلطانه القريب أوانه»[٣].

اللَّهُمَّ وفّقنا لأحسن الأعمال، لا يُوفّق لأحسَنِها إلَّا أنت، واصرِف عنَّا سيئها لا يُصرف عَنَّا سَيئها إلَّا أنت.

اللَّهُمَّ لا تُشمت مَن كان يُشرِكُ بِك بِمَن كَانَ لا يُشركُ بِك.

ثم تفكر يا مسكين بعد هذه الأحوال فيما يتوجه عليك من السؤال شفاها من غير

---

(١) حسن: أخرجه أبو يعلى، والبيهقي في «الشعب»، ورواه أبو يعلى من حديث أبي هريرة بإسناد جيد: «يهوّن ذَلِكَ عَلَى المؤمن كتدلّي الشمس للغروب إلى أن تغرب».

(٢) زعم بعضهم أن عمر الدُّنْيَا سبعة آلاف سنة؛ ولا يصحّ في ذَلِكَ الحديث.

(٣) انظر «الإحياء» (٤/ ٥١٢، ٥١٥) باختصار، وإضافة يسيرة.

ترجمان فتسئل عن القليل والكثير والنقير والقطمير، قال تَعَالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

فيبدأ سُبْحَانَهُ بالأنبياء: «يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّـهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ» [المائدة: ١٠٩]. فيا لشدة يوم تذهل فيه عقول الأنبياء وتنمحى علومهم من شدة الهيبة.

وعند ذلك ترتعد الفرائصُ وتضطرب الجوارح وتبهت العقول، ويتمنَّى أقوامٌ أن يُذهب بهم إلى النار ولا تعرض قبائح أعمالهم على الجبَّار، ولا يكشف سترهم على ملأ الخلائق.

وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش؛ ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩]. وأيقن كُلّ عبدٍ بإقبال الجبَّار لمساءلة العباد، فيقول الجبار سُبْحَانَهُ وَتَعَالى عند ذَلِكَ: يا جبريل ائتى بالنّار.

فيجيء لها جبريلُ ويقول: يا جهنم أجيبي خالقك ومليكك، فيصادفُها جبريلُ على غيظها وغضبها، فلم يلبث بعد ندائها أن ثارت وفارت وزفرت إلى الخلائق وشهقت، وسمع الخلائق تغيظها وزفيرها وانتهضت خزنتها متوثبة إلى الخلائق غضبًا على من عصى الله تعالى وخالف أمره.

فأخطر ببالك وأحضر فى قلبك حالة قلوب العباد وقد امتلأت فزعًا ورعبًا فتساقطوا جثيا على الرّكب وولوا مدبرين؛ ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية: ٢٨].

فتوهّم نفسك يا مسكين وقد أخذت الملائكة بعضديك وأنت واقف بين يدى الله تعالى يسألك، فكيف ترى حياءك وخجلتك وهو يعد عليك إنعامه ومعاصيك وأياديه ومساويك.

فقدّر نفسك وأنت بهذه الصفة، تتخطّى الرّقاب وتخرق الصفوف، وتُقاد كما تُقاد الفرس المجنوب وقد رفع الخلائق إليك أبصارهم.

فتوهّم نفسك أنك فى أيدى المُوكّلين بك على هذه الصّفة حتى انتهى بك إلى عرش الرحمن فرموك من أيديهم، وناداك الله سبحانه وتعالى بعظيم كلامه: «يا ابن آدم ادن

مني» فدنوت منه بقلب خافق محزون وجل، وطرف خاشع ذليل، وفؤاد منكسر، وأُعطيت كتابك الذى لا يُغادر صغيرة ولا كبيرة إلَّا أحصاها، فكم من فاحشة نسيتها فتذكرتها؟

وكم مِن طاعة غفلت عن آفاتها فانكشف لك عن مساويها؟

فكم لك من خجل وجُبن؟

وكم لك من حصر وعجز؟

فليت شعرى بأى قدم تقف بين يديه؟

وبأى لسان تجيب؟

وبأى قلب تعقل ما تقول؟

ثُمَّ تفكّر فى عِظم حياتك إذا ذكَّرك ذنوبك.

فأعظم يا مسكين بحيائك عند ذلك بخطرك فإنَّك بين أن يقال لك: «سترتُها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم» فعند ذلك يعظم سرُورك وفرحك ويغبطك الأولون والآخرون، وإما أن يقال للملائكة: «خذوا هذا العبد السوء فغلوه ثم الجحيم صلوه» وعند ذلك لو بكت السموات والأرض عليك لكان ذلك جديرًا بعظم مصيبتك وشدة حسرتك على ما فرطت فيه من طاعة الله، وعلى ما بعت آخرتك من دنيا دنيئة لم تبق معك.

فاستعدوا - عباد الله - لهذا اليوم، فإنَّ جزاء الأعمال بالميزان عسير، والوقوف بين يدي المولى بظلمة المعاصي خطير، فإلى متى في المطال والعمر قصير؟» ا.هـ.

اللَّهُمَّ ارحمنا فإنك بنا راحم، ولا تعذبنا فأنت علينا قادر.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

***

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ونختم خطبة اليوم بهذه الأبيات الجيِّدة:

مـا احتيالـي وأمـر ربِّـي عَـصَيتُ	حـين تُـبدي صـحائفي مـا جَنَـيت
مـا احتيالـي إذا وقفـتُ ذلـيلاً	قَـدْ نهانـي ومـا رآنـي انتهـيت
يـا غَنـيًّا عـن العـباد جمـيعًا	وعلـيمًا بكـل مـا قَـدْ سَـعَيت
لـيس لـي حُجَّـة ولا لـي عُـذر	فاعـفُ عـن زَلـتي ومـا قَـدْ أتَـيت

آمين.. آمين... آمين...

۞۞۞۞۞

الخطبة الخامسة بعد المائة:

من مشاهد يوم القيامة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فإن يوم القيامة عظيم شأنه، مديد زمانه، قاهر سلطانه، قريب أوانه.

قال تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١، ٢].

قَالَ ابن كثير - رَحِمَهُ الله -: «يَقُول تَعَالَى آمِرًا عِبادَهُ بِتَقواهُ، ومُخبِرًا لَهُم بِمَا يَسْتَقبِلونَ مِن أَهْوَالِ يَوْمِ القِيامَةِ وزَلَازِلِها وأَحْوَالِهَا. وقَدْ اخْتَلَفَ المُفَسِّرونَ فِي زَلْزلَةِ السَّاعةِ: هَل هِي بَعدَ قِيامِ النَّاس مِن قُبورِهِم يَوْمَ نُشُورهم إلى عَرَصَاتِ القِيامةِ؟ أو ذَلِكَ عِبارةٌ عَن

زَلزلَةِ الأرْضِ قَبْلَ قِيَامِ النَّاسِ مِن أجْدَاثِهِم؟ كما قَالَ تَعَالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا. وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١، ٢].

وقال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً * وَاحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٤، ١٥] فَقَالَ قَائِلون: هَذِهِ الزَّلزلَةُ كَائنةٌ فِي آخِرِ عُمرِ الدُّنْيَا، وأوَّلَ أحْوَالِ السَّاعَةِ.

عَن عَلْقَمَة فِي قوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ قال: قَبْلَ السَّاعَةِ.

وقالَ آخَرُون: بَلِ ذَلِكَ هُولٌ وفَزعٌ وزِلزالٌ وبلبَالٌ كَائنٌ يومَ القِيَامةِ في العَرَصَاتِ بَعد يَوم القِيامة مِن القُبور، واختارَ ذَلِكَ ابنُ جَريرٍ، واحتَجُّوا بأحَاديثَ مِنها:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً». قَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ إِنَّ الأَمْرَ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَلِكَ»[(١)].

والأحَاديثُ فِي أهْوَالِ يَوم القِيَامةِ والآثَارُ كَثيرٌ جِدًّا، لَهَا مَوضِعٌ آخرُ، ولِهذَا قَالَ تَعَالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ أي: أمرٌ كَبيرٌ وخطبٌ جَليلٌ، وطَارِقٌ مُفظِعٌ وحَادِثٌ هَائلٌ، وكَائِنٌ عَجيبٌ.

والزِّلزَالُ هُوَ: مَا يَحصُلُ للنُّفُوسِ مِنَ الرُّعبِ والفَزَعِ، كَمَا قَالَ تَعَالى: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ المُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١].

ثُمَّ قَالَ تَعَالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾: هَذَا مِن بَابِ ضَميرِ الشّأنِ؛ ولهذا قَالَ مُفسِّرًا له: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أي: تَشتَغِلُ هِوَلِ مَا تَرَى عَن أحَبِّ النَّاسِ إليْهَا، والَّتِي هِي أشْفَقُ النَّاس عَليهِ، تُدهَشُ عَنْهُ في حَالِ إرْضَاعِهَا لَهُ؛ ولهذا قَالَ: ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾، ولم يَقُل: «مُرضِع» وقال: ﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أي: عَن رَضِيعهَا قَبل فِطَامِهِ.

وقوله: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ أي: قَبل تَمَامِهِ لِشدَّةِ الهَوْلِ، ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾ وقرئ: «سَكْرَى» أي: مِن شِدَّةِ الأَمْرِ الَّذِي قَدْ صَارُوا فيه قَدْ دَهِشَت عُقُولُهم، وغَابَت أذْهَانُهُم، فَمَن رَآهُم حَسِبَ أنَّهُم سُكارى، ﴿وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٦/ ٥٣)، والبخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩).

عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ ا.هـ[١].

وقال تَعَالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ القُلُوبُ لَدَى الحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر: ١٨].

وقال تَعَالى: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ [فاطر: ١٨].

قال الفضيل بن عياض -رَحِمَهُ الله - في تفسيره هٰذه الآية: «هي المرأة تلقى ولدها يوم القيامة فتقول: يا بنى ألم يكن بطني لك وعاء؟ ألم يكن ثديى لك سقاء؟ ألم يكن حجري لك وطاء؟ فيقول: بلى يا أُمَّاه. فتقول يا بنيّ قَدْ أثقلتني ذنوبي فاحمل عنِّى منها ذنبًا واحدًا! فيقول: إليك عنِّى يا أُمَّاه ! فإني بذنبى عنك اليوم مشغول»[٢].

وقال تَعَالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيبًا * السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴾ [المزمل: ١٧، ١٨].

وقال تَعَالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ * وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُوْلَئِكَ هُمُ الكَفَرَةُ الفَجَرَةُ ﴾ [عبس: ٣٣- ٤٢].

والآيات في هذا المقام كثيرة.

أما الأحاديث:

فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ ﴾ [المطففين: ٦] **حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ[٣] إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ**»[٤].

وعن المِقْدَادُ بْنُ الأَسْوَدِ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ الخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ**».

---

(١) «صحيح تفسير ابن كثير» (٣/ ١٨٠، ١٨١).

(٢) «تفسير القرطبي» .

(٣) **رشحه**: عرقه.

(٤) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

قَالَ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ: فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِى مَا يَعْنِى بِالمِيلِ؟ أَمَسَافَةَ الأَرْضِ أَمِ المِيلَ الَّذِى تُكْتَحَلُ بِهِ العَيْنُ؟

قَالَ: «فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِى العَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ العَرَقُ إِلْجَامًا». قَالَ: وَأَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ[١].

وقال الإمام الحسن: «ما ظنك بيوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة لا يأكلون فيها أكلة ولا يشربون فيها شربة، حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشًا واحترقت أجوافهم جوعًا انصرف بهم إلى النار، فسقوا من عين آنية قد آن حرّها واشتدّ لفحُها».

فيا عبد الله...

تذكَّر وُقوفك يَومَ الحَشر عُريَانًا ... مُستوحشًا قَلق الأحشَاء حَيرانا

والنار تَلهَبُ مِن غَيظ ومِن حنق ... عَلَى العُصاة، وربُّ العرش غَضبانا

اقرأ كتابك يا عَبدي عَلَى مَهل ... فهل ترى فيه حَرفًا غَيرَ ما كانا؟

فلَمَّا قرأت ولم تُنكر قراءتَه ... أقررت إقرار مَن عرف الأشياء عِرْفانا

نادى الجليلُ: خُذوه يا ملائكتي ... وامْضُوا بعبدٍ عَصَى للنَّارِ عَطشانًا

المشركون غَدًا في جَهنَّم يلتهبوا ... والموحِّدون بدارِ الخُلدِ سُكَّانا

عباد الله...

والمؤمنون يُخفَّف عنهم طول هذا اليوم.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ مِقْدَارَ نِصْفِ يَوْمٍ مِنْ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ يُهَوَّنُ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كَتَدَلِّي الشَّمْسِ لِلْغُرُوبِ إِلَى أَنْ تَغْرُبَ»[٢].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) **صحيح**: رواه أبو يعلى، وابن حبان في «صحيحه».

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: يَوْمًا كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ مَا أَطْوَلَ هَذَا اليَوْمَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى الْمُؤْمِنِ حَتَّى يَكُونَ أَخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلاَةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيهَا فِي الدُّنْيَا» (١).

عباد الله...

ومن مشاهد يوم القيامة: تطاير الصحف:

والمقصود بالصحف: الصحف التي كُتبت فيها أعمال العبد، وهي التي كتبتها الملائكة في الدُّنْيَا، الكرام الكاتبون.

قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ٩- ١٢].

وقال تَعَالَى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

وقال تَعَالَى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

قَالَ بعض السَّلف: «والله لقد أنصفك مَن جعلك حسيبًا عَلَى نفسك».

وقال تَعَالَى: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا اليَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨، ٢٩].

وهذه الصُّحف تُنشر وتتطاير، فمِن النَّاس مَن يأخذها بيمينه، ومنهم مَن يأخذها بشماله من وراء ظهره، وفرقٌ كبير بين مَن يُؤتى كتابه بيمينه وبين من يُؤتى بشماله.

قال تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ القَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩ - ٢٩].

---

(١) رواه أحمد وأبو يعلى وغيرهما.

وقال تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا * إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا * إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ * بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ [الانشقاق: ٦- ١٥].

عباد الله...

ومن مشاهد يوم القيامة: حوار الأعضاء مَعَ ابن آدم:

وهذا من عدل الله تَعَالَى، ودليل عَلَى قدرته جلّ وعلا، لقد جاء حديث الأعضاء في القرآن والسُّنة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِي الله عَنْهُ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَضَحِكَ فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟».

قَالَ: قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: «مِنْ مُخَاطَبَةِ العَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِى مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى. قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّى لاَ أُجِيزُ عَلَى نَفْسِى إِلاَّ شَاهِدًا مِنِّى، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ فَيُقَالُ لأَرْكَانِهِ[١]: انْطِقِى. قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الكَلاَمِ، قال: فَيَقُولُ بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا. فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ[٢]»[٣].

عباد الله...

إِنَّهُ مشهد تقشعرّ منه الأبدان، وترتعد عند سماعه الفرائص، وترتجف عند ذكره القلوب.

---

(١) **أركانه**: جوارحه.

(٢) **أناضل**: أدافع وأجادل.

(٣) رواه مسلم (٢٩٦٩).

إنَّهُ يُصوِّر أصعب مَوقِف يَقِفه الإنسان.

موقف تحديد المصير، إمَّا إلى جنَّات النَّعيم، وإمّا إلى عذاب السَّعير.

موقف الحساب، بين يدي الملك الحقّ.

يا له من يوم ما أهوله، ومن موقف ما أصعبه، ومن حساب ما أعدله، ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨].

قال تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ٩، ١٠].

إنَّهُ يومٌ يقع الخصام فيه بين المرء وجوارحه.

قال تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩- ٢١].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْهُ قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِى رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِى الظَّهِيرَةِ لَيْسَتْ فِى سَحَابَةٍ؟». قَالُوا: لاَ.

قَالَ: «فَهَلْ تُضَارُّونَ فِى رُؤْيَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ لَيْسَ فِى سَحَابَةٍ؟». قَالُوا: لاَ.

قَالَ: «فَوَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لاَ تُضَارُّونَ فِى رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ إِلاَّ كَمَا تُضَارُّونَ فِى رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا، قَالَ: فَيَلْقَى العَبْدَ فَيَقُولُ: أَىْ فُلْ[(١)] أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ[(٢)]، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الخَيْلَ وَالإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ[(٣)] وَتَرْبَعُ[(٤)]؟ فَيَقُولُ: بَلَى. قَالَ: فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاَقِىَّ؟ فَيَقُولُ: لاَ. فَيَقُولُ: فَإِنِّى أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِى[(٥)].

ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِىَ فَيَقُولُ: أَىْ فُلْ؛ أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الخَيْلَ

---

(١) أي فل: معناه: يا فلان، وهي ترخيم عَلَى خلاف القياس، وقيل: هي لغة بمعنى: فلان.
(٢) أسودك: أي: أجعلك سيِّدًا عَلَى غيرك.
(٣) ترأس: معناه: رئيس القوم وكبيرهم.
(٤) تربع: قال القاضي: معناه: تركتك مُستريحًا لا تحتاج إلى مشقّة وتعب، من قولهم: أربع عَلَى نفسك، أي: ارفق بها.
(٥) فإني أنساك كما نسيتني: أي: أمنعك الرحمة كما امتنعت من طاعتي.

وَالإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى أَيْ رَبِّ. فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاَقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لاَ. فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي.

ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ آمَنْتُ بِكَ وَبِكِتَابِكَ وَبِرُسُلِكَ وَصَلَّيْتُ وَصُمْتُ وَتَصَدَّقْتُ. وَيُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ فَيَقُولُ: هَا هُنَا إِذًا[١]. قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: الآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ.

وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ؟ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ، وَذَلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ. وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللَّهُ عَلَيْهِ»[٢].

قَالَ قَتَادة: «ابن آدم، والله إنَّ عليك لَشُهودًا غيرَ مُتَّهمة مِن بَدَنك، فَراقبهم واتَّق الله في سِرِّك وعلانيتك، فإنَّهُ - أي الله تَعَالَى - لا يَخفى عليه خافية، والظُّلمة عنده ضَوء، والسِّر عنده علانية، فَمَن استطاع أن يَمُوت وهو بالله حسَن الظَّن، فليفعل ولا قُوَّة إلَّا بالله»[٣].

قلت: هذا كلامٌ يُكتب بماء الذهب، فعضّ عليه بالنواجذ.

قال الحافظ ابن كثير -رَحِمَهُ الله -: «وقَدْ روى ابن منده في كتاب «الروح»، عن ابن عبَّاس أنَّهُ قَالَ: يختصم النَّاسُ يوم القيامة، حَتَّى تختصم الرُّوح مع الجسد، فتقول الرُّوح للجسد: أنتِ فَعَلتِ. ويَقُول الجسد للروح: أنتِ أمَرتِ، وأنتِ سَوَّلت.

فيبعثُ الله مَلكًا يَفصِل بَينهُما، فيقول لهما: إنَّ مَثَلَكُما كَمثلِ رجلٍ مُقعَدُ بَصير والآخر ضَريرٌ[٤]، دَخَلَا بُستانًا، فَقَالَ المقعدُ للضَّرير: إني أرى هاهُنا ثِمارًا، ولكن لا أصل إليها. فقال له الضرير: ارْكَبْني فتناولها، فَرَكِبَه فتَنَاولها، فأيُّهما الْمعتَدِي؟

فَيَقُولان: كلاهما.

فيقول لهما الملك: فإنكما قَدْ حَكمتُما عَلَى أنفسكُما - يعني: أنَّ الجسد للروح كالمطيّة

---

(١) هاهنا إذًا: معناه: قف هاهُنا تَشهَد عليك جوارحُك إذ قَدْ صِرت مُنكرًا.

(٢) رواه مسلم (٢٩٦٨).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٤٤).

(٤) الضرير: الأعمى.

وهو راكبه»[١].

فقاوم نفسك - يا عبد الله - وجاهدها جِهاد الأبرار، فإنها أعدَى عدوّك، قال تَعَالَى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

وفَّقني الله وإياكم لِما يُحبّ ويرضى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وهذه لقطات من جهاد الصَّالحين لأنفسهم، عسى أن تُعينكَ عَلَى جهاد نفسك:

اللقطة الأولى: جهاد الإمام مسروق:

قال الشَّعبيُّ: «غُشي عَلَى «مسروق»[٢] في يوم صائف، وكان صائمًا، فقالت له ابنتُه: يا أبتاه أفطر واشرب، فقال لها: ما أرَدت بي يا بُنيّةً؟ قالت: الرِّفق.

قال: يا بُنيّة؛ إنما طلبتُ الرِّفق لِنَفسي في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة».

اللقطة الثانية: جهاد عامر بن عبد الله:

كان عامر -رَحِمَهُ الله - من التابعين، وكان كعب الأحبار يقول عنه: هذا راهب هذه الأُمّة.

وعن تعبّده يقول المُعلَّى بن زياد: كان عامر بن عبد الله إذا صلَّى العصر جلس وقَدْ انتفخت ساقاه من طول القيام[٣]، فيقول: «يا نفس، بهذا أُمرتِ، ولهذا خُلقتِ، يوشك أن يَذهب العَنَاء».

---

(١) «تفسير ابن كثير»

(٢) من التابعين، وكان -رَحِمَهُ الله - من أصحاب ابن مسعود.

(٣) أي: من طول قيام اللَّيْل، وكثرة التنفّل بالنهار.

وكان -رَحِمَهُ الله - يقول لنفسه: «قومي يا مأوى كُلّ سوءة، فوعزة ربِّك لأزحفنَّ بك زحوف البعير، وإن استطعتُ ألا تمسّي الأرض من زَهَمك[١] لأفعلنَّ» ثم يتلوّى كما يتلوّى الحَبُّ عَلَى المِقلاة، ثم يقوم فينادي: «اللَّهُمَّ إنَّ النار قَدْ مَنَعتني من النوم فاغفر لي».

اللقطة الثالثة: جهاد أبي مسلم الخَولاني:

وكان -رَحِمَهُ الله - من التابعين أيضًا، وعن جهاده لنفسه، قال عثمان بن أبي العاتكة: علّق أبو مسلم سوطًا في المسجد، فكان يقول: «أنا أَوْلى بالسَّوط من البهائم»، فإذا فَتَرَ[٢] مَشَقَ[٣] ساقيه سوطًا أَوْ سَوطين.

وكان يقول: «لو رأيتُ الجَنَّة عيانًا، أَوْ النار عيانًا، ما كان عندي مُستزاد».

إيه يا رجال، ما أحلاكم، وما أغلاكم، بارك الله في نبيٍّ عَلَّمكم، وفي دينٍ ربَّاكم.

فكن - أخا الإسلام - عَلَى طريق القوم، فمن تشبّه بقومٍ فهو منهم.

واغتنم صحتك قبل مرضك، وحياتك قبل مماتك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك، وحاسب نفسك قبل الحساب.

لَـمَّا طلع الشَّيب في رأس الإمام الشافعي -رَحِمَهُ الله - أنشد:

خَبَت نارُ نفسي باشتعال مَفارقي ... وأظلم ليلي إذ أضاء شَهابُها

أبا بُومَة قَدْ عَشَّشَت فَوق هَامَتي ... عَلَى الرّغم منِّي حين طار غُرابها

رأيت خراب العُمر مني فزرتني ... ومأواك من كلّ الدّيار خَرابها

أأنعم عَيشًا بعد ما حلّ عَارضي ... طلائِعُ شَيبٍ ليس يُغني خِضَابها

وعزة عُمر المرء قبل مَشيبه ... وقَدْ فَنيت نَفسي تَولَّى شَبَابُها

إذا اصفَر لونُ المرء وابيضّ شَعرهُ ... تَنَغَّص من أيامه مُستطابها

---

(١) **الزهم**: الريح المنتنة.

(٢) أصابه فتور.

(٣) **المشق**: الضرب بسرعة.

فَدعْ عَنكَ سَوآت الأمور فإنَّها حَرامٌ عَلَى نَفْس التَّقى ارتكَابها
وأدِّ زكاةَ الجَاه واعلم بأنَّها كمثل زكاة المال تم نِصابُها
وأحسِن إلى الأحرار تَملك رِقَابَهم فَخَيرَ تجارات الكِرام اكتِسَابها
ولا تَمشينَّ في منكب الأرض فَاخرًا فَعمَّا قليل يحتَويك تُرابُها
ومَن يَذُق الدُّنْيَا فإنِّي طعمتُها وسيق إلينا عَزبها وعَذابَها
فلم أرَها إلا غُرورًا وباطلاً كما لاح في ظَهر الفَلاة سَرَابُها
وما هي إلا جيفة مُستحيلة عليها كلابٌ هَمّهنَّ اجتَذابها
فإن تَجتَنبها كنتَ سلمًا لأهلها وإن تَجتَذبها نازعتك كلابُها
فطوبى لنفسٍ أوطَنت قَعر دَارَها مُغلقة الأبواب مرخي حِجابها

اللَّهُمَّ إنَّا نعوذ بك من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا

۞۞۞۞۞

الخطبة السادسة بعد المائة:

الشفاعة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ الله عَنهُ - قَالَ: كُنَّا مع النَّبِي ﷺ في دَعوةٍ[١]، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ[٢]، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ، فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً[٣] وَقَالَ: «أَنَا سَيِّدُ القَوْمِ يَوْمَ القِيَامَةِ هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذلك؟ يَجْمَعُ اللَّهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَيُبْصِرُهُمْ النَّاظِرُ وَيُسْمِعُهُمْ

(١) أي: في وليمة ونحوها.

(٢) أي: ذراع شاة.

(٣) نهس نهسة: أي أخذ منها بأطراف أسنانه.

الدَّاعِي، وَتَدْنُو مِنْهُمْ الشَّمْسُ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: أَلَا تَرَوْنَ إِلَى مَا أَنْتُمْ فِيهِ إِلَى مَا بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لبعض: أَبُوكُمْ آدَمُ، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ وَأَسْكَنَكَ الْجَنَّةَ، أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؟ أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ وَمَا بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَنَهَانِي عَنْ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفسي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، أَمَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا بَلَغَنَا؟ أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفسي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلاَثَ كَذَبَاتٍ - فَذَكَرَهُنَّ - نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى، فَيَأْتُونَ مُوسَى، فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فَضَّلَكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى، فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا اشْفَعْ لَنَا أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ - وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا - نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ.

فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ

عَلَيْهِمْ مِنَ البَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ، ثُمَّ قَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ المِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَرَ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى»[١].

عباد الله...

في هذا الزمن - زمن الحَولَ الفِكري - هاجم بعضُ أصحاب الفكر المختلط أحاديث الشفاعة الثابتة مُعتقدًا - عَلَى حدّ زعمه - أنَّها تطيلُ الحَبلَ للأشرار، وتقوِّي ظَهر الفُجَّار، وتُعين عَلَى اتِّساع رُقعة المعصية والمخالفة، وتُساعد عَلَى انتشار الجريمة!!

وكم مِن عائب قولاً صحيحًا ... وآفته من الفَهم السَّقيم

ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ، بل تعدَّى فهاهُو أحدهم يقول: «أما الشفاعة بمعنى هدم الناموس وإخراج المذنبين من النار وإدخالهم الجَنَّة فهو فوضى الوسايط التي نعرفها في الدُّنْيَا ولا وجود لها في الآخرة» !!

ويقول: «ولا تستخفنَّكم الروايات والأحاديث التي تدخلكم الجَنَّة بغير حساب لمجرّد أنَّكم تلفظتُم بكلمة التوحيد»!

ويقول أيضًا: «ولم يقل ربُّ العالمين أَنَّهُ حفظ كتاب البخاري أَوْ غيره من كُتب السيرة، وما يقوله البخاري مناقضًا للقرآن يُسأل عنه البخاري يوم الحساب ولا نُسأل نحن فيه»!!

وهكذا...

يَمُدّون للإفتاء باعًا قَصيرةً ... وأكثرهم عند الفتاوى يُكَذلكُ

ولله درُّ الحافظ ابن حجر حين قال: «إذا تكلَّم المرءُ في غَير فَنِّه، أَتَى بهذه العَجَائب». ا.هـ.

أيُّها المسلمون...

إن أحاديث الشفاعة كما قَالَ شيخ الإسلام ابن تيمية: متواترة[٢].

---

(١) رواه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١/ ٣١٤).

ولكن:

قَدْ تنكر العينُ ضَوءَ الشَّمس من رَمَد ... وينكــر الفــمُ طَعــمَ المــاءِ مِــن ســقمِ

- فما معنى الشفاعة؟
- وما الأدلة عليها؟
- وما أنواعها؟

هذا هو موضوع حَديثنا اليوم - إن شاء الله.

أولاً: تعريف الشفاعة:

الشفاعة في اللغة: كلامُ الشّفيع للملك في حاجة يسألها لغيره، والشَّافع: الطالب لغيره، فيشفع به إلى المطلوب(١).

وفي الاصطلاح: السؤال في التجوز عن الذنوب والجرائم(٢).

ثانيًا: أدلة إثبات الشفاعة:

اعلم وفَّقني الله تَعَالى وإيَّاك للصّواب: أن الأدلة عَلَى إثبات الشفاعة من القرآن والسُّنة كثيرة جدًّا.

فمن القرآن:

١- قوله تَعَالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

٢- وقوله تَعَالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس: ٣].

٣- وقوله تَعَالى: ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلَّا لِـمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨].

ومن السُّنة:

١- حديث الشفاعة الطويل المتقدّم.

٢- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ

---

(١) «لسان العرب» (٨/ ١٨٤).

(٢) «النهاية» (٢/ ٤٨٥).

فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا»(١).

٣- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خُيِّرْتُ بَيْنَ الشَّفَاعَةِ أَوْ يَدْخُلَ نِصْفُ أُمَّتِي الجَنَّةَ فَاخْتَرْتُ الشَّفَاعَةَ، لأَنَّهَا أَعَمُّ وَأَكْفَى، أما إنّها ليست للمؤمنين المتقدّمين، ولكنَّها للمُذنبين الخطَّائين المُتلوِّثين»(٢).

وغير ذَلِكَ من الأحاديث.

ثالثًا: أنواع الشفاعة:

اعلموا - عباد الله - أنَّ الشفاعة نوعان:

الأول: شفاعة مقبولة. وهي أنواع:

فأوّلها: شفاعةُ النَّبيّ ﷺ العظمى:

وهي الشفاعة الخاصّة به ﷺ، حيث يشفع في أهل الموقف عَلَى اختلاف أديانهم من أجل أن يريحهم ربُّهم من مقامهم ذَلِكَ، كما مَرّ معنا في حديث أبي هريرة الطويل.

وهذه الشفاعة هي «المقام المحمود» الَّذِي وعد الله تَعالَى نبيّه ﷺ في قوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

ويدلّ عَلَى أن «المقام المحمود» هو الشفاعة العظمى في أهل الموقف: قوله ﷺ: «إِنَّ الشَّمْسَ تَدْنُو يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يَبْلُغَ العَرَقُ نِصْفَ الأُذُنِ، فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ اسْتَغَاثُوا بِآدَمَ، ثُمَّ بِمُوسَى، ثُمَّ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فَيَشْفَعُ لِيُقْضَى بَيْنَ الخَلْقِ، فَيَمْشِي حَتَّى يَأْخُذَ بِحَلْقَةِ البَابِ، فَيَوْمَئِذٍ يَبْعَثُهُ اللَّهُ مَقَامًا مَحْمُودًا، يَحْمَدُهُ أَهْلُ الجَمْعِ كُلُّهُمْ»(٣).

وفي القيامة تَبدُو شَمس رُتبته ... كأنَّها فوق هَامِ الخَلقِ إكليلُ
يَجُرُّ في الحَشر ذَيلاً من سيادته ... يفضله كلُّ خَلق الله مَشمُولُ

---

(١) رواه مسلم.
(٢) صحيح: رواه أحمد، والطبراني، واللفظ له، وانظر «صحيح الجامع» (٣٣٣٥).
(٣) رواه البخاري.

حَـيثُ الـشَفاعةُ لا تَرضـى سِـواه قَــوَي لِخُطبــتِها الغُــرُّ البَهالــيلُ
قَـدْ أحجَـم الرُسلُ حَتَّى قَالَ قائلهم: في ظـلِّ أحمـدَ يـا كُـلَّ الـوَرَى قـيلوا
يُــرَى هُــنَالِك مَــشغُولا بأمَّــته والكـلُّ بالـنَّفس عـن كُـلٍّ مَـشاغِيلُ
مَقَامُــه تَــمَّ مَحمُــودٌ وفي يَــدِهِ فَـوقَ الجَمـيع لَـواء الحَمـدِ مَحمُـول
هـذا هـو الجُـودُ ضَـيفِ الله خُصّ به مُحَمَّــد ولكــلِّ الخَلــق تطفِــيلُ
وهـو الـشَفيعُ إذا حَـلَّ العُـصاةُ لظًـى إذ لــيس يــنفعُ أهــلٌ ولا مــالُ
مـنك الـشّفاعة أرجـو في المعـاد غـدًا في يــومٍ لا نافــعٌ قــالَ ولا قــيلُ

ثانيها: شفاعته ﷺ في أقوام قَدْ تساوت حسناتهم وسيئاتُهم، فيشفع ليدخلوا الجَنَّة:

وقال بعض أهل العلم: هم أهل الأعراف، وهذه الشفاعة ذكرها ابنُ كثير وابن حجر، وذكرها شارح الطحاوية.

وذكر الحافظ في «الفتح» (١٣/ ٢٥٠): أن مستند هَذِهِ الشفاعة ما أخرجه الطبرانيّ عن ابن عبَّاس، قَالَ: «السّابق بالخيرات: يدخل الجَنَّة بغير حساب، والمقتصد: برحمة الله، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف: يدخلون الجَنَّة بشفاعة مُحَمَّد ﷺ».

ثالثها: شفاعته ﷺ في رفع درجات من يدخل الجَنَّة فيها فوق ما كان يقتضيه ثوابُ أعمالهم:

ودليل هذا النوع من الشفاعة: ما ثبت في الصحيحين وغيرهما من رواية أبي موسى الأشعري رَضِيَ الله عَنْهُ لَـمَّا أُصيب عَمُّه أبو عامر في غزوة أوطاس، فلما أخبر أبو موسى رَسُول الله ﷺ بذلك، توضأ رَسُول الله ﷺ ورفع يديه وقال: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعُبَيْدٍ أَبِي عَامِرٍ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَوْقَ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِكَ**».

رابعها: الشفاعة في أقوام يدخلون الجَنَّة بغير حساب:

ويمكن أن يُستَشهد لهذا بحديث عُكّاشة بن محصين حيث دعا له الرسول ﷺ أن يجعله من السبعين ألفًا الذين يدخلون الجَنَّة بغير حساب، والحديث في الصحيحين.

ويستدلّ عَلَى هذا النوع من الشفاعة أيضًا، بحديث أبي هريرة الطويل الَّذِي مرّ، وفيه أن النَّبيّ ﷺ قَالَ: «أُمَّتِى يَا رَبِّ، أُمَّتِى يَا رَبِّ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ».

كما يستدلّ أيضًا بحديث أَبَا أُمَامَةَ الْبَاهِلِيَّ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «وَعَدَنِى رَبِّى سُبْحَانَهُ أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِى سَبْعِينَ أَلْفًا لاَ حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلاَ عَذَابَ، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا وَثَلاَثُ حَثَيَاتٍ مِنْ حَثَيَاتِ رَبِّى عَزَّ وَجَلَّ»[١].

خامسها: شفاعته ﷺ في تخفيف العذاب عمن يستحقه:

كشفاعته في عمّه أبي طالب أن يُخفف عنه عذابه، فعن الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا أَغْنَيْتَ عَنْ عَمِّكَ؟ فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ. قَالَ: «هُوَ فِى ضَحْضَاحٍ[٢] مِنْ نَارٍ، وَلَوْلاَ أَنَا لَكَانَ فِى الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»[٣].

وفي رواية ثانية: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَبَا طَالِبٍ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَنْصُرُكَ فَهَلْ نَفَعَهُ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ، وَجَدْتُهُ فِى غَمَرَاتٍ[٤] مِنَ النَّارِ فَأَخْرَجْتُهُ إِلَى ضَحْضَاحٍ»[٥].

قلت: والمنفعة هنا منفعة تخفيفٌ، لا منفعة إخراج من النار، لأن شفاعة الإخراج من النار لا تطال الكفار، قَالَ الله تَعَالى عن الكافرين: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

سادسها: شفاعته ﷺ أن يؤذن لجميع المؤمنين في دخول الجَنَّة:

والدليل عَلَى هذا النوع من الشفاعة: ما ثبت في «صحيح مسلم» عن أنسٍ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «آتِى بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لاَ أَفْتَحُ لأَحَدٍ قَبْلَكَ».

---

(١) رواه الترمذي في «صفة القيامة» باب (١٢) (٤/ ٦٢٦)، وغيره.

(٢) **الضحضاح**: ما رقّ من الماء عَلَى وجه الأرض إلى نحو الكعبين، واستعير في النار.

(٣) رواه مسلم (٣٥٧) (٢٠٩).

(٤) **الغمرات**: واحدتها: غمرة، بإسكان الميم، وهي المعظّم من الشيء.

(٥) روه مسلم (٣٥٨) (٢٠٩).

سابعها: شفاعته ﷺ في أهل الكبائر من أُمته ممَّن دخل النار فيخرجون منها:

عَنْ جابرٍ رَضِيَ الله عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**شَفَاعَتِي لأَهْلِ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي**»[(١)].

قَالَ الإمام ابنُ القيِّم - رَحِمَهُ الله -: «وأكثر الأحاديث صريحة في أن الشفاعة في أهل التوحيد من أرباب الكبائر إنَّما تكون بعد دخولهم النار، وأما أن يشفع فيهم قبل الدخول فلا يدخلون فلم أظفر به بنصّ» ا.هـ[(٢)].

قلت: وهذا الَّذِي قاله يوافق النصوص القرآنية، منها:

قوله تَعَالَى: ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾ [الجاثية: ٢١].

وقوله تَعَالَى: ﴿**أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ**﴾ [ص: ٢٨].

وهذه الشفاعة تشاركه فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون أيضًا.

نسأل الله تَعَالَى أن يُحيينا عَلَى سُنّته، وأن يتوفّنا عَلَى مِلَّته، وأن يرزقنا شفاعته.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وقَدْ اتَّفق أهلُ العلم عَلَى أن للشفاعة شرطين:

الشرط الأول: الإذن للشّافِع أن يَشفع، لقوله تَعَالَى: ﴿**مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ**﴾ [البقرة: ٢٥٥].

والشرط الثاني: رضا الله عن المشفوع؛ لقوله تَعَالَى: ﴿**وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى**﴾ [الأنبياء: ٢٨].

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد في «المسند» وأبو داود، وغيرهما، وانظر «صحيح الجامع» (٣٧١٤).

(٢) «تهذيب السنن» (٢/ ١٣٤).

الثاني شفاعة مرفوضة: وهي الشفاعة التي يتعامل بها النَّاس في الدُّنْيَا، حيث يشفع الشافع وإن لم يرض الَّذِي شفع عنده، وقَدْ يكره من شفع عنده عَلَى قبول شفاعة الشافعين لعظم منزلتهم وقوّتهم وبأسهم، وهذه هي الشفاعة التي يعتقدها المشركون والنصارى في آلهتهم، ويعتقدها المبتدعون من هَذِهِ الأُمة في مشايخهم، وقَدْ أكذب الله أصحابها، فلا أحد يشفع في ذَلِكَ اليوم إلَّا بإذن الله، ولا يشفع إلَّا إذا رضي الله عن الشافع والمشفوع، ولِذَلِكَ فإن والد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام لَـمَّا مات كافرًا لم يقبل الله تَعَالى شفاعة خليله فيه في ذَلِكَ اليوم[١].

عباد الله...

ومِمَّا سبق يتبيّن لنا: أن الشفاعة ثابتة، ولها شروطها، وهي نافعة للموحّدين المذنبين دون الكافرين.

مَن كذَّب بها حُرم منها، فقد أخرج سعيد بن منصور بسندٍ صحيحٍ عن أنسٍ قَالَ: «مَن كَذَّب بالشّفاعة، فلا نَصِيبَ له فيها».

اللَّهُمَّ إنا نوقن بشفاعة نبيِّنا فلا تحرمنا منها، إنك أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين



(١) «القيامة الكبرى» د. الأشقر (١٩٠).

الخطبة السابعة بعد المائدة:

الميـــزان

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فإن الميزان حق.

قال تَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

قَالَ ابن كثير - رَحِمَهُ الله - في تفسيره هذه الآية: «وقوله: ﴿وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أي: ونضع الموازين العدل ليوم القيامة. الأكثر: على أَنَّهُ إِنَّما هو ميزان واحد، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه.

وقوله: ﴿فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، وقال لقمان: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦].

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ» ا.هـ[١].

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ * فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَلْفَحُ وَجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١- ١٠٤].

قَالَ ابن كثير - رَحِمَهُ الله -: «يُخبِرُ تَعَالى أَنَّهُ إِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نفخةُ النُّشُورِ، وقَامَ النَّاس مِن القُبورِ، ﴿فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لا تَنفعُ الأَنسَابُ يومئذٍ، ولا يَرثِي والدٌ لولدهِ، وَلَا يَلوي عَلَيهِ، قال الله تعالى: ﴿وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ [المعارج: ١٠، ١١] أي: لا يَسأَلُ القَريبُ قَريبهِ وهُوَ يُبصِرُهُ، ولو كَانَ عَليهِ مِن الأَوْزَارِ مَا قَدْ أَثْقَلَ ظَهرَهُ، وهُوَ كَانَ أعزُّ النَّاس عَليهِ، كَانَ فِي الدُّنْيَا مَا التَفَتَ إليهِ وَلَا حَمَلَ عَنْهُ وَزْنُ جَنَاحِ بَعُوضَةٍ، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤- ٣٧].

وقوله: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: مَن رَجَحَت حَسَناتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ ولو بِوَاحِدَةٍ، قَالهُ ابن عبَّاس. ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الَّذِين فَازُوا فَنَجوا مِن النَّار وأُدخِلُوا الجَنَّة. وقال ابن عبَّاس: أُولئِكَ الَّذِين فَازُوا بِمَا طَلَبُوا، ونَجَوا مِن شَرِّ مَا مِنْهُ هَرَبُوا.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي: ثَقُلَت سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَناتِهِ ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: خَابُوا وهَلَكُوا، وبَاؤوا بِالصَّفقةِ الخَاسِرَةِ. ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ أي:

---

(١) «صحيح تفسير ابن كثير» (٣/ ١٥٦).

مَاكِثُون، دَائِمُون مُقِيمُونَ فَلا يَظْعَنُون. ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾، كما قَالَ تَعَالى: ﴿وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠].

وقَوْلُهُ تَعَالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ قِيل: يَعني: عَابِسُون» ا.هـ.

عباد الله...

والميزان هو ميزان حقيقيّ له كفّتان ولسان، يزن مثاقيل الذرّ، وهو ميزان عظيم.

قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**يُوضعُ الميزانُ يوم القِيامة، فلو وُزِنَ فيه السَّمواتُ والأرض لَوَسِعَت، فتقول الملائكةُ: يا ربّ لِمَن يَزنُ هذا؟ فيقول الله تَعَالى: لمن شئتُ مِن خَلقي، فتقول الملائكة: سُبحانك ما عبدناك حَقّ عِبَادَتك**»[1].

وقَدْ ذهبت المعتزلة إلى أَنَّهُ كناية عن عدل الله، وليس هناك ميزان حقيقي!!

وهذا القول ليس بشيء، لِما تقدَّم من أدلة، ولِما سيأتي:

عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رضي الله عنهما قَالَ: سمعتُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقولُ: «**إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الخَلاَئِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلاًّ[2]، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ[3]، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ.**

فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لاَ ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ[4] فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلاَّتِ؟

فَقَالَ: إِنَّكَ لاَ تُظْلَمُ.

قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلاَّتُ فِي كِفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلاَّتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ

---

(١) أخرجه الحاكم من حديث سلمان، وصححه، ووافقه الذهبي، وانظر «الصحيحة» (٩٤١).

(٢) **السّجل**: الكتاب يدوّن فيه ما يُراد حفظه.

(٣) **مد البصر**: ما انتهى إليه.

(٤) **البطاقة**: الرقعة.

فَلاَ يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ»[(١)].

عباد الله...

هَذِهِ قصّة رَجُلٍ من هَذِهِ الأُمة، يقف يوم القيامة مَعَ الخلائق للحساب، ينتظر حُكم الله تَعَالَى فيه.

أسرف في الدُّنْيَا عَلَى نفسه، واقترف كثيرًا من الآثام، ولم يفكر يومًا في العودة إلى ربه، إلَّا أَنَّهُ كان صحيح الاعتقاد في الله تَعَالَى.

ومن رحمة الله تَعَالَى به أَنَّهُ خرج من الدُّنْيَا عَلَى التوحيد.

وليس كُلّ مَن خرج من الدُّنْيَا مُوحِّدًا سيكون هذا حاله، فسيأتي أَنَّ عُصاة الموحِّدين سيدخلون النار، ثم يخرجون منها بعد تصفيتهم من أوزارهم.

ونعتقد نحن - أهل السُّنة - أَنَّ مَن مات مُوحِّدًا، فأمره إلى الله تَعَالَى إن شاء عذَّبه وإن شاء غفر له. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِـمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦].

عباد الله...

وبينما هو يقف شاخص البصر، واجِف القَلب، قَدْ أحاط به عَرقُهُ، وغشَاهُ كَربُهُ، إذا به يسمع صائحًا ينادي عليه باسمه: «يا فلان ابن فلان هَلُم للحساب».

ويعجز القلب عن وصف حاله حينئذٍ.

وكأنِّي به، وقَدْ ساقته الملائكةُ للوقوف بين يدي الواحد الديَّان.

وها هو يخترق الصفوف، ولا يدري ما الله صانع به، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢١، ٢٢].

وها هو يقف بين يدي الخلاق العليم، وبينما هو كَذَلِك، إذا بصحائف سيئاته تُنشر وتُعرض عليه، تسعة وتسعين سِجِّلًا، كُلّ سِجلٍّ مَدّ البصر.

---

(١) صحيح: «صحيح سنن الترمذي» (٢١٢٧).

فأيقن عند ذَلِكَ بالبوار، وظنّ أَنَّهُ مِن أهل النار، ثم دار بينه وبين رب العالمين هذا الحوار:

قَالَ له ربُّه: أتُنكِر مِن هذا شيئًا؟

قَالَ: لا يا رب.

قَالَ الله: أظلمك كتبتي الحافظون؟

قَالَ: لا يا رب.

قَالَ الله: أفلك عُذرٌ؟ وفي رواية ابن ماجه: ألك عُذرٌ؟ ألك حَسَنةٌ؟

قَالَ: لا يا رب.

فيقول الله تَعَالَى: بلى، إن لك عندنا حسنة، وفي رواية ابن ماجه: حسنات، وإنه لا ظلم عليك اليوم.

فتُخرجُ له بطاقةٌ (رُقعةٌ) فيها: «أشهد أن لا إله إلَّا الله، وأن مُحَمَّدًا عَبدهُ ورسولُهُ».

ثم يقول: احضُر وزنَك.

فيقول: يا ربّ، ما هَذِهِ البطاقة مَعَ هَذِهِ السِّجلات؟

كلامٌ يدلّ عَلَى أَنَّهُ فقد الأمل في النجاة.

فيقول الله تَعَالَى: إنك لا تُظلم.

فتوضع السِّجلات في كِفّة السَّيِّئات، والبطاقة في كِفّة الحسنات، ثم كانت المفاجأة التي لم يكن يتوقعها الرجل: طاشت السِّجلات وثقلت البطاقة.

ثم قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**ولا يَثقُل مَعَ اسم الله شيء**».

إخواني...

جزاء الأعمال بالميزان عسير، والوقوف بين يدي المولى بظلمة المعاصي خطير، فإلى متى في المطال والعمر قصير.

لا تدري هول ما أنت إليه تصير.

وستندم إذا بُعثر ما في القبور، ونُفخ في الصُّور، وحُصِّل ما في الصدور.

ما احتيالي وأمر ربِّي عَصَيتُ حين تُبدي صحائفي ما جَنَيت

ما احتيالي إذا وقفتُ ذليلاً قَدْ نهاني وما رآني انتهيت

يا غَنيًّا عن العباد جميعًا وعليمًا بكل ما قَدْ سَعَيت

ليس لي حُجَّة ولا لي عُذر فاعفُ عن زَلتي وما قَدْ أتَيت

أخي...

كيف حالك إذا بلغت القلوب الحناجر؟

كيف حالك إذا اشتدّ عطش المفرّطين من شدّة الهواجر؟

يا رب...

يا مَن يُجيب العبدَ قبل سُؤاله ويجودُ للعاصين بالغُفران

وإذا أتاه الطالبون لِعَفوهِ سَتَرَ القَبيحَ وجَادَ بالإحْسَانِ

يا رب...

يا بارِي الكَونَ في عزٍّ وتمكينِ وكُلّ أمر جَرَى بالكافِ والنّون

يا مَن لطفت بحَالي قَبل تكويني لا تَجعل النَّار يَومَ الحَشر تَكويني

عباد الله...

ومن الدروس التي نخرج بها من هَذِهِ القصّة:

الدرس الأول: بيان دقة الحساب.

الدرس الثاني: بيان الدِّقة في تدوين أعمال بني آدم ونَسخها.

وهذا ظاهرٌ في القصة، وقَدْ دلّت عَلَى هَذِهِ الدِّقة آياتٌ كثيرة، منها:

١ - قوله تَعَالَى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

قَالَ ابن عبَّاس: ﴿طَائِرَهُ﴾ عمله وما قدرَ عليه من خير وشرّ، وهو ملازمه أينما كان.

وَلَـمَّا قرأ السّوار العدوي - رَحِمَهُ الله - هَذِهِ الآية قَالَ: «هما نشرتان وطيَّة، أمَّا ما حييت يا ابن آدم فصحيفتك المنشورة فَأملِ فيها ما شئت، فَإِذَا مِتَّ طُويت حَتَّى إذا بُعثت نُشرَت».

وقال الحسن: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ يقرأ الإنسان كتابه أُمِّيًا كان أو غير أُمِّي.

﴿كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي: محُاسبًا.

وقال بعض الصُّلحاء: «هذا كتاب، لسانُك قلمك، وريقك مَداده، وأعضاؤك قِرطاسه، أنت كُنت المُمِلي عَلَى حَفَظتك، ما زِيد فيه ولا نُقِص منه، ومتى أنكرت منه شيئًا يكون فيه الشّاهد منك عيك».

٢- وقال تَعَالَى: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨، ٢٩].

قَالَ الإمام القرطبيُّ - رَحِمَهُ الله - في تفسيره لهاتين الآيتين: «قوله تعالى: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أي من هول ذلك اليوم. والأُمّة هنا: أهل كُل ملّة. ﴿جَاثِيَةً﴾ باركة على الرُّكب، قاله الحسن

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ قال يحيى ابن سلام: إلى حسابها. وقيل: إلى كتابها الذي كان يستنسخ لها فيه ما عملت من خير وشر، قاله مقاتل.

﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ مِن خير أو شر.

قوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا﴾ قيل: مِن قول الله لهم. وقيل: من قول الملائكة.

﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ أي: يشهد. وهو استعارة، يقال: نطق الكتاب بكذا أي: بيّن. وقيل: إنهم يقرءونه فيذكرهم الكتاب ما عملوا، فكأنه ينطق عليهم.

﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: نأمر بنسخ ما كنتم تعملون.

قال الحسن: نستنسخ ما كتبته الحفظة عَلَى بني آدم، لأن الحفظة ترفع إلى الخزنة صحائف الأعمال» ا.هـ[1].

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٦/ ١٦٢/ ١٦٣) بتصرف.

الدرس الثالث: بيان فضل كلمة التوحيد.

وهذا ظاهرٌ في القصة، وذَلِكَ في قوله ﷺ: «**فَتُوضَعُ السِّجِلاَّتُ فِي كِفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلاَّتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ فَلاَ يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ**».

فيجب عليك أيُّها المسلم أن تعرف لهذه الكلمة الطَّيِّبة قَدرها، واحذر من تسرّب الشرك إليك وأنت لا تشعر، واعلم أن المسلم قَدْ يرتد عن دينه بأنواع كثيرة من النواقض (نواقض الإسلام) التي تحلّ دمه وماله، ويكون بها خارجًا عن الإسلام.

ومن أخطر هَذِهِ النواقض وأكثرها وقوعًا عشرة نواقض:

الأول: الشّرك في عبادة الله. قَالَ تَعَالَى: ﴿**إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ**﴾ [المائدة: ٧٢].

ومن ذَلِكَ: دعاء الأموات والاستغاثة بهم والنّذر والذّبح لهم.

الثاني: مَن جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة ويتوكّل عليهم فقد كفر إجماعًا.

الثالث: مَن لم يُكفّر المشركين أو شكّ في كفرهم أو صحّح مذهبهم، كفر.

الرابع: مَن اعتقد أن هدي غير النَّبيّ ﷺ أكمل من هديه، أو أن حُكم غيره أحسن من حُكمه، كالذين يفضّلون حُكم الطواغيت عَلَى حكمه، فهو كافر[١].

الخامس: مَن أبغض شيئًا ممَّا جاء به الرسول ﷺ ولو عمل به فقد كفر، لقوله تَعَالَى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ**﴾ [محمد: ٩].

السادس: من استهزأ بشيء من دين الرسول ﷺ أو ثوابه أو عقابه، كفر. والدليل قوله تَعَالَى: ﴿**قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ * لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ**

---

(١) أما من حكم بغير ما أنزل الله، ولا يكون مستحلًّا، ولا جاحدًا، ولا مُكذِّبًا، ولا مُفضّلًا، ولا مساويًا، ولا ينسب الحكم الَّذِي جاء به لدين الله، فهو كفر دون كفر، لا يخرجَ صاحبه من الملّة.
قال القرطبيّ في تفسير قوله تَعَالَى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ الله فَأُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، يحتجّ بظاهره مَن يكفّر بالذنوب، وهم الخوارج، ولا حُجّة لهم فيه. انظر «المفهم» (٥/ ١١٧)، وللمزيد حَتَّى لا تقع في تكفير الحكام بغير علم راجع كتاب: «الحكم بغير ما أنزل الله» لبندر بن نايف العتيبي، فإنَّهُ مهم جدًّا.

إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

السابع: السِّحر، ومنه الصَّرف، والعَطف، فمن فعله أو رضي به كفر، والدليل قوله تَعَالَى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

الثامن: مظاهرة المشركين ومعاونتهم عَلَى المسلمين[١]، والدليل قوله تَعَالَى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

التاسع: مَن اعتقد أن بعض النَّاس يسعه الخروج عن شريعة مُحَمَّد ﷺ، فهو كافر. لقوله تَعَالَى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

العاشر: الإعراض عن دين الله، لا يتعلّمه ولا يعمل به، والدليل قوله تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢][٢].

عباد الله...

ذَكَرَ هَذِهِ النواقض العشرة شيخُ الإسلام مُحَمَّد بن عبد الوهاب - رَحِمَهُ الله - وهي تحتاج إلى تفصيل وشرح، حَتَّى لا يقع الإنسان في التكفير بغير علم، ومِن الكتب التي تناولت هَذِهِ النواقض بالشرح بفهم السَّلف الصَّالح: كتاب «الإكمال بتقريب شرح نواقض الإسلام» لفضيلة الشيخ عبد العزيز ريّس آل ريس[٣] - حفظه الله - فارجعوا إليه، فقد أجاد فيه وأفاد.

عباد الله...

والدرس الرابع: بيان سعة رحمة الله تَعَالَى.

يدل عَلَى ذَلِكَ: عفو الله تَعَالَى عن هذا الرجل مَعَ أن ذُنوبه وخطاياه ملأت تسعة وتسعين سجِّلًا، كُلّ سِجل مَدّ البصر.

وهذه القصة تلتئم مَعَ قول النَّبيّ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي

---

(١) الموالاة الباطنة؛ كفر. والموالاة الظاهرة فقط معصية.
(٢) راجع شرح هذه النواقض في كتاب «شرح نواقض الإسلام» لعبد العزيز آل ريس، فإنه مهم.
(٣) ط. دار الإمام أحمد.

وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلاَ أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»(١).

ولا يعني هذا، أن كُلّ مسلم يموت بذنوبه، سيكون حاله كحال هذا الرجل، كيف والله تَعَالى يقول: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

فاحذر - أيُّها المسلم - من الذنوب، لأنَّها كما ذكرنا في غير هذا الموضع قَدْ تكون سببًا في سوء الخاتمة، فيشقى الإنسان بعد موته شقاء لا سعادة بعده أبدًا.

أعاذنا الله من سوء المصير، وعذابِ السَّعير.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ونختم خطبة اليوم بهذه القصة:

قال أحمد بن مسكين الفقيه البغدادي رحمه الله: «إني امتحنت بالفقر في سنة تسع عشرة ومائتين، وانحسمت مادتي، وقحط منزلي قحطًا شديدًا، جمع علي الحاجة، والضر والمسكنة، فلو انكمشت الصحراء المجدبة فصغرت، ثم صغرت حتى ترجع أذرعا في أضرع، لكانت هي داري يومئذ في محلة باب البصرة من بغداد.

وجاء يوم صحراوي كأنما طلعت شمسه من بين الرمل، لا من بين السحب، ومرت الشمس على داري في بغداد مرورها على الورقة الجافة المعلقة في الشجرة الخضراء، فلم يكن عندنا شيء يسيغه حلق آدمي، إذ لم يكن في الدار إلا ترابها وحجارتها وأجذاعها، ولى امرأة ولي منها طفل صغير، وقد طوينا على جوع يخسف

(١) صحيح: أخرجه الترمذي، وغيره.

بالجوف خسفا كما تهبط الأرض، فلتمنيت حينئذ لو كنا جرذانا فنقرض الخشب، وكان جوع الصبي يزيد المرأة ألما إلى جوعها، وكنت بهما كالجائع بثلاثة بطون خاوية.

فقلت في نفسي: إذا لم نأكل الخشب والحجارة فلنأكل بثمنها، وجمعت نيتي على بيع الدار، والتحول عنها، وإن كان خروجي منها كالخروج من جلدي، لا يسمى إلا سلخًا وموتًا، وبت ليلتي وأنا كالمثخن حمل من معركة، فما يتقلب إلا على جراح تعمل فيه عمل السيوف والأسنة التي عملت فيها.

ثم خرجت بفلس لصلاة الصبح، ولما قضيت الصلاة رفع الناس أكفهم يدعون الله، جرى لساني بهذا الدعاء: اللهم بك أعوذ أن يكون فقري في ديني، وأسألك النفع الذي يصلحني بطاعتك، وأسألك بركة الرضا بقضائك، وأسألك القوة على الطاعة، والرضا يا أرحم الراحمين.

ثم جلست أتأمل شأني، وأطلت الجلوس في المسجد كأني لم أعد من أهل الزمن، فلا تجري على أحكامه، حتى إذا ارتفع الضحى وابيضت الشمس جاءت حقيقة الحياة، أتيت لبيع الدار، وانبعثت وما أدري أين أذهب، فما سرت غير بعيد حتى لقيني أبو نصر الصياد، وكنت أعرفه قديما، فقلت: يا أبا نصر، أنا على بيع الدار، فقد ساءت الحال وأحوجت الخصاصة، فأقرضني شيئا يمسكني على يومي هذا بالقوام من العيش حتى أبيع الدار وأوفيك.

فقال: خذ هذا المنديل إلى عيالك وأنا على أثرك لاحق بك إلى المنزل، ثم ناولني منديلًا فيه رقاقتان بينهما حلوى، وإنهما والله من الشيخ.

قلت: من الشيخ وما القصة؟

قال: وقفت أمس على باب هذا المسجد، وقد انصرف الناس من صلاة الجمعة، فمر بي بشر الحافي، فقال: ما لي أراك في هذا الوقت؟

قلت: ما في البيت دقيق، ولا خبز، ولا درهم، ولا شيء يباع، فقال: الله المستعان، احمل شبكتك وتعالى إلى الخندق، فحملتها وذهبت معه، فلما انتهينا إلى الخندق قال لي:

توضأ وصلِّ ركعتين، ففعلت، فقال: سم الله تعالى، وألق الشبكة، فسميت وألقيتها، فوقع فيها شيء ثقيل، فجعلت أجره فشق علي، فقلت له ساعدني فإني أخاف

أن تنقطع الشبكة، فجاء وجرها معي، فخرجت سمكة عظيمة لم أر مثلها سمنا وعظما وفراهة.

فقال: خذها وبعها واشتر بثمنها ما يصلح عيالك، فحملتها فاستقبلني رجل اشتراها، فابتعت لأهلي ما يحتاجون إليه، فلما أكلت وأكلوا ذكرت الشيخ فقلت أهدي له شيئا، فأخذت هاتين الرقايتين وجلعت بينهما هذه الحلوى، وأتيت إليه فطرقت الباب، فقال: من؟ قلت: أبو نصر.

قال: افتح، فدخلت وحدثته بما صنعت، فقال: الحمد لله على ذلك. فقلت: إني هيأت للبيت شيئا، وقد أكلوا وأكلت ومعي رقاقتان فيهما حلوى.

قال: يا أبا النصر، لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة، اذهب كله أنت وعيالك.

قال أحمد بن مسكين: وكنت من الجوع بحيث لو أصبت رغيفا لحسبته مائدة أنزلت من السماء ولكن كلمة الشيخ عن السمكة أشبعتني شبعا ليس من هذه الدنيا، كأنما طعمت منها ثمرة من ثمار الجنة.

وأخذت الرقاقتين وأنا أقول في نفسي: لعن الله هذه الدنيا، ومضيت إلى داري، فلما كنت في الطريق لقيتني امرأة معها صبي، فنظرت إلى المنديل، وقالت: هذا طفل يتيم جائع، ولا صبر له على الجوع، فأطعمه شيئا يرحمك الله، ونظر إلى الطفل نظرة لا أنساها، حسبت فيها خشوع ألف عابد، وخيل إلي حينئذ أن الجنة نزلت إلى الأرض تعرض نفسها على من يشبع هذا الطفل وأمه، والناس عمي لا يبصرونها.

وذكرت امرأتي وابنها وهما جائعان منذ أمس، غير أني أجد لهما في قلبي معنى الزوجة والولد، بل معنى هذه المرأة المحتاجة وصبيها، فأسقطتهما عن قلبي، ودفعت ما في يدي للمرأة وقلت لها: خذي وأطعمي ابنك، والله ما أملك بيضاء ولا صفراء، وإن في داري لمن هو أحوج إلى هذا الطعام، فدمعت عيناها، وأشرق وجه الصبي.

وقلت في نفسي: أما أنا فأطوى، فقد كان أبو بكر الصديق يطوى ستة أيام، وكان ابن عمر يطوي، وكان فلان وفلان ممن حفظنا أسماءهم، وروينا أخبارهم، ولكن من للمرأة وابنها، وكيف لي بهما؟!

ومشيت وأنا منكر منقبض، وكأني كنت نسيت كلمة الشيخ: لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة.

فذكرتها وصرفت خاطري إليها وشغلت نفسي بتدبرها وقلت: لو أني أشبعت ثلاثة بجوع اثنين لحرمت خمس فضائل[1]، وهذه الدنيا محتاجة إلى الفضيلة.

وجلست إلى حائط أفكر في بيع الدار ومن يبتاعها، فأنا كذلك إذ مر أبو نصر الصياد، وكأنه مستطار فرحًا، فقال: يا أبا محمد، ما يجلسك ها هنا وفي دارك الخير والغنى؟

قلت: سبحان الله، من أين خرجت السمكة يا أبا بشر؟!

قال: إني لفي الطريق إلى منزلك، ومعي ضرورة من القوت أخذتها لعيالك ودراهم استدنتها لك، إذا رجل يستدل الناس عن أبيك أو أحد من أهله، ومعه أثقال وأحمال، فقلت له: أنا أدلك، ومشيت معه أسأله عن خبره وشأنه عن أبيه.

فقال: إنه تاجر من البصرة، وقد كان أبوك أودعه مالا من ثلاثين سنة، فأفلس وانكسر المال، ثم ترك البصرة إلى خراسان، فصلح أمره على التجارة هناك، وليس بعد المحنة، واستظهر بعد الخذلان، وأقبل جده بالثراء والغنى، فعاد إلى البصرة، وأراد أن يتحلل، فجاءك بالمال وعليه ما كان يربحه في هذه الثلاثين سنة، وإلى ذلك طرائف وهدايا.

قال أحمد بن مسكين: وانقلبت إلى داري فإذا مال جم وحال جميلة، فقلت: صدق الشيخ، لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة.

فلو أن هذا الرجل لم يلق في وجهة أبا نصر في هذه الطريق، في هذا اليوم، في هذه الساعة، لما اهتدى إلي، فقد كان أبي مغمورًا لا يعرفه أحد وهو حي، فكيف به ميتًا من وراء عشرين سنة؟

وآليت ليعلمن الله شكري هذه النعمة، فلم تكن لي همة إلا البحث عن المرأة المحتاجة وابنها، فكفيتها وأجريت عليها رزقا، ثم اتجرت في المال، وجعلت أربه

---

(١) يريد: جوعه، وجوع امرأته، وجوع ابنه، ثم شبع هذه المرأة، وشبع ابنها، فهذه خمس فضائل.

بالمعروف والصنيعة والإحسان، وهو مقبل يزداد ولا ينقص، حتى تمولت وتأثلت.

وكأني قد أعجبتني نفسي، وسرني أني قد ملأت سجلات الملائكة بحسناتي، ورجوت أن أكون قد كتبت عند الله في الصالحين، فنمت ليلة فرأيتني في يوم القيامة، والخلق يموج بعضهم في بعض، والهول هول الكون الأعظم على الإنسان الضعيف، يسأل عن كل ما مسه من هذا الكون، وسمعت الصائح يقول: يا معشر بني آدم، سجدت البهائم شكرًا لله أنه لم يجعلها من آدم، ورأيت الناس وقد وسعت أبدانهم فهم يحملون أوزارهم على ظهورهم مخلوقة مجسمة، حتى لكأن الفاسق على ظهره مدينة كلها مخزيات.

وقيل: وضعت الموازين، وجيء بي لوزن أعمالي، فجعلت سيئاتي في كفة، وألقيت سجلات حسناتي في الأخرى، فطاشت السجلات ورجحت السيئات، كأنما وزنوا الجبل الصخري العظيم بلفافة من قطن، ثم يلقون الحسنة بعد الحسنة مما كنت أصنعه، فإذا تحت كل حسنة شهوة خفية من شهوات النفس، كالرياء، والغرور، وحب المحمدة عند الناس، وغيرها، فلم يسلم لي شيء، وهلكت عني حجتي، إذ الحجة ما يبينه الميزان، والميزان لم يدل إلا على أني فارغ.

وسمعت الصوت: ألم يبق له شيء؟ فقيل: بقي هذا.

وأنظر لأرى ما هذا الذي بقي، فإذا الرقاقتان اللتان أحسنت بهما على المرأة وابنها، فأيقنت أني هالك، فلقد كنت أحسن بمائدة دينار ضربة واحدة فما أغنيت عني، ورأيتها في الميزان مع غيرها شيئا معلقا، كالغمام حين يكون ساقطا بين السماء والأرض، لا هو في هذه ولا هو في تلك.

ووضعت الرقاقتان، وسمعت القائل: لقد طار نصف ثوابهما في ميزان أبي نصر الصياد، فانخذلت انخذالا شديدا، حتى لو كسر نصفين لكان أخف علي وأهون، بيد أني نظرت فرأيت كفة الحسنات قد نزلت منزلة ورجحت بعض الرجحان.

وسمعت الصوت: ألم يبق له شيء؟ فقيل بقي هذا.

وأنظر ما هذا الذي بقي، فإذا جوع امرأتي، وولدي في ذلك اليوم، وإذا هو شيء يوضع في الميزان، وإذا هو ينزل بكفة ويرتفع بالأخرى حتى اعتدلتا بالسوية، وثبت

الميزان على ذلك فكنت بين الهلاك والنجاة.

وأسمع الصوت: ألم يبق له شيء؟ فقيل: بقي هذا.

ونظرت فإذا دموع تلك المرأة المسكينة حين بكت من أثر المعروف في نفسها، ومن إيثاري إياها وابنها على أهلي، ووضعت غرغرة عينها في الميزان ففارت، فطمت كأنها لجة، من تحت اللجة بحر، وإذا سمكة هائلة خرجت من اللجة وقع في نفسي أنها روح تلك الدموع، فجعلت تعظم، ولا تزال تعظم، والكفة ترجح ولا تزال ترجح، حتى سمعت الصوت يقول: قد نجا. وصحت صيحة انتبهت لها، فإذا أنا أقول: لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة[1].



(١) «الموت والاستعداد للرحيل» للشيخ/ مجدي فتحي السيد. ط. دار الصحابة.

الخطبة الثامنة بعد المائة:

حوض النَّبيِّ ﷺ، وقصة المطرودين عنه

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فالإيمان بالحوض من اعتقاد أهل السُّنة والجماعة، فيجب علينا أن نؤمن:

أولًا: بوجوده، وقَدْ دلّت الأحاديث الصَّحيحة عَلَى وجود هذا الحوض، كما سيأتي بعد قليل - إن شاء الله تَعَالَى.

ثانيًا: مادة هذا الحوض، وأَنَّهُ يأتي من الكوثر، يُصب منه ميزابان في هذا الحوض.

قال الشيخ ابن العثيمين -رَحِمَهُ الله -: «نؤمن بمادة هذا الحوض، وأن هذا الحوض يأتي من الكوثر، يصب منه ميزابان في هذا الحوض» اهـ[1].

---

(١) «جامع شروح العقيدة السفارينية» (٦٢٨).

ثالثًا: ماء هذا الحوض. وهو أبيض من الثلج، وأحلى من العسل.

رابعًا: شُرب النَّاس منه بآنية لا بأكفّهم - كما سيأتي إن شاء الله.

خامسًا: يَردُه المؤمنين، ولا يَرِدُه الكافرون والمنافقون، وكذلك لا يرده المبتدعون، -كما سيأتي إن شاء الله تَعَالى.

سادسًا: لكل نبيّ حوض - كما سيأتي.

سابعًا: مَن شرب منه لا يظمأ بعده أبدًا.

هذا، ومن الأحاديث الواردة في إثبات الحوض، الحديث التالي:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**تَرِدُ عَلَيَّ أُمَّتِي الحَوْضَ وَأَنَا أَذُودُ**[1] **النَّاسَ عَنْهُ كَمَا يَذُودُ الرَّجُلُ إِبِلَ الرَّجُلِ عَنْ إِبِلِهِ**». قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَتَعْرِفُنَا قَالَ «**نَعَمْ لَكُمْ سِيمَا**[2] **لَيْسَتْ لأَحَدٍ غَيْرِكُمْ تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ**[3] **مِنْ آثَارِ الوُضُوءِ وَلَيُصَدَّنَّ عَنِّي طَائِفَةٌ مِنْكُمْ فَلاَ يَصِلُونَ**[4] **فَأَقُولُ: يَا رَبِّ هَؤُلاَءِ مِنْ أَصْحَابِي فَيُجِيبُنِي مَلَكٌ فَيَقُولُ: وَهَلْ تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**»[5].

عباد الله...

وفي هذا الحديث الصحيح فوائد منها:

الفائدة الأولى: إثبات الحوض المَورُود للنَّبي ﷺ.

والحوض في الأصل: مجمع الماء.

اعلم أن الحوض مكرمة عظيمة خص الله بها نبيّنا ﷺ.

---

(١) **أذود**: أطرُد وأمنع.

(٢) **السيما**: العلامة.

(٣) **غُرًّا محجلين**: قال أهل اللغة: الغُرّة: بياض في جبهة الفرس، والتحجيل: بياض في يديها ورجليها،قال العلماء: سمي النور الَّذِي يكون عَلَى مواضع الوضوء يوم القيامة غُرًّا وتحجيلًا تشبيهًا بغرة الفرس والله أعلم. «صحيح مسلم بشرح النووي» (٣/ ٤٨٢).

(٤) **فلا يصلون**: أي: لا يصلون إلى الحوض.

(٥) رواه مسلم (٣٣) (٣٤٥).

وهذا الحوض موجود الآن، فقد ثبت في الصحيحين عن النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ خطب ذات يوم في أصحابه، وقال: «**وإني والله لأنظر إلى حَوضِي الآن**»[١].

وقَدْ اشتملت الأخبار عَلَى وصفه، ونحن نرجو أن يرزقنا الله تَعَالى فِي الدُّنْيَا علمه وفِي الآخرة ذوقه، فإن من صفاته: أنَّ مَن شرب منه لم يظمأ أبدًا.

عن أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: «**قَدْرُ حَوْضِي كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ وَصَنْعَاءَ مِنَ الْيَمَنِ، وَإِنَّ فِيهِ مِنَ الأَبَارِيقِ كَعَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ**»[٢].

عن ثَوْبَانُ رَضِيَ الله عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**حَوْضِي مِنْ عَدَنَ إِلَى عَمَّانَ الْبَلْقَاءِ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَكَاوِيبُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا، أَوَّلُ النَّاسِ وُرُودًا عَلَيْهِ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ، الشُّعْثُ**[٣] **رُءُوسًا، الدُّنْسُ**[٤] **ثِيَابًا، الَّذِينَ لاَ يَنْكِحُونَ الْمُتَنَعِّمَاتِ، وَلاَ تُفْتَحُ لَهُمُ السُّدَدُ**[٥]»[٦].

عن أَبِي بَرْزَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**مَا بَيْنَ نَاحِيَتَيْ حَوْضِي كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ إِلَى صَنْعَاءَ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، عَرْضُهُ كَطُولِهِ**[٧]**، فِيهَا مِزْرَابَانِ يَنْثَعِبَانِ مِنَ الْجَنَّةِ مِنْ وَرِقٍ**[٨] **وَذَهَبٍ، أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَبْرَدُ مِنَ الثَّلْجِ، فِيهِ أَبَارِيقُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ**»[٩].

عَنْ سَمُرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا وَإِنَّهُمْ**

---

(١) رواه البخاري (٦٥٩٠)، ومسلم (٢٢٩٦).

(٢) رواه مسلم (٢٣٠٣).

(٣) **الشّعث**: البعيد العهد بدهن رأسه، وغسل وتسريح شعره.

(٤) **الدّنس**: الوسخ.

(٥) أي: لا تفتّح لهم الأبواب.

(٦) **صحيح**: رواه الترمذي، وغيره، وانظر «صحيح الجامع» (٣٠٦٠).

قلت: والحديث لا يعني إهمال النظافة، إنما يعني: أنّ هؤلاء القوم قَدْ شغلهم الجهاد، ومعالي الأمور عن النظر لأنفسهم. والله أعلم.

(٧) قال الشيخ ابن العثيمين: هذا إذًا يقتضي أن يكون مُدَوَّرًا. «شرح العقيدة الواسطية» (٣/ ١٥٩).

(٨) **الورِق**: الفضة.

(٩) **حسن**: أخرجه ابن حبان (٦٤٥٨)، وحسّنه الشيخ شعيب الأرنؤوط.

يَتَبَاهَوْنَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وَارِدَةً، وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدَةً» [(١)].

فهذا رجاءُ رَسُول الله ﷺ، فليرج كُلُّ عبد أن يكون فى جملة الواردين، وليحذر أن يكون مُتمنيًا ومُغترًا وهو يظن أَنَّهُ راج، فإن الرَّاجى للحصاد مَن بث البذر ونقَّى الأرض وسقاها الماء ثُم جلس يرجو فضل الله بالإنبات ودفع الصواعق إلى أوان الحصاد، فأما مَن ترك الحراثة أو الزراعة وتنقية الأرض وسقيها، وأخذ يرجو مِن فضل الله أن ينبت له الحبّ والفاكهة، فهذا مغترٌّ ومتمنّ ليس مِن الراجين فى شيء، وهكذا رجاء أكثر الخلق وهو غرور الحمقى - نعوذ بالله من الغرور والغفلة - فإن الاغترار بالله أعظم من الاغترار بالدُّنيا[(٢)].

قال تَعَالَى: ﴿فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الـحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم باللَّهِ الغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

الفائدة الثانية: إثبات أن النَّبيّ ﷺ لا يعلم ما نحن عليه الآن من أحوال متردية، وتبديل لشرع الله.

يدلّ عَلَى ذَلِكَ قول الله لنبيِّه ﷺ: **«إِنَّكَ لاَ تَدْرِى مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ»**.

وَعن عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا قالت: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ وَهُوَ بَيْنَ ظَهْرَانَىْ أَصْحَابِهِ: **«إِنِّى عَلَى الحَوْضِ أَنْتَظِرُ مَنْ يَرِدُ عَلَيَّ مِنْكُمْ، فَوَاللَّهِ لَيُقْتَطَعَنَّ دُونِى رِجَالٌ فَلأَقُولَنَّ: أَىْ رَبِّ مِنِّى وَمِنْ أُمَّتِى. فَيَقُولُ: إِنَّكَ لاَ تَدْرِى مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ؟[(٣)] مَا زَالُوا يَرْجِعُونَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ»** [(٤)].

وستأتي بعد قليل أحاديث أخرى في هذا المعنى.

وعلى ما تقدَّم: فلا يُنسب جاهل العلم للنبي ﷺ وهو في قبره، ونؤمن أن صلاتنا وتسليمنا عليه ﷺ تبلغه، كما ورد فيما صحّ عنه.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«إِنَّ لله مَلاَئِكَةً**

---

(١) **صحيح:** أخرجه الترمذي، وانظر «صحيح الجامع» (٢١٥١).

(٢) «الإحياء» (٥/ ١٥٦).

(٣) هذا دليل عَلَى خطر البدعة، كما سيأتي.

(٤) رواه مسلم.

سَيَّاحِينَ فِي الأَرْضِ يُبَلِّغُونِي مِنْ أُمَّتِي السَّلَامَ»[١].

وعَنْ أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الجُمُعَةِ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ قُبِضَ وَفِيهِ النَّفْخَةُ وَفِيهِ الصَّعْقَةُ فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلاَةِ فِيهِ فَإِنَّ صَلاَتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ تُعْرَضُ صَلاَتُنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرِمْتَ؟[٢] - يَقُولُونَ: بَلِيتَ - فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ»[٣].

وكذلك نؤمن بإخباره ﷺ بما سيكون في آخر الزمان، لأَنَّهُ من وحي الله تَعَالَى إليه.

الفائدة الثالثة: استحباب تطويل الغُرّة والتَحجيل في الوضوء.

قَالَ الإمام النووي - رَحِمَهُ الله - عقب ذكر الأحاديث الواردة في تطويل الغُرة والتحجيل، ومنها حديث أبي هريرة المتقدّم في رأس هَذِهِ القصة: «اعلم أن هذه الأحاديث مصرحة باستحباب تطويل الغُرّة والتحجيل.

أما تطويل الغُرّة: فقال أصحابنا: هو غسل شيء مِن مقدم الرأس وما يجاوز الوجه زائد على الجزء الذي يجب غسله لاستيقان كمال الوجه.

وأما تطويل التحجيل: فهو غسل ما فوق المرفقين والكعبين، وهذا مستحب بلا خلاف بين أصحابنا، واختلفوا في قدر المستحب على أوجه:

أحدها: أنه يستحب الزيادة فوق المرفقين والكعبين من غير توقيت.

والثاني: يستحب إلى نصف العضد والساق.

والثالث: يُستحب إلى المنكبين والركبتين.

وأحاديث الباب تقتضي هذا كله» ا.هـ[٤].

الفائدة الرابعة: التحذير من الارتداد، والإصرار عَلَى المعاصي، وركوب مَتن البدع. لأن ذَلِكَ كله يوجب الطرد عن حوضه ﷺ يوم القيامة، يدلّ عَلَى ذَلِكَ قوله ﷺ:

---

(١) صحيح.

(٢) **أرمت**: أي: صرت رميمًا.

(٣) **صحيح**: رواه أبو داود، وغيره، وانظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٦٩٥).

(٤) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٣/ ٤٨٢).

«وَلَيُصَدَّنَّ عَنِّى طَائِفَةٌ مِنْكُمْ فَلاَ يَصِلُونَ - يعني إلى الحوض ليشربوا منه - فَأَقُولُ: يَا رَبِّ هَؤُلاَءِ مِنْ أَصْحَابِى فَيُجِيبُنِى مَلَكٌ فَيَقُولُ: وَهَلْ تَدْرِى مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ».

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، منها:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَتَى الْمَقْبُرَةَ فَقَالَ: «السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لاَحِقُونَ وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا».

قَالُوا: أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ الله؟

قَالَ: «أَنْتُمْ أَصْحَابِى وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ».

فَقَالُوا: كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ الله؟

فَقَالَ: «أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلاً لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَىْ خَيْلٍ دُهْمٍ[(١)] بُهْمٍ[(٢)] أَلاَ يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟».

قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قَالَ: «فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ[(٣)] أَلاَ لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِى كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ أُنَادِيهِمْ أَلاَ هَلُمَّ. فَيُقَالُ إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ. فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا»[(٤)].

قَالَ الإمام النووي - رَحِمَهُ الله -: «قوله: «وَهَلْ تَدْرِى مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ» وفي الرواية الأخرى: «قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ. فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا» هذا مما اختلف العلماء في المراد به على أقوال:

أحدها: أنَّ المراد به المنافقون والمرتدون، فيجوز أن يحشروا بالغرة والتحجيل فيناديهم النَّبيّ ﷺ للسيما التي عليهم فيقال: ليس هؤلاء مِمَّا وعدت بهم، إنَّ هؤلاء

(١) الدُّهم: جمع أدهم، وهو الأسود.
(٢) البُهم: فقيل: السُّود أيضًا، وقيل: البُّهم: الَّذِي لا يخالط لونه لونًا سواه، سواء كان أسود أَوْ أبيض أَوْ أحمر، بل يكون لونه خالصًا.
(٣) يعني: أتقدّمهم.
(٤) رواه مسلم (٣٩) (٢٤٩).

بدَّلوا بعدك أي: لم يموتوا على ما ظهر من إسلامهم.

والثاني: أنَّ المراد مَن كان في زمن النَّبيّ ﷺ ثُمَّ ارتد بعده، فيناديهم النَّبيّ ﷺ وإن لم يكن عليهم سيما الوضوء، لما كان يعرفه ﷺ في حياته من إسلامهم فيقال: ارتدوا بعدك.

والثالث: أنَّ المراد به أصحاب المعاصي والكبائر الذين ماتوا على التوحيد وأصحاب البدع الذين لم يخرجوا ببدعتهم عن الإسلام، وعلى هذا القول لا يقطع لهؤلاء الذين يذادون بالنار، بل يجوز أن يزادوا عقوبة لهم ثم يرحمهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالى فيدخلهم الجَنَّة بغير عذاب.

قال أصحاب هذا القول: ولا يمتنع أن يكون لهم غرة وتحجيل، ويحتمل أن يكون كانوا في زمن النبي ﷺ وبعده لكن عرفهم بالسيما.

وقال الإمام الحافظ أبو عمرو بن عبد البر: كُل مَن أحدث في الدِّين فهو مِن المطرودين عن الحوض؛ كالخوارج والروافض وسائر أصحاب الأهواء.

قَالَ: وكذلك الظلمة المسرفون في الجور وطمس الحق، والمعلنون بالكبائر، قَالَ: وكل هؤلاء يخاف عليهم أن يكونوا مِمَّن عنوا بهذا الخبر، والله أعلم» ا.هـ[١].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وبالجملة: فالحديث سوط يُلهِب ظُهور المفسدين والمبتدعين والمرتدين، وأرباب الكبائر المصرّين.

كما أنَّها تُبيِّن أن صلاح الظاهر لا يدلّ عَلَى تقوى الباطن، وتكشف عمَّا تُبتلى به الأُمّة من فئام تظاهروا بالإسلام وقلوبهم أنتن من الجِيف.

وهذا الصَّنف كثر عدده في هذه الأيام.

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٣/ ٤٨٤).

قال عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «يأتي عَلَى النَّاس زمانٌ يحجّون، ويصلّون، ويصومون، وما فيهم مؤمن»[(١)].

وفي رواية: «يأتي عَلَى النَّاس زمانٌ يجتمعون ويُصلّون في المساجد، وليس فيهم مؤمن»[(٢)].

وهذا الحديث له حُكم الرفع؛ لأن مثله لا يُقال من قِبل الرأي، وإنما يُقال عن توقيف.

والمراد بما ذُكر فيه الأكثر والأغلب لا العموم.

وأخرج ابن أبي حاتم عن منصور عن مجاهد: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ قال: الخشوع قلت: ما كنت أراه إلا هذا الأثر في الوجه، فقال: ربما كان بين عيني مَن هو أقسى قلبًا مِن فرعون[(٣)].

فأصلح - أخا الإسلام - ظاهرك وباطنك، وتابع رسولك، وتُب إلى ربّك من المعاصي، والزم سبيل المؤمنين، ولا يضرّك قلّة السّالكين، واستَعِذ بالله من الفتن، ما ظهرَ مِنها وما بَطن.

واعلم أن السلف الصَّالح مع علوّ مكانتهم، وقوّة يقينهم، كانوا يخافون من الكفر بعد الإيمان.

عن أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِى بَكْرٍ رضي الله عَنْهَا قالت: قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «**إِنِّي عَلَى الحَوْضِ حَتَّى أَنْظُرَ مَنْ يَرِدُ عَلَيَّ مِنْكُمْ وَسَيُؤْخَذُ أُنَاسٌ دُونِى، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ مِنِّى وَمِنْ أُمَّتِى. فَيُقَالُ: أَمَا شَعَرْتَ مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ؟ وَاللّهِ مَا بَرِحُوا بَعْدَكَ يَرْجِعُونَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ**».

قَالَ: فَكَانَ ابْنُ أَبِى مُلَيْكَةَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَرْجِعَ عَلَى أَعْقَابِنَا أَوْ أَنْ نُفْتَنَ عَنْ دِينِنَا»[(٤)].

۞۞۞۞۞

---

(١) **إسناده لا بأس به**: رواه أبو شعيب الحرّاني في «فوائده».

(٢) رواه ابن أبي شيبة، والحاكم في «المستدرك» بنحوه، وقال: صحيح الإسناد عَلَى شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبيُّ في «تلخيصه».

(٣) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣١٣).

(٤) رواه مسلم (٢٢٩٣).

الخطبة التاسعة بعد المائة:

الصراط

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنتكلم اليوم - إن شاء الله تَعَالَى - عن الصِّراط.

عباد الله...

قال تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١، ٧٢].

قال ابن كثير -رَحِمَهُ الله -: «كَانَ أَبُو مَيسرَةَ إِذَا أَوَى إلى فِرَاشهِ قَالَ: يَا لَيْتَ أُمِّي لم تَلِدني ثُمَّ يَبْكِي، فَقِيل: مَا يُبكِيكَ يا أبا مَيسرَةَ؟

فَقالَ: أُخْبِرنَا أَنَّا وَارِدُوها، ولم نُخْبَرْ أَنَّا صَادِرُون عَنْهَا .

وعَنْ عَطَاءٍ قَالَ: قَالَ أبو رَاشِدٍ الحَرُوري - وهو نافع بن الأزرق-: ﴿لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء: ١٠٢] فقال ابن عباس: ويلك: أمجنُون أنت؟ أين قَولُهُ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٨]، ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦]، ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلا وَارِدُهَا﴾؟ والله إنْ كَانَ دُعَاءُ مَن مَضَى: اللَّهُمَّ أخرِجنِي مِن النَّار سَالمًا، وأدْخِلني الجَنَّة غَانمًا.

وعَن مُجَاهِد قَالَ: كُنْتُ عند ابن عبَّاس، فَأَتَاهُ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: أَبُو رَاشِدٍ، وهو نَافِع ابن الأَزْرَق، فَقَال لَهُ: يا ابن عبَّاس أَرَأَيت قَولَ الله: ﴿وَإِنْ مِنكُمْ إِلا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾؟ قال: أمَّا أنا وأنْتَ يا أبا رَاشِدٍ فَسَنرِدُهَا، فَانْظُر: هَلْ نَصدُرُ عَنهَا أم لا؟

وعَن عَبْدِ الله بن مَسعُودٍ: في قَولِهِ: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلا وَارِدُهَا﴾ قَالَ: الصِّراطُ عَلَى جَهَنَّم مِثْلُ حدِّ السَّيفِ، فَتَمُرُّ الطَّبَقَةُ الأُولى كَالبَرقِ، والثَّانِيةُ كَالرِّيح، والثَّالثةُ كَأَجْوَدِ الخَيلِ، والرَّابِعَةُ كَأَجْوَدِ البَهَائِم، ثُمَّ يَمُرُّون والملائكة يَقُولون: اللَّهُمَّ سَلِّم سَلِّم.

وعَنْ حَفْصَةَ رضي الله عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّى لأَرْجُو أَلاَّ يَدْخُلَ النَّارَ أَحَدٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ». قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ الله: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ قَالَ: «أَلَمْ تَسْمَعِيهِ يَقُولُ ﴿ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾» [١].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لاَ يَمُوتُ لأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلاَثَةٌ مِنَ الوَلَدِ، تَمَسُّهُ النَّارُ، إِلاَّ تَحِلَّةَ القَسَمِ» [٢].

وعَن قَتَادَةَ: ﴿وَإِنْ مِنكُمْ إِلا وَارِدُهَا﴾ قَالَ: هُوَ المَمَرُّ عَلَيْهَا.

وقَالَ عبد الرَّحمن بن زَيد بن أَسْلَمَ: وُرُودُ الْمُسْلِمِينَ المُرورُ عَلَى الجِسْرِ بَيْنَ ظَهْرَنَيْهَا، ووُرُود المُشرِكِينَ: أَنْ يَدْخُلُوهَا.

---

(١) رواه مسلم (٢٤٩٦).

(٢) رواه مسلم (٢٦٣٢).

وقِيلَ فِي قَولِهِ: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ قَالَ: قَسَمًا واجِبًا، وقيلَ: قَضَاءً.

وقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي: إذا مَرَّ الخَلَائِقُ كُلُّهم عَلَى النَّار، وسَقَطَ فِيهَا مَن سَقَطَ مِنْ الكُفَّار والعُصَاةِ ذَوي المَعَاصِي، بِحَسَبِهِم، نَجَّى الله تَعَالى المُؤمِنينَ المُتَّقِينَ مِنْهَا بِحَسَبِ أعْمَالِهِم. فَجوازُهُم عَلَى الصِّرَاطِ وسُرعَتُهُم بِقَدرِ أعْمالِهِمُ التي كَانت في الدُّنْيَا، ثُمَّ يَشفَعُونَ في أصْحَابِ الكَبَائِر مِن المُؤمِنينَ، فَيَشفَعُ المَلائِكَةُ والنَبِيُّونَ والمُؤمِنُونَ، فَيُخرِجُونَ خَلقًا كَثيرًا قَدْ أكَلَتهُمُ النَّار، إلَّا دَارَات وُجُوهُهُم - وهي مَواضِع السُّجود - وإخْرَاجُهُم إيَّاهُم مِن النَّار بحَسَبِ مَا في قُلُوبِهِم مِن الإيمَانِ، فَيُخرجُونَ أوَّلًا مَن كَانَ في قَلْبِهِ مِثْقَالُ دِينَارٍ مِن إيمَانٍ، ثُمَّ الَّذِي يَلِيهِ، ثُمَّ الَّذِي يَلِيهِ، ثُمَّ الَّذِي يَلِيهِ، حَتَّى يُخرجُونَ مَن كَانَ في قَلْبِهِ أدْنَى أدْنَى أدْنَى مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِن إيمانٍ، ثُمَّ يُخرجُ الله مِنَ النَّار مَن قال يومًا مِن الدَّهرِ: «لَا إلَه إلَّا الله» وإنْ لم يَعْمَل خَيرًا قَطُّ، وَلَا يَبْقَى في النَّار إلَّا مَنْ وَجَبَ عَلَيهِ الخُلُودُ، كَمَا وَرَدَت بِذَلكَ الأحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ ا.هـ.

والصِّراط كما يقول الشيخ ابن العثيمين - رَحِمَهُ الله -: «والصراط في الأصل: هو الطَّريق الواسع المستقيم، وسُمي صِراطاً لأن النَّاس يسلكونه بسرعة لكونه واسعًا ومستقيمًا، ومنه ما يُسمى عندنا الآن بالخط السريع؛ لأنه واسع ومستقيم.

والصِّراط: جِسمٌ يُوضع على جهنم، يصعد منه المؤمنون من أرض المحشر إلى الجنة ولا يصعده إلا المؤمنون، أمَّا الكفار فقد سيقوا إلى جهنم وأُلْقوا فيها.

واختلف العلماء في هذا الصراط: عَلَى قولين:

منهم من قال: إنَّهُ أدقّ مِن الشَّعر وأَحَدُّ مِن السَّيف وأحرُّ من الجمر.

فَلمَّا قيل: إنَّ هذا لا يمكن العبور عليه.

أجابوا: بأنَّ أمور الآخرة لا تُقاس بأمور الدُّنْيَا، وأنَّ الله على كل شيءٍ قدير.

ومنهم من قال: بل إنَّهُ صراطٌ واسع فيه مزلّة ومدحضة، فهو واسع وعليه الشوك كالسعدان، لكن لا يعلم عظمها إلَّا الله سُبْحَانَهُ وتَعَالى، وأيًّا كان فهو مخيفٌ غاية الخوف، ولهذا كان من دعاء الرُّسل عليهم الصلاة والسلام يومئذٍ: «**اللَّهُمَّ سلِّم سلِّم**»،

كما صحّ ذَلِكَ عَن النَّبيِّ ﷺ. ا.هـ[(١)].

عباد الله...

وقَدْ جاء وصف الصراط في السُّنة المطهَّرة:

فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّ نَاسًا فِي زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**نَعَمْ**». قَالَ: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ صَحْوًا لَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ صَحْوًا لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ؟**». قَالُوا: لاَ يَا رَسُولَ الله.

قَالَ: «**مَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ القِيَامَةِ إِلاَّ كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا**[(٢)] **إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ لِيَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ. فَلاَ يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِنَ الأَصْنَامِ وَالأَنْصَابِ إِلاَّ يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلاَّ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ وَغُبَّرِ أَهْلِ الكِتَابِ**[(٣)] **فَيُدْعَى اليَهُودُ فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ اللَّهِ. فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلاَ وَلَدٍ، فَمَاذَا تَبْغُونَ؟**

قَالُوا: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا. فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلاَ تَرِدُونَ، فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ[(٤)] **يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ.**

ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ المَسِيحَ ابْنَ الله. فَيُقَالُ لَهُمْ: كَذَبْتُمْ. ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلاَ وَلَدٍ﴾. فَيُقَالُ لَهُمْ: مَاذَا تَبْغُونَ؟ فَيَقُولُونَ: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا. قَالَ: فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلاَ تَرِدُونَ، فَيُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا[(٥)] **فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ.**

---

(١) «جامع شروح العقيدة السفارينية» (٦٢٦، ٦٢٧) باختصار يسير.

(٢) معناه: لا تضارون أصلًا كما لا تضارون في رؤيتهما أصلًا.

(٣) **غُبَّر أهل الكتاب**: بقاياهم.

(٤) **السراب**: هو الَّذِي يتراءى للناس فِي الأرض القفر والقاع المستوي وسط النَّهار في الحرّ الشديد لامعًا مثل الماء، يحسبه الظمآن ماء حَتَّى إذا جاءه لم يجده شيئًا، فالكفار يأتون جهنم وهم عطاش فيحسبونها ماء فيتساقطون فيها.

(٥) لشدة اتقادها وتلاطم أمواج لهبها، والحطم: الكسر والإهلاك، والحُطَمة: اسم من أسماء النار

حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلاَّ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ تَعَالَى مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ أَتَاهُمْ رَبُّ العَالَمِينَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي أَدْنَى صُورَةٍ مِنَ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا[١]. قَالَ: فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ. قَالُوا: يَا رَبَّنَا فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرَ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ[٢]. فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ. فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ لاَ نُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا - مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا - حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَادُ أَنْ يَنْقَلِبَ[٣]. فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ[٤] فَلاَ يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لله مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلاَّ أَذِنَ اللَّهُ لَهُ بِالسُّجُودِ[٥]، وَلاَ يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إِلاَّ جَعَلَ اللَّهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً[٦]، كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ.

ثُمَّ يَرْفَعُونَ رُءُوسَهُمْ وَقَدْ تَحَوَّلَ فِي صُورَتِهِ[٧] الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَقَالَ: أَنَا رَبُّكُمْ. فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا. ثُمَّ يُضْرَبُ الجِسْرُ[٨] عَلَى جَهَنَّمَ وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ[٩] وَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ».

قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الجِسْرُ؟

قَالَ: «دَحْضٌ مَزِلَّةٌ[١٠]. فِيهِ خَطَاطِيفُ وَكَلاَلِيبُ وَحَسَكٌ[١١] تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا: السَّعْدَانُ، فَيَمُرُّ المُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ العَيْنِ، وَكَالبَرْقِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَالطَّيْرِ، وَكَأَجَاوِيدِ

= لكونها تحطم ما يُلقى فيها.

(١) معنى رأوه فيها: علموها له، وهي صفته المعلومة للمؤمنين، وهي أَنَّهُ لا يشبهه شيء.

(٢) معنى قولهم: التضرّع إلى الله تَعَالَى في كشف هذه الشدة عنهم، وأنهم لزموا طاعته سُبْحَانَهُ وتَعَالَى، وفارقوا في الدُّنْيَا النَّاس الذين زاغوا عن طاعته سُبْحَانَهُ، من قراباتهم وغيرهم مِمَّن كانوا يحتاجون في معايشهم ومصالح دنياهم إلى معاشرتهم للارتفاق بهم.

(٣) معناه - والله أعلم - ينقلب عن الصواب، ويرجع عنه للامتحان الشديد الَّذِي جرى.

(٤) أي: فيكشف ربّ العزّة عن ساقه الكريمة التي لا يُشبهها شيء. انظر «تفسير السعدي» (٨٨١).

(٥) هذا السجود امتحان من الله تَعَالَى لعباده.

(٦) الطبق: فقار الظهر، أي: صار فقارة واحدة كالصحيفة فلا يقدر عَلَى السجود.

(٧) معناه: وقَدْ أزال المانع لهم من رؤيته وتجلّى لهم.

(٨) **الجسر**: الصراط.

(٩) **تحلّ الشفاعة**: تقع ويؤذن فيها.

(١٠) **دحض مزلّة**، الموضع الَّذِي تزلّ فيه الأقدام، ولا تستقرّ.

(١١) **الحسك**: شوك صُلب من حديد.

الخَيْلِ، وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ، وَمَكْدُوسٌ[(١)] فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

حَتَّى إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشَدَةً للهِ فِي اسْتِقْصَاءِ الحَقِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ للهِ يَوْمَ القِيَامَةِ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فِي النَّارِ يَقُولُونَ: رَبَّنَا؛ كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا وَيُصَلُّونَ وَيَحُجُّونَ. فَيُقَالُ لَهُمْ: أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ. فَتُحَرَّمُ صُوَرُهُمْ عَلَى النَّارِ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدْ أَخَذَتِ النَّارُ إِلَى نِصْفِ سَاقَيْهِ وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا مَا بَقِيَ فِيهَا أَحَدٌ مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ. فَيَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ. فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا. ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ[(٢)] فَأَخْرِجُوهُ. فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا أَحَدًا. ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ. فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْرًا[(٣)]» - وَكَانَ أَبُو سَعِيدٍ الخُدْرِيُّ يَقُولُ: إِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي بِهَذَا الحَدِيثِ فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

«فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: شَفَعَتِ المَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ[(٤)] قَدْ عَادُوا حُمَمًا[(٥)] فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهْرٍ فِي أَفْوَاهِ الجَنَّةِ[(٦)] يُقَالُ لَهُ: نَهْرُ الحَيَاةِ فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، أَلاَ تَرَوْنَهَا تَكُونُ إِلَى الحَجَرِ أَوْ إِلَى الشَّجَرِ مَا يَكُونُ إِلَى الشَّمْسِ أُصَيْفِرُ وَأُخَيْضِرُ، وَمَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ يَكُونُ أَبْيَضَ».

فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ كَأَنَّكَ كُنْتَ تَرْعَى بِالبَادِيَةِ؟

---

(١) يقال: تكدّست الدوابُّ في سيرها: إذا رَكِب بَعضُها بَعضًا.

(٢) قال القاضي عياض: «معنى الخير هنا: شيءٌ زائد عَلَى مجرّد الإيمان، لأن مجرد الإيمان الَّذِي هو التصديق لا يتجزأ، وإنما يكون هذا التجزؤ لشيء زائد عليه من عمل صالح، أَوْ ذِكر خفيّ، أَوْ عمل من أعمال القلب مِن شفقة عَلَى مسكين، أَوْ خوف من الله تَعَالَى، ونيّة صادقة».

(٣) **ربنا لم نذر فيها خيرا**: أي: صاحب خير.

(٤) أي: فوق مُجرّد الإيمان، وسيأتي في الشرك كلام القاضي حول هذا المعنى.

(٥) **الحمم**: الفَحم.

(٦) أي: مفتح من مسالك قصور الجَنَّة ومنازلها. انظر «صحيح مسلم بشرح النووي» (٣/ ٤٠٤).

قَالَ: «فَيَخْرُجُونَ كَاللُّؤْلُؤِ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِمُ[(١)] يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ هَؤُلاَءِ عُتَقَاءُ اللهِ[(٢)] الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلاَ خَيْرٍ قَدَّمُوهُ ثُمَّ يَقُولُ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَمَا رَأَيْتُمُوهُ فَهُوَ لَكُمْ. فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ. فَيَقُولُ: لَكُمْ عِنْدِي أَفْضَلُ مِنْ هَذَا، فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا؟ فَيَقُولُ: رِضَايَ فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»[(٣)].

عباد الله...

في هَذِهِ القصّة الصحيحة فوائد كثيرة، من هَذِهِ الفوائد:

الفائدة الأولى: إثباتُ رُؤية المؤمنين لربِّهم في الدَّار الآخرة.

يدلّ عَلَى ذَلِكَ قوله ﷺ: «مَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلاَّ كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا» يعني الشمس والقمر.

والأدلة عَلَى إثبات رؤية المؤمنين لربِّهم يوم القيامة مِن القرآن والسُّنة كثيرة، منها:

١ - قوله تَعَالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

فتفيد الآية الكريمة: أن هَذِهِ الوجوه النَّاضِرة الحسنة - وجوه أهل الجَنَّة - تنظر إلى ربِّها عَزَّ وَجَلَّ، فتزداد حُسنًا إلى حُسنها.

قَالَ الشيخ مُحَمَّد بن صالح العثيمين - رَحِمَهُ الله -: «ففي هَذِهِ الآية دليلٌ عَلَى أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يُرى بالأبصار، وهذا هو قولُ أهل السُّنة والجماعة.

والنصوص في هَذِهِ الرؤية قطعيّة الثبوت والدلالة، لأنَّها من كتاب الله تَعَالَى وفي سُنة رسوله ﷺ المتواترة.

هذا؛ وأهل السُّنة يقولون: إنَّ النَّظر هنا بالبصر حقيقة، ولا يلزم منه الإدراك، لأن الله تَعَالَى يقول: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، كما أن العلم بالقلب - أيضًا -

---

(١) قال صاحب «التحرير»: المراد بالخواتم هنا: أشياء من ذهب أوْ غير ذَلِكَ تُعلّق في أعناقهم علامة يُعرفون بها، قال: معناه: تشبيهُ صفاتهم وتلألئهم باللؤلؤ، والله أعلم.

(٢) أي: يقولون: هؤلاء عتقاء الله.

(٣) رواه مسلم (٣٠٢) (١٨٣).

لا يلزم منه الإدراك، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

ونحن نعلم ربّنا بقلوبنا، لكن لا ندرك كيفيته وحقيقته، وفي يوم القيامة نرى ربّنا بأبصارنا، ولكن لا تدركه أبصارنا» ا.هـ[١].

٢- قوله تَعَالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هي النظر إلى وجه الله، هكذا فسّره النَّبيُّ ﷺ، كما ثبت في «صحيح مسلم».

فعَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَ الله عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ»[٢].

قَالَ الإمام الطحاوي - رَحِمَهُ الله -: «والرؤية حَقٌّ لأهل الجَنَّة، بغير إحاطة ولا كيفية» ا.هـ[٣].

الفائدة الثانية: إثباتُ الشفاعة للملائكة والنبيين والمؤمنين.

يدلّ عَلَى ذَلِكَ قوله ﷺ: «**فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: شَفَعَتِ المَلاَئِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ المُؤْمِنُونَ**».

الفائدة الثالثة: إثباتُ خُروج الموحِّدين من النار.

يدلّ عَلَى ذَلِكَ قوله ﷺ: «**ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا**».

الفائدة الرابعة: إثبات أنَّ لله تَعَالَى عُتقاء يخرجهم من النار لم يعملوا خيرًا قطُّ.

يدلّ عَلَى ذَلِكَ قوله ﷺ: «**وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ**».

قال القاضي - رَحِمَهُ الله -: «فهؤلاء هم الذين معهم مُجَرّد الايمان، وهم الذين لم يُؤذن في الشفاعة فيهم، وانما دلت الآثار على أَنَّهُ أُذِنَ لمن عنده شيء زائد على مجرد

---

(١) «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ٤٤٨).

(٢) رواه مسلم (٢٩٨) (١٨١).

(٣) «متن العقيدة الطحاوية» (٧).

الايمان، وجعل للشافعين من الملائكة والنبيين صلوات الله وسلامه عليهم دليلا عليه، وتفرّد الله عَزَّ وَجَلَّ بعلم ما تكنّه القلوب والرحمة لمن ليس عنده إلَّا مجرّد الايمان، وضرب بمثقال الذرة المثل لأقل الخير، فإنها أقل المقادير» ا.هـ(١).

هذا، والشفاعة ليست شمّاعة يُعلّق عليها المجرمون آمالهم.

قَالَ الشيخ الغزالي - رَحِمَهُ الله -: «تعلّق عَوامُ المسلمين بالأحاديث الواردة في الشفاعة، حَتَّى يُخيّل إليك أن قوانين الجزاء بطلت، وأن نيران الجحيم توشك أن تتحولّ بَردًا وسلامًا عَلَى عُصاة المؤمنين.

وكثيرًا ما يُفرّط هؤلاء الجُهّال في الفروض، ويقعون في أوخم الذنوب ثم يقولون: أُمّة مُحَمّد بخير. وهذا مسلكٌ ساقط.

ومحمد ﷺ أوّل مَن يستنكر ويحارب أصحابه، وينذرهم بأنهم أصحاب الجحيم، فأما أن الجزاء حقّ، وأنَّهُ يتناول الذّرة من الخير والشرّ، وأنَّهُ يعمّ النّاس أجمعين، فذلك صريح القرآن: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

والقول بأنَّ قوانين الجزاء توقف بالنسبة لأتباع نبيٍّ ما، سخف فارغ، وقَدْ كذّب القرآن في مواضع شتى مزاعم الأوّلين والآخرين لَـمّا جمحت بهم أمانيهم إلى هذا الوهم الباطل، ولسنا نردّ ما صحّ من أحاديث الشفاعة، بل نثبتها في مواضعها التي لا تعدوها، حَتَّى لا نُحرِّف الكَلِم عن مواضعه.

روى الشيخان: قال رَسُول الله ﷺ: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إنْ شَاءَ اللَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا**».

هل معنى هذا الحديث أن الشفاعة التي يرجوها الرسول ﷺ تنقذ مرتكبي الفواحش والمناكر مِمّن ماتوا لا يشركون بالله شيئًا، دون أن يستوفوا جزاءهم؟! إن الرسول ﷺ نفسه يردّ هذ الزّعم:

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٣/ ٤٠٣).

روى البخاري في «صحيحه»: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «..فَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِنَ الرُّسُلِ بِأُمَّتِهِ، وَلاَ يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلاَّ الرُّسُلُ، وَكَلاَمُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ. وَفِي جَهَنَّمَ كَلاَلِيبُ[١] مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ[٢]، هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ؟». قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ: «فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، غَيْرَ أَنَّهُ لاَ يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهَا إِلاَّ اللَّهُ، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُوبَقُ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُخَرْدَلُ ثُمَّ يَنْجُو، حَتَّى إِذَا أَرَادَ اللَّهُ رَحْمَةَ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ[٣]، أَمَرَ اللَّهُ الْمَلاَئِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ، فَيُخْرِجُونَهُمْ وَيَعْرِفُونَهُمْ بِآثَارِ السُّجُودِ، وَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ فَيَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ، فَكُلُّ ابْنِ آدَمَ تَأْكُلُهُ النَّارُ إِلاَّ أَثَرَ السُّجُودِ، فَيَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ قَدِ امْتَحَشُوا[٤]، فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ[٥]...».

وهذا الحديث يفيد أنَّ مِن المسلمين الَّذِي يعبدون الله وحده قومًا سيدخلون النار، وأن لهبها سينالُ ملامحهم فلا يُعرفون إلّا بآثار السّجود.

وأنَّ رحمة الله فحسب، هي التي تدركهم فتنقذهم مِمَّا يعانون من بلاء.

ثم تغسل أوضارهم الأولى بماء الحياة لينبتوا - بعد - خلقًا جديدًا يصلح للنعيم والرضوان.

فليس للشفاعة هذا النّطاق الواسع الَّذِي يبرّر به الخطّاءون إصرارهم، وما تفيدهم أمانيهم فيها شيئًا» ا.هـ[٦].

عباد الله...

وصفوة الكلام: أن الشفاعة ثابتة لمن مات لا يشرك بالله شيئًا، وتطال أهل الكبائر

---

(١) **الكلاليب**: جمع كَلُّوب، وهو حديدة معكوفة الرأس يُعلّق فيها اللحم وتُرسَل في التَّنُّور.
(٢) **السَّعدان**: نبت له شوكة عظيمة مثل الحَسك من كُل جانب.
(٣) يعني من أهل التوحيد.
(٤) **امتحشوا**: احترقوا.
(٥) **حَميلُ السَّيل**: ما جاء به السَّيلُ من طين أَوْ غثاء.
(٦) «عقيدة المسلم» (٢٤٩ - ٢٥١).

كما مرّ معنا[١].

ولكن يخشى من المُصرّ عَلَى المخالفة والعصيان من سوء الخاتمة، لأنَّ الله تَعَالَى يقول: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

فإن خرج من الدُّنْيَا عَلَى التوحيد، فمآله الجَنَّة وإن عُذّب بالنار.

قال بعضُ السلف: إذا دخلت القبر ومعك الإسلام فأبشر.

أمَّا إن خُتِم له بسوء، فلا تنفعه شفاعة الشافعين، نسأل الله العافية.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فيقول وَهبُ بنُ مُنَبِّه -رَحِمَهُ الله-: «وجدتُ في آخر الزَّبور: يا داود اسمع مني والحق أقول؛ من لقيني وهو يحبني أدخلته جنتي، يا داود اسمع مني والحق أقول؛ من لقيني وهو يخاف عذابي لم أعذبه، يا داود اسمع مني والحق أقول؛ من لقيني وهو مستحي من معاصيه أنسيت الحفظة ذنوبه.

يا داود اسمع مني والحق أقول؛ لو أن عبدًا من عبادي عمل حشو الدنيا ذنوبًا مغاربها ومشارقها ثم ندم حلب شاة واستغفرني مرة واحدة وعلمت من قلبه أن لا يعود إليها ألقيتها عنه أسرع من هبوط الماء من السماء إلى الأرض، يا داود اسمع مني والحق أقول؛ لو أن عبدًا أتاني بحسنة واحدة حكمته في جنتي.

قال داود: من أجل ذلك لا يحل لمن عرفك أن يقطع رجاءه منك.

قال: يا داود إنما يكفي أوليائي اليسير من العمل كما يكفي الطعام القليل من الملح،

---

(١) وهم تحت المشيئة إن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم، قال تَعَالَى: ﴿إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦].

يا داود هل تدري متى أتولاهم؟ إذا طهروا قلوبهم من الشرك، ونزعوا من قلوبهم الشك، وعلموا أن لي جنة ونارًا، وأني أحيي وأميت وأبعث من في القبور، وأني لم أتخذ صاحبة ولا ولدًا، فإن توفيتهم بيسير من العمل وهم يوقنون بذلك جعلته عظيمًا عندهم.

هل تدري يا داود من أسرع مرًّا على الصراط؟ الذين يرضون بحكمي وألسنتهم رطبة من ذكري، هل تدري يا داود أي المؤمنين أعظم منزله عندي؟ الذي هو بما أعطى أشد فرحًا بما حبس، هل تدري يا داود أي الفقراء أفضل؛ الذين يرضون بحكمي وبقسمتي ويحمدونني على ما أنعمت عليهم من المعاش، هل تدري يا داود أي المؤمنين أحب إلي أن أطيل حياته؟ الذي إذا قال: لا إله إلا الله اقشعر جلده فإني أكره له الموت كما يكره الوالد لولده ولابد منه، إني أريد أن أسره في دار سوى هذه الدار، فإن نعيمها فيها بلاء ورخاءها فيها شدة، فيها عدو لا يألوهم بها خبالاً يجري منهم مجرى الدم.

من أجل ذلك عجلت أوليائي إلى الجنة لولا ذلك ما مات آدم ولا أولاده المؤمنون حتى ينفخ في الصور، إني أدري ما تقول في نفسك يا داود. تقول قطعت عنهم عبادتك، أما تعلم يا داود إني أعين المؤمن على عثرة يعثرها فكيف إذا ذاق الموت وهو أعظم المصائب وترى جسده الطيب بين أطباق الثرى، إنما أحبسه طول ما أحبسه لأعظم له الأجر وأجري له أحسن ما كان يعمله إلى يوم القيامة.

قال داود: لك الحمد إلهي من أجل ذلك سميت نفسك أرحم الرحمين، إلهي فما جزاء من يعزي الحزين على المصائب ابتغاء مرضاتك؟ قال: جزاؤه أن ألبسه رداء الإيمان ثم لا أنزعه عنه أبدًا، قال: إلهي فما جزاء من يتبع الجنائز ابتغاء مرضاتك؟ قال: جزاؤه أن تشيعه ملائكتي يوم يموت وأصلي على روحه في الأرواح، قال: إلهي فما جزاء مساعد الأرملة واليتيم ابتغاء مرضاتك؟ قال: جزاؤه أن أظله في ظل عرشي يوم لا ظل إلا ظلي، قال: إلهي فما جزاء من يبكي من خشيتك حتى تسيل دموعه على وجنتيه؟ قال: جزاؤه أن أحرم وجهه على النار[1].

---

(١) «حلية الأولياء» (٤/ ٤٧)، و«الزهد» (ص٨٩) لأحمد بن حنبل، و«الزهد» (٤٧٧) لابن المبارك، =

عباد الله...

وفي نهاية الصراط، جسرٌ صغير، قنطرة يقف عليها المؤمنون الذين اجتازوا الصراط، يقتصّ لبعضهم من بعض، اقتصاصًا غير الاقتصاص الأول، فهذا الاقتصاص لإزالة ما في صدور المؤمنين من غلٍّ وحقد، قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ**﴾ [الحجر: ٤٧].

فالقصاص الأول: تؤخذ فيه الحقوق حَتَّى يُقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء.

والثاني: للتطهير والتهذيب والتنقية، تطيِّب النفوس، لأَنَّهُ قَدْ يبقى في النَّفْس شيء من الظّالم وإن أخذتَ حَقَّك منه[١].

قَالَ ﷺ: «**إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا نُقُّوا وَهُذِّبُوا أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الجَنَّةِ**»[٢].

عباد الله...

فَإِذَا دخل أهلُ الجَنَّة الجَنَّة، وأهلُ النَّار النَّار، يخبرنا ربُّنا سُبْحَانَهُ أَنَّ قومًا سَيُوقَفون بين الجَنَّة والنار عَلَى سور، وهو الأعراف.

قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ * أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ**﴾ [الأعراف: ٤٦- ٤٩].

ذكر القرطبيُّ - رَحِمَهُ الله - عشرة أقوال، ثم توقّف عن التعيين، قائلًا: «نتوقّف عن

= وانظر «سلسلة درة الواعظين من صحيح حكايات وقصص الصالحين: الموت والاستعداد للرحيل» للشيخ مجدي فتحي السيد (٣٢،٣٣).

(١) «الجامع لشروح العقيدة السفارينية» (٦٢٨)، و«القيامة الكبرى» للأشقر (٢٤٤).

(٢) رواه البخاري، وانظر «فتح الباري» (٥/ ٩٦).

التعيين لاضطراب الأثر والتفصيل، والله بحقائق الأمور عليم» ا.هـ[(١)].

والراجح: أَنَّهُم قومٌ تساوت حسناتهم مَعَ سيئاتهم، ثم أدخلهم الله تَعَالى الجَنَّة برحمته.

وممن ذهب إلى هذا القول: ابن عبَّاس، وابن مسعود، وابن جبير، وابن كثير، والسَّعدي[(٢)].

(١) «تفسير القرطبي» (٧/ ١٩٠، ١٩١).

(٢) «تفسير السعدي» (٢٩٠).

الخطبة العاشرة بعد المائة:

[أ] النار وأهوالها

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْهُ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً[١]، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَدْرُونَ مَا هَذَا؟».

قَالَ: قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «هَذَا حَجَرٌ رُمِىَ بِهِ فِى النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا فَهُوَ يَهْوِى فِى النَّارِ الآنَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا»[٢].

---

(١) الوجبة: السَقطة.

(٢) رواه مسلم (٢٨٤٤).

عباد الله...

النار موجودة الآن، وقدْ رآها النَّبيُّ ﷺ، فعَنْ أَنَسٍ رَضِي الله عَنْهُ قَالَ: قال رَسُول الله ﷺ: «**وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**». قَالُوا: وَمَا رَأَيْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**رَأَيْتُ الجَنَّةَ وَالنَّارَ**»[1].

فهذه النار يأكل بعضها بعضًا، وتميّز غيظًا، وتتعجّل أهلها.

فعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْهُقال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا، فَقَالَتْ: رَبِّ أَكَلَ بَعْضِى بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ نَفَسٍ فِى الشِّتَاءِ وَنَفَسٍ فِى الصَّيْفِ، فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ فِى الحَرِّ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهَرِيرِ**»[2].

وقَدْ خُلِقت لتبقَى:

ثمانـية أحكـام الـبقاءَ يَعُمّهـا — مِن الخلـق، والـباقون في حَيّز العدم

هـي: العرش والكرسي ونار وجنة — وعَجب[3] وأرواح كذا اللّوح والقلم

والرواية التي بين أيدينا تحكي قصة حَجَرٍ واحد من أحجارها، أُلقي من عَلَى شفيرها، فظل يهوي سبعين خريفًا إلى أن بلغ قعرها!!

لذا كان عمر بن الخطاب رَضِيَ الله عَنْهُ يقول: «أكثروا من ذكر النار، فإن حرَّها شديدٌ، وإنَّ قَعرها بعيدٌ، وإن مقامعَهَا حَديدٌ».

هذا؛ ووقود النار شيئان: النَّاس والحجارة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَـهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِـهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ * لَـهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ**﴾ [الأنبياء: ٩٨- ١٠٠].

قَالَ العلامة السَّعدي - رَحِمَهُ الله - في تفسير هَذِهِ الآيات: «أي: إنكم أيُّها العابدون مع الله آلهة غيره.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه مالك والبخاري ومسلم.
(٣) أي: عجب الذّنب. وهو عظم دقيق أسفل العصعص، منه يُركب الخلق يوم القيامة.

﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي: وقودها وحطبها.

﴿أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ[(١)]﴾ وأصنامكم.

والحكمة في دخول الأصنام النار، وهي جماد لا تعقل وليس عليها ذنب: بيان كذب مِن اتخذها آلهة، وليزداد عذابهم، فلهذا قال: ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا﴾ وكل من العابدين والمعبودين فيها، خالدون، لا يخرجون منها، ولا ينتقلون عنها.

﴿لَـهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ من شدة العذاب ﴿وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ﴾ صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ، أو لا يسمعون من الأصوات غير صوتها، لشدة غليانها، واشتداد زفيرها وتغيظها.

ودخول آلهة المشركين النار، إنما هو الأصنام، أو من عبد، وهو راض بعبادته. وأما المسيح، وعزير، والملائكة ونحوهم، مِمَّن عَبَدَ مِن الأولياء، فإنَّهم لا يعذَّبون فيها» ا.هـ[(٢)].

قلت: وقَدْ ثبت في سبب نزول هذه الآيات هذه الرواية:

عن ابن عَبَّاس رَضِيَ الله عَنْهُمَا قال: آية لا يسألني النَّاس عَنْهَا، لا أدري أعرفوها فلم يسألوا عَنْهَا، أَوْ جهلوا فلا يسألون عَنْهَا، فقيل: وما هي؟ قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَـهَا وَارِدُونَ﴾ لما أُنزلت شقّ على كفّار قريش، وقالوا: شتم آلهتنا، وأتوا ابن الزّبعريّ وأخبروه، فقال: لو حضرتُه لرددتُ عليه، قالوا: وما كنت تقول؟ قال: كنت أقول له: هذا المسيح تعبده النصارى، واليهود تعبد عُزيرًا، أفهُما من حصب جهنم؟

فعجبت قريش من مقالته، ورأوا أنَّ مُحَمَّدًا قَدْ خُصم، فأنزل الله تَعَالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَـهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، وفيه نزل: ﴿وَلَـمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ يعني ابن الزّبعريّ ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧] أي: يضجّون[(٣)].

---

(١) **واردون**: داخلون.

(٢) «تفسير السعدي» (٥٣١).

(٣) **صحيح لغيره**: أخرجه الحاكم، وله شواهد، وقال الشيخ مقبل الوادعي -رَحِمَهُ الله- في «الصحيح المسند من أسباب النزول» (١٣٧): صحيح لغيره.

وقال تَعَالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

قَالَ الإمام القرطبي - رَحِمَهُ الله -: «والوقود - بالفتح -: الحَطب. وبالضم: التَّوقُّد.

و﴿النَّاسُ﴾ عموم، ومعناه الخصوص فيمن سبق عليه القضاء أنه يكون حطبًا لها، أجارنا الله منها.

﴿وَالْحِجَارَةُ﴾ هي حجارة الكبريت الأسود - كما قال ابن مسعود والفرَّاء - وخُصّت بذلك لأنها تزيد على جميع الأحجار بخمسة أنواع من العذاب: سرعة الأتقاد، نتن الرائحة، كثرة الدخان، شدّة الألتصاق بالأبدان، قوّة حرّها إذا حميت.

وليس في قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ دليلٌ على أن ليس فيها غير الناس والحجارة، بدليل ما ذكره في غير موضع من كون الجن والشياطين فيها.

وقيل: المراد بالحجارة الأصنام، لقوله تعالى: إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، أي: حطب جهنم.

وعليه؛ فتكون الحجارة والناس وقودًا للنار، وذكر ذلك تعظيما للنار أنها تحرق الحجارة مع إحراقها للناس.

وعلى التأويل الأول: يكونون معذّبين بالنار والحجارة.

قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ ظاهره أنَّ غير الكافرين لا يدخلها وليس كذلك، بدليل ما ذكره في غير موضع من الوعيد للمذنبين وبالأحاديث الثابتة في الشفاعة.

وفيه دليلٌ على ما يقوله أهل الحق مِن أنَّ النار موجودة مخلوقة، خلافًا للمبتدعة في قولهم: إنها لم تخلق حتى الآن» ا.هـ[(١)].

قَالَ الدكتور عمر الأشقر - حفظه الله -: «وقَدْ يوجد الله من أنواع الحجارة ما يفوق ما في الكبريت من خصائص، ونحن نجزم أن ما في الآخرة مغاير لما في الدُّنْيَا» ا.هـ[(٢)].

---

(١) «تفسير القرطبي» (١/ ٢٢٥، ٢٢٦) باختصار.
(٢) «الجنَّة والنار» (٣١).

فيا أيها الغافل عن نفسه بما هو فيه من شواغل هذه الدُّنْيَا المشرفة على الانقضاء والزوال، دع التفكر فيما أنت مُرتحل عنه واصرف الفكر إلى موردك فإنك أُخبرت بأن النار مورد للجميع، إذ قيل: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١، ٧٢].

فأنت مِن الورُود عَلَى يقينٍ، ومِن النَّجاة فى شك.

فاستشعر فى قلبك هول ذلك المورد فعساك تستعدّ للنجاة منه، وتأمل فى حال الخلائق وقَدْ قاسوا مِن دواهى القيامة ما قاسوا، فبينما هم فى كَربها وأهوالها وقوفًا ينتظرون حقيقة أنبائها وتشفيع شفعائها، إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شُعب وأظلّت عليهم نار ذات لهب، وسمعوا لها زفيرًا وجرجرة تفصح عن شدّة الغيظ والغضب، فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب، وجثت الأمم على الركب حَتَّى أشفق البرءاء مِن سوء المنقلب، وخرج المنادى مِن الزبانية قائلًا: أين فلان ابن فلان المسوّف نفسه فى الدنيا بطول الأمل، المضيّع عُمره فى سوء العمل؟ فيبادرونه بمقامع حديد، ويستقبلونه بعظائم التهديد، ويسوقونه إلى العذاب الشديد، وينكسونه فى قعر الجحيم، ويقولون له: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩].

فأسكنوا دارًا ضيِّقة الأرجاء، مظلمة المسالك، مبهمة المهالك، يَخلُد فيها الأسير، ويوقد فيها السعير، شرابهم فيها الحميم، ومستقرّهم الجحيم، الزبانية تقمعهم، والهاوية تجمعهم، أمانيهم فيها الهلاك، وما لهم منها فكاك، قَدْ شدّت أقدامهم إلى النواصى واسودت وجوههم من ظلمة المعاصى، يُنَادَونَ مِن أكنافها ويصيحون فى نواحيها وأطرافها:

يا مالك[١] قَدْ حق علينا الوعيد.

يا مالك قد أثقلنا الحديد.

يا مالك قد نضجت منا الجلود.

يا مالك أخرجنا منها فإنا لا نعود.

---

(١) خازن النار

فتقول الزبانية: هيهات، لاتَ حِين أمان! ولا خروج لكم من دار الهوان، فاخسئوا فيها ولا تُكلّمون، ولو أُخرجتم منها لكنتم إلى ما نُهيتم عنه تعودون، فعند ذلك يقنطون، وعلى ما فرَّطوا فى جنب الله يتأسفون، ولا ينجيهم النَّدم، ولا يغنيهم الأسف، بل يكبون على وجوههم مغلولين، النار مِن فوقهم، والنار من تحتهم، والنار عن أيمانهم، والنار عن شمائلهم، فهم غرقى فى النار، طعامهم نار، وشرابهم نار، ولباسهم نار، ومهادهم نار، فهم بين مقطعات النيران وسرابيل القطران وضرب المقامع وثقل السلاسل، فهم يتجلجلون فى مضايقها ويتحطمون فى دركاتها ويضطربون بين غواشيها، تغلى بهم النار كغلى القدور، ويهتفون بالويل والعويل، ومهما دعوا بالثبور صب مِن فوق رءوسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد تهشم بها جباههم فيتفجر الصديد من أفواههم، وتنقطع مِن العطش أكبادهم، وتسيل على الخدود أحداقهم، ويسقط من الوجنات لحومها، ويتمعّط مِن الأطراف شعورها بل جلودها، وكلما نضجت جلودهم بُدّلوا جلودًا غيرها، قَدْ عُريت مِن اللحم عظامهم فبقيت الأرواح منوطة بالعروق وعلائق العصب، وهى تنش فى لفح تلك النيران، وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون.

فكيف بك لو نظرت إليهم وقَدْ اسودّت وجوههم أشدّ سوادًا مِن الحميم، وأعميت أبصارهم، وأبكمت ألسنتهم، وقصمت ظهورهم، وكسرت عظامهم، وجدعت آذانهم، ومُزقت جلودهم، وغُلّت أيديهم إلى أعناقهم، وجُمع بين نواصيهم وأقدامهم وهم يمشون على النار بوجوههم، ويطأون حَسَك الحديد بأحداقهم، فلهيب النار سار فى بواطن أجزائها، وحيَّات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم، هذا بعض جملة أحوالهم[١].

فانظر - يا مسكين - في هذه الأهوال، واجتهد في إنقاذ نفسك، وفكاك رقبتك.

وها هي أصواتُ الصالحين تناديك:

عن سُفيان الثوريّ قَالَ: قَالَ أبو ذرٍّ الغفاريّ عند الكعبة: يا أيُّهَا النَّاس، أنا جُندب

---

(١) «الإحياء» (٤/ ٥٣٠).

الغفاريّ، هلمّوا إلى الأخ الناصح الشفيق.

فاكتنفه[١] النَّاس، فقال: أرأيتم لو أنَّ أحدكم أراد سفرًا أليس يتخذ مِن الزاد ما يصلحه ويبلغه؟

قالوا: بلى.

قَالَ: فإن سفر طريق القيامة أبعد ما تريدون فخذوا ما يصلحكم.

قالوا: وما يصلحنا؟

قَالَ: حُجّوا حجّة لعظائم الأمور.

وصوموا يومًا شديدًا حرّه لطول النشور.

وصلُّوا ركعتين في سواد الليل لوحشة القبور.

وكلمة خير تقولها أو كلمة شر تسكت عنها لوقوف يوم عظيم.

تصدق بمالك لعلك تنجو من عسيرها.

اجعل الدُّنْيَا مَجلسينِ: مجلسًا في طلب الحلال، ومجلسًا في طلب الآخرة. والثالث يَضرُّك ولا ينفعك لا تَرِده.

اجعل المال درهمين: درهمًا تُنفقه على عيالك من حلِّه، ودرهما تقدمه لآخرتك، والثالث يضرك ولا ينفعك لا تَردِه.

ثم نادى بأعلى صوته: يا أيُّهَا النَّاس قَدْ قتلكم حِرصٌ لا تُدرِكُونه أبدًا»[٢].

وها هو صوت الإمام الحسن -رَحِمَهُ الله - يُحرّك الهِمم إلى الآخرة، ويزهّد في الدُّنْيَا، ويَدقّ ناقوس الخَطَر، فيقول: «ابن آدم، إنك تموت وحدك، وتبعث وحد، وتحاسب وحدك.

ابن آدم؛ لو أن النَّاس كلهم أطاعوا الله، وعَصَيت أنت، لم تنفعك طاعتُهم، ولو عصَوا الله وأطعت أنتَ، لم تضرّك معصيتُهم.

---

(١) اكتنفه النَّاس: أحاطوا به.

(٢) «صفة الصفوة» لابن الجوز (١/ ٣٠٢).

ابن آدم، ذَنبك ذنبك، فإنما هو لحمك ودمك، وإن تكن الأخرى، فإنما هي نارٌ لا تُطفأ، وجسمٌ لا يبلى، ونَفسٌ لا تموت[١].

أخي الحبيب... تأهّب

مـــا هـــي إلا جـــنةٌ ونـــارٌ   أفْلَـحَ مَـــن كـــان لـــه اعتـــبارُ

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ونختم خطبة اليوم بلقطات ومواقف من حياة الصالحين، تبيّن شدّة خوفهم من يوم القدوم عَلَى الله والعرض عليه.

(١) خوف شقيق البلخيّ:

كان شقيق البلخيّ شيخ خراسان، إذا أخذه الفكر - يعني في القدوم عَلَى ربه لمحاسبته - يبول الدّم، وكان ينام أوّل اللَّيْل ويقوم مرعوبًا ينادي: «النار، النار قَدْ شغلني ذكر النار عن النَّوم والشهوات».

استُشهد -رَحِمَهُ الله- في غزوة «كولان» عام ١٩٤هـ.

(٢) خوف عامر بن قيس:

كان رحمه اله من عُبَّا البصرة، انتفخت ساقاه من كثرة القيام، وكان إذا أراد النوم وأخذ مضجعه، قال لنفسه: «قومي يا مأوى كُلّ بليّة، لأزحفنَّ بك زحف البعير» ثم ينادي ويقول: «اللَّهُمَّ إنَّ النار قَدْ منعتني من الوم فاغفر لي».

(٣) خوف أُميّة بن الصَّلت:

عن مُحَمَّد بن إسماعيل بن طريح الثَّقفي، عن أبيه، عن جدّه، عن جدّ أبيه قال:

---

(١) «الحسن البصري» (١٠١).

حضرت أُميّة بن أبي الصَّلت حين حضرته الوفاةُ فأُغمي عليه طويلًا، ثم آفاق فرفع رأسه فنظر إلى باب البيت فقال:

لبَّيكُمَا لبَّيكُما هَأنذَا لَديكُمَا
لا قَويَ فأنتصر ولا بريءُ فأعتذر

ثم أُغمي عليه، ثم أفاق فرفع رأسه إلى باب البيت فقال:

لبَّيكُمَا لبَّيكُما هَأنذَا لَديكُمَا
لا عشيرتي تحميني ولا مالي يفديني

ثم أُغمي عليه، ثم أفاق، فقال:

كُلُّ عَيشٍ وإن تَطَاولَ دَهرًا صائرُ مَرَّة إلى أن يزُولا
ليتني كنتُ قبل ما قَدْ بدَا لي في رءوس الجِبالِ أرعى الوعولا[1]

عباد الله...

هكذا كانوا، مع شدّة تعبدّهم، وقوّة توكلّهم، وسعة علمهم، أمَّا نحن فحالنا كما قال القائل:

أمَا والله لَو عَلِم الأنَامُ لما خُلِقوا لَمَا غفلوا وناموا
فموتٌ ثم بعث ثم حشر وتوبيخ وأهوال عظامُ
ونحن إذا أمرنا أو نهينا كأهل الكهف أيقاظٌ نيامُ[2]

اللَّهُمَّ عاملنا بما أنت أهله، ولا تعاملنا بما نحن أهله
فأنت أهل التَّقوى والمغفرة

❖❖❖❖❖

(١) بدا: ظهر، والوعل: تيس الجبل. «المعجم الوجيز» (٦٧٥).
(٢) «وصايا العلماء عند حضور الموت» (ص٩٩) للحافظ أبي سليمان مُحَمَّد بن عبد الله الرَّبعي.

الخطبة الحادية عشر بعد المائة:

[ب] النار وأهوالها

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فإنَّ النار - أعاذنا الله منها - هي الدَّار التي أعدَّها الله تَعَالَى للكافرين به، المكذِّبين لرسله، قال تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

وهي عذابه الَّذِي يعذّب فيه أعداءه، وسجنه الَّذِي يسجن فيه المجرمين، قال تَعَالَى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة: ٨، ٩].

وهي الخزي الأكبر، والخُسران العظيم، قال تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ

أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٢].

وقال تَعَالى: ﴿قُلْ إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ * لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ [الزمر: ١٥، ١٦].

عباد الله...

وكيف لا تكون النار كما تقدَّم، وفيها من العذاب والآلام والأحزان والحسرات ما يعجز اللِّسان عن وصفه، ويكفي أنَّها خالدة، وأهلها فيها خالدون، قال تَعَالى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٦].

وقال تَعَالى: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ المِهَادُ * هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ [ص: ٥٥ - ٥٨].

عباد الله...

والنار شاسعة واسعة، بعيدٌ قعرُها، لا يعلم عدد مَن يدخلها إلَّا الله تَعَالى لكثرتهم.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ يَا آدَمُ. يَقُولُ لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيُنَادَى بِصَوْتٍ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ. قَالَ يَا رَبِّ وَمَا بَعْثُ النَّارِ قَالَ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ - أُرَاهُ قَالَ - تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَحِينَئِذٍ تَضَعُ الحَامِلُ حَمْلَهَا وَيَشِيبُ الوَلِيدُ ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾».

فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ حَتَّى تَغَيَّرَتْ وُجُوهُهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ، ثُمَّ أَنْتُمْ فِي النَّاسِ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الأَبْيَضِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ البَيْضَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ». فَكَبَّرْنَا ثُمَّ قَالَ: «ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ». فَكَبَّرْنَا ثُمَّ قَالَ: «شَطْرَ أَهْلِ الجَنَّةِ». فَكَبَّرْنَا[١].

---

(١) رواه البخاري (٤٧٤١)، ومسلم (٢٢٢).

عباد الله...

والحديث عن النار يدور حول:

- مجيء جهنم في عَرَصَات القيامة، وأبوابها.
- وكيف يدخلها أهلُها.
- ودرجة حرارتها.
- وعمقها وبُعْدَ غورها.
- وسلاسلها وأغلالها.
- وطعام أهلها، وشرابهم.
- ولباسهم.
- وفحش أجسامهم، وقبح منظرهم.
- وتفاوت عذابهم.
- وأكثر أهلها.

أعاذنا الله منه بمنّه وكرمه.

عباد الله...

أما عن مجيء جهنم في عَرَصَات القيامة:

فيقول تَعَالى: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر: ٢٣]، وقال: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١]، إن الانقلاب الكوني الَّذِي يتم وتتبدل فيه الأرض غير الأرض، والسموات غير السموات، ويبرز للناس فيه الله الواحد القهار، كما قَالَ تَعَالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لله الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، يفاجأ فيه النَّاس من أهل الموقف بظاهرة غريبة وهي بروز جهنم لهم، ورؤيتهم لها، حيث يجاء بها تُجر بالأزمّة كما تُجرُّ القاطرة، ولها تغيّظ وزفير، كما قَالَ الله تَعَالى: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى * يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٣، ٢٤]. وكقوله تَعَالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ * وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ

تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ * فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء: ٩١- ٩٥].

وقوله ﷺ في الصحيح: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا»(١).

وأما عن أبوابها:

فإن دار البوار ذات دركات، دركة تحت الأخرى إلى نهايتها، وهي سبعٌ تتفاوت في شدة عذابها، أخفَّها عذابًا أعلاها، وأشدها أسفلها، ولكل دركة اسمها الخاص بها، وبابها الخاص، كما قَالَ تَعَالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٣، ٤٤].

وكما قَالَ تَعَالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

وقَدْ وردت أسماء دركات دار البوار في القرآن الكريم غير أنها وردت مفرّقة في عدّة سور، ومذكورة في عشرات الآيات بحسب سياق الحديث عنها، وقَدْ يكون ترتيبها كالتالي:

- نار جهنم.
- لظى.
- الحطمة.
- السعير.
- سقر.
- الجحيم.
- الهاوية.

هَذِهِ السبع الدركات، اللَّهُمَّ أجرنا منها، واصرف عنَّا عذابها؛ ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥، ٦٦].

---

(١) رواه مسلم (٨/ ١٤٩) «عقيدة المؤمن» لأبي بكر الجزائري (٢٤١، ٢٤٢) باختصار.

كيف يدخلها أهلها؟

يؤتى بأهل النار يساقون إليها أفواجًا متتابعة؛ فوجًا بعد آخر وزمرًا متداركة، زمرة بعد أخرى، وقَدْ بُرِّزت لهم، كما قَالَ تَعَالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧١]، وما إن تراهم من مكان بعيد حَتَّى يسمعوا لها تغيظًا وزفيرًا، كما قَالَ تَعَالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢].

ثم يخرج منها عُنُقٌ فَيلتهم من أهل الموقف الجبارين والمشركين، فقد جاء هذا واضحًا في رواية الترمذي إذ يقول ﷺ: «يَخْرُجُ عُنُقٌ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُ عَيْنَانِ تُبْصِرَانِ وَأُذُنَانِ تَسْمَعَانِ وَلِسَانٌ يَنْطِقُ يَقُولُ إِنِّى وُكِّلْتُ بِثَلاَثَةٍ بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ وَبِكُلِّ مَنْ دَعَا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَبِالْمُصَوِّرِينَ».

وتساق تلك الزمر إلى جهنم حَتَّى إذا وصلوها وجدوا أبوابها مغلقة، فتفتّح لهم، ويدفعون إليها دفعًا عنيفًا، كما قَالَ تَعَالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ * اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لاَ تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٣- ١٦].

ثم يلقون منها في أماكن ضيقة وهم مقيدون في الأصفاد مكبلون بالسلاسل والأغلال، كما قَالَ تَعَالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣]. وكما قَالَ تَعَالى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وَجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ (١).

وقال تَعَالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧١، ٧٢].

قَالَ الحافظ ابن كثير - رَحِمَهُ الله -: «يُخبِرُ تَعَالى عَن حَالِ الأشْقِيَاءِ الكُفَّار كَيفَ يُسَاقُون إلى النَّار؟ وإنَّما يُساقُون سوقًا عَنيفًا بِزَجرٍ وتَهديدٍ وَوَعِيدٍ، كَما قَالَ تَعَالى: ﴿يَوْمَ

(١) [إبراهيم: ٤٩، ٥٠]

﴿يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور:١٣] أي: يُدْفَعُون إليْهَا دَفْعًا. هذا وهُم عِطَاشٌ ظَمَاءٌ، كما قَالَ تَعَالَى فِي الآية الأخرى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم:٨٦، ٨٥]. وهُم في تِلك الحَالِ صُمٌّ وبُكمٌ وعُميٌ، مِنْهُم مَن يَمْشِي عَلَى وَجْهِهِ، ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء:٩٧].

وقولُهُ تَبَارَك وتَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ أي: بِمُجَرَّدِ وُصُولِهِم إلَيْهَا فُتِحَت لَهُم أبْوَابُها سَرِيعًا، لِتُعَجِّل لَهُم العُقُوبَةُ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُم خَزَنَتُها مِن الزَّبانيةِ -الَّذِين هُم غِلاظُ الأخْلاقِ، شِدَادُ القُوَى عَلَى وَجْه التَّقريعِ والتَّوبيخِ والتَّنْكِيل-: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ أي: مِن جِنْسِكُم تَتمكَّنُونَ مِن مُخَاطَبَتِهِم وَالأخْذِ عَنْهُم، ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ أي: يُقِيمُون عَلَيكُم الحُجَجَ والبَرَاهِينَ عَلَى صِحَّة مَا دَعَوكُم إليه، ﴿وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي: ويُحَذِّرُونكُم مِن شَرِّ هذا اليَوم؟ فَيَقُولُ الكفَّارُ لهم: ﴿بَلَى﴾ أي: قَدْ جَاءُونَا وأنْذَرُونا، وأقَامُوا عَلَيْنَا الحُجَجَ والبَرَاهِينَ.

﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: ولكِن كَذَّبْنَاهُم وخَالَفْنَاهُم، لما سَبَقَ لَنَا مِن الشِّقْوَةِ الَّتِي كُنَّا نَستَحِقُّها حَيْثُ عَدَلْنا عَن الحَقِّ إلى البَاطِلِ، كَمَا قَالَ تَعَالى مُخبِرًا عَنْهُم فِي الآية الأُخْرَى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نزلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك:٨-١٠]، أي: رَجعُوا عَلَى أنفُسِهم بالمَلامَةِ والنَّدامَةِ ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك:١١] أي: بُعْدًا لَهُم وخَسَارًا.

وقولُهُ تَبَارَك وتَعَالَى هَاهُنا: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: كُلُّ مَنْ رَآهُم وعَلِمَ حَالَهُم يَشْهَدُ عَلَيْهِم بأنَّهم مُستحقُّون للعَذَابِ؛ ولهَذَا لم يُسْنِد هَذَا القَولَ إلى قَائِلٍ مُعَيَّن، بَلْ أطْلَقَهُ ليدُلَّ عَلَى أنَّ الكونَ شَاهِدٌ عَليهم بأنَّهُم مُستحقُّون مَا هُم فِيهِ بِمَا حَكَمَ العَدْلُ الخَبيرُ عَليهم بِهِ؛ ولهذا قَالَ تَعَالى: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مَاكِثِينَ فيها لا خُروجَ لَكُم مِنهَا، وَلَا زَوَالَ لَكُم عَنْهَا، ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: فَبِئْس المَصِيرُ وبِئْسَ المَقِيلُ لَكُم، بِسَبَبِ تَكَبُّرِكُم فِي الدُّنْيَا، وإبَائِكُم عن اتِّبَاعِ الحَقِّ،

فَهُو الَّذِي صَيَّرَكُم إلى مَا أَنْتُم فِيهِ، فَبِئْسَ الحَالُ وَبِئْسَ المآلُ» ا.هـ[١].

عباد الله...

وما أن تستقر تلك الجماعات الهالكة، والزمر الخاسرة في جهنم بعد أن أُلقوا فيها مُهانين، حقيرين، ذليلين، حَتَّى ينزل بهم عذاب نفساني أليم مهين، ذَلِكَ هو عذاب التوبيخ، والتقريع، والتأنيب الَّذِي يتلقونه من ملائكة العذاب الموكلين بهم مثل قولهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾؟ [الزمر: ٧١].

﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٤].

﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لاَ تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦].

﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠].

كل هذا التوبيخ والتقريع والتأديب جاء بيانه في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، وما ذكرناه قليل من كثير.

وأما تلاومهم فحدِّث ولا حرج، ويكفينا أن نصغي إلى بعض الآيات القرآنية التي سجلت تلاومهم بأمانة وصدق فلنسمع خاشعين إلى قول الله تَعَالَى وهو يخبر عنهم فيقول: ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨، ٣٩].

وقوله تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ القَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا العَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣١- ٣٣].

---

(١) «صحيح تفسير ابن كثير» (٤/ ٦١، ٦٢).

ويقول: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ * قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ * فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ * فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ * فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الصافات: ٢٧- ٣٣].

ويقول: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ * هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ * هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لاَ مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ * قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لاَ مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ * قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ * وَقَالُوا مَا لَنَا لاَ نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ * أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ * إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٥٥ - ٦٤].

عباد الله...

ومن أغرب ما يعرف عن أهل النار من أحوال في غاية العجب أن يخطب فيهم إبليس خطبة من أبلغ الخطب، وأفصحها، وأشدها أثرًا، ووقعًا في نفوس سامعيها اقمأهم الله وإياه سواء الخاطب والمخطوب، فقد يُنصب لإبليس منبر من نار فيرقاه فيخطب أهل النار عليه، فيزيدهم في كربهم، وطول حزنهم، وشدة إبلاسهم، وذَلِكَ لِما يكسبهم خطابه من الندامة الممضة، والحسرة القاتلة، وقَدْ سجل القرآن الكريم هَذِهِ الخطبة الإبليسية فلنستمع إليها كما جاءت من سورة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢] (١).

قَالَ ابن كثير - رَحِمَهُ الله - في تفسيره لهذه الآية: «يُخبرُ تَعَالى عمّا خَاطَبَ بِهِ إبليسُ أَتْبَاعَهُ، بَعْدَمَا قَضَى الله بَيْنَ عِبَادِهِ، فَأَدخَلَ الْمُؤمِنينَ الجَنَّاتِ، وَأَسْكَنَ الكَافِرِينَ الدَّرَكَاتِ، فَقَامَ فِيهم إبْلِيسُ - لَعَنَهُ الله - يومئِذٍ خَطِيبًا لِيَزِيدَهُم حُزْنًا إلى حُزْنِهم وغَبنًا

(١) «عقيدة المؤمن» (٢٤٣، ٢٤٤).

إلى غُبْنِهِم، وَحَسْرَةً إلى حَسْرَتِهِم، فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ أي: عَلَى أَلسِنَةِ رُسُلِهِ، وَوَعدَكُم في اتِّبَاعِهِمُ النَّجاةَ والسَّلامَةَ، وَكَانَ وَعْدًا حَقًّا، وخَبَرًا صِدقًا، وأمَّا أنَا فَوَعدتُكُم فَأخْلَفتُكُم، كَمَا قَالَ الله تَعَالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: مَا كَانَ لي دَليلٌ فِيما دَعَوتُكُم إليهِ، ولا حُجَّةَ فِيما وَعَدتُكُم بِهِ، ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ بِمُجَرَّدِ ذَلِكَ، هَذَا وقَدْ أقَامَت عَلَيْكُمُ الرُّسُلُ الحُجَجَ والأدِلَّةَ الصَّحيحةَ عَلَى صِدقِ مَا جَاءُوكُم بِهِ، فَخَالَفْتُمُوهُم فَصِرتُم إلى مَا أنْتُم فِيهِ، ﴿فَلا تَلُومُونِي﴾ اليَوْمَ، ﴿وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فَإِنَّ الذَّنْبَ لَكُم، لِكَونِكُم خَالفتُمُ الحُجَجَ واتَّبعتُمُوني بِمُجَرَّد مَا دَعَوتُكُم إلى البَاطِلِ، ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: بِنَافِعِكُم ومُنْقِذِكُم ومُخَلِّصِكُم مِمَّا أنْتُم فِيهِ، ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ أي: بِنَافِعِي بِإنقَاذِي مِمَّا أنا فِيهِ مِن العَذَابِ والنَّكَالَ.

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ قَالَ قَتَادَةَ: أي بِسَبَبِ مَا أشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ. وقَالَ ابن جَريرٍ: يَقُولُ: إنِّي جَحَدْتُ أن أكُونَ شَريكًا لله عَزَّ وَجَلَّ.

وهذا الَّذِي قَالَ هُوَ الرَّاجِحُ كما قَالَ تَعَالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، وقال: ﴿كَلا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢].

وقَولُهُ: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أي: في إعْرَاضِهِم عَنِ الحَقِّ واتِّبَاعِهِمُ البَاطِلَ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

والظَّاهِر مِن سِيَاقِ الآيَة: أنَّ هَذِهِ الخُطْبَةَ تَكُونُ مِن إبْلِيسَ بَعْدَ دُخُولِهِمُ النَّار، كَمَا قَدَّمنَا» ا.هـ[(١)].

أما عن درجة حرارة جهنم:

فإنَّ حرّ نار جهنم لشدّته قَدْ يصهر كل ما يُلقى فيه، وإن الاستعار والتأجج في

---

(١) «صحيح تفسير ابن كثير» (٢/ ٥٢٩).

جهنم يزداد باستمرار، لقوله تَعَالى: ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا * ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الإسراء: ٩٧ - ٩٩].

ولقوله تَعَالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

وفي الصحيحين عن النَّبيّ ﷺ قَالَ: «نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ». قَالُوا: والله إنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً يَا رَسُولَ الله. قَالَ: «فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا».

وأمَّا عن عُمق جهنم وبُعد غورها:

فلكي نعرف عَلَى وجه التقريب عمق جهنم وبُعد غورها؛ نورد قول رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ الصَّخْرَةَ العَظِيمَةَ لَتُلْقَى مِنْ شَفِيرِ جَهَنَّمَ فَتَهْوِي فِيهَا سَبْعِينَ عَامًا وَمَا تُفْضِي إِلَى قَرَارِهَا»[١].

وقوله ﷺ في «صحيح مسلم» من رواية أبي هريرة قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً[٢]، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَدْرُونَ مَا هَذَا؟». قَالَ: قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الآنَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا»[٣].

ومِمَّا يؤثر عن عمر بن الخطاب رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّهُ كان يقول في خُطبه: «أكثروا ذكر النار، فإنَّ حرّها شديد، وإن قعرها بعيد، وإن مقامعها حديد»[٤].

وأما عن سلاسلها وأغلالها:

فإنَّ مِن لوازم العذاب الشديد عادةً: السلاسل والأغلال، والكبول والأنكال،

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) **الوجبة**: صوت سقوط الحجر.

(٣) رواه مسلم (٢٨٤٤).

(٤) رواه الترمذي.

حَتَّى إنه قَدْ لا يتصوّر عذاب أليم لا يُغل فيه صاحبه ولا يكبل، أو لا يوضع في سلسلة.

ومن هنا كان في جهنم السلاسل والأغلال، والكبول والأنكال، وقَدْ جاء ذَلِكَ وبيانه في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ مفرّقًا في عدة سور منه:

قوله تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالًا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: ٤].

وقوله: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: ١٢، ١٣].

وقوله: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧٠- ٧٢].

وقوله: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة: ٣٠- ٣٤].

وقَدْ رُوي بأسانيد جياد عن كثير من السَّلف أنَّ هَذِهِ السلسلة تدخل في فم الكافر، وتخرج من دُبره فينظم فيها كما تنظم السمسمة في الخيط، والخرزة في السلك[(١)].

وأما عن طعام أهل النار:

فلأهل النار مطاعم كثيرة ومشارب، إذ الطعام والشراب من لوازم الحياة، وأهل النار أحياء فيها لا يموتون، إذ لو ماتوا لاستراحوا من العناء والعذاب، ولكنهم لا يموتون، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]، وقَدْ يسألون الموت بالفعل، ويطلبونه ولكن لا يُستجاب لهم، جاء طلبهم الموت في القرآن في قوله تَعَالَى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وقَدْ أخبر تَعَالَى عن عدم موتهم بقوله: ﴿لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]، كما أخبر تَعَالَى أن من يصلى النار الكبرى لا يموت فيها ولا يحيا، جاء ذَلِكَ في قوله: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى﴾ [الأعلى: ١١- ١٣].

(١) «عقيدة المؤمن» (٢٤٧).

عباد الله...

وهذه بعض أنواع طعامهم:

١- **الزّقوم**: هو ثمرٌ يخرج من شجرة تُنبت في أصل الجحيم، مذاقه مُرّ شديد المرارة، يغصّ في الحلق فلا يسوق إلَّا بالماء الحميم، ومِن خواصه أنَّهُ يغلي في البطن غليان الماء، فهو شبيه بالجير الَّذي إن صب عليه الماء فار وغلا، قَالَ تَعَالَى في بيانه: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [الصافات: ٦٢- ٦٧].

وقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ - ٤٦].

والمُهل: الزيت العكر أو الرصاص أو الفضة إذا أُذيبت.

٢- **الغسلين**: وهو ما تجمّع من عصارة أهل النار من قيح وصديد وعرق، وما يخرج من فروج الزناة، وما يسيل من لعاب شاربي الخمور، والمغتابين، والكذابين، وقائلي الباطل، وشاهدي الزور.

وَرَدَ ذِكر الغِسلين في قوله تَعَالَى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ [الحاقة: ٣٥- ٣٧]. والمراد من الخاطئين: الذين كسبوا السَّيِّئات فأحاطت بهم خطاياهم فدخلوا النار بذلك، قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١].

٣- **الضريع**: وهو شوكٌ مُر متناهٍ في المرارة، ينشب في الحلق، يسيغه الآكل بالحميم، فيسبب له إسهالًا فظيعًا، فلذا هو لا يُسمن آكلهُ ولا يُغنيه مِن جوع، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ * لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٦، ٧].

عباد الله...

أما عن شراب أهل النار:

والشراب لازم لكل ذي كبد رطبة، وأهل النار ذوو أكباد، فلابد لهم من ماء

يشربون، كما لابُدَّ لهم من طعام يأكلون، إذ الأكل والشرب ضروريات لبقاء الحياة، واستمرار نمائها، وقَدْ قرر لأهل النار البقاء فيها، فلذا هم يأكلون ويشربون ولم يكن الأكل والشرب ليدفع عنهم غائلة الجوع والعطش، ولكن ليزيد في محنتهم وطول عذابهم، وقَدْ سبق بيان بعض مآكلهم، وهذا بيان بعض مشاربهم:

١- الحميم: وهو ماء حار يجري من عين آنية[1]، ومن خواصه: أَنَّهُ يُصهرَ به ما في بطونهم، ويقطّع أمعاءهم، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴾ [الغاشية: ٢- ٥].

وقال تَعَالَى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٥].

وقال تَعَالَى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [الحج: ١٩- ٢٢].

٢- ماء الصديد: وهوماء كدر، يحوي كميات من الصديد، يغصّ به شاربه حَتَّى لا يكاد يسيغه، يعاني شاربه منه ألامًا لا يعلم مداها إلَّا الله تَعَالى، قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِه عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ [إبراهيم: ١٥- ١٧].

٣- ماء المهل: وهو ماء ثخين حار لكأنه النحاسُ المذاب، بحيث إذا أراد قرّبه أحدهم من فمه ليشربه، شوت حرارته جلدة وجهه، قَالَ تَعَالى فيه: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٢٩].

٤- ماء نهر الغوطة: وهو ماء متجمّع مِمَّا يسيل من فروج الزواني من النِّسَاء، فقد روى أحمد بسند صحيح أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «ثَلاَثَةٌ لاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ مُدْمِنُ خَمْرٍ وَقَاطِعُ رَحِمٍ وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ وَمَنْ مَاتَ مُدْمِناً لِلْخَمْرِ سَقَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ نَهَرِ الْغُوطَةِ». قِيل: وَمَا نَهَرُ الغُوطَةِ؟ قَالَ: «نَهَرٌ يَجْرِى مِنْ فُرُوجِ الْمُومِسَاتِ يُؤْذِى أَهْلَ النَّارِ رِيحُ فُرُوجِهِمْ»[2].

(١) آنية: أي: درجة حرارة الماء قَدْ انتهت إلى ما لا مزيد عليه أبدًا.

(٢) صحيح: رواه أحمد (٤/ ٣٩٩).

هذا؛ وننهي الكلام عَلَى مطاعم أهل النار ومشاربهم بحديث تفصيلي رواه الترمذي موقوفًا عن أبي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ الله عَنْهُ، حيث قَدْ استعرضت فيه أحوال النار بصورة وافية عجيبة، يقول:

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُلْقَى عَلَى أَهْلِ النَّارِ الجُوعُ فَيَعْدِلُ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ العَذَابِ، فَيَسْتَغِيثُونَ فَيُغَاثُونَ بِطَعَامٍ مِنْ ضَرِيعٍ لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ، فَيَسْتَغِيثُونَ بالطَّعَامِ فَيُغَاثُونَ بِطَعَامٍ ذِي غُصَّةٍ، فَيَذْكُرُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُجِيزُونَ الغُصَصَ فِي الدُّنْيَا بِالشَّرَابِ، فَيَسْتَغِيثُونَ بِالشَّرَابِ فَيُرْفَعُ إِلَيْهِمُ الحَمِيمُ بِكَلاَلِيبِ الحَدِيدِ، فَإِذَا دَنَتْ مِنْ وُجُوهِهِمْ شَوَتْ وُجُوهَهُمْ، فَإِذَا دَخَلَتْ بُطُونَهُمْ قَطَّعَتْ مَا فِي بُطُونِهِمْ، فَيَقُولُونَ: ادْعُوا خَزَنَةَ جَهَنَّمَ، فَيَقُولُونَ: ﴿أَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ﴾.

قَالَ: فَيَقُولُونَ: ادْعُوا مَالِكًا فَيَقُولُونَ: ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ قَالَ: فَيُجِيبُهُمْ ﴿إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾».

قَالَ الأَعْمَشُ: نُبِّئْتُ أَنَّ بَيْنَ دُعَائِهِمْ وَبَيْنَ إِجَابَةِ مَالِكٍ إِيَّاهُمْ أَلْفَ عَامٍ.

قَالَ: «فَيَقُولُونَ: ادْعُوا رَبَّكُمْ فَلاَ أَحَدَ خَيْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَيَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ قَالَ: فَيُجِيبُهُمْ ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾، قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ يَئِسُوا مِنْ كُلِّ خَيْرٍ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يَأْخُذُونَ فِي الزَّفِيرِ وَالحَسْرَةِ وَالوَيْلِ»(١) ا.هـ(٢).

أما عن لباسهم:

قَالَ تَعَالَى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ١٩ - ٢٢].

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) «عقيدة المؤمن» (٢٤٨ - ٢٥١) باختصار يسير.

قَالَ ابن كثير - رَحِمَهُ الله - في تفسيره لهذه الآيات: «ثَبتَ في الصَّحيحِينِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يُقْسِمُ فِيهَا إِنَّ هَذِهِ الآيَةَ ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ نَزَلَتْ فِي حَمْزَةَ وَصَاحِبَيْهِ، وَعُتْبَةَ وَصَاحِبَيْهِ يَوْمَ بَرَزُوا فِي يَوْمِ بَدْرٍ[١].

وعَنْ قَيْسِ بْنِ عُبَادٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ الله عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ: أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَجْثُو بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ لِلْخُصُومَةِ يَوْمَ القِيَامَةِ. وَقَالَ قَيْسُ بْنُ عُبَادٍ: وَفِيهِمْ أُنْزِلَتْ ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ قَالَ: هُمُ الَّذِينَ تَبَارَزُوا يَوْمَ بَدْرٍ حَمْزَةُ وَعَلِيٌّ وَعُبَيْدَةُ أَوْ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الحَارِثِ وَشَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَعُتْبَةُ وَالوَلِيدُ بْنُ عُتْبَةَ[٢].

وقَولُ مَن قَالَ: إنَّ المُراد بهذه الكَافِرُون والمُؤمِنُون، يَشْمَلُ الأقْوَالَ كُلَّها، ويَنْتَظِمُ فيه قِصَّةُ يوم بَدرٍ وغيرهَا؛ فإنَّ المُؤمنينَ يُريدُونَ نُصرَةَ دِين الله عَزَّ وَجَلَّ، والكَافِرُونَ يُريدُونَ إطْفَاءَ نُورِ الإيمَانِ وخِذْلانَ الحقِّ وظُهُورَ البَاطِلِ. وهَذَا اخْتيَارُ ابنُ جَريرٍ، وهُوَ حَسَنٌ؛ ولهذا قَالَ: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ أي: فُصِّلت لهَم مُقَطَّعاتٌ مِن النَّار.

﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالجُلُودُ﴾ أي: إذا صُبَّ عَلَى رُءُوسِهمُ الحَميمُ، وهُو الماء الحَارُّ في غَايةِ الحَرارَةِ.

وقوله تَعَالى: ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ يُضْرَبُون بِها، فَيَقَعُ كُلُّ عُضْوٍ عَلَى حِيَالِهِ، فَيَدعُون بِالثُّبُورِ.

وقوله: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ قَالَ الفُضيل بن عيَّاضٍ: والله ما طَمِعثوا في الخُرُوج، إنَّ الأَرْجُلَ لَمُقَيَّدَةٌ، وإنَّ الأيْدِي لَمُوثَقَةٌ، ولكِنْ يَرفَعُهُم لَهَبُهَا، وتَرُدُّهُم مَقَامِعُهَا.

وقوله: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ﴾ كَقولِهِ: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠] ومعنَى الكَلامِ: أَنَّهُم يُهَانُون بِالعَذَابِ قولًا وفِعلًا» ا.هـ[٣].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري (٣٩٦٥).

(٣) «صحيح تفسير ابن كثير» (٣/ ١٩).

وأمّا عن فحش أجسام أهل النار وقبح منظرهم:

فيقول تَعَالى: ﴿تَلْفَحُ وَجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤].

قَالَ العلّامة السّعدي - رَحِمَهُ الله - في تفسيره لهذه الآية: «قوله تَعَالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ قَدْ عبست وجوهُهم، وقلصت شفاههم، من شدّة ما هم فيه، وعظيم ما يلقونه» ا.هـ[١].

ويقول الشيخ أبو بكر الجزائري - حفظه الله تَعَالى -: «ماذا عسى أن نقول في فُحش أجسام أهل النار، وقبح منظرهم، وهل في الإمكان تصوّر ذَلِكَ في الذهن، أو تصويره للناس ليدركوه، ويفهموا حقيقته لولا أن الوحي الإلهي الَّذِي نطق به رَسُول الله ﷺ قَدْ رسم لنا صورة واضحةً نستشف من خلالها مدى فُحش أجسام أهل النار وقبح منظرهم؟ ولنستمع إلى كُلٍّ من الشيخين يروي لنا حديثًا في هذا الشأن يقول البخاري ومسلم في «صحيحه» يقول الرسول ﷺ: «مَا بَيْنَ مَنْكِبَي الكَافِرِ مَسِيرَةُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ لِلرَّاكِبِ المُسْرِعِ»، ويقول مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ضِرْسُ الكَافِرِ أَوْ نَابُ الكَافِرِ مِثْلُ أُحُدٍ وَغِلَظُ جِلْدِهِ مَسِيرَةُ ثَلاَثٍ» ا.هـ[٢].

عباد الله...

وأما عن تفاوت عذاب أهل النار:

فإن تفاوت العذاب بين أهل النار في دار البوار ثابتٌ مقطوعٌ به، صرَّحت بذلك الأحاديث النبوية الصحاح، وهو تابعٌ لتفاوت أعمالهم، وما كسبوا من خير وشر في هَذِهِ الحياة الدُّنْيَا، كما هو مقتضى العدل الإلهي القاضي بأن تجزى كل نفس بما عملت، لها ما كسبت من خير وعليها ما اكتسبت من شر.

وها هي الأحاديث المصرحة بتفاوت أهل النار في العذاب بحسب كسبهم الإرادي الاختياري في الحياة الدُّنْيَا، روى مسلم في «صحيحه» أنَّ النَّبيّ ﷺ قَالَ: «أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا أَبُو طَالِبٍ وَهُوَ مُنْتَعِلٌ بِنَعْلَيْنِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ»، وخفّ عذاب أبي طالب

(١) «تفسير السعدي» (٥٦٠).

(٢) «عقيدة المؤمن» (٢٥٢).

إلى هَذِهِ الدرجة من أجل ما قدَّمه من خدمات للإسلام في شخص نبيِّه مُحَمَّد رَسُول الله ﷺ، كما روي البخاري قوله ﷺ: «**إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ رَجُلٌ عَلَى أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ، كَمَا يَغْلِي المِرْجَلُ وَالقُمْقُمُ**».

كما روى مسلم أيضًا قوله ﷺ: «**مِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى حُجْزَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى تَرْقُوَتِهِ**».

وفي هذا أظهر دليل وأوضحه عَلَى تفاوت العذاب بين أهل النار» ا.هـ[(١)].

نعوذ بالله من سوء المصير، وعذاب السعير.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فقد أخبرنا النَّبيُّ ﷺ وهو الصَّادق المصدوق: أنَّ أكثر مَن يدخل النار مِن عصاة الموحِّدين هم النساء.

ففي الصحيحين أنَّهُ ﷺ قال: «**يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ، فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ**». فَقُلْنَ: وَبِمَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ وَتَكْفُرْنَ العَشِيرَ...**».

وفي حديث آخر صحيح قال ﷺ عن رجل أهل الجَنَّة: «**لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ اثْنَتَانِ**»[(٢)]. يعني من نساء الدُّنْيَا، فكيف نوفِّق بين الحديثين؟

قال الإمام القرطبيُّ -رَحِمَهُ الله-: «إن النساء يكنّ أكثر أهل النار قبل الشفاعة وخروج عصاة الموحِّدين من النار، فإذا خرجوا منها بشفاعة الشافعين، كنَّ أكثر أهل الجنة» ا.هـ[(٣)].

---

(١) «عقيدة المؤمن» (٢٥٣).

(٢) رواه مسلم (٢٨٣٤).

(٣) «التذكرة» (٤٧٥)، و«الجَنَّة والنار» للأشقر (١٩٥، ١٩٦).

وهذا كلام جيِّد قَدْ لا تجده في موضع آخر. وبالله التوفيق.

اللَّهُـمَّ إنَّـا نـسألك الجَـنَّة، ومـا يُقرِّب إليها مِن قولٍ أَوْ عملٍ، ونعوذ بك من النار وما يُقرِّب إليها من قولٍ أَوْ عملٍ

آمين... آمين... آمين

وآخر دعوانا أن الحَمْد لله رَبِّ العالمين

۞۞۞۞۞

الخطبة الثانية عشر بعد المائة:

الجَنَّة ونعيمها

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما أوسع دار المتقين، وما أطيب ريحها، إن عرضها كعرض السموات والأرض، فما بالكم بطولها؟

قال تَعَالَى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

أما ريحها، فللجنة رائحة عبقة زكيّة تملأ جنباتها، وهذه الرائحة يجدها المؤمن من مسافات شاسعة.

قَالَ رَسُول الله ﷺ: «وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ سَبْعِينَ عَامًا»[١].

وفي رواية: «وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»[٢].

عباد الله...

أما عن كيفية دخول المتقين الجنَّة، فيقول تَعَالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ * وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٣، ٧٤].

قَالَ ابن كثير - رَحِمَهُ الله - في تفسيره لهاتين الآيتين: «وهذَا إِخْبَارٌ عَنْ حَالِ السُّعداءِ الْمُؤمِنينَ حِينَ يُسَاقُونَ عَلَى النَّجَائِب وَفْدًا إلى الجَنَّة ﴿زُمَرًا﴾ أي: جَمَاعَةً بَعْدَ جَمَاعَةٍ: الْمُقَرَّبُونَ ثُمَّ الأَبْرَارُ، ثُمَّ الَّذِين يَلُونَهُم، ثُمَّ الَّذِين يَلُونَهُم كُلُّ طَائِفَةٍ مَعَ مَنْ يُنَاسِبُهُم: الأَنْبِيَاءُ مَعَ الأَنْبِيَاءِ والصِّدِّيقُون مَعَ أَشْكَالِهِم، والشُّهَداءُ مَعَ أَضْرَابِهِم، والعُلَمَاءُ مَعَ أَقْرَانِهِم، وكُلُّ صِنفٍ مَعَ صِنْفٍ، كُلُّ زُمْرَةٍ تُنَاسِبُ بَعْضَهَا بَعضًا.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا﴾ أي: وصَلُوا إلى أبواب الجَنَّة بَعد مُجَاوزةِ الصِّراطِ، حُبِسُوا عَلَى قَنْطَرةٍ بَيْنَ الجَنَّة والنَّار، فَاقْتُصَّ لَهُم مَظَالِمُ كَانَت بَيْنَهُم فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إذا هُذِّبُوا ونُقُّوا أُذِنَ لَهُم فِي دُخولِ الجَنَّة، وقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيثِ الصُّورِ: أنَّ المؤمنين إذا انْتَهُوا إلى أبْوابِ الجَنَّة تَشَاوَرُوا فِيمَن يَستأذِن لَهُم بِالدُّخُولِ، فَيَقْصِدُونَ آدَمَ ثُمَّ نُوحًا ثُمَّ إبراهيم، ثُمَّ مُوسَى، ثُمَّ عِيسَى، ثُمَّ مُحَمَّدًا - صَلَوَاتُ الله وسَلامُهُ عَلَيهم أَجْمَعِينَ - كَمَا فَعَلُوا فِي العَرَصَاتِ عِنْدَ اسْتِشفَاعِهِم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، أنْ يَأتِي لِفَصلِ القَضَاءِ، لِيُظْهَر شَرَفَ مُحَمَّد ﷺ على سَائِر البَشَر في الْمَواطِنِ كُلِّهَا.

عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الجَنَّةِ»[٣]، وفي لفظٍ: «وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَقْرَعُ بَابَ الجَنَّةِ».

(١) صحيح: رواه أحمد والنسائي، وغيرهما، وانظر «صحيح الجامع» (٦٣٢٤).
(٢) رواه البخاري وغيره.
(٣) رواه مسلم (١٩٦).

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «آتِي بَابَ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ فَيَقُولُ الخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ. قَالَ: يَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ أَنْ لاَ أَفْتَحَ لأَحَدٍ قَبْلَكَ»[(١)].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الجَنَّةَ صُورَتُهُمْ عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، لاَ يَبْصُقُونَ فِيهَا وَلاَ يَمْتَخِطُونَ وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ، آنِيَتُهُمْ فِيهَا الذَّهَبُ، أَمْشَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، وَمَجَامِرُهُمُ الأَلُوَّةُ، وَرَشْحُهُمُ المِسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، يُرَى مُخُّ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ، مِنَ الحُسْنِ، لاَ اخْتِلاَفَ بَيْنَهُمْ وَلاَ تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ، يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا»[(٢)].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لاَ يَبُولُونَ وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ وَلاَ يَتْفِلُونَ وَلاَ يَمْتَخِطُونَ، أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ، وَرَشْحُهُمُ المِسْكُ، وَمَجَامِرُهُمُ الأَلُوَّةُ الأَنْجُوجُ عُودُ الطِّيبِ، وَأَزْوَاجُهُمُ الحُورُ العِينُ، عَلَى خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ، سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ»[(٣)].

وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَيَدْخُلَنَّ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا أَوْ سَبْعُمِائَةِ أَلْفٍ - شَكَّ فِي أَحَدِهِمَا - مُتَمَاسِكِينَ، آخِذٌ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، حَتَّى يَدْخُلَ أَوَّلُهُمْ وَآخِرُهُمُ الجَنَّةَ، وَوُجُوهُهُمْ عَلَى ضَوْءِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ»[(٤)].

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «وَعَدَنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفاً بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلاَ عَذَابٍ مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفاً وَثَلاَثَ حَثَيَاتٍ مِنْ حَثَيَاتِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ»[(٥)].

وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ

---

(١) مسلم (١٩٧).

(٢) البخاري (٣٢٤٥)، ومسلم (٢٨٣٤).

(٣) البخاري (٥٨١١)، ومسلم (٢١٦).

(٤) البخاري (٣٢٤٧)، ومسلم (٢١٩).

(٥) إسناده حسن: أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٨).

فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ لم يَذْكَر الجَوَابَ هَاهُنَا، وتَقْدِيرُهُ: حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا، وكَانَت هَذِهِ الأُمُورُ مِن فَتْحِ الأَبْوَابِ لَهُم إِكْرَامًا وتَعظيمًا، وتَلَقَّتْهُم المَلائِكَةُ الخَزَنَةُ بِالبِشَارَةِ والسَّلَام والثَّنَاءِ، لا كَمَا تَلْقَى الزَّبَانِيَةُ الكَفَرَة بِالتَّثريبِ وَالتَّأنِيبِ، فَتَقدِيرُهُ: إِذَا كَانَ هَذَا سَعِدُوا وطَابُوا، وسُرُّوا وفَرِحُوا بِقَدرِ كُلِّ ما يَكُونُ لَهُم فيه نَعِيمٌ. وإِذَا حُذِفَ الجَوَابُ هَاهُنَا ذَهَبَ الذِّهْنُ كُلَّ مَذْهَبٍ فِي الرَّجَاءِ وَالأَمَلِ.

ويُستَفَادُ كُونُ أبْوابِ الجَنَّة ثَمانِيَةٌ مِنَ الأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ مِنْ شَيْءٍ مِنَ الأَشْيَاءِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ دُعِيَ مِنْ أَبْوَابِ** - يَعْنِي الجَنَّةَ - **يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصِّيَامِ، وَبَابِ الرَّيَّانِ**». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: مَا عَلَى هَذَا الَّذِي يُدْعَى مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فهَلْ يُدْعَى مِنْهَا كُلِّهَا أَحَدٌ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ يَا أَبَا بَكْرٍ**»(١).

وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**فِي الجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ، فِيهَا بَابٌ يُسَمَّى الرَّيَّانَ لاَ يَدْخُلُهُ إِلاَّ الصَّائِمُونَ**»(٢).

عن عُمَرَ بنِ الخطَّاب رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ - أَوْ فَيُسْبِغُ - الوُضُوءَ ثُمَّ يَقُولُ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ**»(٣).

وقَدْ وردت أحاديث تبيّن سِعة أبواب الجَنَّة، منها:

عن أبِي هُريرةَ رَضِيَ الله عَنْهُ فِي حَديثِ الشَّفاعة الطَّويل: «**فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ البَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا**

(١) رواه البخاري (١٨٩٧).

(٢) رواه البخاري (١٨٩٦)، ومسلم (١١٥٢).

(٣) رواه مسلم (٢٣٤).

سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ المِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَرَ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى»[(١)].

وعن عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ أَنَّهُ خَطَبَهُم فقال:... «وَلَقَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهَا يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيظٌ مِنَ الزِّحَامِ...»[(٢)].

وقوله: ﴿وَقَالَ لَـهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ أي: طابت أعمالكم وأقوالكم، وطاب سعيكم فطاب جزاؤكم.

وقوله: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ أي: ماكثين فيها أبدا، لا يبغون عنها حولا.

﴿وَقَالُوا الحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أي: يقول المؤمنون إذا عاينوا في الجنة ذلك الثواب الوافر، والعطاء العظيم، والنعيم المقيم، والملك الكبير، يقولون عند ذلك: ﴿الحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أي: الذي كان وعدنا على ألسنة رسله الكرام، كما دعوا في الدنيا: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ المِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، ﴿وَقَالُوا الحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالحَقِّ﴾ [الأعراف:٤٣]، ﴿وَقَالُوا الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ المُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر:٣٥، ٣٤].

وقولهم: ﴿وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ﴾ قال أبو العالية، وأبو صالح، وقتادة، والسدي، وابن زيد: أي أرض الجنة.

وهذه الآية كقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥]، ولهذا قالوا: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أي: أين شئنا حللنا، فنعم الأجر أجرنا على عملنا.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَأَلَ ابْنَ صَائِدٍ عَنْ تُرْبَةِ الجَنَّةِ فَقَالَ: دَرْمَكَةٌ بَيْضَاءُ مِسْكٌ خَالِصٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَدَقَ»[(٣)].

---

(١) صحيح.
(٢) رواه مسلم (٢٩٦٧).
(٣) رواه مسلم (٢٩٢٨).

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ الله عَنْهُ: أَنَّ ابْنَ صَيَّادٍ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ تُرْبَةِ الجَنَّةِ فَقَالَ: «**دَرْمَكَةٌ بَيْضَاءُ مِسْكٌ خَالِصٌ**» (١).

عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا**﴾، قَالَ: سِيقُوا حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ، وَجَدُوا عِنْدَهَا شَجَرَةً يَخْرُجُ مِنْ تَحْتِ سَاقِهَا عَيْنَانِ، فَعَمَدُوا إِلَى إِحْدَاهُمَا فَتَطَهَّرُوا مِنْهَا، فَجَرَتْ عَلَيْهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ، فَلَمْ تُغَيَّرْ أَبْشَارُهُمْ بَعْدَهَا أَبَدًا، وَلَمْ تَشْعَثْ أَشْعَارُهُمْ أَبَدًا بَعْدَهَا، كَأَنَّمَا دُهِنُوا بِالدِّهَانِ، ثُمَّ عَمَدُوا إِلَى الأُخْرَى كَأَنَّمَا أُمِرُوا بِهَا، فَشَرِبُوا مِنْهَا، فَأَذْهَبَتْ مَا كَانَ فِي بُطُونِهِمْ مِنْ أَذًى أَوْ قَذًى، وَتَلَقَّتْهُمُ المَلائِكَةُ عَلَى أَبْوَابِ الجَنَّةِ ﴿**سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ**﴾، وَيَلْقَى كُلُّ غِلْمَانٍ صَاحِبَهُمْ يَطِيفُونَ بِهِ، فَعَلَ الوِلْدَانُ بِالحَمِيمِ جَاءَ مِنَ الغَيْبَةِ: أَبْشِرْ قَدْ أَعَدَّ اللَّهُ لَكَ مِنَ الكَرَامَةِ كَذَا وَكَذَا، قَدْ أَعَدَّ اللَّهُ لَكَ مِنَ الكَرَامَةِ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: وَيَنْطَلِقُ غُلامٌ مِنْ غِلْمَانِهِ إِلَى أَزْوَاجِهِ مِنَ الحُورِ العِينِ، فَيَقُولُ: هَذَا فُلانٌ بِاسْمِهِ فِي الدُّنْيَا، فَيَقُلْنَ: أَنْتَ رَأَيْتَهُ، فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَسْتَخِفُّهُنَّ الفَرَحُ حَتَّى تَخْرُجَ إِلَى أُسْكُفَةِ البَابِ.

قَالَ: فَيَجِيءُ فَإِذَا هُوَ بِنَمَارِقَ مَصْفُوفَةٍ، وَأَكْوَابٍ مَوْضُوعَةٍ، وَزَرَابِيَّ مَبْثُوثَةٍ، قَالَ: ثُمَّ يَنْظُرُ إِلَى تَأْسِيسِ بُنْيَانِهِ، فَإِذَا هُوَ قَدْ أُسِّسَ عَلَى جَنْدَلِ اللُّؤْلُؤِ، بَيْنَ أَحْمَرَ، وَأَخْضَرَ، وَأَصْفَرَ، وَمِنْ كُلِّ لَوْنٍ، ثُمَّ يَرْفَعُ طَرْفَهُ إِلَى سَقْفِهِ فَلَوْلا أَنَّ اللَّهَ قَدَّرَهُ لَهُ لالَمَّ أَنْ يَذْهَبَ بِبَصَرِهِ، إِنَّهُ لَمِثْلُ البَرْقِ، ثُمَّ يَنْظُرُ إِلَى أَزْوَاجِهِ مِنَ الحُورِ العِينِ، ثُمَّ يَتَّكِئُ عَلَى أَرِيكَةٍ مِنْ أَرَائِكِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: ﴿**الحَمْدُ لله الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ**﴾ [الأعراف: ٤٣]. ا.هـ (٢).

عباد الله...

ومما سبق يتبيّن لنا: أنَّ دخول الجنة سيكون قطعًا في فترات متتالية، وقد يبعد ما بين الفترة والأخرى، إذ صحّ عن رسول الله ﷺ: «**أَنَّ فقراء المسلمين يدخلون الجنَّة قبل الأغنياء بخمسمائة عام**» (٣)، وذلك لعدم ما يستلزم وقوفهم طويلًا في ساحة فصل

(١) رواه مسلم (٢٩٢٨).

(٢) «صحيح تفسير ابن كثير» (٤/ ٦٣ - ٦٦).

(٣) رواه أبو داود.

القضاء وموقف الحساب، بخلاف أهل الحظّ والغنى.

إن هذا التفاوت بين أهل الجنة في دخولهم، وحُسن هيئتهم وجمال وجوههم عائدٌ إلى تفاوت أعمالهم في الدنيا، في كمياتها وكيفياتها، وهو أمرٌ مِن الوضوح بحيث لا يخفى على ذي لُب، ففي الدنيا تكتسب النفس حُسنها وجمالها من إيمان صاحبها، وأعماله الصالحة، وفي الآخرة يكتسب جمال الذات وكمال النعيم من نفس الزكاة الروحيّة التي كانت لها نتيجة إيمانها وصالح أعمالها في الحياة الدنيا.

وتستقبل الملائكة وفود الرحمن عند دخولهم إلى دار السلام، وأول المستقبلين هو رضوان خازن الجِنان، ثم الملائكة الموكلون بنعيم الجنة وأهلها، وفي القرآن الكريم: ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وفيه أيضًا: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، وفيه أيضًا: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤] [(١)].

أما عن قصور الجنة وتفاضلها، وخيامها، وغرفها:

فيقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠].

ويقول تعالى: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠].

وقال تعالى عقب وصفه لعباد الرحمن: ﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥، ٧٦].

أما التفصيل؛ فالذي يمكن أن يحدث بعض الحديث عن قصور الجنة، وما حوت من النعيم المقيم هو رجل واحد فقط ذلكم هو النبيّ الأُميّ محمد رسول الله ﷺ، إذ هو الذي تشرفت دار السلام بقدومه عليها، ورؤيته لها في هذه الحياة الدنيا يقظة مرة ومنامًا مرات أخرى، ورؤيا الأنبياء وحي، فلنستمع إليه ﷺ وهو يحدّث عنها ويقول محدثًا عن آخر رجل يدخل الجنة فيقول: « أَلْحِقْنِي بِالنَّاسِ، فَيَقُولُ: الْحَقِ النَّاسَ، قَالَ: فَيَنْطَلِقُ

---

(١) «عقيدة المؤمن» (٢٢٩) باختصار.

يَرْمُلُ فِي الجَنَّةِ حَتَّى إِذَا دَنَا مِنَ النَّاسِ رُفِعَ لَهُ قَصْرٌ مِنْ دُرَّةٍ فَيَخِرُّ سَاجِدًا، فَيُقَالَ لَهُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ مَا لَكَ؟ فَيَقُولُ: رَأَيْتُ رَبِّي أَوْ تَرَاءَى لِي رَبِّي فَيُقَالُ لَهُ: إِنَّمَا هُوَ مَنْزِلٌ مِنْ مَنَازِلِكَ، قَالَ: ثُمَّ يَلْقَى رَجُلا فَيَتَهَيَّأُ لِلسُّجُودِ لَهُ فَيُقَالَ لَهُ: مَهْ، مَا لَكَ؟ فَيَقُولُ: رَأَيْتُ أَنَّكَ مَلَكٌ مِنَ المَلائِكَةِ، فَيَقُولُ: إِنَّمَا أَنَا خَازِنٌ مِنْ خُزَّانِكَ، عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِكَ تَحْتَ يَدِي أَلْفُ قَهْرَمَانٍ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ، قَالَ: فَيَنْطَلِقُ أَمَامَهُ حَتَّى يَفْتَحَ لَهُ القَصْرَ، وَهُوَ فِي دُرَّةٍ، مُجَوَّفَةٍ سَقَائِفُهَا، وَأَبْوَابُهَا، وَأَغْلاقُهَا، وَمَفَاتِيحُهَا مِنْهَا تَسْتَقْبِلُهُ جَوْهَرَةٌ خَضْرَاءُ مُبَطَّنَةٌ بِحَمْرَاءَ كُلُّ جَوْهَرَةٍ تُفْضِي إِلَى جَوْهَرَةٍ عَلَى غَيْرِ لَوْنِ الأُخْرَى فِي كُلِّ جَوْهَرَةٍ سُرَرٌ وَأَزْوَاجٌ، وَوَصَائِفُ أَدْنَاهُنَّ حَوْرَاءُ عَيْنَاءُ عَلَيْهَا سَبْعُونَ حُلَّةً يُرَى مُخُّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ حُلَلِهَا، كَبِدُهَا مِرْآتُهُ وَكَبِدُهُ مِرْآتُهَا، إِذَا أَعْرَضَ عَنْهَا إِعْرَاضَةً ازْدَادَتْ فِي عَيْنِهِ سَبْعِينَ ضِعْفًا عَمَّا كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ، وَإِذَا أَعْرَضَتْ عَنْهُ إِعْرَاضَةً ازْدَادَ فِي عَيْنِهَا سَبْعِينَ ضِعْفًا عَمَّا كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ لَهَا: والله لَقَدِ ازْدَدْتِ فِي عَيْنِي سَبْعِينَ ضِعْفًا، وَتَقُولُ لَهُ: وَأَنْتَ والله لَقَدِ ازْدَدْتَ فِي عَيْنِي سَبْعِينَ ضِعْفًا، فَيُقَالُ لَهُ: أَشْرِفْ، قَالَ: فَيُشْرِفُ، فَيُقَالُ لَهُ: مُلْكُكَ مَسِيرَةُ مِائَةِ عَامٍ يَنْفُذُهُ بَصَرُهُ»[(١)].

هذا وأما تفاوت درجات أهل دار السلام، وتفاضل ما بينهم بحسب كمال إيمانهم، وكثرة صالح أعمالهم، فلنورد له الحديث الصحيح التالي: إذ يقول الرسول ﷺ:

«إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَتَرَاءَيُونَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا يَتَرَاءَيُونَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ فِي الأُفُقِ مِنَ المَشْرِقِ أَوِ المَغْرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لاَ يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ؟ قَالَ: «بَلَى وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بالله وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ»[(٢)].

ا.هـ[(٣)].

وعَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِى الجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ طُولُهَا سِتُّونَ مِيلاً لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُ

---

(١) قال المنذري: رواه ابن أبي الدنيا، والطبراني، والحاكم، هكذا عن ابن مسعود مرفوعًا. وأحد طرق الطبراني صحيح واللفظ له، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، وهو في مسلم بنحوه باختصار.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) «عقيدة المؤمن» (٢٣١).

فَلاَ يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا» (١).

وعَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«إِنَّ فِي الجَنَّةِ غُرْفَةً يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا أَعَدَّهَا اللَّهُ لِمَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ وَأَلاَنَ الكَلاَمَ وَتَابَعَ الصِّيَامَ وَصَلَّى وَالنَّاسُ نِيَامٌ»** (٢).

عباد الله...

هذا عن سعة الجنة، وكيف يدخلها المتقون، وهذا وصف قصورها وتفاضلها، وخيامها، وغرفها.

فماذا عن أرض الجنة؟

هل هي من تراب أبيض وأحمر؟

وهل حصباؤها من حجارة ملونة جميلة؟

وهل جدران مبانيها من لبن في غاية الحُسن والجمال؟

وهل الطين الذي يوضع بين اللَّبِنات لرصفها وإحكامها من مزيج الرمل الأبيض والأسمنت الأزرق الناعم؟

لا يستطيع أحد أن يجيب عن هذه التساؤلات كلها إلا أحد شاهدها، وهو محمد ﷺ وها هو ذا يسأله أحد أصحابه مَا بِنَاؤُهَا؟ فقَالَ ﷺ: **«لَبِنَةُ ذَهَبٍ وَلَبِنَةُ فِضَّةٍ، وَمِلاَطُهَا** (٣) **المِسْكُ الأَذْفَرُ، وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ وَاليَاقُوتُ، وَتُرَابُهَا الزَّعْفَرَانُ، مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ لاَ يَبْأَسُ، وَيَخْلُدُ لاَ يَمُوتُ، لاَ تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلاَ يَفْنَى شَبَابُهُ»** (٤).

وأما عن أنهار الجنة وأشجارها:

فهيا بنا إلى ذلك النعيم المقيم، هيا بنا إلى الأنهار الأربعة التي هي أصل كل أنهار الجنة، إنها نهر الماء، ونهر اللبن، ونهر الخمر، ونهر العسل، كما جاء ذلك في قوله عز

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) **صحيح**: رواه ابن حبان، وصححه الألباني.

(٣) **الملاط**: الطين.

(٤) رواه أحمد، وصدّره المنذري في «الترغيب» (٥٢٩٠) بـ (عن).

وجل في سورة محمد ﷺ: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [محمد: ١٥].

إنَّ من بين هذه الأنهار العظيمة نهر الكوثر، وما أدراك ما الكوثرُ؟

إنَّ الله سبحانه وتعالى خصّ به نبيَّنا محمدًا ﷺ وأمته، وهو أعظم أنهار الجنة وأحسنها، جاء الوعد به في كتاب الله تعالى القرآن الكريم حيث قال: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ١، ٢].

ولنستمع إلى صاحب هذا النهر ﷺ يصفه لنا، فنمتع سمعنا بذلك، روى البخاري عنه ﷺ مرفوعًا قوله: «بَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ فِي الجَنَّةِ فَإِذَا أَنَا بِنَهَرٍ حَافَّتَاهُ قِبَابُ الدُّرِّ المُجَوَّفِ فَقُلْتُ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الكَوْثَرُ الَّذِي أَعْطَاكَ رَبُّكَ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ: ضَرَبْتُ بِيَدِي فَإِذَا طِينُهُ مِسْكٌ أَذْفَرُ».

كما روى الترمذي بسند صحيح عنه ﷺ قوله: «الكَوْثَرُ نَهْرٌ فِي الجَنَّةِ، حَافَّتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ، وَمَجْرَاهُ عَلَى الدُّرِّ وَاليَاقُوتِ، تُرْبَتُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ، وَمَاؤُهُ أَحْلَى مِنَ العَسَلِ وَأَبْيَضُ مِنَ الثَّلْجِ».

قلت: ومن الأنهار إلى الأشجار، فلنصغ إلى البخاري يروي لنا طرفًا من أخبار الأشجار، فإنه أصحّ رواية، وأدّق عبارة في هذا الشأن، قال: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ سَنَةٍ، وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٠ - ٣٤]».

ويحدّث ابن عباس عن هذا الظل فيقول: (الظل الممدود) شجرة في الجنة على ساق قدر ما يسير الراكب المُجِدّ في ظلها مائة عام في كل نواحيها، فيخرج أهل الجنة وأهل الغرف وغيره فيتحدثون في ظلها فيشتقي بعضهم ويذكر لهو الدنيا، فيرسل الله تعالى ريحًا من الجنة فتحرّك تلك الشجة بكل لهو كان في الدنيا[١].

(١) رواه الترمذي وحسنه، وانظر «عقيدة المؤمن» (٢٣٤).

عباد الله...

أما عن المطاعم والمشارب في الجنة:

فلقد ضل قوم من الفلاسفة والنصارى فزعموا أن نعيم الجنة روحاني بحت، لا شيء فيه من النعيم للجسم بالمرة، وهذا المعتقد خطأ محض، وباطل لاشك في بطلانه عند من يعرف عن الله تعالى وعن رسله عليهم السلام.

وهذه حجج عقلية وسمعية نوردها على صحة هذا المعتقد الحيوي الخطير فنقول:

أولًا: إن الأرواح التي يراد لها النعيم لا يتم لها التنعم الحقيقي إلا إذا كانت حالة في أجسام تلائمها، وتستقر فيها، وتقوم بها، ولذا فإنه لما أريد إنعام الشهداء وتكريمهم خلق الله لأرواحهم أجسامًا خاصة تلائمها فتحلّ فيها، فتم لها التنعّم بما أعدّ الله لها من نعيم طيلة حياتها في البرزخ، فقد أخبر الرسول ﷺ أن: «**أَرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالعَرْشِ، تَسْرَحُ فِي أَيِّ الْجَنَّةِ شَاءُوا**»[(1)].

ومصداق هذا في قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّـهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠].

وثانيًا: إن القدرة الكافية التي خلقت الإنسان اليوم ورزقه، وخلقت له ضروبًا من النعيم الدنيوي كأطيب المطاعم، وألذّ المشارب، وأجمل الملابس، وأحسن المساكن وأفر المراكب، قادرة على إيجاد ذلك في الملكوت الأعلى وتوفيره بصورة أجلّ وأكرم.

وثالثًا: تفضيل الحياة الدنيا التي وجدت على أساس الفناء على الآخرة التي وجدت على أساس البقاء، وتفضيل ما يفنى على ما يبقى مردود عقلًا، ومن هنا كان من غير المعقول أن يكون النعيم في الحياة الدنيا جثمانيًا روحيًا ينال الجسم والروح معًا مع أن الدار دار كدر وتنغيص وفناء، كل ما فيها وجد على مبدأ الزمان المؤقت، والأجل المعدود، ويكون النعيم في الآخرة وهي الحياة الباقية الخالدة روحيًا بحتًا لا وجود للأجسام، ولا علاقة للأرواح بها، في حين أن الحياة في البرزخ وهو الفترة ما بين

---

(١) رواه مسلم بلفظ مقارب.

موت الإنسان إلى يوم أن يبعث لم تنقطع فيها علاقة الروح بالجسد، وإن فني وكان ترابًا، إذ سيبقى للروح تعلّق بالقبر كامل.

هذا؛ وكل ما ذكرنا من هذه الأدلة العقلية على أن النعيم يكون في الآخرة جثمانيًا روحيًا معًا ليس بشيء إلى جانب الأدلة السمعية الدينية الشرعية التي هي أخبار الله تعالى وأخبار رسوله ﷺ، إذ لا أعلم بالخلق من الخالق، ولا من الرائي بها رأى وشاهد، فالله تعالى يقول مخبرًا عما سينعم به على عباده المسلمين الذين آمنوا وكانوا يتقون: ﴿يَا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ * ادْخُلُوا الـجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَتِلْكَ الـجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٨- ٧٣].

والرسول ﷺ يحدِّث عن نعيم أهل الجنة ويصفه كما رآه وعرفه فيقول: «إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ، وَلاَ يَتْفُلُونَ، وَلاَ يَبُولُونَ، وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ، وَلاَ يَمْتَخِطُونَ». قَالُوا: فَمَا بَالُ الطَّعَامِ؟ قَالَ: «جُشَاءٌ وَرَشْحٌ كَرَشْحِ المِسْكِ، يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفَسَ»(١).

وما ذكرناه لم يعدُ أن يكون شاهدًا فقط، إلا فإن هناك عشرات الآيات والأحاديث الصحاح تصرّح بنعيم أهل الجنة، وأنه روحاني جثماني، وأنه ليس مقصورًا على المطاعم والمشارب بل يتعداه إلى لبس الحلل، والتحليّ بالحليّ، والجلوس على الأرائك، والتمتع بالنساء والطرب، وركوب الخيل، والزيارات الكريمة، واللقاءات الحبيبة.

وهذه أخبار الله تعالى وأخبار رسوله ﷺ تتحدث بذلك فلنستمع إليها وهي تقول عن الحلي والحلل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ القَوْلِ﴾ [الحج: ٢٣، ٢٤].ا.هـ(٢).

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) «عقيدة المؤمن» (٢٣٦، ٢٣٧) باختصار يسير.

أما عن لباس أهل الجنة وحُلَلهم:

فيقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ القَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٣، ٢٤].

قال ابن كثير – رحمه الله –: «لَمَّا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ حَالِ أَهْلِ النَّارِ – عِياذًا بالله من حَالِهِم – ومَا هُم فِيهِ مِنَ العَذَابِ والنَّكالِ وَالحَرِيقِ والأَغْلَالِ، ومَا أعدَّ لَهُم مِنْ الثِّيَابِ مِنَ النَّار، ذَكَرَ حَالَ أَهْلِ الجَنَّة – نَسأَلُ الله مِن فَضلهِ وكَرمهِ أَنْ يُدخِلنَا الجَنَّة–فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أي: تَتَخَرَّقُ في أَكْنَافِهَا وأَرْجَائِهَا وجَوانِبِهَا، وتَحتَ أَشْجَارِهَا وقُصُورِهَا، يَصرِفُونَهَا حَيْثُ شَاءُوا وأين أَرَادُوا، ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ مِن الحِليَةِ، ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ أي: في أَيْدِيهم، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ في الحديث المتفق عليه: «تَبلُغُ الحِلْيَةُ مِن المُؤمِنِ حَيثُ يَبلُغُ الوُضُوء»[1].

وقَولُهُ: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ في مُقَابلةِ ثِيَابِ أَهْلِ النَّارِ الَّتِي فُصِّلَت لَهُم، لِبَاسِ هَؤُلاءِ مِن الحَرِير، إِسْتَبرقُهُ وسُنْدُسُهُ، كما قَالَ: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢١، ٢٢]، وفي الصحيح: «لاَ تَلْبَسُوا الحَرِيرَ فَإِنَّهُ مَنْ لَبِسَهُ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الآخِرَةِ». قَالَ عَبدُ الله بنُ الزُّبَير: مَنْ لم يَلْبَسِ الحَرِيرَ في الآخِرَةِ لم يَدخُلِ الجَنَّة، قَالَ الله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

وقَولُهُ: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ القَوْلِ﴾ كَقَولِهِ تَعَالى: ﴿وَالمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤ ، وقوله: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلا سَلامًا سَلامًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، فَهُدُوا إلى المَكَانَ الَّذِي يَسمْعُونَ فِيهِ الكَلامَ الطَّيِّبَ، وقولِهِ: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا﴾ [الفرقان: ٧٥]، لا كَمَا يُهَانُ أَهْلُ النَّارِ بِالكَلام الَّذِي يُوبَّخُونَ بِهِ ويُقَرَّعُونَ بِهِ، يُقَالَ لَهُم: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ﴾.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٠).

وقَولُهُ: ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الحَمِيدِ﴾ أي: إلى المَكَان الَّذِي يَحْمَدُون فيهِ رَبَّهم عَلَى مَا أحسَنَ إليَهِم وأنْعَمَ بِهِ وأسْدَاهُ إليهم، كَمَا جَاءَ في الصَّحيح: «**إنَّهُم يُلهَمُون التَّسبِيحَ والتَّحميدَ كَمَا يُلهَمُون النَّفَسَ**».

وقَد قَالَ بَعضُ المفَسِّرينَ في قوله: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ القَوْلِ﴾ أي: القُرآنُ. وقِيل: لا إله إلَّا الله. وقِيل: الأَذْكَارُ المَشْرُوعَةُ، ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الحَمِيدِ﴾ أي: الطَّرِيقِ المُسْتَقِيمِ في الدُّنْيَا. وَكُلُّ هَذَا لا يُنَافِي مَا ذَكرنَاهُ، والله أعْلَمُ» ا.هـ[1].

أما عن فراش الجنة وأسِرَّتها:

فيقول الله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ [الغاشية: ١٣].

وعن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤] قال: «أُخبرتم بالبطائن، فكيف بالظهائر؟»[2].

وقال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٣٤، ٣٥].

عباد الله...

وأهل الجنة في الجنة يتزاورون، ويتحدّثون بما كان منهم في دار الدنيا، قال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ البَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٥- ٢٨].

وقال تَعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ المُصَدِّقِينَ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ المُحْضَرِينَ * أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ * لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ العَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٥٠- ٦١].

قَالَ ابن كثير - رَحِمَهُ الله - في تفسيره لهذه الآيات: «يُخبر تَعَالى عَنْ أهلِ الجَنَّة أنَّهُ

---

(١) «صحيح تفسير ابن كثير» (٣/ ١٩١، ١٩٢).

(٢) رواه البيهقي موقوفًا بإسناد حسن.

أَقْبَلَ بَعضُهُم عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ، أي: عَنْ أَحْوَالِهِم، وَكَيْفَ كَانُوا فِي الدُّنيَا، ومَاذَا كَانُوا يُعَانُون فِيهَا؟ وذَلكَ مِن حَدِيثِهم عَلَى شَرَابِهم، واجْتِمَاعِهم فِي تَنَادُمِهم ومُعَاشَرتِهم فِي مَجَالِسِهم، وهُم جُلوسٌ عَلَى السُّرُرِ، والخَدَمُ بَيْنَ أَيْدِيهم، يَسْعَونَ ويَجِيئُونَ بِكُل خَيرٍ عَظِيم، مِن مَآكَلَ ومَشارِبَ ومَلابسَ، وغَير ذَلِكَ مِمَّا لا عَينٌ رَأت، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَت، وَلا خَطَرَ عَلَى قَلبِ بَشَرٍ.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ قِيلَ: يعني شَيطانًا. وقِيل: هُوَ الرَّجُل المُشرِكُ، يَكُونُ لَهُ صَاحِبٌ مِن أهلِ الإيمانِ في الدُّنيَا. وَلا تَنَافِي ؛ فإِنَّ الشَّيطانَ يَكُونُ مِنَ الجِنِّ فَيُوسوِسُ فِي النَّفْسِ، ويَكُونُ مِن الإنْسِ فَيَقُولُ كَلامًا تَسمعُهُ الأُذُنَانِ، وَكِلاهُمَا مُتَعَادِيَانِ، قَالَ الله تَعَالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢] وَكُل مِنْهُما يُوسوِسُ، كَمَا قَالَ تَعَالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [سورة الناس]. ولهذا ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ أي: أَأَنْتَ تُصدِّقُ بِالبَعْثِ والنُّشُورِ والحِسَابِ والجَزَاءِ؟! يعني: يَقُولُ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّعَجُّبِ والتَّكذِيبِ والاسْتِبعَادِ، والكُفرِ والعِنَادِ. ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ قِيلَ: لَمُحَاسَبُونَ؟ وقِيل: لَمجزيُّونَ بَأَعْمَالِنَا، وكِلاهُمَا صَحِيحٌ.

قَالَ: ﴿قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ﴾ أي: مُشرِفُونَ. يَقُولُ المُؤمِنُ لأَصْحَابِهِ وجُلَسَائِهِ مِنْ أَهْلِ الجَنَّة. ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ يَعني: فِي وَسَطِ الجَحِيمِ. وقَالَ الحَسَنُ البَصْريُّ: فِي وَسَطِ الجَحِيم كَأَنَّهُ شِهَابٌ يَتَّقِدُ.

﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ﴾ يَقُولُ المُؤمِنُ مُخَاطِبًا لِلكَافِر: والله إِنْ كِدتَ لَتُهلِكَنِي لو أَطَعتُكَ. ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ أي: وَلَولَا فَضْلُ الله عَلَيَّ لَكُنتُ مِثْلُكَ فِي سَواءَ الجَحِيم حَيْثُ أَنْتَ، مُحضَرٌ مَعَكَ فِي العَذَابِ، ولَكِنَّهُ تَفَضَّلَ عليَّ ورَحِمَني فَهَداني للإِيمَانِ، وأَرْشَدَنِي إِلى تَوحِيدِهِ ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣].

وقَولُهُ: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ هَذَا مِن كَلامِ المُؤمِنِ مُغتَبطًا نَفْسَهُ بِمَا أَعْطَاهُ الله مِن الخُلْدِ فِي الجَنَّة والإِقَامَةِ فِي دَارِ الكَرَامَةِ، لا مَوتٍ فِيهَا ولا عَذابٍ؛ ولهذا قَالَ: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وقَولُهُ: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ العَامِلُونَ﴾.

قَالَ قَتَادةَ: هَذَا مِن كَلامِ أهلِ الجَنَّة.

وقَالَ ابن جَريرٍ: هُوَ مِنْ كَلَامِ الله تَعَالى، ومَعْنَاهُ: لمِثْلِ هَذَا النَّعِيمِ وهَذَا الفَوْزِ فَليعْمَلِ العَامِلُونَ في الدُّنْيَا، لِيَصيرُوا إليه في الآخِرَةِ» ا.هـ[1].

عباد الله...

أما عن نساء الجنة:

فيقول تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥].

قال ابن القيم رحمه الله: «من الحَيض والبول والغائط والمخاط، والبصاق، وكلّ قذر، مطهرة من الأخلاق السيئة والصفات المذمومة، ولسانها من الفحش والبذاء، وطَرفها من أن تطمع به إلى غير زوجها» ا.هـ.

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**لَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ أَوْ مَوْضِعُ قَدِّهِ - يَعْنِي سَوْطَهُ - مِنَ الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَوِ اطَّلَعَتِ امْرَأَةٌ مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ إِلَى الأَرْضِ لَمَلأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا، وَلَطَابَ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَنَصِيفُهَا[2] عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**»[3].

وعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَن النبي ﷺ: «**إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَى أَضْوَإِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ اثْنَتَانِ، يُرَى مُخُّ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ وَمَا فِي الجَنَّةِ أَعْزَبُ**»[4].

وقال ﷺ: «**لو أنَّ امرأةً مِن نساء أهل الجَنَّة أشْرَفَت لملأت الأرضَ ريحَ المِسْك، ولأذهبت ضوءَ الشَّمس والقمر**»[5].

---

(١) «صحيح تفسير ابن كثير» (٣/ ٦٨٤- ٦٨٦).

(٢) النّصيف: الخمار.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

(٥) رواه الطبراني والبزار، وهو حسن في المتابعات.

وأما عن الحور العين:

فيقول الله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٢، ٢٣].

وقال تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٧٢ - ٧٤].

وقال ﷺ: «لاَ تُؤْذِي امْرَأَةٌ زَوْجَهَا فِي الدُّنْيَا إِلاَّ قَالَتْ زَوْجَتُهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ: لاَ تُؤْذِيهِ قَاتَلَكِ اللَّهُ فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكِ دَخِيلٌ يُوشِكُ أَنْ يُفَارِقَكِ إِلَيْنَا»(١).

عباد الله...

هذه بعض أوصاف الجنة، وأحوال أهلها، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهلها بمنّه وكرمه.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فقد بانَ لك يا عبد الله ما أعدَّ الله تَعَالى لأوليائه في الآخرة.

فهلمَّ إلى الدُّخولِ على الله ومجاورته في دار السلام، بلا نصبٍ ولا تعبٍ ولا عناءٍ، بل من أقرب الطُّرق وأسهلِها . وذلك أنَّك في وقت بين وقتين، وهو في الحقيقة عمرُك، وهو وقتُكَ الحَاضرُ بين ما مضى وما يُستقبل، فالذي مضى تُصلحُهُ بالتوبة والنَّدم والاستغفار، وذلك شيءٌ لا تعب عليك فيه ولا نصبٍ ولا معاناةَ عمل شاقٍّ، إنَّما هو عملُ القلب . وتَمتنِعُ فيما يستقبلُ مِن الذُّنوب، وامتناعُكَ تركٌ وراحةٌ، ليسَ هو عملًا بِالجوارحِ يَشقُّ عليكَ معاناتُه، وإنَّما هو عزمٌ ونيَّةٌ جَازمةٌ تُريحُ بدنَكَ وقَلبكَ وسرَّكَ، فما مضى تُصلحهُ بالتوبة، وما يستقبلُ تُصلحُهُ بالامتناع والعزم والنيَّة، وليس للجوارح في هذين نصب ولا تعب، ولكن الشأن في عمرِك وهو وقتُكَ الذي بين الوقتين، فإن

(١) صحيح: رواه أحمد.

أضعتهَ أضعتَ سعادتَك ونجاتَك، وإن حفظتَه - مع إصلاح الوقتين اللذين قبله وبعده بها ذُكِر - نَجوتَ وفُزتَ بالرَّاحة واللَّذة والنعيم.

وحِفظُه أشقُّ من إصلاح ما قبلَه وما بعدَه، فإنَّ حِفظَهُ أنْ تَلزمَ نفسَكَ بها هو أوْلى بها وأنفعُ لها وأعظمُ تحصيلًا لسعادتها. وفي هذا تفاوتَ الناسُ أعظم تفاوتٍ، فهي والله أيَّامُكَ الخالية التي تجمع فيها الزادَ لمعادكَ، إمَّا إلى الجنةِ وإما إلى النارِ، فإنْ اتَّخذت إليها سَبيلًا إلى ربك بلغت السعادة العظمى والفوز الأكبر في هذه المدة اليسيرةِ التي لا نسبةَ لها إلى الأبد، وإن آثرت الشهواتِ والرَّاحات واللهوَ واللعبَ؛ انقضت عنك بسرعةٍ وأعقبتكَ الألمَ العظيمَ الدائم الذي مُقاساتُه ومُعاناتُه أشقُّ وأصعب وأدومُ من معاناة الصَّبر عن محارم الله والصَّبر على طاعته ومخالفته الهوى لأجلِهِ»[1].

عباد الله...

ونختم خطبة اليوم بأبيات من الشِّعر في وصف الجنة، ذكرها ابن القيم رحمه الله، في كتابه «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح»: قال - رحمه الله - تحت عنوان: (شعر في وصف الجنة):

ومـا ذاك إلا غـيرة أن يـنالها	**سـوى كفـئها والـرب بالخلـق أعلـم**
وإن حجـبت عـنا بكـل كـريهة	**وحفـت بمـا يـؤذي الـنفوس ويـؤلم**
فللـه مـا في حـشوها مـن مـسرة	**وأصـناف لـذات بهـا يتـنعم**
ولله بـرد العـيش بـين خـيامها	**وروضـاتها والثغـر في الـروض يبسم**
ولله واديهـا الـذي هـو مـوعد المـز	**يـد لـوفد الحـب لـو كـنت مـنهم**
بـذيالك الـوادي يهـيم صـبابة	**محـب يـري أن الـصبابة مغـنم**
ولله أفـراح المحـبين عـندما	**يخاطـبهم مـن فـوقهم ويـسلم**
ولله أبـصار تـرى الله جهـرة	**فـلا الـضيم يغـشاها ولا هـي تـسأم**
فـيا نظـرة أهـدت إلى الـوجه نـضرة	**أمـن بعـدها يـسلو المحـب المتـيم**

---

(١) «الفوائد» لابن القيم.

ولله كم من خيرة إن تبسمت أضاء لها نور من الفجر أعظم
فيا لذة الأبصار إن هي أقبلت ويا لذة الأسماع حين تكلم
ويا خجلة الغصن الرطيب إذا انثنت ويا خجلة الفجرين حين تبسم
فإن كنت ذا قلب عليل بحبها فلم يبق إلا وصلها لك مرهم
ولا سيما في لثمها عند ضمها وقد صار منها تحت جيدك معصم
تراه إذا أبدت له حسن وجهها يلذ به قبل الوصال وينعم
تفكه منها العين عند إجتلائها فواكه شتى طلعها ليس يعدم
عناقيد من كرم وتفاح جنة ورمان أغصان به القلب مغرم
وللورد ما قد ألبسته خدودها وللخمر ما قد ضمه الريق والفم
تقسم منها الحسن في جمع واحد فيا عجبا من واحد يتقسم
لها فرق شتى من الحسن أجمعت بجملتها إن السلو محرم
تذكر بالرحمن بمن هو ناظر فينطق بالتسبيح لا يتلعثم
إذا قابلت جيش الهموم بوجهها تولي على أعقابه الجيش يهزم
فيا خاطب الحسناء إن كنت راغبا فهذا زمان المهر فهو المقدم
ولما جرى ماء الشاب بغصنها تيقن حقا انه ليس يهرم
وكن مبغضا للخائنات لحبها فتحظى بها من دونهن وتنعم
وكن أيما ممن سواها فإنها لمثلك في جنات عدن تأيم
وصم يومك الأدنى لعلك في غد تفوز بعيد الفطر والناس صوم
وأقدم ولا تقنع بعيش منغص فما فاز باللذات من ليس يقدم
وأن ضاقت الدنيا عليك بأسرها ولم يك فيها منزل لك يعلم
فحي على جنات عدن فأنها منازلها الأولى وفيها المخيم
ولكننا سبي العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلم
وقد زعموا أن الغريب إذا نأى وشطت به أوطانه فهو مغرم
وأي إغتراب فوق غربتنا التي لها أضحت الأعداء فينا تحكم

حـي علـى السوق الذي فيه يلتقي الـ ـمحـبون ذاك الـسوق للقـوم تعلـم
فما شـئت خـذ مـنه بـلا ثمـن لـه فقـد أسـلف الـتجار فـيه واسـلموا
وحـي علـى يـوم المـزيد الـذي بـه زيـارة رب العـرش فالـيوم موسـم
وحـي علـى واد هـنالك أفـيح وتـربته مـن إذفـر المـسك أعظـم
منابـر مـن نـور هـناك وفـضة ومـن خـالص العقـيان[1] لا تتقـصم
وكثـبان مـسك قـد جعلـن مقاعـدا لمـن دون أصـحاب المنابـر يعلـم
فبينـا همـوا في عيـشهم وسـرورهم وأرزاقهـم تجـري علـيهم ونقـسم
ذاهـم بـنور سـاطع أشـرقت لـه بأقطارهـا الجـنات لا يـتوهم
تجلـى لهـم رب الـسموات جهـرة فيـضحك فـوق العـرش ثـم يكلـم
سـلام علـيكم يـسمعون جمـيعهم بـآذانهم تـسليمه إذ يـسلم
يقول سلوني ما أشتهيتم فكل ما تـريدون عـندي أنـني أنـا أرحـم
فقالـوا جمـيعا نحـن نـسألك الرضـا فأنـت الـذي تـولى الجمـيل وتـرحم
فيعطـيهم هـذا ويـشهد جمـيعهم علـيه تعـالى الله فـالله أكـرم
فـيا بائعـا هـذا بـبخس معجـل كأنـك لا تـدري بلـى سـوف تعلـم
فـإن كـنت لا تـدري فـتلك معـصية وإن كـنت تـدري فالمعـصيبة أعظـم

فشمّر - يا عبد الله- عن ساعد الجدّ، وتزوّد بالباقيات الصالحات، وتَحَرَّر من رِق الذنوب والمعاصي، واعزم على التوبة النّصوح مع سَبق الإصرار والترصُّد، واستقم حتى يأتيك اليقين.

وعند الموت يُحمد القوم التُّقى.

۞۞۞۞۞

---

(١) العقيان: الذهب الخالص.

الخطبة الثالثة عشر بعد المائة:

مآلُ أطفال المؤمنين والمشركين في الآخرة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۞ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد سأل كثير من الناس عن مآل أطفال المؤمنين وأطفال المشركين في الآخرة.

ونجيب عن هذا السؤال في هذه الخطبة - إن شاء الله تعالى - والله الموفّق للصواب.

عن سَمُرَةُ بْنُ جُنْدَبٍ - رضي الله عنه - قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِمَّا يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ لأَصْحَابِهِ: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤْيَا». قَالَ: فَيَقُصُّ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُصَّ، وَإِنَّهُ قَالَ ذَاتَ غَدَاةٍ: «إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ، وَإِنَّهُمَا ابْتَعَثَانِي، وَإِنَّهُمَا قَالاَ لِي: انْطَلِقْ.

وَإِنِّى انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا، وَإِنَّا أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ، وَإِذَا هُوَ يَهْوِى بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ، فَيَثْلَغُ[١] رَأْسَهُ فَيَتَهَدْهَدُ[٢] الحَجَرُ هَا هُنَا، فَيَتْبَعُ الحَجَرَ فَيَأْخُذُهُ، فَلاَ يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ، فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ المَرَّةَ الأُولَى. قَالَ: قُلْتُ لَهُمَا: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا هَذَانِ؟ قَالَ: قَالاَ لِى: انْطَلِقْ.

قَالَ: فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِكَلُّوبٍ[٣] مِنْ حَدِيدٍ، وَإِذَا هُوَ يَأْتِى أَحَدَ شِقَّىْ وَجْهِهِ فَيُشَرْشِرُ[٤] شِدْقَهُ[٥] إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخِرَهُ إِلَى قَفَاهُ وَعَيْنَهُ إِلَى قَفَاهُ - قَالَ: وَرُبَّمَا قَالَ أَبُو رَجَاءٍ: فَيَشُقُّ - قَالَ: ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الجَانِبِ الآخَرِ، فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِالجَانِبِ الأَوَّلِ، فَمَا يَفْرُغُ مِنْ ذَلِكَ الجَانِبِ حَتَّى يَصِحَّ ذَلِكَ الجَانِبُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلَ المَرَّةَ الأُولَى. قَالَ: قُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا هَذَانِ؟ قَالَ: قَالاَ لِى: انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى مِثْلِ التَّنُّورِ - قَالَ: فَأَحْسِبُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ - فَإِذَا فِيهِ لَغَطٌ وَأَصْوَاتٌ، قَالَ: فَاطَّلَعْنَا فِيهِ، فَإِذَا فِيهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ، وَإِذَا هُمْ يَأْتِيهِمْ لَهَبٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ، فَإِذَا أَتَاهُمْ ذَلِكَ اللَّهَبُ ضَوْضَوْا[٦]، قَالَ: قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَؤُلاَءِ؟ قَالَ: قَالاَ لِى: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

قَالَ: فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ - حَسِبْتُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: - أَحْمَرَ مِثْلِ الدَّمِ، وَإِذَا فِى النَّهَرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسْبَحُ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهَرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةً كَثِيرَةً، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ مَا يَسْبَحُ، ثُمَّ يَأْتِى ذَلِكَ الَّذِى قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ الحِجَارَةَ فَيَفْغَرُ لَهُ فَاهُ فَيُلْقِمُهُ حَجَرًا فَيَنْطَلِقُ يَسْبَحُ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ، كُلَّمَا رَجَعَ إِلَيْهِ فَغَرَ لَهُ فَاهُ فَأَلْقَمَهُ حَجَرًا، قَالَ: قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَانِ؟ قَالَ: قَالاَ لِى: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

---

(١) يثلغ: يشدخ.

(٢) يتهدد: يتدحرج.

(٣) الكلوب: حديدة معوجة الرأس. انظر «النهاية» (٤/ ١٩٥).

(٤) يشرشره: يشقه ويقطعه. انظر «النهاية» (٢/ ٤٥٩).

(٥) الشدق: جانب الفم. انظر «النهاية» (٢/ ٤٥٣).

(٦) ضوضوا: ضجُّوا واستغاثوا. انظر «النهاية» (٣/ ١٠٥).

قَالَ: فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ كَرِيهِ المَرْآةِ[١] كَأَكْرَهِ مَا أَنْتَ رَاءٍ رَجُلاً مَرْآةً، وَإِذَا عِنْدَهُ نَارٌ يَحُشُّهَا[٢] وَيَسْعَى حَوْلَهَا، قَالَ: قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَا؟ قَالَ: قَالاَ لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى رَوْضَةٍ مُعْتَمَّةٍ فِيهَا مِنْ كُلِّ نَوْرِ الرَّبِيعِ، وَإِذَا بَيْنَ ظَهْرَيِ الرَّوْضَةِ رَجُلٌ طَوِيلٌ لاَ أَكَادُ أَرَى رَأْسَهُ طُولاً فِي السَّمَاءِ، وَإِذَا حَوْلَ الرَّجُلِ مِنْ أَكْثَرِ وِلْدَانٍ رَأَيْتُهُمْ قَطُّ، قَالَ: قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَا؟ مَا هَؤُلاَءِ؟ قَالَ: قَالاَ لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

قَالَ: فَانْطَلَقْنَا فَانْتَهَيْنَا إِلَى رَوْضَةٍ عَظِيمَةٍ لَمْ أَرَ رَوْضَةً قَطُّ أَعْظَمَ مِنْهَا وَلاَ أَحْسَنَ. قَالَ: قَالاَ لِي: ارْقَ فِيهَا. قَالَ: فَارْتَقَيْنَا فِيهَا فَانْتَهَيْنَا إِلَى مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَبِنِ ذَهَبٍ وَلَبِنِ فِضَّةٍ، فَأَتَيْنَا بَابَ المَدِينَةِ فَاسْتَفْتَحْنَا فَفُتِحَ لَنَا، فَدَخَلْنَاهَا فَتَلَقَّانَا فِيهَا رِجَالٌ شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهِمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَاءٍ، وَشَطْرٌ كَأَقْبَحِ مَا أَنْتَ رَاءٍ، قَالَ: قَالاَ لَهُمْ: اذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهَرِ. قَالَ وَإِذَا نَهَرٌ مُعْتَرِضٌ يَجْرِي كَأَنَّ مَاءَهُ المَحْضُ[٣] فِي البَيَاضِ، فَذَهَبُوا فَوَقَعُوا فِيهِ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ، فَصَارُوا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، قَالَ: قَالاَ لِي: هَذِهِ جَنَّةُ عَدْنٍ، وَهَذَاكَ مَنْزِلُكَ.

قَالَ: فَسَمَا بَصَرِي صُعُدًا، فَإِذَا قَصْرٌ مِثْلُ الرَّبَابَةِ[٤] البَيْضَاءِ، قَالَ: قَالاَ هَذَاكَ مَنْزِلُكَ. قَالَ: قُلْتُ لَهُمَا: بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمَا، ذَرَانِي فَأَدْخُلَهُ. قَالاَ: أَمَّا الآنَ فَلاَ وَأَنْتَ دَاخِلُهُ.

قَالَ: قُلْتُ لَهُمَا: فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مُنْذُ اللَّيْلَةِ عَجَبًا، فَمَا هَذَا الَّذِي رَأَيْتُ؟ قَالَ: قَالاَ لِي: أَمَا إِنَّا سَنُخْبِرُكَ.

أَمَّا الرَّجُلُ الأَوَّلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُثْلَغُ رَأْسُهُ بِالحَجَرِ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ القُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ وَيَنَامُ عَنِ الصَّلاَةِ المَكْتُوبَةِ. وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُشَرْشَرُ شِدْقُهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخِرُهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنُهُ إِلَى قَفَاهُ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ فَيَكْذِبُ الكَذْبَةَ تَبْلُغُ الآفَاقَ.

وَأَمَّا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ العُرَاةُ الَّذِينَ فِي مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُّورِ فَإِنَّهُمُ الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي. وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يَسْبَحُ فِي النَّهَرِ وَيُلْقَمُ الحَجَرَ، فَإِنَّهُ آكِلُ الرِّبَا. وَأَمَّا الرَّجُلُ الكَرِيهُ

---

(١) أي: سيئ المنظر.

(٢) **يحشها**: يوقدها. انظر «النهاية» (١/ ٣٨٩).

(٣) **المحض**: الخالص من كل شيء. انظر «النهاية» (٤/ ٣٠٢).

(٤) **الربابة**: السحاب الذي ركب بعضه بعضًا. انظر «النهاية» (٢/ ٣٨١).

الْمَرْآةِ الَّذِى عِنْدَ النَّارِ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا، فَإِنَّهُ مَالِكٌ خَازِنُ جَهَنَّمَ.

وَأَمَّا الرَّجُلُ الطَّوِيلُ الَّذِى فِى الرَّوْضَةِ فَإِنَّهُ إِبْرَاهِيمُ ﷺ. وَأَمَّا الوِلْدَانُ الَّذِينَ حَوْلَهُ فَكُلُّ مَوْلُودٍ مَاتَ عَلَى الفِطْرَةِ».

قَالَ: فَقَالَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَوْلاَدُ الْمُشْرِكِينَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**وَأَوْلاَدُ الْمُشْرِكِينَ. وَأَمَّا القَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا شَطْرٌ مِنْهُمْ حَسَنًا وَشَطْرٌ مِنْهُمْ قَبِيحًا، فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا، تَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُمْ**»[١].

والشاهد في هذا الحديث قوله ﷺ: «**وَأَمَّا الوِلْدَانُ الَّذِينَ حَوْلَهُ**[٢] **فَكُلُّ مَوْلُودٍ مَاتَ عَلَى الفِطْرَةِ**». قَالَ: فَقَالَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَوْلاَدُ الْمُشْرِكِينَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**وَأَوْلاَدُ الْمُشْرِكِينَ**».

عباد الله...

قال الإمام ابن رجب الحنبلي في «أهوال القبور» (١٣٢ - ١٣٧): «أما بقيّة المؤمنين سوى الشهداء فيقسمون إلى: أهل تكليف وغير أهل تكليف فهذان قسمان:

أحدهما: غير أهل التكليف: كأطفال المؤمنين

فالجمهور على أنهم في الجنة، وقد حكى الإمام أحمد على ذلك الإجماع

وقال - في رواية جعفر بن محمد -: ليس فيهم اختلاف يعني أنهم في الجنة

وقال - في رواية الميموني -: لا أحد يشك أنهم في الجنة

وذَكَرَ الخَلَّال مِن طريق حنبل عن أحمد قال: نحن نقر بأن الجنة قد خلقت ونؤمن بأن الجنة والنار مخلوقتان قال عز وجل: ﴿**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا**﴾ [غافر: ٤٦]، لآل فرعون وقال: أرواح ذراري المسلمين في أجواف طير خضر تسرح في الجنة يكفلهم أبوهم إبراهيم فيدل هذا أنها خلقنا

وكذلك نص الشافعي عن السلف على أن أطفال المسلمين في الجنة

(١) أخرجه البخاري (٧٠٤٧)، ومسلم (٢٢٧٥).

(٢) حول إبراهيم عليه السلام.

وجاء صريحًا عن السلف على أن أرواحهم في الجنة، ويدل على صحة ذلك ما في «صحيح مسلم»: فَلَمَّا تُوُفِّيَ إِبْرَاهِيمُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ ابْنِي وَإِنَّهُ مَاتَ فِي الثَّدْيِ وَإِنَّ لَهُ لَظِئْرَيْنِ تُكَمِّلاَنِ رَضَاعَهُ فِي الْجَنَّةِ**»[1]. وخرج ابن ماجه نحوه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «**ذَرَارِيُّ الْمُسْلِمِينَ فِي الْجَنَّةِ يَكْفُلُهُمْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ**»[2].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «**أولاد المسلمين في جبل في الجنة، يكفلهم إبراهيم وسارة عليهما السلام، فإذا كان يوم القيامة دُفِعوا إلى آبائهم**»[3].

وذهبت طائفة إلى أنه يشهد لأطفال المؤمنين عموما أنهم في الجنة ولا يشهد لأحادهم وهو قول ابن راهويه نقله عنه إسحاق بن منصور وحرب في مسائلهما ولعل هذا يرجع إلى الطفل المُعَيَّن لا يُشهد لأبيه بالإيمان فلا يُشهَد له حينئذ أنه من أطفال المؤمنين فيكون الوقف في آحادهم كالوقف في إيمان آبائهم

وحكى ابن عبد البر عن طائفة من السلف القول بالوقف في أطفال المؤمنين منهم حماد بن زيد وحماد بن سلمة وابن المبارك وإسحاق وهو بعيد جدًّا ولعله أخذ ذلك من عمومات كلام لهم وإن أرادوا بها أطفال المشركين.

وكذلك اختار القول بالوقف طائفة منهم: الأثرم والبيهقي وذكر أن ابن عباس رجع إليه والإمام أحمد ذكر أن ابن عباس إنما قال ذلك في أطفال المشتركين وإنما أخذه البيهقي من عموم لفظ روي عنه كما أنه روى في بعض ألفاظ حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ سئل عن الأطفال فقال: «**الله أعلم بما كانوا عاملين**»[4] - ولكن الحفاظ الثقات ذكروا أنه سئل عن أطفال المشركين.

واستدل القائل بالوقف بما أخرجه مسلم من حديث فُضَيْلِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ عَائِشَةَ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣١٦)، وابن ماجه (١٥١١).

(٢) **حسن**: رواه ابن حبان (١٨٢٦)، وغيره، وانظر «الصحيحة» (٦١٣).

(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٣٨٤)، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه البخاري (١٣٨٤)، ومسلم (٢٦٥٩)، والنسائي (٤/ ٥٨).

بِنْتِ طَلْحَةَ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ: تُوُفِّيَ صَبِيٌّ فَقُلْتُ: طُوبَى لَهُ عُصْفُورٌ مِنْ عَصَافِيرِ الْجَنَّةِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَوَلاَ تَدْرِينَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْجَنَّةَ وَخَلَقَ النَّارَ فَخَلَقَ لِهَذِهِ أَهْلاً وَلِهَذِهِ أَهْلاً**»[1].

وخرّجه مسلم – أيضًا – مِن طريق طَلْحَةَ بْنِ يَحْيَى عَنْ عَمَّتِهِ عَائِشَةَ بِنْتِ طَلْحَةَ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ: دُعِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى جَنَازَةِ صَبِيٍّ مِنَ الأَنْصَارِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ طُوبَى لِهَذَا عُصْفُورٌ مِنْ عَصَافِيرِ الْجَنَّةِ، لَمْ يَعْمَلِ السُّوءَ وَلَمْ يُدْرِكْهُ.

قَالَ: «**أَوَغَيْرَ ذَلِكَ يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلاً خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلاَبِ آبَائِهِمْ وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلاً خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلاَبِ آبَائِهِمْ**»[2].

ويعارض هذا ما خرجه مسلم من حديث أَبِي السَّلِيلِ عَنْ أَبِي حَسَّانَ قَالَ: قُلْتُ لأَبِي هُرَيْرَةَ: إِنَّهُ قَدْ مَاتَ لِيَ ابْنَانِ فَمَا أَنْتَ مُحَدِّثِي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِحَدِيثٍ تُطَيِّبُ بِهِ أَنْفُسَنَا عَنْ مَوْتَانَا؟ قَالَ: قَالَ: نَعَمْ «**صِغَارُهُمْ دَعَامِيصُ الْجَنَّةِ يَتَلَقَّى أَحَدُهُمْ أَبَاهُ – أَوْ قَالَ: أَبَوَيْهِ – فَيَأْخُذُ بِثَوْبِهِ – أَوْ قَالَ: بِيَدِهِ – كَمَا آخُذُ أَنَا بِصَنِفَةِ ثَوْبِكَ هَذَا فَلاَ يَتَنَاهَى – أَوْ قَالَ: فَلاَ يَنْتَهِي – حَتَّى يُدْخِلَهُ اللَّهُ وَأَبَاهُ الْجَنَّةَ**»[3].

وفي الصحيحين عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ – رضي الله عنه – قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا مِنَ النَّاسِ مُسْلِمٌ يَمُوتُ لَهُ ثَلاَثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ لَمْ يَبْلُغُوا الْحِنْثَ إِلاَّ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِيَّاهُمْ**»[4].

فكيف يشك فيه؟! يعني أنه يرجى لأبويه دخول الجنة بسببه.

ولعل النبي ﷺ نهى أولا عن الشهادة لأطفال المسلمين بالجنة قبل أن يطلع على ذلك؛ لأن الشهادة على ذلك تحتاج إلى علم به ثم اطلع على ذلك فأخبر به والله أعلم

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٢)، وأبو داود (٤٧١٣)، وغيرهما.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٦٢).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٣٥).

(٤) أخرجه البخاري (١٢٤٨)، والنسائي (٤/ ٢٤).

عباد الله..

أما أطفال المشركين:

فقد قال الحافظ **ابن حجر** - رَحِمَهُ الله - في «الفتح»: «واختلف العلماء قديمًا وحديثًا في هذه المسألة على أقوال:

أحدها: أنهم في مشيئة الله تعالى. وهو منقول عن الحمّادين وابن المبارك وإسحاق، ونقله البيهقي عن الشافعي في حق أولاد الكفار خاصة، قال ابن عبد البر: وهو مقتضى صنيع مالك، وليس عنده في هذه المسألة شيء منصوص.

ثانيها: أنهم تبع لآبائهم، فأولاد المسلمين في الجنة وأولاد الكفار في النار. وحكاه ابن حزم عن الأزارقة من الخوارج.

ثالثها: أنهم يكونون في برزخ بين الجنة والنار لأنهم لم يعملوا حسنات يدخلون بها الجنة ولا سيئات يدخلون بها النار.

رابعها: خدم أهل الجَنَّة.

خامسها: أنهم يصيرون ترابًا.

سادسها: هم في النار. حكاه عياض عن أحمد وغلّطه ابن تيمية بأنه قول لبعض أصحابه ولا يُحفظ عن الإمام أصلًا.

سابعها: أنهم يمتحنون في الآخرة بأن ترفع لهم نار، فمن دخلها كانت عليه بردًا وسلامًا ومن أبى عُذِّب. وقد صحّت مسألة الامتحان في حق المجنون ومن مات في الفترة من طرق صحيحة، وحكى البيهقي في «كتاب الاعتقاد» بأنه المذهب الصحيح.

ثامنها: أنهم في الجنة. قال النووي: وهو المذهب الصحيح المختار الذي صار إليه المحققون، لقوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا**﴾ [الإسراء: ١٥]، وإذا كان لا يعذب العاقل لكونه لم تبلغه الدعوة فلأن لا يعذب غير العاقل من باب الأولى، وهو الَّذِي صار إليه البخاري لحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**كُل مولود يُولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصرّانه، أو يُمجّسانه...**»[(١)].

---

(١) أخرجه البخاري.

ولحديث سمرة وفيه: «...وَالشَّيْخُ فِى أَصْلِ الشَّجَرَةِ إِبْرَاهِيمُ - عَلَيْهِ السَّلاَمُ - وَالصِّبْيَانُ حَوْلَهُ فَأَوْلاَدُ النَّاسِ» فقال بعض المسلمين: وأولاد المشركين؟ فقال: «**وأولاد المشركين**».

وروى أحمد من طريق حَسْنَاءُ بِنْتُ مُعَاوِيَةَ الصَّرِيمِيَّةُ قَالَتْ: حَدَّثَنَا عَمِّى قَالَ: قُلْتُ: لِلنَّبِىِّ ﷺ: مَنْ فِى الجَنَّةِ؟ قَالَ: «**النَّبِىُّ فِى الجَنَّةِ، وَالشَّهِيدُ فِى الجَنَّةِ، وَالمَوْلُودُ فِى الجَنَّةِ، وَالوَئِيدُ فِى الجَنَّةِ**» إسناد حسن.

وروى أبو يعلى من حديث أنس مرفوعًا: «**سألت ربي اللاهين من ذرية البشر ألَّا يُعذبهم، فأعطانيهم**». إسناده حسن.

وورد تفسير «اللاهين» بأنهم الأطفال من حديث ابن عباس مرفوعًا أخرجه البزّار.

تاسعها: الوقف.

عاشرها: الإمساك.

وفي الفرق بينهما دقة[١].

ورجّح صاحب كتاب «حياة القبر» (ص١٠) أنهم في الجَنَّة، فقد قال في معرض كلامه عَلَى حديث سَمُرة بن جندب الَّذِي تقدم قبل قليل:

وفي هذا الحديث الدليل الواضح لمذهب مَن قال: إن أطفال الكفار الذين يموتون دون البلوغ يموتون على الفطرة، وفي بعض طرق الحديث: «قالوا: يا رسول الله وأولاد المشركين؟ فقال: «**وأولاد المشركين**». فيكونون في الجنة مع إبراهيم ﷺ، وهذا القول هو أرجح الأقوال.

ولم تثبت الأحاديث الواردة في امتحان الأطفال وكلها روايات ضعيفة، وإنما الصحيح امتحان مَن لم تبلغه الدعوة والهرم والأصم، والأحمق. وأما الأحاديث الصحيحة في قوله النبي ﷺ عنه: «**الله أعلم بما كانوا عاملين**» فليس فيه محاسبتهم على ما علم الله أنهم كانوا يفعلونه لو عاشوا، بل فيه توقفُ النبي ﷺ، وردُّ العلم إلى الله، بل

---

(١) «فتح الباري» (٣/ ٢٩٠، ٢٩١).

قد ثبت هذا أيضًا في حق أولاد المسلمين في حديث عائشة في «الصحيح» في صبي من صبيان الأنصار.

وقد استفاضت الأدلة على أن أبناء المسلمين في الجنة ولا خلاف فيه عند أهل السنة، كما ذكره الإمام أحمد وغيره.

وأما حديث: «**الوائدة والموءودة في النار**» فقد فسّره العلماء بأن معناه: «الموءدة له» أي: زوجها الذي رضي بذلك وأمر به، وهذا التأويل لابد منه لقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ**﴾ [التكوير: ٨، ٩]. فأنكر عز وجل عليهم قتلها بلا ذنب فلا يدخلها النار بلا ذنب، والله أعلم.

وأما حديث ابن عباس عن الغلام الذي قتله الخِضر: «وأما الغلام فطُبع يوم طُبع كافرًا» أي: لو كان كبر لكان كافرًا وليس فيه أنه يعذّب على ما كان سيفعله لو كبر، بل هذا من أبناء المسلمين، وقد ذكرنا عدم الخلاف فيهم، والله تعالى أعلم.

عباد الله...

وأكتفِي بهذا التعليق، والله الهادي لأقوم طريق.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فقد يسأل سائل: ذكرت أحاديث أنَّ الأطفال الذين ماتوا قبل بلوغ الحنِث سينتظرون آباءهم وأمهاتهم عند باب الجنة، من هذه الأحاديث:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**مَا مِن مُسلِمَين يموت بينهما ثلاثةٌ من الولد لم يبلغوا الحِنثَ إلَّا أدخلهما الله الجنَّة بفضل رحمته إيَّاهم**»[1]، رواه ابن حبان في «صحيحه»، وفي النسائي بنحوه من حديث أبي هريرة، وزاد فيه قال: «**يُقال لهم: ادخلوا الجنة، فيقولون:**

(١) **صحيح**: انظر «صحيح الجامع» (٥٧٨١).

حتى تَدخُل آباؤنا، فيقال لهم: ادخلوا الجنَّة أنتم وآباؤكم».

عَنْ أَبِي حَسَّانَ قَالَ: قُلْتُ لأَبِي هُرَيْرَةَ: إِنَّهُ قَدْ مَاتَ لِيَ ابْنَانِ فَمَا أَنْتَ مُحَدِّثِي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِحَدِيثٍ تُطَيِّبُ بِهِ أَنْفُسَنَا عَنْ مَوْتَانَا؟ قَالَ: قَالَ: نَعَمْ **«صِغَارُهُمْ دَعَامِيصُ**[1] **الْجَنَّةِ يَتَلَقَّى أَحَدُهُمْ أَبَاهُ - أَوْ قَالَ: أَبَوَيْهِ - فَيَأْخُذُ بِثَوْبِهِ - أَوْ قَالَ: بِيَدِهِ - كَمَا آخُذُ أَنَا بِصَنِفَةِ**[2] **ثَوْبِكَ هَذَا فَلاَ يَتَنَاهَى - أَوْ قَالَ: فَلاَ يَنْتَهِي - حَتَّى يُدْخِلَهُ اللَّهُ وَأَبَاهُ الْجَنَّةَ»**[3].

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

وفي المقابل: أخبرنا النبي ﷺ أن أهل الجنة يدخلون الجنة في سِنّ عيسى عليه السلام، بني ثلاث وثلاثين:

فعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **«يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ جُرْدًا مُرْدًا مُكَحَّلِينَ أَبْنَاءَ ثَلاَثٍ وَثَلاَثِينَ سَنَةً»**[4].

فكيف نوفِّق بين هذه الأحاديث؟

يُجيب الإمام ابن تيمية - رحمه الله - عن هذا السؤال فيقول: «أبناءُ أهل الدنيا إذا دخلوا الجنة كَمُلَ خَلقهُم كأهل الجنة على صورة أبيهم آدم» ا.هـ[5].

عباد الله...

أما خدم الجنة:

الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿**يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ**﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨].فهؤلاء ينشئُهم الله تعالى من الجنة.

قال الإمام ابن تيمية - رحمه الله -: «الولدان المخلدون: هم خَلق من خلْق الجنة» ا.هـ[6].

---

(١) **الدعموص:** دويبة صغيرة.

(٢) **صنفة الثوب:** حاشيته وطرفه أي: لا هدب له.

(٣) رواه مسلم، وقد تقدم قبل قليل.

(٤) **صحيح:** رواه الترمذي، وانظر «صحيح الجامع» (٨٠٧٢).

(٥) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٧٩).

(٦) المصدر السابق.

الخطبة الرابعة عشر بعد المائة:

ســـوق الجنـــة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَسُوقًا يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ، فَتَهُبُّ رِيحُ الشَّمَالِ فَتَحْثُو فِي وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ فَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالاً، فَيَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ وَقَدِ ازْدَادُوا حُسْنًا وَجَمَالاً فَيَقُولُ لَـهُمْ أَهْلُوهُمْ: وَاللَّهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالاً. فَيَقُولُونَ: وَأَنْتُمْ وَاللَّهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالاً»[(١)].

قال الإمام النووي - رحمه الله تعالى - في شرحه لهذا الحديث: «المراد بالسُّوق: مجمع

(١) رواه مسلم (٢٨٣٣).

هم يجتمعون كما يجتمع الناسُ فى الدنيا فى السوق، ومعنى «يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ» أي في مقدار كل جمعة أى: أسبوع، وليس هناك حقيقة أسبوع لفقد الشمس والليل والنهار.

و«رِيحُ الشَّمَالِ» بفتح الشيم والميم بغير همز: هي التي تأتي من دُبر القبلة.

قال القاضي: وخصّ ريح الجنة بالشّمال لأنها ريح المطر عند العرب، كانت من جهة الشام، وبها يأتى سحاب المطر، وكانوا يرجون السّحابة الشامية، وجاءت فى الحديث تسمية هذه الريح المثيرة أى المحرّكة لأنها تثير فى وجوههم ما تثيره من مسكِ أرض الجنة وغيره من نعيمها» ا.هـ[١].

عباد الله...

قَالَ الإمام ابنُ القَيِّم - رَحِمَهُ الله -: «وريح الجنة نوعان:

الأولى: ريح يوجد في الدُّنْيَا تشمّه الأرواح أحيانًا لا تدركه العباد.

الثانية: ريح يُدرك بحاسّة الشمّ للأبدان كما تُشم رائحة الأزهار وغيرها، وهذا يشترك أهل الجنة في إدراكه في الآخرة من قرب وبعد وأما في الدنيا فقد يدركه من شاء الله من أنبيائه ورسله»[٢].

قلت: وقد شم بعضُ أصحاب النبي ﷺ ريحَ الجَنَّة وهو يقاتل الأعداء، ثم استُشهد بعدها.

روى البخاري في «صحيحه» (٦/ ٣٦١): عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: غَابَ عَمِّى أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ الْمُشْرِكِينَ، لَئِنِ اللَّهُ أَشْهَدَنِى قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ لَيَرَيَنَّ اللَّهُ مَا أَصْنَعُ.

فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَانْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّى أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلاَءِ - يَعْنِى أَصْحَابَهُ - وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلاَءِ - يَعْنِى الْمُشْرِكِينَ - ثُمَّ تَقَدَّمَ، فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: يَا سَعْدُ بْنَ مُعَاذٍ، الجَنَّةَ، وَرَبِّ النَّضْرِ إِنِّى أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ.

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٨/ ٣٠١).

(٢) «حادي الأرواح» (١٢٠).

قَالَ سَعْدٌ: فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا صَنَعَ.

قَالَ أَنَسٌ: فَوَجَدْنَا بِهِ بِضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ أَوْ رَمْيَةً بِسَهْمٍ، وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ وَقَدْ مَثَّلَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلاَّ أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ[(١)].

قَالَ أَنَسٌ: كُنَّا نَرَى أَوْ نَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ**﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ.

قال الإمام ابن القيم - رَحِمَهُ الله -: «وهذا الذي وجده أنس بن النَّضر يجوز أن يكون من هذا النوع - يعني من الريح الذي يُدرك بحاسّة الشمّ للأبدان - وأن يكون من الأوّل» ا.هـ[(٢)].

عباد الله...

إنَّ رَسُولنا الكريم - صلواتُ ربِّي وسلامه عليه - يُحرّك في هذا الحديث هممنا إلى الجَنَّة، ويُهيِّج أشواقنا إليها.

فتأمّل - أخا الإسلام - نعيمها وسرورها.

تفكّرِ في أهلها وفي وجوههم نضرة النعيم، يُسقون من رحيق مختوم، متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخمر والعسل، محفوفة بالغلمان والولدان.

مُزّينة بالحور العين من الخيرات الحِسان، كأنّهنَّ الياقوت والمرجان، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ الله عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ في قوله: ﴿**كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ**﴾ قَالَ: «**يَنظُرُ إلى وَجْهِهِ فِي خَدِّهَا أَصْفَى مِنَ الْمِرْآةِ، وَإِنَّ أَدْنَى لُؤْلُؤَةٍ عَلَيْهَا تُضِيءُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَإِنَّهُ لَيَكُونُ عَلَيْهَا سَبْعُونَ حُلَّة يَنْفُذُهَا بَصَرُهُ حَتَّى يَرَى مُخَّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ**»[(٣)].

---

(١) أي: بعلامة في بنانه.

(٢) «حادي الأرواح» (١٢٠).

(٣) رواه أحمد، وابن حبان في «صحيحه» وعزاه الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٤١٩) لأبي يعلى وقال: إسناده حسن.

والجنة أيضًا مُزينة بنسائها:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ الله عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَرَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ غَدْوَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجَنَّةِ أَوْ مَوْضِعُ قِيدٍ - يَعْنِي سَوْطَهُ - خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ لأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمَلأَتْهُ رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا[١] عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[٢].

فقدّم - أخي الكريم - المهر مِن الآن.

قال أحمد بن أبي الحواري - رحمه الله -: «سمعتُ أبا سليمان الداراني - رحمه الله - يقول: بينما أنا ساجد إذ ذهب بي النومُ، فإذا بحوراء قد ركضتني برجلها، فقالت: حبيبي، أترقد عيناك والملك يقظان إلى المتهجدّين في تهجّدهم؟ بؤسًا لعينٍ آثرت لذّة نَومَة على لذّة مناجاة العزيز، قُم فقد دَنَا الفراغ ولقي المحبّون بعضهم بعضًا، فما هذا الرقاد حبيبي وقرّة عيني؟! أترقد عيناك وأنا أتربى لك في الخدور منذ كذا وكذا؟

قال: فوثبتُ فزعًا وقد عرقتُ حياءً من توبيخها إيَّاي، وإن حلاوة منطقها لفي سمعي وقلبي»[٣].

وتأمّل في صورة الجنة وتفكّر في غبطة أهلها وفي حسرة مَن حرمها لقناعته بالدنيا عوضًا عنها، فقد قال أبو هريرة: قلنا: يا رسول الله حدِّثنا عن الجنة مَا بِنَاؤُهَا؟ فقَالَ ﷺ: «لَبِنَةُ ذَهَبٍ وَلَبِنَةُ فِضَّةٍ، وَمِلاَطُهَا[٤] المِسْكُ الأَذْفَرُ، وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ وَاليَاقُوتُ، وَتُرَابُهَا الزَّعْفَرَانُ، مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ لاَ يَبْأَسُ، وَيَخْلُدُ لاَ يَمُوتُ، لاَ تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلاَ يَفْنَى شَبَابُهُ»[٥].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ فِي الغُرْفَةِ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الشَّرْقِيَّ أَوِ الكَوْكَبَ الغَرْبِيَّ الغَارِبَ فِي الأُفُقِ أَوِ الطَّالِعَ فِي تَفَاضُلِ الدَّرَجَاتِ». فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أُولَئِكَ النَّبِيُّونَ؟. قَالَ: «بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَأَقْوَامٌ

(١) النَّصيف: الخمار.

(٢) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٣) «البداية والنهاية» (٥/ ٧٨٧).

(٤) الملاط: الطين الذي يُجعل بين سافي البناء، يعني أن الطين الذي يجعل بين لبِن الذهب والفضة.

(٥) صحيح: رواه أحمد، وانظر «صحيح الجامع» (٣١١٦).

آمَنُوا باللَّهِ وَرَسُولِهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ»[١].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ سَنَةٍ، وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠]»[٢].

وتأمل في صفة لباس أهلها، وفرشهم وسررهم وأرائكهم وخيامهم:

قال الله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣].

والآيات في ذلك كثيرة.

وعَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ، طُولُهَا سِتُّونَ مِيلاً لِلْمُؤْمِنِ، فِيهَا أَهْلُونَ يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُ فَلاَ يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا»[٣].

وتأمل في طعام أهل الجنة وشرابهم:

وهو مذكور في القرآن في مواضع كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ [البقرة: ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥].

وقوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١].

وقوله تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ [المطففين: ٢٥، ٢٦].

والأحاديث في السُّنّة المطهَّرة أكثر من أن تُحصى، منها:

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ طَيْرَ الجَنَّةِ كَأَمْثَالِ البُخْتِ[٤] تَرْعَى فِي شَجَرِ الجَنَّةِ». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَذِهِ لَطَيْرٌ نَاعِمَةٌ. فَقَالَ: «أَكَلَتُهَا

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي.

(٢) صحيح: رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٤) **البُخت**: الإبل الخُراسانية.

أَنْعَمُ مِنْهَا - قَالَهَا ثَلاَثاً - وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَأْكُلُ مِنْهَا يَا أَبَا بَكْرٍ» [١].

وعن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ الله عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«يَأْكُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ وَلاَ يَمْتَخِطُونَ وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ وَلاَ يَبُولُونَ، وَيَكُونُ طَعَامُهُمْ ذَلِكَ جُشَاءً** [٢] **وَيُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالْحَمْدَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفَسَ»** [٣].

وتأمّل في اجتماع أهل الجَنَّة يوم سوقهم، وقد تقدّم الحديث الدّال على هذا الاجتماع وما يسفر عنه من زيادة الشّوق، والحُسن، والجمال، وطيب الرّيح، وقد وصف أنسُ بن مالك رَضِيَ الله عَنْهُ أرض السوق، فقال: «يقول أهل الجَنَّة: انطلقوا إلى السوق، فينطلقون إلى كُثبَان المِسك، فإن رجعوا إلى أزواجهم قالوا: إنَّا لنجِدُ لكنَّ ريحًا ما كانت لكُنَّ، قال: فيقُلن: ولقد رجَعتُم بريحٍ ما كانت لكم إذ خرجتم من عندنا» [٤].

وفي رواية أخرى، قال رَضِيَ الله عَنْهُ: «إنَّ في الجَنَّة لسوقًا كُثبانَ مِسكٍ يخرجون إليها ويجتمعون إليها، فيبعثُ الله رِيحًا فيُدخِلَها بُيوتَهم، فيقول لهم أهلوهم إذا رجعوا إليهم: قد ازددتمُ حُسنًا بَعدنَا، فيقولون لأهلهم: قد ازددتُم أيضًا حُسنًا بعدَنا» [٥].

نسأل الله - تعالى - الجَنَّة، وما قرَّب إليها من قول أو عمل.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ولما علم الموفّقون ما خُلقوا له وما أريد بإيجادهم رفعوا رؤسهم، فإذا علم الجَنَّة قد رُفع لهم فشمرّوا إليه، وإذا صراطها المستقيم قد وضح لهم فاستقاموا عليه، ورأوا من

(١) حسن صحيح: انظر «صحيح سنن الترمذي» (٢٠٦٣).
(٢) الجُشاء: الصوت يخرج من الفم عند امتلاء المعدة. «المعجم الوجيز» (١٠٦).
(٣) راه مسلم وأبو داود.
(٤) رواه ابن أبي الدنيا موقوفًا، بإسناد جيد.
(٥) رواه ابن أبي الدنيا موقوفًا، والبيهقي. «الترغيب» (٤/ ٣٩٤).

أعظم الغُبن[١] بيع ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر في أبدٍ لا يزول ولا ينفذ، بصبابة عيش، إنما هو كأضغاث أحلام أو كطيف زار في المنام، مشوّب بالنغص، ممزوج بالغصص، إن أضحك قليلًا أبكى كثيرًا، وإن سرّ يومًا أحزن شهورًا، الآمه تزيد على لذّاته، وأحزانه أضعاف مسرّاته، أوّله مخاوف وآخره متالف، فيا عجبًا مِن سفيهٍ في صورة حليم، ومعتوهٍ في مِسلاخ عاقل، آثر الحظَّ الفاني الخسيس على الحظَّ الباقي النفيس، وباع جنة عرضها السموات والأرض بسجن ضيّق بين أرباب العاهات والبليات.

فواعجبًا لها كيف نام طالبها؟

وكيف لم يسمح بمهرها خاطبها؟

وكيف طاب العيش في هذه الدار بعد سماع أخبارها؟

وكيف قرّ للمشتاق القرار دون معانقة أبكارها؟

وكيف قرّت دونها عينُ المشتاق؟

وكيفِ صبرت عنها أنفسُ الموقنين؟

وكيف صدفت عنها قلوب أكثر العالمين؟

وبأي شيء تعوضت عنها نفوس المعرضين؟

❁❁❁❁❁

---

(١) **الغبن**: الخداع والغش.

الخطبة الخامسة عشر بعد المائة:

رؤية الله تعالى

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فعَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَ الله عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ،قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟

قَالَ: فَيَكْشِفُ الحِجَابَ، فَمَا أُعطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ» ثم تلا هذه الآية ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] [١].

(١) رواه مسلم (٢٩٨) (١٨١).

عباد الله...

إنه مشهد عظيم، يعجز عن وصفه البيان.

إنه يكشف عن أعظم نعيم أعطاه الله تعالى لأهل الجَنَّة.

هذا النعيم العظيم هو: رؤية الله تعالى.

قال ابن الأثير - رَحِمَهُ الله -: «رؤية الله هي الغاية القصوى في نعيم الآخرة، والدرجة العليا من عطايا الله الفاخرة، بلَّغنا الله منها ما نرجو» ا.هـ[(١)].

وقال ذو النون المصري - رَحِمَهُ الله -: «ما طابت الدنيا إلا بِذِكرِهِ، وما طابت الآخرة إلا بعفوه، وما طابت الجَنَّة إلا برؤيته».

وها هو نبيُّنا - صلوات ربي وسلامه عليه - يسأل ربَّه أن يُمَتِّعه بلذَّة النَّظر إلى وجهه الكريم فيقول:

«اللَّهمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ الرِّضَاءَ بِالقَضَاءِ، وَبَرْدَ العَيْشِ بَعْدَ المَوْتِ، وَلَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ» [(٢)].

وهذا التجلِّي الكريم يكون يوم المزيد، وهو يوم الجُمعة لعموم أهل الجَنَّة[(٣)].

قال تعالى: ﴿**لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ**﴾ [ق: ٣٥].

قال الإمام القرطبيُّ - رَحِمَهُ الله - في تفسير هذه الآية: «قوله تعالى: ﴿**لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا**﴾ يعني ما تشتهيه أنفسهم وتلذّ أعينهم، ﴿**وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ**﴾ من النعم مما لم يخطر على بالهم، وقال أن وجابر: «المزيد» النظر إلى وجه الله تعالى بلا كيف.

وذكر ابن المبارك ويحيى بن سلام، عن ابن مسعود قال: تسارعوا إلى يوم الجمعة فإن الله تبارك وتعالى يبرز لأهل الجنة كُل يوم جمعة في كَثِيب من كافور أبيض، فيكونون منه في القُرب.

---

(١) «جامع الأصول» (١٠/ ٥٥٧).

(٢) صحيح: رواه أحمد وغيره.

(٣) وهناك مَن يرى ربه جل جلاله غدوة وعشيا؛ كما صح من حديث ابن عمر، وهذا يدلّ على أن أهل الجَنَّة في الرؤية مختلفوا الحال.

قال ابن المبارك: على قدر تسارعهم إلى الجُمعة في الدُّنْيَا.

وقال يحيى بن سلام: لمسارعتهم إلى الجُمع في الدُّنْيَا، وزاد: فيحدث الله لهم من الكرامة شيئًا لم يكونوا رأوه من قبل.

قلت: قوله «في كَثيب» يريد أهل الجنة أي: وهم على كُثُبٍ، كما في مُرسل الحسن، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أهل الجنة ينظرون إلى ربّهم في كل يوم جمعة على كَثيب من كافور**» الحديث [(١)] ا.هـ[(٢)].

وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ قال: (الزيادة) النظر إلى وجه الله عز وجل، وليس شيء أحبّ إلى أهل الجَنَّة من يوم الجمعة يوم المزيد، لأنهم يرون فيه الجبَّار جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه» ا.هـ[(٣)].

وعن أنسٍ قال: «أتى جبريل بمرآة بيضاء فيها وكت[(٤)] إلى النبي ﷺ، فقال النبيُّ ﷺ: «**ما هذا؟**» قال: الجمعة فُضّلت بها أنت وأُمّتك، فالناس لكم فيها تبع اليهود والنصارى، ولكم فيها خير ساعة لا يوافقها مؤمن يدعو الله بخير إلا استجيب له، وهو عندنا يوم المزيد.

فقال النبيُّ ﷺ: «**يا جبريل وما يوم المزيد؟**».

قال: إنَّ ربَّك اتخذ من الفردوس واديًا أفيح فيه كثيب المسك، فإذا كان يوم القيامة أنزل الله تبارك وتعالى ماشاء من ملائكته، وحوله منابر من نور عليها مقاعد النبيين، وحفّ تلك المنابر بمنابر من ذهب مكلّلة بالياقوت والزبرجد، عليها الشهداء والصِّديقون، فجلسوا من وراءهم على تلك الكُثُب فيقول الله تعالى: أنا ربكم، قد صدقتكم وعدي، فسلوني أعطكم. فيقولون: ربنا نسألك رضوانك، فيقول: قد رضيت عنكم، ولكم ما تمنّيتم ولَدَي مزيد.

فهم يُحبّون يوم الجمعة لما يعطيهم فيه ربُّهم من الخير، وهو اليوم الذي استوى فيه

---

(١) **ضعيف**: رواه الترمذي وغيره.

(٢) «تفسير القرطبي» (١٧/ ٢١).

(٣) «الصحيح من التذكرة» (٣٩٨).

(٤) **الوكت**: أثر الشيء اليسير منه.

ربُّكم على العَرْش، وفيه خُلِق آدم عليه السلام، وفيه تَقُومُ السَّاعة»[(١)].

عباد الله...

ورؤية الله تعالى: هي الغاية التي شمّر إليها المشمّرون، وتنافس فيها المتنافسون، وتسابق إليها المتسابقون، ولمثلها فليعمل العاملون، اتفق عليها الأنبياءُ والمرسلون، وجميع الصحابة والتابعون، وأئمّة الإسلام على تتابع القرون، وأنكرها أهلُ البدع المارقون.

وقد أخبر الله سبحانه عن كليمه موسى عليه السلام أنه سأل ربّه النظر إليه، فقال له ربُّه: ﴿لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وبيان الدّلالة من هذه الآية من وجوه عديدة:

أحدها: أنه لا يظن بكليم الرحمن أن يسأل ربّه ما لا يجوز عليه.

والوجه الثاني: أنَّ الله سبحانه لم ينكر عليه سؤاله، ولو كان مُحالًا لأنكر عليه.

الوجه الثالث: أنه أجابه بقوله: ﴿لَن تَرَانِي﴾ ولم يقل: «لا تراني»، و«لا أني لست بمرئى»، و«لا تجوز رؤيتي»، والفرق بين الجوابين ظاهر لمن تأمّله.

وهذا يدلّ على أنه سبحانه وتعالى يُرى، ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار لضعف قوّة البشر فيها عن رؤيته تعالى، يوضحه:

الوجه الرابع: وهو قوله: ﴿وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ فأعلمه أن الجبل مع قوّته وصلابته لا يثبت لتجلّيه له في هذه الدار، فكيف بالبشر الضعيف الذي خُلق من ضعف؟!

الوجه الخامس: أنَّ الله تعالى قادر على أن يجعل الجبل مستقرًّا مكانه، وليس هذا بممتنع في مقدوره، بل هو ممكن وقد علّق به الرؤية، ولو كانت محالًا في ذاتها لم يُعلِّقها بالممكن في ذاته.

---

(١) أخرجه الشافعي في «مسنده» (١/١٤٨)، وقال الشيخ صلاح عويضة في تحقيقه لحادي الأرواح: صحيح.

الوجه السادس: قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ وهذا أبين الأدلّة على جواز رؤيته تبارك وتعالى، فإنه إذا جاز أن يتجلّى للجبل الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب، فكيف أن يتجلّى لأنبيائه ورسله وأوليائه في دار كرامته ويريهم نفسه؟!

الوجه السابع: أن ربّه سبحانه وتعالى قد كلّمه منه إليه، وخاطبه وناجاه وناداه، ومن جاز عليه التكلّم وأن يُسمع مخاطبه كلامه معه بغير واسطة، فرؤيته أوْلى بالجواز.

وأما قوله تعالى: ﴿لَن تَرَانِي﴾ فإنما يدلّ على النّفي في المستقبل، ولا يدلّ على دوام النّفي، ولو قُيّدت بالتأبيد فكيف إذا أُطلقت قال: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥]، مع قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

الدليل الثاني: قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٥، ٢٦].

فالحُسنى: الجَنَّة، والزيادة: النظر إلى وجهه الكريم، كذلك فسّرها رسول الله ﷺ كما تقدّم.

وأخرج ابن جرير من طريق سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة: قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ قال: بلغنا أن المؤمنين لما دخلوا الجنة ناداهم مُنادٍ: إنَّ الله وعدكم الحُسنى وهي الجنة، وأما الزيادة: فالنظر إلى وجه الرحمن(١).

هذا، ولما عطف سبحانه الزيادة على الحسنى التي هي «الجنة» دلّ على أنها أمرٌ آخر وراء الجَنَّة وقدر زائد عليها، ومن فسّر الزيادة بالمغفرة والرّضوان فهو من لوازم رؤية الرّب تبارك وتعالى.

الدليل الثالث: قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٤، ١٥].

ووجه الاستدلال بها: أنه سبحانه وتعالى جعل من أعظم عقوبة الكفّار كونهم عن

---

(١) **سنده صحيح**: أخرجه ابن جرير (١١/ ٧٥)، وانظر «رؤية الرّب في الآخرة» لعمر سليم (ص٩).

رؤيته وسماع كلامه محجوبين، فلو لم يره المؤمنون ولم يسمعوا كلامه كانو أيضًا محجوبين عنه، وقد احتجّ بهذه الحجّة الشافعيّ وغيره من الأئمة.

أخرج الطبراني عن المزني قال: سمعت الشافعيّ يقول في قوله عز وجل: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ قال: فيها دلالة على أن أولياء الله يرون ربّهم يوم القيامة.

الدليل الرابع: قوله تعالى: ﴿لَـهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

قال الطبريّ: قال علي بن أبي طالب وأنس بن مالك: هو النظر إلى وجه الله عز وجل.

الدليل الخامس: قوله تعالى: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

والاستدلال بهذا أعجب فإنه من أدلة النُّفاة، وقد قرر شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ الله - وجه الاستلال بها أحسن تقرير وألطفه، فقال: «أن الله تعالى إنما ذكرها في سياق التمدّح، ومعلوم أن المدح إنما يكون بالصفات الثبوتية، أما العدم المحض فليس بكمال فلا يمدح به، وإنما يمدح الرب تعالى بالنفي إذا تضمن أمرًا وجوديًا، كمدحه بنفي السِّنَة [(١)] والنوم، المتضمن كمال القيّومية، ونفي الموت المتضمن كمال الحياة، ونفي اللّغوب والإعياء المتضمّن كمال القُدرة، ونفي الشريك والصحابة والولد والظهير المتضمّن كمال صمديته وغناه، ونفي الظلم المتضمّن كمال عدله وإحاطته، ونفي المثل المتضمّن لكمال ذاته وصفاته، ولهذا لم يتمدّح بعدم محض لم يتضمّن أمرًا ثبوتيًا، فإن المعدوم يشارك الموصوف في ذلك العدم، ولا يوصف الكامل بأمر يشترك هو والمعدوم فيه، فإن المعنى: إنه يُرى ولا يُدرك ولا يحاط به.

فقوله: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ يدلّ على كمال عظمته، وأنه أكبر من كل شيء، وأنه لكمال عظمته لا يدرك بحيث يحاط به، فإن الإدراك هو الإحاطة بالشيء، وهو قدر زائد على الرؤية، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الـجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ* قَالَ كَلَّا﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢]. فلم ينف موسى الرؤية، وإنما نفى الإدراك،

---

(١) السِّنة: ما يتقدّم النوم من فتورٍ وهو النُّعاس.

فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه، فالرّب تعالى يُرى ولا يُدرك، كما يعلم ولا يحاط به علما، وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة من الآية، كما ذكرت أقوالهم في تفسير الآية. بل هذه الشمس المخلوقة لا يتمكن رائيها من إدراكها على ما هي عليه» ا.هـ.

الدليل السادس: قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

أخرج ابن جرير، والآجري في «التصديق بالنظر إلى الله» عن عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: «تنظرُ إلى الله عز وجل نظرًا»(١).

وهذا قولُ كُلّ مفسّر من أهل السُّنة والحديث.

وأما الأحاديث عن النبي ﷺ وأصحابه الدالة على الرؤية فمتواترة، رواه عنه: أبو بكر الصديق، وأبو هريرة، وأبو سعيد الخدري، وجرير بن عبد الله، وصهيب الرومي، وابن مسعود، وعلي بن أبي طالب، وأبو موسى الأشعري، وعدي بن حاتم، وأنس، وبريدة بن الحصيب، وأبو رُزين العقيلي، وجابر بن عبد الله، وأبو أُمامة الباهليّ، وزيد ابن ثابت، وعمار بن ياسر، وعائشة أُم المؤمنين، وعبد الله بن عمر، وسلمان الفارسي، وحذيفة بن اليمان، وابن عباس، وعبد الله بن عمرو، وأُبي بن كعب، وفضالة بن عبيد، وكعب بن عُجرة وغيرهم.

وقد تقدّم بعضها، وإليك بعضها:

١- عن جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ البجلي رَضِيَ الله عَنْهُ قال: كُنَّا جلوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ نَظَرَ إِلَى القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ فَقَالَ: «**أَمَا إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا، لاَ تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لاَ تُغْلَبُوا عَلَى صَلاَةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَقَبْلَ غُرُوبِهَا** - يعني العصر والفجر - **فَافْعَلُوا** ». ثُمَّ قَالَ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]»(٢).

٢- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ

(١) **سنده حسن:** أخرجه ابن جرير في «التفسير» (٢٩/ ١٩) والآجري كما تقدم.
(٢) رواه البخاري (١/ ١٠٥)، ومسلم (١/ ٤٣٩). وغيرهما.

القِيَامَةِ؟ قَالَ: «هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالقَمَرِ إِذَا كَانَتْ صَحْوًا؟».

قُلْنَا: لاَ.

قَالَ: «فَإِنَّكُمْ لاَ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ يَوْمَئِذٍ، إِلاَّ كَمَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَتِهِمَا» (١).

٣- عَنْ أَبِي رَزِينٍ العقيلي رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَكُلُّنَا يَرَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ وَمَا آيَةُ ذَلِكَ فِي خَلْقِهِ؟

قَالَ: «يَا أَبَا رَزِينٍ أَلَيْسَ كُلُّكُمْ يَرَى القَمَرَ مُخْلِياً بِهِ».

قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قَالَ: «فَاللَّهُ أَعْظَمُ» (٢).

نسأل الله تعالى أن يمتّعنا بالنظر إلى وجهه الكريم.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحَمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وبالجملة: فقد دلّ القرآن والسنة المتواترة وإجماع الصحابة وأئمة الإسلام، وأهل الحديث عصابة الإسلام، على أنَّ الله سبحانه وتعالى يُرى يوم القيامة بالأبصار عيانًا كما يُرى القمر ليلة البدر صحوًا، وكما تُرى الشمس في الظهير، لكن دون إحاطة ولا كيفية (٣).

وأنَّ أهل الجَنَّة في الرؤية مختلفوا الحال، فهناك مَن يرى ربَّه عز وجل غُدوة وعَشِية كما صحّ الحديث عن ابن عمر.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) **حسن**: أخرجه أحمد (٤/ ١١).

(٣) انظر «حادي الأرواح» لابن القيم، و«شرح العقيدة الطحاوية» و«شرح العقيدة الواسطية» لابن العثيمين.

أما يوم المزيد - وهو يوم الجمعة - فيراه أهل الجَنَّة كلهم، كما وردت الأحاديثُ والآثار.

عباد الله...

ونختم خطبة اليوم بقول يُكتب بماء الذهب لإمام دار الهجرة مالك بن أنس - رَحِمَهُ الله - تعالى: قال: «لم يُرَ في الدنيا؛ لأنه بَاقٍ ولا يُرى الباقي بالفاني، فإذا كان في الآخرة رُزقوا أبصارًا باقية رَأوا الباقي بالباقي»[١].

اللَّهمَّ إنَّا نسألك الرِّضا بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، ولذّه النظر إلى وجهك الكريم، والشوق إلى لقائك.

آمين... آمين... آمين



(١) أورده القرطبيّ - رَحِمَهُ الله - في تفسير سورة الأنعام الآية (١٠٣).

الخطبة السادسة عشر بعد المائة:

آخر من يدخل الجنة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قال: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ رَجُلٌ فَهُوَ يَمْشِى مَرَّةً وَيَكْبُو[1] مَرَّةً، وَتَسْفَعُهُ[2] النَّارُ مَرَّةً، فَإِذَا مَا جَاوَزَهَا التَفَتَ إِلَيْهَا فَقَالَ: تَبَارَكَ الَّذِى نَجَّانِى مِنْكِ لَقَدْ أَعْطَانِىَ اللَّهُ شَيْئًا مَا أَعْطَاهُ أَحَدًا مِنَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ. فَتُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ فَيَقُولُ: أَىْ رَبِّ أَدْنِنِى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ فَلأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا.

(١) يكبو: يسقط على وجهه.

(٢) تسفعه: تضرب وجهه وتسّوده وتؤثّر فيه أثرًا.

فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا ابْنَ آدَمَ لَعَلِّي إِنْ أَعْطَيْتُكَهَا سَأَلْتَنِي غَيْرَهَا. فَيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ. وَيُعَاهِدُهُ أَنْ لاَ يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لأَنَّهُ يَرَى مَا لاَ صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ[١]، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الأُولَى، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ لأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا وَأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا لاَ أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا.

فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لاَ تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا؟ فَيَقُولُ: لَعَلِّي إِنْ أَدْنَيْتُكَ مِنْهَا تَسْأَلُنِي غَيْرَهَا. فَيُعَاهِدُهُ أَنْ لاَ يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لأَنَّهُ يَرَى مَا لاَ صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا. ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ عِنْدَ بَابِ الجَنَّةِ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الأُولَيَيْنِ. فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ لأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا لاَ أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا.

فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لاَ تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ هَذِهِ لاَ أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا. وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لأَنَّهُ يَرَى مَا لاَ صَبْرَ لَهُ عَلَيْهَا فَيُدْنِيهِ مِنْهَا فَإِذَا أَدْنَاهُ مِنْهَا فَيَسْمَعُ أَصْوَاتَ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَدْخِلْنِيهَا. فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ مَا يَصْرِينِي مِنْكَ[٢] أَيُرْضِيكَ أَنْ أُعْطِيَكَ الدُّنْيَا وَمِثْلَهَا مَعَهَا قَالَ يَا رَبِّ أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ».

فَضَحِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ أَلاَ تَسْأَلُونِّي مِمَّ أَضْحَكُ فَقَالُوا مِمَّ تَضْحَكُ قَالَ هَكَذَا ضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ. فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ الله؟

قَالَ: «مِنْ ضِحْكِ رَبِّ العَالَمِينَ حِينَ قَالَ أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ[٣] فَيَقُولُ إِنِّي لاَ أَسْتَهْزِئُ مِنْكَ وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»[٤].

---

(١) أي: نعمة لا صبر له عنها.

(٢) **يَا ابْنَ آدَمَ مَا يَصْرِينِي مِنْكَ**: معناه: ما يقطع مسئلتك مني.

(٣) قال أبو بكر الصّوفي: هذا كلام مُنبَسِط مُتدلِّل. وقال القاضي عياض: هذا الكلام صدر من هذا الرجل وهو غير ضابط لما قاله، لما ناله من السرور ببلوغ ما لم يخطر بباله، فلم يضبط لسانه دهشًا وفرحًا فقاله وهو لا يعتقد حقيقة معناه، وجرى على عادته في الدنيا في مخاطبة المخلوق، وهذا كما قال النبي ﷺ في الرجل الذي لم يضبط نفسه من الفرح [لما وجد راحلته وعليها متاع وكاد يهلك دونها] فقال: «**أنت عبدي وأنا ربك**».

(٤) رواه مسلم (١٨٧).

وفي رواية أخرى:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعودٍ أيضًا: قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنِّي لأَعْرِفُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنَ النَّارِ؛ رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنْهَا زَحْفًا فَيُقَالُ لَهُ: انْطَلِقْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ، قَالَ: فَيَذْهَبُ فَيَدْخُلُ الجَنَّةَ فَيَجِدُ النَّاسَ قَدْ أَخَذُوا المَنَازِلَ، فَيُقَالُ لَهُ: أَتَذْكُرُ الزَّمَانَ الَّذِى كُنْتَ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيُقَالُ لَهُ: تَمَنَّ. فَيَتَمَنَّى، فَيُقَالُ لَهُ: لَكَ الَّذِى تَمَنَّيْتَ وَعَشَرَةُ أَضْعَافِ الدُّنْيَا، قَالَ: فَيَقُولُ: أَتَسْخَرُ بِى وَأَنْتَ المَلِكُ**» قَالَ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ[1].

وفي رواية:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنِّى لأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، وَآخِرَ أَهْلِ الجَنَّةِ دُخُولاً الجَنَّةَ، رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ حَبْوًا فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ، فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلأَى. فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ.**

قَالَ: فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلأَى، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ، فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهَا أَوْ إِنَّ لَكَ عَشَرَةَ أَمْثَالِ الدُّنْيَا، قَالَ: فَيَقُولُ: أَتَسْخَرُ بِى - أَوْ أَتَضْحَكُ بِى - وَأَنْتَ المَلِكُ؟».

قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ. قَالَ: فَكَانَ يُقَالُ: ذَاكَ أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً[2].

عباد الله...

في هذه القِصَّة الصَّحيحة يُصوِّر لنا النبيُّ ﷺ حال آخر رَجُلٍ يخرج من النار- أعاذنا الله تعالى منها بكرمه - وينقل إلينا الحوار الذي دار بينه وبين ربّ العالمين إلى أن استقر في الجنة.

وخلاصة القصة: أن هذا الرجل - كما هو واضح - أثقل الموحِّدين ذُنوبًا، مات بها

(١) رواه مسلم (٣٠٩) (١٨٦).

(٢) رواه مسلم (٣٠٨) (١٨٦).

ولم يَتُب منها، فأُدخل النار بسببها مع الداخلين، وبعد أن يأمر الله تعالى جميع العُصاة الموحِّدين من النار، يبقى هذا الرجل بين الكفَّار.

ثم تُدركه رَحمةُ أرحم الراحمين، فيأمر بإخراجه من النار، فيخرج منها «حَبوًا» أي: على يَديه ورِجليهِ، أو على يديه وركبتيه، أو على يديه ومقعدته.

وفي رواية: «**يخرج من النار زَحفًا**» والزَّحف: المشي على الإست مع إفراشه بصدره.

وفي رواية: «**يَمشِي مَرَّة ويَكبو مَرَّة،وتَسفَعُهُ النَّارُ مَرَّة**»، وقد تقدّم معنى ذلك قريبًا.

فإذا خرج منها وفارقها، التفت إليها وقال: «**تَبَارَكَ الَّذِى نَجَّانِى مِنْكِ لَقَدْ أَعْطَانِىَ اللَّهُ شَيْئًا مَا أَعْطَاهُ أَحَدًا مِنَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ**»، لعلّه يقصد عظيم فضل الله عليه وسعة رحمة ربِّه به إذ أنجاه من النار، وبينما هو يواصل الحَبو تَارة والمشي أخرى، إذا به يرى شجرة غاية في الحُسن والجمال، فلما رآها قال: «**أَىْ رَبِّ أَدْنِنِى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ فَلأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا**»، «**فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا ابْنَ آدَمَ لَعَلِّى إِنْ أَعْطَيْتُكَهَا سَأَلْتَنِى غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ. وَيُعَاهِدُهُ أَنْ لاَ يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لأَنَّهُ يَرَى مَا لاَ صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا**»، ثم تتوالى نِعَمُ الله تعالى عليه[1].

فبينما هو جالس تحت هذه الشجرة، يستظلّ بظلّها، وينعم بالشرب من مائها إذا به يَرَى شَجرةً أُخرى هي أحسَنُ من التي يَجلس تحتها، فيقول لربِّه: «**أَىْ رَبِّ أَدْنِنِى مِنْ هَذِهِ لأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا وَأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا لاَ أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ أَلَمْ تُعَاهِدْنِى أَنْ لاَ تَسْأَلَنِى غَيْرَهَا؟ فَيَقُولُ: لَعَلِّى إِنْ أَدْنَيْتُكَ مِنْهَا تَسْأَلُنِى غَيْرَهَا؟ فَيُعَاهِدُهُ أَنْ لاَ يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لأَنَّهُ يَرَى مَا لاَ صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا**».

ثم يترادف فضلُ الله تعالى عليه، فبينما هو جالس تحت ظل هذه الشجرة الثانية يستظل بظلها ويشرب من مائها، إذ به يرى شجرة ثالثة عند باب الجنة هي أحسن من الأوليين، فلما رآها لم يُطق صبرًا عنها فقال: «**أَىْ رَبِّ أَدْنِنِى مِنْ هَذِهِ لأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا لاَ أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا.**

فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ أَلَمْ تُعَاهِدْنِى أَنْ لاَ تَسْأَلَنِى غَيْرَهَا؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ هَذِهِ لاَ أَسْأَلُكَ

(١) عند مسلم أيضًا.

غَيْرَهَا. وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لأَنَّهُ يَرَى مَا لاَ صَبْرَ لَهُ عَلَيْهَا فَيُدْنِيهِ مِنْهَا فَإِذَا أَدْنَاهُ مِنْهَا فَيَسْمَعُ أَصْوَاتَ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَدْخِلْنِيهَا. فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ مَا يَصْرِينِي مِنْكَ» وفي رواية غير مسلم: «ما يصريك مني»، أي: أي شيء يُرضيك، ويقطع السؤال بيني وبينك؟ ثم قال له: «اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ، فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهَا». وفي الرواية الأخرى: «لَكَ الَّذِى تَمَنَّيْتَ وَعَشَرَةُ أَضْعَافِ الدُّنْيَا».

وهاتان الروايتان بمعنًى واحد، وإحداها تفسر الأخرى فالمراد بالأضعاف: الأمثال، فإن المختار عند أهل اللغة أن الضعف: المثل[(١)].

وأما قوله ﷺ: «أَيُرْضِيكَ أَنْ أُعْطِيَكَ الدُّنْيَا وَمِثْلَهَا مَعَهَا»، وفي رواية أخرى: «أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ رَضِيتُ رَبِّ. فَيَقُولُ لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ. فَقَالَ فِى الخَامِسَةِ رَضِيتُ رَبِّ. فَيَقُولُ هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ».

فهاتان الرّوايتان لا تُخالفان الأُوْلَيين، فإن المراد بالأولى من هاتين: أن يُقال له أولًا: لك الدُّنْيَا ومثلها، ثم يُزَاد إلى تمام عشرة أمثالها كما بيّنه في الرواية الأخرى، وأما الأخيرة فالمراد بها: أن أحد ملوك الدُّنْيَا لا ينتهي مُلكُه إلى جميع الأرض بل يملك بعضًا منها ثم يكثر البعض الذي يملكه، ومنهم من يَقِلّ بعضه، فيعطى هذا الرجل مثل أحد ملوك الدُّنْيَا خمس مرات، وذلك كله قَدر الدُّنْيَا كُلّها، ثم يقال له: لك عشرة أمثال هذا، فيعود معنى هذه الرواية إلى موافقة الروايات المتقدّمة، ولله الحمد، وهو أعلم[(٢)].

فلما قال الله تعالى له ذلك قال الرجل: «أَتَسْخَرُ بِى وَأَنْتَ المَلِكُ؟».

قال الإمام النووي - رَحِمَهُ الله -: «هذا شكٌّ مِن الراوى، هل قَالَ: أتسخر بي؟ أو قَالَ: أتضحك بي؟ فإن كان الواقع في نفس الأمر: «أتضحك بي» فمعناه: أتسخر بي، لأن السَّاخر في العادة يضحك مِمّن يسخر به، فوضع الضحك موضع السخرية مجازًا.

وأما معنى «أتسخر بي؟» هنا ففيه أقوال:

أحدها: قاله المازرى: أنَّهُ خرج على المقابلة الموجودة في معنى الحديث دون لفظه

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٣/ ٤١٠).
(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٣/ ٤١١).

لأنه عاهد الله مرارًا ألا يسأله غير ما سأل، ثم غدر، فحلَّ غدره محل الاستهزاء والسخرية، فقدّر الرجل أنَّ قول الله تعالى له: «ادخل الجَنَّة» وتردده إليها، وتخييل كونها مملوءة؛ ضربٌ مِن الأطماع له والسخرية به جزاء لما تقدم مِن غدره وعقوبة له، فسمى الجزاء على السخرية سخرية، فقال: «أتسخر بي» أي تعاقبني بالأطماع.

والقول الثاني: قاله أبو بكر الصوفي: أن معناه نفي السخرية التى لا تجوز على الله تَعَالى، كأنه قَالَ: (أعلم أنك لا تهزأ بي لأنك رب العالمين وما أعطيتنى من جزيل العطاء وأضعاف مثل الدنيا حق، ولكن العجب أنك أعطيتنى هذا وأنا غير أهلٍ له)، قَالَ: والهمزة في «أتسخر بي» همزة نفي. قَالَ: وهذا كلام مُنبسط مُتَدلِّل.

والقول الثالث: قاله القاضي عياض: أن يكون هذا الكلام صدر مِن هذا الرجل وهو غير ضابط لما قاله؛ لما ناله مِن السرور ببلوغ ما لم يخطر بباله، فلم يضبط لسانه دهشًا وفرحًا فقاله وهو لا يعتقد حقيقة معناه، وجرى على عادته في الدُّنْيَا في مخاطبة المخلوق، وهذا كما قال النَّبيّ ﷺ في الرجل الآخر أنه لم يَضبِط نَفْسَهُ مِن الفَرَح فقال: «**أنت عبدى وأنا ربك**»[١] والله أعلم» ا.هـ[٢].

وفي الرواية الأخرى قال: «**أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّى وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ؟**» فَضَحِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ أَلاَ تَسْأَلُونِّى مِمَّ أَضْحَكُ فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ قَالَ هَكَذَا ضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ الله؟

قَالَ: «**مِنْ ضِحْكِ رَبِّ العَالَمِينَ حِينَ قَالَ أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّى وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ فَيَقُولُ إِنِّى لاَ أَسْتَهْزِئُ مِنْكَ وَلَكِنِّى عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ**».

وفي هذا إثبات الضَّحك لله عز وجل، وهو ضحك حقيقي، لكنه لا يماثل ضحك المخلوقين، ضحك يليق بجلاله وعظمته، ولا يمكن أن نُمثِّله، لأننا لا يجوز أن نقول: إن لله فمًا أو أسنانًا أو ما أشبه ذلك، لكن نثبت الضَّحك لله على وجه يليق به سبحانه وتعالى[٣].

---

(١) يشير إلى قصّة الرجل الَّذِي ضلَّت راحلته في فلاة وعليها طعامه وشرابه، وفجأة وجدها عند رأسه بعد أن استسلم للموت، فقال ما قال.
(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٣/ ٤٠٩، ٤١٠).
(٣) «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٢٤).

ثم ماذا؟

يخبرنا النبيُّ ﷺ عن حال هذا العبد بعد دخوله الجنة فيقول كما روى مسلم في رواية أخرى: «**ثُمَّ يَدْخُلُ بَيْتَهُ فَتَدْخُلُ عَلَيْهِ زَوْجَتَاهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ فَتَقُولاَنِ: الْحَمْدُ لله الَّذِى أَحْيَاكَ لَنَا وَأَحْيَانَا لَكَ، قَالَ: فَيَقُولُ: مَا أُعْطِىَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُعْطِيتُ**».

قال الإمام النووي: «وأما قولهما: «**الحَمْدُ لله الَّذِى أَحْيَاكَ لَنَا وَأَحْيَانَا لَكَ**» فمعناه: الذي خلقك لنا وخلقنا لك، وجمع بيننا في هذه الدار الدائمة السرور، والله أعلم» ا.هـ[1].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وبخرج هذا العبد المُوحِّد من النار، وبعد أن يستقرّ أهلُ التوحيد في دار النعيم، وأهل الكفرِ والإلحاد في دار الجحيم، يقوم مُؤَذِّن بينهم فيقول: يا أهل الجَنَّة لا موت، ويا أهل النار لا موت، كُلٌّ خالد فيما هو فيه.

عن عَبْدَ اللَّهِ بن عُمر رضي الله عنهما قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**يُدْخِلُ اللَّهُ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَيُدْخِلُ أَهْلَ النَّارِ النَّارَ ثُمَّ يَقُومُ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ فَيَقُولُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ لاَ مَوْتَ وَيَا أَهْلَ النَّارِ لاَ مَوْتَ كُلٌّ خَالِدٌ فِيمَا هُوَ فِيهِ**»[2].

يا رب...

تعطَّف بفضل منك يا مَالك الورَى ... فأنـت مَـلاذي سـيِّدي ومُعـيني

لـئن أبعـدتَني عـن حِمَاك خطيئتي ... فأنـتَ رجائـي شـافِعي ويقـيني

ولـستُ أرى حُجّـة أبتَغِـي بهـا ... رضَـاكَ وإن العَفْـوَ مـنك يَقِـيني

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٣/ ٤١٣).

(٢) رواه البخاري ومسلم.

يا رب...

يَـا رَبِّ إن عَظُمَـت ذُنُوبِـي كَثـرَةً فَلَقَـد عَلِمـتُ بـأَنَّ عَفـوَكَ أعظَـمُ

إن كَـانَ لاَ يَـرجُوكَ إلاَّ مُحسِنٌ فَمَـن الَّـذِى يَدعُـو وَيـرجو المُجـرِمُ

مَـا لِـى إلَـيكَ وَسِـيلَةٌ إلاَّ الـرَّجَا وَجَمِـيلُ عَفـوِكَ ثُـمَّ إنَّـى مُـسلمُ

فاجتهد - يا عبد الله - في فِكاك رقبتك، وإنقاذ نفسك من عذاب النار، بتوبةٍ نصوح، وعمل صالح، ونيّة خاصة.

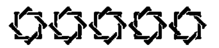
مَضَى أمْسُك الماضي شهيدًا مُعَدلا وأعقبه يـومٌ عليك شـهيدُ

فـإن تـك بالأمس اقترفـت إساءةً فَبَادِر بإحسان وأنـت حميدُ

و لا تُبق فعل الصالحات إلى غدٍ لعلَّ غدًا يأتي وأنت فَقِيدُ

إذا ما المنايا أخطأتْك وصَادَفَت حَمِيمَكَ فاعلم أنَّها سَتَعُودُ

اللَّهُمَّ أحسِن عَاقِبَتَنَا في الأمور كُلِّها
وأجِرنَا مِن خِزي الدُّنْيَا وعذابِ الآخِرة.



الخطبة السابعة عشر بعد المائة:

مَوْتُ الموتِ

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧]. وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنتحدّث اليوم - إن شاء الله تَعَالَى - عن كيفية موت الموت، سائلًا المولى جلّت قدرته أن يجعلني وإيَّاكم مِمَّن يُبادرُ الفَوتِ، ويُرَاقِبُ الموت، ويتأهّب للرِّحلة قبل الممات، وينتفع بما سَمِعَ مِن العظات.

عباد الله...

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدريِّ رَضِي الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُجَاءُ بِالمَوْتِ يَوْمَ القِيَامَةِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ[1]، فَيُوقَفُ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ[2]، فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ هَلْ تَعْرِفُونَ

---

(١) الأملح: الأبيض الخالص، قال الكسائي: هو الَّذِي فيه بياض وسواد، وبياضه أكثر.
(٢) وفي «صحيح سنن الترمذي» (٢٠٧٢): «فيُوقَف عَلَى السُّور الَّذِي بين أهل الجَنَّة وأهل النار».

هَذَا؟ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا المَوْتُ، قَالَ: وَيُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قَالَ: فَيَشْرَئِبُّونَ[١] وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا المَوْتُ، قَالَ: فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُذْبَحُ[٢]، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْت، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ». قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩] وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الدُّنْيَا[٣].

وفي رواية ثانية:

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا صَارَ أَهْلُ الجَنَّةِ إِلَى الجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ إِلَى النَّارِ، جِيءَ بِالمَوْتِ حَتَّى يُجْعَلَ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُذْبَحُ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ يَا أَهْلَ الجَنَّةِ لاَ مَوْتَ، يَا أَهْلَ النَّارِ لاَ مَوْتَ، فَيَزْدَادُ أَهْلُ الجَنَّةِ فَرَحًا إِلَى فَرَحِهِمْ. وَيَزْدَادُ أَهْلُ النَّارِ حُزْنًا إِلَى حُزْنِهِمْ»[٤].

وفي رواية ثالثة:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ يَرْفَعُهُ قَالَ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ أُتِيَ بِالمَوْتِ كَالكَبْشِ الأَمْلَحِ، فَيُوقَفُ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ فَيُذْبَحُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ، فَلَوْ أَنَّ أَحَدًا مَاتَ فَرَحًا لَمَاتَ أَهْلُ الجَنَّةِ، وَلَوْ أَنَّ أَحَدًا مَاتَ حَزَنًا لَمَاتَ أَهْلُ النَّارِ»[٥].

عباد الله...

قوله ﷺ: «يُجَاءُ بِالمَوْتِ يَوْمَ القِيَامَةِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ».

قَالَ الإمام النووي - رَحِمَهُ الله -: «قال المازري: الموت عند أهل السُّنة عَرَضٌ يُضَادّ الحياة. وقال بعض المعتزلة: ليس بعَرَضٍ بل معناه عدم الحياة، وهذا خطأ لقوله تَعَالى: ﴿خَلَقَ المَوْتَ وَالحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢]، فأثبت الموت مخلوقًا، وعلى المذهبين: ليس الموت بجسم في صورة كبش أو غيره، فيتأوّل الحديث على أنَّ الله يخلق هذا الجسم ثم يذبح

(١) يشرئبون: أي: يمدّون أعناقهم، ويرفعون رءوسهم للنظر.
(٢) وفي «صحيح سنن الترمذي» (٢٠٧٢): «فيضجع فَيُذبحُ ذَبحًا عَلَى السُّور».
(٣) رواه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩).
(٤) رواه البخاري (٦٥٤٨)، ومسلم (٢٨٥٠).
(٥) صحيح: «صحيح سنن الترمذي» (٢٠٧٣).

مثالًا لأنَّ الموت لا يطرأ على أهل الآخرة» ا.هـ[(١)].

قوله ﷺ: «**فَيُوقَفُ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ**» يعني: عَلَى السّور الَّذِي بين الجَنَّة والنار، كما في «سنن الترمذي».

قوله ﷺ: «**فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا المَوْتُ، قَالَ: وَيُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قَالَ: فَيَشْرَئِبُّونَ**[(٢)] **وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا المَوْتُ**».

قَالَ الإمام القرطبيُّ - رَحِمَهُ الله -: «الموت معنى،وكذلك الأعمال، ولا تنقلب جوهرًا، بل يَخلق الله تَعَالى أشخاصًا من ثواب الأعمال، وكذلك الموت يخلق الله كبشًا يُسميه الموت، ويُلقي في قلوب الفريقين أنَّ هذا هو الموت، ويكون ذبحه دليلًا عَلَى الخلود في الدَّارين» ا.هـ[(٣)].

قوله ﷺ: «**فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُذْبَحُ**» وفي رواية الترمذي: «**فَيُضْجَعُ فَيُذْبَحُ ذَبْحًا عَلَى السُّورِ الَّذِى بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ**».

قَالَ الحافظ ابن حجر - رَحِمَهُ الله -: «لم يُسَمّ مَن ذَبَحه. ونقل القرطبيُّ عن بعض الصوفية: أنَّ الَّذِي يذبحه: يحيى بن زكريا، بحضرة النَّبيّ ﷺ إشارة إلى دوام الحياة، وعن بعض التصانيف أنه جبريل.

قلت[(٤)]: هو في تفسير «إسماعيل بن أبي زياد الشامي» أحد الضعفاء في آخر حديث الصور الطويل، فقال فيه: «فَيُحيى الله تعالى مَلَكَ الموت وجبريل وميكائيل وإسرافيل ويجعل الموت في صورة كبش أملح فَيَذبح جِبريلُ الكبش وهو الموت» ا.هـ[(٥)].

قوله ﷺ: «**ثُمَّ يُقال**» وفي الرواية الأخرى: «**ثُمَّ يُنادى منادٍ**».

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٨/ ٣١٢).

(٢) **يشرئبون**: أي: يمدّون أعناقهم، ويرفعون رءوسهم للنظر.

(٣) تفسير القرطبي.

(٤) الكلام للحافظ ابن حجر رحمه الله.

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي.

قَالَ الحافظ ابن حجر: «لم أقف عَلَى تسميته» ا.هـ[١].

قوله ﷺ: «يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ».

وفي الرواية الثانية: «فَيَزْدَادُ أَهْلُ الجَنَّةِ فَرَحًا إِلَى فَرَحِهِمْ. وَيَزْدَادُ أَهْلُ النَّارِ حُزْنًا إِلَى حُزْنِهِمْ».

وفي الرواية الثالثة: «فَيُذْبَحُ (يعني الموت) وَهُمْ يَنْظُرُونَ، فَلَوْ أَنَّ أَحَدًا مَاتَ فَرَحًا لَمَاتَ أَهْلُ الجَنَّةِ، وَلَوْ أَنَّ أَحَدًا مَاتَ حَزَنًا لَمَاتَ أَهْلُ النَّارِ».

قَالَ الحافظ ابن حجر - رَحِمَهُ الله -: «قال القاضي أبو بكر بن العربي: استشكل هذا الحديث لكونه يخالف صريح العقل؛ لأن الموت عرض والعرض لا ينقلب جسما فكيف يذبح؟ فأنكرت طائفة صحة هذا الحديث ودفعته، وتأولت طائفة فقالوا: هذا تمثيل ولا ذبح هناك حقيقة، وقالت طائفة: بل الذبح على حقيقته والمذبوح مُتَوَلِّي الموت وكلهم يعرفه؛ لأنه الذي تولى قبض أرواحهم[٢].

قلت[٣]: وارتضى هذا بعضُ المتأخّرين، وقالوا: لو استمرّ ملكُ الموت حَيًّا لنغّص عيش أهل الجَنَّة[٤].

وقال المازريّ: الموت عندنا عرض من الأعراض، وعند المعتزلة ليس بمعنى، وعلى المذهبين: لا يصح أن يكون كبشًا ولا جسمًا، وأنَّ المراد بهذا: التمثيل والتشبيه.

ثم قَالَ: وقد يخلق الله تعالى هذا الجسم ثم يذبح ثم يجعل مثالا لأنَّ الموت لا يطرأ على أهل الجَنَّة.

وقال القرطبيُّ في «التذكرة»: الموت معنًى، والمعاني لا تنقلب جوهرًا وإنما يخلق الله أشخاصا من ثواب الأعمال، وكذا الموت يخلق الله كبشًا يسميه (الموت) ويلقى في

---

(١) يقصدون: ملك الموت عليه السلام.

(٢) الكلام للإمام أبي بكر بن العربي.

(٣) **قلتُ**: وهذا الرّضا منهم ليس مرضيًّا، لأن مَلَك الموت له مَن يساعده من الملائكة، قال تَعَالى: ﴿الَّذِين تَتَوَفَّاهُمُ المَلائكةُ طَيِّبِين﴾ [النحل: ٣٢]، فهل يموتون كَذَلِكَ؟!

(٤) تقدم هذا الكلام قبل قليل.

قلوب الفريقين أن هذا الموت، ويكون ذبحه دليلا على الخلود في الدارين(١).

وقال غيره: لا مانع أن ينشئ الله من الأعراض أجسادًا يجعلها مادة لها، كما ثبت في «صحيح مسلم» في حديث «أنَّ البقرة وآل عمران يجيئان كأنهما غمامتان» ونحو ذلك من الأحاديث.

قال القرطبيُّ: وفي هذه الأحاديث التصريح بأنَّ خلود أهل النار فيها لا إلى غاية أمد وإقامتهم فيها على الدوام بلا موت، ولا حياة نافعة ولا راحة» ا.هـ(٢).

نسأل الله الفوز بالجنة، والنجاة من النار.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وبعد أن قصّ علينا رسولُنا ﷺ قصّة ذبح الموت، بعد أن استقرّ أهلُ الجَنَّة في الجَنَّة، وأهل النَّار في النَّار، قرأ: ﴿**وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾ [مريم: ٣٩] وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الدُّنْيَا.

وفي رواية: وأشار بيده ثم قال: «**أهل الدُّنْيَا في غفلة الدُّنْيَا**»(٣).

قال القاسمي -رَحِمَهُ الله -: «قوله تَعَالَى: ﴿**وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ**﴾ أي: فرغ من الحساب وفصل بين أهل الجنة والنار وصار كلٌ إلى ما صار مخلدًا فيه ﴿**وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ**﴾ أي: وهم اليوم مستغرقون في غفلة عما يفعل بهم في الآخرة ﴿**وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾ أي: لا يصدقون به اليوم وسَيُعاينُونه» ا.هـ(٤).

---

(١) تقدم هذا الكلام قبل قليل أيضًا.

(٢) «فتح الباري» (١١/ ٤٢٨، ٤٢٩) باختصار.

(٣) رواه أحمد.

(٤) «محاسن التأويل» (٧/ ١٠٣).

فيا عباد الله...

اعملوا على مَهَل وكُونوا مِن الله على وَجَل، ولا تغترّوا بالأمل ونسيان الأجل، ولا تركنوا إلى الدُّنْيَا فإنها غدَّارة خدَّاعة قَدْ تزخرف لكم بغرورها وفتنتكم بأمانيها، وتزّينت لخطّابها فأصبحت كالعروس المجلية العيون إليها ناظرة والقلوب عليها عاكفة والنفوس لها عاشقة.

فكم من عاشق لها قتلت، ومطمئن إليها خذلت، فانظروا إليها بعين الحقيقة فإنها دار كثير بوائقها، وذَمَّها خالقُها، جديدهَا يَبْلَى، ومُلكها يَفنى، وعَزيزها يُذلّ، وكثيرها يَقِلّ، وَودّها يموت، وخيرها يفوت.

فاستيقظوا - رحمكم الله - مِن غفلتكم، وانتبهوا مِن رقدتكم قبل أن يقال: فلان عليل أو مدنف ثقيل، فهو على الدواء من دليل، وهل إلى الطبيب من سبيل؟! فَتُدعى له الأطباء ولا يُرْجَى له الشفاء، ثم يقال: فلان أَوْصى ولماله أحْصَى.

ثُمَّ يُقال: قَدْ ثَقُلَ لِسَانه فما يُكلّم إخوانه ولا يعرف جِيرانه، وعرق عند ذلك جَبِيْنُك، وتتابع أنينُك، وثَبَت يَقينك، وطَمحت جُفونكَ، وصَدَقت ظنونك، وتلجلج لسانُك، وبكى إخوانُك، وقيل لك: هذا ابنُك فلان، وهذا أخوك فلان، ومُنعِتَ مِن الكلام فلا تَنطق، وخُتم على لِسَانك فلا ينطلق، ثُمَّ حلَّ بك القضاءُ، وانتُزِعَت نَفْسُك مِن الأعضاء، ثُمَّ عُرج بها إلى السَّماء، فاجتمع عند ذلك إخوانُك، وأُحْضِرت أكفانُك، فَغسّلوك وكفّنوك، فانقطع عوّادُك، واستراح حُسَّادُك، وانْصَرفَ أهلُك إلى مَالَك، وبَقيتَ مُرْتَهنًا بِأعمَالك» [1].

اللَّهُمَّ لا تجعل الدُّنْيَا أكبرَ هَمِّنا، ولا مَبلغ عِلمنا

آمين... آمين... آمين

وآخر دعوانا أن الحَمْد لله رَبِّ العالمين

۞۞۞۞۞

(١) «الإحياء» (٣/ ٢١١).

الفهرس